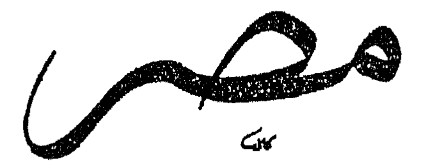
مصر والشرق الأدنى القديم

(٣)



الجزء الثاني
منذ قيام الملكية حتى قيام الدولة الحديثة

الأستاذ الدكتور
محمد بيومي مهران

استاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والآثار المصرية والاسلامية
كليـة الآداب ــ جامعة الاسكندرية

١٩٩٣

دار المعرفة الجامعية
٤٠ شارع سوتير الأزاريطة
الاسكندرية



والحمد لله رب العالمين

والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين
مولانا وسيدنا محمـــد وآله الكرام

«اللهم صلى على محمد وعلى آل محمـــد ، كما صليت على
ابراهيم وآل ابراهيم وبارك على محمد وعلى آل محمد كما
باركت على ابراهيم وآل ابراهيم، فى العالمين انك حميد مجيد»

إهـداء

الى من كان سبب وجـــودى فى هـــذه الدنيـــا
الى من اوصلنى بنسبــه الى الدوحـــة الطـــاهرة
الى من ربانى على حب الله ورســوله وآل بيتــه الكــرام
الى من كنـــت ـ واخـــوتى ـ احــب اليــه من نفســه
الى من غــرس فى نفسى ـ بسلوكه ـ العــزة والكـــرامة
الى من تركنى بجسده ، وبقيت مبادؤه تهدينى سواء السبيل
الى من جعـــل ربى طاعتـــه مـــن طاعـــة الله
الى من اوصـــانى ربى بان شكــــره من شكــــر الله
الى من امرنى ربى بان اخفض له جناح الذل من الرحمـــة
الى من حـــرم ربى نهـــره حتى بكلمـــــة أف
الى من امرنى ربى بان اقــول له دائــما قــولا كــريما
الى من امـــرنى ربى بـــأن أســـاله الرحمــــة له
الى من جعـــل رســول الله بره احب الاعـــمال الى الله
الى من جعـــله رســـول الله سبيـــلى الى الجنـــة
الى من امرنى رســول الله ببره حتى بعـــد لقـــائه لربه
بالصلات عليـه والاستغفار له وانفاذ وعـــده وصلة رحمـــه

الى ابى : رضوان الله عليه

اهدى هذه الدراسة

تقديم

وقفنا فى ((الجزء الاول)) من هذه السلسلة (مصر والشرق القديم) عند قيام الوحدة بين شطرى الوادى ، واتحاد مملكتى الصعيد والدلتا فى دولة واحدة ، وبذا كانت ((مصر)) أول دولة فى التاريخ قاطبة ، تكاملت فيها عناصر الأمة بمعناها الصحيح ، وبعدها كانت ((أول دولة)) موحدة بالمعنى السياسى المنظم ، تظهر على مسرح العالم القديم •

وسوف نتحدث — ان شاء الله — فى هذا ((الجزء الثانى)) عن أقدم ملكية فى تاريخ البشرية أقامها المغاوير من أبناء الصعيد ، بزعامة ((مينا)) العظيم ، فى الالف الرابعة قبل الميلاد ، ثم عن ((الدولة القديمة ، فعصر الثورة الاجتماعية الاولى ، فالدولة الوسطى ، وأخيرا عصر الانتقال الثانى ، وحرب التحرير ضد المتطفلين الهكسوس)) ثم قصة يوسف عليه السلام فى مصر •

وسوف نرى أن مصر قد وضعت فى ((عصر التأسيس)) (عصر الاسرتين الاولى والثانية) الاسس الاولى للحضارة المصرية ، التى سارت على نهجها آلافا من السنين ، وليس هناك من ريب ، فى أنه قد ساعد على ذلك أن القدرة الالهية ، قد حبت مصر عوامل طبيعية ، جعلت أمر الدفاع عنها — فى عصورها التاريخية المبكرة — لا يتطلب منها طول نضال أو كبير جهد ، ولعل هذا هو السبب فى أنها لم تشترك فى حرب طويلة — قبل أيام الهكسوس — تصرفها الى الاهتمام بالسياسة الخارجية ، وان كان هذا لا يعنى — فى الوقت نفسه — أنها لم تجرد حملة ، أو أن قتالا لم يقع عند حدودها ، اذ أن ذلك قد حدث ، وانما يعنى أن ذلك لم يكلفها أكثر من غزوة أو عدة حملات ، لتأديب تلك القبائل الظاعنة أو المرتحلة حول الحدود ، وهو أمر كان فى مقدور أية

حكومة مصرية أن تعالجه ، كاحدى معضلات الامن العادية ، فلم يكن هناك أى تحد لمصر داخل حدودها ، بل انه حتى ذلك الحين ، كان تفوق مصر الحضارى على جيرانها كبيرا ، ومن ثم فلم تكن فى حاجة الى غزو ، وانما كان يكفيها اتخاذ بعض اجراءات لحماية مصالحها ، ولا يتطلب الامر أكثر من ذلك ليستمر وصول التجارة اليها ، وهكذا كانت مصر ــ حتى ذلك الحين ــ تعيش فى هدوء على طول مجرى النيل ، واثقة من أن الله تعالى ، انما جعلها أعظم من غيرها من بلاد الدنيا ، وسيدة ــ دون منازع ــ لكل مكان تصل اليه •

هذا وقد تميز عهد الدولة القديمة ببناء الاهرامات ، حتى عرف هذا العهد بين المؤرخين باسم «عصر بناة الاهرام العظام» ، ذلك لأن الملوك انما قد اعتادوا أن يشيدوا لأنفسهم أهراما يدفنون فيها ، على مقربة من قصورهم على حافة الصحراء الغربية ــ فى ميدوم ودهشور وسقارة، والى حدود الجيزة وأبى رواش ــ واذا أردنا أن نذكر مثالا لهذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة ، فلنذكر هرم «خوفو» الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم «الهرم الاكبر» ، والذى مازال شامخا ، سليم البنيان ، يتحدى الايام ويغالبها ، وينتزع اعجابنا ــ كما انتزع اعجاب الشعوب القديمة جمعاء ــ ويعترف الناس اليوم ــ كما اعترفوا بالامس ــ بأنه ليس واحدا من عجائب الدنيا السبع وحسب ، بل هو عجيبة العجائب ، ذلك لاننا حين نصف الهرم الاكبر ، بأنه من عجائب الدنيا السبع ، فان ذلك يبدو ــ كما يقول جاردنر ــ أقل بكثير من الواقع ، مادام الهرم الاكبر يفوق فى حجمه أى مبنى أقامه الانسان فى تاريخه الطويل ، ومادامت عجائب الدنيا تتغير من عصر الى عصر ، ويظل الهرم الاكبر على رأسها فى كل عصر •

وفى الواقع فلقد اهتم ملوك الدولة القديمة بأهراماتهم كثيرا ، فمثلا «هرم الملك ساحورع» من الاسرة الخامسة ، والذى اختار له منطقة أبو صير الجيزة ، من البدهى أنه لم يكن فى ضخامة هرم الجيزة الاكبر، ولا فى اتقان بنائه ، ومع ذلك فقد استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية،

وعنى بتزيين شعاته وابهاته باعمدة من الجرانيت ، تاج كل منها يمثل حزمة من النخيل ، كما اعتنى المهندسون بكل ما يؤثر على سلامة البناء، فهم متاز لم يسقطوا المطر من حسابهم ، وجعلوه ينساب من مزاريب ، كل منها على هيئــة رأس أسد . تسقط المياه من أفواههــا الى قنوات صغيرة ، عمقوها قليلاً فى الأرض ، ثم تسير المياه منحدرة الى الخارج، اما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى اجزائه المختلفه ، فكانت تسير فى مواسير تحت أرضية المعبد . وكانت هذه المواسير مصنوعة من النحاس ، وملحومة الى بعضها البعض بالرصاص ، وتسير الى خارج المعبد . حيث تصب فى احد الاماكن المنخفضة فى مكان بعيد عن الانظار .

هذا وقد تميز عهد الدولة القديمه كذلك بان وحــدة البلاد بلغت أتمها فيها ، رغم استمرار الملوك فى تسمية انفسهم ((ملوك مصر العليا والسفلى)) . اذ لم يعد هناك نزاع بين الصعيد والدلتا ، مما أدى الى تركيز السلطه فى ايدى الملوك ، الامر الذى ساعد على النهوض بالبلاد، وبلوغها مرحلة ناضجه من مراحل التحضر . ووصلت الاقاليم الزراعية الى حجمهــا الذى استمرت عليه آلاف السنين ، بل وثبتت الاقــاليم الادارية فى الصعيد منذ الاسرة الرابعة ، وحتى نهاية العصور الفرعونيه عند اثنين وعشرين اقليما ، وان كان الامر بالنسبة الى الدلتا انما كان جدا مختلفا ، هذا فضلا عن أن مصر كانت قــد رسمت فى تلك الفترة الخطوط الرئيسية لمعتقداتها الدينية . ونفذت كذلك تقنية الفنون والعمارة والكتابة بشكل كامل .

هــذا وقد بلغ من النحت شأوا بعيــدا ، ومن ذلك التمثال الشهير المنحوت من حجر الديوريت . والذى يمثل الملك ((خفــرع)) جالسا على عرشه ، وقد جسم المعبود ((حور)) على شكل صقر ، خلف رأسه ليحميه، ولاشك فى أن هذا التمثال انما يعد أروع ما نحته المثال المصرى فى أى عصر من العصور ، حتى أن الكثيرين من الفنانين العالميين انما يعتبرون أن هناك تمثالين على رأس روائع النحت البشرى كله ، أولهما : تمثال الملك خفرع هذا ، وثانيهما : تمثال ((ميشيل أنجلو)) والمنحوت من حجر

المزمر ، والذى يمثل السيد المسيح بعد انزاله من الصلب ، وهو يتهاوى فى النزع الاخير بين ذراعى أمه مريم العذراء[1] .

ولعل ذلك كله انما جعل البعض يظن خطأ ، أن حضارة مصر فى عصور الفراعين ليست الا حضارة مادية فى الدرجة الاولى ، وأن هذه الشوامخ الراسيات على أرض الكنانة من الاهرامات والمعابد والمسلات وغير.. من الآثار المصرية ليست الا رمزا على السخرة والاستعباد .

غير أن عصر «الثورة الاجتماعية الاولى» ، رغم انه عصر تدهور سياسى ، الا أنه — من وجهة نظر معينة — انما يعد من أهم العصور فى تاريخ مصر الفرعونية ، فهو العصر الوحيد الذى صور فيه الملك المؤله على أنه انما كان انسانا ، كغيره من بنى البشر يخطىء ويصيب ، كما أنه العصر الوحيد الذى جرؤ فيه شخص من رعايا الفرعون على التشهير به ، فلقد سمحت روح الديموقراطية فى ذلك العصر ، بأن يتقدم رجل من عامة القوم ليقول بملء فيه فى حضرة الفرعون المؤله بأن حكمه انما كان نموذجا للفناء . وهكذا لم يعد الملك بعد الثورة ، ذلك الاله المترفع الجبار ، الحاكم فوق البشر ، وانما غدا انسانا له ما للانسان من ضعف ونزوات ، وحاكما يعمل لخير شعبه ، وأن يكون دائم اليقظة والانتباه حتى لا يؤخذ على غرة بيد آثمة ، شأنه مع شعبه ، وشأن شعبه معه ، شأن أى انسان من كافة البشر ، قد يفعل الخير فيجد خيرا ، وقد لا يجد سوى الشر ، ذلك لأن الملك الذى كان قبل الثورة الها أكثر منه انسانا ، أصبح فيما بعد الثورة ، انسانا أكثر من الها ، ذلك لأن ضعف الملكية على أيام الثورة قد هبط بها كثيرا من عليائها ، كما أن

---

(١) لاشك فى أن هذا التمثال انما يمثل وجهة النظر المسيحية ، والتى تختلف تماما عن وجهة النظر الاسلامية ، ذلك ان القرآن الكريم انما يقول «وقولهم انا قتلنا عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ، مالهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما» (سورة النساء : آية ١٥٧ — ١٥٨) .

الدعوة الى العدالة الاجتماعية قد أدت الى ارتفاع شأن الشعب . ومن ثم فان الفروق بين الملكية والرعية قد قللت كثيرا من هيبتها . أو لم تعد لها تلك الهالة القديمة التى كانت لها فيما قبل الثورة الاجتماعية الاولى .

وهكذا رأى القوم فى عصر الثورة أن يكون الجالس على عرش الكنانة رجلا يخدم مصالح الدولة . ويرعى شئونها . ويعمل على وحدتها . رجلا يمتلىء قلبه بحب رعاياه ، والرغبة فى العمل من أجل مصلحتهم . ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب . وأصبحت تحس باحساسه . وتتفانى فى خدمته . يقول الملك الاهناسى فى نصائحه لولده وولى عهده : ((اكسب الى جانبك الجماهير . وابعد عنها اللهيب . وتذكر أن الشعب الغنى لا يثور ، ومن ثم فلا تفقره حتى لا تدفعه الى الثورة ، لأن الفقير هو الذى يخلق المتاعب ، اعمل على غنى الفلاح وأهل المدينة)) .

وانطلاقا من كل هذا فقد نادت الثورة الاجتماعية فى مصر . بان صلاح الامور فى البلاد انما يتأتى عن طريق حكومة صالحة ، وان انقسم مفكروها فى ذلك الى فريقين ، الواحد . يرى أن ذلك انما يتأتى على يد جيل جديد من الموظفين الامناء الاكفاء العدول ، والاخر : يرى أن ذلك انما يتأتى على يد ملك حازم عادل مخلص مجدد، ينقذ البلاد من الهوة التى تردت فيها .

وفى تعاليم الملك الاهناسى لولده معالم واضحة لفكرة الفريق الاول، الذى ينادى بتكوين جيل جديد من الموظفين الامناء الاكفاء العدول . فالملك ينصح ولى عهده بمبدأ يعتبر من أنبل المبادىء التى تمخضت عنها الثورة الاجتماعية الاولى،اذ يحثه على أن يتحيز الفرد لذاته ، وذلك بأن يبحث عن الكفايات الممتازة فى الاوساط الدنيا والعليا ، وتكوين جيل جديد من هؤلاء وأولئك ، ويحذره من أن يتخذ من الحسب والنسب أساسا للاختيار ، وانما الاختيار يجب أن يعتمد على الكفاية الشخصية فحسب ، ولعل هذا ما نسميه الان ((مبدأ تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين)) ، ثم ينصحه بعد ذلك أن يجعل لموظفيه مرتبات موفورة ، لأن

العفة والكرامة وطهارة اليد واللسان ، والنزاهة فى الحكم ، والقدرة على انفاذ الامور ، لن تكون لرجل جائع يفنى نفسه تفكيرا فى الحصول على قوته وقوت عياله •

غير أن ذلك وحده لا يكفى ، وانما يجب أن يسانده حاكم عادل حازم ، ففى «قصة الفلاح الفصيح» ما يدل على أن ذلك العلاج وحده غير ناجع ، فلقد وقع على مقربة من قصر فرعون فى مجاورات اهناسية المدينة ، اضطهاد غاشم أقدم عليه موظف سيء الخلق ، فى ضيعة المدير العظيم لبيت الملك ، مما يدل على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم ، لا تغرس وحدها العدالة فى نفس صاحبها ، ولن تغنى الفقير شيئا من اضطهاد رجال الحكومة ، وانما يجب أن يصاحب ذلك حاكم قوى حازم يحمى الضعيف من عسف القوى ، ويمنع تلك الطبقة من الموظفين التى تتخذ من صلتها بالحاكمين وسيلة لظلم الناس ، وهكذا تدل قصة الفلاح الفصيح على مدى حاجة الدولة الى حاكم قوى ، عادل حازم ، والى موظفين أمناء أكفاء عدول •

هذا وقد نادت الثورة بالمساواة التامة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات ، وفى تعاليم الملك الاهناسى ما يدل على ايمان القوم بأن الناس سواسية أمام خالقهم ، وأن على الملكية واجبات توازى حقوقها ، وأن كل راع مسئول عن رعيته ، وأن نعم الله التى أسبغها على خلقه انما هى لهم جميعا ، وأن رحمة الله انما قد تداركتهم جميعا وهم مايزالون أجنة فى بطون أمهاتهم ، فالله تعالى قد خلق كل انسان مثل أخيه الانسان ، وجعل الهواء مشاعا بينهم ، كما جعل للفقير ما للغنى من حق فى مياه الفيضان العظيمة ، والفيضان ـ كما هو معروف ـ مصدر الثروة ، وعماد الحياة فى مصر ، ومن هنا كان لهذا النص أهمية كبرى ، اذ أن ذلك انما يعنى أن الله تعالى قد أعطى فرصا اقتصادية متساوية لجميع المصريين ، ولعمرى ان هذا لهو الطريق الصحيح للديموقراطية السياسية •

هذا وقد نجح عصر الثورة الاجتماعية فى تحقيق العدالة الاجتماعية ،

ومن ثم فقد استمر المصريون فى عهد الدولة الوسطى يؤمنون بالعدل الاجتماعى، وحقوق الفرد، وجهد الفراعين على تحقيق رفاهية شعبهم، ونشر العدالة بين أفراده . فهناك نسخ من خطاب اعتاد الملك أن يوجهه مشافهه الى وزيره الاعظم ابان تعيينه ، ويرجع الى عهد الدولة الحديثة ، يقدم الدليل على أن سياسة الدولة أصبحت تسير على مبدأ العدالة الاجتماعية، فالوزارة — أسمى المناصب وأرفعها شأنا — ليس الغرض منها تفضيل الامراء والحكام والمستشارين على العامة من القوم ، كما أنهـا ليست وسيلة لاستعباد الناس ، وانما هى وسيلة لنشر العدالة ، وتنفيذ القانون على المواطنين جميعا ، دونما تفرقة بين قريب أو بعيد . فليس من العدل أن يظلم من لا صلة له بولى الامر ، كما أنه ليس من العدل كذلك أن يظلم الاقربون ، وانما العدل أن يأخذ كل ذى حق حقه ، وأن يكبح ولى الامر غضبه ، حتى يستطيع أن يقوم بالعـدل بين الناس بالقسطاس المستقيم .

وهكذا تتصدر مصر مكانا ممتازا فى هذا المجـال ، فعندما نفحص قوانين حمورابى الشهيرة ، والتى ترجع الى عصر تال ، نجد أن اجراء العدالة انما يشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية ، انه عن نفس الجرم انما تختلف العقوبة والاضرار ، طبقا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد الذى وقع منه الجرم ، وفى تنصيب الوزير المصرى تمحى مثل هذه الفروق ، ويعامل الجميع على قدم المساواة ، وعندما قال «افلاطون» فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ، ربما لم يكن يعلم الا قليلا ، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت ، هذا المثل الأعلى ، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة ، أو أن هذا دليلا آخر على أن افلاطون كان فى مصر ، وأن ذلك رأيا استحوذ عليه هناك .

هذا وقد ظل المصريون — كمـا كانوا قبل الثورة — يؤمنون بأهمية الوسائل المادية ، كطريق للسعادة فى الآخرة ، فالقبر الفخم والهبات السخية من الامور الهامة فى ذلك ، ولكن الثـورة أضافت الى ذلك أن

السعادة فى الآخرة لن تكون بذلك ، وانما بشىء أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى ، وهكذا نادت مصر منذ ذلك الزمن البعيد ــ منذ خمسة وأربعين قرنا ، أن القيم الخلقية يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن المرء ان أراد سعادة فى آخرته ، فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، وبذا تكون مصر أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى ، وأن هذه المعرفة انما كانت تهدف الى خير الناس •

ونادت الثورة ، ولأول مرة فى التاريخ المصرى ، بوجود محكمة بعد الموت ، يقف الناس أمامها جميعا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم ــ خيرا كان أم شرا ــ ولن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقه والقبور الضخمة ، ومايقدم لأصاحبها من قرابين وأدعيات ، وطقوس وصلوات ، وانما سيكتب النجاح فيها لأصحاب العمل الصالح ، وذوى النفوس الطيبة ، وهكذا استطاع المصريون القدامى أن يقتربوا الى حد ما ، من المبدأ السامى الذى قررته كتب السماء ، وهو أن الآخرة انما هى نتاج عمل الدنيا ، وصدق الله العظيم حيث يقول «من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد» •

وقامت الدولة الوسطى فى أخريات الألف الثالثة قبل الميلاد ، لتمثل فترة أخرى من فترات الازدهار فى التاريخ المصرى القديم ، فزاد إتصال مصر بجيرانها ، وأصبحت زعامتها السياسية والثقافية أمرا ثابتا فى غربى آسيا ، حتى أن كثرة الآثار المصرية فى فلسطين وسورية ولبنان من تلك الفترة ، انما دفعت أثريا محنكا مثل «سير ليونارد وولى» الى أن يؤكد أنه لابد من أن هناك حملات أكيدة تمت فى ذلك العصر حتى نلتقى بمثل هذا العدد الذى عثر عليه من الأشياء التى تنتمى الى الأسرة الثانية عشرة•

وأما فى الجنوب ، فلقد أصبحت النوبة جزءا من مصر ، وهناك بردية من معبد الرمسيوم فى طيبة الغربية تقدم قائمة بها ثلاث عشرة قلعة ،

فيما بين أسوان وسمنه (جنوبي وادى حلفا) حيث حدد «سنوسرت الثالث» حدود مصر الجنوبية عند «سمنة وقمة» ، ومنع الابحار منهما الى الشمال الا باذن ، ولهدف التجارة أو العمل ، وقد نفذت هذه السياسة بحزم ، كما تشير الى ذلك الرسائل التى بعث بها من سمنة الى العاصمة الطيبية ، والتى تبين أنه حتى التحركات التافهة لجماعات «المجاى» كان يتم التبليغ عنها ، وتنتهى معظم الرسائل اليومية بالصيغة التقليدية «كل الأمور فى أملاك الملك فى أمن وسلام ؛ وكل شئون مولانا آمنة سليمة» •

هذا وقد استطاع ملوك الدولة الوسطى أن يحققوا لمصر رخاء . تعرفه البلاد منذ الاسرة السادسة ، وأن يسترد ملوكها سيطرتهم الكاملة على حكام الاقاليم ، يبدو ذلك واضحا منذ أيام «أمنمحات الاول» مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، الذى اتبع سياسة جديدة بين أمراء الاقاليم ، منعت التنافس بينهم ، وذلك عن طريق اقامة حدود ثابتة بين كل اقليم وآخر ، كما سن قانونا نظم به نصيب كل اقليم من مياه النيل الخاصة برى الاراضى الزراعية ، هذا فضلا عن تحديد الكمية التى يقدمها كل اقليم من المواد الغذائية ، وعدد السفن اللازمة للاسطول ، وأعداد الرجال للجيش المرابط ، وذلك للمشروعات الملكية فى أقاليمهم أو خارجها ، حيث كان أمراء الاقاليم هم المكلفون بحشد الجند الذين كانوا يكونون فى ذلك الوقت الجزء الاكبر من القوات المسلحة المصرية . وكان من نتيجة ذلك كله ، أنه ما أن أتى عهد «سنوسرت الثالث» حتى كتب له نجحا بعيد المدى فى اعادة المركزية المطلقة للادارة الحكومية ، مركزية أقرب ما تكون الى تلك التى كانت على أيام الدولة القديمة •

هذا وقد عثر فى «اللاهون» من عهد «سنوسرت الثانى» على كمية من الاثاث والادوات والحلى ، تكاد تكون فريدة من نوعها فى أرض الكنانة ، كما عثر كذلك على مجموعة من البرديات التى كتبت بالخط الهيراطيقى تناولت موضوعات مختلفة ، فمن بينها ورقة طبية تتناول أمراض النساء ، وجزازة عن الطب البيطرى ، ثم هناك بردية نستنتج

منها أن المرء يستطيع أن يورث من يشاء ، بيته ومتاعه ووظيفته ، وفى حاله اخرى نرى من بين ما تركه الرجل ، زوجة واربعــه من العامو ، وبضعة عبيد اسيويين ، وكانت مثل هــذه الوثائق تتطلب شهودا من الناحية الرسميه ، وتودع فى مكتب السجلات ، والامر كذلك بالنسبه لعملية احصاء السكان — الأمر الذى عرفته مصر منذ عهد ((وديمو)) من ملوك الاسرة الاولى — اذ كان يتطلب الامر ان يذهب رب الاسرة الى مكتب حكومى يتبع ديوان الوزير فى منطقته ، فيدلى ببيـــان عن افراد أسرته وأعمار اطفاله ، ثم يقسم على صحة بياناته ، كما يقــدم شهودا على ذلك ، وهكذا كانت الحياة الدائبة لهذه المجموعة المحلية الهامة كانت تنظم عن طريق معايير ادارية دقيقة ، نستطيع أن ندرك مداها ومراميها من لمحات فيما بقى من هذه المخطوطات،وأخيرا فقد كانت هناك قصاصات تعليمية لتعليم الانشاء وصيغ الرسائل ، ثم تمارين حسابية ورياضية كان أمتع ما فيها أخذها بطريقة التربيع والجذر المربع ، فضلا عن مسائل تشبه معادلات الدرجة الاولى •

ولعل من الجدير بالاشارة هنــا الى أن مصر قد اهتمت ، على أيام آمنمحات الثالث ، بتنظيم مياه فيضان النيل الزائدة عن الحاجة ، والتى لم تستطع البلاد الافادة منها قبل عهده ، ولقــد آمر الرجل — بادىء ذى بدىء — بتسجيل ارتفــاع النهر عند القــلاع التى انشأها أبوه ((سنوسرت الثالث)) فى ((سمنة وقمة)) ، ثم بدأ يقيم مشروعا للافادة من مياه الفيضان وذلك بأن اتخذ من بحيرة منخفض الفيــوم (تاحنت ان مرور) خزانا طبيعيا ، وبنى سدا يحجز المياه ، ثم يصرفها بمقدار فى أوقات التحاريق ، وذلك باستخدام المجرى الطبيعى — بحر يوسف — الذى كانت تجرى فيه مياه النيل من شمال أسيوط ، عند ديروط ، وكانت المياه تجرى فى بحر يوسف الى الفيــوم عن طريق سدود ، لها عيون لتصريف المياه ، وقد بنى هذا السد عند المدخل الطبيعى للبحيرة ، فى أضيق ممر ينفذ منه بحر يوسف الحالى ، خلال جريانه من النيــل الى منخفض الفيوم ، وقد سمحت الفتحات الجديدة بتوجيه المياه توجيها سليما ، حين تجرى على الانخفاض التضاريسى التدريجى من ضفة النهر

حتى بحيرة الفيوم ، وربما سمحت كذلك بوقف اتجاه المياه الى البحيرة بعد الفيضان ، وتوجيهه الى قناة أخرى تجرى الى الشمال الشرقى منها ، وبذلك أمكن اكتساب ٢٧ ألف فدان من غمر مياه الفيضان ، كانت شيئا كبيرا فى زمانها •

ثم تشـــاء الاقدار أن تصـــاب مصر بنكسة فى أخريات أيام الدولة الوسطى ، وذلك بدخول المتطفلين الهكسوس اليها ، ولكن ما أن يمضى حين من الدهر حتى تقوم ثورة التحرير التى يحمل لواءها المغاوير من أبناء الصعيد ، وتنتهى بطــرد الهكسوس من مصر ، ومطاردتهم حتى « زاهى » فى لبنـــان •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن مصر ، حين لفظت الهكسوس ، انما لفظتهم أغرابا كما دخلوها ، على الرغم من طول اقامتهم فيهـــا ، وعهد ما سوى مصر من الشعوب أن تنزلها الهجرات فتطغى على قوميتها ، أو تمتزج بأهلها ويمتزجوا بها ، وتفرض عليهم حضارتها — ان كانت ذات حضارة — أو تفرض عليهم لغتها — ان أعوزتها الحضارة — وما حدث شىء من ذلك فى مصر ، وانما باعدت مصر ما بينها وبين الهكسوس ، فى لغتها وعاداتها ودينها ، بقدر ما استطاعت •

بقيت الاشارة الى مسك الختام فى هذه المقدمة ، وهى أن الله تعالى قد شرف مصر فى هذه الفترة — موضوع الدراسة — بنعمتين كبريين من نعمه سبحانه وتعالى ، فلقد شرفت أرض الكنانة بزيارة أبى الانبياء ، وخليل الرحمن ، سيدنا ابراهيم ، وبصحبته ابن أخيه لوط النبى ، عليهما الصلاة والسلام ، كما شرفت بقدوم يوسف الصديق عليه السلام اليها ، وهو غلام لما ييفع بعد ، فعاش فيها حتى بعث رسولا نبيا الى أهلها ، ثم ضمت بين ثراها جسده الطاهر الكريم ، كما شرفت بمثل ذلك من أبيه يعقوب ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين •

وهكذا نالت مصر نصيبا وافرا من شرف النبوة ، وكرامة الرسالة ؛

فمن الانبياء من شرفها بزيارة فأقام بين أهلها ، ما شاء الله له أن يقيم، يقول لهم ، ويعلمهم مما علمه الله ، ويهديهم سواء السبيل ، ومنهم من جاءها ، وقد كتب عليه شيء من الرق ، فأكرمه الله حتى كان عزيزها ، وصاحب الامر فى خزائنها ، ثم بعث الى أهلها رسولا نبيا •

والله أسأل أن يكون فى هـذه الدراسة بعض النفع ، والعـزة لله ولرسوله وللمؤمنين •

«وما توفيقى الا بالله عليه توكلت واليه أنيب» •

دكتور

محمـد بيـومى مهـران

أستاذ تاريخ مصر والشرق الادنى القديم

ورئيس قسم التاريخ والاثار المصرية والاسلامية

كلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

الباب الأول

عصر التاسيس

الاسرتان الاولى والثانية

٣٢٠٠ ــ ٢٧٠٠ ق٠م

ويتكون من :

الفصل الاول : مؤسس عصر التاسيس

الفصل الثانى : الاسرة الاولى

الفصل الثالث : الاسرة الثانية

الفصل الرابع : المدن الكبرى فى عصر التاسيس

الفصل الخامس : السياسة الخارجية

الفصل الأول

مؤسس عصر التاسيس

تعددت الاسماء الاصطلاحية لهذا العصر ، وتعددت الآراء حول القرن الذى بدأ فيه ، وحول اسم مؤسسه أو مؤسسيه ، وعاصمته التى استقر ملوكه فيها ، كما تعددت حول المصدر الذى تطورت عنه حضارته، والموطن الاول الذى انتسبت اليه طبقته الحاكمة ، ولنحاول الان الاجابة عن هذه النقاط فى الصفحات التالية :

١ ـ تسمية العصر وتوقيته :

اعتاد المؤرخون أن يطلقوا على هذا العصر أسماء عدة، منها : العصر العتيق : اشارة الى قدمه البعيد ، وزمنه السحيق بالنسبة للعصور التى اعقبته مباشرة،وسميت اصطلاحا باسم «عصور الدولة القديمة» ، ومنها العصر الثينى : نسبة الى «ثنى» القريبة من أبيدوس ، ولان «مانيتو» ـ المؤرخ المصرى ـ ذكر أن «مينا» مؤسس الاسرة الاولى ينتسب اليها ، ولان الاعتقاد كان سائدا أنه على أيام هاتين الاسرتين قد اتخذ الملوك من أبيدوس مثوى أخيرا لهم ، ولان عاصمتهم كانت هناك ، فيما يظن بعض المؤرخين .

ومن أسمائه كذلك أنه : بداية العصور التاريخية ، على أساس ما تمتعت به مصر من وحدة سياسية وحضارية خلاله ، وارتكاز نظمها الادارية على أسس مستقرة دائمة ، ومنها عصر بداية الاسرات ، والعصر الباكر ، ومنها عصر التأسيس والبناء ، وذلك لانهم شاهدوا اختلافا واضحا بين حضارة هاتين الاسرتين ، وحضارة الاسرة الثالثة ، وان كان يبدو أن هذا نتيجة التطور بعد حياة الاستقرار التى سادت هذا العصر .

على أننى أفضل هذه التسمية (عصر التأسيس) الى حد ما ، ذلك لأن عصر هاتين الاسرتين انما يعتبر مرحلة التكوين والتشكيل الحضارى والسياسى للتاريخ والحضارة الفرعونية ، زهاء ثلاثة الاف سنة ، وتم خلال هذا العصر تدعيم الوحـدة السياسية بين الشمـال والجنوب : وتوطدت دعائم الامن والنظام فى أرجاء البلاد ، ووضعت تقاليد الملكية؛ ونظمت الادارات ، كما كان عصر هاتين الاسرتين فترة تدعيم للحضارة المصرية التى وضحت فى عصر الاسرتين الثالثة والرابعة ، وأصبح لها طابعها الخاص الجديد المسمى «المصرى»[1] .

ولعل أهم موضوع بعد ذلك ، انما هو موضوع تحديد بداية الزمن التاريخى لعصر التأسيس ؛ حسبما يراه الباحثون ، والذين يمكن أن نقسمهم الى فرق ثلاثة : فريق يمكن أن نطلق عليهم أصحاب التاريخ البعيد المدى ، وقد جعلوا بداية عصر التأسيس سابقا لعام ٤٠٠٠ق٠م[2] وفريق وسط جعلوه يدور حول بداية القرن الثانى والثلاثين[3] ، وفريق ثالث قصير المدى بدأه فى بداية الالف الثالثة قبل الميلاد[4] .

---

(١) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 44.

(٢) يراه أصحاب هذا الراى ، فيما بين عامى ٥٥٤٦ ، ٤٣٣٦ق٠م، انظر : مرجريت مرى : مصر ومجدها الغابر ص ٤١ ، وكذا W. M. F. Petrie. A History of Egypt, I, 1942. p. 10.

(٣) يراه أصحاب هذا التاريخ فيما بين عامى ٣٥٠٠ ، ٣١٠٠ ق٠م انظـــر : A. Weigall, Histoire de l'Egypte Ancienne; 1949, p. 25.
وكذا H. R. Hall, CAH, I, 1942, p. 267.
وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, 1968, p. 34.
وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt. N.Y, 1964, p. 21.
وكذا A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, p. 430
وكذا W. B. Emery, Archaic Egypt, p. 30
وكذا J. A. Wilson, op. cit., p. 43.

(٤) يراه أصحاب هذا الراى فيما بين عامى ٢٩٨٠ ، ٢٨٥٠ ق٠م انظر : الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٣٨ ــ ٤٩ ،
وكذا H. Kees, Das alte Aegypten, 1956, p. 197.
وكذا W. F. Albright. JEA, 6. 1920, p. 89 F.

وأما موضوع تحــديد الفترة الزمنية التى حــكم فيها ملوك عصر التأسيس ، فهو موضوع معين ، اذ أنه من الممكن أن نلمس تضــارب الآراء فى هــذا الشأن بين علمــاء المصريات ، اذا ما درسنا المدة التى أمضتها الاسرتان الاولى والثانية ، وان كنا لا نجد ــ باستثناء «آرثر ويجال»[٥] و «هـ• ر• هول»[٦] الى حد ما ــ أحدا من المؤرخين يقبل العدد الذى حدده «مانيتو» ، وهو ٥٥٠ سنة للفترة التى تبدأ باعتلاء «مينا» العرش ، وحتى نهاية الأسرة الثانية ، وان كان «والتر امرى» يذهب الى أن مثل هذه الفترة (٥٥٠ ســـنة) لا تبدو مبالغا فيها ، اذا ما استندنا الى الادلة الاثرية[٧] •

ولكن آراء معظم المؤرخين تتجه الى تقــدير فترة عصر التأسيس بحوالى أربعة قرون ــ كما فعل «جيمس هنرى برستد» (٣٤٠٥ــ٣٩٨٠ ق•م)[٨] ــ « وليم هــيز » (٣٢٠٠ ــ ٢٧٨٠ ق• م)[٩] و «ايتين دريوتون ، وجاك فانديه » (٣١٩٧ ــ ٢٧٧٨ ق• م)[١٠] و « أ• س• ادواردز » (٣١٠٠ ــ ٢٦٨٦ ق• م)[١١] ، «سير ألن جاردنر» (٣١٠٠ ــ ٢٧٠٠ ق•م)[١٢] ، وان كان هناك من يذهب الى أن عصر التأسيس لم يستغرق الا فترة قرنين أو قرنين ونصف ، أو حوالى ذلك،مثل «الكسندر شارف» (٢٨٥٠ ــ ٢٦٠٠ ق•م)[١٣] و «بيير مونتيه» (٣٠٠٠ ــ ٢٧٨٠

---

(٥) A. Weigall, Histoire de l'Egypt Ancienne, Paris, 1949, p. 25-28.

(٦) H. R. Hall, The Ancient History of the near East, London, 1953, p. 207, 284.

(٧) W. B. E mery, Op. Cit., p. 29.

(٨) J. H. Breasted, op. cit., p. 21.

(٩) W. C. Hayes, op. cit., p. 34.

(١٠) ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ــ ترجمة عباس بيومى ــ القاهرة ١٩٥٠ ص ١٥٢ •

(١١) I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Period in Egypt, in CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971; p. 1-7; 994.

(١٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 340-433.

(١٣) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٤٩ •

ق.م)[١٤] و «جان يويوت» (٣٠٠٠ — ٢٧٨٠ ق.م)[١٥] .

٢ — مؤسس العصر :

قد يكون نظام تتابع ملوك الاسرة الاولى هو أهم مشكلة حيوية فيما يتصل بتاريخ عصر التأسيس ، وهنا مرة أخرى تشعبت آراء الباحثين ؛ والصعوبة لا تكمن فى نظام تتابع الملوك لاسمائهم الحورية، اذ أن هذا النظام — باستثناء الملكة مريت نيت — يرتكز أساسا على أسس أثرية ، ولا يمكن أن يكون هناك نزاع فى أن الملك المؤسس قد خلفه «دجر» ثم «وادجى» ثم «أوديمو» ثم «عدج ايب» ثم «سمرخت» ثم «قاعا» على التوالى . ولكن الصعوبة وموضوع الجدل انما يكمنان فى التعرف على الاسماء الحورية ، ومطابقتها على تلك التى أوردها «مانيتو» وكذلك على الاسماء التى تظهر فى القوائم الاثرية[١٦] .

ثم قبل ذلك ، من هو مؤسس الاسرة الاولى ؟ أهو «نعرمر» أم «عحا» أم «مينا» ؟ ثم هل «مينا» هو «نعرمر» كما يقترح بعض المؤرخين ؟ أم أن «مينا» هو «عحا» كما يقترح البعض الآخر ؟ أم هو شخصية أسطورية كما يقترح فريق ثالث ؟

١ — زعم فريق من الباحثين — ومنهم أركل — أن الملك العقرب انما هو الملك «مينا» ؛ معتمدا فى ذلك على رأس صولجان فى مجموعة بترى ، ومن ثم فقد ذهب الى أن العقرب انما هو الذى وحد الصعيد والدلتا ، وهو الذى عرف فيما بعد باسم «مينا» ثم خلفه على عرش البلاد «نعرمر» الذى أكمل الانتصار على الدلتا ، واستولى على ميناء اسيوى وصف بالباب الكبير .

---

(١٤) P. Montet, Eternal Egypt, Translated from the French by Doreen Weightman (Annal World Book, Published by the New American Library) 1964, p. XIX.

(١٥) جان يويوت : مصر الفرعونية — ترجمة سعد زهران — القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٨ .

(١٦) W. B. Emery, op. cit., p. 31-32.

ثم يعضد «آركل» رأيه هذا بأن الملك العقرب انما نقش على رأس صولجانه الذى صور فيه مرتديا تاج الصعيد ، قيامه بتحويل مجرى النيل ، تمهيدا لبناء منف ؛ ومن ثم فالرأى عنده أن توحيد الملك العقرب بمينا أمر مؤكد[١٧] .

غير أن هناك عدة عقبات تقف فى طريق قبولنا لهذا الرأى ، منها (أولا) أن الملك العقرب نفسه — رغم اتساع نطاق الانتصارات التى يفاخر بها — فانه لا يزعم أنه كان ملكا على مصر الموحدة — كما أشرنا من قبل — ومنها (ثانيا) أنه لم يدفن فى سقارة جبانة العاصمة منف ، التى يزعم «آركل» أنه قام بتأسيسها ، اللهم الا اذا كانت الارض الطيبة لم تقدم لنا كل ما عندها ، ومنها (ثالثا) أن الآثار التى عثر عليها للملك العقرب[١٨] انما تحتاج الى تدعيم أكثر .

ومنها (رابعا) أن تفسير نقوش رأس المقمعة على أنها تشير الى قيام الملك العقرب ببناء سد لتشييد مدينة منف ، انما هو تحميل للامور فوق ما تطيق ؛ اذ أنه من الواضح أن الملك انما يقوم هنا بحفر قناة لخدمة الاراضى الزراعية . وأخيرا (خامسا) فان الملك العقرب لم يصور أبدا مرتديا تاج الشمال ، ومن ثم فان احتمالية كون الملك العقرب ومينا شخصية واحدة أمر مستبعد[١٩] .

٢ — وزعم فريق آخر من المؤرخين — ومنهم هول — أن مينا (وتقرأ منى) انما كان شخصية أسطورية مركبة ، تجسدت فيها أعمال «نعرمر» و «عحا»[٢٠] .

---

(١٧) A. J. Arkell, was King Scorpion Menes ; In Antiquty. 37, 1963, p. 31-35.

(١٨) W. A. M. F. Petrie, The Royal Tombs, II, 1901, p. 20-21.
وكذا W. B. Emery op. cit., p. 92.

(١٩) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ص ٢٦٩ ، أحمد أمين سليم : دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة أثناء الاسرتين الاولى والثانية ص ٧٩ ، ٨١ .

(٢٠) H. R. Hall, op. cit., p. 104 F.

ويعتقد «الكسندر شارف» أنه هو اسم العرش الخاص بنفس الملك الذى كان الاسم الحورى الخاص به هو «عحا»[٢١] ، ويتفق معه فى ذلك «أدوارد نافيل»[٢١] و «ريمونة فيى»[٢٣] و «فلاديمير فيكانتيف»[٢٤] الذين رأوا أن العلامة الهيروغليفية التى اعتبرت اسما له، لاتدل على اسم اطلاقا — بخاصة أن هذه فى أوائل عصر الكتابة كانت تكتب بشكل مقتضب، يفتقر الى العلامات المخصصة — وانما هى مجرد علامة تصور منصة التتويج ومقعدى العرش ، وهى منصة ذكرتها نصوص الاهرام باسم «منو» ، ومن ثم فهم يرجحون أن كلمة «منى» لم تكن سوى اسم لعرش كان يستخدم فى احتفالات «عيد سد» وان كان «سير ألن جاردنر» يرى غير ذلك ، حين يذهب الى أنه ليس من الحكمة أن ننكر أن هذه الكلمة الهيروغليفية تقرأ «من» ، وأنها تشير الى الاسم الشخصى للملك «مينيس» (مينا)[٢٥] .

٣ — وزعم فريق ثالث أنه لايوجد سوى فرعون واحد أسس الاسرة الأولى ، هو الملك «نعرمر» ، ومن ثم فان الاسماء الثلاثة (نعرمر — مينا — عحا) لملك واحد ، تسمى فى اسمه الشخصى باسم «نعرمر» والاسمان الآخران صفتان علقتا به ، فأما «عحا» فتعنى «المحارب أو المقاتل» اعتزازا بنجاح جهوده الحربية ، وأما «مينا» فتعنى المؤسس (للوحدة ، وربما للعاصمة منف) ، وقد تعنى « المثبت » أو ما يشبهه ، اشارة الى تثبيته أركان دولته ، وقد تعنى «المراعى أو الدائم » كذلك[٢٦] .

---

(٢١) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٤٣ — القاهرة ١٩٦٠ .

(٢٢) E. Naville, Rec. Trav., XXI. p. 110 F, XXIV, p. 114 F; XXV, p. 206 F.

(٢٣) R. weill. Rec. Trav., II, p. 64-65.

(٢٤) V. Vikentiev. JEA, XVII, p. 67 F, ASAE, XXXIII, 1933. p. 208-235, XXXIV, 1934, p. 28-35, LIV, p. 1 F; XLVIII; p. 665 F.

(٢٥) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1964, p. 406.

(٢٦) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ج ١ ص ١٠١ ، ١٠٢ .

ويفسر لنا «الكسندر شارف» هذه النظريه بان اسم الملك «مينا» الذى ذكر على رأس القوائم الملكية التى وصلت الينا من عهد الدولة الحديثة ، والذى تحدث عنه كتاب الاغريق على أنه الملك التقليدى الاول لمصر الموحدة ، هذا الاسم لم يظهر الا مرة واحدة على آثار الاسرة الاولى ، وذلك على أساس أنه الاسم الذى يسبق بلقب «نبتى» لرجل كان اسمه الحورى «عحا» •

وليس هناك من ريب فى أن صاحب هذا الاسم ، انما كان يقبض بيد من حديد على قطرى مصر ، وأن الملك المعروف باسمه الحورى «نعرمر» انما يعتبر فرعـون مصر الذى كتب له نجحا بعيد المـدى فى التغلب عسكريا على مصر السفلى ، وأنه قد خرج من عاصمته «هيراقونبوليس» (نخن = البصيلية) لوضع هذا الهدف العظيم موضع التنفيذ ، وهناك فى «نخن» عثر الحفارون على أهم الآثار الممهورة باسمه — كلوحتـه المشهورة ، ورأس صولجانه •

هذا فضلا عن أن هناك بعض القرائن التى تجعلنا نرجح أن كلا من الاسمين «عحا» و «نعرمر» يطلقان على شخصية تاريخية واحـدة ، اعتقادا بأن «نعرمر» — وهو أحد عبدة الاله حور فى مصر العليا — انما قد أطلق على نفسه اسم «عحا» ، حين تم له النصر على مصر السفلى (الدلتا) بخاصة وأن هذا الاسم انما يعنى فى اللغـة المصرية القديمة «المكافح» (وهو يعنى فى نفس الوقت معنى المنتصر) ، وبذلك يحسن بنا أن نرى فى هذا نوعا من الفخر ، وقد اتخذه لقبا وليس اسما(٢٧) •

غير أن هذا الرأى قد يضعفه أن الاسماء الثلاثة (مينا — نعرمر — عحا لم توجد أبدا على أثر واحد اطلاقا ، وان وجد أثر صغير جمع بين أسمى «مينا» (منى) ونعرمر معا(٢٨) •

= وكذا Jean Vercoutter and others. The Near East, The Early Civilization, London, 1967, p. 261-262.

(٢٧) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٤٤ •

(٢٨) W. M. F. Petrie, op. cit., PI. XIII, p. 92.
J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, I, Paris, 1992, p. 828-831.

٤ — وهناك فـريق رابع يذهب الى أن «نعرمر» انمـا هو الملك «مينا»[٢٩]، ويعتمد هذا الفريق من المؤرخين على أدلة ، منها (أولا) أن لوحة نعرمر التى عثر عليها فى «نخن» (البصيلية) ، يظهر فيها — فى احتفاله بانتصاره العسكرى — وقد لبس كلا من تاج الصعيد الابيض ، وتاج الدلتا الاحمر ، وهو بهذا يمثل حاكم الوجهين — القبلى والبحرى — معا ، وهذا المنظر — وان كان يدل دون شك على انتصاره العسكرى على الدلتا ، واعطائه الحق فى أن ينتحل شعار الحكم الذى كان لخصمه ملك الدلتا المهزوم — فانه لا يجعله بالضرورة الحاكم الشرعى للدلتا .

ومنها (ثانيا) أن رأس صولجان الملك نعرمر ، الذى عثر عليه فى «نخن» يظهره فى منظر احتفال جالسا على عرشه . لابسا تاج الدلتا الاحمر[٣٠] . وقد اقترح البعض أن المنظر انما يمثل احتفالا بزواج يدخل فيه «نعرمر» المنتصر فى تحالف مع الاميرة الشرعية للدلتا ، والتى ربما كانت هى الاميرة «نيت — حتب» ولكن هذا الغرض قد يتسم بأنه معقول جدا ، ولكنه لا يجعل من «نعرمر» الحاكم المقبول لمصر الموحدة ، وبالتالى يكون هـو الملك «مينـا» الذى اعتبرته المصـادر التقليدية ملك مصر الموحدة[٣١] .

ومنها (ثالثا) أن من بين أختام الجرار التى عثر عليها فى «أم القعاب» يوجد واحد يحمل علامات [علامة هيروغليفية] دون أن يسبقها لقب ، وقد عثر عليه مجاورا للقب «نعرمر» الحورى ، وقد اتخذ هذا كدليل على أن «نعرمر» و «مينا» يعدان شخصية واحدة[٣٢] .

(٢٩) P. E. Newberry, Great Ones of Ancient Egypt, London, 1929, p. 37-52.

وكذا E. Drioton et J. Vandier, l'Egypte, 1962 p. 161-162.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 262.

(٣٠) J. E. Quibell, Herakonpolis, I, Pl. XXVIB, XXIX. p. 10, II, p. 40, 43.

(٣١) P. E. Newberry, Menes, the founder of the Egyptian Monarchy, Great Ones of Ancient Egypt, London; 1929, p. 37.

وكذا W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963 p. 33.

(٣٢) W. M. F. Petrie, The Royal Tombs, II, Pl. XIII, 93

وكذا P. E. Newberry, op. cit., p. 47.

ولكن من سوء الحظ ــ كما يشير الى ذلك «فرنسيس للولين جريفث» (١٨٦٢ ــ ١٩٣٤) وكورت هينريش زيته» (١٨٦٩ ــ ١٩٣٤) ــ أن مثل هذا الدليل يقدم لنا لقبين واضحين لـ «حور عحا» ، لا نجد أيا منهما فى قوائم الملوك ، وهناك اعتراضات أخرى من نفس النوع ، وتبعا لهذا فان هذا المعيار عديم القيمة وان كان استبعاده لا يثبت أن «نعرمر» ليس هو «مينا»[٣٣] .

ومنها (رابعا) أنه قد عثر على ختم عاجى صغير فى «نخن»[٣٤] (وهو الان فى متحف الاشموليان فى أكسفورد) يوضح انتصار «نعرمر» على أرض التحنو الليبيين ، وقد كتب اسم الملك كسمكة كبيرة ، لها أذرع آدمية ممسكة بعصا طويلة ، تضرب بها عددا من الاسرى ربطت أيديهم خلفهم ، وتوجد فوقها آلهة الكاب (نخابة) ناشرة جناحيها ، وأمامها الصقر ، كما يوجد على يسار اسم الملك منطقة «أرض التحنو»[٣٥] .

ومن ثم فانصار هذا الرأى انما يذهبون الى أن هذا يتفق مع رواية مانيتو التى تذهب الى أن مينا قد وحد البلاد ، وحارب الليبيين ، ومن ثم فان مينا ونعرمر انما هما شخص واحد ، وان كان ذلك يرد عليه ــ بما أشرنا اليه من قبل ــ من أن آثار نعرمر ، حتى وان أظهرته كقائد عسكرى كتب له نجحا بعيد المدى فى توحيد البلاد ، فليس هذا يعنى بالضرورة أنه قد أصبح الحاكم الشرعى لمصر الموحدة[٣٦] .

ومنها (خامسا) أن قطعة حجر بالرمو الموجودة بمتحف القاهرة ، انما تحمل الاسم الحورى للملك «جر» (دجر) مصحوبا بخرطوش يقرأ «اتيتى» ، وقد ذكر هذا الاسم فى قائمة أبيدوس أنه ثالث ملوك الاسرة الاولى ، ومن ثم فان «حور عحا» قد يكون الثانى ، وأن «نعرمر» كان

(٣٣) W. M. F. Petrie, op. cit., p. 51-52.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 405.
(٣٤) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, PI. XV; 7.
(٣٥) P. E. Newberry, op. cit., p. 50.
(٣٦) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1903. p. 33.

الاول ، وعلى ذلك يكون هو «مينا» ، أى أن (نعرمر) هو (مينا)[٣٧].

وفى الواقع أن هذا الرأى مقبول ، لو أن الكتابة مؤكدة ، وموثوق بها وبصحتها ، أما والامر موضع شك ، فليس هنـاك ما يمنع أكثر من افتراض ، بمعنى آخر ، ليس هناك ما يمنع من أن يكون التتابع على الصورة التالية : نعرمر ، ثم مينا ، ثم عحا ، ثم جر[٣٨].

هذا فضلا عن أن (اتيتى) (Iteti) انما هو (Athothis) الذى وضعـه (مانيتو) كثانى ملوك الاسرة الاولى[٣٩] ، ومن ثم يصبح الملك (جر) ثانى ملوك الاسرة ، والملك (حور عحا) أول ملوك الاسرة ، كما يلاحظ تشابه الاسماء (الثانى والثالث والرابع) فى قائمة أبيدوس ، بشـكل يدعو الى الشك[٤٠] ، وقد ذهب بعض المؤرخين الى أن هؤلاء الملوك انما يحملون نفس الاسم (اتيتى)[٤١] ، وفى هـذه الحالة يصبح الدليـل الموجود على هذا الاثر عديم الفائدة[٤٢].

(٥) وزعم فريق خامس أن الملوك الثلاثة : مينا ونعرمر وعحا ، انما هم ثلاثة ملوك مختلفون ، وأن مينا قد خلف نعرمر ، ثم تلاه عحا ، أى أن التتابع يجب أن يكون على الصورة التالية : نعرمر ، ثم مينـا ، ثم عحا[٤٣] ، وهو رأى — على أية حال — لايوافق عليه معظم الباحثين ، لعدم استناده الى الادلة القوية التى تدعمه.

---

(٣٧) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 14-15.
وكذا W. B. Emery. op. cit., p. 34.

(٣٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٩٩.

(٣٩) H. R. Hall. op. cit., p. 104.

(٤٠) W. B. Emery, op. cit., p. 34.

(٤١) ايتين دريوتون وجاك فانديه : المرجع السابق ص ٦٨٨ ، وانظر كذلك «وليم هيز» حيث قرأ أسماءهم (Ityy)
W. C. Hayes, op. cit., p. 34.
وانظر كذلك «فلندرزبترى» حيث قرأ هذه الاسماء كالاتى :
(Ata, Atta, Teta)
(W. M. F. Petrie. A History of Egypt. I, London, 1924. p. 7).

(٤٢) W. B. Emery. op. cit., p. 34.

(٤٣) = W. F. Albright. JEA. VI. 1920. p. 89F.

(٦) وهناك فريق سادس من العلماء يذهب الى أن (عحا) هــو (مينا)[٤٤] ، ويقدمون على ذلك أدلة ، منها أن (دى مورجان) قد عثر فى عام ١٨٩٧ ، على لوحة من العاج فى مقبرة ضخمة فى نقادة[٤٥] ، قصد بها أن تشير الى تأريخ محتويات اناء كانت معلقة به ، ويرى فى وسط الصف العلوى الاسم الحورى للملك (عحا) (المحارب) ، الذى نلتقى به كذلك على أختام جرار فى المقبرة ، وفى عدة أماكن أخرى ، وتوجــد خلف أل (سرخ) (Serekh) سفينة كان يفترض دون شك أن يسافر عليها الملك ، ونرى فى المتدمة مجموعة من الكتابات الهيروغليفية داخل مايشبه الكشك أو (الجوسق) •

وقد ركزت حول هذه المجموعة مختلف آراء الباحثين ، وليس من الحكمة أن ننكر ــ كما فعل عدد كبير من الباحثين ــ أن الكلمةالهيروغليفية المرسومة تحتها هى رقعة الداما التى تقرأ «من» ، أو أنها تشير الى الاسم الشخصى للملك «مينا» (مينيس)[٤٦] ، وفضلا عن ذلك ، فمقارنة ذلك بعلامة «من» المرسومة بالاسود والاحمر خلف «حور عحا» التى عثر عليها فى أبيدوس ، والتى تعتبر فى حد ذاتها اشارة أخرى ، على أن الملك «حور عحا» هو «مينا» ، انما تؤكد الرأى[٤٧] •

غير أن «سير ألن هندرسون جاردنر» (١٨٧٩ ــ ١٩٦٣) يعترض على هذا الدليل ، فهو ــ فيما يعتقد ــ يتجاهل (أولا) المبنى على شكل «الجوسق» ، والذى كتب بداخله اسم «مينا» ، وهو (ثانيا) يضرب صفحا عن حقيقة صارخة هى أن اللقب بالهيروغليفية للسيدتين يواجه

= CAH. I. 1942. p. 267.

وكذا H. R. Hall. The Ancient History of the Near East, London 1963, p. 105.

(٤٤) James W. Baikie. A History of Egypt. I. London 1928.

وكذا W. B. Emery. op. cit., p. 37.

(٤٥) J. De Morgan, Ethnographic Prehistorique et Tombeau Royal de Negadat, Paris, 1897, p. 154, fig. 518.

(٤٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 406.

(٤٧) W. M. F. Petrie, op. cit., Pl. XI, p. 2.

ناحية اليمين ، بينما القاعدة العامة دائما هى أن يواجـه لقب «حور» واسم الملك الشخصى أحدهما الاخر ، وهناك حجة أخرى تدعـونا الى استبعاد افتراض كون «عحا» هو «مينا»، ذلك أنهما لو كانا شخصية واحدة ، فاننا كنا نتوقع أن نجد «عحا» مذكورا فى «هيراقونبوليس» (نخن = البصيلية) ، بينما لا نجد له فى الواقع أى أثر هناك(٤٨) .

هذا ويقدم أصحاب هذا الاتجاه الذى ينادى بأن «حور عحا» انما هو الملك «مينا» من أدلتهم كذلك ، ذلك المبنى الجنائزى الكبير ، الذى شيده «حور — عحا» فى «سقارة»(٤٩) ، ذلك أن المقبرة (رقم ٣٣٥٧) التى تعتبر أقدم مبنى منذ عهد الاسرات فى سقارة ، ولم يعثر فيها على أية مخلفات أو بقايا للملك «نعرمر» ولهذا أهمية خاصة ، حيث عثر على مبان فى عهد «نعرمر» فى «طرخان» — التى تقع بعيدا الى الجنوب — وهذا يشير الى أنه رغم أن دولة الشمال (الدلتا) قد هزمت ، فانها عند موته لم تكن قد هدأت تماما ، كما يوحى بأن انشاء العاصمة الاستراتيجية الجديدة فى «منف» لم يكن قد تم بعد ، وان كان هذا لا يعنى بالضرورة أن مؤسس العاصمة يجب أن يدفن فيها . وحتى ينتهى الكشف العام عن موقع المدينة ، فانه يكون من غير المنطقى أن نقرر عدم وجود أثر ما للملك «نعرمر» فيها ، فضلا عن ذلك ، فرغم أن منطقة المقابر الكبيرة

---

(٤٨) A. H. Gardiner, op. cit., 407.

(٤٩) سقارة : أهم مناطق جبانة منف ، وتقع على حافة الصحراء الغربية على مبعدة حوالى ٢٥ كيلا جنوبى هضبة الجيزة ، ويغلب على الظن أنها اشتقت اسمها من الاله المصرى القديم «سوكر» اله الموتى ، وتنقسم الى سقارة الشمالية وسقارة الجنوبية ، وتمتد بطول الصحراء عدة كيلو مترات فى مواجهة منف ، وتعد من أغنى المناطق بالاثار — سواء ما اكتشف منها ، أو مازال مطمورا تحت الرمال — وأما أهم آثارها ، فهرم زوسر المدرج ، وأهرامات الاسرتين الخامسة والسادسة ، والتى أشهرهـا أهرام : وناس وتتى وببى الاول ، الى جانب مصاطب لرجال البلاط والموظفـين والنبلاء ، والتى من أشهرها مقابر (بتاح حتب) ، و «تى» و «مرروكا» و «كاجمنى» و «محو» ، وأخيرا فهناك السرابيوم أو مدفن العجـول ومقابر من العصر الباكر ، وجبانات من العصر المتأخر ، والعصر اليونانى الرومانى (الموسوعة المصرية ١/٢٧١ — ٢٧٢) .

للاسرة الاولى قد تم حفرها ، الا أن هناك مناطق مجاورة لها لا تزال تنتظر الكشف عنها[٥٠] ، بخاصة وأنه قد عثر فى حلوان على قطعة من القيشانى على هيئة «السرخ» تحمل على كل من وجهيها اسـم الملك «نعرمر»[٥١] .

(٧) وهناك فريق سابع من المؤرخين — ومنهم (سيرالن جاردنر)[٥٢] و «برنهارد جردسلوف»[٥٣] — يرى أن الملك «مينا» (منى) انما كان الاسبق ، ثم تبعه ولده «نعـرمر» الذى تلقب بلقب «المحـارب عحا» اشارة الى مراحل كفاحه ، وعضد رأيهما بنقوش بطاقة عاجيه ، عثر عليها فى نقادة[٥٤] ، جمعت بين الاسمين (مينا وعحا) ، وقد بدأ كاتبها سطرها الاول باسم «مينا» ثم تبعه باسم «عحا» ، وذلك يعنى رغبة فى تكريم الاول فى عهد الثانى ، ثم تعمد أن يفرق بين الاسمين ، فنسب اسم مينا الى العقـاب والحية ربتى الصعيد والدلتا ، وسجله داخل جوسق مثلث السقف ، يعبر — فى رأيهما — عن جوسق التطهـير أو جوسق التحنيط ، بينما نسب اسم ولده الى الاله «حور» راعى الملكة، ورسمه داخل الاطار المعبر عن واجهة القصر الملكى ، وكأنه أراد أن يفرق بين الاسمين فى الموضع والنسبة ، باعتبار الاول اسما لملك متوفى، استقرت جثته فى جوسق التطهير ، واعتبر الثانى اسما لملك حى استقر فى قصر الحكم[٥٥] .

---

(٥٠) W. B. Emery, op. cit., p. 36.

(٥١) Z.Y. Saad, Royal Excavations at Saqqara and Helwan, (1941-1942). Cairo, 1947. p. 163-165, fig. 239.

(٥٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٣ ،
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 405-407.

(٥٣) M. B. Grdseleff, Notes D'Epigraphic Archaique, ASAE, XLIV, 1944, p. 281-282.

(٥٤) J. De Morgan, Ethnographic Prehistorique et Tombeau Rocal de Negadah, Paris, 1897.
وكذا P. E. Newberry, op. cit., p. 39-42.

(٥٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٣ ،

وهكذا فان كتابة اسم الملك مينا باللقب النبتى انما يشير الى أنه اسم ملك متوفى ، بينما يشير الاسم الحورى على أن الملك مازال حيـا يرزق ، على أساس أن الاسم الحورى انما كان يطلق على الملك أثناء حياته ، ويعيش بعد موته فى اسماء الاماكن والمبانى فحسب ، ومنذ عهد الملك «سمرخت» أصبح الملك الميت يعرف باسمه المسبوق بلقب «نيسو — بيت» مع اسمه المسبوق بلقب «نبتى» ، وبعد ذلك أسقط اللقب النبتى وأصبح اللقب «النسوبيتى» يكون اسما منفصلا قائما بذاته ومن ثم فان القوائم الملكية — فى أبيدوس وسقارة وتورين — انما تذكر أسماء الملوك المسبوقة بألقاب «نيسو — بيت» لان هذه القوائم انما تخص الملوك الذين رحلوا الى عالم الاخرة(٥٦) •

ثم أضاف كاتب بطاقة نقادة — الآنفة الذكر — عناصر أخرى رمزية مختصرة فسرها «سير ألن جاردنر» برغبة الكاتب فى تأريخ البطـاقة بمناسبة معينة ، وهى مناسبة ابحار الملك «نعرمر — عحا» بمركبه لزيارة الجوسق ،الذى وضعت فيه جثة أبيه لتطهيرها أو تحنيطها قبل دفنها(٥٧) ، ومع منطقية هذه التفسيرات ، الا أنها ماتزال فى مرحلة الفروض •

هذه هى أهم الآراء التى أدلى بها أصحابها حول الاسماء الثلاثة (مينا — نعرمر — عحا) ، ولعل العقدة فى كل مشكلة تكمن فيما اذا كان مينا هو نعرمر أو عحا ، وأى من هذين الملكين (نعرمر ، عحا) ، يجب أن يكون الملك الاول فى الاسرة الاولى ؟

وبدهى أنه ليس من السهل اعطـاء حكم نهائى فى هـذه المعضلة — وغيرها من المعضلات العديدة المعقدة التى تتصل بهذا العصر العتيق من تاريخ البشرية — ولعل السبب فى مشكلة التتابع هذه ، أن الاسماء الثلاثة (مينا — نعرمر — عحا) قد اختلطت ببعضها البعض الاخر فى

---

(٥٦) W. B. Emery, op. cit., p. 55.
وانظر : F. Legge, PSBA, 28, 1906, p. 256-263.
وكذا P. E. Newberry, op. cit., p. 48-49.
(٥٧) A. H. Gardiner, op. cit., p. 405-407.

أذهان المصريين فيما بعد ، فمزجوا بينها أحيانا وفصلوها أحيانا أخرى، حتى ضاعت الحقيقة — أو كادت — على مر القرون[٥٨] .

هذا فضلا عن عدم وجود آثار معاصرة مؤكدة لاثنين منهما ، فالملك «عحا» — الذى يدل اسمه على معنى الحرب والقتال — لم يظهر على أثر معاصر له يدل على اشتراكه فى حرب أو كفاح ، أو يدل على نصيبه فى توحيد مملكته .

والملك مينا الذى نسب اليه تأسيس الاسرة الاولى ، لم يترك آثار كبيرة تدل على أهميته كمؤسس دولة ولم تذكره وثيقة معاصرة معروفة على هذا الاعتبار ، الا بعد انقضاء عهد الاسرة الاولى ، بنحو ألف وخمسمائة عام ، حين أوردته قائمة أبيدوس من عهد الملك «سيتى الأول» (١٣٠٩ — ١٢٩١ ق.م) ، من الاسرة التاسعة عشرة — فضلا عن بردية تورين ، التى ترجع الى أيام رعمسيس الثانى (١٢٩٠ — ١٢٢٤ق.م)— الا اذا افترضنا أن قائمة «حجر بالرمو» (من الاسرة الخامسة) قد تضمنت اسمه ، فيما فقدته من أجزائها ، كما يرجح ألن جاردنر ، الذى يرى أن الصف الثانى منها ، انما يبدأ دون شك بالملك مينا ، وان كانت الناحية التى ذكر بها مفقودة[٥٩] .

وأما الملك «نعرمر» فمن الغريب أنه لم يرد فى كتابات المؤرخين القدامى ، الذين تحدثوا عن الملك مينا ، كموحد للبلاد ، ومنشىء أول حكومة مركزية ثابتة ومؤسس أول أسرة حاكمة فى مصر .

ومع ذلك ، ورغم الاختلافات الواضحة بين المؤرخين فى العلاقة بين الشخصيات الثلاث (مينا ونعرمر وعحا) ورغم أن بعض الباحثين قد نسب مينا الى عحا ، بينما نسبه البعض الاخر الى نعرمر ، فاننى أظن — وليس كل الظن اثما — أن الاسماء الثلاثة لملك واحد .

---

(٥٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٩٨ .

(٥٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 408

ان الاجماع الذى تلقاه الفكرة التى ينادى بها المحدثون من المؤرخين من أن الملك «مينا» هو أول الفراعنة ، نادى بها من قبل المؤرخون الاغارقة — من أمثلة هيرودوت[٦٠] وغيره[٦١] — بل ان المصريين القدامى أنفسهم انما قد سبقوا الاغارقة الى ذلك، حين كان الكهنة فى الدولة الحديثة يحملون فى حفلات تتويج الرعامسة، تماثيل «مينا» و«منتوحتب» و «أحمس» ، على اعتبار أنهم انما كانوا يمثلون ثلاثة عصور عظيمة فى تاريخ البلاد ، فكان «مينا» يمثل الدولة القديمة ، على أساس أنه موحد القطرين ، وكان «منتوحتب» يمثل الدولة الوسطى ، على أساس أنه معيد الوحدة ، وكان «أحمس» يمثل الدولة الحديثة ، على أساس أنه محرر البلاد ، ومعيد وحدتها كذلك .

هذا فضلا عن أن كثيرا من قوائم ملوكهم — كقائمة أبيدوس ، وبردية تورين — تبدأ سرد ملوكها بالملك مينا ، كما أن المؤرخ المصرى «مانيتو» قد وضعه على رأس أسرته الاولى ، فارتبط اسمه فى أذهان القوم ببداية العصر التاريخى ، كما أن المصريون أيضا يكتبون اسمه على جعارينهم تيمنا به[٦٢] .

هذا الى جانب أن هذه الفكرة نفسها انما تلقى تأكيدا مقابلا من « حجر بالرمو »[٦٣] المشهور ، ذلك أن الصف العلوى من الواجهة (الصدر) يقدم الاسماء المكتوبة الغريبة الشكل لعدد من الملوك ، ليس لدى صاحب الحوليات من بيانات أخرى عنهم ، وليس من شك فى أن الصف الثانى انما يبدأ بالملك «مينا» (مينيس) وان كانت الناحية التى

---

(٦٠) يروى هيرودوت أن الكهنة المصريين قد حدثوه أن «مينا» كان أول ملك لمصر من البشر ، وأنه اول من حكمها ، واول من اوجد جسر الحماية منف ، ثم تلا الكهنة عليه من ثبت بردى أسماء ثلاثمائة وثلاثين ملكا آخرين بعد «مينا» (انظر : هيردوت يتحدث عن مصر — ترجمة محمد صقر خفاجة ، وتقديم وشرح أحمد بدوى — القاهرة ١٩٦٦ ، الفصول ٤ ، ٩٩ — ١٠٠ ص ٧٢ ، ٢١٢ ، ٢١٣) .

(٦١) Diodorus Siculus, I, 50.

(٦٢) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٦ ص ٢١٠ .

(٦٣) قارن : الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٤١ .

ذكر بها مفقودة ، والمشابهة الموجودة بالنسبة الى ملكين آخرين من الاسرة الاولى ، والمسجلة على القطعة الكبيرة بمتحف القاهرة ، تجعل من المؤكد تقريبا القول بأن اسميه — الحوري والشخصي — كانا موجودين هناك ، ومصحوبين — كما يبدو كذلك — باسم أمه ، أما خانات السنين أسفل العنوان ، فتشير فى كل عام من أعوام حكمه الى حدث فيه ، وان كان يغلب على الظن أن صاحب هذه الاخبار ، ربما لجأ الى الخيال حين كان يتحدث عن هذه الصورة المعنة فى القدم .

وانه ليبدو مما يثير الانتباه ان كان صاحب هذه الاخبار قد ذكر أمر توحيد الارضين صراحة ، فهذا قد كان — على أية حال — الاجراء الحاسم فى أعين المصريين ، ذلك الاجراء الذى حدد أول التاريخ الانسانى ، وانا لنجد له ذكراه فى الكلمات «توحيد مصر العليا والسفلى» و «الطواف حول الجدار» الذى يميز فى حجر بالرمو وغيره العام الاول لحكم كل ملك(٦٤) .

كل هذا وغيره لا يدع مجالا للشك فى أن الملك «مينا» انما كان أول الفراعنة ، وأول ملك عرفه تاريخ البشرية ، وأول ملك لمصر من البشر ، وأول من حكم مصر — على حد تعبير هيرودوت(٦٥) — بعد أن كتب له نجحا بعيد المدى فى توحيد الصعيد والدلتا — أو على حد تعبير المصريين القدامى أنفسهم «توحيد مصر العليا ومصر السفلى» — الامر الذى لم يكن سهلا ، وانما تعرضت فيه البلاد لكثير من الجذب والشد ، كما عرفت حروبا كثيرة ، لا تعرف الرحمة ولا الهوادة ، يدل عليها سيادة ظاهرة السور حول كل مدن هذه المرحلة الخطيرة من تاريخ مصر(٦٦) .

ولعل سؤال البداهة الان : ما هى الصلة بين «مينا» أول الفراعين

---

(٦٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 407-8.

(٦٥) هيرودوت يتحدث عن مصر — ترجمة محمد صقر خفاجة ص ٧٢ ، ٢١٢ .

(٦٦) Janine Monnet-Saleh, Fortresses ou Villes-Protegees Thinites; BIFAO, LXVII 1969, p. 186.

و «نعرمر» الذى ترك لنا من بعده آثارا تدل على أن سلفه «العقرب» قد ترك له شرف حكم مصر الموحدة ؟

تدل آثار الملك «نعرمر» — بما لايدع مجالا للشك — على ذلك ، ولعل من أهم هـذه الآثار « لوحة نعرمر»(٦٧) التى اكتشفها «جيمس ادوارد كويبل» (١٨٦٧ — ١٩٣٥) فى معبد الاله حور ، فى عاصمتـه «نخن» (البصيلية — مركز ادفو بمحافظة أسوان) — والموجودة الان بالمتحف المصرى بالقاهرة (رقم ٣٠٥٥) — حيث تراه يلبس التـاج الابيض لمصر العليا (الصعيد) على أحد وجهى لوحته ، بينما تراه على الوجه الاخر — وكذا على رأس دبوس من «نخن»(٦٨) كذلك ، له نفس الاهمية — يضع التاج الاحمر لمصر السفلى (الدلتا) ، وبالرغم من أن اسمه مكتوب فى أعلى هذا الوجه من اللوحة ، فان الفنان انما أراد أن يؤكد لنا مرة أخرى ، أن ذلك الذى يلبس تاج الدلتا الاحمر ، انما هو الملك «نعرمر» ومن ثم فقد كتب اسمه مرة أخرى أمام وجهه(٦٩) .

---

(٦٧) J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, 1900, Pl. XXIX, Pl. 10; II, 1902, p. 41-43.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 404.

وكذا F. Legge, op. cit., p. 126-129.

وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 7-11.

(٦٨) انظر : V. Vikentiev, JEA, 17, 1931, p. 79.

وكذا J. E. Quibell, op. cit., I, p. 9, II, p. 40-41.

(٦٩) ورد اسم «نعرمر» على بعض آثاره مكتوبا «نعر» فقط ، ولهذا يتردد بعض المؤرخين فى نطق اسمه ، هل ينطقونه «نعـــر» فقط ، أم يتبعون النطق الاكمل والاشهر — وأيضـــا الاصح — «نعرمر» ، وأمـــا «ريموندفيى» فيقترح تقسيم الاسم الى قسمين : «نعر» وهـــو الاســـم الحورى الذى ينسبه الى المعبود «حور» و «مر» وهو اسمه الشخصى ، وذلك على أساس كتابة المقطعين منفصلين فعـــلا فى آثار صاحبها نعرمر هذا ، وأما «فلاديميير فيكانتيف» فقد قرأ الاسم «نعر باثاى» أو «نعر باثاى معبا» أو «نعرى باثاى معبا» ، وأصر على قراءته حتى وفـاته انظر : أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٧٤ ،

وكذا R. Weill, Rec. Trav., XXIX, p. 33-34, Recherches sur la Ire Dynastie et les Temps Prepharaoniques, II, le Caire. 1961, p. 117 F, 157.

وكذا V. Vikentiev, JEA, 17, 1931, p. 67 F, ASAE; LIV; IF; =

ومن الواضح أنه كان أول ملك مصرى يفعل ذلك ، كما أنه من الواضح كذلك أن تلك الحقيقة تجعل من «نعرمر» نفس شخصية «مينا» وهكذا يتفق معظم المؤرخين — أو يكادون — على أن «نعرمر» انما هو أول ملوك الاسرة الاولى ، وأن «مينا» الا اسما آخر له ، وان كنا لم نعثر عليه حتى الان بصورة مؤكدة .

وأما عن صلة الملك «مينا» بـ «عحا» فيثبتهما بطاقة «عحا» التى عثر عليها « دى مودجان » فى « نقادة »[٧٠] ، ومبناه الجنائزى الكبير فى سقارة — ولقد أشرنا اليهما من قبل — وكل ذلك يثبت أن «عحا» انما هو الملك «مينا» .

ولسنا نريد أن نلجأ الى المعادلات الرياضية أو الاستنتاجات المنطقية ، ومع ذلك فلا حرج أن نقرر أنه مادام «مينا» هو «نعرمر» ، ومادام «مينا» كذلك هو «عحا» فان «عحا» و «نعرمر» انما هى شخصية واحدة ، وبالتالى فان مينا ونعرمر وعحا ، أسماء مختلفة لشخص واحد، اسمه الشخصى «نعرمر» ، وكنيته «مينا» و «عحا» .

واذا أردنا تفسيرا تاريخيا لذلك فاننا نستطيع القول بأنه عند بداية التاريخ خرجت جيوش الصعيد من العاصمة «نخن» (هيراقونبوليس = البصيلية) بقيادة الملك « العقرب » واستطاعت أن تهزم الاقواس

= XLVIII, p. 665 F.

وكذا : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

(٧٠) اكتشف «دى موجان» جزءا كبيرا من هذه البطاقة فى حفائره التى قام بها فى «نقادة» فى عامى ١٨٩٦ — ١٨٩٧م ، وقام بنشر وصف كامل للمقبرة ومحتوياتها ، وفى عام ١٩٠٣ م قام «جارستانج» بالحفر هناك ، حيث نجح فى العثور على الجزء المتبقى من البطاقة ، وقد نسب «دى مورجان» مقبرة نقادة هذه الى «عحا» ثم نسبها «جارستانج» الى زوجته «نيت — حتب» ولكنها أصبحت الان تنسب الى حمية أو الى أحد كبار موظفيه (انظر : J. Garstang, in ZAS, XLII, p. 63-64.

وكذا J. Le Morgan, Recherches sur les Origines de l'Egypte, Tombeau Royale de Nagadah, Paris, 1897, p. 154 F.

وكذا

التسعة ، وجـانب من سكان مصر ، ولكن لم توفـق فى لم شمل مصر ـ جنوبا ـ شمالا ـ تحت لواء واحد ، ولم يكتب لقائدها الملك العقرب أن يلبس التاج المزدوج (تاج الصعيد والدلتا) وأن يجلس على عرش مصر الموحدة •

وجاء الملك «نعرمر» فتسلم الراية من سلفه العقرب ، واستطاع أن يتم ما بدأه ، وأن يحقـق النصر على الدلتا ، وأن يتزوج أميرتهـا الشرعية «نيت ـ حتب» التى أطلق عليها لقب «سمات ـ نبوى»[٧١] أى «التى ألفت بين السيدتين» تعبيرا عن دورها فى سياسة التقريب بين البيتين الحاكمين فى الصعيد والدلتا ، والتى كان ملوك الصعيد يحرصون عليها ، ويتبعون فيها طريق المصاهرة وازدواج الالقاب ، والاشتراك فى عبادة الارباب •

وحين تم للملك «نعرمر» كل ذلك لقب نفسه بلقب «مينا» (منى) بمعنى المؤسس للوحدة ، أو بمعنى الراعى لمصر المتحـدة ، أو بمعنى الخالد أو الدائم،ثم بلقب «عحا» وتعنى المحارب والمكافح والمقاتل[٧٢]، وكل ذلك يشير الى معنى المنتصر ، المنتصر على الشماليين أهل الدلتا ، وربما على الاجانب الذين هددوا حدود مصر الشرقية والغربية ، وهكذا فاننى أميل الى أن الاسماء الثلاثة «نعرمر ومينا وعحا» انما هى أسماء لملك واحد ، اسمه «نعرمر» وكنيتيه «مينا» و «عحا» •

---

(٧١) يذهب «فلندرزبترى» الى أن هذا الاسم (نبوى ـ سما) انما هو اسم والد الملكة «نيت ـ حتب» وسلفا مباشرا للملك نعرمر ، زوج «نيت ـ حتب» (نيت ـ حوتب) (انظر : W. F. Petrie, op. cit., II, p. 20)

(٧٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥١ ،نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٠١ ـ ١٠٢ ، وكذا Walter B. Emery, Hor-Aha, Cairo, 1939, p. 99.

الفصل الثانى

الاسرة الاولى

(١) الملك مينـــــا

ينسب «هيرودوت» الى الملك «مينا» (نعـرمر ــ عحا) تأسيس عاصمة لمصر المتحدة ، كما يشير الى ذلك «ديودور الصقلى»[١] مع بعض الاضطراب ، تقول رواية هيرودوت : « حدثنى الكهنة بأن مينا كان أول من حكم مصر وبأنه أوجد جسر الحمـاية ممفيس ، اذ كان النهر كله يجرى بحذاء الهضبة الرملية من الجـانب الليبى ، على حين أن مينا ــ مبتدأ من أعلى ــ قد أنشأ بواسطة السدود الثنية التى تقع جنوبى ممفيس بنحو مائة ستاد ــ وبذلك جفف المجرى القديم ، وحول مجرى النهر لينساب فيما بين الهضبتين ... ولما تكونت للملك مينـا ــ أول ملك للبلاد ــ هذه البقعة التى جفت من الارض بعد عزلها عن الماء ، أسس فيها المدينة التى تسمى «ممفيس» (لان ممفيس تقع فى الجـزء الضيق من مصر) وحفر خارج المدينة بحيرة تخرج من النهر ، وتتجه نحو الشمال والغرب ، (والنيل يحدها من الشرق) ، ثم شيد فى المدينة معبد «هيفايستوس»[٢] ، وهو هائل ، ويستحق بجداره أن نتحـدث عنه[٣] .

وفى الواقـع ليس لدينـا ما ينفى تلك الرواية ، أو ينهض دليلا

---

(١) Diodorus Siculus, I, 50.

(٢) معبد هيفايستوس : معبد بتاح الذى بنى فى الجنوب من ظاهر منف أيام بناء المدينة ، وتعاقب الملوك على تجديده والاضافة فى عمارته (انظر : (A. Badawi, Memphis, p. 12 F

(٣) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢١٢ ــ فصل ٩٩ .

لبطلانها ، بل ان فى تاريخ آل فرعون الطويل ما يشير الى قيام صلة قوية بين ((مينا)) ومنف فمعبودها ((بتاح)) قد نشأت عبادته بنشأة المدينة، وفى أخبار الاسرة التاسعة عشرة (١٣٠٨ — ١١٩٤ ق٠م) من الوثائق ما يسمى ((بتاح)) هذا ((بتاح مينا)) ، وليس من شك فى أن بناء ((منف)) (ممفيس) انما قد استوجب أمورا ، منها صرف مياه النيل عن مكانها ، ثم تجفيفه ورفعه ، وكانت المياه تندفع اليه فتغمره طول العام ، من ذلك الفرع المعروف باسم ((بحر يوسف)) ، فعمد فرعون الى اقامة سد فى طريقه عند المكان المعروف اليوم باسم ((قشيشة)) فتحول ماؤه بذلك الى واحة الفيوم[٤] ٠

ولعل السبب فى انشاء هذه العاصمة الجديدة فى هذا المكان — فيما يرى ((جون ويلسون)) (١٨٩٩ — ١٩٧٦) — أنه لم يكن من المناسب لكل من ((نخن)) عاصمة الصعيد ، و ((بوتو)) عاصمة الدلتا ، أن تصبح مقرا ملكيا دائما ، فعاصمة الصعيد تقع فى بقعة غير خصبة ، وبعيدة الى الجنوب ، قريبا من الحد النهائى لمصر العليا (فى البصيلية شمال محافظة أسوان) ، وعاصمة الدلتا يكاد موقعها يشبه موقع جزيرة وسط المستنقعات الكائنة فى شمال غرب الدلتا[٥] (فى تل الفراعين بمحافظة كفر الشيخ) ، كما أن الرجوع الى هليوبوليس — أقدم عواصم الديار المتحدة — قد يثير فى نفوس الفاتحين والمغلوبين — سواء بسواء — كثيرا من ذكريات الماضى ، حين كانت اليد العليا فيها لاصحاب الشمال٠

ومن أجل هذا فقد كان اختيار ((مينا)) لمكان منف اختيارا موفقا ، حربيا وسياسيا ودينيا واقتصاديا فى آن معا ، فهو قد أقامها قلعة حصينة ضرب من حولها بخنادق الماء ، فالنيل يجرى من شرقها فيحميها، والماء موجود فى غربها فى شمالها ، ثم هى واقعة فى قلب الوطن،يستطيع من يقيم فيها أن يدبر فيها أموره فى سهولة ويسر ، ومنها تستطيع

(٤) احمد بدوى : فى موكب الشمس — الجزء الاول — القاهرة ١٩٥٥ ص ١١٥ ٠

(٥) J. A. Wilson, JNES, XIV, 1955, p. 210 F.

الادارة أن توزع الرزق بالعدل على بقية الاقاليم ، وأن تنظر فى شئونها الاقتصادية فى غير مشقة ، ثم هى لتوسطها أقاليم الديار غدت مع الزمن كعبة الدين والفن[٦] •

وعلى أى حال ، فسواء تلك المدينة (منف) التى ستقوم بدور هام فى تاريخ البلاد ، قد شيدها «مينا» — كما يروى هيرودوت وديودور — أو أنها انشئت فى عصر لاحق لعصر قيام الوحدة ، على اعتبار أن ذلك أمر لايمكن تحقيقه قبل عهد «عدج ايب» — كما يرى «ايتين دريوتون»[٧] (١٨٩١ — ١٩٥٦) — وسواء أصح ما زعمه البعض — من أن «مينا» — كما أشرنا آنفاً — حول مجرى النيل لينشىء العاصمة الجديدة ، أو أن الامر لا يعدو انشاء جسم ضخم يحمى «منف» من غائلة الفيضان، فان اختيار موقع العاصمة قد تم فى نقطة كانت — ولا تزال — تعبر بمثابة المركز التقليدى منذ عصر «مينا» حتى الان •

وينسب هيرودوت — كما أشرنا من قبل — الى «مينا» انشاء معبد للاله بتاح ، وأنه قد أحاط المدينة والمعبد بسور ضخم ، وذلك لحمايتهما من بعض الثورات ، التى ربما يقوم بها أهل الدلتا المغلوبين على أمرهم[٨] •

ويقص علينا المؤرخ «ديودور الصقلى» (حوالى ٨٠ — ٣٠ ق•م) — الذى زار مصر فى عام ٥٩ ق•م — عن فرعون مصر الاول قصصا أسطورية قليلة الاهمية والقيمة العلمية ، ومن الصعب تصديقها ، فيقول : ان الملك خلال رحلة صيد قام بها فى الفيوم ، قد هاجمته كلاب صيد بخيانة ، ولم ينج منها الا بالقاء نفسه فى «بحيرة موريس» ، حيث حمله تمساح الى الضفة المقابلة ، ولكى يحيى هذا الهرب العجيب شيد مدينة هناك ، وكرس البحيرة للتمساح ، ويذكر «ديودور» أن الملك أيضا بنى

---

(٦) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ١١٥ — ١١٦ •
(٧) ايتين دريوتون وجاك فاندييه : مصر ص ١٥٤ •
(٨) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 51.
وكذا R. S. Poole, The Cities of Egypt, London; 1882, p. 19

هرما ليدفن فيه بجوار هذه البقعة ، كما يذكر أن المصريين قد تعلموا ؛ أول ما تعلموا ، كيف يعبدون الآلهة ، وكيف يعيشون فى حالة متحضرة؛ وربما كان ذلك صدى لاعمال التهدئة التى قام بها نحو البلاد بعد فترة طويلة شاعت فيها الفوضى والمذابح خلال الكفاح من أجل الوحدة •

ويذهب المؤرخ المصرى «مانيتو» — طبقا لرواية افريكانوس — أن الملك العظيم قد مات فى السنة الثالثة والستين من حكمه ، بسبب الاصابات التى لحقته من فرس النهر ، وليست هذه الرواية — على أية حال — غير محتملة ، ذلك لان صيد فرس النهر ، انما كان رياضة شغف بها ملوك الاسرة الاولى ؛ ومع ذلك فربما كانت هذه الرواية رواية أخرى بديلة لقصة التمساح التى ذكرها «ديودور الصقلى»(٩) •

(٢) الملك جـــــر

ورث «جر» العرش عن أبيه «مينا» من زوجته الثانوية «حبت» ، وليس من الملكة «نيت — حوتب» — أميرة الدلتا الشرعية — وربما كان «جر»(١٠) هذا هو الحـاكم الثانى الذى ذكـره «مانيتو» تحت اسم «أثوثيس» ، وأنه حكم سبعة وخمسين عاما ، وبنى قصرا فى منف ؛ وأما اسمه «جر» أو «دجر» ، فينطق أحيانا «خنت» وأما اسمه كحاكم فهو «انيت» أو «اتى» (تى) ، واذا صحت هذه القراءة فمن المحتمل ترجمتها بمعنى «الوالى» أو بمعنى «القاطع» أو «الصاحن» — فيمـا يرى «فلندرز بترى» و «ريموند فيى»(١١) •

---

(٩) Diodorus of Sicily, The Library of History, Trans. by G. Oldfather. I, London, 1933, p. 50 F.

وكذا W. B. Emery, op. cit., p. 52-53.

(١٠) تتفق الاثار على ترتيب ملوك الاسرة الاولى بعد مينا كالتالى: (جر — جت — دن — عدج ايب — سمرخت — قاعا) ، هذا وهناك قطعة من الشست من سقارة تحمل الاسماء النسوبيتية للملوك الاربعة الاواخر : (انظر :

J. P. Lauer, La Pyramide a Degres Tome, III, Le Caire, 1939, Pl. XIX; p. 74.

(١١) R. Weill, op. cit., II, p. 159.

وكذا W.M. F. Petrie, RI, II, XV, p. 109.

هذا وقد اكتشفت للملك «جر» (ZER) مقبرتان ، الواحدة فى أبيدوس ، وهى رمزية ، والاخرى فى سقارة ، وهى حقيقية ، هذا وقد ظن المصريون القدامى منذ الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق٠م) أن مقبرة جر فى أبيدوس انما هى مقبرة «أوزير» عندما قرأوا اسم «جر» «خنت» ، ثم خلطوا بين هذا الاسم وبين اسم المعبود «خنتى امنتى» ، ولما شبهوا «أوزير» بـ «خنتى امنتى» اعتبروه قبرا له ، وأضافت نصوصهم أن روح أوزير تعيش فى خميلة غناء بأرض بكر على شاطىء النيل قرب أبيدوس[١٢] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أنه يحيط بمقبرة « جر » الرمزية عدد ٣٣٤ قبرا ، وقد عثر بها على سبعين لوحة جنزية ، جل أصحابها من النساء ، مما دفع البعض الى القول بأن كثرة القبور المحيطة بمقبرة هذا الملك انما تعنى ذبح أفراد حاشيته بقصد خدمته فى العالم الآخر[١٣] ، وهذا أمر ليس هناك ما يؤكده ــ على كل حال ــ فليس من دليل قوى يسنده سوى بعض الحالات التى تحتمل أكثر من تفسير •

وهناك فى احدى المقابر التى كشف عنها «والترمرى» (١٩٠٣ ــ ١٩٧١م) فى شمال سقارة[١٤] ، وهى تنسب لملكة تدعى «مريت ــ نيت» عثر على هياكل عظمية لذكور بالغين موسدين القرفصاء ، ووجوههم جميعا الى ناحية واحدة[١٥] ، ولم يلاحظ «امرى» وجود أى أثر العنف على البقايا التشريحية ، ولا يشير وضع الهياكل بأية حال الى وجود حركة بعد الدفن ، ومن ثم فانه يبدو من المحتمل أنه حين تم دفن هؤلاء الافراد ، فان ذلك حدث بعد موتهم ، وليس هناك ما يشير الى دفنهم

---

(١٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١١٢ ، عبد العزيز صالح المرجع السابق ص ٢٨١ ، الموسوعة المصرية ١١٨/١ •

(١٣) انظر عن «التضحية البشرية» (محمد بيومى مهران : اسرائيل الكتاب الاول ــ التاريخ ــ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٦٣ ــ ١٧٤) •

(١٤) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 66-67.

(١٥) A. H. Gardiner, op. cit., p. 409-10.

أحياء ، وعـدم وجود آثار للعنف ، يوحى بأنهم قتلوا بالسم قبـل الدفن[١٦] .

وعلى أى حال ، فان هذه العادة لم تكن شائعة فى مصر ، وترجع أصلا الى تأثير أفريقى فى عصور ما قبل التاريخ ، ثم استمرت بشكل عرضى فى الازمنة التاريخية المبكرة[١٧] ، ولكن سرعان ما أقلع المصريون عن هذه العادة الهمجية ، فاذا كانت قد وصلت الى ذروتها فى عهد الملك «جر» فقد وصلت الى بداية النهاية فى عهد الملك «قاعا» (قع) ، اذ لم يوجد حول مقبرته سوى ست وعشرون مقبرة مساعدة[١٨] .

وليس لدينا عنها فى عهد الأسرة الثانية سوى اشارة من عهد الملك «خع سخموى» ، اذ قدر «جورج رايزنر» (١٨٦٧ ــ ١٩٤٢) المقـابر المساعدة حول مقبرته بأبيدوس ما بين عشرة وخمس عشر مقبرة[١٩] ، وأخيرا فلعل من أسباب توقف هـذه العادة البربرية ــ أو على الاقل ندرتها فى الاسرة الثانية ــ انما كان انتشار السحر ، واحـلاله محل الشعائر القديمة[٢٠] .

هذا وقد تميز عهد الملك «جر» بعدم وقوع أية اضطرابات داخلية ، كما تميز كذلك بتقدم الفنون والصناعات ، وبأن الملك قد قام بزيارة الى بلدتى «تل الفراعين» وسايس ، وهما المدينتان المقدستان فى الدلتا[٢١] .

(١٦) W. B. Emery, Great Tombs, II, p. 142.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 58.
وكذا W. M. F. Petrie, The Royal Tombs, I, Pls, 31-36. II, Pls. 26-30.
وكذا G. A. Reisner, op. cit., p. 121.

(١٧) R. El-Nadowry, Human Sacritice in the Ancient Netr East, PASA, 1968, p. 5.

(١٨) W. M. F. Petrie, Tombs of the Courtiers and Oxyrhynkhes, London, 1925, p. 3.

(١٩) G. A. Reisner, The Development of the Egyptian Tomb, Oxford, 1936; p. 128.

(٢٠) JNES, 17, 1958, p. 194-203.

(٢١) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 59.

(٣) الملك جت

تدل آثار الملك «جت» (وادجيت) على أن مصر قد وصلت في عهده ى درجة لا بأس بها من الرقى ، وبخاصة لوحته الجنزية التى عثر ليها فى مقبرته بأبيدوس[٢٢] ، والتى يمكن اعتبارها أول عمل عظيم ، الفن المصرى ، وصلنا من مصر القديمة[٢٣] ، وهى توضح كمالا فى تصميم والصناعة تعذر التفوق عليه فى العصور التالية ، وهى الان ن أعظم كنوز المجموعة المصرية فى «متحف اللوفر» بباريس ، وقد مدتنا المقبرة الشمالية فى سقارة أيضا بقطع أثرية لها قيمتها الفنية لهامة ، لاسيما تلك المصنوعة من الخشب المنقوش والاثاث وقطع اللعب لمصنوعة من العاج[٢٤] .

هذا وقد عثر على اسم الملك «جت»[٢٥] على صخرة طبيعية فى أحد لاودية الواقعة فى الصحراء الشرقية ، والتى تربط ادفو بالبحر الاحمر ، هو الدرب المار بوادى مياه ، والذى ظل مستخدما طوال العصور ، سواء للتجارة ، أو للحصول على معادن تلك المنطقة ، وبخاصة الذهب ، ولعل وجود اسم هذا الملك هناك انما يشير الى احدى البعثات التى أرسلت الى مناجم تلك المنطقة ، وربما الى شاطىء البحر الاحمر[٢٦] .

---

(٢٢) W. M. F. Petrie, The Royal Tomlis of the Fiist Dynasty, I, London, 1900, Pl. LXI.

(٢٣) نسبت للملك (ت) مقبرة فى نزلة البطران جنوبى الجيزة ، ولكن نسبتها اليه موضع شك ، وربما تخص زوجته التى لانعرف اسمها (ASAE, 6, 1906, p. 99 F)

(٢٤) W. B. Emery, op. cit., p. 69-70.

(٢٥) قرىء اسم هذا الملك (جت) و (وادجيت) (الثعبان) و (اجو) و (نيمو) و (جانى) و (اتى) و (اترتى) (عين المحرابين) انظر : عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٦ ،

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 401.

وكذا ASAE, XLIV, p. 282 F.

وكذا W. M. F. Petrie, op. cit., p. 8.

(٢٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٧٩ .

(٤) الملك وديمــو

نطق اسم هذا الملك «دن»[٢٧]،ثم قرأه «كورت زيته» (وديمو)[٢٨]، وان كان النطق الاول (دن) فيما يرى بعض الباحثين ـ أفضل ـ هذا وقد قرأه «ريموند فيى» (وجيمو)[٢٩] ، بمعنى حافر الترع ، وربمـا بمعنى واهب الماء ، وقد سمى هذا الملك كذلك «زمتى» أو «سمتى» بمعنى الصحراوين ، أو المنسوب الى الصحراوين ثم حرفه أهل الدولة الحديثة الى «حسبتى» ثم حرفة « مانيتو » الى « أو سافايدوس » أو «اسافيس»[٣٠]،ويعتبر «وديمو» (دن) من أشهر ملوك الاسرة الاولى.

وقد تميز عصره بتقـدم العمارة ، كما أصبحت الوثائق والمـواد التاريخية أكثر وضوحا ، كما بدأت تظهر أدلة تاريخية أقرب الى الحقيقة، منها ما أكده نص وجد مكتوبا على أثر حجرى فى هرم سقارة المدرج من تسلسل «وديمو» وخلفائه فى الاسرة الاولى على العرش ، حيث حفرت عليها الاسماء الثـانوية للملوك «وديمو» و «عـدج ـ ايب» و «سمرخت» و «قاعا» فى تسلسلهم المتفق عليه ، كما عرفنا عنه الكثير من مقابر معاصريه ، ومن حجر بالرمو ، كما أنه اتخذ لنفسه لقبا جديدا باستخدام نبات السوت رمزا للصعيد ، والنحلة رمزا للدلتا[٣١] .

هذا وتدل آثاره أنه كان عظيم النشاط ، اذ حارب البدو الذين فى شرقى مصر ، كما أن ذكراه ظلت عالقة فى الاذهان فى العصور التالية ، فسجلت بردية «ايبرس الطبية» وصفة طبية تعزى الى هذا الوقت ، وترجع الى الوراء حوالى ١٥٠٠ سنة ، كما أن الفصل الرابع والستين

= وكذا J. J. Clere, un Graffito du Roi De jet dans le Desert Arabique, ASAE, 38, 1938, p. 85-94.

(٢٧) ASAE, 28, 1928, p. 153 F, 44, 1944; p. 287.

(٢٨) K. Sethe, ZAS; LIV, p. 50 F, 137 F.

(٢٩) R. weill, Recherches sur la Ire Dynastic et les Temps Prepharaoniques, Le Caire, 1961, II, p. 121 F.

(٣٠) Rec. Trav. XXIX, p. 26.

وكذا JEA, 29, 1943, p. 75-76.

(٣١) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 73-74.

من «كتاب الموتى» يعزى الى حكمه ، ومن أشهر القطع التى حصلنا عليها من مقبرته فى أبيدوس غطاء صندوق من العاج لابد أنه كان فى الأصل معدا لحفظ خاتمه الذهبى المخصص للاحكام،حيث كتب عليه مايفيد ذلك.

وأما أهم آثار عهده فهو مقبرة ضخمة فى سقارة تنسب الى عظيم من عهده يدعى «حماكا» كان يشغل وظيفة كبير القضاة ، وله مكانة مرموقة ويحمل لقب «المسيطر على قلب الملك» ، كما أن هناك موظفا آخر من كبار موظفى هذا العصر يدعى «عنخ كا» وقد كشف فى سقارة فى عام ١٩٣٦ على مقبرة كبيرة ظن حينذاك أنها مثوى «حماكا»(٣٢) .

ولكن الاكتشافات الحديثة فى مقبرة أخرى فى سقارة قد بنيت على وجه اليقين — خطأ هذا الظن ، وأن هذه المقبرة انما هى المقبرة الشمالية للملك «وديمو» ، وهى — على أية حال — أكبر مقبرة فى عصر هذا الملك وحجمها أكبر بكثير من حجم مقبرة «وديمو» الجنوبية فى أبيدوس(٣٣).

هذا وهناك ما يشير الى اجراء تعداد فى عهد الملك «دن» (وديمو) — لأول مرة فى التاريخ(٣٤) — وليس من الواضح الغرض من هذا الاحصاء فقد يكون احصاء للارض الزراعية وموارد الناجم ، وقد يكون احصاء للسكان وممتلكاتهم ، وقد يكون احصاء للماشية لتقدير نصيب الدولة فيها ومن جلودها ، كما نصت على ذلك صراحة نصوص الدولة القديمة(٣٥) .

وقد احتفل «وديمو» «بعيد السد» أو «حب سد» — على حد تعبير المصريين القدامى — وربما يعنى «عيد النهاية» نهاية فترة حكم معينة ، وبداية فترة جديدة ، أو «العيد الثلاثينى» ، اذ كانت العادة أن يقام

---

(٣٢) W. B. Emery, and Z. Y. Saad, The Excavations of Saqqara, The Tomb of Hemaka, Cairo, 1938.
(٣٣) W. B. Emery, Archaic Egypt, (a Pelican Book), 1963, p. 74-80.
(٣٤) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 106.
(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٠ .

عيد بمناسبة مرور ثلاثين عاما على جلوس الفرعون على العرش المصرى، أو من بداية اختياره لولى عهده •

هذا ويبدو أن فكرة هذا العيد انما ترجع الى العصور البدائية حين كان الناس يتمثلون فى الحاكم قوة تهيمن على مظاهر الطبيعة وترتبط بها ، بحيث يتحتم عليهم التخلص منه بعد مرور ثلاثين عاما على بداية حكمه عن طريق قتله ، حتى لا تتأثر مظاهر الطبيعة بشيخوخته وضعفه، فتقل المحاصيل ، ويضعف نتاج الماشية ، ومن ثم فقد كانوا يسارعون بقتله ، واحلال قوى صحيح الجسم ، خلوا من مظاهر الضعف فى مكانه •

وقد افترض «هنرى فرانكفورت» (١٧٩٧ — ١٩٥٤) أن الذى يحدد «عيد سد» (Sed Festival) انما هو حالة الملك الصحية وليس هناك ما يدعو الى تحديد عدد من السنين عندما يقوم الملك بالاحتفال بهذا العيد ، ومن ثم فقد احتفل الملك «تحوتمس الرابع» (١٤١٣ — ١٤٠٥ ق•م) بعيدين فى أقل من عشر سنوات ، بينما انتظر ولده «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق•م) ثلاثين سنة ، وربما كانت حالة «تحوتمس الرابع» الصحية هى التى دفعته الى الاحتفال بهذا العيد ، وعلى أى حال ، فلم ينتظر حفيده «أمنحتب الرابع» (اخناتون ١٣٦٧ — ١٣٥٠ ق•م) طويلا للاحتفال بعيد سد ، فقام باعادة تجديد الاحتفال بالعيد فى العام الثانى عشر ، والخامس عشر •

هذا وماتزال طبيعة أعياد سد غامضة ، وان كان من الواضح أنها تحيى فى صورها تجديد القوة الملكية،فبعد أن كان القوم يقتلون الحاكم الشيخ فى عصورهم البدائية،أصبحوا منذ الاسرة الاولى — على الاقل — يعتقدون أن الملك يستطيع أن يحصل على سنوات أخرى باسترضاء الآلهة عن طريق طقوس ومراسيم خاصة ، وعن طريق تشييد المعابد أو الهياكل ، كما كان يؤتى فى الاحتفال بصور لمختلف الآلهة الاقليمية الى العاصمة[٣٦] •

---

(٣٦) = ASAE, XLII, p. 29 F.

وقد عثر على بطاقة للملك «دن» (وديمو) فى أبيدوس توضح بعض مراحل هـذا العيد ، فيظهر فى هذه البطـاقة الملك دن مرتديا التـاج المزدوج ، ويقوم ببعض الطقوس فى ساحة مسورة ، وان كان «ببير مونتيه» يذهب الى أن هذه البطاقة انما تعبر عن الاحتفال بالطواف حول أسوار منف[٣٧] .

هذا وتوضح بطاقة عاجية ترجع لعهد الملك دن كذلك اسم هذا العيد، وشكل قاعدة المنصة التى يقبلها الملك فى هذا الاحتفال ، ويبدو من المنظر أن للمنصة سلمين يؤديان الى سطحها ، الذى فوقه مظلتان متجاورتان، الواحدة لعرش الصعيد ، والاخرى لعرش الدلتا[٣٨] .

(٥) الملك عـدج ـ ايب

خلف «وديمو» على العـرش الملك «عدج ـــ ايب» ، وكان اسمه المسبوق بلقب «نيسو ـــ بيتى» هو «مربابن» ، وهو عند «مانيتـو» (ميبدوس) ، وقد كان على رأس قائمة سقارة ، مما يدل على أنه أول حاكم صعيدى تعترف به الدلتا[٣٩] ، كما كان يذكر فى السرخ الملكى بين ذراعين مقدسين ، اشارة الى السند والحماية[٤٠] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى تناول اسم «عدج ـــ ايب»

= وكذا H. Frankfort, Kingship and the Gods, Chicago, 1948. p. 79.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., p. 105.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 207.
وكذا E. L. Griffith, JEA, 5, p. 61-64.
وكذا H. Gauthier, le Temple d'Amadc, Pls. XXIX, 133, 136
وكذا W. B. Emery, op. cit., p. 74.
وكذا C. G. Seligman, Egypt and Negre Africa, 1934.

(٣٧) P. Montct, Eternal Egypt, Translated from the Frensh by Doreen weightman, An Nae Book Published by the New American Library, 1904, p. 45.

(٣٨) B. Gunn, Inscriptionc from the Step Pyramid Site, ASAE, 28, 1928, Plc. 1-2, p. 158.

(٣٩) W. B. Emery, op. cit., p. 80.

(٤٠) A. Moret, Le Nile et ia Civilication Egyptienne, fig. 32.

أو «عنجاب» (وان كان ريموند فيى يفضل قراءته «عنخ سن»)[٤١] بالكشط أو المحو ، بواسطة خلفه «سمرخت» — كما يبدو ذلك واضحا على بعض قطـع من أوان مصنوعـة من الالبستر[٤٢] ، وأخرى من الكريستال فى أبيدوس[٤٣] — وان كان «سمرخت» بدوره قد أزيل اسمه من قائمة سقارة ، مما يوحى بنزاع بين أفراد الاسرة المالكة على عرش الكنانة[٤٤] .

ولعل السبب فى ذلك أن «عدج — ايب» انما قد انتزع هذا العرش من «سمرخت» الذى كان يعتقد أنه أحق بولاية العرش بعد «وديمو»، وربما لان أمه انما كانت أكثر شرعية من أم «عدج — ايب» ، وأيا ماكان السبب ، فان هناك مطالبين بالعرش ، عضد الواحد منهما الصعيد ، وعضدت الدلتا الاخر ، وان لم تكن من نتـائج ذلك انقسام معين فى وحدة القطرين خلال حكم «عدج — ايب» — على الاقل —[٤٥] .

وعلى أية حال ، فان قائمة الملوك فى سقارة قد بدأت بالملك (عدج — ايب) ، وأغفلت اسم خليفته «سمرخت» ، هذا فضلا عن أن مقبرة «عدج — أيب» فى أبيدوس ، أقل مقابر ملوك الاسرة الاولى فى بنائها وفى محتوياتها ، وأنه قد اتخذ لقبا جديدا عبارة عن صقرين فوق السرخ، ذهب بعض الباحثين الى أنهما يدلان على حوروست ، ومن ثم فهمـا يقرءان «نبوى» أى «الربين» فى مقـابل «بنتى» أى «الربتين»[٤٦] ، وذهب البعض الاخر الى أنهما انما يعتبران رمزين لحور الدلتا وحور

R. weill, Recherches, II, 1961, p. 127, 154. (٤١)
W. M. F. Petrie, The Royal Tomb, 1, p. 20. (٤٢)
E. Naville, The Cemeteries of Abydos, I, London, 1914 p. 35 (٤٣)
I.E S. Edwards, op. cit., p. 29. (٤٤)
W. B. Emery, op. cit., p. 80.
W. B. Emery, op. cit., p. 80-81. (٤٥)
I.E S. Edwards. op. cit., p. 27. (٤٦)
K. Sethe, ZAS XXXV, p. 1. F.
E. Naville, Rec. Trav. XXI, p. 121.

الصعيد المشتركين[٤٧] ، وربما يشيران الى سيادة ((حور)) على الصعيد والدلتا معا ، مما يعنى الحد من نفوذ ((ست)) — ولو بطريق غير مباشر — بخاصة وأن الصقر انما كان رمزا لاقليم ((نخن)) منذ أقدم العصور ، الذى عبد هناك ، مما أثار حفيظة عبدة ست تجاه الملك •

وربما يشير ذلك كله الى أن هوى الملك ((عدج — ايب)) الى الشماليين، مما جعلهم يعتبرونه أول ملك شرعى ومن ثم فقد بدأوا به قوائمهم ، غير أن ذلك لم يرض أهل الصعيد ، أو على الاصح الملك ((سمرخت)) ، فشن غارة هوجاء على تلك السياسة ، ومحا اسم سلفه ، مما جعل الشماليين لا يذكرونه فى قوائمهم ، ولكن خليفته ((قاعا)) (قع) أعاد الامور الى ما كانت عليه ، وأظهر عدم رضائه على سياسة سلفه وذلك بمحو اسمه من فوق آثاره[٤٨] •

وأيا ما كان الامر ، فان حجر بالرمو انما يشير الى أن الملك ((عدج ايب)) قد حارب البدو فى العام السابق لاحتفاله بعيده الثلاثينى، كما ينسب اليه كذلك تأسيس مدن جديدة ، وأما مقبرته فى سقارة (رقم ٣٠٣٨) — شأنها فى ذلك شأن مقبرته فى أبيدوس — فرغم أنها كانت أصغر وأفقر المقابر فى المجموعة كلها ، فقد قدمت لنا مظاهر معمارية هامة وشيقة ، ولم تحفظها لنا حتى الان أية مقابر أخرى من ذلك العصر ، فعندما كشف عنها فى بادىء الامر ، ظهر أن البناء العلوى للمقبرة يتبع التصميم الشائع لمنصة مستطيلة ، وقد زين داخلها بدخلات وخرجات • ولكن مع موالاة الحفر ظهر مبنى هرم مدرج مخبأ بداخلها، ولم يبق من البناء المدرج سوى جزء منخفض ، ربما استمر بناؤه الى أعلى ، مكونا بذلك شكل هرم مدرج كامل •

ولعل السبب فى اخفاء تصميم داخل تصميم آخر ذى فكرة مختلفة جذريا ، أنه ربما يمثل الارتباط بين تصميمات المبانى العلوية فى الصعيد

(٤٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٥ •

(٤٨) احمد سليم : المرجع السابق ص ١٤٧ — ١٤٨ •

والدلتا فى مبنى واحد ، وهو الركمة الترابية أو المبنى المدرج فى الجنوب، والمبنى المستطيل ذو الدخلات والخرجات فى الشمال .

وهناك ظاهرة غير عادية أخرى لمقبرة «عدج — ايب» الشمالية ، هى الدرج ذو المدخلين ، أحدهما لحجرات الدفن السفلية ، والاخــر الى حجرة فوقها ، والى مخزن حبوب به صوامع قمح مبنية(٤٩) .

(٦) سمـــرخت

يرى بعض الباحثين أن «سمرخت» ربما كان مغتصبا للعرش ، وأن رجاله — كما أشرنا من قبل — قد أزالوا باذن منه أسماء سلفه ممــا وصلت اليه أيديهم — كما رأينا فى أوان من أبيدوس بعضها من الالبستر، وبعضها الاخر من الكريستال(٥٠) — وأن خلفه «قاعا» سوف يفعل به نفس الشىء .

هذا ولم تذكر قوائم الملوك — لأمر غير معروف — اسم «سمرخت» وانما ذكرته باسم آخر ، عبرت عنه نصوص عهده بصورة كاهن يمسك منسأة مرة ، ويمسك صولجانا مرة أخرى ، وذكرته احدى هذه القوائم باسم «سمسم» . واذا صح أن صورة الكاهن كانت مقصودة لذاتها ، فانها انما تشير الى أن اسم «سمرخت» كان غريبا على الاسرة المالكة، وان كان من المحتمل أن الملوك الثلاثة (عدج ايب وسمرخت وقاعا) انما كانوا اخوة من أمهات مختلفات ، لاسيما وأن بعض آثارهم جمعت الى أسمائهم اسم سلفهم «دن» (وديمو) رغبة منهم فى تأكيد الرابطة بينهم وبينه ، أو هم على الاقل ، انما كانوا ينتمون الى فروع مختلفة من الاسرة الحاكمة ، ادعى كل فرع منها أحقيته فى العرش ، دون الفروع الاخرى(٥١) .

---

(٤٩) W. B. Emery op. cit., p. 82-84.

(٥٠) W. M. F. Petrie, op. cit., p. 20.
E. Naville, op. cit., p. 35.

(٥١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٣ .
W. M. F. Petrie op. cit., p. 19, Pls XVII, 26 XXVIII, 72.
JEA, 1943, p. 75 - 76.

وأيا ما كان الامر ، فيبدو أن حكم «سمرخت» لم يكن مستقرا ، ذلك لان اسم «سمنبتاح» الذى كان يأتى بعد كل من لقبى « نبتى » و « نيبو » انما كان بالتأكيد هو اسم « سمبيس » الذى ذكره «مانيتو» والذى روى أنه خلال حكم هذا الملك انما كانت توجد نذر شؤم عديدة ، وكارثة عظيمة ، وربما أراد مؤرخنا الوطنى أن يشير الى ذلك الانقسام ، وتلك الفرقة التى حدثت على أيامه بين أفراد الاسرة المالكة .

هذا وقد نسب اليه بعض الاثريين ذلك النقش الذى وجد على لوحة صخرية كبيرة فى وادى مغارة بسيناء وسموه «الضارب» لانتصاره على البدو هناك ، ولكن ثبت منذ عام ١٩٥٤ أن النقش للملك «سخم — خت» من ملوك الاسرة الثالثة — وقد كشف عن هرمه الناقص فى سقارة عام ١٩٥٤ م(٥٢) .

وعلى أية حال ، فلم يعثر حتى الان على أى أثر للملك «سمرخت» فى سقارة ، وان كانت مقبرته فى أبيدوس تفوق كثيرا مقبرة سلفه «عدجايب» وقد وجدت فى المقبرة لوحة كبيرة من حجر الكوارتز الاسود ، عليها اسم الملك يعلوه لقب «الصقر» ، كما يظهر على بطاقات عاجية من نفس المقبرة اسم المدعو «حنوكا» وكان موظفا كبيرا خلال حكم «عدج — ايب» و «قاعا»(٥٣) .

(٧) قـــاعـــا

كان «قاعا» (قع=قاى — ع ، بمعنى عالى الذراع أو طويل الباع) آخر ملوك الاسرة الاولى ، وقد ظهر الى جانب اسمه على بعض أختام تنسب اليه ، اسم آخر اعتبره «كورت زيته» اسما آخر لهذا الملك ،

(٥٢) انظر : Mohamad Zekaria Ghoneim. la Nouvelle Pyramide a Degres a Saqqars, Revue du Caire, 1955, p. 18 - 31, Sekhem Khet, Vol. I. Cairo 1957.

(٥٣) w. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 84 - 85.

وقــرأه «سمنو» ، بينما قــرأه «ريموندفى» «سن» ، ولكنه تردد فى اعتباره اسما للملك ، أو لقبا لأحد موظفيه ، بمعنى الرفيق والصفى ، أو بمعنى «حامل الختم»(٥٤) .

هذا وقد فعل « قاعا » باسم سلفه ما فعــله هذا الاخير بسلفه ، كما يبدو ذلك واضحا على جزء من آنية من الشست ، عليها الاسم النبتى لكل من الملكين «سمرخت» و «قاعا» مما يدل على استمرار النزاع فى الاسرة ، والذى أودى بها آخر الامر ، وأدى الى قيام الاسرة الثانية الفرعونية(٥٥) .

وكان للملك «قاعا» مقبرتان ، الواحدة رمزية فى أبيدوس ، وهى أكثر اتقانا فى البناء من مقبرة سلفه ، والاخرى فى سقارة (رقم ٣٥٠٥) وهى بالتأكيد ــ فيما يرى والترامرى ــ المكان الذى دفن فيه ؛ وعلى أى حال ، فلم يعثر حول هذه المقبرة على مدافن للضحايا من الخدم ؛ مما يدل على أن هذه العادة الهمجية ، انتهت فى عصر هذا الملك ، صحيح أن هناك مقبرة جانبية على قدر من الحجم قد كشف عنها فى الجــانب الجنوبى من مدخل المقبرة ، ولكنها مقبرة نبيل ، من المحتمل أن يكون قد أعطى شرف الدفن داخل حرم القبر الملكى ، وقد وجدت لوحة هذا النبيل ــ ويدعى «مركا» ــ على مقربة من المقبرة(٥٦) ، هذا وقد عثر على جزء من آنية من الشست توضح الاحتفال الثانى للملك « قاعا » بعيد سد(٥٧) .

---

(٥٤) عبد العزيز صالح ، المرجع السابق ص ٢٥٧ .
K. Sethe; Unterauchungen, III, Leipzig 1905, p. 14
R. weill, op. cit. p. 161 - 162.
(٥٥) B. Gunn, op. cit. Pl. 1 - 2.
I.E.S. Edwards, op. cit, p. 27, 29.
(٥٦) w. B. Emery, op. cit, p. 86 - 90.
(٥٧) B. Gunn, Inscriptions from the Step Pyramid Site, ASAE. 28, 1928, p. 158.

الفصل الثالث

الاسرة الثـانية

١ ـ ملوك الاسرة الثانيـة :

مايزال المؤرخون لا يعرفون ـ على وجه اليقين ـ الاسباب التى أدت الى سقوط الاسرة الاولى عند موت «قاعا» وقيام أسرة جديدة ، غير ذلك النزاع الذى حدث بين أفراد الاسرة المالكة ـ كما أشرنا من قبل ـ كما أنهم لا يدرون ـ على وجه اليقين ـ ان كانت الاسرة الثانية تمت بصلة من قرابة الى الاسرة الاولى •

وعلى أية حال ، فنحن نتبع تقسيم «مانيتو» للاسرات التى حكمت مصر ، ولابد أن مؤرخنا الوطنى كانت لديه الاسس والوثائق الكافية لتبرير تقسيمه المشهور ، وهو يخبرنا بأن الاسرة الثانية تكونت من تسعة ملوك حكموا جميعا ٣٠٢ سـنة (بوثوس وكايخوس وبنوثريس وتلاس وسيثينيس وخـايرس ونفرخريس وسيزوخـريس وخنيريس) وتشير جـداول الملوك الى ثمـانية (بجـاو ، وكاكاو ، وبانيترن ، وورجناس ، وسندى ، وجاجاى ونب كا ـ طبقا لقائمة أبيدوس مثلا) •

ومازال تاريخ الاسرة يشوبه بعض الغموض ، فهناك اختلاف كبير بين المصادر القديمة (مثل قائمة أبيدوس وبردية تورين وقائمة سقارة)، كما أن الاسماء التى وردت نقلا عن مانيتو فى صيغتها المكتوبة باليونانية يصعب ارجاع بعضها الى أصله المصرى[١] •

وقد أدى ذلك كله الى قيام جدل طويل حول ترتيب ملوك الاسرة

---

(١) W.M.F. Petrie. A. History of Egypt. I, 1924, p. 27.

الثانية ، وهناك نقش على كتف تمثال حجرى صغير بمتحف القاهرة ، وجـدت عليه الاسماء الحـورية للملوك الاوائل الثلاثة من الاسرة (حتب سخمورى ــ رعنب ــ نىنثر) فاذا أضفنا الى ذلك أن الباحثين قد اكتشفوا لهؤلاء الثلاثة أنفسهم نقوشا فى مقبرة «بر ــ ايب»[٢] ، وأن «رع ــ نب» قد استخدم أوانى «نى نثر» ، لكان من المنطقى القـول بأن الترتيب الصحيح لهم انمـا كان «حتب سخمورى» ثم «رع ــ نب» ثم «نى نثر» (أولا)[٣] ، وأنهم قد سبقوا «بر ــ ايب» على عرش الكنانة (ثانيا) ، وان «رع ــ نب» انما قد سبق «نى نثر» (ثالثا)[٤] •

ثم جاء من بعدهم «ونج» ثم (سند)[٥] ، ثم تلاهما الملك (سخم ايب) (الذى لقب سخم ايب ــ بران ماعت) وقد اتخذ هذا الملك لقبا آخر ، انتسب فيه الى الاله (ست) بدلاً من الاله (حـور) ، وهو (بر ــ ايب سن)[٦] (وقد قرأه ماسبرو وريموندفيى) (برسن)[٧]، بخاصة وأن أختام (سخم ايب) وجدت مع أختام (بر ايب سن) فى مقبرة واحدة[٨] ، وأن (خع سخم) هو الخلف المباشر لـ (برايب سن)، الذى لا نلتقى باسمه فى (نخن) ، وأنه استطاع أن يسترجع الدلتا ، وأن خليفته انما كان (خع سخموى) •

وهكذا كان الحور (خع سخم) هـو السلف المباشر للحور (خع سخموى) خاصة وأن آثار كل منهما متميزة عن الاخرى فى (نخـن)

---

(٢) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs, I, Pl. VIII

(٣) I.E.S. Edwards, op. cit, p. 30.

(٤) W.F. Petrie, op. cit, Pl. VIII, 12.

(٥) B. Grdseloff, op. cit, p. 292.

(٦) ASAE, XLIV, p. 295.
W.M F. Petrie. The Royal Tombs. II, p. 31.

(٧) ASAE, XLIV, 1944, p. 288 F.
R. weill. op. cit, II, 1961, p. 161.

(٨) W.M.F. Petrie, op. cit, p. 31.

(البصيلية) وأهمها قطعة كبيرة لكتف بوابة من الجرانيت الوردي يظهر في خلفيتها منظر يمثل احتفال تأسيس هام[٩] .

هذا وقد عثر على ختم في مقبرة (خع سخموى) في أبيدوس[١٠]، يذكر اسم ملكة هى (حب ان ماعت) ك (أم أطفال الملك)وأن (حب ان ماعت) هذه نفسها يطلق عليها لقب (أم ملك مصر العليا والسفلى) على ختم في المقبرة الكبرى في (بيت خلاف) — وتقع على مبعدة ثلاثة أميال ونصف الى الغرب من مدينة جرجا — حيث دفعت أهمية (زوسر) هناك الى افتراض أنه صاحبها[١١] ومن ثم فقد افترض بعض الباحثين أن (خع سخموى) و (حب ان ماعت) كانا الابوين الفعليين للملك (زوسر) مؤسس الاسرة الثالثة[١٢] .

٢ — ثورة بر — ايب سن :

وأيا ما كان الامر ، فلقد بدأت الاحوال هادئة عند قيام هذه الاسرة الثانية ، بل اننا في الواقع لا نرى أى تغيير ، ولا نحس بأى أثر لانفعال نجائى ، فان كل شيء استمر في سيره الطبيعى ، سواء من ناحية التطور الفنى ، أو في تنظيم الحكومة بوجه عام ، ولكن ما لبثت أن تغيرت الامور قرابة منتصف الاسرة ، ذلك لان ألوانا من الاضطرابات الشديدة، قد شجرت من وراء خصومة ربما كانت سياسية ، وربما كانت دينية ، وربما كانت عصبية ، وربما كان ذلك كله في آن واحد ، وان كان من المستحيل أن نشخص صيغتها ، أو حتى أن نذكر عنها أشياء معينة ، الا عندما وصلت الامور الى درجة محاولة التغيير في نطاق الدولة العام ، والثورة على عبادة حور .

---

(٩) JEA; XX, 1934, p. 183 - 184.
وكذا A.H. Gardiner, op. cit, p. 418 - 419.
(١٠) W.M.F. Petrie, The Royal Tombs of The Earliest Dynasties. II, London. 1901. Pl. 24, No. 210.
(١١) J. Garstang, Mahasna and Bet - Khallaf, London, 1905, Pl. 10, No. 8.
(١٢) A.H. Gardiner, op. cit, p. 419.

كان الاله (حور) يرتبط فى الماضى البعيد بالدلتا — فيما يرى بعض الباحثين — بينما كانت عبادة الاله (ست) محلية فى (نوبت) بالصعيد، ولكن انتشار عبادة حور كادت أن تطيح به ، وبنفوذ كهنته ، وبخاصة عندما أصبح الملوك قبل بداية الاسرة الأولى يمثلون حور ، ويعيشون فى ظله ، وأصبح كل منهم ينسب اليه نفسه ، ثم سرعان ما أصبح الاله الحامى للحكام المنتصرين على مصر السفلى ، وخلفائهم المباشرين •

وبمرور الزمن فضل ملوك الصعيد المنتصرون العاصمة الجديدة (منف) عند ملتقى الصعيد بالدلتا ، ومن المحتمل أنهم أخذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمال ، ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم ، ويرى بعض الباحثين أن (سخم ايب) انما قد شذ عن هذا التقليد ، وتخلى عن ولائه للاله حور ، وعبد الاله (ست) وغير اسمه الى (بر — ايب — سن) وكتب هذا الاسم فى اطار (سرخ) يعلوه حيوان الاله (ست) بدلا من (الصقر) الذى كان يعلو اسمه الاصلى (سخم — ايب) وهو حدث يكاد يكون منفردا فى تاريخ مصر — ثم يعتبر (ست) حامية ، وأنه هو الذى سلم اليه عرش مصر ، يبدو ذلك واضحا على ختم واحد من نبلائه ، جاء فيه : «اله أومبوس ، مركز قبائل ست فى مصر العليا ، الى ابنه (بر ايب سن)» •

ولعله أراد بذلك أن يؤكد للناس أنه وريثه دون غيره ، وأنه لا يعترف بالفضل لسواه ، وأنه قد تخلى عن الانتساب الى حور ، ربما نتيجة لخصومة عنيفة بينه وبين مناطق الدلتا ، التى تعصب أهلها لربهم القديم (حور) ، الامر الذى رأى فيه المؤرخون ثورة دينية ، أو نوعا من الصراع السياسى والدينى بين الصعيد والدلتا ، أو ثورة ضد عقيدة الملكية الآلهية ، وأن الملوك انما كانوا يهدفون الى الوصول الى توطيد تلك العقيدة توطيدا تاما فى البلاد[١٣] •

---

(١٣) J.A. Wilson, op. cit, p. 65.
وكذا W.B. Emery, Archaic Egypt, p. 96.
وكذا P. E. Newberry, The Set Rebellion of the II nd Dynasty, Ancient Egypt, 1922, p. 10 F.

ولم يقف (بر — ايب — سن) عند هذا الحد ، وانما عاد مرة أخرى الى الصعيد ، وأبى الا أن يعود الى التقليد القديم ، وهو تشييد قبره فى أبيدوس[١٤] — وليس فى سقارة — ومن أسف أننا لا نعرف رد الفعل الذى حدث فى الدلتا ، فان ذلك العمل انما كان خروجا قويا على ماسارت اليه مصر من تقاليد ، منذ بداية الاسرة الاولى — على الاقل — فان تمثيل الملك بالاله حور أصبح متأصلا منذ أجيال ، بخاصة وأن حجر الزاوية فى الحضارة المصرية انما كان قائما على ألوهية الملك الذى أصبح منذ توليه أمر البلاد ، هو (حور) ، وكان يقدس من شعبه على هذا الاساس ، بل أصبح واحدا من الآلهة لا يختلف عن غيره من اخوانه بل يمتاز عليهم بأنه كان يحكم الناس على الأرض ، ويقوم بحفظ النظام واقامة العدل ، كما يضمن للبلاد النعم الالهية ، وأن معرفته وقوته واطلاعه ، انما كان كاملا وتاما تماما مطلقا .

وكان الاساس الروحى هو أن مصر كانت أسعد البلاد وأن أى شيء يصيبها كان لا يلبث أن يزول ، كما كان الملك يساعد الناس على قيامهم بواجبهم لعبادته وعبادة اخوانه من المعبودات[١٥] . وربما كانت مكانة الاله «حور» هذه سببا فى اثارة كهنة الاله (ست) الذين شعروا بتضاؤل نفوذهم القديم ، فبذروا بذور الفتنة ، وأشعلوا نيران الثورة ، ضد هذه الاتجاهات الجديدة .

وهكذا ثار «بر — ايب — سن» على الاله حور ، وان كانت ليست لدينا معلومات ثابتة عن حرب أو ثورة ضده وانما كل ما نعرفه أن بعض قوائم الملوك قد أغفلت اسمه ، باعتباره خارجا على عبادة الاله حور ، وأن هذا التغيير انما قد انتهى فى عهد خلفه «خع سخم» الذى عاد الى عبادة الاله حور وتمجيده ، وتدلنا آثاره التى اقتصرت على

---

(١٤) G.A. Reisner, op. cit; p. 124 - 126.
وكذا W.M.F. Petrie. The Royal Tombs, II, p. 11, Pl. LXI.
(١٥) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٨٤ .
وكذا JA. Wilson, op. cit, p. 67.

مدينة (نخن)[١٦] (البصيلية) على مدى جهوده فى سبيل توطيد الوحدة والقضاء على الفتنة[١٧] .

ومن ثم فهناك اشارة الى الاعداء الشماليين،وعددهم ٤٧٢٠٩[١٨]، وهناك كذلك ثلاثة أوان حجرية[١٩] ، وقد مثلت عليها الربة (نخبت) (نخابه — العقاب) تقدم الى (خع سخم) رمز توحيد الارضين ، ويستقر مخلباها الخلفيان فوق خرطوش دائرى ، بداخله علامات (بش) . وأغلب الامر أن (بش) هذا ، انما هو الاسم الشخصى للملك (خع سخم) أكثر منه اسم بلد ، أو رئيس منهزم ، وان كان (والتر امرى) قد فسرها بمعنى (ثوار) ، بينما ذهب (ادواردز) الى أنها تشير الى القبائل الليبية ، ويشغل الجانب الايمن من الرسم التعبير بالهيروغليفية عن (سنة) مصحوبا بالكلمات (المحاربة وضرب الشماليين) والملك يلبس فى هذه القطع جميعا تاج الصعيد[٢٠] .

ولعل سائلا يتساءل:ماهى العلاقة بين «خع سخم» الهيراقونبوليسى، وبين «بر ايب سن» من ناحية ؟ وبين «خع سخموى» من ناحية أخرى ؟ .

ان أكثر الافتراضات تقبلا اليوم ، هى أن «خع سخم» هو الخلف المباشر للملك «بر ايب سن» الذى لاتلتقى باسمه فى «هيراقونبوليس» (نخن = البصيلية) وأنه استطاع أن يسترجع الدلتا ، وأن خلفه انما كان «خع سخموى»[٢١] آخر ملوك الاسرة الثانية ، الذى أراد أن

---

(١٦) لم يعثر للملك «خع سخم» على أية آثار فى سقارة ، ولم يعثر له على مقبرة فى أبيدوس ، وانما كل آثاره فى «نخن» التى يحتمل انه دفن فيها . (W.B. Emery, op. cit, p. 100 - 101).

(١٧) J.E. Quibell, op. cit, I, p. II

(١٨) J.E. Quibell. Hierakonpolis. I. 1900. Pl. XXXIV F. 11.

(١٩) J.E. Quibell. op. cit, Pl. XXXVIII.

(٢٠) W.B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 99.

وكذا I.E.S. Edwards, op. cit, p. 32 - 33.

وكذا A.H. Gardiner, op. cit, p. 418.

(٢١) A.H. Gardiner. op. cit, p. 431.

يرضى كلا من الجنوب والشمال.ويضع حدا لتلك الفتنة ، فاتخذ لنفسه شعارا ، هو المعبودان ((حور)) و ((ست)) وكان يضعهما سويا فـوق اسمه ، وهكذا انتهت الفتن • وعادت الوحدة مرة ثانية الى مصر •

ولكن هناك تفسيرا آخر لهذه الاحداث ، ذلك أنه من المستحيل أن نترجم الاحداث ، وكأنما هى صراع بين الارضين ، كان من أثره أن اكتفى ((بر ايب سن)) بأن يصبح حكمه مقصورا على الصعيد ، بدليل العثور على أختام الملك ، التى تحمل اسمه منتسبا للاله ((حـور)) فى المقبرة التى تنسب اليه فى أبيدوس بجوار تلك التى تحمل اسمه منتسبا للاله ((ست))[٢٢] ، وأنه لم يكن عـدوا لحور ، وانما خـادما أمينا ((لـ ست))[٢٣] هذا فضلا عن وجود نقش غير كامل ــ عثر عليه مكتوب على جزء من آنية من الديوريت تحت الهرم المدرج بسقارة ــ يستدل منه على قيام الملك بغزو البلاد الاجنبية ، والتى ربما كان المراد بها تلك الارض التى يحتلها الاجانب ، أى الدلتا[٢٤] •

وهكذا يمكننا القول أنه لو كانت هناك ثورة دينية حقا من الملك ((بر ايب سن)) ضد الاله ((حور)) لما احتفظ هذا الملك بأختامه التى يظهر فيها فى أبيدوس منتسبا اليه ، بل كان من المتوقع أن يقوم بمحو اسم ((حور)) من على آثاره ــ شأنه فى ذلك شأن اخناتون فيما بعد عندما قام بثورته الدينية ضد آمون[٢٥] ــ وألا يحتفظ بتلك الآثار فى المكان المعد لدفنه •

هذا الى جانب أن ألقاب ذلك العصر انما تشير الى أن الملوك كانوا مرتبطين دائما مع الالهين ((حور)) و ((ست)) ومن ثم فقد كان من ألقاب

---

(٢٢) W.M.F. Petrie. op. cit. p. 121.

(٢٣) J. Sainte Fare Garnot. BIE. 37. 1956. p. 317 - 328.

(٢٤) B. Gunn. Insciptions from the Step Pyramid Site. ASAE. 28. 1928. p. 160.

(٢٥) انظر : (محمد بيومى مهران اخناتون : دعوته وعصره ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ٣٣٧ ــ ٣٤٩) •

الملكات مثلا لقب «التى ترى حوروست»[٢٦] أو «تلك التى تشـهد حور وست» الذى عثر عليه فى مقبرة الملك «جر»[٢٧] ، أو ذلك الذى عثر عليه من الأسرة الرابعة ، وينتمى للملكة «مرسى عنخ»[٢٨] .

هذا فضلا عن ظهور لقب آخر يجمع بين الالهين ، وأعنى به «ساق حور ، وذراع ست»[٢٩] ، مما يشير الى عدم وجود عداء بين حور وست فى تلك الفترة وأن الملوك انما كانوا مرتبطين بكل من الالهين معا ، هذا الى جانب ظهور اسم الملك فى أحد أختامه منتسبا للاله «ست» والاله «رع» اله «أون» (عين شمس) وهو من آلهة الشمال الكبار ، ممـا يشير الى عدم وجود نزاع بين الملك والدلتا ، والا لما انتسب الى أحد آلهتها ، كما يظهر على نفس الختم السابق الاله الصقر حور فى هيئة بشرية ، وله رأس صقر ، ويمسك باحدى يديه الصولج ، وباليد الاخرى علامة «عنخ» ، ويقف أمام «سرخ» الملك ، الذى صور حيوان «ست» فوقه[٣٠] .

ولعل كل هذا يدل بوضوح على انتساب الملك الى كل من الالهين (حور وست) ، وفى نفس الوقت يدحض فكرة وجود عداء بينهما فى تلك الفترة من تاريخ الكنانة ،وبالتالى قيام «بر ايب سن» بثـورة دينية ، أحل فيها الاله «ست» محل الاله «حور» بل ان هنـاك من الباحثين من يرى — فى نفس الختم — صورة للالهة «ايزه» وأن اسمها انما كتب مرتين ، الواحدة منفردة ، والاخرى تحت قدميها[٣١] .

وأخيرا فهناك ما يشير الى أن «بر — ايب — سن» انما قد اتخذ

---

(٢٦) P.E. Newberry. op. cit, p. 41.
(٢٧) A.H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, 194, p. 422.
(٢٨) M.A. Marry. Index of Names and Titles of the Old Kingdom London. 1908. p. XX.
(٢٩) W.F. Petrie. op, cit. Pl. XXVII. 96. 129.
(٣٠) Ibid p. 31.
(٣١) Ibid. p. 53.

الاسم «النسوبيتى» ، والذى يتكون من النحلة ونبات البوص[٣٢] ، والاسم النبتى الذى يتكون من الالهتين «نخبت» (نخابة) آلهة الكاب ـ فى مقابل نخن عبر النهر ، وعلى مبعدة ١٩ كيلا الى الشمال من ادفو بمحافظة أسوان ـ والالهة «وادجيت» الهة «بوتو» فى شمال الدلتا[٣٣] مما يشير الى أن الملك لم يتعصب للصعيد ، ولم ينقم على الدلتا . بدليل انتسابه لشعار الشمال ، ورغبته فى حماية الالهة الشمالية «وادجيت» بل ان هناك كاهنا يدعى «شيرى» عاش على أيام الاسرة الرابعة ، يذكر أنه كان كبيرا للكهنة القائمين على شعائر «بر ايب سن» فى الجبانة ، الى جانب شعائر الملك «سند»[٣٤] والتى كانت تقام ـ فيما يرجح البعض ـ فى سقارة[٣٥] ، ومن ثم فان وجود طقوس تؤدى للملك «بر ايب سن» حتى الاسرة الرابعة فى سقارة انما يتعارض مع دعوى مخاصمة الرجل للشمال[٣٦] .

هذا فضلا عن أن مثل هذا الصراع لو كان حقا قد وجد بين الصعيد والدلتا لكان فى مقدور الملك «بر ايب سن» أن يؤكد زعمه بأن تجسيد للاله «حور» الاكثر قوة[٣٧] ، كما أن أهل الوجه البحرى لم يناصبوا الاله «ست» العداء ، ولم يكنوا له ضغينة ، بل ان مفكرى مدينة «أون» عندما كونوا تاسوعهم المقدس جعلوا من «ست» أحد أفراده، وينسب الاثريون الى الملك (زوسر) بناء معبد صغير فى مدينة (أون) صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس ، ومن بينهم الاله (ست) ،

---

(٣٢) Ibid. Pl. XXII. p. 190.

(٣٣) B. Gunn. op. cit. Pls. 2, 2 - 3.

(٣٤) I.E.S. Edwards. op. cit. p. 31.

(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٥ .

(٣٦) أحمد سليم : دراسة تاريخية للحضارة المصرية القديمة ـ أثناء عصر الاسرتين الاولى والثانية ـ الاسكندرية ١٩٧٧ ص ١٥٥ ـ ١٥٧ (رسالة ماجستير) .

(٣٧) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford. 1964, p. 417.

وسجل أحد كبار رجال الاسرة الثالثة ويدعى (خع باوسكر) فى نصوص مقبرته أنه كان كاهنا للاله (ست)[٣٨] •

٣ ـ الليبيــون والدلتــا :

وعلى أى حال ، فهناك مشكلة ، ربما كانت أخطر من ذلك بكثير ، هى أنه أطلق على حيوان الاله (ست) فى بعض الاختام الخاصة بالملك (بر ـ ايب سن) اسم (آش) Ash أو (شا) Sha ، ومن المعـروف أن هذا انما يخص المقابل الليبى للامبوتى Ombuite [٣٩] •

ومن هنا بدأ بعض المؤرخين يقدمون تفسيرا آخر للاحداث ، فهم يرون أنه قد حدث فى عهد الملك «نى نتر» («نثرن» ـ أو «نثريمو») ، بمعنى المنتمى الى الاله والذى ربما كان أوزير)[٤٠] ، وهو الملك السابق للملك «بر ـ ايب ـ سن» أن هاجم الليبيون أرض الدلتا ، واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد ، فلما جاء بعده «بر ايب سن» لم يحكم غير الصعيد وحده ، ولكنه اعتزم الكفاح وتسمى باسم «سخم ايب»[٤١]

---

(٣٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠١ ـ ٣٠٢ •

(٣٩) A.H. Gardiner. op, cit. p. 417.

(٤٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٥٧ •

وكذا ASAE. XXVIII. 1928. p. 153. F. XLIV. 1944. p: 287

وقد نسب له تمثال صغير ، فاذا كان ذلك صحيحا ، فانه يكون اول تمثال معروف للملك (انظر •

W.K. Simpson. A. Statuette of King Nyneter. JEA. 42. 1956. p, 45 F.

(٤١) وجد اسم «سخم ايب» فى نفس المقبرة التى وجد بها اسم «برايب سن» ، كما وجد اسم «سخم ايب برن ماعت» بجـوار الحصـن المنسوب الى «برايب سن» فى أبيدوس مما يدل على أن الاسمين لم يكونا غير لقبين للملك «برايب سن» ومرادفين لاسمه ، كما عثر على قطـع أوان من الديوريت تحت هرم سقارة المدرج تحمل هذين الاسمين معا ، كما ذكر بترى أنه عثر على ختم فى مكان غير معروف عليه الاسمين (سخم برايب سن) ، مما يشير الى ارتباط الاسمين ببعضهما ، وانهما لشخص واحد (انظر :

W.M.F. Petrie. op. cit. p. 51. 176. History of Egypt p, 32 - 33

أى الجسور ، ولقب ((برن ماعت))[٤٢] ، بمعنى ((الذى خرج للحق)) أو بمعنى ((انبعث للنظــام)) ، واستمسك فى أغلب أحواله برب الصعيد ((ست)) . باعتباره من أرباب الحرب والقتال ، واحتفظ لنفسه بلقب ((نيسو بيتى)) أى أنه ظل يحتفظ بانتسابه الى شعار الدلتا وربتها ، بجانب ربة الصعيد وشعاره ، ولكنه لم ينته فى كفاحه الى شىء[٤٣] .

ولعــل من الجدير بالاشـــارة هنا أن الاسمين اللذين أطلقهمــا ((بر ايب سن)) على نفسه ، وهما ((سخم ايب)) و ((برن ماعت)) انما يشيران الى أن هذا الملك انما كان شجاعا ، وأنه لم يكن يهدف من وراء حروبه سفك الدماء ، وتخريب البلاد ، وانما كان يبغى تحقيق العدالة التى رآها فى تطهير أرض الدلتا من دنس الاستعمار ، وذل الاستعباد ، كما يشير اللقبان الى عمق تقدم الفكر المصرى الحضارى ، وأن المصرى لم يكن فى يوم من الايام محبا لسفك الدماء ، وانما كان يلجــأ الى الحروب مضطرا ، حين لا يجد غيرها وسيلة لتحقيق العدالة وتحرير الوطن[٤٤] .

وعلى أية حال ، فلقد جاء ((خع سخم)) بعد ((بر ايب سن))، واتخذ ثوب حور واستنصره ، ولم يجد بأسا من أن يعترف بالأمر الواقــع فى أول عهده ، فظهر فى تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور المعبود ((حور)) بتاج الصعيد تارة ، وبلقب حور السماء تارة أخرى ، ثم هاجم أراضى الدلتا ، وقاتل الليبيين المسيطرين عليها قتالا عنيفا ، حتى انتصر عليهم فى نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره عليهم،

---

(٤٢) زعم بعض الباحثين أن ((برايب سن)) قد خلع ((سخم ايب ــ بران ماعت)) كما طرد صاحب الحق الشرعى ((خع سخم)) الى ((نخن)) ولما قوى ((خع سخم)) واستعاد قوته تسمى ((خع سخموى)) وأن الحرائق التى لوحظت فى مقابر أبيدوس من عمل ((برايب سن)) .
(J. E. Lauer, BIFAO, 55. 1956. 162 F.)

(٤٣) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ــ الجزء الاول ــ مصر والعراق ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٠ .

(٤٤) أحمد سليم : المرجع السابق ص ١٥٤ .

أشاروا الى أرض الدلتا ، باعتبارها الارض التى كان الليبيون يحتلونها، وليس باعتبارها وطنهم الاصيل أو أرض الخصوم الفعليين[٤٥].

وأتى بعده الفرعون «خع سخموى» — آخر فراعنة الاسرة الثانية — فأكد وحدة البلاد ، وبذا انتهى النزاع وبعد أن كان اسمه «خع سخموى»(ظهور القوتين) ، أضيف الى اسمه الكامل (الالهان فى سلام) ونجد دائما الكثير من أختام سدادات الجرار عليها صورة الصقر وحيوان الاله ست ، وقد اعتلت اسم الملك ، وهذه اشارة الى أن نوعا من الوحدة القائمة على المساواة قد تحقق[٤٦] .

وهكذا عادت الى مصر وحدتها ، تلك الوحدة التى جهد من أجلها أسلاف له من أبناء الصعيد ، حين خرجت قواتهم فى مطلع التاريخ من «نخن» (البصيلية) وقد كتب لها نجحا بعيد المدى فى غزو الدلتا تحت قيادة «مينا» ثم توحيد الارضين وقيام الاسرة الملكية الاولى ، وتتويج «مينا» ملكا على مصر المتحدة .

وأخيرا فلعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن «خع سخموى» قد شيد عدة مبان فى (هيراكونبوليس) (نخن=البصيلية)،فقد عثر على كتف باب من الجرانيت عليه الاسم المزدوج للملك يعلوه الصقر وحيوان ست ، وربما كان مصدر هذا الحجر ، انما هو معبد تهدم منذ زمن بعيد ، وصناعة الحجر متقدمة ، وتشبه بوضوح — فى طرازها وفى طريقة التنفيذ — أعمال النحت فى أوائل الاسرة الثالثة ، حتى أنه يمكن أن يؤرخ هذا الحجر بلا جدال بنهاية الاسرة الثانية ، وعلى ظهر الكتف نص أزيل جزء منه يصور الملك والالهة «شسات» فى احتفال ربما كان لوضع أساس .

---

(٤٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ .
وكذا W.M.F. Petrie, The Royal Tombs II. Pls. XXI. 164 - 172, XXII. 173 - 190.
وكذا J.E. Quibell. op. cit. I. Pl. LVIII, p. 48
(٤٦) W.B. Emery. op. cit. p. 101.

ويبدو أن «خع سخموى» — شأنه فى ذلك شأن أسلافه من أوائل الاسرة الاولى — قد طبق الخطة السياسية بزواجه من احدى أميرات الشمال ، ويبدو أن زوجته كانت الملكة «نى معات حب» وهى — طبقا لختم اناء من أبيدوس — كانت تحمل لقب «الام الملكية» وقد عبدت فى العصور التالية ، بصفتها جدة ملوك الاسرة الثالثة ، وعلى أى حال ، فبموت الملك «خع سخموى» انتهى العصر العتيق (عصر التأسيس) فى تاريخ مصر ، ووقفت مصر على أبواب عصر بناة الاهرام المجيد[٤٧].

---

(٤٧) W.B. Emery, op. cit. p. 102 - 103.

الفصل الرابع

المدن الكبرى فى عصر التأسيس

من البدهى أن أوجه النشاط السياسى والدينى فى عصر التأسيس، انما قد تركز فى المدن الكبرى فى تلك الفترة من تاريخ الكنانة المبكر ، والتى كان من أهمها : نخن وثنى وانب حج •

(١) نخـن البصيليـة

((نخـن)) أو ((مخـن)) ، هـو الاسم المصرى القـديم لعاصمة مصر العليا - فيما قبـل التوحيد - وأقدم المـدن الكبرى فى عصر التأسيس ، وهى مدينة ترجم العالم الالمانى ((كورت زيته)) اسمهـا بمعنى ((الحصن)) ، وترجمه مواطنه ((هرمان كيس)) بمعنى ((طفـولة الرب))[١] ، ثم تغير الاسم فى العصر الاغريقى الى ((هيراقونبوليس)) Hieraconpolis بمعنى ((مدينة الصقر)) (مدينة الاله حور) •

هذا ويعرف موقع المدينة الحـالى باسم ((الكوم الاحمر)) ، وهى تسمية يشاركها فيها غيرها من أسماء المواقع الاثرية المصرية ، وللتفرقة بينها وبين غيرها من المواقع التى تحمـل نفس الاسم ، أى ((الـكوم

---

(١) H. Kees, Goetterglaube, Leipzig. 1941, p. 178.

وكذا K. Sethe, ZAS, LIII, P. 55 F.

وكذا A.H. Gardiner, Aucient Egyptian Onomsstica, I, Oxford 1947. No. 329.

الاحمر»[٢] ، فاننى أميل الى الاتجاه الى تسميتها باسم البلد الذى تقع فيه ، والذى يطلق عادة على اسم المنطقة كلها — بما فيها الكوم الاحمر — وهو «البصيلية»[٣] ، وتقع أطلال المدينة القديمة «نخن» على حافة الصحراء ، غرب النيل ، على مبعدة ١٧ كيلا الى الشمال من مدينة ادفو ، بمحافظة أسوان ، ويفصلها عن النيل قريتا المويسات والجمعاوية وترعة الرمادى ، وتواجهها على الضفة الشرقية للنيل ضاحيتها الدينية «نخب» (الكاب) .

---

(٢) لعل من أهم الاماكن الاثرية التى حملت اسم «الكوم الاحمر» هى :
١ — الكوم الاحمر : وتقع على أطلال مدينة «حبنو» عاصمة الاقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد ، وتقع الى الجنوب مباشرة من زاوية الميتين (زاوية الاموات) على الضفة الشرقية للنيل ، على مبعدة ثمانية كيلو مترات الى الشمال الشرقى من المنيا .
٢ — الكوم الاحمر : وتعرف الان باسم «الكوم الاحمر سوارس» وقد عرفت على أيام الفراعنة باسم «حت نسوت» (حوت نسوت) ، وسماها الاغريق «البسترنوبوليس» وتقع على الضفة الشرقية للنيل على مبعدة خمسة كيلو مترات الى الجنوب من بلدة «شارونة» الحالية ، مركز بنى مزار ، بمحافظة المنيا ، وكانت عاصمة الاقليم الثامن عشر من أقاليم الصعيد ، وكان يعبد فيها الاله حور .
٣ — الكوم الاحمر : فيما بين البدارى ودير تاسا شرقى أسيوط .
٤ — الكوم الاحمر : مركز قرشوط بمحافظة قنا (الموسوعة المصرية ٢٥٨/١ — ٢٥٩ ، سليم حسن) : أقسام مصر الجغرافية فى العهد الفرعونى ص ١٨٥ .
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., II, p. 106.
٣ — تمتد قرية البصيلية على مدى ١٦ كيلا من الشمال الى الجنوب وان كان عرضها يتراوح بين الكيلو والخمسة كيلو مترات ، وتتكون من ثلاث وحدات ادارية : البصيلية بحرى (وتضم نجوع القنان والحاجر وهيكل والشماخية والمعمرية والسايح والشرفا والزوايدية) والبصيلية الوسطى (وتضم نجوع البياض والزعيرات والقريطية والحاجر) والبصيلية قبلى (وتضم نجوع الجمعاوية والمويسات والحاجر) ، وعدد سكانها يقارب السبعين ألفا ، وبها ١٥ مدرسة ابتدائية وثلاث مدارس اعدادية ومدرسة ثانوية تجارية ، وأخرى ثانوية صناعية ، ومعهدين أزهريين ، وست وحدات صحية وبيطرية ، وثلاثة مكاتب للبريد وثلاثة مكاتب للتلغراف ونقطة للشرطة ، وثلاث جمعيات تعاونية زراعية وتسع جمعيات للشئون الاجتماعية ومركز لرعاية الطفولة ومركز ثقافى وسجل مدنى ومكتب للتموين ومكتب تامينات اجتماعية ، وجميع نجوعها مغطاة بشبكة
=

وتشير الابحاث الاثرية الى أن المدينـة انما قد اتخذت اسمهـا «نخن» أو «مخن» من تل صناعى من الرمال ، شيد القوم فوقه معبدا للاله «حور» — رب نخن — على هيئة بيضاوية أو شبه مستطيلة ، وأن هذه الهيئة انما كانت أصلا للعلامة الهيروغليفية التى كتب أهل العصور التاريخية اسم المدينة بها ، وأن الخطين المرسومين داخل هذه العلامة انما يرمزان الى هيكل المعبد أو قدس أقداسـه ، أو هما يعبران عن تقديس معبودين فيه[٤] .

وقد حرص ملوك عصر التأسيس على رعاية معبد نخن ، ووجدت بعض آثارهم داخـل أطلاله ، وأهمهـا تمثالان للملك «خع سخم» ، وأوان ضخمة منقوشة وآثار أخرى صغيرة من عهده ، ثم جدد الملك «خع سخموى» آخر ملوك العصر ، بعض أجزاء المعبد ، وشاد رجاله جزءا من واجهته بالجرانيت ، لاول مرة فى تاريخ العمارة المصرية[٥] .

هذا ويرجع تاريخ مدينة «نخن» (البصيلية) الى عصر ما قبـل الاسرات ، ذلك أن بعضـا من الباحثين انمـا يذهب الى أنها انما قد عمرت منذ عصر البدارى[٦] (العصر الحجرى النحاسى = حوالى منتصف الالف الخامس قبل الميلاد) ، وذلك بسبب وجود شقاف من

= كهربائية ومياه صالحة للشرب ، وجميع هذه المصالح تخضع للوحدة المحلية بالبصيلية ، وبها ٤ مكاتب تتبع شركة السكر بادفو ، وأخـيرا فهناك نهضة تعليمية جارفة فى البصيلية حتى أنه لا توجد كلية باية جامعة مصرية لا تضم واحدا من أبناء البصيلية ، ومؤلف الكتاب أحد أبنائها .

(٤) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ــ الجـزء الاول ــ القاهرة ١٩٦٢ ص ٢١٠ .

وكذا J. E. Quibell and F. W. Green Hierakonpolis, II, London, 1902, p. 3 F.

(٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٩ .

وكذا J. E. Quibell, Hierakonpolis, I, London, 1900, Pls; II; XXXVI -- XLI.

(٦) G. Brunton, The Predynastic Town - Site at Hierakonopolis, p. 272 F.

وكذا Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 391.

مُخار ذلك العصر فى موقع المدينة ، وأن المدينة ربما نقلت فى عصر ماقبل الاسرات الاخير ، حيث توجد الان الاراضى الزراعية ، وحيث يوجد معبد الملك «نعرمر» ، وقد كشف عن وجود خنادق صغيرة فى جميع الجهات ، مختلفة الاحجام ، غير أن أوسعها لا يزيد فى عمقه عن قدمين، وتمتد فى الناحية الشمالية الشرقية للحصن على مدى ٣٥م فى خط منتظم ، وربما كانت تكون خندقا يحيط بالحصن[٧] ، هذا وترجع «باومجارتل» مدينة نخن ، على الاقل ، الى عصر نقادة الاولى (عصر ما قبل الاسرات الاول)[٨] •

وأيا ما كان الامر ، فعند بداية التاريخ قامت مصر العليا بتكوين اتحاد من الاقاليم ، كانت عاصمته «نخن» (البصيلية) حيث كان يعبد الاله «حور» ، الذى رمزوا له بالصقر ، وكان — فيما يعتقد هرمان كيس وجوستاف جيكييه — معبودا أصيلا فى مدينتهم[٩] ، وقد تجمع حكام الاقاليم الاخرى — وكذا الالهة المحلية الاخرى — حول ذلك الاله ، وحول ملك نخن (هيراقونبوليس) ، وكونوا اتحادا ، وهؤلاء هم الذين نطلق عليهم «أتباع حور» ، وهم الذين عرفوا كذلك فى التاريخ «بأصحاب مملكة مصر العليا» وعلى أيديهم تحققت وحدة مصر تحت قيادة الملك «مينا» وذلك حين بدأ المظهر الختامى لتاريخ ما قبل الأسرات من «نخن» (البصيلية)، وانتهى بغزو مصر السفلى على يد الملك مينا ، ثم توحيد القطرين •

وتعزز هذه الحقائق جميعا من النتائج التى أدت اليها كشوف «جيمس ادوارد كويبل» (١٨٦٧ — ١٩٣٥م) فى «نخن» فى عامى

---

(٧) G. Brunton, The Predynastic Town - Site at Hierakonopolis, in Studies Presented to Griffith, p. 272.

(٨) Elise J. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt, I, Oxford, 1955, p. 129.

(٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢١٠ •
وكذا H. Kees, op. cit; p. 194 F, 197 F
وكذا H. Kees, Horus und Seth als Gotterpaar, MVAG, I, 1923, p. 9; 29.

١٨٩٧ — ١٨٩٨م[١٠] ، فلقد كانت مملكتنا «نخن» و «بى» المنفصلتين حقيقة لا يتناولها الشك • والامـر كذلك بالنسبة لتوحيدهما على يد «مينا» ، ومع ذلك فانه تبقى بعد ذلك على أية حال بعض الصعوبات التى لا نستطيع أن نزيحها جانبا ببساطة[١١] •

ذلك أن بعضا من المؤرخين انما يذهبون الى أن ملوك عصر التأسيس بمجرد أن تم لهم توحيد القطرين ، وقيام أول مملكة مصرية موحدة فى التاريخ ، سرعان ما تركوا «نخن» متخذين من «ثنى» عاصمة لهم ، وقد أشار «جون ويلسون»[١٢] الى كيف أنه لم يكن من المناسب لكل من «هيراقونبوليس» و «بوتو» أن تصبح مقرا ملكيا مناسبا ، فالاولى تقع فى بقعة مجدبة غير خصبة ، قريبة من الحد النهائى لمصر العليا ، وأما الثانية فموقعها يكاد يشبه موقع جزيرة وسط المستنقعات الكائنة فى شمال غرب الدلتا • وربما أصبحت المدينتان مقدستين ، وربما مراكز حج ، فيما بعد[١٣] •

هذا فضلا عن أن المدينتين «نخن — نخب» لم تتمتع واحدة منهما بموقع متوسط يسمح لها بأن تكون عاصمة مناسبة ، وأما اهتمام الملوك بالمدينتين وتحصينهما قبل بداية عصر الاسرات وخلاله ، فقـد فسره الباحثون بأمرين : الواحد ، أن مدينة «نخن» انما كانت مسقط رأس ملوك الصعيد فيما قبل الاسرات ، فتعصبوا لها واهتمـوا بها ، على الرغم من موقعها غير الملائم ، والاخر ، أن مدينة «نخب» انما كانت تقع عند نهاية واد يؤدى الى بعض مناجم الذهب والفضة فى الصحراء الشرقية ، وهو «وادى الكاب» •

---

(١٠) انظر : J. E. Quibell and F. W. Green, Hierakorpolis, 2 Vols, London, 1900-1902.

(١١) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 422.

(١٢) J. Wilson, Buto and Hierakonopolis in The Geography of Egypt, JNES, 14; 1955; p. 209-236.

(١٣) A. H. Gardiner, op. cit; p. 422.

وهكذا بدأت «نخن» تفقد أهميتها السياسية شيئا فشيئا ، منذ أن بسط ملوكها نفوذهم على الصعيد كله ، وذلك حين تبينوا أن موقعها كعاصمة فى أقصى الجنوب لا يسمح لهم بالاشراف على ملكهم الواسع، فانتقلوا الى «ثنى» ، ولكنهم ظلـــوا يحتفظون لها بسمعتهـــا الدينية وسمعتهـــا التذكارية ، واستمرت لها سمعتها فيمـــا تلا عصرهم من عصور[14] .

والواقع أنه لم يثبت حتى الان أن ملوك عصر التأسيس كانوا من «ثنى» ، أو أن عاصمتهم كانت هناك[15] ، أو أنهم دفنوا فى المقـــابر القريبة منها ، والتى عثر فيها على بعض آثارهم ، بل ان معظم وثائق عصر الوحدة انما قد وجدت فى «نخن» ففيها اكتشف «جيمس ادوارد كوبيل» فى عام ١٨٩٨م ، أهم الاثار التى تنسب الى تلك الفترة ، والتى تمثل حلقة تصل بغير منازع بين أواخر عصر ما قبل الاسرات وأوائل عصر الاسرات ، ومن ذلك صولجان الملك العقرب[16] ، فضلا عن اناء من الحجر الجيرى للملك نفسه[17] ، كما عثر من العصر نفسه على آثار الملك «نعرمر» لعـــل من أهمها لوحـــة «نعرمر» المشهـــورة ورأس صولجانه[18] .

هذا فضـــلا عن أن الدلتـــا عندما انفصلت عن الصعيد فى النصف الثاني من عصر التأسيس ـــ سواء أكان ذلك بسبب ثورة فى الدلتا ، أو باستيلاء ليبى عليها ـــ فان أواخر ملوك الاسرة الثانية ، لم يجدوا غير موطنهم الاصلى فى «نخن» مكانا يلجأون اليه ، ويستعينون برجـــاله

---

(١٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٠ .
وكذا Somers Clarke, El-Kab and The Great Wall, JEA, 7; 1921, p. 54.

(١٥) جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل ـ الجزء الثانى ـ ترجمة شفيق فريد ، ولبيب حبشى ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٥٤ .

(١٦) J. E. Quibell and F. W. Green, Hierakonopolis, II, London, 1902, p. 41.

(١٧) Ibid, p. 8.

(١٨) J. E. Quibell, op. cit; I, 1900, p. 10, II, 1902; p. 40;43.

لاعادة الوحدة التى أقامها أسلافهم من قبل ، ومن هنا نرى الملك «خم سخم» وقد اقتصرت آثاره على «نخن» (البصيلية)[١٩] •

أضف الى ذلك أن «هيرودوت» انما ينسب تأسيس مدينة «منف» الى الملك «مين»[٢٠] ، والتى يشير اليها «ديودور الصقلى» كذلك ، مع بعض الاضطراب[٢١] وهناك كذلك «حجر رشيد» الذى يشير الى «منف» ويتحدث عن الاحتفالات المعتادة التى يقوم بها الملك حين يتسلم وظيفته الكبيرة ، وهكذا فان انتقال الملك من مكان ما فى الجنوب الى هذا المركز الممتاز من ناحية الموقع عند رأس الدلتا ، يجب أن ينظر اليه كمناسبة مباشرة لارساء دعائم المملكة المزدوجة[٢٢] •

هذا فضلا عن أن «ثنى» تمتاز حقيقة بموقع يكاد يتوسط الصعيد كله ، ومن هنا فهى قد تصلح لأن تكون عاصمة لمصر العليا — ان كان الامر أمر موقع متوسط فحسب — وهو أمر يتفق الباحثون على أنه كان — فيما قبل الوحدة — لمدينة «نخن» ، وليس لمدينة «ثنى» ، ومن هنا فان موقعها المتوسط هذا يكاد لا يغنى عنها كثيرا فى أيام الوحدة حين تنضم الدلتا تحت لواء الصعيد ، ويكونان معا مملكة واحدة ، هذا الى أن بقايا المبانى التى وجدت فى «ثنى» تكاد لا تختلف كثيرا عن تلك التى وجدت فى «نخن» •

وانطلاقا من هذا كله ، فاننى أتردد كثيرا فى قبول وجهة النظر التى تنادى بأن مقر الملك قد انتقل من «نخن» الى «ثنى» منذ أن كتب النجح لملوكها فى توحيد القطرين ، ومن ثم فاننى أميل كثيرا الى أن «نخن» انما قد بقيت محتفظة بمركزها السياسى والدينى على أيام عصر التأسيس ،

---

(١٩) A. H. Gardiner, op. cit; p. 418.
وكذا J. E. Quibell, op. cit; I, p. 39-40, II, p. 58.
وكذا I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Period in Egypt, CAH, I, 1964, p. 28.

(٢٠) Herodotus, II, 92.

(٢١) Diodorus Siculus, I, 50.

(٢٢) A. H. Gardiner, op. cit; p. 403.

أى فى عهد الاسرتين الاولى والثانية ، وأن العاصمة انما قد انتقلت من «نخن» الى «منف» مباشرة . على أيام الاسرة الثـالثة ، دون المرور بـ «ثنى»[٢٣] .

وأما آثار «نخن» التى كشف عنها حتى الان . فلعـل من أهمها ، حصنها المخيم والذى بنى على حافة الصحراء على بعد قليل من الاراضى الزراعية عند واد يجرى فى الصحراء الغربية ؛ وهـو على شكل مربع تقريبا ، ومدخله عند حافة الاراضى الزراعية لاستعماله عند حـدوث الاخطار ، وله حائطان أو سوران متداخلان ، سمك الخارجى منهمـا ٤٣ر٢م ، بينما يبلغ سمك الداخلى منهما ضعف الخارجى (٨٧ر٤م) ، كما أنه أكثر منه ارتفاعا ، هذا ويفصل الواحد منهما عن الاخر مساحة قدرها ٢٣ر٢م ، كما أن مدخل الحصن انما قد بنى بطريقة تعوق اندفاع أى شخص الى الداخل بسرعة ، وقد بنيت حوائط الحصن بطوب من غير تبن ، وقد دهنت جميعها باللون الابيض[٢٤] .

وليس هناك من دليل على وجود أكثر من مدخل واحد للحصن ؛ ويبدو أنه قد وجدت سلالم خشبية ، استخدمت للصعود الى أعلى الجدار ، ويلاحظ أن سطح السور الخارجى مسطح ، بينما بنيت واجهة السور الداخلى المواجهة للممر الضيق على هيئة دخلات وخرجات ، ولقد ظل الجزء الجنوبى الغربى قائما لم يتحطم ويبلغ ارتفاعه حوالى ثمانية أو تسعة أمتار ، ويبلغ ارتفاع الجدران القريبة من البوابة نفس الارتفاع تقريبا ، ويبدو محتملا أنها لم تفقد سوى متر واحد من طولها الحقيقى، ويضاهى هذا البناء فى كثير من أحواله شونة الزبيب فى أبيدوس[٢٥] .

(٢٣) محمـــد بيومى مهران : مصر والعالم الخـــارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، جيمس بيكى : المرجع السابق ص ١٥٤ ، سليم حسن : مصر القديمة - الجزء الاول ، ص ١٥٤ ، ٢٦٨ .

(٢٤) أحمد سليم : المرجع السابق ص ٢٤٩ .
وكذا J. E. Quibell op. cit; II, p. 19-20.

(٢٥) أحمد سليم : المرجع السابق ص ٢٤٩ .
وكذا J. E. Quibell, op. cit; p. 19-20.

ويذهب «جون جارستانج» الى أن الحصن انما قد بنى لحماية مدينة «نخن» عندما كانت فى أوج ازدهارها فى عصر الاسرات الاولى ، وقد وجدت شقافة عليها اسم الملك «نعــرمر» على مقربة من الحصن[٢٦] ، ويذهب «برنتون» الى أن المدينة ربما اتجهت بعد ذلك فى اتساعها نحــو الاراضى الزراعية ، حيث يوجد معبد «نعرمر» ، وقد لوحظ وجود خنادق صغيرة مختلفة الاحجام فى جميع الجهات ، وان كان أوسعها وأعمقهـا لا يزيد عن قدمين ، وتمتد فى الناحية الشمالية الشرقية للحصن على مدى ٣٥ م فى خط منتظم ، وربما تكون خندقا يحيط بالحصن[٢٧] .

هذا وتذهب «باومجارتل» الى أن الحصن ربما كان قصرا ، أكثر منه حصنا ، وربما كان يستخدم للامرين معــا ، ذلك لأن الحائط الخارجى ــ كما أشرنا من قبل ــ أقل ارتفاعا من الداخلى[٢٨] ، وأما «آرثرويجال» فالرأى عنده أن المكان الذى به الحصن ، ربما كان يستخدم معسكرا للقوافل . وربما للقوات العسكرية[٢٩] .

ويذهب «سومرز كلارك» الى أن مدينة «نخن» انما كانت تقع على مبعدة مائة ميل من الطريق الرئيسى الى الواحات الخارجة ، فاذا أضفنا الى ذلك عدم وجود معادن فى الصحراء الغربية ، فمن الافضل أن نذهب الى أن الحصن انما كان مقرا للقــائد الذى بنى مقبرته الشهــيرة الى الجنوب من الحصن[٣٠] ، وأما الموقع الدفاعى فربما كان فى « نخب » ، حيث الموقع الممتاز الملائم للتجارة ، فضلا عن وجود وادى الكاب الى

---

(٢٦) J. Garstang, Excavations at Hierkonopolis, Esna and Nubis, ASAE, VIII, 1907, p. 194 F.

(٢٧) G. Brunton. The Predynastic Town - Site at Hierakonopolis, p. 272 F.

(٢٨) Elise J. Baumgartel, The Cultures of Prehistoric Egypt. II; Oxford, 1960, p. 129.

(٢٩) A. Weigall, A. Guide to The Antiquities of upper Egypt, London, p. 3 8.

(٣٠) S. Clarke, op. cit; p. 54-58.

الشرق منها ، والذى يؤدى الى مناجم الذهب(٣١) .

هذا وقد احتفظت مدينة «نخن» (البصيلية) بسور بنى من الاجر الخشن ، يذهب «كويبل» الى أنه لم يكن مستطيلا وانما كان شكله منتظما الى حد ما ، ومن أسف فقد دمرت أجزاء كثيرة منه ، وغطتها منازل القرية الحديثة ، وبالتالى فمن الصعب علينا أن نتتبع مداره بالكامل . وعلى أى حال ، فهو سور ضخم بالنسبة لامكانات عصره ، وقد تراوحت أبعـاده فيما بين ١٩٠ ، ٢٢٠ مترا عرضا وبلغ سمك جدرانه فى بعض مواضعـه ستة أمتار ، ولكنه شيد من اللبن ، واستعان أصحابه على تحقيق سمكه الكبير ، بأن ملأوا ما بين واجهتيه بالرديم والدبش(٣٢) .

وقد عثر فى السور على مدخلين يؤديان الى المدينة ، الواحد منهما فى حالة سيئة جدا ، ويوجد فى مواجهة المدخـل الشمالى الشرقى للمعبد ، والاخر عند ثلثى طول الجدار نحو الزاوية الشمالية ، ولا يزيد اتساعه عن مترين ، وقد رصف بالاحجار التى عثر على أجزاء منها فى مكانها ، وتشير القرائن الاثرية الى أنه انما يرجع الى عهد الاسرات الثـلاث الاولى ، وبالتحديد منذ نهاية الاسرة الثانية أو بداية الاسرة الثالثة(٣٣) .

وهناك من الاسرة الثالثة «هرم الكولة»(٣٤) ــ ويقـع على مسافة لا تزيد عن سـتة كيلو مترات من مدينة «نخن» فى نجـع المعمارية فى البصيلية نفسها ــ ورغم أن «جـان ستينون» لا يريد أن يقطع برأى

---

(٣١) A. H. Sayce and S. Clarke, Report on Certain Excavations Made at El-Kab, ASAE, VI, 1905, p. 259 F.

(٣٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٧٩ .
وكذا J. E. Quibell, op. cit; II, p. 15 F.

(٣٣) Ibid., p. 16.

(٣٤) انظر عن «هرم الـكولة» .
G. Steindorff, Giude to Egypt and The Suban, London, 1929, p. 364.
وكذا B. Porter and R. L. B. Moss, Topographical Bibliography of Ancient Egyptian Hieroglyphic Texts Reliefs and Paintings, V, Oxford, 1951, p. 167.

حازم بشأنه ؛ وكل ما ذهب اليه أنه انما يرجع الى عصر مبكر جدا[٣٥] ، فان علماء الاثار انما يعتقدون أن «هرم الكولة» ــ وكذا هــرم سيلا بمحافظة الفيوم ، وهرم زاوية الاموات بمحافظة المنيا ــ رغم أنها لم تبحث حتى الان بحثــا علميا ، الا أنها انما ترجــع الى عصر الاسرة الثالثة[٣٦] .

هذا وقد كان «هرم الكولة» فى عام ١٨٣٩م مكونا من سبعة وعشرين مدماكا مشيدة فى ثلاث درجات ، وكان ارتفاعه ٣٨ قدما وست بوصــات ، أى ١١٫٧٤ مترا[٣٧] .

وقد حاول العالم الفرنسى «جاستون ماسبيرو» (١٨٤٦ ــ ١٩١٦) ، منذ أكثر من ثمانين عاما ــ وكان وقت ذاك مديرا لمصلحة الآثار المصرية ــ أن يصل الى حجرة الدفن فى هرم الكولة ، غير أن النفق الذى قطعه فى أحد جوانب الهرم لم يصل به الى النتيجة المرجوة[٣٨] ؛ وكثيرا ما حاول بعض الباحثين عن الكنوز الحفر فى الهرم ، اعتقادا منهم أن بداخــله الكثير من الكنوز ؛ ولكن آمالهم انما كانت تخيب دائما .

ويشير العالم الامريكى « جورج رايزنر » (١٨٦٧ ــ ١٩٤٢) الى الابعاد التى قــدمها له «لودفيج بورخــاردت» (١٨٦٣ ــ ١٩٣٨) عن «هرم الكولة» قبل التنظيف الاخير لجوانب الهرم فى عام ١٩٤٦م ، من أنها انما كانت ١٣٫٥٠ × ١٢م وان كان «رايزنر» نفسه انما يتردد فى تسمية هرم الكولة هرما[٣٩] .

---

(٣٥) Jean Stienon, El-Kolab; in Chronique d'Egypte, 49, 1950, p. 42-45.

(٣٦) احمد فخرى : الاهرامات المصرية ــ القاهرة ١٩٦٣ ص ٩٠ .

(٣٧) H. Vyse and J. S. Perring, Operations Carried on at The Pyramids of Gizeh, III, London, 1842, p. 85.

(٣٨) G. Maspero, Histoire Ancienne des Peuples de L'Orient, II, p. 58.

(٣٩) G. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb.. London, 1936, p. 339.

وأيا ما كان الامر ، فان آخر الابحاث التى تمت فى «هرم الكولة» انما كانت فى عام ١٩٤٦م ، حيث قامت بعثة بلجيكية من «مؤسسة الملكة اليزابيث للدراسات المصرية القديمة» فى «بروكسل» برياسة الاثرى «جان كابار» (١٨٧٧ — ١٩٤٧) بالحفر فى الموقع أملا فى العثور على مدخل الهرم ، ولكنها لم تنجح فى عملها ، وقد قام « جــان ستينون » مهندس البعثة بعد ذلك بعدة سنوات ، بعمل دراسة عن الجزء الذى فوق سطح الارض من هذا الاثر ، ونخرج من دراسته أن هرم الكولة انما شيد ليكون هرما ذاطبقات ، ويتكون من نواة ثلاث طبقات ، وأنه ذو ثلاث درجات : أولاها مكونة من اثنى عشر مدماكا من الاحجار وارتفاعها ٤,٣٠م ، والثانية من عشرة مداميك ، وأما الثالثة فقد تهدمت ولم يبق منها الا الشيء القليل ، وقد حصل البناءون القدماء على الاحجار الصغيرة التى شيد بها هذا الهرم من محجــر قريب منه ، وأن تلك الاحجــار موضوعة مائلة الى الداخل ، أما المونة فكانت من الطين المخلوط بالتبن والقليل من الجير .

ولم يقدم لنا «جان ستينون» سوى طول الضلع الذى فى الناحية الشمالية البحرية (١٨,٦٠م) ، ولكننا نرى من رسمه أن القاعدة مربعة، وأن ارتفاعه كان ٩,٤٠م .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى ظاهرة غير عادية فى هذا الهرم وهى أن زواياه — وليست أضلاع قاعدته — هى التى تتجه نحو الجهات الاربع الاصلية ، وربما كان ذلك راجعا الى الاتجاه الذى يسير فيه نهر النيل فى هذه المنطقة ولم يعثر «ستينون» على أى أثر للكساء الخارجى لاحجار هذا الهرم(٤٠) .

وأيا كان الامر ، فلقد احتفظت «نخن» (البصيلية) بمكانتها فى عصر

---

(٤٠) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٩٤ — ٩٧ .
وكذا Jean Stienon; El-Kolah, Mission de la Foundation Egyptologique Reine Elisabeth, 1949 in Chron. d'Eg, 49, 1950, p. 42-43.

التأسيس ، وأصبح الملوك يشهدون بالقداسة لارواح أجدادهم فيها ، وحرصوا على أن يولوا حكاما متميزين ، لقبوا كلا منهم بلقب «ساونخن» و «مينونخن» بمعنى «راعى نخن» ، وربما بمعنى «راعى أرواح نخن» وربما أصبح اللقب يعنى فى الدولة الوسطى على أقل تقدير ، معنى «أمين تاج الصعيد» على أساس نسبة التاج الابيض الى مدينة «نخن» منذ عهد زعامتها القديمة(٤١) •

هذا وتشير رسوم عصر بداية الاسرات ونقوشه الى معبدين عتيقين أحدهما فى الدلتا ، والاخر فى «نخن» (وربما فى نخب) ، ويسمى «بر — ور» بمعنى «البيت الكبير» أو «المعبد الكبير» وظل رمزا اصطلاحيا لمعابد الصعيد ، خلال العصور التاريخية ، ولهذا فقد كان يسمى أحيانا «اترة شمعيت» بمعنى «محراب الصعيد» ونسب فى أغلب أحواله الى الربين الصعيدين «ست» و «نخب» (أنخـاب) ، كما نسب اليه تاج الصعيد ، واعتاد الفراعنة على أن يقيموا بأسمائهم معابد على شاكلته فى ساحات احتفالاتهم بأعيادهم الثلاثينية ، ودلت نصوصهم على أنهم كانوا يتمنون لانفسهم أن يحتفظوا فيه بأعيادهم الاخروية أيضا(٤٢) •

وقد احتفظت «نخن» (البصيلية) منذ بداية عهد الدولة القديمة بزعامتها كعاصمة للاقليم الثالث من أقاليم الصعيد والذى يبدأ من مكان ما الى الشمال من ادفو من ناحية الجنوب ، وحتى بلدة «المعلا» الحالية — وتقع على الشاطىء الشرقى للنيل ، فى منتصف المسافة بين أرمنت واسنا ، وعلى مبعدة ٢٠ ميلا جنوبى الاقصر — وكان أهم مدن اقليم نخن هذا — أو الاقليم الثالث — خمسة مدن ، غير مدينة نخن •

---

(٤١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٠ •

R. Engelbach, Statues of The Soule of Nekhen and The Soule of Pe of The Reign of Amenophis, ASAE, 42, 1943, p. 71-73.

(٤٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٩ •

C. M. Firth, J. E. Quibell and J. P. Lauer The Step Pyramid, Cairo, 1935, PI, XL, p. 19; 99.

كانت المدينة الاولى هى مدينة «نخب» ، والتى عرفت عند الاغريق باسم «اليوتو بوليس» ، وعند العرب «أنكاب» وأما اسمها الحالى فهو «الكاب» — وتقع على الضفة الشرقية للنيل ، وعلى مبعدة ١٩ كيلا الى الشمال من ادفو — وهى أحدث بكثير من «نخن» التى كانت تناهضها الشهرة ، ويبدو أن مركز العاصمة انما كانت تتناقله المدينتان الواحدة تلو الاخرى ، الى أن استقر فى عصر البطالمة فى «اسنا»[٤٣] .

وأما ثانية المدن ، فهى «بر — خنس» بمعنى «بيت الاله خونسو» وهى «عزبة بخنوس» (بخانس) الحالية ، والتى تقع فى « البصيلية» نفسها ، على مبعدة حوالى خمسة كيلو مترات الى الشمال من هرم الكولة وليس فى مركز نجع حمادى ، كما رأى المرحوم الدكتور سليم حسن ، ذلك لان نجع حادى انما تقع فى الاقليم السابع ، وعاصمته « هـو » (ديو سبوليس بارفا) ، على مقربة من مدينة نجـع حمادى وليس فى الاقليم الثالث ، والذى كانت عاصمته «نخن» .

وأما ثالثة المدن ، فهى «كوم مرة» ، وهى قرية «كومير» الحالية ، على مبعدة ١١ كيلا ، جنوبى اسنا ، وكانت المدينة الرابعة «تا — ست —

---

(٤٣) اسنا : عاصمة آخر مركز بمحافظة قنا من ناحية الجنوب ، وتبعد بحوالى ٥٥ كيلا الى الجنوب من الاقصر ، وقد اشتق اسمها الحالى من اسمها المصرى القديم «تا — سنى»،وسميت أيام الاغريق «لاتونبوليس» اى مدينة «اللاتوس» وهو نوع من السمك كان يرمز به للآلهة «نين» التى كانت تعبد فى هـذه المدينة ، وكان ذلك السمك مقـدسا فيها ، وأهم معبودات المدينة «خنوم» وزوجتاه «نب — ووت» و «منحيت» .

وكانت مدينة هامة فى عهد الدولة الحديثة ، حيث شيد ملوكها معبدا تهدم مع الزمن ، وقام بترميمة ملوك الاسرة السادسة والعشرين ، ثم اعيد تشييده فى عهد بطليموس السادس ، حيث أصبحت اسنا فى عصر البطالمة عاصمة اقليم نخن ، بدلا من مدينة نخب ، ومازال هـذا المعبد قائما ، وقد أضيف اليه فى العصر الرومانى بهو الاعمدة الفخم ، من أيام «كلوديوس» و «فسباسيان» ، وقد نقش على جدران المعبد نصوص دينية هامة ، جعلت لهذا المعبد مكانة خاصة بين الآثار الهامة فى مصر ، ويرجع آخر نقش فى المعبد الى عهد الامبراطور «ديكيوس» عام ٢٥٠م ولم يتم حفر المعبد حتى الآن ، كما أن جزءا كبيرا من المدينة القديمة ما يزال تحت منازل المدينة الحالية (أحمد فخرى : الموسوعة المصرية ٩٩/١) .

ان حولو» وهى قرية «الحلة» الحالية،فى مواجهة ابننا عبر النهر تقريبا، وأما خامسة المدن فهى «حسفنت» (أصفون المطاعنة) ، وتقع غرب النيل شمال اسنا .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه فى عهد الامبراطورية المصرية ، أصبحت سلطات حاكم النوبة المصرى ، والذى كان يلقب «ابن الملك فى كوش» تتغير من وقت لاخر ، فبينما نراها فى أوائل عهد الاسرة الثامنة عشر تمتد من «نباتا» (على مقربة من الشلال الرابع) ، وحتى «اليفانتين» (جزيرة أسوان) نراها بعد ذلك تمتد حتى «نخن» وذلك بسبب الرغبة فى جعل مناطق استغلال الذهب فى كل من مصر والسودان تحت ادارة واحدة[٤٤] ، وان ذهب البعض الى أن ذلك انما كان لفترة قصيرة[٤٥] .

وأيا ما كان الامر ، فلقد غدت مدينة «نخن» ــ عاصمة الاقليم الثالث ــ وسطا بين أقاليم وادى النيل ، التى تقع تحت السيادة المصرية ، كما أصبحت مقر الحاكم المشرف على جنوب وادى النيل ، بعد أن كان مقره «أسوان» فى عهد الدولة القديمة[٤٦] .

وأما اقليم«نخن»،فقد عبد فيه الاله «حور»وهو الاله الاكبر فى مصر فى بداية العصر التاريخى ــ وقد كان «حور» اله «نخن» ، ثم أصبح الاله الحامى لحكام نخن المنتصرين على الدلتا ، وخلفائهم المباشرين[٤٧]،

---

(٤٤) محمد أبو المحاسن عصفور : معالم تاريخ الشرق الادنى القديم ص ١١٧ .

(٤٥) ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ــ ترجمة عباس بيومى ص ٥٢٠ .

(٤٦) احمد بدوى : فى مركب الشمس ــ الجزء الثانى ــ القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ .

(٤٧) W. B. Emery, Archaic Egypt, (Penguin Books), 1963, p. 120.
J. E. Quibell, op. cit; I, PI, II
I. E. S. Edwards, op. cit; p. 51.

وظلت «نخن» — الى جانب ادفو وقوص — أكثر مدن الصعيد تشيعا للاله حور ، الامر الذى جر على سكان هذه المدن عداء المتعصبين للاله «ست» ، رب الصعيد القـديم ، وقد ترتب على ذلك أن أصبح زعماء نخن يعرفون بين الناس بلقب «شمسو حور» أى «أتباع حور» ، وقد استمسك القوم بهذا اللقب ، وجاهدوا حتى أصبحوا زعمـاء الصعيـد من غير منازع(٤٨) .

هذا وقد عبدت فى «نخب» ضاحية نخن الدينية ، الالهة المحـلية «نخب» ولما امتد سلطان «نخـن» على الصعيد كله ، أصبحت نخبت (نخابة) الآلهة الحارسة لمصر العليا كلها ، ولقبت (بيضاء نخن) ، ثم اعتبرها ملوك التوحيد راعيتهم وحاميتهم ، ثم سرعان ما أسهمت مع الكوبرا (ادجـو) من (بوتو) فى الدلتـا فى شرف منح الملك لقبه المعروف(٤٩) (لقب السيدتين) ، وهو واحد من ألقاب الملك الفرعـون الخمسة ، وكانت (نخبت) فى عصر التأسيس تصور دائما ببساطة فى شكل رخمة ، وفى العصور التالية غالبا ما صورت فى شكل امرأة برأس رخمة(٥٠) .

(٢) ثنى = ابيدوس

قامت (ثنى) — عاصمة الاقليم الثامن من أقاليم الصعيد — فى اقليم أطلق المصريون القدامى عليه اسم (تا — ور) بمعنى الارض العظيمة أو البلد الكبير أو الوطن العظيم ، وهو اقليم كان مركزا من المراكـز الكبيرة للحضارة النقادية القديمة ، هذا وقد احتلت ثنى مكانة عظيمة لدى الفـراعنة ، وذكرى طيبة ظلت عالقة فى أذهـان المصريين حتى أخريات عصورهم القديمة .

---

(٤٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٠٨ .
A. Moret, Le Nile et al Civilization Egyptienne, Paris. 1926, p. 9.

(٤٩) Sir Alan Gardiner, Egypt of The Pharoohs, Oxfird. 1964, p. 402.

(٥٠) W B. Emery, Archaic Egypt, 1963. p. 125.

ولما ابتغى المؤرخ المصرى (مانيتو) أن يكتب تاريخ بلاده فى القرن الثالث قبل الميلاد ، الذى عاش فيه ، وجد لديه من الروايات ما سمح له بأن ينسب ملوك الاسرة الاولى والثانية اليها ، فسماهم باسم (الملوك الثينيين)[٥١] وان كان هذا لا يعنى أننا نوافق على أن (ثنى) انما كانت عاصمة البلاد فى عصر التأسيس ، ولعل من الافضل القول بأنها كانت احدى المدن الثلاثة الكبرى (نخن — ثنى — انب حج) ، وليست عاصمة البلاد[٥٢] .

وأيا ما كان الامر ، فان آثار (ثنى) قد زالت تماما ، ومن هنا كان اختلاف المؤرخين حول تحديد مكانها على وجه اليقين ، وان كان (هرمان كيس) يذهب الى أنه انما يقع بالتأكيد الى الشمال من (أبيدوس)[٥٣] (جبانة ثنى) ، وفى مركز جرجا بالذات ، وأن الاختلاف يجب أن يقتصر على التحديد الدقيق للمكان من هذا المركز ، ومن ثم فقد ذهب رأى الى أن (ثنى) انما تقع فى مكان قرية (البربا) الحالية ، على مبعدة خمسة كيلو مترات الى الشمال الغربى من جرجا ، غير أن هذا المكان لم يعثر فيه على آثار هامة تؤيد هذا الرأى ،كما أنه يبعد نسبيا عن أبيدوس[٥٤] .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب الى أن (ثنى) انما تقع فى مكان قرية (الطينة) الحالية[٥٥] ، بينما يتجه رأى ثالث الى أنها عند (نجع الدير) — على الشاطىء الشرقى للنيل ، جنوب جرجا ، وعلى

(٥١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨١ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ٤٤٢ .

A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, Oxford, 1966, p. 559

(٥٢) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٤١٤ ، جيمس بيكى : المرجع السابق ص ١٥٤ .

(٥٣) تقع أبيدوس على حافة الصحراء الغربية ، عند قرية العرابة المدفونة (عرابة أبيدوس) ، على مبعدة ١٠ كيلا ، الى الغرب من مدينة البلينا ، بمحافظة سوهاج .

(٥٤) H. Kees, Ancient Egypt, London, 1961, p. 231.

(٥٥) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة — القاهرة ١٩٦٦ ص ١٣١ .

بعد قريب من نجع المشايخ[٥٦]، وأما (سير ألن جاردنر) فانه يميل الى رأى مواطنه الاثرى (سايس) الذى يذهب الى أن «ثنى» انما هى «نجع المشايخ»[٥٧]، جنوب شرقى جرجا عبر النهر، وعلى أى حال، فان «ثنى» تقع فى مكان لا يبعد كثيرا عن «جرجا» لان الهها «أنوريس» غالبا ما يدخل فى أسماء أعلام الجهة المجاورة، وهى نجع الدير، ونجع المشايخ[٥٨].

هذا وقد احتفظت «أبيدوس» (ابدو — ابجو) — جبانة ثنى — ببقاياها وشهرتها، أكثر مما احتفظت بها مدينة «ثنى» نفسها، واكتسبت شهرتها منذ — شاد ملوك الاسرة الاولى، وبعض ملوك الاسرة الثانية مقابرهم وأضرحتهم فيها[٥٩] واكتسبت نصيبا من القداسة لوجود معبد «خنتى امنتى» امام الغربيين (أو الغرب، والغرب هنا هو عالم الموت) على حافة الاراضى الزراعية المؤدية اليها، وعلى حافة الطرق المؤدية الى مقابر الملوك فيها، وزادت قدستها بعد بداية عصر الاسرات، منذ أن اعتبرها أهل الدين مقرا لضريح معبودهم «أوزير»، منذ أن نسبوا اليه قبر الملك «جر» من الاسرة الاولى، ثم تمخضت قداستها بمرور الاجيال، حتى اعتبرت فى الدولة القديمة دارا للحج والزيارة[٦٠].

أما الآلهة التى كانت تعبد فى اقليم «تا — ور» (تا — ور : هو اسم أبيدوس وثنى)[٦١]، فقد دلتنا قائمة «سنوسرت» على أن أول معبود فيها انما كان «خنتى امنتى» (أول أهل الغرب)، ثم «أوزير»،

---

(٥٦) A. H. Gardiner, Ramesside Textes Relating to The Textion and Transport of Corn, JEA, 27, 1944, p. 48.

(٥٧) Sir Alan H. Gardiner, JEA, 27, 1941, p. 48.

(٥٨) A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, II, Oxford, 1947, p. 38.

(٥٩) Walter B. Emery, Archaic Egypt, (Penguin Books), 1963, p. 54 F.

(٦٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨١ .

(٦١) A. H. Gardiner, Onom, II, p. 36.

وقد وحد الأثنان معا[٦٢]،ثم عبد «أنحور» (أنوريس عند الاغريق)[٦٣]، فى عهد الدولة الحديثة ، ثم استضافت أبيدوس «حـور ـ مين»[٦٤] بعد ذلك .

هذا وقد كانت الالهة «ماتيت» أو «محيت» التى مثلت على هيئة لبوة الهة مدينتى «نخن» و «ثنى» ، وقد مثلت فى كثير من الاختام التى ترجع الى الاسرة الاولى فى شكل لبوة جاثية ، يبرز من ظهرها ثلاثة أو أربعة قضبان منثنية[٦٥] أمام مقصورة مصر العليا ، كما يبدو واضحـا من طبقات أختام طينية فى مقبرة الملك «جت» فى سقارة ، وكذا المقبرة المنسوبة للملكة «مريت ـ نيت»[٦٦] .

ولعـل من أهم آثار أبيدوس : ذلك المبنى الذى نسب الى الملك «خع سخموى» من الاسرة الثانية ، ويدعى الان «شونة الزبيب» ، وقد سور بسورين ، بلغ ارتفاع الواحـد منها اثنى عشر مترا ، ويتضمن السور الداخلى دخلات طويلة عميقة ، تمتد رأسيا بارتفاع الجدران ، وبلغت أبعاده ١٠٨ × ٢٢ مترا ، ويوجد على قمة البناء طبقة من البناء لا توجد فيها بعض قوالب الاجر ، مما يرجح استخدام هذه الفجوات لقذف المحاصرين للسور بالمقذوفات ، كمـا عثر على بناء آخر ينتمى للملك «بر ـ ايب ـ سن» يطلق عليه الان اسم «القلعة الوسطى»[٦٧]،

---

(٦٢) W. B. Emery, op. cit; p. 124-125.

(٦٣) سليم حسن : اقسام مصر الجغرافية ص ٤٨ .

(٦٤) انظر عن الالهين ، حور ، ومين ، وأصلهما العربى المشترك (محمد بيومى مهران : العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القـديمة ، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ العدد السادس ـ الرياض ١٩٧٦ ص ٢٩٩ ـ ٣٠٧) .

(٦٥) أدولف ارمان : ديانة مصر القـديمة ـ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكرى ـ القاهرة ١٩٥٢ ص ٤٠ .
W. B. Emery, op. cit., p. 125.

(٦٦) W. B. Emery, Great Tombs of The First Dynasty, II, London, 1954, figs, 186-228-230.

(٦٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق : ص ٢٨٢ ، أحمد سليم المرجع السابق ص ٢٥٢ .

هذا ويرجح العلماء أن هذين البنائين انما قد استخدما كحصنين ، وليس كاستراحتين للملوك أو معابد وادى — ذلك لأن أسوارهما ومداخلهما الحصينة انما تؤكد استخدامها للاغراض الحربية[٦٨] •

(٣) انب حج = منف

كانت «انب — حج» ثالثة المدن الكبرى (نخن — ثنى — انب حج) فى عصر بداية الاسرات ، من حيث الزمن ، ولكنها ظلت أوفرها مجدا ، وأبقاها شهرة ، وتعددت الاحتمالات حول ترجمة اسمها ، فهو قد يعنى الجدار الابيض أو الحصن الابيض ، أو السور الابيض أو الاسوار البيضاء •

ولعل سبب وصف البياض هذا ، انما يرجع الى أن حصن المدينة أو سورها انما كان مشيدا من قوالب اللبن — شأنه فى ذلك شأن غيره من أسوار المدن التى كشف عن بقاياها ، والمدن التى صورتها صلايات أوائل عصر بداية الاسرات — ثم كساه أصحابه بملاط أبيض ، اما تقليدا للون تاج الصعيد الابيض ، وتمجيدا لاصحابه الذين أتموا وحدة البلاد ، واما تفاديا للون اللبن القاتم ، ورغبة فى اظهار المدينة بلون واضح مشرق ، وقد بقى ظل لطلاء أبيض بالفعل فوق جدران كل من سور مدينة «نخن» وأسوار شونة الزبيب والقلعة الوسطى فى أبيدوس•

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب الى أن القوم ربما شادوه أولا من الرديم والدبش ، كما فعلوا فى تسوير قاعدة المعبد الداخلى لمدينة «نخن» ثم كسوه بعد ذلك بالحجر الجيرى الابيض[٦٩] •

= W. M. F. Petrie, Tombs of The Courtiers Oxyrhynkhos, London, 1925, p. 9.

(٦٨) R. El-Nadowry, PASA, 1968, p. 19-17.

(٦٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٤ •

E. R. Ayrton and Others, Abydos, III, London, 1904, p. 2.

H. Frankfort, The Birth of Civilization in The Near East, London, 1954, p. 81.

هذا وقد سميت «انب جح» «منف» من عبارة «من نفر» بمعنى «المقر الجميل» وقد أخذ هذا الاسم «من نفر» من اسم «هرم ببى الاول» والمدينة التى بناها الملك حوله ، وقد كان يسميان «ببى من نفر» ويوجد على جافة الصحراء فى مواجهة قرية سقـارة الحديثة ، والى الغرب منها بحوالى ثلاثة كيلو مترات ، حيث أسس معبد بتاح ومعابد عظيمة أخرى ، ولم يوجد اسم «من نفر» قبل الاسرة الثـامنة على رأى[٧٠] ، وقبل الاسرة السادسة ، على رأى آخر ، ثم حرفه الاغريق الى «ممفيس» ، ثم كتبها العرب «منف»[٧١] .

وتقع أطلال «منف» على الشاطىء الايسر للنيل ، على مبعدة ثلاثة كيلو مترات ، ٢٢ كيلا الى الجنوب من القاهرة ، تحت وبجوار قـرية «ميت رهينة» بمركز البدرشين ، بمحافظة الجيزة ، وقد اشتق اسم «ميت رهينة» من الكلمة المصرية التى تعنى «طريق الكباش» ، وكان هذا هو الطريق الممتد بين معبد بتاح الذى كان مقاما فى المدينة الى جبانة سقارة التى تقع الى الغرب ، وكان على جانبى الطريق تماثيل الكباش .

وقد عرفت المدينة فى العصور التاريخية بأسماء عدة ، منها «نوت» أى المدينة و «نوت نحح» أى المدينة الابدية ، و «عنخ توى» أى حياة الارضين ، و «حت كابتاح» أى معبد روح بتاح ، وفى الواقع أن اسم «مدينة بتاح» لا يحتاج أيضا الى ايضاح ، ذلك لان «بتاح» كان رب المدينة ومعبودها وحاميها ، اليه يهرع الشعب فى أوقات العسر والشدة ، والى ساحته يحج الناس من أقاليم الوادى ، وفى معبده يتوج الملوك ، وباسمه تجرى أمور الدولة وتدير شئونها ، وشبيه هذه التسمية ماهو شائع فى الاقاليم المصرية فى أيامنا هذه[٧٢] .

وينسب بناء المدينة الى الملك «مينا» اذ يحدثنا «هيرودوت»[٧٣] أن

---

(٧٠) A. H. Gardiner, Onom, II, 1947, p. 122-123.
(٧١) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٦٣٣ .
(٧٢) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٦٣٣ .
(٧٣) Herodotus, II, 92.

«مينا» كان أول ملوك الاسرات ، وأنه قد بنى هذه المدينة ، على أن المؤرخـين انما يختلفون فى الوقت الذى أصبحت فيه «منف» عاصمة البلاد ، فبينما يذهب البعض أن «مينا» لم ينتقل اليها من صعيد الوادى بعد انشائها مباشرة ، يذهب البعض الاخر الى أن انتقال المقر الملكى من مكان ما فى الجنوب الى هذا المركز الممتاز عن ناحية الموقع عند رأس الدلتا ، يجب أن ينظر اليه كمناسبة مباشرة لأرساء دعـائم المملـكة المزدوجـة •

وقد ناقش «كورت زيته» الاعمال الهامة التى نسبها «هيرودوت» الى «مينا» بكثير من البراعة ، وهى عبارة عن انشاء جسم ضخم يحمى «منف» من غائلة الفيضان ، وكذلك بناء معبد بتاح الى جنوب الاسوار المحصنة ، ويؤكد هذا الامر لوحة من الاسرة التاسعة عشرة تشير الى «بتاح منيس» هذا الى جانب حقائق أخرى كثيرة لا يمكن احصـاؤها تربط بين مينا ومنف[٧٤] ، وعلى أى حال ، فهناك اجماع على أن عاصمة الدولة انما قد نقلت بصفة نهائية الى الشمال فى منف ، على الاقل منذ أيام «زوسر» ثانى ملوك الاسرة الثالثة •

وقد نسب المصريون مدينتهم الجديدة الى معبودها «بتاح» وكان من أوائل المعبودات التى ظهرت فى هيئة بشرية منذ ما قبل عصر بداية الاسرات ، وظل محتفظا بها حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ، كما ظلت عقيدته ــ وخاصة بين الطبقات المثقفة ــ قوية ، اذ كانت تسودها الروحانية ، بخلاف العقائد الاخرى التى غلبت عليها المادية ، وربما كان أصل هذا الاله رجلا عبقريا ، طواه النسيان لزمن بعيد ، اذ أنه بخلاف مجموعة الالهة المصرية لم يأخذ صورة حيوان ، ولم تكن له صلة بواحد من هذه الحيوانات ، وقد مثل فى شكل رجل فى لفاف مومياء ، لا يغطى رأسه قلنسوة ضيقة ملاصقة لعظام الرأس[٧٥] •

---

(٧٤) ZAS, XXX p. 43 F.
وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 408,
(٧٥) W. B. Emery, Archaic Egypt, 1963, p. 122.

هذا وقد شاد القوم معبد بتاح فى الناحية الجنوبية المفتوحة من السور ، واعتادوا أن يلقبوه منذ ذلك الحين بلقب «الكائن جنوبى جداره» (أو جنوبى سوره) ، وربما تمادوا الى الجنوب من الباب القبلى لمعبده ، بناية صغيرة خصصت للمعبود «عب» أو «حاب» الذى رمز اليه بالفحل ، وربما للفحل نفسه ، فيما يظن هرمان كيس(٧٦) .

وشارك بتاح شهرته فى منطقة «منف» معبود آخر ، هو « سكر » (أو سوكر) الذى صور على هيئة صقر محنف ، وبشكل آدمى برأس صقر واعتبر الها لجبانة منف (سقارة) التى سميت باسمه ، وربما كان له معبد داخل «انب ــ حج» نفسها(٧٧) .

هذا وقد أضافت نصوص الدولة القديمة ذكر معابد أخرى . داخل منف وخارجها ، يغلب الظن أنها كانت موجودة فعلا منذ عصر بداية الاسرات ، وأهمها معبد «نيت» شمال الجدار ، فى مقابل معبد بتاح، جنوب الجدار ، ومن ثم فقد لقبت بأنها «الكائنة شمالى جداره» وكذا معبد «حاتحور» التى لقبت «سيدة الجميزة القبلية» ، وكان لها معبد جنوبى المدينة ، وربما معبد آخر داخل المدينة ، شرق معبد بتاح على كوم الكالة العالية ، ومعبد «سخمت»(٧٨) التى وصفت بأنها «الكائنة فى

---

(٧٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٥ .
وكذا H. Kees. Das alte Agypten, p. 88.
(٧٧) ادولف أرمان : المرجع السابق ص ٣٠ .
وكذا I. E. S. Edwards, op, cit., p. 53.
(٧٨) سخمت : اشهر الالهات اللاتى صورن على هيئة سيدات لهن رؤوس لبوات ، وكانت فى منف زوجة للاله بتاح ، واما للاله «نفرتوم» وكان مركز عبادتها الرئيسى فى منف ، الى جانب مركز آخر فى «أوسيم» عاصمة الاقليم الثانى من اقاليم الدلتا ، ولم تلعب «سخمت» دورا فى اللاهوت المصرى القديم ، الا بعد أن ارتبطت بالاله بتاح ، ولعل اسمها فى اشتقاقه اللغوى من كلمة «سخم» بمعنى «قوى ، شديد البأس» ، يدل على مجموعة صفاتها ، فكانت الهة حرب فى الدرجة الاولى ، تصاحب الملك فى غزواته ، فتنتشر الذعر فى قلوب الاعداء ، وكانت فى بعض الاساطير «عين رع» التى فتكت بالبشر عندما خرجوا على طاعة الاله ، وهى التى تحمى رع ، وتحمى ايزة ، وهى التى فتكت بأعوان «ست» فى الصراع بين حور وست ، وهى التى تتغلب على الثعبان أبوفيس،وقد

الوادى الصحراوى» أى فى الحافة الصحراوية الفاصلة بين « انب — جح» وبين جبانتها سقارة ، وشبهت بربة أو الهة عبدت فى «تل بسطة» الحالية ، وسميت «الباستية» التى يقوم معبدها فى الجانب الغربى من المدينة(٧٩)

وأما أهمية موقع «منف» فهو فى منتهى الأهمية ، اذ قام بدوره الهام منذ أول التاريخ ، وكان نقطـة الارتكاز فى كل محاولة لحـكم قطرى الوادى ، بل ان «القاهرة» — العاصمة الحالية لمصر - انما تقع فى حدود هذا الاقليم ، كما أن الاقليم ذو تاريخ حضارى قديم ، فيه قـامت حضارات حلوان وطره والمعادى ، ومن هنا كانت أهمية منف فى التاريخ المصرى ، ودورها الهام فى كل العصور الفرعونية أو تكاد ، فقد كانت عاصمة لمصر طوال عهد الدولة القديمة ، كما كانت العاصمة العسكرية لمصر على أيام الدولة الحـديثة ، ثم أصبحت مع «بى رعمسيس»(٨٠) (قنتـير) بالتناوب ، المقر الملـكى الرئيسى فى الشمال ، خـلال عهد الأسرتين ، التاسعة عشرة والعشرين •

وهكذا ظلت لمنف أهمية سياسية كبيرة طوال التاريخ الفرعونى ولم تبدأ فى التدهور الا بعد دخول المسيحية للبلاد ، وان كان مما لا شك فيه أن قيام الاسكندرية فى عام ٣٣٢ ق•م لتكون عاصمة انما كان عاملا حاسما فى تدهور منف وهبوطها الى المركز الثانى بين مدائن مصر(٨١) ، وعلى أى حال ، فلم يبق من آثار هذه المدينة العظيمة الان ، الا أطلال بسيطة ، أما جبانة سقارة فى غربها ، فهى زاخرة بالمقابر والاهرامات

=
قورن بين سخمت وبين عدد من الالهات مثل باستت وبوتو وحاتحور ، كما أنها شاركت «ايزة» فى لقبها «عظيمة السحر» (الموسـوعة المصرية ١/٢٦٨) •

(٧٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٨٥ •

(٨٠) أنظر عن «بى — رعمسيس» عاصمة الرعامة (محمـد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ٤٦ — ٦٢) •

(٨١) R. S. Poole, The Cities of Egypt, London, 1882, p. 187.

الفصل الخامس

السياسة الخارجية

الموقع الجغرافي :

كانت مصر بعزلتها فى اطار من صحراوات لا تحد ، ربما تستطيع القوافل الصغيرة أن تخترقها ، ولكنها موانع لا يمكن التغلب عليها ، اذا ما أرادت قوة حربية كبيرة أن تشق طريقها فى فيافيها ، وهكذا حبت الطبيعه مصر وسائل طبيعية للدفاع عنها ، ففى الجنوب كانت الشلالات (الجنادل) بمثابة حواجز طبيعية تصد هجوم الأقوام الساكنة فى جنوبها ، كما تصد الصحارى ومياه البحر المتوسط هجمات من يسكنون الى الشمال والى الشرق والغرب منها .

ولئن اتجهنا الى خارج الحدود المصرية لنرى الى أى مدى كان ذلك صحيحا ، وبدأنا من الجنوب ، لرأينا أنه فى وسط الطريق بين ادفو والمناحى الضيقة لجبل السلسلة — على مبعدة ٤٢ كيلا الى الجنوب من أسوان — أن شكل الارض يتغير تماما ، فهناك نمر من اقليم الحجر الجيرى الذى يشكل الكتلة الضخمة لمصر ، الى اقليم خشن من الحجر الرملى ، يمتد جنوبا الى مسافة ألف ميل من ناحية السودان ، ولايعوق هذه المرحلة سوى خط قصير قبل الجندل الاول ، وراء الجزيرة الكبيرة المعروفة باسم «اليفانتين» (جزيرة أسوان) مباشرة ، ويتكون الجندل من تيارات نهرية ، بسبب وجود كتل ضخمة من الجرانيت الاحمر أو الاسود تعترض الطريق ، وقد جعلت هذه لمصر الفرعونية حدودها الطبيعية(١) .

(١) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 33.

وأما الرقعة الغربية من مصر ، فتكاد أن تكون صحراء تماما ، ولكن علينا أن نقدر مدى الجفاف الذى حل بها خلال الخمسة آلاف عام الماضية ، فقد كان هناك على طول البحر الابيض المتوسط اقليم مأهول بالسكان ، تشغل جانبا منه المراعى ، وتشغل جانبا آخر منه أرض صالحة للزراعة[2] ، وعلى أى حال ، فان مصر لم تتعرض لاخطار جسيمة من هذه الجهة ، الا على أيام الاسرتين التاسعة عشرة والعشرين ، بسبب هجمات «شعوب البحر» وقد كتب لمصر نجحا بعيد المدى فى القضاء على هؤلاء الغزاة ، على حدود الدلتا الغربية[3] .

أما من ناحية البحر الابيض المتوسط ، الذى يكون الحد الشمالى لمصر ، فليس هناك من كثير يقال ، سوى أن البلاد قد أصبحت مكشوفة من هذه الناحية ، وذلك حين أصبح مغامرون من أبناء البحر أكثر جرأة ، ولابد أن الاتصال بكريت كان قائما منذ زمن بعيد ، ذلك لان الثقافة المينوية تقدم دلائل قوية على التاثير المصرى ، أما الاتصال البحرى المبكر من هذه الناحيه ، فليس لدينا عليه من دليل مؤكد[4] ، وان كنا نعرف أن أول هجوم بحرى تعرضت له مصر ، كان فى العام الثامن من عهد «رعمسيس الثالث» (حوالى عام ١١٧٤ ق.م) ، وقد كتب لها نجحا بعيد المدى فى القضاء عليه[5] .

أما من ناحية الشرق ، فقد كانت مصر مكشوفة ، وعرضة للهجوم ، وان كان ذلك فى بقعة محددة بالذات ، كان الطريق من والى فلسطين ، يمر بشمال شبه جزيرة سيناء مسيرة قرابة تسعين ميلا (من القنطرة الى العريش) على أرض شاسعة رملية محرومة من الماء ، ولكن هذه

(٢) Ibid., p. 43-45.

(٣) انظر عن «شعوب البحر» (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث ـ الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١١٥، ١٢٨، ١٩٨ ـ ٢١٨) .

(٤) A. H. Gardiner, op. cit; p. 46.

(٥) انظر : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٢٥ـ٢٣٤ .

المسافة لم تكن كافية لتعوق أولئك الذين تشدهم الحاجة ، أو الطمع ، الى خيرات مصر .

ولقد سارت فى الطريق نفسه ، أن عن طريق «بلوزيوم» على مقربة من البحر ، جيوش «اسرحدون» و «قمبيز» و «الاسكندر» الغازية ، كما سار فى عكس الاتجاه العديد من فراعين مصر نفسها — أمثال أحمس وتحوتمس ورعمسيس[6] — وهناك اشارات عن مدى الخطر الذى يتهدد مصر من هذه الناحية ، يتردد حوالى عام ١٩٧٠ ق.م ، فى الحديث عن «أسوار الحاكم» التى شيدت لترد «الستيو» ولتقضى على «المتنقلين فوق الرمال»[7] .

وأما بعيدا الى الجنوب ، فقد كانت مصر آمنة تماما ضد أية فرصة للعدوان ، ذلك لان خليج السويس ومن ورائه البحر الاحمر ، انما كانا بمثابة خط دفاع ، بل انها أكثر من ذلك ، كانت تفصلهما عن طريق النيل قنن من الجبال ، ترتفع أحيانا الى أربعة آلاف قدم ، ولم يكن يعيش فى هذه الناحية قوم لهم من القوة ما يكفى لشق طريقهم الى مصر[8] .

ومجمل القول أن مصر فى عصورها الفرعونية ، يسرت لها الطبيعة عزلة ناعمة كأية دولة أخرى ، ترزق حسن الطالع ، حتى تستطيع أن تطور ثقافتها الفردية العالية ، ولم تقلل هذه الظروف السعيدة من فكرتها الطيبة عن ذاتها ، فقد كان المصريون يعدون أنفسهم «الرجال» الحقيقيين وحدهم ، والشعب الوحيد حقا الذى يستطيع أن يحمل عن جدارة اسم «رومى»[9] .

(٦) A. H. Gardiner, The Ancient Military Road between Egypt and Palestine, JEA, 6, 1920, p. 99.

(٧) A. H. Gardiner, The Prophecy of Neferti. JEA, I, 1914. p. 105.

(٨) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 36-37.

(٩) كلمة «بيروميس» أى «رومى» مسبوقة بأداة التعريف أوردها هيرودوت بمعنى يقارب كلمة «جنتلمان» اليوم .
(Gardiner, op. cit: p. 37) (Herodotus, II, 143).

ومن الطبيعي أنها كانت تزدري جيرانها الاقربين ، الذين كانت تطلق على رؤسائهم لقب «وغد»[١٠] ذلك لان القوم انما كانوا يعتقدون أنهم وحدهم المتمدينون ، أما الاجانب فلا ، كما كانوا يعتقدون أن لبلادهم مكانة ليست لغيرها من البلاد .

وأيا ما كان الامر ، فلقد حبت القدرة الالهية مصر عوامل طبيعية ، جعلت أمر الدفاع عنها — في عصورها المبكرة — لا يتطلب منها طول نضال أو جهد ، ولعل هذا هو السبب في أنها لم تشترك في حرب طويلة — قبل أيام الهكسوس — تصرفها الى الاهتمام بالسياسة الخارجية ، وان كان هذا لا يعني — في الوقت نفسه — أنها لم تجرد حملة ، أو أن قتالا لم يقع عند حدودها ، اذ أن ذلك قد حدث ، وانما يعني أن ذلك لم يكلفها أكثر من غزوة ، أو عدة حملات ، لتأديب تلك القبائل الظاعنة أو المرتحلة حول الحدود ، وهو أمر كان في مقدور أية حكومة مصرية أن تعالجه كاحدى معضلات الامن العادية ، فلم يكن هناك أي تحد لمصر في داخل حدودها ، بل انه حتى ذلك الحين ، كان تفوق مصر الحضاري على جيرانها كبيرا ، ومن ثم فلم تكن في حاجة الى غزو ، وانمـــا كان يكفيها اتخاذ بعض اجراءات لحماية مصالحها ، ولا يتطلب الامر أكثر من ذلك ليستمر وصول التجارة اليها .

وهكذا كانت مصر — حتى ذلك الحين — مضطجعة في هـدوء على طول مجرى النيل،واثقة من أن الآلهة انما جعلتها أعظم من غيرها من بلاد الدنيا ، وسيدة — دون منازع — لكل مكان تصل اليه[١١] .

وهكذا كانت مصر — في أوائل أيامها — بلدا آمنا لا يهدده خطـر الغزو ، ومن هنا لم يكن ضروريا للمصريين أن يحتفظوا بقـوة حربية كبيرة بصفة مستمرة ، لتصد ما عساه أن يحدث من هجوم ، فقد كانوا

---

(١٠) A. H. Gardiner, op. cit; p. 37.

(١١) J. A. Wilson, The Cultures of Ancient, Egypt p. 154.
وانظر : نجيب ميخائيل : المرجـــع السابق ص ٢٥٠ (الاسكندرية ١٩٦٦) .

يستطيعون أن يروا أى خطر محتمل من مسافة بعيدة ، فضلا عن أنه كان شيئا بعيد الاحتمال أن يتمكن أى شخص مهاجم ومعه قوة كبيرة من أن يصل الى مصر نفسها[١٢] .

ولنحاول الان أن نتتبع سياسة مصر نحو حدودها الشرقية والغربية والجنوبية فى عصر التأسيس :

(١) فى الشمال والشمال الشرقى

كان من الواجبات الملقاة على عاتق ملوك عصر التأسيس أن يكفلوا حماية القوافل ، وبعثات المناجم والمحاجر ، والتى تجوس خلال صحراوات سيناء ، وقد ذكرت قطعة القاهرة لحجر « بالرمو » اشارة الى ما حدث فى عهد الملك «جر» — ثانى ملوك الاسرة الاولى — من «ضرب ستيه» وهو اصطلاح جغرافى علينا أن نشير اليه بأنه يقابل آسيا تقريبا[١٣] ، ونحن نطالع فى عهد ملك متأخر (ربما عدج — ايب) اشارات عن «ضرب الايونيتو» وهو اصطلاح مبهم كذلك ، قد يشير الى الشعوب القاطنة فى شمال شرق الدلتا ، وربما كان بمعنى «أصحاب العمد» وهم من بدو الصحراء الشرقية وسيناء، وربما ماوراءها أيضا[١٤] ، وقد أطلق عليهم «سترابو» «سكان الكهوف»، والذين كانوا يعيشون على النهب والسلب ، أو التجارة فى قوافل تقطع صحراء العرب[١٥] .

وهناك لوحة رائعة تمثل الملك «دن» (وديمو) يقوم بذبح اسيوى يسكن فى الصحراء الرملية هى «سيناء» ، وليس بالنصوص الهيروغليفية

---

(١٢) J. A. Wilson, op. cit; p. 13.

(١٣) A. H. Gardiner, op. cit; p. 414.

(١٤) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٦٧ ص ٨٩ . وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 414.

(١٥) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ـ الجزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٤٢ .

بها أية صعوبة فى الترجمة ، فقراءتها واضحة ، وتعنى «أول مرة لضرب الشرقيين»[١٦] .

ويبدو أن «جبيل» ـــ وتقع على مبعدة ٤٠ كيلا شمالى بيروت ـــ كانت على اتصال تجارى بمصر السفلى منذ عصر ما قبل الاسرات ، حيث وجدت جسور من جذوع الارز ، يعود تاريخها الى ما قبل الاسرة الاولى (عهد البدارى) مما يدل على أن الخشب انما كان يستورد من لبنان منذ ذلك العهد السحيق[١٧] ، هذا فضلا عن أنه قد عثر فى « جبيل » (بيبلوس) على بعض اللوحات الحجرية الرمزية المصرية ، وبعض التمائم الحيوانية الصغيرة التى ترجع الى عصور ماقبل الاسرات[١٨] .

وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى أن المصريين قد استوردوا من فينيقيا أخشاب الارز والصنوبر التى استخدمت فى مقابر الملوك فى أبيدوس ، وفى صناعة السفن الكبيرة ـــ ربما من عهد عحا ـــ فضلا عن استيراد الزيوت والخمور فى أوان فخارية من جنوب سورية .

وقد ذهب البعض الى أن هذه الواردات انما كانت بمثابة جزى ، قدمتها المناطق الخاضعة لمصر فى سورية وفلسطين ، بل ان هناك من يذهب الى أن مصر انما كانت لها حصون وعمليات دفاعية فى غربى آسيا منذ أيام الملك «نعرمر» ـــ مؤسس الاسرة الاولى ـــ وخلفائه من أمثال «جر» و «دن» و «قاعا» اعتمادا على صورة حصن نقشت على صلاية «نعرمر» ، وعلى شقة فخار مصرى تحمل اسم «نعرمر» فى «تل الشيخ»

(١٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 415.

(١٧) فيليب حتى : تاريخ لبنان ص ٨٥ .
وكذا G. Brunton and Caton Thompson, The Bodarian Civilization, London, 1928 p. 627.
وكذا S. R. K. Glanville, The Legacy of Egypt, Oxford, 1947, p. 6.

(١٨) رشيد الناضورى : اقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ـ الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٥ .
وكذا Pierre Montet, Byblos et L'Egypte, Paris, 1928, Nos., 118; 187, 358, 359.

جنوب فلسطين ، وعلى ذكر اسم حصن يدعى «باب عن» ، وآخر يدعى «ونه» فى جنوب فلسطين ، على آثار العصر نفسه ، والامر بهذه الصورة غير مؤكد تماما ، الا أن هناك فى نقوش الملوك ، وفى حوليات «حجر بالرمو» ما يشير الى ذلك[19] .

هذا وقد عثر فى أوائل الالف الثالثة قبل الميلاد على نسبة كبيرة من التمائم الحيوانية المصرية وبعض الاوانى الحجرية فى بيبلوس ، ومن أهمها قطعة حجرية مصرية تحمل سرخ ملكى ينتمى الى الاسرة الثانية المصرية ، واسم الملك «خع سخموى» آخر ملوكها[20] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى تلك الصلات التى كانت بين مصر وجنوب العراق فيما قبل عصر التأسيس وأثنائه ، اذ يشير كثير من الباحثين الى وجود صلات تجارية وحضارية بين البلدين ، اعتمادا على مجموعة الاوانى الفخارية ذات الصنابير المائلة ، فضلا عن ذات الآذان المثلثة فى المستجدة والبدارى ، والتى تنتمى الى حضارة جمدة نصر ، هذا الى جانب الاختام الاسطوانية الاربعة التى عثر عليها فى جرزة ونجع الدير ، والتى تنتمى الى حضارتى الوركاء وجمدة نصر فى العراق القديم[21] .

هذا الى أن الاسطوانة المحفورة التى وجدت فى مصر والعراق وعيلام والاناضول عند بداية التاريخ ، انما تشير مادتها التى صنعت منها — فضلا عن الاشكال التى نقشت عليها — الى أنها انما صنعت

(١٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨٩ .
وكذا H. Kantor, in JNES, 2, 1942, p. 174 F, 201 F.
وكذا W. M. F. Petrie, The Royal Tombs of The First Dynasty, I, London, 1900, p. 16-18, 3, II; 1901; p. 30.
وكذا Y. Yadin, in Israel Exploration Journal, 1955, p. 1-16
(٢٠) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال افريقيا ــ الكتاب الاول ــ بيروت ١٩٦٨ ص ٢١٠ ــ ٢١١ .
I. E. S. Edwards, CAH, I, Part, 2, 1971; p. 42-43.
وكذا H. Frankfort, op. cit, p. 101.

ـ فيما يرى البعض ـ فى بلاد النهرين (٢٢) ، وان استخدمت فى مصر فى أغراض تختلف عن تلك التى استخدمت فيها فى العراق القديم ، اذ استخدمها المصريون فى كتابة بعض أسماء الملوك ـ فضلا عن أسماء الموظفين وألقابهم ـ بينما كانت الأسطوانة العراقية تحمل رسوما لا نقوشا ، هذا الى أن الاختام المصرية انما كانت تصنع من الخشب ، وهو المادة التى لم يستعملها العراقيون القدامى (٢٣) •

وهناك تشابه فنى بين مصر والعراق ظهر على الآثار من تلك الفترة المبكرة ، اذ ظهرت فى مصر أشكال وعناصر زخرفية ، ظهرت لها مثيلات فى العراق ، وكانت من سمات الفن هناك واستمرت طوال العصور القديمة ، ولكنها اختفت هنا فى مصر بعد الاسرة الاولى ، ومن هذه الاساليب الفنية ما نجده محفورا على يد سكين عثر عليها فى جبل العركى على مقربة من نجع حمادى ، ويظهر فيها رجل يفصل بين أسدين • ومثل هذا المنظر مألوف فى العراق ، ولكنه نادر فى الآثار المصرية ، ويبدو من رداء وهيئة الشخص الذى يفصل بين أسدين أنه سومرى ، ولا يدع ذلك مجالا للشك فى أصلها العراقى •

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح الى أنه ان صح أن صورة هذا الشخص تشبه صور العراقيين أو الساميين الاوائل ، فلا بأس من افتراض أن الفنان المصرى قد استوحاها من أثر عراقى وصل اليه عن طريق التجارة غير المباشرة ، ثم قلدها على مقبض سكين جبل العركى هذه (٢٤) •

وهناك سمة أخرى من سمات الفن العراقى تظهر على لوحة نعرمر الاردوازية ، وهى نقش أسدين أو نمرين استطالت أعناقهما ، والتفت

(٢٢) H. Frankfort, op. cit, p. 101.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit, p. 43.
(٢٣) H. Frankfort, op. cit, p. 101.
(٢٤) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة وآثارها ـ الجزء الاول ـ ص ١٨٩ •

حول بعضهما ، الامر الذى يتطابق الى حد كبير مع أختام وطبعات أختام اكتشفت فى «أوروك» ، كما يتطابق كذلك مع ختم اسطوانى من متحف اللوفر من نفس العصر ، وفى كل من لوحة نعرمر والأختام كانت رقاب الوحوش متشابكة ، وهو الشكل الذى تقرر فى الفن العراقى كما ظهرت الثعابين الملتفة الرقاب على أيدى ثلاثة سكاكين ، ترجع الى عصر ما قبيل الاسرات فى مصر ، كما أن ترتيب هذه الوحوش والثعابين هو نفس نموذج الانتاج العراقى[٢٥] .

وهناك كذلك ظاهرة الفجوات المنتظمة فى العمارة ، حيث استعمل الطوب اللبن كزخارف ذات بروز وانخفاض (Panelling) ، وهى طريقة فى البناء يمكن تتبع أصلها وتطوره فى العراق ، ولكنها وصلت الى مصر فى أواخر عصر ما قبل الاسرات ، وهى كاملة التطور[٢٦] ، كما فى مقبرة «نيت حتب» فى نقادة .

غير أن الاجزاء العليا من مقابر عصر ما قبل الاسرات ، لم يبق منها شىء على الاطلاق بحيث يمكن أن نستدل منها عما اذا كانت قريبة من نظام المشكاوات أو بعيدة عنها ، هذا فضلا عن أن مقبرة نقادة ربما كانت تطورا لمقابر عصور ما قبل الاسرات فى الدلتا ، بخاصة وأنها انما قد بنيت من أجل ملكة الشمال (نيت حتب) ثم تبنت مصر هذا النموذج بعد التوحيد ، هذا الى جانب أن الفكرة المعمارية للمشكاوات فى مصر والعراق ، رغم تشابهها ، الا أنها قد اختلفت فى طريقة التنفيذ وفى الاغراض التى استخدمت من أجلها فى كلا البلدين ، فقد بنى المصريون السطوح الداخلية لمشكاواتهم على مستويات كثيرة متعاقبة لم تظهر فى مشكاوات العراق ، كما أنهم قد استخدموها فى واجهات القصور

(٢٥) J. A. Wilson, op. cit, p. 37.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit, p. 41.
وكذا H. Frankfort, The Origin of The Monumental in Egypt, AJSL, LVIII, 1941, p. 329-358.

(٢٦) J. A. Wilson, op. cit, p. 37.

والاسوار والمصاطب ، بينما استخدمها العراقيون فى معابد الآلهة فحسب[٢٧] .

وأما الطريقة التى تم الاتصال بها بين مصر والعراق ، فهى ماتزال موضع خلاف بين الباحثين ، فربما تم الاتصال عن طريق البحر الاحمر ، ثم طريق وادى الحمامات (طريق القصير — قفط) ، وربما عن طريق وادى طميلات ، الذى يصل جنوب شرق الدلتا بالبحر الاحمر ، وربما تم الاتصال عن طريق أحد موانى البحر الاحمر ، كالسويس أو القصير[٢٨] ، وأما الطريق الاخر فربما كان عن طريق سورية ، خلال الهلال الخصيب[٢٩] ، بل ربما تم الاتصال فى المناطق التى يجلب منها البخور فى جنوب الجزيرة العربية أو الشاطىء الصومالى[٣٠] .

(٢) فى الجنوب

هناك من يتجه الى أن المصريين — فى عصور موغلة فى القدم ، ربما نرجع الى ما قبل الاسرات بكثير — وكذا الجزء الرئيسى من هؤلاء الذين يقطنون النوبة السفلى ، والذين يسمونه بالمجموعة ((أ)) (A. Group) ، ربما كانوا ينتسبون جنسيا الى نفس مجموعة الاقوام الحامية[٣١] ، وأما أنهم كانوا يتكلمون لغة واحدة ، فذلك أمر لا نستطيع أن نتحقق منه ، مادمنا لا نملك وثائق مكتوبة ، تثبت ذلك الامر ، أو تنفيه[٣٢] .

وربما كانت الحدود بين مصر والنوبة تقع — بادىء ذى بدء — فى

(٢٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٢٦٦ .

(٢٨) John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 41.

(٢٩) R. Engelbach, The Advent of The Dynastic Race, ASAE, XLII, 1943, p. 208.

(٣٠) H. Frankfort, The Birth of Civilization in The Near East, London, 1951, p. 110-11.

(٣١) G. E. Smith and F. W. Jones, The Archaeological Survey of Nubia, II, Report on The Human Remains, Cairo, 1910, p 15-36.

(٣٢) I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Periad in Egypt. CAH, I, Part, 2, 1971, p. 50.

مكان ما فى مجـاورات جبل السلسلة ، ولعل هذا هـو السبب فى أن المصريين انمـا كانوا يطلقون على المنطقة التى تقـع الى الجنوب من الشلال الاول ـ بالمقارنة بأول أقاليم مصر العليا فى القوائم الملكية ـ «أرض النوبيين» وربما ما جاء على آثار «عحـا» من أنه قد ضرب «أرض النوبيين» ، انما يعنى أنه قد مد حدود مصر الجنوبية فيما وراء جبل السلسلة،أكثر مما يعنى أنه قام بحملة حربية فى النوبة السفلى[٣٣]، وان كان من الارجح أن حدود مصر كانت حتى «آبو» (اليفانتين) منذ أيام «مينا» مؤسس الاسرة الاولى[٣٤] .

وفى عام ١٩٤٩م عثر على منظر المعركة المحفورة على صخور جبـل الشيخ سليمان ، على مقربة من بوهن ، أمام وادى حلفا (٣٤٠ كيـلا جنوبى أسوان)،وفيها يسجل الملك «جر» ـ ثانى ملوك الاسرة الاولى ـ انتصاره على النوبيين[٣٥] . ويرمز النقش الى النوبة السفلى برسم قوس ، ولعل أقدم اسم للنوبة فى النصوص المصرية ، انما هو «أرض القوس» (تا ـ زيتى = Ta - Zeti) وهناك الكثير من الشواهد التى تربط بين القوس والنوبة السفلى ، فضلا عن مهارة النوبيين فى استعمال القوس والسهم[٣٦] .

وعلى أى حـال ، فلعل الملك «جـر» يعد ـ طبقا لهذا النقش ـ الفاتح الفعلى للنوبة السفلى ، كما يعد ذلك كذلك دليلا على اهتمـام ملوك الاسرة الاولى بتأمين حدود مصر الجنوبية ، وعلى وصولهم الى

---

(٣٣) T. Save - Soderbergh, Agypten und Nubie, Lund, 1941, p. 7.
وكذا H. goedicke, ZAS 81, 1956, p. 24.
(٣٤) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 50.
(٣٥) A. J. Arkell, Varia Sudanica, JEA, 36, 1950, p. 27-30.
(٣٦) J. E. Quibell and F. W. Green, Hierakonpolis, II. London, 1902, Pl. LVIII, p. 47-48.
وكذا A. J. Arkell, A History of The Sudan from Earlest Times to 1821, Lonpon, 1961, p. 40 F.

منطقة الشلال الثانى بغية تأمين التجارة مع السودان[٣٧] ، واستغلال مناجم الذهب عند وادى حلفا ، وقيام جيوشهم بحماية واستغلال هذا الذهب .

وفى عهد الاسرة الثانية ، نرى الملك «خع سخم» فى نقش له من «هيراقو نبوليس» (نخن = البصيلية)[٣٨] لا يترك لنا شكا فى أن النوبيين قد قاسوا منه نفس معاملة المتمردين فى الدلتا ، ولعل السبب فى ذلك أنه انما أراد أن يتقى أى هجوم من الخلف يقوم به النوبيون ضده ، فى وقت يكون فيه مشغولا بالحروب ضد مصر الوسطى والدلتا، ومن ثم فقد قام بحملته ضد النوبة ، قبل أن يبدأ الحرب ضد الشمال، ثم سادت العلاقات الودية بعد ذلك بين الفريقين ، وكانت تجارية فى الدرجة الاولى ، فكان النوبيون يأتون معهم بالابنوس والعاج،ويحملون معهم أثناء عودتهم الاوانى الحجرية والفخارية التى صنعت فى مصر[٣٩] .

(٣) فى الغـــــرب

لعل أقدم اشارة الى الليبيين فى الآثار المصرية ، ما جاء على لوحة الملك «العقرب» ــ أو لوحة تيحنو ــ حيث ظهر فى أحد وجهى اللوحة من أسفل ، أشجار يفترض «نيوبرى»[٤٠] أنها أشجار الزيتون ، وان عارضه فى ذلك «كيمر»[٤١] والى جانب الاشجار فقد ميز «زيتة» العلامة الهيروغليفية الدالة على بلاد تيحنو ، وهى أرض الليبيين المعروفين باسم «جحنيو» (تحنيو) وليس الامر فى حاجة الى كثير من البراعة للقول بأن الماشية عبارة عن غنيمة ، وأن الاشجار يستخرج منها زيت

(٣٧) A. J. Arkell, JEA, 36, 1950, p. 27 F.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 50.
(٣٨) B. Grdseloff, ASAE, 44, 1945, p. 300.
وكذا J. E. Quibell and F. W. Green, op. cit., Pls, LVII
(٣٩) I. E. S. Edwards, The Early Dynastic Period in Egypt, CAH, I, Part, 2. Oxford, 1971, p. 50-51.
(٤٠) P. E. Newberry, The Tehenu-Olive Land, in Ancient, Egypt, 1915, p. 97-98.
(٤١) L. Keimer; BIFAO, 1931, p. 121 F.

جحنو (تحنو) ، الذى له قيمة كبيرة[٤٢] .

وهناك لوحة أخرى يظهر فيها الملك فى شكل «ثور قوى» يطعن حتى الموت رجلا مستلقيا من ذلك الطراز الذى يطلق عليه «الليبى» ؛ وأما هدف اللوحة فقد كان تسجيل المذبحة أو القبض على مصريين من الدلتا أو أعداء ليبيين على يد زعيم من الصعيد على رأس حلف من بضعة أقاليم[٤٣] ؛ وهناك من يرى أن لوحة نعرمر انما تشير الى انتصاره على الليبيين ؛ كما تشير الى انتصاره على الدلتا ، وهكذا تسجل الآثار المصرية من عهد ما قبل الأسرات انتصار المصريين على التحنو[٤٤] .

ويبدو أن الامر جد مختلف فى الاسرة الثانية ، ذلك أن هناك من يذهب الى أن الليبيين انما قد هاجموا أرض الدلتا واحتلوها عنوة ، وانفصلوا بها عن الصعيد وان ذلك كان على أيام «نى نثر» فلما أعقبه «بر — ايب — سن» لم يحكم غير الصعيد وحده ، ولكنه اعتزم الكفاح[٤٥] .

وهناك كثير من الاحتمال ، لما يفترضه «جرد سلوف»[٤٦] من الملك «سخم ايب ان ماعه» هو فى الواقع «بر — أيب — سن» قبل أن يتخلى عن ارتباطه بالاله «حور» ليصبح المتعبد المتحمس للمعبود « ست » باعتباره من أرباب الحروب ، وان احتفظ لنفسه بلقب «نيسو — بتى» ولقب «نبتى» ، أى أنه مايزال محتفظا بانتسابه الى كل من الصعيد

(٤٢) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 394.
وكذا Sir Alan H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, I, Oxford, 1947, p. 116-117.
(٤٣) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 396.
(٤٤) انظر عن «التحنو» (محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١٣٧—١٤٥ .
(٤٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨٠ .
(٤٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 417.
وكذا B. Grdseloff, ASAE, XLIV, 1945, p. 295.

والدلتا ، والى معبوديتهما فى نفس الوقت(٤٧) ، فضلا عن أنه — رغم اعلانه الكفاح — لم يكتب له النجح فى مسعاه •

وهكذا يبدو أن هناك الوانا من الاضطرابات الشديدة نشـأت من وراء هذه الحركات الثورية ، ولكن من المستحيل أن نشخص طبيعتها ، ولقد كان «حور» يرتبط بخاصة فى الماضى بالدلتا ، حينما كانت عبادة «ست» محلية فى «أمبوس» على مقربة من نقادة ؛ ويرى بعض العلماء أن كهنة الاله «ست» شعروا أن نفوذهم القديم بدأ يتضاءل ، بخاصة وأن الملوك بدأوا ينتسبون الى الاله «حور» ويهتمون بالعاصمة الشمالية «منف» ، وربما كذلك أخـذوا يتأثرون بثقافة أهل الشمـال ويظهرون الاهتمام بمعبوداتهم •

وهنا بدأ كهنة الاله ست يخشون على نفوذهم القديم ، فبذروا بذور الفتنة ، وأشعلوا نيران الثورة ضد الاتجاهات الجديدة ، مما جعـل «بر — ايب — سن» يحذف رمز «حور» ويضع رمز «ست» فى مكانه ، أى أنه أعلنهـا صريحـة بأنه ينتمى الى الاله ست ، وليس الى الاله «حـور»(٤٨) •

ومع ذلك فمن المستحيل — فيما يرى سير ألن جاردنر(٤٩) — أن نترجم الاحداث ، وكأنما هى صراع بين القطرين (الصعيد والدلتا) كان من أثره أن اكتفى «بر — أيب — سن» بأن يصبح حكمه مقصورا على الصعيد ، فلو أنه كان هناك مثل هذا الصراع بين الصعيد والدلتا ، ألم يكن فى مقـدور «بر ايب سن» أن يؤكد زعمـه بأنه تجسيد لحـور الاكثر قوة ؟

وأيا ما كان الامر ، فلقد جاء بعد «بر أيب سن» على عرش الكنانة

(٤٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ •
وكذا W. M. F. Petrie, op. cit., IV, p. 7, XXII, p. 190, XXIX, p. 97.
(٤٨) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٨٨ •
(٤٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 417.

الملك «خع سخم» واقتصرت آثاره على «نخن» (البصيلية) ، ولم يجد بأسا من أن يعترف بالامر الواقع فى بداية حكمه ، فظهر فى تماثيله بتاج الصعيد وحده ، وصور الاله «حور» بتاج الصعيد تارة ، وبلقب «حور السماء» تارة أخرى(٥٠) .

وهناك لوحة مكسورة للملك «خع سخم» عثر عليها فى نخن(٥١) تشير بوضوح الى أن ذلك الصراع انما كان مع عدو ليبى ، ذلك لان اللوحة تكشف عن ماهية هؤلاء الاعداء ، اذ أن هناك رأسا ملتحيا (فوق ريشة) تتصل بما يشبه الدعامة البيضاوية التى شهدناها فى لوحة نعرمر ، وهى تشير فى وضوح الى الاعداء الليبيين .

وهناك تمثالان جالسان للملك نفسه من «نخن» (البصيلية) كذلك ، الواحد من الحجر الجيرى بمتحف أكسفورد ، والثانى من الاردواز بمتحف القاهرة ، وتزين قواعد التمثالين زخارف من صور محفورة لاعداء مذبوحين فى كل مظهر يمكن تصوره ، مما يمثل الالم والعذاب ، وقد قدم احصاء بعددهم البالغ ٤٧٢٠٩ من أحد التمثالين ، بينما يقدم التمثال الاخر احصاء بعددهم البالغ ٤٨٢٠٥ أسيرا(٥٢) .

وهكذا يمكننا القول أن «خع سخم» ما أن استقر فى «نخن» (البصيلية) حتى بدأ يعد العدة لاعادة الوحدة القومية للبلاد — كما فعل سلفه البعيد مينا — ومن ثم فقد هاجم أرض الدلتا وقاتل الليبيين المسيطرين عليها قتالا عنيفا ، حتى انتصر عليهم فى نهاية عهده ، وعندما أراد رجاله أن يعبروا عن انتصاره هذا ، أشاروا الى الدلتا باعتبارها

(٥٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ .
وكذا J. E. Quibell, Hierakonopolis, I, London, 1900, Pl. LVIII, p. 48.
(٥١) J. E. Quibell, and F. W. Green, Hierakonopolis, II, London, 1902, pl. 58.
(٥٢) J. E. Quibell, op. cit., Pls. 39-40.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 418.

الارض التى كان الليبيون يحتلونها ، وليس باعتبارها وطنهم الاصيل ، أو أرض الخصوم الفعليين(٥٣) .

وجاء بعد ذلك آخر ملوك الاسرة الثانية ((خع سخموى)) (نب وى حوتب ايم اف)(٥٤) ، وترجمة التركيب كله ((أضاءت القوتان ، السيدان على سلام فيه)) وبمعنى آخر أن الملك ((خع سخموى)) يجسد فى ذاته الان الالهين اللذين كانت العداوة قائمة بينهما عن طريق انكار ((بر ايب سن)) لسلفه التراثى فى سبيل العدو اللدود لذلك المعبود(٥٥) .

ولعل هذا فيما أظن — وليس كل الظن اثما — اشارة الى أن النزاع فى عهد سلفيه ، انما كان نزاعا داخليا ، وليس نزاعا خارجيا ، وبمعنى آخر ، نزاعا بين الصعيد والدلتا ، أو بين الاله ست والاله حور ، وليس نزاعا بين مصر وجيرانها الغربيين ، وعلى أى حال ، فلسنا نستطيع أن نقدم شيئا محددا أبعد من ذلك عن أحداث تلك الفترة المضطربة .

(٥٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٨١ .
(٥٤) W. M. F. Petric, The Royal Tombs of The Earliest Dynasties, II, London, 1901, Pl. 23, p. 191-200.
(٥٥) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 417.

الباب الثانى

الدولة القـــــديمة

٢٧٠٠ ـ ٢٢٨٠ ق٠م

ويتكـون من :

١ ـ الفصل الاول : السياسة الداخلية

٢ ـ الفصل الثانى : قصة السخرة فى بناء الاهرامات

٣ ـ الفصل الثالث : التنظيم الادارى

الفصل الأول

السياسة الداخلية

تميز عهد الدولة القديمة ببناء الاهرامات ، حتى عرف ذلك العهد «بعصر بناة الاهرام العظام» ذلك لان الملوك انما قد اعتادوا أن يشيدوا لهم أهراما يدفنون فيها ، على مقربة من قصورهم على حافة الصحراء الغربية ، في ميدوم ودهشور وسقارة ، والى حدود الجيزة وأبى رواش ، كما تميز عهد الدولة القديمة كذلك بأن وحدة البلاد بلغت أتمها فيها ، رغم استمرار الملوك في تسمية أنفسهم «ملوك مصر العليا والسفلى» ، اذ لم يعد هناك نزاع بين الصعيد والدلتا ، مما أدى الى تركز السلطة في أيدى الملوك ، الامر الذى ساعدهم على النهوض بالبلاد ، وبلوغها مرحلة ناضجة من مراحل التحضر ، ووصلت الاقاليم الزراعية الى حجمها الذى استمرت عليه آلاف السنين ، كما رسمت مصر في تلك الفترة الخطوط الرئيسية لمعتقداتها الدينية ونفذت كذلك تقنية الفنون والعمارة والكتابة بشكل كامل[1] .

نظرية وراثة العرش :

ولعل من الافضل هنا — وقبل أن نتحدث عن الاسرة الثالثة ، وبداية الدولة القديمة بسقوط الاسرة الثانية — أن نتحدث عن نظرية وراثة العرش في مصر الفراعنة .

يعلل «هرمان يونكر» (١٨٨٥ — ١٩٦٢) فكرة وجود أسرات جديدة ،

(١) Jean Bottero and Others, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, p. 276.

وتقسيم عهود الحكم الى الاسرات ، الى تطور أو انقلاب فى نظام الحكم ، أو الى وجود أميرة فى آخر الاسرة تزوجت من شخص من غير العائلة المالكة ، ومن نسلها تتكون أسرة جديدة ، ويكون هذا الزواج حلقة الاتصال بين الاسرتين ، ذلك لان ولاية العرش فى مصر الفرعونية انما كانت تنحصر فى الابن الملكى الاكبر ، من الدم الملكى الخالص ، ثمرة زواج الاخ الملكى من الاخت الملكية من الابوين الملكيين(٢) .

وهكذا كانت القاعدة الثابتة أن يعتلى عرش مصر من تسرى فى عروق أمه وأبيه الدماء الملكية النقية ، أما اذا كان ابنا لزوجة مصرية ثانوية ، فكان من الواجب عليه أن يلجأ الى الزواج من أميرة من الفرع الملكي الخالص ، ليقوى بذلك شرعية مركزه ، ويصبح أهلا لتولى عرش الفراعين(٣) ، ومع ذلك فان زوج الاميرة الملكية انما يعتبر مجرد أمير ، وأما ابناؤها — ثمرة هذا الزواج — فقد كانوا يعتبرون ورثة شرعيين للعرش ، وفى بعض الحالات قد يصبح زوج الملكة الوارثة ملكا ، حين تكون هذه الملكة كبرى نساء البيت المالك سنا ، كأن تكون أرملة الملك أو كبرى بناته ، أو أبعد من ذلك قرابة(٤) .

ولعل ذلك كله انما يعنى أن العرش كان ينتقل عن طريق المرأة، ومن هنا كانت الزوجة الكبرى للملك هى الوريثة التى يستطيع هذا الملك الوصول الى العرش عن طريق الزواج بها ، ولم يكن مولد الملك مهما ، فقد يكون من أية طبقة ، ولكنه يصبح ملكا حين يتزوج من الملكة ، ونستطيع أن نقول أن الملكة ملكة بحق المولد ، وأن الملك ملك بحق الزواج ، ولا يستطاع تفسير هذه الزيجات الملكية بغير عادة التسلسل

---

(٢) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم — الجزء الرابع — الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٦ .

(٣) Percy E. Newberry, King Ay, The Successor of Tut Ankhamun, JEA, 18, 1932, p. 51.

(٤) انظر : محمد بيومى مهران : اخناتون — عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩ ص ٥٠ — ٥١ .

الاموى وانتقال التاج عن طريق خط الانثى[٥] •

ولعل هذا هو الذى جعل نظرية تولى العرش فى مصر الفراعنة ، تنص على أن تكون أم الملك من نسل ملكى خالص ، فهى اما أن تكون ابنة اله ، أو زوجـة اله ، أو أم اله ، أو قد تكون الثلاثة معا،أى ابنة ملك وأخت ملك وزوج ملك •

ويذهب الدكتور سـليم حسن (١٨٩١ — ١٩٦١) الى أن قـانون الوراثة بين أفراد الشعب انما كان يجرى على نظام الامومة ، والامر كذلك عندما ينقطع نسل الذكور فى الاسرة المالكة ، ومن ثم فان الملك الذى يتولى العرش من غير الاسرة المالكة ، كان عليه أن يتزوج من احدى الاميرات الملكيات ، حتى يأتى خلفه والدم الملكى يتجـرى فى عروقه[٦] ، ذلك لان الملكات انما كن ممثلات للدم الملكى ، ويحافظن على التقاليد الملكية بارتباطهن بالاسرة الجديدة ، سواء أكان أول ملوكها زوجا للملكة ، أو أحد ابنائها •

هذا وقد اعتبر المصريون الزوجة الرئيسية هى «الزوجة الاله» وان كانت من نسل ملكى سابق • لكن قد جىء بها من صلب جسد الهى ، ومن هنا نشأت نظرية تولى العرش ، ورغم أن للملك الحق فى الزواج بأكثر من واحدة ، الا أن الزوجة الرئيسية انما كانت تعتبر أنقى الزوجات ، ولعل ذلك هو السبب فى زواج الاخ باخته التى لجأ اليها بعض الفراعين، بغرض تأكيد صفاء الالوهية من ناحية ، فضـلا عن التقليل من عدد المتطلعين الى العرش من ناحية أخرى[٧] •

(٥) A. M. Margaret, The Splendour That Was Egypt, London, 1950, p. 102.

(٦) سليم حسن : مصر القديمة ـ الجزء الاول ـ القاهرة ١٩٤٠ ص ٢٨٥ •

(٧) John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago 1963, p. 96-97.

على أن هناك بعضا من الملوك ، انما قد لجأوا — فى تبرير شرعيتهم للعرش — الى قصص الولادة الالهيــة ، كما فعــلت « حتشبسوت » و «أمنحتب الثالث» فى نصى الولادة المشهورين ، الواحد منهما فى معبد الدير البحرى ، ويتحدث عن ولادة الملكة «حتشبسوت» من الاله أمون ، ومن «أحمس» زوج الملك تحوتمس الاول[٨] ، والثانى فى معبد الاقصر ، ويتحدث عن ولادة الملك «أمنحتب الثالث» من الاله أمون ، ومن «موت ام ويا» زوج الملك تحوتمس الرابع[٩] ، وفى كلا النصين نرى الاله أمون يتخذ شخصية «الزوج الاب» ، ثم يتصل بالملكة الام « أحمس » أو «موت أم ويا» اتصال الرجل بزوجته ، فتحمل الملكة ، وتنجب الفرعون .

ولعل هذا انما يعنى أن الاله آمون انما تخفى فى زى وفى جســد الملك الحاكم ، ودخل بهذه الصورة على الملكة ، وضاجع الزوجة الاولى العظيمة ، ووضع فيها البذرة الالهية ، التى أصبحت فيما بعد ، ملكا فى مستقبل الايام ، أى أن المولد الالهى الذى تم كمعجزة ، كان دون تدخل الملك ، وأنه حدث من الاله الاعظم الذى تخفى مؤقتا فى شكل فرعون ، وعلى ذلك فــان «أم الاله» كان يجب أن تحتل مكانة لا نظــير لها بين النساء[١٠] .

وهكذا كان الفرعون وأمه ، يمثلان مع الاله آمون — بالتناسق مع عائلته المقدسة ، آمون وموت وخونسو — عائلة بشرية ، يمثل فيها الاله آمون دور الاب ،وتمثل الملكة دور الام ، ويمثل الفرعون دور الابن[١١] .

---

(٨) E. Naville, The Temple of Deir El-Bahari, Part, II, London, 1896, p. 46-56.

وكذا J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, II, Chicago, 1927, Parag. 192-220 p. 78-89.

(٩) A. Gayet, Le Temple de Louxor, Cairo, 1895, Pls. 62-73, fig. 205.

(١٠) J. A., Wilson, op. cit., p. 97.

(١١) محمد عبد اللطيف : آمون فى الدولة الحديثة — الاسكندرية ١٩٧٠ ص ١٤٦ — ١٥٨ ، ٢٣٦ ، عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم الجزء الاول — مصر والعراق — العراق — القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٩ — ٢٠٠ .

١ ـ الاسرة الثالثة

(١) الملك زوسر

بدأت عصور الدولة القديمة بعصر الاسرة الثالثة ، وبدأ الحكم فيها بولاية ملك ذكرته نصوص عهده باسمه الحورى ، الذى يمكن أن يقرأ بعدة قراءات ، لا تخلو واحدة منها من مدلول معبر طريف ، فقد يقرأ «نثر رخت» بمعنى أنه اله أكثر منه جسد ، أو بمعنى أنه أكثر قداسة من جماعة الارباب ، وقد يقرأ «نثرى خت» بمعنى ربانى الجسد ، وقد يقرأ «نثرى مس» بمعنى ربانى المولد ، وقد يقرأ «أرى خت نثر» بمعنى المنتمى الى بدن الاله أو ذات الاله ، أو المنتمى الى جماعة الارباب •

وهناك اسم آخر لهذا الملك هو «جسر» أو «زوسر» بمعنى المقدس، والذى لم يظهر الا فى الآثار المتأخرة ، حيث كان ملوك الاسرة الثالثة يستخدمون الاسم الحورى على آثارهم ، ومن ثم فان الاسم الوحيد الذى ظهر على الهرم المدرج هو «نثرى خت» ، ولم نعرف الا من نقوش الدولة الحديثة والعصور التالية ، أن «نثرى خت» و «زوسر» انما هما شخص واحد[١] ، اذ تشير الكتابات التى دونها زوار الهرم المدرج فى عصر الاسرة الثامنة عشرة لمعبد زوسر الى ذلك ، هذا فضلا عن الاسمين «نثرى خت ، وزوسر» قد ذكرا معا ـ الى جانب اسم ايمحوتب ـ فى نقش من العصر البطلمى ، فى جزيرة سهيل ، على مقربة من أسوان[٢] •

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٠ •

وكذا B. Gunn, Inscriptions from the Step Pyramid Site, ASAE 26, 1926; p. 188 F.

وكذا K. Sethe, Unters., III, p. 41.

(٢) W. S. Smith, The Third Dynasty, in CAH, I, Part 2, 1971, p. 145.

وكذا Jean Vercoutter, Egypt under The Old Kingdom, in The Near East; The Early Civilization, London, 1967, p. 283.

وفى الواقع أننا لا ندرى السبب الذى دعا المؤرخ المصرى «مانيتو» الى أن يبدأ الاسرة الثالثة بعد موت الملك «خع سخموى» مباشرة،ولعل الشيء الوحيد الواضح هو أن «جسر» (زوسر) — أشهر ملوك الاسرة الثالثة — انما يرتبط بالملك«خع سخموى»— آخر ملوك الاسرة الثانية — عن طريق الملكة «نى معات حاب» التى وصفت فى عهد «خع سخموى» بأنها «أم ولد» أو «أم ولد الملك» أو «أم أبنـاء الملك» ، وفى عهـد «زوسر» بأنها «أم الملك» أو (الملكة الوالدة) ، ومن ثم فهى زوجـة للملك «خع سخموى» وأما للملك «زوسر»[٣] .

ولكن ان كان ذلك كذلك ، فما هو السبب فى قيام أسرة جديدة ؟ .

وهنا فلعل أقرب الفروض الى الصواب ، أن «نى معات حاب» انما كانت زوجة ثانوية للملك «خع سخموى» ، وأن الزوجة الرئيسية ربما قد أنجبت بناتا ، وربما كانت عقيما ، ومن ثم فقد أعتلى زوسر — ابن الزوجة الثانوية — العرش .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب الى أن «نى معات حاب» انما كانت ابنة للملك «خع سخموى» وليست زوجة له،وأنها قد تزوجت من الملك «نب كا» الذى اختلف الباحثون فى تعيين عهده ، وفى صحـة اسمه ، وان أعطاه البعض فترة حكم تتراوح فيما بين ١٨ ، ١٩ عـاما قبل عهد زوسر ، وأنجبت منه «نثرخت» (زوسر) الذى يعتبر — طبقا لوجهة النظر هذه — حفيدا للملك «خع سخموى» وليس ولدا له[٤] .

---

(٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٠ .

وكذا W. M. F. Petrie, The Royal Tombs of The Earliest Dynasties, II, London, 1901, p. 210.

وكذا J. Garstang (With a chapter by K. Sethe), Mahasna and Bet Khallaf; (E.R E.) London, 1903; p. 7, 22-23.

وكذا R. Weill, Recherchessur la Ireet Les Temps Prepharaoniques, Le Gaire, 1961, I, p. 319.

(٤) H. Junker, in Mitt., Kairo, III, p. 140.

وكذا W. M. F. Petrie: op. cit., p. 32.

ويذهب «الكسندر شارف» (١٨٩٢ ـ ١٩٥٠) الى أن «نى معات حاب» أميرة من الدلتا ، وليست ابنة «خع سخم وى» اذ أنه ليس من المعقول أن نتصور ملكا يعتز كل الاعتزاز بعصبيته الصعيدية ، ثم يطلق على ابنته اسما تنتمى كل عناصره الى الدلتا ، ذلك لان اسم «نى معات حاب» انما يحوى كلمة «حاب» أى (الاله الثور أبيس) ، مما يدل على أنها انما كانت منفية الاصل •

ومن هنا فانه يذهب الى أنها انما كانت تمثل الدم الملكى لمصر السفلى (الدلتا) ، وتنتمى الى أولئك الاعداء الذين صورهم «خع سخموى» فوق قاعدة تمثاله الذى عثر عليه فى «نخن» (البصيلية) ، وقد ظهرت عليهم الذلة والمسكنة بعد انتصاره عليهم ، وعندما تمت له الوحدة اختارها زوجة له ، دون أن يعطيها الحق فى اللقب الرسمى « زوجة ملك» وهو اللقب الذى لم تذكره لها الآثار أبدا •

أما ابنها «زوسر» ، فقد كان من أب آخر ، ينتمى الى أهل الدلتا ، ثم تمكن ـ بعد أن ارتبطت أمه برباط الزوجية مع آخر ملوك الاسرة الثانية ـ من أن يكتسب شرعية مقدسة ، أهلته ليؤسس أسرة ملكية جديدة ، هى الاسرة الثالثة(٥)

واستغل «يواقيم شبيجل» هذا الرأى ، أو نادى بمثله ، وذهب الى أن كل أسرة مصرية حاكمة ، انما كان يعنيها أن ترد نسبها الى أصل مقدس ، وهذا حق ما فى ذلك من ريب ، غير أنه أضاف أن «نثر رخت» لم ينس أباه البحراوى ، فضلا عن الدلتا مسقط رأسه ، وموطن أمه ، ومن ثم فقد اعتبر أباه ممثلا للاله «أوزير» معبود الدلتا القديم ، الذى كتب له فى عهود غابرة أن يحكم الدلتا والصعيد معا ، والذى راح ضحية مكر أخيه «ست» معبود الصعيد ، فضاع منه ملكه ، ثم شبه «نثر رخت» بالاله «حور» بن «أوزير» الذى استعاد ملك أبيه من أهل

(٥) الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٥٠ ـ ٥١ •

الصعيد ، أعـوان ملوك الاسرة الثانية ، ثم شبه «نى معـات حاب» بالمعبودة «نبت حت» أخت أوزير ، التى تزوجت «ست» رغما عنها ، ولكنها ظلت وفيه لاخيها «أوزير»(٦) •

غير أن هناك أمورا عدة ، انما تقف عقبة فى قبولنا لهذا الرأى ، منها (أولا) أن «نى معات حاب» لم تتلقب بلقب «أم ولد» فحسب ، وانما لقبت كذلك بلقب «أم ولد الملك» أو «أم أولاد الملك» ، مما يدل على أن زوجها قد اعترف بأن ولدها منه ومن صلبه ، وعهد اليه بالملك بعده ، ومنها (ثانيا) أن الاثريين انما كانوا ينسبون الى «نثر رخت» (زوسر) مقبرة فى «بيت خلاف» ، جنوبى أبيدوس ، ويفترضون أنه بدأ حكمه فى الصعيد ، وليس فى الدلتا •

ومنها (ثالثا) أن الاثريين انما نسبوا الى «نثررخت» بنـاء معبد صغير فى مدينة «أونو» صور فيه بعض أفراد تاسوعها المقدس ، ومنهم ست الصعيدى ، ولو كان من أعدائه فعلا ، لما جعل له مكانا بجـوار عاصمته ، ولأوحى لرجاله بعدم تصويره ، ومنها (رابعـا) أن الآثار المعـاصرة للاسرة الثالثة المعروفـة حتى الان ، لم تشر الى «أوزير» بالاسم ، ولا بالصورة ، وكان من المفروض أن تمجده وتردد ذكره ، لو أراد ملوكها أن يدفعوا الناس الى الاعتراف بنسبتهم اليه •

ومنها (خامسا) أن «نثر رخت» حين استخدم لقبا جديدا فى ألقابه، انما قد تخير لقب «رع نوب» بمعنى الشمس الذهبية ، بينما استمسك سلفه البعيد «خع با» بلقب «حور نوب» بمعنى الصقر الذهبى ، ولو تعمد «نثر رخت» أن ينسب نفسه الى «حور» فعلا ، لاتخـذ خطوة «خع با» وليس العكس •

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠١ •
وكذا J. Spiegel, Das Werden der Altagyptischen Hochkultur, 1953, p. 122 F.

ومنها (سادسا) أن رجال «نثر رخت» صوروه تحت هرمه المدرج، وكذا فى مقبرة بيت خلاف ، خمس مرات بتاج الصعيد ، ومرة واحدة بتاج الدلتا ، وذكرت نقوشه من أسماء المعابد التى زارها ، ثلاثة معابد على الاقل ، ان لم تكن خمسة ، من معابد الصعيد ، الى جانب معبد واحد أو ثلاثة ، من معابد الدلتا ، مما يدل على حرصه على تقوية علاقاتها بالصعيد وكهانة معابده ، وليس البعد عنهم(٧) .

وعلى أى حال ، فان الاسرة الثالثة انما تبدأ بمشكلة ، وأن عدد ملوكها — وكذا تتابعهم على العرش — لم يتقرر بعد بصورة مؤكدة،كما أن الحفائر الحديثة قد أثبتت أن «زوسر» لم يكن أول ملوك الاسرة الثالثة ، وانما سبقه الى العرش المصرى الدور «سانخت» الذى تجعله كل الاحتمالات أخا أكبر لزوسر ، غير أننا لا نعرف عنه شيئا ، سوى أثره الجنائزى الذى يحتمل أنه قد استخدم كنقطة بداية لهرم زوسر المدرج(٨) .

وهناك ما يشير الى أن «زوسر» قد دفن أخاه «سانخت» فى أهم مكان فى مدخل الاروقة ، يمكن الوصول اليه عن طريق احدى عشرة بئر، محفورة فى الصخر فى الجانب الشرقى من هذا البناء ، خلال المراحل المبكرة من تشييده ، وقد خصص اثنان من هذه المداخل (الدهاليز) لتخزين جهازه الجنازى ، وقد ملىء اثنان منها بالاوانى الحجرية ،

---

(٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

وكذا C. M. Firth and J. E. Quibell, The Step Pyramid, p. 40-42.

وكذا R. Weill, op. cit., I, p. 277.

(٨) R. Weill, Les IIe et IIIe Dynasties Egyptiennes, Paris, 1908 - p. 128.

وكذا J. P. Lauer, Les Pyramides a degres, in Rev. Arch., 47, 1956, p. 17.

وكذا A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, I, Pls, 4, II, 1955, p. 52.

والكثير منها كتب عليه أسماء ملوك الاسرتين الاولى والثانية ، وان لم يعثر على أية آنية ، أو حتى قطعة من آنية ، فى الجـزء الرئيسى من البناء السفلى للهرم المدرج ، تحمـل اسم «نثر رخت» (زوسر) أو «سانخت» وان عثر على ختم طينى للملك «نثر رخت» وآخـر للملك «خع سخموى» فى احدى الاروقة الشرقية ٠

ومن ثم فهناك من يذهب الى أن «سانخت» انما قد دفن فى مقبرته التى كان قد شيدها من قبل فى «بيت خلاف» جنوبى أبيدوس ، حيث عثر فيها على هيكل عظمى يمكن نسبته اليه ، فيما يرى جارستانج(٩) ٠

وأيا ما كان الامر ، فلقد سجلت بردية تورين اسم «زوسر» بالمداد الاحمر بين أسماء ملوكها ، تأكيداً لتمييزه وأهمية عهده ، وصور كاتب مصرى من القرن الثانى عشر قبل الميلاد «زوسر» مع كل من مؤسس الاسرة الخـامسة ، ومؤسس الاسرة السادسة ، باعتباره رأس أسرة حاكمة جديدة مثلهما ، ثم سجل «مانيتو» فى تاريخه أن «زوسر» انمـا هو بداية لملوك منف جميعاً(١٠) ٠

ولعل السبب فى ذلك أن «زوسر» انما كان يمثل بداية عهد جـديد — عهد بناة الاهرام — هؤلاء الذين استطاعوا توطيد دعائم الوحدة على أسس ثابتة ، بعد القضـاء على ثورات الدلتـا التى رأيناها فى الاسرة الثانية ٠

هذا وقد ارتبط اسم «زوسر» ارتباطا وثيقا بالمنطقة الواقعة الى

(٩) W. Stevenson Smith, The Old Kingdom in Egypt and The Beginning of The First Intermediate Period, in CAH, I, Part 2, Cambridge, 1971, p. 146.
وكذا J. Garstang, Mahasna and Bet Khallaf, (E. R. A.) London, 1903, Pl. X, p. 7.

(١٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٢ ٠
وكذا BIFAO, V, p. 41 F.

الجنوب من أسوان ، والتى عرفت فى العصر اليونانى باسم «دوديكا سخينوس» فيما عرف باسم «لوحة المجاعة» وفى الواقع أن العلماء على كثرة ما قرأوا من أخبار المجاعات فى مصر القديمة ، انما يقفون موقف المتأمل الفاحص من تلك المجاعة التى حدثت فى عهد «زوسر» والتى نقشت أخبارها على الصخر من جزيرة سهيل ، جنوبى أسوان ، ولئن كان الخبر منسوبا الى «زوسر» فالذى لاشك فيه أنه انما نقش فى تلك الجزيرة بعده بما يقرب من خمسة وعشرين قرنا ، وقد نقشه كهان الاله «خنوم» فى عهد البطالمة فى مصر ، ولعلهم نقشوه فى عام ١٨٧ق٠م على أيام الملك «بطليموس الخامس — أبيفان» (٢٠٥ — ١٨٠ ق٠م) ، وربما فى عهد بطليموس العاشر (١٠٧ — ٨٨ ق٠م) ٠

وهكذا وقف العلماء على ما ورد عن هذه المجاعة : ومن أنها حلت بمصر سبع سنين ، وأن الملك «زوسر» دعا وزيره الحكيم «ايمحوتب» ليستفتيه فى تلك النازلة التى أحزنته ، وليعلم علم هذا الذى أصاب النيل فحبسه عن المجىء فى عهده سنين سبع ، فذوت الحبوب ،وصوحت الثمار ، وقلت الاقوات ، حتى لكأن الناس قد حرموا الانفاس ، فلم ترقأ لطفل أدمعة ، وأقسام الشباب على الانتظار ، على حين امتلأت القلوب أسى ، فانحنوا على أطرافهم مدقعين ، واشتدت الحاجة برجال الحاشيه ، وغلقت المعابد ، وعم الناس الحزن ٠

ويروى النص أن الملك «زوسر» كتب الى محافظ أسوان ، يستشيره فيما يجب عليه للخلاص من هذا الخطب ، وأى الآلهة أولى باستدرار العطف ، فأشار الحاكم بأن الاله «خنوم» هو الذى يأتى بالنيل الطيب والنيل الردىء ، ويأتى الملك الى أسوان ليشهد «خنوم» الذى يقرر — فى رؤيا للملك — أن اهمال شأنه ، انما كان سببا لما حاق بالبلاد من مصائب ، ووعد بالخير ، ان عنى بشأنه ، ويصدر الملك أمره بأن توقف عليه الاراضى الواقعه على ضفتى النهر ، وعلى مدى مرحلة طولها فيما بين ٨٠ ، ٩٠ ميلا ، أى فيما بين جزيرة سهيل جنوبى أسوان ، (وتاكمبسو) — وهو الاسم الاغريقى للجزيرة المعروفة باسم جزيرة

ضرار ، أو جزيرة قرته ، تجاه بلدة قرته ، الى الجنوب قليلا من الدكة، على خط العرض ٣٥ (١١) .

فالنص اذن يتحدث عن مجاعة حدثت فى العام الثامن عشر من حكم الملك «نثر ــ ار ــ خت» (زوسر) وامتدت سبع سنين ، وعن مشورة استشارها الملك من وزير ، عرف بالحكمة والموعظة الحسنة ، وعن حلم رآه ، وغير بعيد أن يكون هذا النص صوتا من واقع بعيد ، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد البطالمة ، انما كانوا تحت تأثير ما كان شائعا يومئذ من أصداء الماضى السحيق ، وبما ورد فى التوراة (١٢) من أصداء السنين السبع الشداد التى جرت بها ألسنة من كانوا بمصر يومئذ من يهود ، بخاصة وأن (الترجمة السبعينية) (١٣) للتوراة ، انما كانت قد تمت بمصر على أيام «بطليموس الثاني» (٢٨٤ ــ ٢٤٦ ق.م) ، وأن هناك جالية من يهود انما كانت تقيم فى جزيرة (اليفانتين) (١٤) تجــاه أسوان عبر النهر ــ وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل ، وأن كان كهنة (ايزة) فى (فيله) انما يقدمون نصا آخر ، يقررون فيه أن الملك (زوسر) قد وهبهم نفس البقعة التى يزعم أصحاب (خنوم) أنها انما كانت هدية الملك لهم ، ومنحته لالهم (خنوم) (١٥) .

وليس يهمنا أى الفريقين هو الصادق ، وأيهما الكذوب ، ولكن الذى

(١١) أنظر : Paul Barguet, La Stele de la Famine a sahel; Cairo, 1953.

وكذا J. A. Wilson, The Tradition of Seven Lean year in Egypt in ANET, 1966 p. 31-32.

وكذا J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo, 1963, p. 132-139.

(١٢) تكوين ٤١ : ١ ــ ٥٧ .

(١٣) أنظر : عن «الترجمة السبعينية» (محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الثالث ــ الحضارة ــ الاسكندرية ١٩٧٩ ص ١٠٧ ــ ١١٣) .

(١٤) أنظر : عن «الجالية اليهودية فى أسوان» (محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الثانى ــ التاريخ ــ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ١٠٧٦ ــ ١١٠٢) .

(١٥) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٥٠ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٦١ .

يمنا أن الوثيقة نفسها انما تحيط بها هواتف من ريب ، وان كانت تشير فى الوقت نفسه الى امتداد الحكم المصرى الى تلك المنطقة ابان كتابة تلك الوثيقة(١٦) ، وأن اسم (زوسر) انما قد ظل حيا فى ذاكرة المصريين طوال تلك القرون الطوال ، وأن العقيدة الخاصة به ظلت حتى نهاية التاريخ المصرى القديم ٠

هذا وقد بدأ (زوسر) حياته واقعا تحت التأثير التقليدى ، بأنه ملك يجب أن يشيد لنفسه مقبرة على نمط المقابر التى شيدها من قبله من أجداده من ملوك مصر ، وهو ذلك الاسلوب الذى يجعل المقبرة عبارة عن مصطبة مستطيلة الشكل تمتد من الشمال الى الجنوب ، وعند أقصى الجنوب يوجد على الجانب الشرقى المكان المخصص لتقديم القرابين ٠

وهكذا بدأ زوسر بتشييد مقبرة له على شكل مصطبة كبيرة من الطوب اللبن ، طولها ٨٥ مترا ، وعرضها ٥٠ مترا ، وارتفاعها عشرة أمتار) فى ((بيت خلاف)) قرب أبيدوس ومن أعلى المصطبة يبدأ ممر طوله ١٧ مترا ، ينزل الى أسفل حتى يصل الى ممر فيه اثنتا عشرة حجرة ، عثر فيها على كثير من الاوانى الحجرية ، ولم يعثر على اسم (زوسر) على أى اناء منها ، وان وجد مكتوبا على السدادات الطينية ، ومعه أسماء عدد من الكروم وبعض الموظفين ، فضلا عن اسم أمه (نى معات حاب) على نقش خاتم عثر عليه هناك(١٧) ٠

هذا وقد شيد (زوسر) كذلك عدة معابد ، عثر على بقايا واحد منها ، على مقربة من (هربيط) الى الشمال الشرقى من الزقازيق ، وآخر فى

---

(١٦) الكسندر شارف : تاريخ مصر ــ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ١٩٦٠ ص ٥٣ ، ثم قارن :
A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 76.
(١٧) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ــ القاهرة ١٩٦٣ ص ٤٦ ٠
وكذا J. Garstang, op. cit., p. 38, Pl. 19.
وكذا J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, I, Paris, 1952, p. 867.

هليوبوليس[18] ، كما تنسب نماذج المثالين لبعض الوجوه ، والحروف الهيروغليفية المحفوظة الآن فى متحف المتروبوليتان فى نيويورك الى هذا العصر المبكر من تاريخ مصر[19] .

غير أنه مما لاريب فيه أن أعظم منجزات (زوسر) المعمارية ، انما كان هرمه المدرج فى سقارة ، الذى كان يطل على مدينة منف العظمى ، ويرجع تاريخه الى حوالى عام ٢٧٨٠ ق.م فيما يرى البعض ، والذى يمثل أقدم أثر كبير الحجم قائم بذاته ، ومشيد من الحجر ، وأول مقبرة ملكية بنى جزؤها العلوى — أى الذى فوق سطح الأرض — من كتل من الاحجار ، ويتكون من ست طبقات غير متساوية بعضها فوق بعض ، يبلغ ارتفاعها ٦٠ مترا ، ويبلغ طول السور المحيط بالهرم والمجموعة الهرمية ٥٤٥ مترا ، وعرضه ٢٧٧ مترا ، وارتفاعه عشرة أمتار ونصف ، وله أربع عشرة بوابة محصنة ، منهـا ثلاث عشرة بوابة رمزية — أى مرسومة فوق السور فقط — وبوابة واحدة حقيقية ، وهى التى استخدمها المصريون القدامى[20] .

هذا ويبدو أن السور انما يمثل السطح الخارجى للمقابر الملكية ذات المشكاوات فى عهد بداية الاسرات وبذلك يضفى على البناء طابعا جنازيا ، وان كان هناك من يذهب الى أنه انما يمثل الجدار من اللبن الذى كان يحيط بمدينة الجدران البيضاء (منف) أو الذى كان يحيط بالقصر الملكى ، هذا وقد وجدت لهذا السور فى «ميت رهينة» نسخة معاصرة من المرمر المصرى فيها معظم تفاصيله[21] .

(١٨) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, Boston, 1946, figs, 48-53.

(١٩) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, N. Y, 1953; I, p. 60-61.

(٢٠) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٤٩ — ٦٤ .

(٢١) محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة — القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .
وكذا J. P. Lauer, op. cit., p. 87 F.

ولعل أقدم ما نعرفه عن الحفائر داخل (الهرم المدرج) ما قام به الفصل الالمانى (فون مينو تولى) عام ١٨٢١ ، حيث عثر على أجزاء من مومياء ، وبعض نقوش عليها اسم (زوسر) وفى عام ١٨٣٧ م قام الكولونيل (هوارد فيز) الانجليزى ، ومواطنه (بيرنج) بأول بحث علمى دقيق عن مبنى الهرم المدرج ذاته ، والاجزاء الداخلية الواقعة تحت سطح الارض (٢٢) .

وفى الفترة (١٨٤٣ — ١٨٤٥) جاءت بعثة لبسيوس الالمانية ، واهتمت بهرم سقارة كثيرا ، بل ان «كارل رتشارد لبسيوس» (١٨١٠ — ١٨٨٤) ، انما كان أول من أدرك أنه بنى فى الأصل كمصطبة واحدة ، أضيفت فيما بعد مصاطب أخرى ، ثم وصلت البعثة الى داخل الهرم ، وأخذت منه جزءا من الجدران المغطاة بالقراميد الزرقاء وبعض كتل الاحجار المنقوش عليها اسم زوسر، والتى كانت تحيط بتلك القراميد (٢٣) .

ثم قام بعد ذلك (أوجست فرديناند فرانسو ماريت) (١٨٢١ — ١٨٨١م) و (جاستون ماسبرو) (١٨٤٦ — ١٩١٦م) و (لودفيج بورخاردت) (١٨٦٣ — ١٩٣٨) وغيرهم بأبحاث أثرية ، وكتب كل منهم عن الدهاليز والممرات التى تحت الهرم .

وفى عام ١٩٢٠ م عهدت مصلحة الآثار المصرية الى (فيرث) بالحفر فى منطقة سقارة ، حيث عثر عام ١٩٣٤ م ، فى داخل الهرم المدرج على دهاليز أخرى تحت بناء الهرم ملأى بأوان مكدسة بعضها فوق بعض ، قدر عددها بما لا يقل عن ثلاثين ألف اناء من المرمر والجرانيت والديوريت والبرشيا وحجر الشست (الاردواز) وغير ذلك من أنواع الحجارة .

(٢٢) Colonel Howard Vyse; Operations Carried on at The Pyramids of Gizeh in 1837, 3 Vols, London, 1840-1842.

(٢٣) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٤ — ٤٠ . وكذا R. Lepsius, Denkmaler (Text), I, p. 189-195.

وفى عام ١٩٢٧ م انضم «جـان فيليب لاور» كمهندس معمـارى لمساعدة (فيرث) وبعد موت الاخير فى عام ١٩٣١م ، أصبح (جيمس ادوارد كويبل) (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥) مديرا للحفـائر(٢٤) ، واستمر فى العمل مع (لاور) ، وفى عام ١٩٣٦ انفرد (لاور) بالعمـل فى تنظيف ما حول الهرم وترميمه حتى عام ١٩٥٥ م ، ولكن الدهاليز الواقعة تحت الهرم لم يتم العمل فيها ، ومازالت بحاجة الى المزيد من الحفائر ، وقد عاد (لاور) الى العمل مرة ثانية فى عام ١٩٦١ م .

هذا وتشغل مجموعة مبانى زوسر مساحة تزيد على مائة وخمسين ألف متر مربع ، يحيط بهـا سور سميك ، ويتوسطها الهـرم المدرج ـ أبرز معالم سقارة ـ والى الشرق منه بهو المدخل ومعبد اليوبيـل والجوسق الملكى ، وبيتا الجنوب والشمال ، وفى الشمال بيت التمثال والمعبد الجنائزي ، وفى الجدار الجنوبي من السور المقبرة الجنوبية ، وتحيط بها مبان تكون مسطحات كبيرة وتحتوى على مخـازن عديدة ، أهمها على طول الجدار الشرقي للسور وفى الشمال ، وهي كلها مبنية بحجر صغير من الهضبة الغربية ، وكان يكسوها حجر جيرى جيـد من الهضبة الشرقية ، وهى فى مجموعها تدل على مهارة فى التخطيط والبناء ، وقد ذهب الرأى الى أنها ـ فيما عدا الهرم والمقبرة الجنوبية ـ تمثل فى الحجر قصر زوسر فى منف وملحقاته ، وأن الغرض منها أن تيسر له أداء وظيفته كملك فى الآخرة(٢٥) .

هذا وقد مر بناء الهرم المدرج بعدة مراحل ، كانت المرحلة الاولى بناء مصطبة مربعة ، تواجه جوانبها الجهات الاربعة الاصلية ، ويبـلغ طول ضلع كل منها حوالى ٦٣ مترا ، وارتفاعها ثمانية أمتار ، وقد شيدت من الحجر الجيرى المحلى فى سقارة ، وأما أحجار الكساء الخارجى فقد

(٢٤) C. M. Firth and J. E. Quibell, The Step Pyramid, 2 Vols, Cairo, 1935, 1936.

(٢٥) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٢٧٦ .

كان من الحجر الجيرى الجيد من محاجر طرة ، هذا ويبدو أن (ايمحوتب) كان متأثرا بأفكار دينية معينة ، جعلته يحول المصطبة الى هرم مدرج ، ربما بهدف تمثيل صعود الملك نحو اله الشمس وعالم السماء(٢٦) .

وأيا ما كان الامر فاننا نرى (ايمحوتب) يضيف الى المصطبة الأولى مبان أخرى ، عرضها ثلاثة أمتار ، فى كل جوانب المصطبة ، وأما التعديل الثانى فهو اضافة تسعة أمتار الى الناحية الشرقية منها ، ومن ثم فقد أصبحت المقبرة مستطيلة الشكل ، ثم سرعان ما أضيفت ثلاثة أمتار أخرى الى كل الجوانب ، وهكذا أصبحت المصطبة الأصلية وكل ماأضيف اليها ، هى المصطبة الأولى لهرم مدرج مكون من أربع مصاطب مشيدة واحدة فوق الاخرى ، ثم زاد (ايمحوتب) فى امتداد الهرم من الناحيتين الشمالية والغربية ، كما زاد عدد المصاطب من أربع الى ست ، فضلا عن اضافة بعض المبانى فى كل جهة من الجهات ، وهكذا أصبح طول الهرم المدرج — بعد كل هذه التعديلات — ١٤٠ مترا فى الشرق الى الغرب ، وحوالى ١١٨ مترا من الشمال الى الجنوب ، وأصبح ارتفاعه حوالى ٦٠ مترا(٢٧) .

وهكذا يمكن القول أن الهرم المدرج انما يتكون من اضافات متتالية جانبية ، ترتكز كل منها على سابقتها ، وهو بذلك ليس مبنى من ست درجات أو مصاطب كل منها فوق الاخرى ، كما كان يظن ، وانما هو طراز جديد ، يبرز المقبرة الملكية أحسن ما تكون فوق الهضبة الشاسعة ، قد كسر ارتفاعه من حدة امتداد السور الطويل من حوله ، وزاد من أثره الجميل فى النفس .

(٢٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٦٢ .
وكذا F. Daumas, op. cit., p. 71.
(٢٧) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٦٢ — ٦٣ .
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, London, 1965, p. 55-56.

وقد ذهب الرأى الى أن الهرم المدرج انما يرجع أصله الى مجموعة الاحجار التى كانت تكوم فوق القبر فيما قبل الأسرات ، وأنه يدين بشكله الى تطور المبانى التى كانت تعلو المقــابر الملكية فى أبيدوس ، وذهب الظن كذلك الى أنه توفيق مفاجىء اهتدى اليه المهندسون الكهنة بما يتفق والعقائد الدينية والتصورات الجنازية عن حياة الملك فى الاخرة.

ومهما يكن من أمر ، فان التقدم المعمارى والاقتصادى ، فضلا عن أن تخلد المقبرة الملكية على الزمن ، لتصون جثة الملك على الدوام ، وأن تنم عما أصبح له من قوة وسلطان ، انما كانت من الاسباب الهامة التى أدت الى أن تبنى على شكل هرم مدرج عظيم ، وليس هناك من شك فى أن الملك (زوسر) انما قد دفن فى هذا الهرم المدرج ، وأن مصطبة (بيت خلاف) التى شيدت من الطــوب اللبن ، لم تكن ســوى ضريح للملك العظيم (٢٨) .

(٢) ايمحـــوتب

ولد (ايمحوتب) ، على الارجح ، فى بلدة (الجبلين) — على مبعدة ١٨ كيلا شمالى اسنا ، بمحافظة قنا — وطبقا لما جاء فى نقش المهندس (خنوم — ايب — رع) فى وادى الحمامات ، ويرجع الى الفترة بين عامى ٤٩٥ ، ٤٩١ قبل الميلاد ، فان اسم والد (ايمحوتب) انمـــا كان (كا — نفر) ، وكان يعمل مديرا للاعمال فى الوجه القبلى والبحرى ، وأما أمــه فكانت تدعى «خــردو — عنخ» ، كمـــا كانت زوجته تدعى «نفرو — نبت» .

وعبقرينا هذا ، لم يكن سوى واحد من أبناء الشعب ، استطاع أن يصل بعبقريته الفذة ، ومواهبه العظيمة ، الى أن يصبح ، كما تشير الى

(٢٨) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ٢٨٦ — ٢٨٧ .
وكذا G. A. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb down to The Accession of Cheops, Cambridge, 1963, p. 307 F.

ذلك آثار عصره ـ «أمينا لاختام الوجه البحرى ، والاول بعد الملك ، والمشرف على ادارة القصر العظيم (القصر الملكى) والمهندس ، ومسجل الحوليات ، وكبير كهنة هليوبوليس ، والنبيل الوراثى ، ورئيس المثالين، ورئيس النحاتين» وفى الوثائق الاحدث أطلق القوم عليه : الوزير،ومدير أعمال الصعيد والدلتا ، والمشرف على المدينة الهرمية ، وكبير الكهنة المرتلين للملك زوسر ، وكبير كتاب الاله»[٢٩] .

وهكذا كانت ألقاب «ايمحوتب»[٣٠] تدل على أنه كان مرتبطا كل الارتباط بالنشاط الفنى فى عصره ، وأنه كان متمتعا بنفوذ كبير فى القصر الملكى ، وكان بصفته كبير كهنة عين شمس يشغل أكبر وظيفة دينية فى البلاد .

وتمضى القرون ، ويزداد المصريون احتراما لهذا العصامى العظيم، ويتردد اسمه باحترام فى الدولة الوسطى ، حيث يمجدون فيه المثل الاعلى للعبقرية ، والتعمق فى العلوم ، ويجعله المثقفون فى الدولة الحديثة على رأس أهل الحكمة والموعظة الحسنة ، وواحدا من رعاتهم ، ومن ثم فقد استحبوا أن يسكبوا قطرات من الماء من مؤخرة محابرهم، مع التمتمة باسمه ، كلما هموا بكتابة أمر خطير .

وفى عصر الاسرة السادسة والعشرين (٦٦٤ ـ ٥٢٥ ق.م) ـ أى بعد أكثر من ألفى سنة ـ زاد تقدير المصريين للعبقرى العظيم الى

---

(٢٩) Kurt Sethe, Imhotep der Asklepios der Aegypter (Unters., II, 4), Leipzig, 1902.

وكذا J. B. Hurry, Imhotep, The Vizier and Physician of King Zoser, Oxford, 1928, p. 368.

وكذا P. Gilbert, L'Histoire et la Legende d'Imhotep, Brussel, 1949, p. 200-202.

وكذا F. Doumas, op. cit., p. 71-73.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 73.

(٣٠) معنى اسم «ايمحوتب» الذى يأتى فى سلام ، أو المجىء فى سلام (J. B. Hurry, op. cit., p. 190).

درجـة التأليه واعتباره «ابنا للاله بتـاح» ، وشيدت له المقاصير من «منف» وحتى «فيله» ـ فضلا عن الواحات البحرية وبلاد النوبة ـ وبخاصة فى منطقة طيبة ـ فى الكرنك ، وفى الدير البحـرى ، وفى دير المدينة ـ وأخيرا فى «فيله» ، حيث خصص له «بطليموس الخـامس» (٢٠٥ ـ ١٨٠ ق٠م) مقصورة[٣١] ٠

ولعل هذا التقدير الاخير لايمحوتب انما كان كرد فعل بين المصريين ضد آشور واليونان والفرس ، وقوتهم التى أخـذت تزداد ويرتفع شأنها فى ذلك العهد ، ومن ثم فقد أخذ القوم يتعلقون بأمجادهم القديمة، وخاصة تلك التى تمت على أيدى رجالات الدولة القديمة ، وتسـابق القوم الى تقديس الرعيل الاول من العلماء ، وعلى رأسهم (ايمحوتب) الذى شبهوه باله العلم والحكمة المصرى (تحوت) معبود الأشمونين[٣٢] ٠

وفى القرن السابع قبل الميلاد ، زاد اتصال المصريين بالاغارقة ، وعندما وقف الاخيرون على كتابات (ايمحوتب) فى علوم الطب أبوا أن يصدقوا أن مثل هذه النابغة يمكن أن يكون بشرا كسائر الناس ، وانما هو اله ، ومن ثم فقد اعتبروه ربا للشفاء[٣٣] ٠

(٣١) G. Posener, Dict. de Civil Egypt., p. 138-139.
وكذا K. Sethe, op. cit., p. 4.
وكذا Bataille, ASAE, 38, 1938, p. 64-65.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 73.
وكذا P. Gilbert, op. cit., p. 200-202.
وكذا F. Daumas, op. cit., p. 73.

(٣٢) الاشمونين : وتقع فى مجاورات مدينة «ملوى» : بمحافظة المنيا ، واسمهـا المصرى «خمنو» (أى مدينـة الثمانية) ٠ وفى الاغـريقية «هرموبوليس ماجنا» وكانت مقر عبادة الاله «تحوت» ، الذى ساواه الاغريق بالهم «هرمس» (كريستيان نوبلكور : توت عنخ آمون ص ١٠٧) ٠

(٣٣) كانت معابد «ايمحوتب» من الاماكن التى كان يحج اليها المرضى ليكتب لهم الشفاء ، وتعرف من قصة «نشاتيس» الذى كان كاهنا فى معبد «ايمحوتب» كيف شفيت والدته اثر معجزة تمت فى ذلك المعبد ، وقد أراد «نشاتيس» أن يعبر عن اعترافه بالجميل ، فقام بترجمة قرطاس بردى مصرى منسوب الى «ايمحوتب» الى اللغة اليونانية (احمد فخـرى : المرجع السابق ص ٤٥) ٠

وفى عام ٣٢٣ ق٠م ، جلس ملوك البطالمة على عرش البلاد ، وقد حـــاولوا – ما استطاعوا الى ذلك سبيلا – أن يظهروا أمام المصريين كفراعنة ، وتعبدوا للآلهة المصرية ، وكان «تحوت» واحدا من هـــذه الآلهة • وقد عبدوه تحت اسم «هرمس» الاله الاغريقى ، وبالتالى فقد عبدوا «ايمحوتب» كصورة من صور «تحوت – هرمس» ، ثم سرعان ما أدخلوا عبادة الههم (اسكلاب) (اسكلبيوس) رب الطب الى مصر ، وتكون فى النهاية معبود مصرى بطلمى ، يبلور فى عقيدة الناس القوة المهيمنة على العلوم والمعارف هو (تحـــوت – ايمحوتب – هرمس – اسكلاب) ، ولعل أهم ما تبقى من صفات هذا المعبود صلته الكبـــيرة بعلوم الطب •

وفى الحقيقة فان تفوق المصريين القدامى فى علوم الطب أمر معروف، وقد وصل الينا العديد من البرديات التى تدل على تعمق المصريين فى شئون الطب وتنوع دراساته ، فهناك الطب البيطرى ، والطب الباطنى، وطب أمراض النساء ، وطب الجراحة ، وطب العيون ، وطب الاسنان، فلا غرو اذن أن نعرف أن البلاد قد امتلأت فى العصور المتأخرة بمراكز طبية ، كان يهرع اليها المرضى طلبا للشفاء ، بل ان فى وسعنا أن نقول أن وسائل العلاج قد انتقلت من المصريين الى اليونان ، الى الرومان ، ومن الرومان الى عصرنا الحاضر ، ولانزال حتى الآن نجترع فى ثقـــة واطمئنان كثيرا من الادوية التى خلطها أطباء هذا الشعب العريق الذى عاش على ضفاف النيل منذ أربعة آلاف سنة •

هذا وقد شاد مريدو «ايمحوتب» – بصفته ربا للشفاء – فى العصر الاغريقى ، مقصورة فوق المسطح العلوى لمعبد «حتشبسوت» فى الدير البحـــرى ، وشبهوه – فيمـــا يروى مانيتـــو – بالمعبـــود الاغريقى «اسكلبيوس» راعى الطب والحكمة ، ومجدوه لمهارته فى الطب ، وفى

وكذا J. B. Hurry, op. cit., p. 29 F.
وكذا Grenfell and Hunt, Oxyrhnclus Papyri, Vol. XI, 1915.

الادب والكتابة ، فضلا عن استخدامه الحجر المنحوت فى البناء ، ومن ثم فقد قدسوه فى ((الاسكلبيون)) المجاور لمنف ، وهو معبد أقاموه فوق ما ظنوا أنه قبره القديم ، جنوبى ((السرابيوم)) ، وهكذا أصبحت ((سقارة)) من أهم المناطق التى تمتعت بشهرة فائقة فى عبادة ((ايمحوتب)) ولعل كل هذا انما يعنى أن المجد فى مصر الفرعونية لم يقتصر على الفراعين وحدهم ، وانما كان لبعض الافراد نصيب منه يزيد عن نصيب الفراعين أحيانا(٣٤) .

(٣) خلفاء زوسر

يقدم لنا المؤرخ المصرى ((مانيتو)) ثمانية ملوك حكموا فى الاسرة الثالثة ، بينما لا نجد فى ثبت أبيدوس الا أسماء ستة ملوك فقط ، أما برديه تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء ، والامر كذلك بالنسبة الى الآثار المادية المعاصرة ، غير أن المؤرخين ما يزالون مختلفين فى ترتيب ملوك هذه الاسرة .

ويقترح البعض الترتيب التالى : ١ — سانخت (وربما كان ((نب كا)) الذى جاء فى بردية وستكار) ٢ — نثرى خت (زوسر) ٣ — سخم خت (صاحب الهرم غير الكامل فى سقارة) ٤ — خع با (صاحب الهرم غير الكامل فى زاوية العريان) ٥ — ملك — وربما ملكة — غير معروف (وربما كان نب كارع ، الذى جاء ذكره فى قائمة سقارة) ٦ — حونى (صاحب الهرم المدرج فى ميدوم — على مبعدة ٥٠ كيلا الى الجنوب من سقارة ، ٢٥ كيلا الى الشمال من مدينة الواسطى ، بمحافظة بنى سويف)(٣٥) .

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٠٥ — ٣٠٦ ، الموسوعة المصرية ١/١٣٦ — ١٣٧ .

وكذا K. Sethe, op. cit., p. 14.

(٣٥) Jean Vercoutter, op. cit., p. 285.

وكذا E. Drioton and J. Vandier, Les Peuples de L'Orient

وكذا Mediterraneen, II, L'Egypte, Paris, 1952; p. 169, 200.

هذا وقد كشفت الحفائر التى قام بها المرحوم « محمد زكريا غنيم » (١٩٠٥ - ١٩٥٩) فى منطقة سقارة ، فيما بين عامى ١٩٥١ ، ١٩٥٤ م، عن هرم مدرج لم يتم بناؤه نسب الى الملك «سخم خت» (قوى البدن)، والذى كان يطلق عليه قبل هذا الكشف «سمر خت» ، ولم يكن معروفا من قبل فى أى مصدر من القوائم الملكية .

هذا ويحيط بهرم «سخم خت» المدرج ، سور ضخم على شاكلة سور «زوسر» لم يتم تشييده ، وان بلغت مقاييسه (٥٥٠ × ٢٠٠ مترا)، وأما الهرم نفسه فيتكون من المصطبة الأولى أو السفلى ، فضلا عن جزء من المصطبة الثانية ، والبناء جيد الطراز ، وان كانت كتل الاحجار الجيرية صغيرة نسبيا ، كما هى الحال فى هرم زوسر ، ذلك لان البنائين لم يكونوا قد توصلوا بعد الى مرحلة البناء بالاحجار الضخمة ، ويبلغ ارتفاع البناء الحالى قرابة أمتار سبعة ، وان اعتقد مكتشفه أن البناء الاصلى ربما كان ضعف هذا الارتفاع ، وأن أحجارا قد نزعت منه فى عصور لاحقة ، وأما قاعدة هذا الهرم فهى مربعة ، طول كل ضلع منها نحو ١٢٠ مترا ، ومن ثم فهى أكبر فى رقعتها من قاعدة هرم زوسر ، ولم توجد أية آثار لتكسية خارجية ، ومن ثم فيمكن أن نستنتج أنه قد بدىء فى نواة الهرم فحسب ، وأنه لم يتم اطلاقا .

وعلى أى حال ، فالهرم طبقى يتكون - فى غالب الظن - من أربعة عشر غطاء ، يتناقص ارتفاعها من المركز الى الخارج ، وترتكز فى ميل الى نواة وسطى فى زاوية تتراوح فيما بين ٧١ ، ٧٥ درجة ، وتصنع مراقد المداميك زوايا قائمة مع خطوط المواجهة ، وقد تركت واجهات البناء على خشونتها ، واذا فرضنا أن كل زوج من هذه الاغطية كان تصميمه أن يكون درجة واحدة ، كما فى هرم زوسر ، لامكننا أن نستنتج أنه كان فى النية أن يكون الهرم الجديد من سبع درجات ، مقابل ست فى هرم زوسر ، ولو كان هذا الهرم قد تم ، فربما كان ارتفاعه سيصل الى قرابة ٦٩ مترا ، أى أعلى من هرم زوسر بتسعة أمتار .

وعلى أي حال ، فالهرم يقوم مباشرة على الصخر ، وقد شيد بحجر جيري محلي أشهب اللون خشن ، وكانت تسوية الأرض بطريقة مجملة ، وقد وجدت في ملاط يتكون من صلصال لبن (طفل) مجلوب من سراديب حفرت في الممرات التي تحت سطح الارض ، بعد مزجه بشظايا من الحجر الجيري .

هذا وقد عثر في ممرات الهرم على أوان حجرية ، صنعت من المرمر والشست والديوريت والبرشيا . كما عثر كذلك في داخل الهرم (في مايو ١٩٥٤) على واحد وعشرين سوارا من الذهب ، بعضها صغير جدا ، والبعض الاخر حجمه عادي ، هذا فضلا عن عقد ذهبي وملقط من الالكتروم (خليط من الذهب والفضة) ، وان كان أجمل القطع الذهبية انما كان صندوقا ذهبيا صغيرا ، غطاؤه على هيئة محارة صدفية ، وقد عثر على هذه القطع الذهبية كلها في صندوق من خشب ، تحلل بمرور الزمن ، وقد وجد في فجوة في أرضية الدهاليز (٣٦) .

هذا وقد حفرت غرفة الدفن في الصخر على عمق ٢٥ مترا من سطح الارض تكتنفها غرفتان في الشرق والغرب ، وهي مستطيلة على وجه التقريب ، بمحور من الشمال الى الجنوب يبلغ طوله ٨ر٥ مترا ، ومحور من الشرق الى الغرب ، يبلغ طوله ٢٢ر٥ مترا ، وأما الارتفاع فكان خمسة أمتار ، وكانت الارضية مغطاة بطبقة سميكة من الطفل الناعم ، وقد عثر في وسط الغرفة على تابوت من قطعة واحدة من المرمر ، مسطح القمة ، وغير مقبب السقف (وأبعاده الخارجية ٣٧ر٢ مترا طولا ، ١٤ر١ مترا عرضا ، ٨ر١ ارتفاعا) وله باب واحد في أحد جوانبه يمكن رفعه وخفضه .

(٣٦) محمد زكريا غنيم : الهرم الدفين ـ ترجمة زكي سوسن ، ومراجعة الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ القاهرة ١٩٦١ ، أحمد فخري : المرجع السابق ص ٦٧ ـ ٧٣ .

وكذا Mohamad Zakaria Ghoneim, Horus Sekhem - Khet, I, Cairo, 1957, p. 8-20.

وكذا Mohamad Zakaria Ghoneim, The Buried Pyramid, London, 1956, p. 48-1323.

ورغم أن التابوت قد وجد مغلقا ومثبتا فى مكانه بالملاط ، كما وجدت بقايا بعض أوراق نبات على سطح التابوت ، مما جعل مكتشفه يظن أنه أمام تابوت يضم رفات ملك قديم لم تمتد اليه أيدى اللصوص ، الا أنه عندما فتح (فى ٢٧ يونيو ١٩٥٤) وجد فارغا لا يحتوى على شىء ، بل حتى لم يوجد ما يشير الى أنه قد استعمل فى الدفن فى يوم من الايام ، ومن ثم فقد اقترح البعض أن تكون هذه مقبرة رمزية ، أو ربما كان هذا الهرم هو الذى شيده صاحبه ليدفن فيه ، ولكن ذلك لم يتم ، بل انه لم يستخدم للدفن فى وقت من الاوقات ، أو ربما أن المقبرة أعيد استخدامها فى عصر متأخر ، وأن واحدا من كبار القوم أراد أن يقبر فيها ، ومن ثم فقد أعد التابوت الذى لم يكتب له أن يدفن فيه[٣٧] .

وأما الملك «خع با» فهو صاحب «الهرم ذى الطبقات» فى منطقة زاوية العريان — فيما بين أهرام الجيزة وأبو صير — وقد زاره «لبسيوس» فى عام ١٨٤٠م ، وترك لنا وصفا له[٣٨] ، كما حاول «جاستون ماسبرو» عام ١٨٨٥م أن يفتحه ، وان باءت محاولته بالفشل ، وفى عام ١٨٩٦م تمكن «دى مورجان» من أن يكشف سلما فى الزاوية الشمالية الشرقية ، وفى مارس ١٩٠٠م نجح «الكسندر بارزانتي» من اكتشاف مدخل الهرم[٣٩] ، ثم قامت بعد ذلك البعثة المشتركة من جامعة هارفارد ومتحف الفنون الجميلة فى بوسطن بحفر الكشف عن هذا الهرم والجبانات التى حوله[٤٠] .

(٣٧) M. Z. Ghoneim, La Nouvelle Pyramide a Degres a Saqqara, Rev. du Cairo, 1955, p. 18-31.
وكذا Ahmed Fakhry, The Pyramids, Chicago, 1970, p. 41-57.

(٣٨) C. R. Lepsius, Denkmaler (Texts), I, p. 128-129.

(٣٩) A. Barsanti, Ouverture de la Pyramide de Zaouiet-el-Aryan, ASAE, II, 1901, p. 92-94.

(٤٠) G. A. Reisner and C. S. Fisher, The Work of The Harvard University-Museum of Fine Arts, Egyptian Expedition, in Bull. M. F. A, IX, p. 54-59.

ويتكون الهرم من نواة طول كل ضلع منها مترا ، فضلا عن أربع عشرة اضافة بقاعدة مربعه طول ضلعها ٨٤ مترا ويؤدي الي غرفة الدفن (٦٣ر٣م طولا ، ٦٥ر٢م عرضا ، ٣م ارتفاعا) نفق فى الأرض من الشرق الى الغرب ، موازيا للجانب الشمالى من قاعدة الهرم حتى يلتقى ببئر تقع على امتداد محور الهرم من الجنوب الى الشمال ، ويخرج من قاع البئر دهليزان ، الواحد يتجه الى الجنوب حتى يتصل بدرج يؤدى بدوره الى دهليز ينتهى الى غرفه الدفن تحت مركز الهرم ، والآخر يتجه نحو الشمال ، ثم لا يلبث أن يؤدى الى دهليز طويل يمتد من الشرق الى الغرب ، ومن ثم ينحرف طرفاه الى الجنوب ، ويشرف عليه اثنان وثلاثون مخزنا(٤١) .

هذا وقد عثر على اسم الملك «خع با» على بعض الاوانى فى الجبانة التى حول الهرم ، ورغم أن « جورج رايزنر » (١٨٦٧ — ١٩٤٢م) لا يميل الى الربط بين وجود هذا الاسم وبين اسم مشيد الهرم ، ومن ثم فهو يرى أن اسم مشيد الهرم مايزال غامضا ، وربما لم نكشف حتى الان عن مكان دفن جثته ، فان «ادواردز» — وكذا «جان فيليب لاور» — انما يفضلان نسبة هذا الهرم الى عصر الاسرة الثالثة(٤٢) .

وهناك فى زاوية العريان — وعلى مبعدة سبعة كيلو مترات من أهرام الجيزة ، وكيلو ونصف الى الجنوب من الهرم ذى الطبقات — اكتشف «الكسندر بارازنتى» فى الفترة (١٩٠٤ — ١٩١١م) «الهرم الناقص» ، والذى ينسب الى الملك «نب كاو» (نفر كارع) — والذى تمثل أبعاده قاعدة هرم سقارة المدرج (١٨٠ × ٢٠٠) امترا — ولم يكشف منه غير

(٤١) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .
وكذا Jean Philippe Lauer, Histoire Monumentale des Pyramides d'Egypt, T. I, Les Pyramides a Degres, Le Caire, 1962, p. 206 F.
(٤٢) J. P. Lauer, La Pyramide a Degres, I, Cairo, 1936, p. 8-9.
وكذا I. E. S., Edwards, op. cit., p. 69.
ثم قارن E. Drioton and J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1952, p. 202, 628.

الجزء الاسفل المحفور فى الصخر تحت الارض ، وفيه التابوت المنحوت من الجرانيت ، والذى لم يعثر فيه عن شىء على الاطلاق[٤٣] .

وكان «حو» أو «حونى» (بمعنى الضارب) آخر ملوك الاسرة الثالثة ، وقد حكم ٢٤ عاما ، وتكرر اسمه فى قوائم الملوك ، وطبقا لما جاء فى بردية «بريس» — من الدولة الوسطى — فان «حونى» جاء بعد «نب كاو» ، وقبل «سنفرو»[٤٤] ، هذا وقد بدأ «حونى» بناء هرمه فى «ميدوم» ، والذى يمثل مرحلة الانتقال بين الهرم المدرج والهرم الكامل ، أو بعبارة أخرى المرحلة النهائية من مراحل تطور الشكل الهرمى للقبر الفرعونى ، ويشبه هذا الهرم الان — بعد أن زالت كسوته — برجا مدرجا ، وهو فوق تل مرتفع من الرمال ، وكأنه قلعة حصينة[٤٥] .

وهناك ما يشير الى أن هذا الهرم كان عند موت «حونى» اما ناقصا لم يتم تشييده ، واما أن «سنفرو» أحس بأنه كان أقل مما يليق بصاحبه ، ومن ثم فقد أضاف اليه الكثير ، وأتم بناءه ، ومن ثم فيمكننا أن نعتبر اتمام هرم ميدوم ومجموعته الجنازية مما يمكن نسبته الى عهد «سنفرو»[٤٦] ويرجع الاهتمام بهذا الهرم الى القرن الثامن عشر الميلادى ، كما كان من بين الاهرامات التى عنى بفحصها «برنج» و «فيز» فى عام ١٧٣٩ م[٤٧] .

ثم قام « سير ماثيوس فلندرز بترى » (١٨٥٣ — ١٩٤٢)

(٤٣) A. Barsanti, Fouilles de Zaouite el-Aryan in ASAE, 7, 1906, p. 260-286, 8, 1907, p. 201-210, 12, 1912, p. 57-63.

(٤٤) E. Drioton and J. Vandier, op. cit., p. 196.

وكذا G. Jequier, Le Papyrus Prisse et ses Variantes, Paris, 1911, p. 12.

(٤٥) محمد جمال الدين مختار : الموسوعة المصرية ٣٨٤/١ .

(٤٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٠٥ .

(٤٧) H. Vyse and J. S. Perring, Operations Carried on at The Pyramids of Gizeh, III, London, 1842, p. 78-80.

بالحفر فى المنطقة منذ عام ١٨٩٠[٤٨]، وفى عام ١٩٢٧ قام «لودفيج بورخاردت» (١٨٦٣ — ١٩٣٨) بفحص هرم ميدوم[٤٩]، وبعد ذلك بسنوات، وحتى عام ١٩٣٤ م، قامت بعثة متحف جامعة بنسلفانيا بحفر المنطقة، وان ركزت اهتمامها بالمعبد، والجبانات التى حول الهرم، دون العناية بالهرم نفسه[٥٠].

هذا وقد شيد هرم ميدوم على حافة الهضبة، وقد أحاط به سور خارجى تهدم الآن، ونرى فى الجهة الشرقية منه طريقا صاعدا له جداران، وليس له سقف، يوصل بين حافة الوادى، وبين مدخل فى الناحية الشرقية من سور الهرم، وعند حافة الأراضى الزراعية، وفى نهاية الطريق الصاعد كان يوجد معبد الوادى، هذا وقد وجدت بقايا هرم صغير فى الجهة الجنوبية من هرم ميدوم، كما وجد فى الجهة الشرقية منه معبد جنزى صغير، له سور خارجى[٥١].

وتبلغ مساحة قاعدة هرم ميدوم ٢٠٨٨٠ مترا، أى ما يزيد على مساحة قاعدة هرم زوسر بنحو الثلث، ويظن أنه كان فى الاصل مصطبة مستطيلة، بيد أنه لا يبعد أن يكون البناء قد أفاد مما حققه «ايمحوتب» فى هرم زوسر، فأنشأ — بادىء ذى بدء — هرما مدرجا، وان كنا على غير يقين من ذلك.

وأياما كان الأمر، فقد كان هرما ذا سبع درجات، يقوم على مساحة مربعة، طول ضلعها نحو ١١٠ مترا، وارتفاعها ٦٧ مترا، وتتكون

(٤٨) انظر : W. M. F. Petrie, Medum London, 1892
وكذا W. M. F. Petrie, G. A. Wainwright and A. Macky, Meydumy, and Memphis, III, London, 1910.

(٤٩) Ludwing Borchardt, Die Entstehung der Pyramide, an der Baugeschichte der Pyramide bei Meidum Nachgewiesen, Berlin, 1928.

(٥٠) Alan Rowe, University of Pennsylvania Museum Journal, 22 1931, p. 5-46.

(٥١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٩٨ — ١٠٥.

كل درجة من نواة ، من حجر محلي يكسوها حجر جيري جيد ، احسن تسوية سطحه الظاهر ، ثم زيد فى حجمه بتعلية الدرجات ، واضـافة درجة جديدة اليها ، فأصبح هرما ذى ثمـانى درجات ، وقـد ظلت أهرامات الدولة القديمة تبنى بمثل هذه الاضافات الجانبية ، بحيث يقل ارتفاع كل اضافة عن سابقتها ، وهناك من يذهب الى أن القوم انما قد اعتبروا ذلك مما يساعد على متانة البناء ، ان لم يكن يرجع الى شـدة محافظتهم على تقاليدهم[٥٢] .

وهناك فى متحف القاهرة أثر مخروطى الشكل من الجرانيت الوردى معاصر للملك ((حونى)) ، عثر عليه فى ((اليفانتين)) وقد ظن ((لودفيج بورخاردت)) أنه جزء من حصن بنى فى تلك الجزيرة التى كانت تمثل الحدود بين مصر والنوبة[٥٣] ، وقد كتب خرطوش الملك ((حونى)) على هذا الأثر مرتين[٥٤] ، هذا فضلا عن اسم ((حونى)) انما قد جاء على مقصورة فى سقارة ، ترجع الى بداية الأسرة الرابعة ، وكذا على حجر بالرمو ، عند تسجيل هبة من ((نفر اير كارع)) الى ((حونى))[٥٥] .

(ذ) أهرام سيلا وزاوية الاموات والكولة

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك أهراما ثلاثة أخرى ، تنتمى الى الأسرة الثالثة ، لم تشيد فى منطقة منف ، وانما بعيدا عنها ، فى محافظات الفيوم والمنيا وأسوان .

وأولها ((هرم سيلا)) : — ويقع على بعدة خمسـة كيلو مترات من

(٥٢) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٢٩٦ — ٢٩٧ ،
وكذا W. M. F. Petrie, The Bulding of a Pyramid, Ancient Egypt, 15, 1930, p. 33 F.

(٥٣) L. Borchardt, Altagyptische Festungen, Leipzig, 1909, p. 41.

(٥٤) ZAS, 46, 1909, p. 12, 75, 1956, p. 18.

(٥٥) W. S. Smith, The Old Kingdom in Egypt and The Beginning of The First Intermediate Period, CAH, I, Part, 2 1962, p. 17.

ترعة وهبى ، على مقربة من عزبة زنانيرى ، بمحافظة الفيوم — وقد زاره «بورخاردت» فى عام ١٨٩٨ م ، وكتب أول وصف له[٥٦] ، وفى عام ١٩٣٧م نشر «بوشان» خمس صور لهذا الهرم[٥٧] ، ولا نجد فى الناحية الشرقية من هذا الهرم أية بقايا من معبد أو هيكل ، كما لاتوجد فى هذه الناحية مساحة كافية لمعبد الوادى ، لان الهرم نفسه مشيد قريبا من حافة الهضبة ، وأمامه من الناحية الشرقية منحدر عميق ، ولم يسبق لاحد أن لاحظ وجود مقابر على مقربة منه ، كما لا يوجد حوله الا بعض قطع متناثرة من الفخار ، وشظايا من الحجر الجيرى ، وان أشار (بورخاردت) الى رؤيته لقطعة من حجر البازلت ، مما قد يشير الى وجود تماثيل أو معبد هناك[٥٨] .

هذا ويتردد «جورج رايزنر» فى أن يطلق عليه صفة المصطبة ذات الطبقات ، ويصفه بأنه رديم وحوله كساء من الحجر ، ويتكون من نواة وطبقة واحدة[٥٩] .

وأما الهرم الثانى ، فكان فى «زاوية الاموات» (زاوية الميتين) — ويقع على الضفة الشرقية للنيل ، على مبعدة ثمانى كيلو مترات ، شمالى المنيا — وسط جبانة مدينة «حبنو» القديمة ، ومازال الجزء الاسفل منه باقيا حتى الان ، وهو مشيد بكتل من الاحجار التى تميل الى الداخل ، وقد قام «ريموندى» بتنظيف جوانبه ، وان لم يجد أى دليل لتحديد تاريخه ، بل انه فشل حتى فى العثور على مدخله[٦٠] .

(٥٦) L. Borchardt, Die Pyramide Von Silah, in ASAE, I, 1900, p. 211-214.

(٥٧) A. Pochan, Pyramide de Seila au Fayoum, in BIFAO, 37, 1937, p. 161.

(٥٨) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٩٢ .

(٥٩) G. A. Reisner, The Development of The Egyptian Tomb, p. 339.

(٦٠) R. Weill, Fouilles a Tounah et a Zaouiet-Maietin, 1912, p. 488.

وكذا B. Porter and R. L. B. Moss, op. cit., IV, p. 134.

وكذا G. A. Reisner, op. cit., p. 339.

واما ثالث هذه الاهرامات ، فهو هرم «الكولة» ، ويقع فى «البصيلية» مركز ادفو ، بمحافظة أسوان ، وقد سبق أن تحدثنا عنه •

هذا ويمكننا أن نضيف الى هذه الاهرامات الثلاثة أثرا رابعـا ، يوجد فى خرائب «نوبت» على مبعدة سبعـة كيلو مترات ونصف من نقادة ، بمحافظة قنا ، وقد فحصه «بترى» عام ١٨٩٢م • وهو أيضـا نوع من المصطبة ذات الطبقات ، ومداميكه متجه نحـو الداخل ، وله نواة وثلاث طبقات ، ولكننا لا نجـد أى أثر لمصاطب فـوق المصطبة السفلى ، حتى يمكننا القول بأنه هرم مدرج[٦١] •

ولعل أهم الموظفين فى الاسرة الثالثة — غير ايمحوتب وزير زوسر — المدعو «مثن» ، وقد تدرج فى كثير من المناصب ، وكان من المعمرين ، حيث بدأ حياته الوظيفية فى عهد «زوسر» ، وامتد به العمر الى أوائل الاسرة الرابعـة ، وقـد نقلت مقبرته بأكملها الى متحف برلين ، ومن نقوشها عرف الشيء الكثير عن التنظيم الادارى للبلاد فى ذلك العهد ، فضـلا عن الوظائف التى تدرج فيها ، والاقـاليم المختلفة التى كان يشرف عليها •

وهناك كذلك «حسى رع» وكان يشغل وظيفة «رئيس كتبة الملك» ، وقد عثر فى مقبرته المعروضـه الآن بالمتحف المصرى على الكثـير من اللوحـات الخشبية[٦٢] ، وهنـاك كذلك «منكا» وكان يحمـل ألقاب «القاضى» و «الوزير» كما يبدو ذلك من أوان حجرية ، عثر عليهما بين الكميات الضخمـة المخزونة فى الاروقـة الموجودة أسفل هرم زوسر المدرج[٦٣] •

(٦١) W. M. F. Petrie and J. E. Quibll, Nagada and Ballas, London, 1896, p. 65-70.

(٦٢) J. E. Quibell, The Tomb of Hesy in Saqqara (1911-1912), Cairo, 1913, p. 26.

(٦٣) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, I; Paris 1952, p. 947.

وكذا W. S. Smith, in CAH, I, Part, 2, 1971, p. 160.

وعلى أي حال ، فرغم أن الكثير لم يعرف بعد عن النظم الادارية في عصر الاسرة الثالثة ، فان النخبة الممتازة من رجال الدولة القلائل الذين نعرفهم ، من أمثال «ايمحوتب» و «حسى رع» و «نجم عنخ» و «خع بأوسكر» (٦٤) و «أخت عا» ومهندس السفينة «بجمس» انما كانوا جميعا رجالا أكفاء ، نشيطين ، ومفكرين وضعوا النظريات الدقيقة فيما يتصل بالامور العامة ، وتخصصاتهم الحرفية ، بصفة خاصة (٦٥) .

ويبدو بصفة عامة أن الدولة القديمة لم تعرف نظام الوراثة الجامد ، وانما كانت المهارات الفطرية ، وتفضيل الملك ، هي العوامل التي تحدد عمل الفرد ، وربما كانت الحاجة ماسة الى رجال أكفاء للمشروعات الكثيرة في عصر الاسرة الثالثة ، من العوامل التي جعلت الترقي في الوظائف ، أسهل منه في الاسرة الرابعة ، عندما كان كبار الرجال المفضلين عند الملك من أفراد أسرته (٦٦) .

---

(٦٤) Pm, III, p. 11.
وكذا M. A. Murrey, The Tomb-Seker, II, 1937, p. 11.
(٦٥) W. S. Smith, The Art and Architecture of Ancient Egypt, Harmondsworth, 1965, p. 35-38.
(٦٦) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 160.

٢ ـ الاسرة الرابعـــــة

(١) سنفـــــرو

يبدأ «مانيتو» اسرته الرابعة بملك دعاه «سوريس» ، وليس هناك من ريب فى أنه كان يعنى به «سنفرو» (نب ماعت)[١] ، وطبقا لما جاء فى «بردية ابريس» فقد اعتلى سنفرو العرش بعد «حونى» مباشرة[٢]، ومن ثم فقد ذهب كثير من العلماء الى أن انتقال السلطـة من الاسرة الثالثة الى الرابعة انما قد تم بطريقة طبيعية[٣] ، وأن «أم» سنفرو انما كانت تدعى «مرس عنخ» ، وأنها قد دفنت فى ميدوم ، وأن اسمها قد جاء فى قائمة بالرمو ، وكذا على خرطوش فى معبد « حـونى » فى ميدوم[٤] .

وهكذا ذهب بعض الباحثين الى أن «مرس عنخ» لم تكن الزوجة الرئيسية للملك «حونى» ، ومن ثم فقد تقدمت عليها زوجة أخرى ، أنجبت ابنا لم يعرف اسمه ، وربما مات فى أخريات عهد أبيه ، فضـلا عن بنت تدعى «حتب حرس» انحصرت وراثة العرش فيها ، ولما كان القوم حينئذ لم يألفوا حكم الاناث منفردات ، فقد زوج «حونى» ابنته هذه من ولده الذى أنجبه من «مرس عنخ» ، تجنبا للخلاف بين فرعى

---

(١) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford 1964, p. 77.

(٢) W. S. Smith, op. cit., p. 160.

(٣) G. A. Reisner and W. S. Smith, A History of Giza Necropolis, II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955, p. 1 F.

وكذا W. S. Smith, Inscreptional Evidence for The History of The Fourth Dynaaty JNES, II, 1952, p. 113 F.

(٤) B. Gardseloff, Notes sur deux Monuments inedits de L'Ancien Empire, ASAE, 42, 1943, p. 118.

وكذا W. M. F. Petrie, Medum, London, 1892. p. 19.

الضرتين ، ولكى تنتقل اليه الصبغة الشرعية الكاملة فى اعتلاء العرش ، واحتفظ «سنفرو» لزوجته بمكانتها ، فسمح لها بأن تحمل لقب « بنت الاله» (سات نثر) ، وهكذا انتقل العرش الى سنفرو مباشرة بعد موت أبيه حونى[٥] .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب أصحابه الى أن انقساما قد حدث فى البلاد بشكل ما ، بعد وفاة «زوسر» ، لم يستطع « حونى » — آخر ملوك الاسرة — القضاء عليه ، وعند وفاته ورثت العرش ابنته «حتب حرس» ، فتزوجت من سنفرو ، وهو من غير أبناء الاسرة المالكة، فنقلت اليه حق الملك ، أو بمعنى آخر نقلت اليه الحق الاوزيرى المقدس الذى استندت اليه أسرتها الثالثة فى حكمها ، واعتمد أصحاب هـذا الاتجاه على تفسير خـاص للجانب السياسى والاسطورى فى المذهب المنفى[٦] .

وفى الواقع اننا لا نتفق مع وجهة النظر التى تذهب الى أن البلاد قد فقدت وحدتها فى الاسرة الثالثة ، وان كنا نوافق تماما على أن أم سنفرو ، انما كانت تدعى «مرس عنخ» وأن زوجته كانت «حتب حرس» وأنها قد قامت بالدور الرئيسى فى انتقال العرش اليه ، فهى سليلة الدم الملكى النقى ، الذى يمثل الفرع المباشر للوراثة ، على أساس انها ابنة «حونى» آخر ملوك الاسرة الثالثة .

وهناك ما يشير الى أن زواج سنفرو من «حتب حرس» انما تم ابان عصر سلفه «حونى» ولم يكن قبيل أو بعد ارتقائه عرش الفراعين، ذلك لان ولدهما «خوفو» انما كان رجلا فى العشرينات من عمره ، عندما اعتلى العرش ، وأن الامير «خوفو خع اف» (Khufukhaf) قـد ظهر فى مقصورة مقبرة تم بناؤها فى السنة الاخيرة من حكم والده سنفرو ،

---

(٥) G. A. Reisner and W. S. Smith, op. cit., p. 5.
وكذا W. S. Smith, JNES, II, 1952, p. 125.

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٢١ ـ ٣٢٢ .

مرة كرجل شاب مع أمه ، وأخرى كرجل عجــوز سمين[7] ، وأن ولى العهد «كاوعب» (Kawab) الذى توفى حوالى وقت وفاة والده ، انما قد صور فى مقبرة ابنة الملكة «مرس عنخ الثالثة» فى صورة رجــل بدين مهيب فى خريف العمــر[8] ، وهــكذا يذهب بعض البــاحثين الى أن «سنفرو» انما كان فى حوالى الثامنة عشرة ، عندما رزق بأكبر أبنائه ، وانه تزوج من «حتب حرس» فى منتصف عصر سلفه «حونى» ، لكى يدعم حقه فى وراثة العرش المصرى[9] •

وأيا ما كان الامر ، فليست المشكلة فى صلة سنفرو بحونى ، فهناك من يجعله ابنا له ، ومن يجعله زوجا لابنته ، وفى الواقع نحن لا نعرف على وجه اليقين صلة الواحد منهما بالاخر ، وان كنـــا لا نميل الى أن سنفرو انما كان ابنا لحونى ، والا لما كان هناك ما يدعو الى قيام أسرة جديدة ، اللهم الا اذا كان ذلك يعنى أن فترة حكمه انما تمثل بداية عهد جديد فى تاريخ مصر ابان أيام الدولة القديمة ، تتميز بتركيز الحكم فى الشمال ، فضلا عن عدم وجود أهرام فى الجنوب ، ومهما يكن من أمر ، فان سنفرو انما يدين بعرشه الى الرابطة التى تربطه بحونى وأسرته •

وعلى أى حال ، فلقد أسس «سنفرو» أسرة ملكية ، وأصبح مركزه شرعيا لاعتلاء عرش البلاد بزواجـه من الاميرة «حتب حرس» التى كانت تحمل لقب «ابنة الاله» وكان لها حق وراثة العرش ، على أساس أنها الوريثة المباشرة لخط الدم الملكى ، هذا وقد عثرت بعثـــة متحف بوسطن على مخبأ أثاثها الجنزى ، الذى يحتل حجرة كاملة فى المتحف عام ١٩٢٦ م فى جبانة الجيزة[10] •

---

(٧) W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Paining in The Olb Kingdom, 1946, Pls. 43-44.

(٨) W. S. Smith, The Art and Architecture of Ancient Egypt, 1958, pl. 46.

(٩) W. S. Smith, in CAH, I, Part, 2, Cambridc, 1971, p. 165.

(١٠) G. A. Raisner and W. S. Smith, A History of The Giza Necropolis, II. The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.

هذا وقد خلف «سنفرو» وراءه شهرة الحاكم المثالي في الخير وحسن التصرف ، شديد الحرص على أن يسود العدل رعيته ، حتى أنه اتخذ العدالة شعارا له،فلقب نفسه «نب ماعت» (سيد أو رب العدالة)، ومن ثم فقد ظلت ذكراه عدة قرون بين المصريين ، وكانوا يشيرون اليه بقولهم «الملك المحسن» و «الملك الرحيم» و «الملك المحبوب» و «الملك الفاضل» ، كما صورته الوثائق متواضعا ، يميل الى المعرفة ، ويكرم العلماء ، ويحسن الاستماع ، ويكتب بنفسه ، ولا يبالى أن يسأل عما لا يعرفه ، كما اختار بعض ملوك الاسرة الثانية عشرة — بعد وفاته بحوالى سبعة قرون — نفس المنطقة التى دفن فيها ، لتكون مثواهم الاخير ، تيمنا به ، وتقديسا له(١١) •

هذا وقد حكم «سنفرو» أربعة وعشرين عاما ، وكان ابناؤه يتولون أغلب المناصب الهامة فى البلاد ، سواء أكان ذلك فى العاصمة أم فى الاقاليم ، فلما جاء اليوم الذى ترك فيه أمور مصر الى ولده «خوفو» من بعده ، ترك عرشا ثابت الاركان ، وبلدا غنيا منظم الادارة ، وموظفين مدربين اكتملت خبرتهم الفنية •

وهناك على مبعدة عشرة كيلو مترات تقريبا الى الجنوب من أهرام سقارة ، شيد «سنفرو» مقبرتيه المشهورتين ، عرفت الواحدة منهما باسم «الهرم المنحنى» (ومساحته ٣٥٤٠٠ مترا ، وطول كل ضلع من أضلاع قاعدته ١٨٨٫٦م ، وارتفاعه ١٠١٫١٥ مترا) وذلك لان جوانبه شيدت بانحدار منكسر •

وأما الاخرى فهى الهرم الاحمر ، لان حجارته تميل الى الحمرة ،

---

(١١) G. Posener, Litterature et Politique. Paris, 1956, p. 32.
وكذا B. Gunn, Concerning King Sneferu, JEA, 12, 1926, p. 250-251.
وكذا Sir Alan A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford. 1964, p. 79.

وتقع الى الشمال من الهرم المنحنى ، وقد بنيت على شكل هرم مربع الشكل (ويبلغ طول كل ضلع من أضلاع قاعدته ٢٢٠م ، وارتفاعه ٩٩م)، ويعد أول هرم حقيقى فى مصر ، والمثل الذى احتذاه بقية ملوك الاسرة الرابعة فيما بعد(١٢) .

والله ليبدو من غير الطبيعى أن ملكا واحدا يبنى لنفسه هرمين كبيرى الحجم لا يبعد الواحد منهما كثيرا عن الاخر . ولكن حقيقة الامر يؤكدها مرسوم فى عصر «بيبى الاول» يعفى الموظفين من خدمات معينة ، كان رعايا فرعون الأقل حظا يكلفون بها ، وقد عثر على اللوحة التى تحمل المرسوم فيما نظن انه كان معبد الوادى للهرم الحجرى الشمالى فى دهشور ، جنوبى سقارة ببضع كيلو مترات ، والذى يخص سنفرو فى أغلب الامر ، تبعا لذلك(١٣) .

هذا ولم يعثر على أى أثر يدل على أن الهرم الشمالى قد استخدم ليكون مدفنا ملكيا ، سواء عندما قام «بيرنج» و «فيز» بفحصه وتنظيف داخله فى عام ١٨٣٩م ، أو عندما أعيد تنظيفه فى عام ١٩٤٧م ، ويذهب أستاذنا الكبير أحمد فخرى — طيب الله ثراه — الى أن سنفرو انما قد دفن فى الهرم المنحنى فى دهشور ، وفى الحجرة العليا التى تقع فى الممر الغربى ، وليس من المستبعد أن نعثر فى المستقبل على مبان جنزية على مقربة من الهرم الشمالى فى دهشور ، كالتى كشف عنها على مقربة من الجنوبى (المنحنى) بين أعوام ١٩٥١ ، ١٩٥٥ م ، وهو الهرم الذى كان دون غيره من الاهرام ، المقر الابدى للملك سنفرو(١٤) .

(٣) خـوفـو

خلف «خنوم خو اف وى» — أو «خوفو» كما يختصر اسمه

---

(١٢) J. Vercoutter, op. cit., p. 288.

(١٣) A. H. Gardiner, op. cit., p. 78.

(١٤) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية — القاهرة ١٩٦٣ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

عادة ــ أباه ((سنفرو)) على عرش الكنانة ، وتزوج من أخته ((مريس ايتس)) (الزوجة الرئيسية) وقد أفاد ((خوفو)) من خبرات رجال أبيه ، وخبرات عهده ، وتوفر له من السلطات أكثر مما توفر لابيه ، وتوفر لمصر فى عهده من الامكانات المادية ، والكفايات الفنية ، أكثر مما توفر لها فى عهد أبيه ، وعلى الرغم من ذلك ، وعلى الرغم من شهرة ((خنوم خو اف وى)) ــ صاحب الهرم الاكبر ، فلسنا نعرف سوى القليل عن أعماله ــ ــ خارج نطاق هذا الشاهد المادى لسلطانه العظيم ــ

وأما خرطوشه الذى يحمل اسمه ((خنوم خو اف وى)) ، فقد عثر عليه فى محاجر متعددة ، وفى مقابر أقربائه ونبلائه ، وفى عدد من الكتابات من العصر المتأخر ، ولكن من بين هذه جميعا ، ليست هناك وثيقة معاصرة تستطيع أن تدعم اصالتها التاريخية ، الا فيما يتصل بدفن أمه ((حتب حرس)) ، هذا فضلا عن أنه ليس لدينا سند سليم نقيم عليه قرارا ثابتا عن طول مدة حكم خوفو ، الذى تسجله بردية تورين ، وكأنما استغرق ثلاثة وعشرين عاما ، بينما يسجل له المؤرخ المصرى ((مانيتو)) ــ ولعله يعتمد على الحدس وحده ــ ليس أقل من ثلاثة وستين عاما(١٥) .

هذا وقد أطلق خوفو على نفسه ــ بعد اعتلائه العرش ــ لقبا ، صعبت قراءته قراءة سليمة حتى الآن ، وربما قرىء (حور مجرو) ، والذى قد يعنى ((حور سديد المرمى)) أو ((حور الدرع)) (الحصين) ، ثم سرعان ما انتسب الى الربتين ــ ((نخبت)) (نخابة) الهة الصعيد ، و ((وادجيت)) الهة الدلتا ــ بنفس كلمة ((مجدو)) (أو مجرو) بمعنى المهتدى بهما ، وأما رجال الملك فقد لقبوه بلقب آخر ، ربما يمكن أن يقرأ ((حورى نب رخو)) بمعنى الملك الحورى رب المعرفة ، أو ((حورى نب رخيتيو)) ، بمعنى رب الشعب ، المنتسب الى الصقرين ، وأيا ماصح

---

(١٥) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohe, 1964, p. 79-80.

من هذه القراءات ، فانما يدل على رغبة القوم فى وصف ملكهم بصفة طيبة يحبونها فيه(١٦) .

وعلى أى حال ، فلقد قام «خـوفو» بكثير من الاعمال الجليـلة والمنشآت العظيمة ، غير أن ذلك كله لم يكن السبب فى تخليد اسمه فى التاريخ على مدى الاجيال ، وانما كان السبب فى ذلك هرمه الذى شيده على هضبة الجيزة ، وهو المعروف باسم «الهرم الاكبر» والذى مازال شامخا ، سليم البنيان ، يتحدى الزمن ويغالبه ، وينتزع اعجابنا كما انتزع اعجاب الشعوب القديمة جمعاء ، ويعترف الناس اليوم — كما اعترفـوا بالامس — بأنه ليس واحـدا من عجائب الدنيا السبع(١٧) وحسب ، بل هو عجيبة العجائب ، ذلك لاننا حين نصف الهرم الاكبر بأنه من عجائب الدنيا السبع ، فان ذلك يبدو — كما يقول جاردنر — أقل بكثير من الواقع ، مادام الهرم الاكبر يفوق فى حجمـه أى مبنى أقامه الانسان فى تاريخه الطويل ، الامر الذى سوف نناقشه فى فصل مستقل فى كتابنا عن «الحضارة المصرية القديمة» .

وهو — على أية حال — يشغل مساحة تقرب من ١٣ فدانا (٥٤ ألف متر مربع) ، وكان ارتفاعه ١٤٦ مترا ، تهدم منها تسعة أمتار منذ بضعة قرون فأصبح ارتفاعه الآن ١٣٧ مترا ، واستخدم البنائون فى بنـائه — فيما يقـال — مليونين وثلاثمائة ألف كتلة حجرية ، زنة الواحـدة

---

(١٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٤ .
وكذا H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907. p. 73-74.
وكذا G. Reisner, op. cit., p. 8.
وكذا K. Sathe, ZAS, 42, p. 53 F.
(١٧) بدأ كتاب اليونان يتحدثون عن عجائب الدنيا السبع منذ القرن الثانى قبل الميلاد ، وقد حدث بعض التغيير فيها على مر العصـور ، وهاهى ، كما ذكرها المؤرخ «فيلو البيزنطى» : ١ — أهرام مصر ٢ — حدائق سيميراميس فى بابل ٣ — تمثال الاله «زيوس» فى أوليمبيا ٤ — معبد الالهة «أرتيميس» فى افسوس ٥ — ضريح هاليكارناس ٦ — تمثال رودس ٧ — منارة الاسكندرية (احمد فخرى : الاهرامات المصرية ص ١٤٥) .

٢½ طن ، وبعضها يزن ١٥ طنا (وربما ١٦½ طنا) ، هذا ويتضمن الهرم الاكبر ثلاث حجرات كبيرة للدفن ، حجرة سفلية نحتت فى باطن الصخر ، وثانية فى باطن الهرم تعرف خطأ باسم «غرفة الملكة» وقد هجرتا ، ثم حجرة ثالثة بنيت بالجرانيت فى منتصف الهرم العلوى ، دفن الفرعون فيها ، هذا ويصل بين حجرة الدفن الوسطى فى باطن الهرم ، دهليز صاعد يعتبر آية من آيات الفن المعمارى فى عصره ، ويبلغ طوله ٥٣ قدما ، وارتفاعه ٢٨ قدما ، كسيت الاجزاء السفلى من جانبه بأحجار مصقولة ضخمة .

وأما المبانى التى كونت مجموعة الهرم الاكبر فقد اختفت جميعها الا قليلا ، فمعبد الوادى لم يتم حفره حتى الان . ويقع تحت قرية نزلة السمان أو الى الشرق منها ، وأما الطريق الصاعد ، والذى وصفه هيرودوت بأنه لا يقل عن تشييد الهرم نفسه ، فقد رآه « لبسيوس » عندما زار مصر عام ١٨٤٣م ، وأما السور الخارجى فلم يتبق منه غير آثار قليلة ، والامر كذلك بالنسبة الى المعبد الجنازى الذى كان الى الشرق من الهرم ، ويتكون من فناء تحيط به أعمدة ، وبهو مدرج يؤدى الى مقصورة القربان أو الى مشكاوات خمس .

هذا وهناك تمثال صغير للملك «خوفو» من العاج ، عثر عليه فى أبيدوس وهو محفوظ بمتحف القاهرة ، ولا يتعدى طوله بضعة سنتيمترات ، ويمثله جالسا على كرسى ، متوجا بالتاج الاحمر(١٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه فى عام ١٩٢٥ م ، عثر

---

(١٨) ذهب «برستد» الى أن «خوفو» ليس منفى الاصل ، وانما من «بنى حسن» بالمنيا ، مقر عبادة «خنوم» ، ومن ثم فقد سمى المصريون هذه الناحية «منعت خوفو» أى «مرضعة خوفو» ، وهناك عدة افتراضات ، منها أن «منعت خوفو» قد تكون مسقط رأسه ، ومنها أن مرضعة خوفو قد تكون من بنى حسن (نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٥) .

وكذا J. H. Breasted, A History of Egypt, p. 116.

(١٩) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne III, Paris, 1958, p. 15.

«جورج أندرو رايزنر» (١٨٦٧ — ١٩٤٢) على حجرة دفن من عصر الدولة القديمة ، شرقى الهرم الاكبر ، لم يعـرف اللصوص طريقهم اليها ، فقد عثر فى داخل الحجرة على التابوت المرمرى الجميل،والاثاث الجنازى للملكة «حتب حرس» زوج سنفرو ، وأم خوفو — ومع أن التابوت وجد خاليا ، الا أنه قد عثر على الاحشاء التى استخرجت من الجسد فى صندوق من المرمر ، عرف باسم «الصندوق الكانوبى» •

ويذهب «رايزنر» الى أن الملكة ربما قد دفنت فى مقبرة بدهشور ، على مقربة من هرم زوجها الملك سنفرو ، غير أن اللصوص سرعـان ما اقتحموا قبرها وأخذوا الجسد بما عليه من جواهر وحلى ذهبية ، ولكنهم قبل أن يتمكنوا من سرقة بقية الاثاث ، اكتشف الحراس الامر، ومن ثم فقد نقلوا البقية الباقية منه الى الجيزة ، وهناك قطعوا — الى جانب طريق المعبد الجنازى للهرم الاكبر ، الذى كانوا يعملون فيه وقتذاك — بئرا عميقا كدسوا فيه ما بقى من محتويات المقبرة ، دون أن يحيطوا خوفو علما بذلك •

وهناك فى احدى قاعات المتحف المصرى بالقاهرة ، صفت محتويات مقبرة الملكة «حتب — حرس» ، ومنها أوان من المرمر ، وابريق من النحاس ، وثلاث أوان ذهبية ، وأمواس وسكاكين من الذهب ، وأدوات من النحاس ، وآلة ذهبية لتقليم الاظـافر — مدببة من أحد طرفيها لتنظيف الاظافر ، مقوسة من الطرف الاخر لضغط أطراف اللحم عند الظفر الى أسفل — هذا وقد احتوى صندوق الزينة على ثمان أوان صغيرة من المرمر ، ملأى بالعطور والكحل ، فضلا عن عشرين خلخالا من الفضة ، رصع كل منها بفراشات من الدهنج واللازورد والعقيـق الاحمر •

وهناك كذلك سرير الملكة المصفح بالذهب ، وكرسيها الكبير،وخيمتها المتنقلة ذات الاعمدة المصفحة بالذهب ، فضلا عن محفة مصنوعة من

الخشب ، وكسى جـزء منها بصفـائح من الذهب ، محـلاة بكتابات هيروغليفية من الذهب ، مثبتة فى لوحات من الابنوس ، ومكررة أربع مرات ، ويمكن ترجمتها كالتالى :. «أم مصر ملك مصر العليا والسفلى ، تابعة الاله حور ، رائدة الحاكم ، العزيزة التى تنفذ كل أوامرها ، ابنة الاله ، المولودة من صلبه حتب — حرس»[٢٠] •

(٣) خلفـــاء خـــوفو

كانت الخلافات بين أفراد البيت المالك ، سواء فى عهد خوفو أو بعده ، سببا للكثير من المتاعب ، فقد تزوج خوفو من عدة زوجات ، وكان بعضهن ، دون شك ، أميرات يجرى فى عروقهن الدم الملكى ، وقد رزق الكثير من البنين والبنـات من زوجاته الكثيرات ، وكانت الامنية الكبرى لأكثر من واحدة من زوجاته أن ترى ولدها متربعا على العرش فى يوم من الايام ، ومن ثم فقد ظهـر نوع من الصراع بين فرعـين رئيسيين من أبناء خوفو ، بين «جدفرع» وبين «خفرع» ، وربما قد امتد هذا الصراع الى صفوف الكهنة والى الشعب •

وقد أدى ذلك الى أن يصبح ترتيب الملوك فى الاسرة الرابعة — بعد خوفو — غير موثوق به ، وطبقا لما جاء فى بردية تورين فقد تولى العرش بعد خوفو ، ولده «جدفرع» (رع جدف) — وهو ابن زوجة ثانوية — ثم تمكن بعد وفاة ولى العهد «كاوعب» — أو قتله — من الزواج من أرملته «حتب حرس الثانية» ، ولكنه سرعان ما اختفى بعد حكم لم يزد عن سنوات ثمان ، ليخلفه على العرش أخ له (فى الفرع الثانى) يدعى «خفرع» (خع اف رع)[٢١] •

---

(٢٠) G. A. Reisner and W. S. Smith, A History of The Giza Necropolis, II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955.
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 135-136.
(٢١) H. Gauthier, Le Roi Zadfre Successeur Immediat de Khoufou-Kheops, ASAE, 25, p. 175-180.
وكذا Urk, I, p. 166, 285 F.

هذا وقد استمرت ذكرى «جد فرع» فى نصوص أفراد من الاسرة الخامسة كانوا يعملون بالكهانة فى معبده ونسبوا اليه عدة ضياع[٢٢] ، هذا فضـــلا عن نص فى وادى الحمامات ، يرجـــع الى الاسرة الثانية عشرة[٢٣] • وهناك ما يشير الى أن «جد فرع» قد تعهد أولاده بتربية طيبة ، سمحت لهم بأن يظهروا فى تماثيلهم على هيئة الكتاب والقراء فى ساحة معبده[٢٤] •

وهناك فى بردية تورين — وكذا مانيتو — ما يشير الى أن النزاع بين فرعى عائلة خوفو الرئيسيين[٢٥] ، وأن فرع «جد فرع» انمـــا قد تمكن مرتين من الاستيــلاء على العــرش ، كانت الاولى بعد موت «خفرع» ، وقبل أن يتمكن ولده «منكاورع» من استعادة عرش أبيه ، وكانت الاخرى فى أخريات أيام الاسرة الرابعة،وبعد وفاة «شبسسكاف» وان لم تعترف نصوص الاسرة — فضـــلا عن الوثائق التى كتبت فى العصور التالية — بهذه المحاولات التى قام بها أبناء «جد فرع» ، ومن ثم فقد اعتبرتهم ملوكا مغتصبين للعرش المصرى من أصحابه الحقيقيين

= وكذا G. A. Reisner, op. cit., p. 7.
وكذا W. S. Smith, JNES, XI, 1952, p. 124.
وكذا B. Gardseloff, Notes Suroeux Monuments Inedits de L'Ancien Empire, ASAE, 42, 1943, p. 118.
وكذا H. Ranke, JAOS, LXX, p. 65 F.
وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 173.

(٢٢) H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte. Paris, 1907, p. 84-85.

(٢٣) F. Debono, ASAE, 51, 1951, p. 89.

(٢٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٧ •
وكذا Von Walter Federn, Archiv fur Ag. Arch., Wien, 1938, p. 57.

(٢٥) يذهب «رايزنر» الى أن فروع أسرة خوفو انما كانوا ثلاثة : فرع ابناء الزوجة الرئيسية ، وبقى منه أميران صغيران ، لم يستطيعـــا الوصول الى العرش أو المطالبة به وهما «ددف — حور» ، و «باوف رع» ، وفرع من زوجة ثانية ، ترأسه جدفرع ، وفرع من زوجة ثالثة ترأسه خفرع (عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٥) •
وكذا G. A. Reisner, Mycrinus. Cambridge, 1931, p. 241.

ـ نسل خفرع ـ وهكذا نجدها تقتصر على أسماء خفرع (خع اف رع) ومنكاورع (من كاورع) وشبسسكاف[٢٦] .

وفى عـام ١٩٥٠ ، عثر فى وادى الحمامات على نقش على أحـد الصخور هناك ، به جـدول بأسماء داخل خـانات ملكية ، وقد رتبوا كالتالى : خوفو ـ رع جدف ـ خفرع ـ حور ددف ، وأخيرا «باوف ـ رع»[٢٧] ، ورغم أن هذا النقش لا يرجع الى ما قبل الأسرة الثـانية عشرة ، فانه يصور لنا ـ على الاقل ـ ما كان معروفا عن تتابع ملوك الأسرة الرابعة فى أيام الدولة الوسطى .

كان «حور ددف» أحد أبناء «خوفو» ، وقد دفن فى مصطبة كبيرة شرقى الهرم الاكبر (ومقبرته رقم ٧٢١٠ بجبـانة الجيزة)[٢٨] وأما «باوف ـ رع» فلا نعرف آثارا باسمه ، وعلى أى حال ، فاننا نعرف واحدا من أبناء «خوفو» يدعى «خنوم ـ باوف» (ومقبرته رقم ٧٣١٠ فى جبانة الجيزة) ، وآخر يسمى «حور ـ با ـ اف» ، وقد عثر له على تابوت محفوظ بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وربما أن واحدا منهما اتخذ لنفسه اسم «باوف ـ رع» عند اعتلائه العرش ، ونعرف من « بردية وستكار» ، أن القصة التى قصها «باوف ـ رع» تلى القصة التى قصها «خفرع» ، وقبل تلك التى قصها «حور ـ ددف»[٢٩] .

---

(٢٦) H. Goedicke, Ein Verehrer des Weisen Ddfhr, in ASAE, 55, 1958, p. 35-44.
وكذا G. A. Reisner, Mycerinus, Cambridge, 1931, p. 246.

(٢٧) F. Debono, Expedition Archeologique Royale au Desert Orientale. ASAE, 51, 1951, p. 89.

(٢٨) G. A. Riesner, Hetep-Heres, Mother of Cheops, Boston Museum Bulletin, XXX, 1927, p. 4.

(٢٩) يرتب بعض الباحثين ملوك الاسرة الرابعة كالتالى : ١ ـ سنفرو ٢ ـ خوفو ٣ ـ جدفرع ٤ ـ خفرع ٥ ـ جدف ـ حور ٦ ـ باوف ـ رع ٧ ـ منكاورع ٨ ـ شبسسكاف .
H. Gauthier, Le Livre Rois d'Egypte, I, p. 62-79.
F. Daumas, Le Civilization de L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 72.

وعلى أي حال ، فليس من السهل القول بأن هذين الرجلين (خنوم باوف ـــ حور باوف) قد جلسا على عرش الكنانة ، وأن كلا منهما كان يوما هو الحاكم الاوحد للبلاد ، ذلك لان مصر انما كانت وقت ذاك تجتاز فترة من عدم الاستقرار ، وربما حكما في السنوات الأخيرة من حكم ((خفرع)) أو أوائل عهد ((منكاورع)) وعلى أى حال ، فلقد اعترف بهما كاتب بردية تورين ، وكذا نقش وادى الحمامات ، ومانيتو[٣٠] .

وأيا ما كان الامر ، فلقد أعقب ((خفرع)) من الاسماء الكبيرة فى الاسرة الرابعة اسم ((منكاورع)) والذى أطلق على نفسه لقب ((كاخت)) بمعنى فحل جماعة الارباب،ولقب ((حور نب)) بمعنى الصقر الذهبى[٣١] ولم يبن مقبرته على شكل هرم ، وانما على طراز غير عادى ، وقد عرفت باسم ((مصطبة فرعون)) واتخذت نموذجا لمقبرة احدى بناته ، وهى ((خنت ـــ كاو اس)) التى تعتبر حلقة اتصال بين الاسرة الرابعة والخامسة .

(٤) آثار خلفــــاء خـــوفو

(أ) هــــرم جـــدفرع

هناك على مبعدة سبعة كيلو مترات الى الشمال من الهرم الاكبر ، وفى موقع ممتاز يشرف على الوادى ، وعلى مقربة من قرية أبو رواش الحالية ، بنى ((جـــد فرع)) (والملقب خبر) هرمه ، وهـــو هرم مربع القاعدة ، وطول كل ضلع من أضلاعه مائة متر ، وأما ارتفاعه الحـــالى فحوالى اثنى عشر مترا ، ولا يزيد الباقى فى بنائه عن ثمانية أو عشرة مداميك من الحجر الجيرى ، مبنية فوق مرتفع من الصخر الطبيعى ،

---

(٣٠) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٥ ـــ ١٨٦ .
وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 175.

(٣١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٤ .
1944, p. 53-54.
وكذا H. Gauthier, op. cit., 95 F., E. Drioton, ASAEE, 44,
1938, p. 57.

وكثيرا ما نقرأ عن هذا الهرم من أن بناءه لم يتم فى عهد صاحبه الذى لم يحكم سوى ثمانى سنوات .

ومن عجب أن ((جد فرع)) (ددف رع = رع ددف) اختار العودة الى تصميم الخندق المكشوف والبئر العمودية ، الخاصين بالاسرة الثالثة ، فى حين أن سلفه ((خوفو)) قد نجح فى بناء الاجزاء السفلية من قبره بطريقة تستنفذ مجهودا أقل من مجهود عمل خندق وربما كان السبب فى ذلك هو اختلاف نوع الصخر فى الهضبتين(٣٢) .

وهناك على مقربة من قرية ((أبو رواش)) ، والى المغرب قليلا ، نرى بضع كتل من الحجر الجيرى فى المكان الذى نستدل منه على مكان معبد الوادى ، الذى لم يحفر بعد ، ويبدأ من هذه البقعة الطريق الصاعد لهذا الهرم ، والذى ربما كان أفخم وأفخر الطرق الصاعدة للاهرام كلها ، وأما بقايا المعبد الجنازى فقد عثر عليها ((شاسينا)) عام ١٩٠١م فى الناحية الشرقية ، وفى الجهة الجنوبية من الهرم — وربما فى داخل سوره الخارجى — كان يوجد هرم جانبى صغير ، كادت أن تندثر الان كل معالمه .

هذا وقد وجدت حفرة لسفينة كبيرة منحوتة فى الصخر فى الناحية الشرقية من الهرم (طولها ٣٥م ، وعرضها ٣٫٧٥م ، وعمقها ٩٫٣٠م)، وفى أسفل الرديم الذى كان يملؤها عثر ((شاسينا)) على ثلاثة رؤوس مكسورة لتماثيل متقنة الصنع للملك ((جد فرع)) يوجد اثنان منها الان بمتحف اللوفر فى باريس ، وأما الثالث فهو فى المتحف المصرى بالقاهرة(٣٣) .

وعلى أى حال ، فلقد نحت فنانوا ((جد فرع)) تماثيله بأسلوب

---

(٣٢) I. E. S. Edwards. The Pyramids of Egypt, (Pelican Original), 1965, p. 164.

(٣٣) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٦ — ١٨٩ .

واقعى حزين كما ابتدعوا — فيما يرى البعض — أول نموذج لتماثيل أبو الهول ، برأس انسان وجسم أسد رابض ، وظهر وجه هذا النموذج دقيق التقاطيع ، ملونا بلون أصفـر ، ومن غـير لحية ، ومن ثم فقد افترض البعض أنه وجه أنثى ، وافترض آخـرون أنه يمثل العدالة «ماعت» ولا يمثل الملك جدفرع بالذات(٣٤) .

(ب) هــرم خفــرع :

تعد مجموعة الملك «خفرع» (والذى لقب «حور سخم ايب» بمعنى «الجسور» و «حور سخم نب» بمعنى «حور الذهبى الشديد» و «حور نفر» بمعنى «حور الخير» و «نثر نفر» بمعنى الاله الخير) ، تعد أكمل المجموعات الهرمية فى الجيزة(٣٥) .

وهرم خفرع — أو الهرم الثانى من أهـرام الجيزة — لا يقـل ارتفاعه غير أمتار قليلة عن هرم ابيه «خوفو» ، اذ كان ارتفاعه الاصلى ٥ر١٤٣م (ارتفاعه الان ١٣٦م) وطول ضلع قاعدته المربعة ٥ر٢١٥م ، أما داخله فبسيط اذا قيس بالهرم الاكبر ، وله مدخلان من النـاحية الشمالية .

وقد بنى الهرم الثانى فوق مرتفع من الارض ، ومن ثم فانه يبدو ، وكأنما هـو الاكبر — رغم أن الهـرمين يكادان يكونان متساويين فى الارتفاع والمساحة ، اذ أن الفارق بينهما ليس كبيرا ، حيث لا يزيد عن مترين ونصف،ولايزال التابوت المهشم المصنوع من الجرانيت المصقول، قائما فى مكانه فى غرفة الدفن ، ولكن اللصوص لم يخلفوا أثرا لصاحبه

---

(٣٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٧ .
وكذا J. Spiegel, op. cit., Parag. 528.
وكذا W. Federn, op. cit., p. 60.
وكذا W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom London, 1949, Pl. XI, p. 323.
(٣٥) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٤٨ .
وكذا H. Gauthier, op. cit., p. 87-89.

الاصلى ؛ وأما البقايا الجوهرية للاجزاء الثلاثة الرئيسية من مبنى الهرم ، فمازال ترى[٣٦] •

ولعل أبرز ميزة فى معبد خفرع الجنازى هو ضخامة كتل الحجر الجيرى التى استخدمت فى بنائه ، فهى أكبر كتل من نوعها فى أى مكان آخر فى مصر القديمة ، وأما النقوش فى هذا المعبد ، وفى الممر الصاعد ، فقد دمرت — ربما فيما عدا قطعة أو اثنتين — ولم يعثر على شىء منها فى معبد الوادى — والذى حفر على حافة الصحراء ، قريبا من نزلة السمان — حيث كانت مثل هذه الزخرفة لا تستطيع الا أن تنتقص من جمال جدار الجرانيت الأحمر الملساء ، وعلى أى حال ، فما يزال معبد الوادى — والذى كان يسمى خطأ من قبل ، معبد أبو الهول — يعد واحدا من أكثر المناظر التى تبعث على الرهبة فى منطقة الجيزة ، فالابهاء الفسيحة بأعمدتها المربعة الصارمة ، تعكس البساطة والجمال الاخاذ لعمارة تلك الايام الغابرة[٣٧] •

ولعل من الجدير بالاشارة أن الهرم الثانى مازال يحتفظ بالقرب من ذروته بجزء من كسائه من الحجر الجيرى الجيد ، وكان يكسوا أسفله مدماك على الاقل من حجر الجرانيت ، ويظن أن «الهريم» الذى كان يعلوه ، كان كذلك من الجرانيت ؛ وله مدخلان فى الشمال ، الواحد : فى أرض الفناء يؤدى الى أحدور ، فدهليز ، ثم الى غرفة دفن ، حفرت كلها فى الصخر ، والآخر فى جانب الهرم ، على ارتفاع خمسة عشر مترا من سطح الأرض ، ويؤدى الى دهليز هابط ، سقفه وجدرانه من حجر الجرانيت ، وبذلك ازداد استخدام الحجر فى بناء الهرم ، ولا يلبث الدهليز أن يستقيم الى أن ينتهى الى غرفة دفن ، جدرانها محفورة فى الصخر ، ومكسوة بحجر جيرى ، وسقفها أحدب فى بناء الهرم ، وهناك

---

(٣٦) I. E. S. Edward, op. cit., p. 151-152.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 81.
(٣٧) A. H. Gardiner, op. cit., p. 81.

فى أرض غرفة الدفن ، بالقرب من الجدار الغربى ، خفض به تابوت جميل من حجر الجرانيت المصقول ، وأخيراً فقد كان الى جانب هـذا الهرم هرم صغير .

وهناك على مقربة من المعبد الجنازى توجد خمس حفرات سفن ، قطعت فى الصخر ، هذا الى جانب حفرة أخرى فى الصخر كذلك ، تقع شمال شرق المعبد ، وربما أراد البناءون أن يجعلوا فيها مكانا لحفر سفينة سادسة(٣٨) .

هذا وقد عثر فى أرجاء معبد الوادى على خمسة تماثيل للملك خفرع (كفرن)موجودة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة ، ومن بينها ذلك التمثال الشهير المنحوت من حجر الديوريت ، والذى يمثل الملك خفرع جالساً على عرشه ، وقـد جسم الاله حـور على شكل صقر ، خلف رأسه ليحميه(٣٩) ، ولاشك أن هذا التمثال انما يعد أروع ما نحته المثـال المصرى فى أى عصر من العصور ، لدرجـة أن الكثيرين من الفنـانين العالميين انما يعتبرون أن هناك تمثالين على رأس روائع النحت البشرى كله ، أولهما : تمثال خفرع هذا ، وثانيهمـا تمثال «ميشيل أنجـلو» والمنحوت من حجر المرمر ، والذى يمثل السيد المسيح بعد انزاله من الصلب،وهو يتهاوى فى النزع الاخير بين ذراعى أمه مريم العذراء(٤٠) .

---

(٣٨) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ٣٢٥ - ٣٢٦ ، احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٩٩ .

وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 152-155.

وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 173.

(٣٩) انظر : K. Lange and M, Hirmer, Egypt, Architecture, Sculpture, Painting, London, 1961, Pls. 36-39, p. 301.

(٤٠) يمثل هذا التمثال وجهة النظر المسيحية ، والتى تختلف تماما عن وجهة النظر الاسلامية ، ذلك أن القرآن الكريم انما يقول : «وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ، ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا ، بل رفعه الله اليه ، وكان الله عـزيزا حكيما» (سورة النساء : آية ١٥٧ - ١٥٨ ، وأنظر تفسير الطبرى ٣٦٧/٩ - ٣٧٨ ، تفسير القرطبى ص ٢٠٠٥ - ٢٠٠٦ ، ابن كثير ٣٩٩/٢ - ٤١٩ ، تفسير المنار ١٠/٦ - ٤٩) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى «أبو الهول» (سفنكس Sphinx) والذى يمثل فى الخيال الشعبى فى كل العصور ، تجسيدا لم يمط عنه اللثام ، فضلا عن الحق المبهم ، ولكن الان ، وبعد حفائر متتالية فى المنطقة ، فيما بين عامى ١٩٢٦ ، ١٩٣٦[٤١] ، وبعد أن تم تنظيف تمثال أبو الهول ، الذى على شكل أسد ، برأس آدمية ، اختفى الكثير من سحره ومع ذلك ، فان أحجية أصله لاتزال باقية •

ولعل أكثر وجهات النظر احتمالا ، هى أن «خفرع» نحته فى ربوة فى الصخر ، كانت متاخمة للممر الصاعد ، صور بها نفسه فى صورة تجمع بين الرجل والاسد ، ولدينا من صور أبو الهول ، مثال واحد من عصور ما قبل الاسرات ، على لوحة اردوازية محفوظة بالمتحف البريطانى ، تتكون من جسم انسان ، ورأس صقر أو نسر ، وله جناحان يخرجا من وسط الظهر ، ويظهر أنهما مشدودان بحبال من تحت ابطه ، وقد فى حالة هجوم على ظهر ثور[٤٢] •

غير أن أبو الهول هذا ، انما يقدم لنا من الوجهة الاثرية ، أنجح طراز من طرز أبو الهول ، فله جسم أسد قوى ، وغير مكبل بالاجنحة ، وله رأس انسان وثيق التركيب ، يبدو فى ذلك الغطاء المعروف باسم «نمس» وعلى جبينه الناشر ، وله لحية مجدولة ، كحلية «أوزير» ، ومن ثم فقد قدر له أن يصبح شائعا فى الوحدات الزخرفية فى العالم أجمع ، فضلا عن زخرفة العمارة المصرية •

ولعل السبب فى اختيار التمثال ، على هيئة انسان ، ورأس أسد ، أن هناك لوحات اردوازية ترجع الى عصور ما قبل الاسرات ، صورت عليها أشكال أسود تهاجم حصونا ، أو رجالا ذوى ملامح أجنبية ، وأن

---

(٤١) PM, III, p. 8-9.
وكذا Selim Hassan, The Great Sphinx and its Secrets, Cairo, 1953.
(٤٢) سليم حسن : أبو الهول ـ ترجمة جمال الدين سالم ـ القاهرة ١٩٦٨ ص ٥٦ ـ ٥٧ •
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 82.

(جـ) هـــرم منكاورع :

أقام منكاورع (منقرع) هرم الجيزة الثالث ، على مقربة من هرم أبيه ، وجده ، وان كان أقل منهما حجما ، فارتفاعه ٦٦٫٥ مترا وطـول ضلع قاعـدته ١٠٨٫٥ مترا ، الا أنه يمتاز بذلك الكســاء الفخم من الجرانيت الذى كان يغطى جزءا من الهرم لا يقل عن الستة عشر مدماكا الاولى ، بدلا من الحجر الجيرى الابيض ، وذلك مما دعى المقريزى الى أن يصفه فى أيامه «بالهرم الملون» ولكن صاحب الهرم مات قبل أن يتم وضع كسائه ، ومن ثم فقد وقع على «شبسسكاف» عبء اتمام مبانى أبيه ، الامر الذى تم فى صــورة لا تتفق وبناء الهـرم ، اذ فعل ذلك باللبن ، وليس بالحجر •

وكان للهرم معبدان ، وطريق صاعــد ، شأنه فى ذلك شأن بقية أهرام الاسرة الرابعة ، معبد شعائر كبير ، ضخم ، معقد التركيب ، بدىء فى بنائه بأحجار ضخمة هائلة ، وأنفقوا فيه جهدا كبيرا ، ومع ذلك لم يتم فى عهد صاحبه ، رغم أنه حكم أكثر من واحد وعشرين عاما ، وطريق صاعد رصفت أرضيته بالحجر ، ولكنه ، لم يتم ، فأكمل فيما بعد باللبن ، كما حدث فى المعبد الجنازى • ثم هناك معبد الوادى ، وقد بنى من اللبن على مقربة من جبانة نزلة السمان الحالية ، وان بنيت قواعد الاعمدة وبعض أجزاء من الارضية وعتبات الابواب من الحجر الجيرى ، وفى ذلك كله ، ما يباعد بين آثار منكاورع وامكانات عهده ، وبين فخامة معابد خوفو وخفرع ، وضخامة عمارتها ، وضخامة الجهود التى بذلت فيها[٥١] •

وعلى أى حال ، فعندما كشف «برنج» عام ١٨٣٩م ، هرم منكاورع ، ودخل حجرة الدفن ، عثر على بقايا مومياء الملك فى تابوته ، وقد كتب عليه : «ملك مصر العليا والسفلى ، منكاورع ، الحى أبدا ، ولد من نوت ، ووريث الاله جب ، والمفضل عند ، أمك نوت تبسط ذراعيها عليك

(٥١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٥ •

باسمها ((سر السماء)) وتمنحك الحياة كاله بدون أعداء))[٥٢] .

هذا وقد كشف ((رايزنر)) أثناء حفائره فى المعبد الجنازى عن عدد كبير من التماثيل الكبيرة والصغيرة ، معظمها يمثل الملك ، اما بمفرده أو كفرد فى مجموعة،من ذلك بعض مجموعات تماثيل من حجر الاردواز عثر عليها فى مبنى معبد الوادى ، وتحتوى كل منها ثالوثا مكونا من الالهة حاتحور والملك وأحد آلهة الاقاليم ، وهناك تمثال يجمع بين الملك منكاورع والملكة ((خع — مرر — نبتى)) الثانية ، وكل هذه التماثيل تعد من الاعمال الفنية الممتازة ، والتى يمكن مقارنتها بأحسن القطع الفنية التى عرفت من نوعها حتى الان ، وهناك خمسة عشر تمثالا صغيرا لهذا الملك تركت دون اتمام ، ولعــل السبب فى ذلك موت الملك المفاجىء ، وشح خلفه[٥٣] .

(د) مصطبة شبسسكاف :

لم يحاول ((شبسسكاف)) (شبسس خت) أن يبنى لنفسه هــرما كأسلافه ، وانما بنى مقبرة فى جنوب سقارة تعرف الان باسم ((مصطبة فرعون)) تختلف عن مقابر أسلافه ، فما هى بالهرم ، ولاهى بالمصطبة، ولكنها على هيئة تابوت ضخم مستطيل ، مائل الجوانب (١٠٠ متر طولا، ٧٢ عرضا ، ١٨ متر ارتفاعــا) ترتفع جوانبه فــوق مستوى سقفه ، وشادوه فوق قاعدة منخفضة ، وكسوه بأحجــار بيضاء ، وأحــاطوا قاعدته بازار من الجرانيت ، وأحاطوه بسور خارجى ، كما شادوا له معبدين صغيرين ، وطريقا صاعدا بينــه وبين معبد الوادى الذى لم يكشف عنه بعد[٥٤] .

---

(٥٢) A. Weigall, Histoire de L'Egypt Ancienne, Paris, 1968, p. 41-42.

(٥٣) G. A. Reisner, Mycrinus, Cambridge; 1931.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 159-160.

(٥٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٧ .
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 166-167.

تلك الاسود انما كانت تمثل الملك الظافر ، وأن القوم قد استمروا في هذا التشبيه في العصور التاريخية[٤٣] ، ومن ثم فقد كانوا يشبهون الفرعون بالاسد ، فيقولون «كالاسد في ساحة القتال» أو «الاسد الضاري» أو «أسد بين الحكام» بل أن «أمنحتب الثالث» (١٤٠٥ — ١٣٦٧ ق٠م) انما كان شديد الرغبة في أن يشبه بالاسد — كما في لوحة جبل البرقل — حيث يوصف «بالاسد القومي ، محبوب آمون رع»[٤٤].

غير أن المصريين بعد أن تقدموا في المدنية طويلا ابان العصور التاريخية ، رأوا أن تمثيل مليكهم المؤله في صورة أسد أمر غير مقبول ، وذلك لارتباط الاسد في عقولهم بالشراسة والوحشية ، وهي صفات ما كان يجب — فيما يعتقدون — أن يوصف الفرعون بها ، وهو الملك المؤله الجالس على عرش الاله حور ، ومن ثم فقد تفتق ذهنهم عن صورة «أبو الهول» الذي تظهر فيه رشاقة الاسد وقوته المخيفة ، فضلا عن القوة الفعلية الخلاقة التي خص الله بها خلقه من بني الانسان[٤٥].

هذا ولم يهتم المصريون كثيرا بالاصل التاريخي لابو الهول ، فقد كان بالنسبة اليهم الها ، أطلقوا عليه «حور — ام — آخت» أو «حور في الافق» وهو في اليونانية «حرماخيس» ، ولكنه من المؤكد أنه يعتبر كذلك شبيها بالملك «خفرع» وأن هناك كثيرا من الرصانة في مقترح الاستاذ «باتسكومب جورج جن» (١٨٨٣ — ١٩٥٠) أن كلمة «سفنكس» مشتقة من «شسب عنخ» أي «الصورة الحية» ، وهي فقرة ربما تتطلب أن يضاف اليها «لرب العالم» أو «الاله أتوم» التي نلتقي بها أحيانا[٤٦] .

---

(٤٣) S. Hassan, The Sphinx, its History in The Light of Recent Excavations, Cairo, 1949, p. 63.
وكذا A. W. Budge, Legends of The Gods. p. 88-89.
(٤٤) A. W. Budge, The Egyptian Sudan, p. 618.
(٤٥) S. Hassan, op. cit., p. 68.
(٤٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 82.

وأما تسمية أبو الهول ، فربما جاءت من المقارنة بين اسم «حور — ام آخت» ، وبين اسم اله الحيثيين الذين أقطعهم الملك «آى» (١٣٣٩ — ١٣٣٥ ق٠م) ضيعة فى هذه المقارنة ، وهو الاله حورون[٤٧] ، فأطلقوا عليه «بر — حول» أى «بيت حول» التى حورت فيما بعد الى « أبو الهول»[٤٨] ٠

ومن عجب أن «هيرودوت» تجاهل أبو الهول تماما ، وأن « بلينى الاكبر» (٣٢ — ٧٩ ق٠م) كان الكاتب الكلاسيكى الوحيد الذى عرض لذكراه[٤٩] ، وعلى أى حـال ، فان المصريين ظلوا دائما ينظرون الى الاهرام كرمز للاستقرار والاعتزاز ، والى أبو الهول (ارتفاعه ٢٠ مترا، وطوله ٥٧ مترا) ، كمصدر غير محدود للحكمة وللامل فى المستقبل ٠

ولعل من الجدير بالاشارة الى أن ما ذهب اليه البعض من تحطيم جنـود نابليون لأنف «أبو الهول» — عنـدما استخدموه هدفا ابان تدريباتهم على اطلاق البنادق والمدافع — غير صحيح ، ذلك أن المؤرخ الاسلامى الكبير «المقريزى» (١٣٦٤ — ١٤٣٦ أو ١٤٤٢م) انما يحكى أن شيخا من كبار الصوفية كان يعيش فى عهده ، ويدعى «صائم الدهر» أراد أن يمسخ وجه أبو الهول ، باعتباره أثرا من آثار الوثنية الاولى ، فهبت على زروع الجيزة ريح عاتية أتلفتها ، فظن «صائم الدهر» أنها كرامة من صاحب التمثال واضطر الى العدول عن محاولته[٥٠] ٠

---

(٤٧) هناك ما يشير الى أن «حورون» كان الها لملك صيدا ، كما جاء فى نقش اغريقى من «ديلوس» أن «حورون» هو اله بلدة «يمينا» فى فلسطين وفى قصيدة «رأس شمرا» التى كتبت قبل النقش الاغريقى بالف ومائتى عام ، ذكر كذلك أن «حورون» قد كان له شأن ببلدة «يمينا» وتقع غربى بيت المقدس ، غير بعيد من البحر ، وقرب منطقة تسمى حتى اليـوم «بيت جارون» ، وهو اسم بالغ الدلالة بمعنـاه «بيت حورون» (سليم حسن : أبو الهول ص ١٠٥) ٠

(٤٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٧٤ ، سليم حسن : المرجع السابق ص ١٠١ — ١٠٧ ٠
وكذا G. Posener, in JNSE, IV; 1945, p. 240 F.

(٤٩) Pliny, Natural History, XXVI, 17.

(٥٠) أنظر : خطط المقريزى ١٩٧/١ ٠

(هـ) مقبرة خنت كاواس :

وقد شيدت على غرار قبر «شبسسكاف» وقد كشف عنها الدكتور سليم حسن فى عام ١٩٣١/١٩٣٢م ، وكانت قاعدتها تكاد تكون مربعة ، طول كل ضلع فيها ٤٥٫٥٠ مترا ، وارتفاعها عشرة أمتار ، وأما البناء العلوى فهو ٢٧٫٥ مترا فى الطول ، ٢١ مترا فى العرض ، سبعة أمتار ونصف فى الارتفاع(٥٥) ، ورغم أن الدكتور سليم حسن يطلق على هذه المقبرة اسم «الهرم الرابع» فان معظم الاثريين انما يرفضون هـذه التسمية ، ذلك لان كلمة هرم انما تدل على شكل هندسى معين،ولايمكن اطلاقها على كل قبر ملكى ، دون النظر الى تصميمه الهندسى •

وعلى أى حال ، فلقد جـوف مهندسوها معبد شعائرها فى صلب قاعدة المقبرة ، وبنوا معبد واديها على مقربة من معبد وادى منكاورع، ومدخل المقبرة أخدود فى أرض «قدس الاقداس» يؤدى الى ردهة بها بابان وهميان ، والى المغرب منها غرفة الدفن ، وفى شرقها أربع قاعات صغيرة ، وفى الجنوب الغربى من المقبرة حفرة كبيرة فى شكل مركب تمتد من الشرق الى المغرب(٥٦) •

---

(٥٥) S. Hassan, Excavations at Giza, 1943, IV, p. 1-68.

(٥٦) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٣٣٩ •

٣ ــ الاسرة الخــــامسة

(١) نشأة الاسرة الخــــامسة

انحصرت وراثة العرش فى أخريات أيام الاسرة الرابعة فى «خنت ــ كاو ــ اس» التى يرى البعض فيها بنتا لمنكاورع من زوجته «مرس عنخ الثالثة» ، وزوجة للملك «شبسسكاف» الذى مات دون أن يكون له ولد منها ، فتمكن أحد الامراء ، وهو «بتاح ــ ددف» (جدف بتاح) من الاستيلاء على العرش ، ولكنه لــم يستمر سوى عــامين ، تمكن بعدهما «وسر كاف» من اعتلاء العرش ، وتأسيس أسرة جديدة ، هى الاسرة الخامسة .

غير أن هناك من يذهب الى أن «خنت كاواس» انما كانت زوجــة لـ «وسررع» ، ولما لم يكن ملكا شرعيــا من دم ملكى ، صــار ابنهما «وسركاف» هو الملك الشرعى الذى عرفته قوائم الملوك وجداولها على رأس الاسرة الخامســة[١] .

وهناك وجه ثالث للنظــر ، يذهب الى أن «خنت كاواس» انمــا تزوجت من «وسركاف» مؤسس الاسرة الخــامسة ، وأصبحت أمــا لولديه اللذين حكما من بعده ، الواحد تلو الاخر ، وهما «ساحو رع» و «نفر اير كارع» ، بل ان «هرمان يونكر» (١٨٨٥ ــ ١٩٦٢) انما يذهب الى أن «خنت كاو اس» انما قــد انتحلت لنفسها فعــلا لقب «ملك مصر العليا والسفلى» وهى دعوى قام بها ثلاث نسوة سواها فى

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٥٩ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٨٦ .
وكذا
A. H. Gardiner, op. cit., p. 434.

من التاريخ المصرى(٢) . ومع ذلك فهناك ترجمة بديلة لها قوتها من الناحية اللغوية ، وتصفها كأنما هى أم ملكين ، لا ملك واحد فحسب ، وعلى أى حال ، فمن المتفق عليه أن «خنت كاو اس» كانت السلف المباشرة للاسرة الخامسة(٣) .

وأيا ماكان الأمر : فان وراثة العرش فى آخر الاسرة الرابعة نتهت الى «خنت كاو اس» ، وأنها تزوجت من «وسر كاف» وكان — فيما يعتقد برنهارد جردسلوف(٤) — حفيدا للملك «جد فرع» ، ورث الامارة عن أمه «نفر حتب» بنت «جد فرع» والتى عثر لها على تمثال فى أبو رواش ، وهى نفسها الملكة «نفرت حتب» المذكورة فى مقبرة «بيرسن» والمدفون على مسافة قريبة الى الجنوب من هرم «وسركاف» فى سقارة ، وقد قدمت قرابين لمعبد بتاح فى منف على أيام «ساحور رع» وربما ان هذه القرابين قد أعدت — فى أوائل الامر — لمقبرة الملكة نفسها ، ولكنها نقلت فيما بعد الى المقبرة القريبة منها بسبب الحاجة اليها فى المقبرة الاخيرة ، ومن ثم فلعل من المقبول أن «نفر حتب» — أم وسر كاف — انما قد دفنت فى هرم صغير ، يقع الى الجنوب من مقبرة «وسر كاف» .

وهكذا يمكن القول أن «وسركاف» لم يرث عرش الفراعين عن أبيه، الذى يبدو أنه كان من أنصار الاله رع وكهانته ، وفى نفس الوقت من فرع ثانوى من عائلة خوفو ، وأنه قد اشترك مع «خنت كاو اس»

---

(٢) الملكات الثلاث هن : سبك نفرورع (١٧٨٩ — ١٧٨٦ ق٠م) من الاسرة الثانية عشرة ، و «حتشبسوت» (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م) من الاسرة الثامنة عشرة ، و «تا اوسرت» (١٢٠٢ — ١١٩٤ ق٠م) من الاسرة التاسعة عشرة .

(٣) L. Borchardt, ASAE, 38, 1938, p. 209 F.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 81-82.

وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 178.

وكذا H. Junker, op. cit., p. 126, 131, 143.

(٤) P. Grdseloff, Deux Inscudtions Juridiques de L'Ancien Empire; ASAE, 42, 1943, p. 25 F.

ـــ وهى من فرع رئيسى من عائلة خوفو ـــ عن طريق الزواج بها ، فى تأسيس الاسرة الخامسة(٥) •

وهكذا جمعت الاسرة الخامسة بين فرعى الاسرة الرابعة المتنافسين ـــ فرع خفرع الذى مثلته((خنت كاو اس))،وفرع جد فرع الذى مثله وسر كاف ـــ غير أن أنصار الاسرة الجديدة لم يقنعوا لفراعينهم بحق الحكم، عن طريق زواج أبيهم بسليلة البيت الحاكم فى الاسرة الرابعة وحدها، واتبعوا أن يردوا شرعية حقهم الى ارادة ربانية قديمة ، وأصل مقدس، فخرجوا على الناس بأسطورة تجعل ملوكها أبناء للاله رع من صلبه ، وتركوها لنا فيما عرف باسم ((بردية وستكار)) ، ثم نسبوها الى عهد الملك ((خوفو)) وضمنوها أسماء يكن لها الشعب عميق الاحترام ، من أمثال ((زوسر)) و ((سنفرو)) و ((خوفو)) •

وتلخص ((بردية وستكار)) أو ((قصة خوفو والسحرة)) فى أن ((خوفو)) جمع أولاده وطلب من كل منهم أن يقص قصة عن قدرة السحرة ، فقص الاول قصة عن عهد ((زوسر)) ، وقص الثانى قصة عن عهد ((نب كا)) من الاسرة الثالثة وكانت قصة الثالث عن عهد ((سنفرو))، وعندما يأتى دور الامير ((حور ـــ ددف)) يقول لابيه : أنه يوجد فى بلده ((دد ـــ سنفرو)) ساحر يدعى ((ددى)) ويبلغ من العمر مائة سنة وعشرا، وأنه يأتى بالمعجزات ، وترسل الرسل الى الساحر ، وحين يأتى ببعض الخوارق من الامور أمام الفرعون ، يقص عليه هذه القصة،وخلاصتها :

أنه يوجد فى مدينة ((ساخبو)) ـــ وتقع على الضفة الغربية للنيل ، قريبا من منطقة هليوبوليس ـــ كاهن يدعى ((وسر رع)) وأن زوجته ((رددت)) سوف ترزق بأولاد ثلاثة من صلب الاله ((رع)) نفسه ، وأن الاله رع قد بشرها بأن أولادها الثلاثة سوف يحكمون البلاد ، الواحد تلو الاخر ، وأن أكبرهم سوف يكون كبير الكهان فى هيلوبوليس (أون)

---

(٥) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, p. 178.
وكذا B. Grdseloff, ASAE, 42, 1943, p. 53, 64.

فحزن قلب خوفو لتلك الانباء ، ولكن الساحر طمأنه بأنه باق على عرشه، بل وسيخلفه من بعده ابنه ثم حفيده ، ثم يأتى من بعد ذلك أبناء ((رددت)) من رع •

وتستمر الاسطورة فى وصف أيام الحمل ، وما اقترن بها من معجزات ، حتى تأتى ساعة الوضع ، وتحضره آلهات الولادة متنكرات فى زى راقصات وموسيقيات ، بغية تقديم العون للسيدة الحامل ، ابان وضعها لحملها المبارك ، وتنتهى الولادة ، وقد خرج الاطفال الثلاثة (وسر كاف — ساحورع — كاكاى) الى الدنيا ، وعليهم جميعا شارات الملك ، ويقدم والدهم المكافآت ، مكاييل من القمح ، الذى تضعه الآلهات فى مخازنه ، ثم ينصرفن سرا ، وسرعان ما تصدر من الغرف أصوات موسيقية خفية ، ويقال أن التيجان الملكية وجدت مخبأة فى القمح[٦] •

وبدهى أن القصة على هذه الصورة ، انما تتناولها هواتف الريبة من كل جانب ولكنها ، على أية حال ، تمثل الناحية الشعبية من قصة استيلاء كهنة رع على الملك فى نهاية الاسرة الرابعة ، كما أنها فى الوقت نفسه تبين الوسائل التى يلجأ اليها الفراعين لتثبيت عروشهم فى نظر الشعب ، حين أعوزهم الحق الشرعى فيه ، وسنرى فى عصور تالية فراعين يفعلون مثل ذلك ، حين ينتسبون للاله آمون ، كما يبدو ذلك واضحا فى نصى الولادة الشهيرين ، الواحد بمعبد الدير البحرى ، ويتحدث عن ولادة الملكة ((حتشبسوت)) ، من الاله آمون ، ومن ((أحمس)) زوج ((تحوتمس الاول)) ، والثانى فى معبد الاقصر،ويتحدث عن ولادة الملك ((أمنحتب الثالث)) من الاله آمون ، ومن ((موت ام ويا))

---

(٦) انظر : A. H: Gardiner, in Rec. Tr., XXVI, p. 80 F.
وكذا A. M. Blackman, JEA, 22, 1936, p. 42 F.
وكذا G. Lefebvre, op. cit., p. 81 F.
وكذا R. O. Faulkner, JEA, 37, 1951; p. 114.
وكذا A. Erman, LAE, 1927, p. 43.

زوج «تحوتمس الرابع» ، وفى كلا النصين انمـا نرى الاله آمون ، يتخذ شخصية «الزوج الاب» ثم يتصـل بالملكة ـ الام «أحمس» أو «موت ام ويا» اتصال الرجل بزوجته ، فتحمل الملكة وتنجب الفرعون.

وأيا ماكان الامر،فلسنا ندرى مدى قبول الناس لما روته الاسطورة، ان كانوا قد تقبلوها عن ايمان وتصديق ، أم اعتبروها مجرد دعاية من الكهان وأهل البلاط لصـالح ملوكهم ، ولكننا ندرى أن ملوك الاسرة ظلوا أوفياء للاله رع ، صاحب الفضـل فى ارتقائهم العرش ، وظلوا أوفيـاء لكهنته الذين آزرهم فى حكمهم ، وان كنـا ندرى كذلك أن «مانيتو» الذى كتب تاريخه بعد ذلك بحوالى ألفى سنة ، يذهب الى أن الاسرة الخامسة انما قد نشأت فى «اليفانتين» (جزيرة أسوان) ، وربما كان ذلك لاهتمام ملوك الاسرة بأول أقاليم الصعيد •

أما بردية تورين فلا تبين انفصالا بين الاسرتين الرابعة والخامسة، وتقدر مدة الحكم بمائة وأربعين عاما ، كما أن أسماء الموظفين الذين عاصروا الاسرتين ، مثـل «بتاح ــ شبس» تدل على أنهم استمروا يتقلدون وظائفهم خلال حكم الاسرتين ، مما يوحى بعدم قيام ثورات أو قلاقل •

وتكاد قوائم الملوك والآثار المعاصرة تتفق على أسماء ملوك هذه الاسرة ، وهم على التوالى : ١ ــ وسركاف ٢ ــ ساحو رع ٣ ــ نفر اير كارع (كاكاى) ٤ ــ شبسسكارع ٥ ــ رع نفر اف (نفر اف رع) ٦ ــ نى أوسر رع ٧ ــ من كاو حـور ٨ ــ جـد كارع (ايزوزى) ٩ ــ وناس (٧) •

وقد تميز عهد الاسرة الخامسة بانتساب ملوكها للاله «رع» وهو ــ فى نظر القوم ــ أعظم الالهة طرا وسيدهم ، فزعموا أنهم من صلبه،

---

(٧) J Vercoutter, in The Near East, The Early Civilizations, London, 1967, p. 293.

وأشاعوا ذلك بين القوم — فيما تروى بردية وستكار — وكان من المنتظر أن يزيد ذلك من قدسيتهم ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، ولعل السبب انما يرجع الى أن هذه الاسرة قامت أصلا بدافع من كهانة عين شمس ونفوذها ، ومن هنا كان فراعين الاسرة يدينون بالولاء للاله رع نفسه ، صاحب الفضل فى ارتقائهم عرش الكنانة ثم لكهانته الذين ساندوهم وعضدوهم فى حكمهم ، وقد كان لذلك أبعد الاثر فى قدسية الملوك ، ونجاح رع فى تحدى السلطة الفعلية المطلقة التى كان يتمتع بها الفراعين(٨) •

ولقد أدرك ملوك الاسرة الخامسة منذ أول أمرهم ، أن أول واجب عليهم هو اقامة المعابد الكبيرة المكشوفة لعبادة الشمس ، بجانب مقر اقامتهم ، وهى تختلف كثيرا عن سائر المعابد المصرية ، ولقد كشف «لودفيج بورخاردت» (١٨٦٣ — ١٩٣٨) فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٨ — ١٩٠١م ، فى منطقة أبو غراب — على مبعدة ميل تقريبا ، الى الشمال من أبو صير — عن معبد كبير للشمس ، يفترض عقلا أنه صورة من معبد «رع أتوم» فى هليوبوليس ، والمنظر الخارجى العام يشبه منظر المجموعة الهرمية العادية ، وله مبنى كمدخل عند الوادى ، ثم ممر صاعد يؤدى الى مستوى أعلى ، وعند القمة ما يماثل الهرم ومعبده الجنازى ، وأما الفارق الرئيسى ففى استبدال هذين الاخيرين بمسلة مقامة فوق قاعدة مربعة ، مثل الهرم المبتور القمة ، وتذكرنا المسلة بحجر قديم جدا فى هليوبوليس يعرف باسم «بن بن» ، ربما كان اشتقاقه من «الواحد المشع» والذى كان يرمز — دون شك — الى شعاع أو أشعة الشمس •

ومن المعروف أن ستة من ملوك الاسرة الخامسة قاموا ببناء معابد للشمس من هذا النوع ، لكل منهما اسمه ، مثل «متعة رع» و «أفق رع»

---

(٨) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة (رسالة ماجستير) — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٣٨ •

و ((حقل رع)) ، وقد أمكن تحديد مكان اثنين منهما فقط ، الواحد ينسب الى ((وسر كاف)) وقد كشف عنه ((ريكه)) وهو معبد يبدو متواضعا ، والآخر قام ببنائه ((ني وسر رع)) وقد كشف عنه ((بور خاردت)) .

وكان اله الشمس يعبد هنا تحت قبة السماء ، وتوجد عند قاعدة المسلة ، شرفة فى وسطها مذبح كبير من المرمر ، والى شمال المذبح مسافة شاسعة كانت تقاد اليها الثيران حيث تذبح ، وهناك الى شمال هذه الساحة صف من المخازن ، وأما المرتفع الذى تقوم فوقه المسلة فكان يوصل اليه ممر طويل مغطى ، تزينه مناظر منحوتة ومنقوشة بصورة رائعة ، بعضهما تمثل فصول السنة بنباتها وحيوانتها التى خلقها اله الشمس ، بينما تصف الاخرى ((عيد سد)) الذى كان تجديدا دوريا للملكية ، حين كان يجتمع آلهة نصفى الدولة ليمجدوا الملك ، ولابد أنها كانت لحظة مثيرة للعواطف ، حين كان يبرز الكهنة فى خلال الاحتفالات من الممر المظلم نسبيا الى ضوء الشمس الساطع الذى ينشره الههم فى الخارج .

ولقد أثيرت بسبب هذه المجموعة من الآثار مشاكل خطيرة ، على أية حال ، ذلك أنه من المفهوم أن يطمح كل ملك لتشييد ضريح فخم له ، وان كان تفكيرنا العصرى لا يستطيع أن يمنع نفسه من العجب من الفخامة التى تفوق الحد التى يمثلها بناء الاهرام ، ولكن مما يدعو الى الحيرة أن نجد كل ملك يتلو صاحبه ، يضيف معبد شمس منفصل بنسب متشابهة ، لكى يؤكد صلة بنوته بالمعبود ، ولابد أن استنزاف موارده كان ضخما ، كما لابد أن ذلك الامر قد تزايد كثيرا ، مادام هناك ما ينهض دليلا على أن منشآت أسلافه لم تهجر بموتهم ، وليس عجيبا أن المسئولية المتراكمة بعضها فوق بعض أصبحت أكثر مما يطيق ((جد كارع)) (ايزوزى) الذى توقفت فى عهده مثل هذه المشروعات[٩] .

---

(٩) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 85-86.

هذا ورغم أن معابد الوادى والمعابد الجنازية فى الاسرتين الخامسة والسادسة تجمع بين صفات عامة مشتركة ، الا انها انما تختلف فيما بينها فى كثير من التفاصيل وقد ظل مكان معبد الوادى والمعبد الجنازى فى الشرق من الهرم تجاه الوادى ، الذى يفد منه حملة القرابين ؛ وذلك فيما عدا الجزء الامامى من المعبد الجنازى للملك ((وسر كاف)) اذ يقع أكثره فى جنوب الهرم لارتفاع الصخر كثيرا فى شرقه(١٠) ؛ ولنتحدث الان عن ملوك الاسرة الخامسة :

(٢) وسركاف

حمل ((وسر كاف)) لقب ((أير ماعت)) أى ((واضع النظام)) أو ((محق الحق)) وهو لقب يتناسب مع صاحبه كمؤسس أسرة جديدة ، وقد جاء بحجر بالرمو ما يفيد تشييده للمعابد فى جهات مختلفة من البلاد ، كما حدث فى ((بوتو)) لعبادة الآلهة ((حاتحور)) وما أوقفه من أرض على معبد الاله رع ، وطبقا لما جاء فى بردية تورين ، وتاريخ مانيتو ، فقد حكم ((وسر كاف)) سنوات ثمان ، وقد عثر على اسمه منقوشا على عمود فى طيبة ، فضلا عن آنية من المرمر ، وجدت فى جزيرة ((سريجو)) على مقربة من الشاطىء الجنوبى لليونان ، مما قد يشير الى وجود علاقات تجارية مع الشاطىء الشمالى للبحر الابيض المتوسط(١١) .

وأما هرم ((وسر كاف)) فقد بنى على مبعدة ٢٠٠ مترا من الركن الشمالى الشرقى لسور هرم زوسر المدرج ، وربما أصبح قبر زوسر له تقديس ، وربما اعتقدوا أن الدفن فى حرمه يضفى عليهم منافع خاصة، وهذا يفسر لنا اختيار ((وسر كاف)) لمنطقة تبدو من وجوه عدة غير لائقة لاقامة هرم عليها(١٢) .

---

(١٠) J. P. Lauer, Le Temple Haut de la Pyramide du Roi Ouserkef a Saqqarah, ASAE, LIII, p. 116 F.

(١١) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 181.
وكذا A. Weigall, op. cit., p. 42.

(١٢) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 175.

هذا ويطلق الان على هرم «وسر كاف» (أوسر كاف) اسم «الهرم المخربش» وقد نهب منذ العصور القديمة ، ومن ثم فقد وجده «فيرث» مخربا ، عندما عثر عليه عام ١٩٢٨[١٣] ، ورغم أن القوم قد احتفظوا فى بنائه بالتقاليد القديمة ، الا أنهم بنوا هيكل القرابين فى المعبد الجنازى فى الجهة الشرقية من الهرم ، بينما بقيت أجزاء المعبد فى الجهة الجنوبية، ويذهب «فيرث» الى أن هذا التعبير انما كان بسبب ضرورة حتمها موقع المكان ، حيث لم يجد مهندسوه مكانا كافيا لتشييد المعبد الجنازى فى الجهة الشرقية من الهرم .

ورغم أن «جان فيلب لاور»[١٤] انما يتفق مع «فيرث» فى هذا ، الا أن «هربرت ريكه»[١٥] انما يذهب الى أن ترك التقليد القديم ، انما كان مقصودا ، وأن هذا التغيير مرتبط بعبادة الشمس التى أخذ نفوذها يزداد ازديادا كبيرا فى ذلك العهد ، تسير الشمس من الشرق الى الغرب فى النصف الجنوبى ، ومن ثم فيجب ألا تغيب الشمس عن أى مذبح يوضع فى هذه الجهة ، فهذا يعنى أن يعم ذلك فى معابد الاسرة جميعا ، الامر الذى لم يحدث فى تلك المعابد[١٦] .

وأيا ما كان الامر ، فان هرم «وسر كاف» انما قد بنى من الحجر الجيرى المحلى،الصغير الحجم،وأن تصميمات مبانيه وهندسته انما تشبه أهرامات الاسرة الرابعة ، وأن أصل طول كل ضلع من أضلاع قاعدته المربعة ٣٧ر٧٠ مترا ، وارتفاعه ٥٣ر٤٤م ، ولكن عندما فحصه «برنج» و «فيز» فى عام ١٨٣٧م ، كان طول ضلع القاعدة ٤٠ر٦٣م ، وارتفاعه ٨٣ر٨٢م ومدخله فى منتصف الجهة الشمالية ، وهو يؤدى الى ممـر ، جدرانه وسقفه من كتل الجرانيت الاحمر والاسود[١٧] .

---

(١٣) C. M. Firth, ASAE, XXIX, 1929, p. 64-70.

(١٤) J. P. Lauer, ASAE, 53, 1955, p. 119-1323.

(١٥) H. Ricke, Demerkungen, II, p. 68.

(١٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٤٤ .

وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 175-176.

(١٧) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٤٦ — ٢٤٧ .

هذا وقد عثر على بعض أجـزاء من تماثيل للملك من الجرانيت والديوريت أهمها رأس الملك ، وهى من الجرانيت ومحفوظة بالمتحف المصرى ، وحجمها ثلاثة أمثال الحجم الطبيعى(١٨) .

(٣) ساحـــورع

حكم ساحورع (نب خاعو) أربعة عشر عـاما ، وكان أول ملوك الاسرة الخامسة الذين اختاروا منطقة أبو صير الجيزة — على مبعدة خمسة كيلو مترات جنوبى أهرام الجيزة — لبناء أهراماتهم ، وان كان هرمه فقير البناء ، صغير الحجم ، اذ كان ارتفاعه فى الاصل ٤٨ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٧٨ مترا ، وأصبح الان ارتفاعه ٣٦ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٦٦ مترا ، وهو من نوع الهرم ذى الطبقات ، ومبنى من الحجر الجيرى المحلى غير المنحوت ، ومع ذلك فقد استخدم فى بنائه أثمن المواد المعمارية ، وعنى بتزيين قاعاته وأبهائه بأعمدة من الجرانيت، تاج كل منها يمثل حزمة من النخيل .

هذا وقد اعتنى المهندسون بكل ما يؤثر على سلامة البناء ، فهم مثلا لم يسقطوا المطر من حسابهم ، وجعلوه ينساب من مزاريب كل منها على هيئة رأس أســد ، تسقط المياه من أفــواهها الى قنوات صغيرة عمقوها قليلا فى الارض ، ثم تسير المياه منحدرة الى الخــارج ، أما المياه التى كانت تستخدم داخل حجرات المعبد فى أجزائه المختلفة فكانت تسير فى مواسير تحت أرضية المعبد ، وكانت هذهالمواسير مصنوعة من النحاس ، وملحومة الى بعضها البعض بالرصاص ، وتسير الى خارج المعبــد حيث تصب فى أحــد الاماكن المنخفضــة فى مكان بعيــد عن الانظار(١٩) .

---

(١٨) K. Lange and M. Hirmer, Egypt, Architecture, Sculpture and Painting, in Three Thousand Years, London, 1961, Pls. 50-51.
وكذا ASAE, XXLX, p. 64 F.

(١٩) أحمد فخرى : مصر الفرعونية — القاهرة ١٩٧١ ص ١٣٢ .
وكذا L. Borchardt, Das Grabdenkmal des Konigs Sahure, I, Leipzig, 1910, p. 7-12.

وكان لهرم «ساحورع» هذا ، طريق صاعد طوله حوالى ۲۰۰ مترا، فى نهايته السفلى معبد الوادى ، والذى صمم مختلفا عن معابد الوادى الاخرى التى قبله ، فقد كان له مدخلان يؤديان الى مرسى مبنى باعتناء، أحدهما فى شرقه ، والاخر فى جنوبه ، وكان هناك منزلقان متصلان بالمرفأين ، بقناة أو بالنيل الذى كان يمتد أيام الفيضان الى ما وراء مجراه العادى ، وفى داخل الواجهة الشرقية من البناء شرفة مقامة فوق أعمدة ، بلاط أرضيتها من البازلت الاسود المصقول ، وسقفها من الحجر الجيرى المدهون بالازرق ليحاكى السماء ، ومزين بنجوم ملونة بلون الذهب ، وكل عمود من الاعمدة الثمانية يتكون من قطعة واحدة من الجرانيت[٢٠] .

وأما موضوعات النقوش التى على الجدران فمتنوعة ، ولو أننا استطعنا العثور عليها كاملة ، لكانت كفيلة بأن تبرز لنا كافة نواحى النشاط والطموح للملك ورعيته فى حيوية ، أكثر مما تستطيع أن تفعل أية رواية مكتوبة ، ومن بين هذه الصور واحدة تمثل فرعون ، وهو يحظى بلقاء الاله خنوم ، ويرضع من ثدى الربة «العقاب» الهة «نخن» (البصيلية) ، وهناك كذلك حملة قرابين وهميون يجسدون مختلف مظاهر الطبيعة مثل البحر والحبوب ، أو أفكارا معنوية مثل الفرح ، ويقابل هذه الافكار التصويرية البحتة مقابلة شديدة ، منظر فخم للصيد فى الصحراء وبقايا منظر آخر يمثل القاء شرك لفرس البحر فى النهر ، وان كان من المستحيل أن نؤكد أن «ساحورع» نفسه قد وهب مثل هذا الاستعداد الرياضى[٢١] .

ولعل مما تجدر الاشارة اليه أنه منذ عهد «ساحورع» غدا «قدس الاقداس» فسيحا ، مما قد يدل على زيادة القربان وعدد القائمين بتقديمه من الكهنة ولا يخلو من مغزى أنه فى شمال وجنوب القسم

---

(٢٠) I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 179.

(٢١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 88.

الخاص من معبد ساحورع الجنازى ٣٧ مخزنا ، كل مخزن من طابقين مما ضاعف عددها ، وقد ظل قدس الاقداس فى نهاية المعبد فى أقرب مكان للهرم ، وفى جداره الغربى الباب الوهمى[٢٢] .

(٤) نفـــر اير كارع

بدأ الملك «نفر اير كارع» (وسر خاعو) بتشييد هرم له أكبر من هرم أخيه ، ولكنه مات قبـــل أن يتم جميع أجـــزاء المجموعة الجنزية المحيطة به ، اذ لم يتم الا وضع اساسات مبنى الوادى ، فضـــلا عن الطريق الجنازى ، الذى لم يتموا بناء الممر الذى فوقـــه ، ورغم أن العمل كان قد تقدم فى الهرم كثيرا على بقية المجموعة الهرمية ، فـــان بناءه لم يتم ، ومن ثم فقد أكمله خليفته على العرش بالطوب اللبن .

هذا ويبلغ الارتفاع الاصلى للهرم ٧٠ مترا ، وطول ضلع قاعدته ١٠٦ مترا ، وهو بذلك يزيد قليلا عن هرم «منكاورع» ، وعلى أى حال، فهو هرم ذو طبقات ست ، مبنية بالحجر الجيرى المحلى غير المنحوت ، ولكنهم كسوا جدرانها كلها ، كما كسوا الهرم نفسه بالحجر الجيرى الجيد ، وأما مدخل الهرم فهو فى الناحية الشرقية ، ولكنه مسدود الآن، ولحجرة الدفن سقف جمالونى مثلث ، يتكون من خمسة أحجار ضخمة من الحجر الجيرى الذى بنى منه الدهليز الموصل الى تلك الحجرة[٢٣].

(٥) شبنسس كارع

مات «نفر اير كارع» (كاكاى) بعد حكم دام عشر سنوات ، على رأى ، واثنى عشر عاما ، على رأى آخر ، ثم خلفه «شبسس كارع»

---

(٢٢) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ٣٤٧ .
(٢٣) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٥ .
وكذا
I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, (Penguin Books), 1965, p. 185-186.

الذى حـكم سبع سنوات ، طبقا لما جـاء فى بردية تورين وفى تاريخ مانتينو ، وان كنا — على أية حال ، لا نعرف عنه الا القليل •

(٦) رع نفر اف

جاء «رع نفر اف» (نفر خاعو) بعد «شبسس كارع» وحكم قرابة سنوات أربع ؛ وقد ورد ذكر اسمه فى ثبت أبيدوس ، وكذا على بردية تورين التى لم تقدم لنا مدة حكمه ، بسبب ضياع الجزء الخاص بمدة الحكم فى هذه البردية ، وقد بنى «رع نفراف» لنفسه هرما غرب هرم «نفر اير كارع» لم يتم ، وما بقى منه عبارة عن بناء منخفض مربع الاضلاع ، طول الضلع ٦٠ مترا ، وسطحه العلوى مسطح ، لم يبـق منه سوى ثمانية مداميك ، منها خمسة فقط ظاهرة فوق رمال الصحراء المحيطة به ، ويبدو أن معظم أجزائه لم يتم العمل فيها ، كحجرة الدفن ومعابد الهرم وطريقه الصاعد •

(٧) نى أوسر رع

حكم «نى أوسر رع» (ست ايب تاوى) قرابة اثنين وثلاثين سنة ، وبنى لنفسه هرما فى أبو صير بين هرمى «ساحو رع» و«نفر اير كارع»، واستغل لنفسه معبد الوادى والطريق الصـاعد اللذين أنشأهما الملك الاخير ، ومن المحتمل أنه مات قبل أن يتم العمل فيهما ، وكان ارتفاع هرم «نى أوسر رع» عند تشييده ٥٢ مترا ، وطول ضلع قاعـدته ٨٠ متر ، وهو مشيد بأحجار فجة غير منحوتة من الحجر الجيرى المحلى ، مختلطة بالرمل والحصى ، وطبقاته خمس ، وقد اختفت الان أحجـار كسائه الخارجى التى كانت من الحجر الجيرى الجيد ، ومدخل الهرم فى الواجهة الشمالية منه ، وكانت جدرانه وسقفه من أحجار الجرانيت، ولكنه مسدود الان ، ولا تتيسر زيارته[٢٤] •

هذا ويقع معبد «نى أوسر رع» الجنازى على غـير المعتاد على

---

(٢٤) احمد فخرى : المرجع السابق ، ٢٥٧ •

محورين ، يمتد أولهما من الشرق الى الغرب ، تجاه الجزء الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية : ويشتمل على دهليز طويل تكتنفه المخازن ، ومن ورائه الفناء المكشوف تحيط به الصفات ذات الاساطين البردية من الجرانيت : وأرضه من البازلت : ويمتد المحور الثانى فى موازاة الجزء الاوسط من واجهة الهرم الشرقية ، ويشمل مشكاوات التماثيل الخمسة وقدس الاقداس ، وبضعة مخازن ، ويبدو أن بناء الجزء الامامى من المعبد قبالة الجزء الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية ، انما يرجع الى الرغبة فى تقصير المسافة بينه وبين الطريق الصاعد المنتصب . ان لم يكن لقلة المساحة الصالحة للبناء على محور الهـرم ، أو لوجود قبر قديم فيها(٢٥) .

ولعل من الجدير بالاشارة أنه قد عثر على مقـابر كثيرة هامة من عهد هذا الملك ، ربما كان أهمها جميعا مقبرة «تى» فى سقارة التى قلما لا يذهب شخص لزيارتها ، حين يزور تلك المنطقة ، وهى تعطى بحق فكرة صادقة عن الحياة الاجتماعية فى ذلك العهد ، هـذا وتتقدم مقبرة «تى» صفة صغيرة تؤدى الى فناء كبير محاط بالاعمدة ، يطـل عليه سرداب يتصل بالعالم الخارجى بشق قصير ويؤدى دهليز ضيق طويل الى مقصورة القربان ، التى يعتمد سقفها على عمودين ، وفى جنوبها سرداب ثان ، وفى أرض الفناء درج يؤدى الى أحدور ، ثم الى غرفة الدفن(٢٦) .

(٨) من كاوحـــور

اعتلى «من كاوحور» (من خاعو) العرش لمدة ثمانية أعوام تقريبا، وتشير بعض النقوش فى وادى مغارة الى ارساله حملة الى سيناء ، كما أقام معبدا لم يبق له أثر ، وربما كان فى منطقة سقارة الى الجنوب من مكاتب مصلحة الاثار ، والى الشرق من هـرم تيتى ، وعلى أى حال ،

---

(٢٥) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٣٤٨ ـ ٣٤٩ .
(٢٦) نفس المرجع السابق ص ٢٦٧ .

فلقد عثر منه على قطعة فى «السرابيوم»[٢٧] محفوظة الان فى متحف اللوفر بباريس ، وتشير نقوشها الى دقة وجمال بالغين •

(٩) جد كارع ـ اسيسى

حكم «جد كارع» «جد خاعو» قرابة ثمانية وعشرين عاما ، وقد كشفت مصلحة الآثار عن هرمه المعروف باسم «الهرم الشواف» ، على حافة الهضبة ، خلف منازل بلدة سقـارة ، وأما معبده الجنازى فقد تعرض للتخريب منذ عهود الفراعين أنفسهم ، وان كشفت الحفائر عن كثير من الاحجار المنقوشة نقشا بارزا ، كما كشفت عن كثير من العناصر المعمارية فى هذا المعبد ، ومن بينها تماثيل للاسرى الاجانب ؛ وتماثيل أسود وثيران وكباش ، وبعض تماثيل لأسود برؤوس انسانية (تماثيل أبو الهول) •

هذا وقد كشف كذلك الى الشمال من معبد الملك الجنازى عن هرم زوجته ، والذى يعد أكبر هرم لملكة من ملكات الدولة القديمة ، وان كان هـرم الملكة ومعبدها الجنـازى قد تعرضا لما تعرض له معبـد الملك نفسه[٢٨] •

---

(٢٧) يقع السرابيوم ـ او مدفن العجول المقدسة ـ والذى يرجع الى الاسرة السادسة والعشرين ، فى اقصى الغرب من منطقة سقارة الشمالية ، وهو عبارة عن ممرات طويلة ، يبلغ طولها قرابة نصف كيلو متر ، منحوتة فى باطن الصخر ، وتتفرع منها حجرات جانبية ، يضم أحدها ٢٤ تابوتا ، متوسط وزن الواحد منها ٦٥ طنا • وقد نحت من قطعـة واحـدة ، وقـد كشف عنهـا « مارييت » فى عـام ١٩٥٠ م ، ونقلت الى متحف اللوفـر بباريس ، ويحمل اسم « أحمس الثانى » ، ويحمل آخر اسم قمبيز •

هذا وقد كان العجل أبيس بمثابة الرمز الحى للاله بتاح معبود منف ، وكان يحنط بعد موته ، ويدفن فى احتفال مهيب ، وتوضع معه الاوانى والحلى وغيرها ، هذا وقد كشف أخيرا عن مـدفن جماعى آخر منحوت فى الصخر على مبعدة بضعة كيلومترات من السرابيوم المكتشف قديما ، وهو مخصص للبقر ، امهات العجل أبيس (الموسوعة المصرية ٢٧٠/١) •

(٢٨) احمد فخرى المرجع السابق ص ٢٦٠ •

(١٠) وناس

كان «وناس» (واج تاوى) آخر ملوك الاسرة الخامسة ، وان رأى فيه البعض أول ملوك الاسرة السادسة ، لاسباب منها (أولا) أن نفوذ كهنة «أون» انما يقف عند توليته العرش ، وفى الواقع أن هذا النفوذ انما بدأ يضعف منذ عهد الملوك الثلاثة الاواخر من الاسرة الخامسة ، ومن ثم فقد نسب أولهم «منكاوحور» نفسه الى الاله «حور» وليس الى «رع» وبنى هرمه فى دهشور ، وليس فى أبو صير ، وتسمى ثانيها باسم تداخل فيه اسم «رع» وهو «جد كارع» ، ولكنه لم ينشىء معبدا لرع كأسلافه ، وبنى هرمه فى سقارة ، وليس فى أبو صير ، وتغافل ثالثهم (وناس) (ونيس) عن تضمين اسم (رع) فى اسمه ، ولم يشيد له معبدا ، وبنى هرمه فى سقارة •

وأطلق الثلاثة على أهرامهم أسماء لم يتداخل فيها اسم رع ، على عكس أسماء أهرام أسلافهم الاربعة ، وان كانوا فى الوقت نفسه ، لم يأبوا أن يضمنوا ديباجة ألقابهم الرسمية لقب (سارع) أى (ابن رع)[٢٩] •

ومنها (ثانيا) أن كتابة «متون الاهرام»[٣٠] فى غرف الاهرام

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٨ •
وكذا H. Gauthier, op. cit., I, p. 130 F.

(٣٠) كان «جاستون ماسبرو» أول من اكتشف متون الاهرام فى عام ١٨٨٠ م داخل هرم وناس ، ثم عثر بعد ذلك على كثير منها فى أهرام ملوك الاسرة السادسة ، بل فى أهرام بعض ملكاتها ، وهى مجموعة من التعاويذ السحرية والطقوس الجنازية ، وأجزاء من بعض الاساطير المصرية القديمة ، يرجع تاريخ بعضها الى ما قبل الاسرة الاولى ، بل فيها اشارات الى الحرب التى قامت فى مصر فى أوائل أيامها ، على انها حروب بين الآلهة التى عبدت فى تلك الايام ، وعلى أى حال ، فهى تختلف من هرم الى آخر ، بل ان الكهنة الذين أشرفوا على اختيارها لكل ملك ، كانوا يختارون البعض ويتركون البعض الاخر ، وقد قسمها « كورت زيته » الى ٧١٤ فقرة ، وأما الهدف منها فكان ضمان سعادة الملك فى العالم الاخر ، حيث تفتح له أبواب السماء التى حرمت على غيره من الناس ، فضلا عن تحوله الى نجم من النجوم التى لا تفنى ، والى آله الشمس ، أو على =

الداخلية لم تبدأ الا بعهده ، ومنها (ثالثا) أن الملك «تتى» مؤسس الاسرة السادسة ، قد أتم ما لم يتمه «وناس» من آثار .

وعلى أى حال ، فمن الصعب تفسير سبب انتهاء الاسرة الخامسة ، وقيام الاسرة السادسة ، وان كان «هرمان يونكر» انما يذهب الى أن هذا التغيير انما قد حدث على يد ملكة ممن تمتعن بالدم الملكى المقدس ، نقلت قدسيته الى زوجها المؤسس للاسرة الجديدة(٣١) .

بل ان هناك من يذهب الى أن «وناس» آخر ملوك الاسرة الخامسة لم يكن من صلب حكامها ، وانما كان من نسل ملوك الاسرة الرابعة ، وأن أمه كانت من أميرات القبائل الليبية القريبة من حدود الفيوم ، وأنه قام بانقلاب — بعون من أهل الفيوم وجيرانهم ، وربما حتى أهالى المنطقة الممتدة الى أبيدوس — وأنه وصل الى العرش بعد معارك تناول فيها الجانبان ، النصر والهزيمة ، وأنه جدد فى العقائد والعادات ، ومن ذلك تدوينه لمتون الاهرام داخل هرمه(٣٢) .

على أن القول بوجود فرع ليبى تداخل فى عصب الاسرة الرابعة منذ أخريات أيامها ، أصبح غير ذى موضوع ، بعد أن أوضحت بحوث حديثة أن السند الذى اعتمد عليه أصحاب هذا الاتجاه ، وهو تصوير الاميرة «حتب حرس الثانية» بشعر أصفر وأحمر ، ورداء ذى شرائط عريضة يشبه رداء الليبيات ، سند ضعيف ، حيث يبدو شعرها أقرب الى الشعر المستعار ، والواقع أن المصريين كثيرا ما صوروا الشعر

= الاقل يكون فى ركاب اله الشمس ، وأما اهم الدراسات عن نصوص او متون الاهرام ، فانظر :

S. A. B. Mercer, The Pyramid Texts in Translation and Commentary, 4 Vols, New York, Toronto, 1952.

(٣١) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٥٩ .

(٣٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٨ .

وكذا J. Spiegel, Das Werden der alt - Ägyptischen Hoch - Kultur, p. 773 F.

المستعار بألوان مختلفة ، منها الاصفر والاخضر للشخص الواحد ـ كما فى تابوت عاشيت من الدولة الوسطى ـ أما عن ثوبهـا فقد ظهر له ما يشبهه عند غيرها من المصريات قبل عهدها[٣٣] •

وعلى أى حال ، فمن المرجح جدا أن ملوك الاسرة السادسة كانوا على صلة دم وقرابة بملوك الاسرة الخامسة ، كما اتبع هؤلاء الملوك نفس الاسلوب الذى كان سائدا فى الاسرة الخامسة •

هذا وقد أقام «وناس» هـرمه قريبا من الركن الجنوبى الغربى لسور الهرم المدرج ، أى فى الناحية المقابلة للمنطقة التى قام عليها هرم «وسر كاف» ـ رأس الاسرة الخامسة ـ وهو يقرب من ١٩ مترا ، ولكن ارتفاعه الاصلى كان ٤٤ مترا ، وطول كل ضلع منه ٦٧ مترا ، وهـو مهدم الان ، ومن الواضح أنه كان مبنيا بالاحجار الجيرية المحلية ككتلة صماء ، ومازال الكثير من أحجار الكساء باقية فى مكانها ، وبخاصة فى الجهتين الشمالية والشرقية ، وعلى الجهة الجنوبية نرى نقشا مكتوبا بعلامات كبيرة الحجم ، سجل فيه الامير «خع ام واس» ترميمه لهذا الهرم[٣٤] على عهد أبيه رعمسيس الثانى (١٢٩٠ ـ ١٢٢٤ ق٠م) •

وقد كشف «الكسند بارازنتى» فى موسم ١٩٠٠/١٩٠١م عن جزء من معبد وناس الجنازى[٣٥] ، وفى عام ١٩٢٩م أتم «فيرث» حفـر المعبد[٣٦] ، وهو يشبه فى تخطيطه وبنائه معبد «ساحورع» الجنازى شبها كبيرا ، وإن اختلف عنه فى وضع الممرات والمخازن داخل المعبد ،

---

(٣٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٨٠ •
وكذا G. A. Reisner and W. S. Smith, op. cit., p. 7.
وكذا W. S. Smith, A History of Egyptian Sculpture and Painting in The Old Kingdom, p. 143.
(٣٤) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٦٤ •
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 188-199.
(٣٥) A. Barasnti, ASAE, II, 1901, p. 244-257.
(٣٦) C. M. Firth, ASAE, 30, 1930, p. 186.

كما استخدم وناس فى أرضيته أحجار المرمر ، بينما استخدم ساحورع أحجار البازلت ، وبينما وصل الينا عدد كثير من النقوش التى كانت فى الطريق الجنازى ، لم تحفظ لنا الايام من نقوش المعبد الا قطعا قليلة، عليها رسم لبعض الخدم وهم يحملون القرابين(٣٧) .

ولعل أهم التجديدات فى هرم «وناس» تلك السطور الرأسية من الكتابات الهيروغليفية التى تغطى جدران الردهة ، والاجزاء المبنية بالحجر الجيرى من حجرة الدفن ، وملأوا كل حرف هيروغليفى بمعجون أزرق اللون ، مما جعلها واضحة فوق الارضية البيضاء ، وتعرف هذه الكتابات «بمتون الاهرام» — والتى وجدت فى أهرام أخرى ، كأهرام «تتى» و «ببى الاول» و «مرى ان رع» و «ببيى الثانى» ، وكذا أهرام زوجات «ببيى الثانى» الثلاث (ايبوت ونيت وأوجبتن) ، فضلا عن هرم لملك يدعى «أيبى» لا يعرف تاريخه على وجه اليقين ، فقد يكون من الاسرة السابعة أو أخريات الاسرة السادسة — .

وقد أمدتنا نصوص الاهرام هذه بأفضل المعلومات عن الديانة الجنازية الملكية منذ أقدم العصور ، وفى بعض الاحيان تعود بنا الى عصور ما قبل الاسرات ، وأما الغرض من متون الاهرام — كأى عنصر آخر فى المجموعة الهرمية — أن تضمن للملك أو الملكة السعادة فى الحياة بعد الموت ، وكان سحر الكلمة المكتوبة قويا ، لدرجة أن وجودها وحده يكفى ليضمن تحقيق الافكار التى تعبر عنها(٣٨) .

ولقد كشف عن جزء كبير من الطريق الذى كان يصل المعبد الجنازى بمعبد الوادى لهرم وناس ، ومنه أمكن أن يستنتج أن هذا الطريق كان مسقوفا بالاحجار وينفذ اليه الضوء من خلال كوات بالسقف الذى زين

---

(٣٧) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 190.

(٣٨) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 191.

وكذا Jean, Vercontер, in The Near East, The Early Civilization, London, 1967, p. 297.

بحيث كان يبدو فى هيئة السماء المرصعة بالنجوم ، أى أنه طلى بلون أزرق ، ومثلث فيه أشكال النجوم بلون أبيض ، وأما الجدران فقد نقشت بمناظر دينية ، ومدنية مختلفة ، فمن المناظر الدينية مناظر تمثل الملك وهو يؤدى بعض الطقوس ، ومن المناظر المدنية سفينة تنقل بعض الاعمدة النخيلية والاعتاب المستعملة فى بناء المعبد الجنازى ، وكلها من الجرانيت جىء به من أسوان .

وهناك مناظر تمثل بعض الصناع يطرقون الذهب ، ويصبون الادوات النحاسية ، أو يصقلون الاوانى المصنوعة من الذهب أو الحجر ، وأخرى تبين عمال الضياع الملكية وهم يجنون التين ويحصدون القمح ويجمعون العسل ، وهناك عدد من الخدم يحضرون الاطعمة من مختلف الانواع الى القبر ، هذا وقد اشتملت مناظر الصيد على صورة لكل حيوان ذى قرنين معروف للمصريين ، فضلا عن الزرافة والاسد والفهود والذئاب والضباع واليرابيع والقنافذ ، وربما كان أكثر هذه المناظر تعبيرا عن موضوعه ، ذلك النقش الذى يمثل ضحايا احدى المجاعات ، فقد هزلت أجسامهم حتى بدت جلدا على عظم ، وتدل ملامحهم على أنهم من غير المصريين[٣٩] .

---

(٣٩) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 189.
وكذا Jean Vercoutter, op. cit., p. 297.

٤ ـ الاسرة السـادسة

(١) تتـى

كان «تتى» رأس الاسرة السادسة ، ويتجه البعض الى أنه كان زوجا للاميرة «اييوت» أبنة «وناس» وأنه اكتسب شرعيته للعرش عن طريق الزواج منها ، وأنه تزوج بعدها من أميرة أخرى تدعى «خويت»، ويعتقد «هانز شتوك»أنها كانت ابنة «اسيسى» الذى حكم قبل «وناس» فاذا كان ذلك كذلك ، فلعل «تتى» انما كان يرغب فى أن يجمع شمل فرعى الاسرة السابقة تحت ظله ، ثم بشر لحكمه الجديد باسمه الحورى «سحتب تاوى» أى «مرضى الوجهين» ، كما اتخذ كذلك لنفسه لقب «المحبوب من بتاح» اله منف ، تقربا منه الى كهانة منف ، وربما كان السبب فى ذلك أنه اعتمد عليهم فى توليته العرش .

وربما لانه ـ كان فيما يعتقد البعض ـ من الدلتا ، وقد حاول «يواقيم شبيجل» أن يستشف من بعض المتون التى سجلها «تتى» فى هرمه ـ والتى اعتبرته ولدا للمعبودة ايزة ، ربة أتريب فى الدلتا ـ أنه كان ينتمى الى اقليم فى شمال أتريب ، يرجع سكانه الى بدو الصحراء الشرقية[١] .

هذا وقد أقام «تتى» هرمه على بعد قريب من الشمال الشرقى لهرم «وسر كاف» على مقربة من حافة الهضبة فى سقارة ، ولم يعثر حتى الان على معبد الوادى ، أما الطريق الصاعد فلم يبق منه الا

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٨١ .
وكذا Urk., I, p. 81, 194.
وكذا H. Gauthier, op. cit., I, p. 147 F.
وكذا C. M. Firth and B. Gunn, The Teti Pyramid Cemetries, I, Cairo, 1926, p. 109-111.

أجزاء بسيطة فى نهايته الغربية ، على مقربة من الهرم ، كما لم يبق من المعبد الجنازى الا القليل ، وكان ممر مدخله ، مثل « معبد وناس » محفوفا بالمخازن على جانبيه ، ويؤدى الى بهو الاعمدة فى وسط المعبد ، وفى آخر البهو بضع درجات تصعد الى النيشات الخمس ، كما توجد مخازن أخرى فى الجهتين الشمالية والغربية •

ورغم أن هرم «تتى» كان هرما كبيرا ، الا أنه لم يبق منه الآن الا القليل ، ويبدو أنه لم يشيد بعناية واتقان ، فنواته الداخلية • وجدران طبقاته الرأسية مبنية بكتل صغيرة فجة من الحجر الجيرى وبعض الحصى ، وكساؤها من الحجر المحلى ، أما الكساء الخارجى للهرم نفسه ، فقد كان من الحجر الجيرى الجيد ، وقد عثر «كويبل» على بعض كتل منه فى مكانها الاصلى فى الواجهة الشرقية منه ، ولا يزيد ارتفاع الهرم حاليا عن ٢٠ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٦٥ مترا[٢] •

هذا وقد أقام «تتى» فى مجاورات هرمه ، هرمين آخرين ، الواحد لزوجته الرئيسية «ايبوت» ، والآخر لزوجته الثانية «خويت» وكان للملك زوجة ثالثة تدعى «سشست» Sehseshet ظهرت لها صورة على قطعة صغيرة من الحجر فى أجزاء من معبد تتى الجنازى ، ويبدو أن هذه الزوجة كانت من نسل عريق ، لأن عددا من زوجات موظفى البلاط تسمين باسمها[٣] •

هذا وقد عثر على اسم «تتى» منقوشا على آنية حجرية من «بيبلوس»[٤] ، كما توضح جرة من المرمر لهذا الملك صفات قوم بونت ، وقد عثر «رايزنر» فى نجع الدير — بمركز جرجا — على غطاء نقش

(٢) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٦٩ — ٢٧١ •

(٣) J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, II, p. 128. وكذا

(٤) M. Dunand, Fouilles de Byblos (1933,-1938), II, Paris, 1954, p. 258.

عليه اسم «ونـاس» وألقابه[٥] ، كما سجل عليه «تتى» أعماله الدينية فى الجنوب ، وهناك فى معبد أبيدوس مرسوم أصدره تتى ، وسجل فيه امتيازات واعفاءات أراضى هذا المعبد[٦] ، كما أن هناك فى محاجر المرمر فى «حتنوب» (حت ــ نبو) نقش صخرى ، سجل عليه تتى احصاء للماشية بعد العام السادس من الحكم[٧] .

ويذهب المؤرخ المصرى «مانيتـو» الى أن «تتى» لم يمت ميتة طبيعية ، وانما قتله حراسه ؛ وربما كان ذلك صحيحا ، لان مؤسسى الحكم الجديد يكونون معرضين دائما للانتقام ممن نحوهم عن السلطان، وأبعدوهم عن مكان الصدارة ، ويعزز ذلك أن خليفته «وسر كارع»[٨] لم يبق فى الحكم الا بضع سنوات ، ولم يكد يخلف وراءه آثارا فى البلاد ، ولأمر ما أسقطته النقوش التى تلت هذه الفترة . اذ ربما كان من البيت المالك القديم ، استعاد عرش أسرته[٩] .

على أن هناك من يذهب الى أن «تتى» ربما سقط صريع نزاع بين قوتى الكهنة المتنافسين ، بل ربما كان هذا النزاع قد امتد الى ما قبل سقوط الاسرة السابقة بدليل أن «ونـاس» لم يكن يحمل فى ثنايا اسمه كلمة «رع» وربما لجأ الى كهنة منف ، حتى أنه بنى هرمه هناك ، وظلت الأمور قلقة بعده حتى رجحت كفة «ايون» (هليوبوليس) مرة أخرى، فتولى العرش «وسر كارع» فترة من الزمان[١٠] .

---

(٥) W. S. Smith, op. cit., p. 190.

(٦) K. Sethe, Urkunden des Egyptischen Altertums, I, 1932, p. 207.

(٧) R. Anthes, Die Felsinschriften Von Hatnub, (Unters. 9), Berlin, 1928, Pl. 9.

(٨) ملوك الاسرة السادسة سبعة ، وهم ١ ــ تتى ٢ ــ وسر كارع ٣ ــ ببى الاول ٤ ــ مرى ان رع الاول ٥ ــ ببى الثانى ٦ ــ مرى ان رع الثانى (عنتى ام سا ــ اف) ٧ ــ نيتو كريس .

(٩) احمد فخرى : مصر الفرعونية ـ القاهرة ١٩٧١ ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

(١٠) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٠٥ .

(٢) وسر كارع

اعتبرت قائمة سقارة ومانيتو أن «وسر كارع» مغتصبا العـرش، ولم يجرؤ الموظفون فى عهد خلفه على ذكره ، اذ كان ـ فيما يعتقدون ـ مغتصبا ، خارجا على السلطة الشرعية[١١] ، وقد ذهب البعض الى أنه كان ابنا للملك «تتى» من زوجته «خويت» ، وأنه لم يستطع أن يلى الحكم غير فترة قصيرة ، ربما لا تتجـاوز سنوات أربع ، دب النزاع بعدها بينها وبين أخيه غير الشقيق «ببى» ، والذى انتهى آخـر الامر باستيلاء «ببى» على العرش ، ربما لانه ابن الملـكة «اييوت» ابنـة «وناس» التى نقلت شرعية الحكم الى أبيه عن أبيها[١٢] ، وعلى أى حال ، فلقد بنى «وسر كارع» هرما لنفسه لم يبق أثر منه ، كمـا ترك كذلك عدة نقوش فى وادى الحمامات[١٣] .

(٣) ببى الاول

تولى «ببى الاول» العرش بعد «وسر كارع» ، وسرعان ما أطلق على نفسه لقبا ادعى فيه بنوته للمعبود «حور» وهو «نفر ساحور» ، ثم ادعى لنفسه اسما آخر ، ادعى فيه بنوته للمعبودة «حاتحور» ربة دندرة ـ على مبعدة ٥ كيلا شمال غرب قنا عبر النيـل ـ وفى نفس الوقت اتخذ اسما ثالثا ضمنه اسم «رع» وهو «مرى رع» تقربا منه لكهانة الشمس ، بل انه ادعى بنوته للمعبود «آتوم» رب أونو القديم، وتلقب بلقب «مرى تاوى» أى «حبيب الارضين»[١٤] .

هذا وقد سميت «منف» باسم هرمه (من نفر) ، عندما شيد «ببى الاول» حيا أطلقوا اسمه عليه ، فأصبح اسم ذلك الحى منـذ الاسرة

---

(١١) W. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y, 1953, p. 125.

(١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٨١ ـ ٣٨٢ .

(١٣) K. Sethe, op. cit., p. 148.

(١٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٨٢ .
وكذا H. Gauthier, op. cit., p. 150, F.

السادسة يطلق على المدينـة بأكملها ، على رأى[١٥] ، ومنـذ الاسرة الثامنة ، على رأى آخر[١٦] ، ثم حرفه الاغـريق الى «ممفيس» ثم كتبها العرب «منف» ، وتقـع الان تحت وبجوار قرية «ميت رهينة» بمركز البدرشين ، بمحافظة الجيزة •

ويبدو أن المتاعب التى تعرض لها البيت المالك منذ نهـاية الاسرة الخامسة ، ظلت مستمرة فى عهد «ببى الاول» ، ومع ذلك فقد تمتعت مصر خلال الخمسة وعشرين عاما التى حكمها بعصر زاهر ، نعمت فيه مصر بالرخاء والاستقرار ، وارتقت الفنون ، ويكفى الانسان أن يرى تمثاله الكبير المصنوع من النحاس فى المتحف المصرى بالقاهرة[١٧] ، أو تماثيله الاخرى فى غيره من المتاحف ، وبخاصة تلك المصنوعة من المرمر فى متحف بروكلين فى نيويورك ليدرك المستوى العظيم للفن المصرى ، كما قـام «ببى الاول» بارسـال البعثات الى «حتنوب» لاحضـار المرمر[١٨] ، واصدار المراسيم لحماية المخصصات الخاصة بهرمى الملك «سنفرو» فى دهشور[١٩] ، كما كشف للملك عن معبد فى «تل بسطة» بجوار الزقازيق •

هذا وقد بنى «ببى الاول» هرمه ، على مقربة من هرم «ايزوى» فى سقارة القبلية ، ولم يقم أحد حتى الان بحفر مجموعة «ببى الاول» الهرمية حفرا علميا كاملا ، ولا يرى أحد الان بقايا معبد الوادى ، الذى يجب أن يكون عند نهاية الطريق الصاعد ، كما أن أحدا لم يقم بحفر المعبد الجنـازى ، وأما الهرم نفسه فخرب تماما ، وارتفاعه الحالى

---

(١٥) ZAS, XLIX, p. 129.
وكذا A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, II, 1947, p. 122-123.

(١٦) أحمد بدوى : فى موكب الشمس ــ الجزء الثانى ص ٦٣٢ •

(١٧) K. Lange and M. Hirmer, op. cit., Pl. 78.
وكذا J. Vandier, Manuel d'Archeologie Egyptienne, III, Paris, 1958, p. 34.

(١٨) K. Sethe, Urk., I, 1932, p. 214.

(١٩) Ibid., p. 209.

حوالى ١٢ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٧٠ مترا ، وكان هذا الهرم مغطى بكساء من الحجر الجيرى الجيد ، وان كنا لا نرى الان سوى كومة من الحصى والاحجار الصغيرة[٢٠] .

(٤) مرى ان رع الاول

خلف «ببى الاول» ولداه اللذان رزق بهما من بنتى «خوى» أمير أبيدوس،وقد حملت كل من البنتين نفس الاسم «مرى رع عنخ ناس»، وأصبحت الاولى أما لخلف «ببى الاول» وهو «مرى ان رع الاول» (عنتى ام سا اف = عنخ خاعو) ، والذى كان طفلا عند وفاة أبيه ، ذلك لانه على الرغم من جلوسه على العرش نحو سنوات عشر — وربما الاصح خمسة أو ستة أعوام — فقد كان عند وفاته ، مايزال يافعا ، لم يبلغ الحلم بعد ، اذ كانت تتدلى خصلة من الشعر على جانب مومياثه، التى عثر عليها فى هرمه[٢١] .

وهناك اشارتان أمكننا أن نستدل منهما على أن «ببى الاول» انما قد أشرك معه فى نهاية عصره ولده «مرى ان رع» فى شئون الحكم ، جاءت الاشارة الاولى عن طريق قلادة ذهبية ، محفوظـة بالمتحف المصرى بالقاهرة ، تحمل اسم وألقاب الملكين معا[٢٢] ، وكانت الثانية من «نخن» (البصيلية) حيث المجموعة النحـاسية من التماثيل التى كشف عنهـا هناك ، وتمثل «ببى الاول» مع تمثال صغير بجواره ، ربما كان لـ«مرن ان رع»[٢٣] .

---

(٢٠) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(٢١) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 193.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 63.

(٢٢) E. Drioton, Notes Diverses, 2, Une Coregence de Pepy Ier et de Merenre, ASAE, 44, 1945, p. 55.

(٢٣) Egypt, Harmonds worth, 1965, p. 80.

وكذا G. Posener, op. cit., p. 217.

وكذا J. Vandier, op. cit., p. 34.

وهناك نقشان مؤرخان بعصر «مرى ان رع» ، الواحد من محاجر «حتنوب»[٢٤] ، ورغم أنه مشوه ، فانه يؤرخ لاحصاء الماشية الخامس (السنة العاشرة) والاخـر من الشلال الاول من الاحصـاء الخامس كذلك ، وربما سجل فى السنة التاسعة عندما استقبل الملك بعض كبار القوم من النوبيين عند حدوده الجنوبية[٢٥] ، وهناك من يتشـكك فى تأريخ «مرى ان رع» لهذا الاثر الاخير ، رغم أنه كان شريكا لابيه فى الحكم ، وربما قد بدأت هذه المشاركة فى شئون الدولة فى العام الاربعين من حكم أبيه ، وأما ما جاء فى بردية تورين من أن «مرى ان رع» قد حكم أربعة عشر عاما ، فلابد أن يدخل فى هذه المدة فترة اشتراكه فى الحكم مع أبيه ، وأن أعوام حكمه المنفرد انما كانت قرابة أعوام خمسة.

وعلى أى حال ، فانه من غير المقبـول أن نفترض اشتراك الطفل «ببى الثانى» مع أخيـه «مرى ان رع الاول» ، ومع ذلك فان وجود اسميهما الدوريين داخل اطار على خاتم اسطوانى لاحـد الموظفين ، انما قد عقد المسألة كثيرا ، ووضع علماء المصريات أمام مشكلة يصعب حلها[٢٦].

هذا وقد بنى «مرى ان رع» هرمه ، على مسافة قصيرة الى الجنوب الغربى من المجموعة الهرمية للملك «جـد كارع» (اسيسى) ولم تجر حفائر حتى الان فى معبد الوادى أو الجنازى أو الطريق الصاعد لهذه المجموعة الهرمية ، أما الهرم نفسه فهو مخرب الان ، وعلى أى حال ، فقد كان طول ضلعه ٩٥ مترا ، وفى عام ١٨٨١م دخله «مارييت» ، ثم «ماسبرو» عندما كان يقوم بفحص أهرام سقارة بحثا عن «نصوص الاهرام» ، ووجد فى حجرة الدفن تابوت جميل الصنع من الجرانيت

---

(٢٤) CAH, I, Part, 2, 1971, p. 192.
وكذا K. Sethe, Urk., I, 1932, p. 256.
(٢٥) K. Sethe, Urk., I, 1932, p. 110.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, Chicago, 1906, p. 145.
(٢٦) J. Cledat, Deux Monuments Nouveaux de Tell El-Maskhoutah, Rec. Trav. 32, 1910, p. 40.

الاسود وفيه مومياء ، ربما كانت للملك «مرى ان رع» نفسه[٢٧] •

(٥) ببى الثــــانى

وجاء «ببى الثانى» بعد أخيه «مرى ان رع» وطبقا لرواية مانيتو، فقد ارتقى العرش المصرى ، وهو فى السادسة من عمره ، وعاش حتى بلغ المائة ، ورغم أن بردية تورين قد أعطتنا رقما غير واضح ، غير أنه يقرب من التسعين سنة ، وعلى أى حال ، فان المؤرخين يكادون يتفقون على أنه حــكم أطول فترة عرفها التــاريخ المصرى لملك من الملوك ، وهى ٩٤ عاما •

هذا وقد بدأ «ببى الثانى» حكمه تحت وصاية أمه ، ويسند منصب الوزارة الخطير الى خاله «زعو» ، وبهذا يكون أمر البلاد فى هذه العائلة التى أتت من أبيدوس ، والتى لا تمت الى العائلة المالكة ، ولو بخيط واه ضعيف من صلة الدم ، وهــذا يعنى أن الاسرة المالكة التى كانت تؤمن بقدسيتها ، ويؤمن شعبها بألوهيتها ، قــد أصبحت بمنأى عن الحكم والسلطان ، وانما الامر أصبح بيد أصهارها ، ويستمر الامر كذلك حتى يصبح الملك الطفل فى سن تؤهله لان يجلس على العرش المقدس — كملك حقيقى — ويتولى السلطة لمدة أجيال ثلاثة أو تزيد ، يضعف فى أخرياتها فى سلطاته وفى صحته ، فى الوقت الذى يزداد فيه نفوذ حكام الاقاليم ، وتصبح مناصبهم وراثية — أو تكاد — بل وتزداد ثرواتهم بدرجة تهدد خزائن الملك نفسها[٢٨] •

هذا وقد قام العالم الاثرى «جيكييه»[٢٩] فيما بين عامى ١٩٢٦ ،

---

(٢٧) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٧٧ •
وكذا G. Maspero, Recuiel de Travaux, JX, p. 177-191.
(٢٨) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤١ — ٤٣ •
وكذا K. Sethe, op. cit., p. 117.
وكذا A. H. Gardiner, Was The Vizier Djau on of Six Brothers, ZAS, 79, 1954, p. 95.
(٢٩) G. Jequier Les Monuments Funeraire de Pepi II, 3 Vols, Cairo, 1936-1940.

١٩٣٦م بالحفر فى المجموعــة الهرمية للملك «ببى الثانى» فكشف عن مجموعة هرمية فى حالة لابأس بها ، وعلى الرغم مما أصابها من تخريب، فانها تقدم لنا صورة عما كانت عليه عند بنائها ، فلقد بنى «ببى الثانى» هرمه من أحجار صغيرة فجة من الحجر الجيرى المحلى ، ومازالت بعض أحجار الكساء الخارجى — وهى من الحجر الجيرى الابيض الجيد — فى أماكنها فى الجهة الغربية من الهرم ، الذى كان ارتفاعه فى الاصــل ٥٢ مترا ، وطول ضلع قاعدته ٧٦ مترا ، ويقع معبد الوادى على مقربة من الاراضى الزراعية ، ويمكن الوصول اليه من طريقين ، يصــلان الى رصيف كبير أمام المعبــد ، ربما كان يستخــدم مرسى للسفن فى أيام الفيضــان .

هذا ويسير الطريق الصاعد فى اتجاه جنوبى ، وينحرف على الاقل مرتين مغيرا زاويته الى أن يصل الى أعلى الهضبة ، وعلى مقربة من نهايته الغربية ، نجد مدخــلا صغيرا يسمح للكهنــة الذين يتصادف وجودهم فى أعلى الهضبة بدخول المعبد الجنازى ، دون الحــاجة الى النزول الى الوادى ، والبدء من معبد الوادى لدخول الطريق الصاعد ، والسير فيه ، وعند هذا المدخل حجرة للحارس الذى يحرس المكان[٣٠].

ومع أن مبانى طريق «ببى الثانى» الجنازى على أسوأ حال ، الا أنه يشبه طريق «وناس» فى كثير من الاعتبارات ، فكلا الطريقين تغير اتجاههما مرتين ، اما لــكى يستفيدوا من طبيعــة المكان ، واما لتقليل زاوية انحدارهما ، وكذا فى تقارب الممرين اللذين فوقهما فى مقاييسهما أيضا ، ولكن بينما عثر على كثير من بقايا النقوش فى ممر «وناس» ، لم يعثر الا على بعض قطع قليلة مبعثرة فى ممر «ببى الثانى» .

ويبدو واضحا من هذه القطع أن المناظــر التى كانت مرسومة فى الطرف الاسفل من الممر تشبه كثيرا تلك التى كانت فى المكان نفسه فى

---

(٣٠) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٧٨ — ٢٨٢ .

ممر «ساحورع» فالملك ممثل على صورة أبو الهول ، أو على صورة أسد برأس طائر ، وهو يطأ تحت أقدامه أعداء مصر التقليدين الذين يأتى بهم الالهة كأسرى ، وكان يصحب هذا المنظر — كما فى الاماكن الاخرى — مجموعة من النقوش تبين الالهة «سشات» وهى تسجل أسماء الضحايا ، وتحرر كشوف الجزى المأخوذة •

أما المناظر التى فى الطرف العلوى من الممر ، فكانت تحمل طابعا جنازيا صرفا ، فهناك صفوف طويلة من الخدم يحملون منتجات الضياع الملكية الى المقبرة ، وفى المناظر المجاورة نجد مواكب مشابهة ، لكنها تتكون من الالهة والالهات ، وتتقدم نحو الملك الجالس على العرش[٣١] •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أنه فى خارج سور هرم الملك « ببى الثانى » ، وجدت ثلاث أهرامات صغيرات لثلاث ملكات من زوجاته ، وهى « نيت » و «ايبوت الثانية »[٣٢] و « أوجبتن »[٣٣] ، والهرمان الاولان فى الجهة الشمالية من هرم الملك والثالث فى جنوبه ، وتتشابه هذه الاهرام الثلاثة فى بنائها ، وفى داخل كل منها فصول من « نصوص الاهرام » ، ومن أن لكل هرم منها معبد جنازى ، وهرم ملحق به ، كلها من داخل سور يحيط بها •

ويقع معبد الملكة «نيت» الى الشرق من هرمها ، وكان يتقدم مدخله مسلتان صغيرتان ، ويتكون المعبد من ردهة وفناء مكشوف يحيط به الاعمدة من ثلاثة جوانب ، وكان يخرج من الفناء دهليز ، تقع على يمينه خمسة مخازن ويؤدى الى القسم الثانى من المعبد ، ويتكون من قاعتين ، تشتمل احداهما على ثلاث مشكاوات للتماثيل ، ومن وراء القاعتين سرداب ويليهما «قدس الاقداس» الذى يقع على محور الهرم

---

(٣١) I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 197-198.

(٣٢) أنظر : G. Jequier, Les Pyramides des Reines Neit et A Pouit, Cairo, 1932.

(٣٣) أنظر : G. Jequier, Le Pyramide d'Oudjebten, Cairo, 1928.

وهكذا كان معبد الملكة «نيت» صورة مصغرة للعناصر المعمارية الرئيسية التى كان يحتوى عليها المعبد الجنازى للملك •

ولم يكن هرم الملكة «نيت» ــ والذى يبلغ طــول ضلع قــاعدته المربعة ۲۱ مترا ، ولكن ارتفاعه الحالى لا يزيد على أربعة أمتار ــ لم يكن فى كل معالمه الاساسية ، الا صورة مصغرة من هرم الملك ، اذ كانت تقوم أمام مدخله فى الشمال مقصورة قربان صغيرة ، يشغل جدارهــا الخلفى باب وهمى ، يسد مدخل الهــرم ، ومن أمامه مائدة قربان ، ويؤدى مدخــل الهرم الى احــدور لا يلبث أن يستقيم ، حيث كان يعترضه متراس من كتلة واحدة من الجرانيت ، يسد الطريق الى غرفة الدفن التى تحلى جدرانها «متون الاهرام» ، وعلى يسار غرفة الدفن دهليز قصير يؤدى الى سرداب[٣٤] •

وعلى أى حال ، فلقد كان «ببى الثانى» آخر ملوك الدولة القديمة بنى مجموعة هرمه على نمط كبير ، وقد ترك أحد خلفائه (ويسمى ايبى) هرما لم يتم بناؤه ، ولكن لم يزد حجمه عن هرم الملكة «نيت»،وتنقصه المبانى المعتادة الملحقة به ، ولم يكن هذا التدهور نتيجة تغير مفاجىء فى العقائد الدينية وانما كان مرجعه الى نقص فى الثروة ، وفى نفوذ الملوك،وهى الحالة التى استمرت بعد ذلك قرابة المائتين من الاعوام[٣٥]، أى حتى نهاية عصر الثورة الاجتماعية الاولى •

---

(٣٤) محمد انور شكرى : المرجع السابق ص ٣٥٧ ــ ٣٥٨ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢٨٣ ــ ٢٨٥ •
I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965. p. 206.
(٣٥) Ibid., p. 208.

الفصل الثانى

قصة السخرة فى بناء الاهرامات

لعل من المفيد ، بعد أن تحدثنا عن «السياسة الداخلية لمصر فى عصر الدولة القديمة» ، ذلك العصر الذى تميز ببناء الاهرامات ، حتى عرف، كما أشرنا من قبل ، باسم «عصر بناة الاهرام العظام» ، والذى ينطبق على ملوك الاسرة الرابعة ، أكثر مما ينطبق على غيرهم من ملوك الدولة القديمة ، وربما على بناة أهرام الجيزة الثلاثة بصفة خاصة ، لعل من المفيد أن نتحدث عن تلك الفرية التى اشتهرت عن «خوفو» صاحب الهرم الاكبر ، وولده «خفرع» بصفة خاصة ، وأعنى بها «السخرة فى بناء الاهرام» •

وفى الواقع فان مؤرخى الاغريق والرومان كانوا أول من نظر الى بناء الاهرام ، وكأنه سخرة ، ولعل «هيرودوت» انما كان أول من نادى بهذه الفرية ، حين اتهم «خوفو» بأنه قد انغمس فى كل صنوف الشر ، فأغلق المعابد ، وحرم على المصريين تقديم القرابين للآلهة ، وأجبرهم على العمل فى خدمته لبناء هرمه المشهور (هرم الجيزة الاكبر) ، الذى اشتغل فيه مائة ألف رجل ، يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور ، ثم سخر الشعب عشر سنوات فى عمل طريق مرتفع لنقل الاحجار ، بجانب عشرين سنة فى بناء الهرم نفسه •

ثم يقول «وقد ذكر على الهرم بالحروف المصرية مقدار ما أنفق ثمنا لما استهلكه العمال من الفجل والبصل والثوم واذا وعت ذاكرتى بالضبط ما قاله لى الترجمان ، عندما قرأ على النقش ، فان النفقات قد بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة» •

ومات خوفو بعد أن حكم خمسين عاما ، فخلفه على عرش مصر ولده «خفرع» (خع اف رع) الذى حكم ستا وخمسين سنة ، وقد تعرض المصريون لمنتهى البؤس خلال هذه السنوات الست والمائة ، اذ لم تفتح أثناءها المعابد التى كانت قد أغلقت ، ولا يرغب المصريون مطلقا فى تسمية هذين الملكين (يعنى خوفو وخفرع) لكرههم ، بل انهم ليسمون الهرمين باسم الراعى «فيليتيوس» الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة»[1] .

ومن عجب أن يتابع مؤرخنا الوطنى الكبير «مانيتون» السمنودى. كتاب الاغارقة والرومان فى سخفهم هذا ، وأن يتهم خوفو بالعجرفة ، حتى مع الآلهة .

ثم استمرت هذه القصص عن بناء الاهرام منتشرة بين الناس ، حتى أننا الان نجد الكثيرين يرددون هذه الروايات ، دونما وعى أو تحقيق ، ثم يتخذونها مثلا على تجبر الفراعنة وقسوتهم ، مقلدين فى ذلك المؤرخين المسلمين ، ومعتمدين فى الوقت نفسه على أن القرآن الكريم قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام ، بالطغيان والجبروت ، وتجاوز عن ذكر اسمه[2] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة — بادىء ذى بدء — وقبل أن

---

(١) انظر : هيرودوت يتحدث عن مصر - ترجمة محمد صقر خفاجه ، وقدم له وشرحه احمد بدوى - القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤٨ — ٢٥٩ ، محمد أنور شكرى : العمارة فى مصر القديمة - القاهرة ١٩٧٠ ص ٣٢١ — ٣٢٢ ، احمدفخرى : مصر الفرعونية - القاهرة ١٩٧١ ص ١١٢ — ١١٤ ، نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القديم ١٦٨/١ — ١٦٩ ، محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة - الاسكندرية ١٩٦٦ ٨٤ — ٨٦ ، وهيب كامل : هيرودوت فى مصر : فقرات ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ديودور الصقلى فى مصر : فقرة ٦٤ ، وكذا

G. Rawlinson, The History of Herodotus, London, 1929, II, p. 177-179.

(٢) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٨ ، وكذا

W. G. Waddle, Manetho, London. 1940. p. 46-48.

نناقش قصة السخرة هذه ، أن نشير الى عدة أمور : منها (أولا) أن مصر احدى البلاد التى لم تعرف السخرة والاستعباد قبل عصر الامبراطورية الوسطى . حين كان الاسرى يدفعون الى العمل ، فيستعبدون عن هذا الطريق[٣] ، ومن هنا فاننا نرى أن النصوص تتحدث عن المساواة بين المصريين[٤] .

صحيح أن المجتمع المصرى عرف نظام الطبقات الاجتماعية ، ولكنه صحيح كذلك ، أنه لم يعرف النظام الذى يقسم المصريين الى أحرار وعبيد ، الامر الذى ساد فى المجتمع العراقى القديم ، حتى رأينا قانون حمورابى (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق.م) المشهور ينص على أن كل العقوبات والاحكام القضائية تدرج حسب مراكز المذنبين الاجتماعية ، أو مكانة المتخاصمين الاجتماعية[٥] ، حتى ذهب البعض الى أن يعتبر أن ما أضافته المدنية البابلية الى ارثنا الخلقى فى غربى آسيا قليلا جدا[٦] .

وهكذا كان عمل الاسرى لا يخالف منطق الظروف ، فقد كانوا أسرى ، وكان عليهم ان يعملوا ليعيشوا ، واذا صح أن يسمى العمل فى مرافق الدولة يومئذ ((سخرة)) ، واذا صح أيضا أن الاسرى لم يكونوا وحدهم هم الذين يسخرون ، بل حتى اذا صح أن المواطنين كانوا يشاركونهم هذا العمل ، فتلك أمور لم تجر فى عهد آل فرعون وحسب ، بل جرت فى سائر العهود قديمها وحديثها ، وليس علينا الا أن نتذكر كيف شقت ((قناة السويس)) ، وكيف شقت ترع المحمودية والاسماعيلية والابراهيمية ، وكيف بنيت القناطر الخيرية ، وعلينا أن نتذكر كيف كان يستخدم عساكر الجيش أيام الملكية ، وعلينا أيضا ان

(٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٤) انظر : نص المساواة : محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢٦٧ — ٢٦٩ ، وكذا J. Wilson, ANET, 1966, p. 7-8.

(٥) انظر : المواد ١٩٦ — ٢٠٥ من قانون حمورابى : T. J. Meek, in ANET, 1966, p. 175.

(٦) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience. New York, 1939, p. 221-222.

نتذكر أن ذلك لم يجر فى مصر وحدها ، بل جرى فى بلاد غير مصر ، ويكفى أن نذكر نظام «الخدمة الاجبارية العامة» أيام النازيين فى المانيا قبل الحرب العالمية الثانية[٧] ، بل وحتى فى أيامنا هذه ، ألا يقضى شبابنا فترة ما يسمى «بالخدمة العامة» فى مقابل دراهم معدودة . لا تشبع من جوع ولا تكسى من عرى .

ومنها (ثانيا) أن الهرم الاكبر بكل المقاييس الهندسية ، ليس هو أعظم ما شيده المصريون من نوعه فحسب ، بل هو انما يمتاز أيضا ، بذلك الاتقان المعجز فى هندسته ، والدقة فى تخطيطه وجمال نسبه ، ومن ثم فقد كان ، وما يزال ، أهم عجائب الدنيا السبع[٨] ، وانطلاقا من هذا ، فالشىء الذى لاشك فيه هو أن بناء الهرم من المعجزات الانسانية، ولست أشك ، كما يقول الدكتور أحمد بدوى[٩] ، فى أن رجال العمارة فى العصر الحديث ، بكافة ما أوتوا من أدوات ووسائل ، سوف يشفقون على أنفسهم ، أشد الاشفاق ، وقد يترددون ، وربما يحجمون ، ان نحن طلبنا اليهم أن يبنوا لنا هرما مثل هرم خوفو ، بالرغم من افادتهم من تجارب عصور قاربت آلافا خمسة من عمر الزمان ، ويقال ان اليابانيين فعلوها ، فلم يفلحوا .

ومن ثم فلعل هذا دليل على عدم السخرة ، ذلك لان الفنانين والصناع ، لو لم يكونوا موضع تقدير المجتمع وتشجيعه ، لكان من المستحيل أن يبلغوا هذه الذروة فى الابداع الفنى والهندسى ، ومن البدهى أن الشعوب المقهورة لا يمكن أن تنتج فنا على هذا المستوى المعجز ، وخاصة بهذا القدر من الضخامة ، فضلا عن الجلال والكمال الفنى .

ومنها (ثالثا) أن بناء الهرم الاكبر ، وما يتصل به من معابد

---

(٧) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٢٤ .
(٨) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ـ القاهرة ١٩٦٣ ـ ص ١٤٥ .
(٩) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٥٢ .

وأهرام ومقابر فى عهد خوفو ، وهى — وما أنشأه من معابد فى أنحاء البلاد — علم ناهض على قوة شخصيته ، وما أوتى من قوة وسلطان ، وبرهان قائم على ما بلغته مصر فى مدة حكمه من تقدم ، وما استقام لها من حضارة وثراء ، وما حظيت به من حكم موطد حازم ، وما كان لها من موظفين أكفاء ، ومهندسين ممتازين ، وعمال مهرة مدربين : تفانوا جميعا فى خـدمة مليكهم : عن ايمان راسخ وعقيدة قوية فى ألوهيته وتقديسه[10] .

والحقائق وحدها كافية لتجعل هرم خوفو هذا ينال اعجاب الناس على مر العصور ، ذلك لان الهرم الاكبر انما هو أعظم مقبرة فى العالم أجمع ، بنيت لتكون قبرا لفرد واحد . كما أنه أشهر بناء أثرى فى الدنيا طرا ، ولم يحدث قبل «خوفو» أو بعده أن يبنى لملك مثل هذا المستقر الابدى الضخم ، ويكفى أن نعرف أن طول كل جانب من قاعدته ٢٣٠ مترا ، وأنه كان يسمو فى الفضاء مائة وستة وأربعين مترا ونصف المتر ، وأن زاوية ميل جوانبه ٥٢° ، وأن مجموع عدد أحجاره يقدر ، فيما يقال ، بنحو مليونين وثلاثمائة ألف حجر ، ومتوسط وزن الحجر الواحد طنان ونصف ، واذا علمنا أن أحجار هرم خوفو لم تكن تزن فى المحاجر ، أقل من سبعة ملايين من الاطنان ، يحتاج نقلها فى الوقت الحاضر الى سبعة آلاف قطار حمولة كل قطار ألف طن ، أدركنا ضخامة الاعمال التى اقتضاها هرم خوفو وحـده ، ومدى ما احتاجت اليه من تنظيم دقيق للعمل والعمال[11] .

ومن ثم فطالما وقف النـاس منذ آلاف السنين أمام هـذا الهرم تملؤهم الرهبة والاعجاب ، وستقف أجيال من الناس لم يولدوا بعد ،

---

(١٠) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٣٢١ .
(١١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨٠ — ١٨١ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٣٠٧ .

وستملؤهم أيضا الرهبة والاعجاب ، وسيبقى اسم خوفو مذكورا فى سجل الايام ما بقى هرمه شامخا بعظمته على حافة الصحراء[١٢] .

ومنها (رابعا) أن الهرم الاكبر كان مثار أوهام وادعاءات فى عصور الضعف من تاريخ مصر ، وهو مايزال مبعث أضاليل وأوهام من نوع آخر عند كثير من الناس فى العصر الحديث : تأبى أخيلتهم الا أن ترى أنه بنى ليخلد بمقاييسه وزواياه وأركانه وأجزائه ، أسرارا فى الفلك والرياضة والدين ، ويسجل أهم الاحداث للماضى والحاضر والمستقبل.

وهكذا كان الهرم الاكبر ، ومايزال ، مصـــدر الهام للكثيرين من المفكرين ، كما تسبب أيضا فى وجـــود كثير من النظريات الباطنية : ونظريات الاسرار الخفية ، والنظريات الخاصة بمعرفة الغيب والتنبؤ بما سيحدث فى المستقبل ، كما كان عبدة النجوم فى العصور الوسطى يعقدون اجتماعاتهم داخله ، وكانوا يعتبرونه مصدر حكمة لهم ، وفى أواخر القرن الماضى كتب «بيازى سميث» كتابا أسماه «ميراثنـــا فى الهرم الاكبر» ومنذ ذلك الوقت كثر ظهور كتب عن هذا الهرم من النوع الذى نحا فيه كاتبوه الى العقائد الخفية والتنجيم والعلوم الروحية ، وكلها تدور حول الهرم الاكبر بالذات .

وهرم الجيزة الاكبر وحده دون سائر الاهرام ، هو الذى استرعى أنظار من يطلق عليهم بعض الناس «مجانين أو عشاق الهـــرم» لانهم يجدون فى أبعاد حجراته وممراته أساسا لنظريات كثيرة تفسر أو تتنبأ بحوادث ذات أهمية تاريخية ، الى درجة أن بعضهم ادعى أنه استطاع أن يجد داخل الهرم الاكبر تسجيلا لما ورد فى كل من التوراة والانجيل، بل وصل الامر بأحدهم أنه قال انه توصل من حسابات قام بها الى معرفة تاريخ مولد المسيح عليه السلام ، لان هذا مسجل داخل الهرم ، ويعتقد بعض أولئك المتحمسين أن الهرم لم يبن ليحتوى على تنبوءات

(١٢) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٨١ .

فحسب ، بل انه بنى ، وكان بناؤه المعجز ، بواسطة أسرار لا نعرفها الان ، وانه لمن الممكن شفاء بعض الامراض ، بواسطة الاشعاع أو الاحوال الجوية الخاصة فى أجزاء ممراته .

ومن عجب أن الشيء الوحيد الذى يتفق عليه كل الذين يؤمنون بتلك النظريات ، هو أن الهـرم الاكبر لم يبن ليكون قبرا للملك خـوفو ، ويقدمون جميع أنواع التفسيرات للغرض من بنائه ، اللهم الا التفسير الصحيح الذى يؤمن به الاثريون ، وبالرغم من أن أكثر من واحد من علماء الدراسات المصرية القديمة قد فند بشدة جميع هذه النظريات الغريبة ، فان أشخاصا كثيرين مايزالون يؤمنون بها(١٣) .

ومنها (خامسا) أن بناء الاهرامات وغيرها من المبانى الدينية ، انما كان ، كما سنشير فيما بعد ، نتيجة سطوة الدين على المصريين وأثره فى حياتهم وتفكيرهم ، فالدين ــ كان ولايزال ــ أكبر قوة تؤثر فى حياة الانسان ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحىَ اليه بفكرة الخـلود ، أو الحياة بعـد الموت ، تلك الفكرة التى اعتنقها القوم ، وكان لها أكبر الاثر فى نفوسهم ، بل انه فيما يرى ــ جيمس هنرى برستد ــ(١٤) لايوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت ، المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم ، وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عددا هائلا من الاهرامات والمقابر والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا يوجد الا قلة من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، ولعل السبب فى ذلك أن الاولى كانت تبنى بالاحجار ، بينما

(١٣) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٧٩ ــ ١٨٠ ، وكذا أنظر :
J. P. Lauer, Le Probleme des Pyramides d'Egypte, Paris, 1948, p. 133-160.

(١٤) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 45.

كانت الثانية تبنى باللبن ، ايمانا منهم بأن الاولى أبدية ، وأن الثانية وقتية •

ومنها (سادسا) أن مقابر أفراد الاسرة المالكة وعظماء رجال الدولة فى عهد خوفو ، خلت من الأبواب الوهمية والنقوش والتماثيل ، الا من لوحة القربان ، ولم يسمح «خفرع» الا للخاصة من أفراد البيت المالك بذلك ، أما بقية الاسرة فقد سمح لهم بما يعرف بالرؤوس البديلة أو الاحتياطية ، على أن تقام تحت سطح الارض فى مدخل غرفة الدفن ، وأما فى عهد «منقرع» (من كاو رع) فقد أتيح لكثير من الافـراد أن ينقشوا جدران مقابرهم بالمناظر ، وأن يقيموا فيها الابواب الوهمية والتماثيل •

وهكذا يبدو أن خوفو قد حرم على الافراد اقامة تماثيل لهم فى مقابرهم حتى لا تؤدى لها الطقوس التى كانت تؤدى لتماثيل الآلهـة والملك ، والتى كانوا قد بدأوا يؤدونها لتماثيلهم فى عهد « سنفرو » على الاقل ، وذلك ليصون للآلهة قداستها ، ويحول دون ابتذال شعائرها وطقوسها ، وليمنع محاكاة الافراد للملك فيما اتخذ من عادات وتقاليد كاله ، حتى يظل الفرق بينه وبينهم كبير •

وقد وقف «خفرع» من ذلك موقفا وسطا ، فاجاز الابواب الوهمية والنقوش والتماثيل لكبار أفراد الاسرة المالكة ، واكتفى بأن سمح لمن لا يمتون اليه بصلة القرابة الوثيقة بما يعرف بالرؤوس البديلة ، على ألا يقيدونها بحيث يمكن اداء الطقوس لها ، وحرمها على غيرهم ، ثم جاء «منقرع» فأباحها لمن يستطيع توفيرها فى مقبرته •

ثم جاءت أجيال أساءت فهم ذلك وانحرفت به عن حقيقته ، وساعد على ذلك ضخامة هرمى خـوفو وخفرع ، فصورت عصـور الضعف السياسى والفنى ، أن هذين الهرمين لايتأتيان بغير عسف وظلم،فكانت

قصة السخرة فى بناء الاهرامات[15] •

ومنها (سابعا) أن هيرودوت ، أول من نادى بقصة السخرة ، انما كان ، كما أشرنا من قبل ، لا يعرف من لغة المصريين كثيرا ولا قليلا ، ومن ثم فقد اعتمد على التراجمة ، أو صغار الكهنة ، وهم لا يزيدون فى معلوماتهم عن الادلاء الحاليين الذين نراهم حول الهرم ، ان لم يقلوا عنهم فى المعرفة ، كما أن الروايات التى سمعها هيرودوت انما سمعها بعد مضى أكثر من ألفى سنة على بناء الهرم[16] •

ولنناقش الان النظريات المختلفة التي دارت حول السخرة فى بناء الاهرامات ، فى ضوء الحقائق التاريخية الآنفة الذكر •

(١) نظرية السخرة فى بناء الاهرامات

لعل أشهر المنادين بالسخرة فى بناء الاهرامات : هيرودوت اليونانى ، ومانيتو المصري ، فضلا عن بعض المؤرخين المسلمين •

اولا : رواية هيرودوت :

لعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن الباحثين انما يلاحظون على رواية هيرودوت: أول من نادى بالسخرة ، والتى نقلناها آنفا ، عدة أمور ، بعضها انما كان نتيجة اعتماده على الترجمة ، وبعضها الاخر ، ربما كان عن جهل ، وربما عن سوء نيه •

ومن ذلك (أولا) قول هيرودوت : قال الكهنة ••••• ارتقى العرش بعده «كيوبس» (خوفو) الذى ساق المصريين الى البؤس ، وأغلق المعابد ، ومنع المصريين من التضحية ، والمعروف أن حياة الكهنة انما كانت تعتمد على القرابين ، ومن ثم فقد ذعروا حين حرمها خوفو ،

(١٥) انظر : محمد انور شكرى : الفن المصرى القديم ـ القاهرة ١٩٦٥ ص ٩٩٦ ـ ٩٧ ، الحضارة فى مصر القديمة ص ٣٢٣ ـ ٣٢٤ •
(١٦) انظر : هيرودوت وقيمة رواياته التاريخية (محمد بيومى مهران : مصر ـ الكتاب الاول ـ الاسكندرية ١٩٨٣ ص ٦٢ ـ ٧٠ •

وقد أعطاهم بنـاؤه الهرم الاكبر الفرصة ليفتروا عليه وهكذا تظهر الحقيقة فى رواية هيرودوت ، اذ منع الكهنة من الاتجار فى الدين ، ومن ثم فهم يكنون له البغض ، وانتهزوا فرصة وجـود هيرودوت ليعلنوا بغضهم هـذا .

وبدهى أن عصر خوفو ما كان أبدا عصر بؤس ، ولو كان كذلك ، لما قدر خلفاؤه أن ينهضوا بعده بذلك التقدم العمرانى الذى نرى آثاره فيما تركوا ، وترك الناس من حولهم من آثار تدل على الرخاء المادى ، وانما تدل شواهد الاحوال أن «خوفو» كان ملكا قـويا نشطا ، ترك البلاد فى حالة اقتصادية مستقرة،ساعدت ولده «خفرع» على بناء الهرم الثانى ، وهو بناء يكاد يماثل هرم أبيه فى عظمته .

ومن ثم فأكبر الظن أن يكون ماسمعه هيرودوت — ان كان قد سمعه حقا — بقية من آثار الدعاية التى قام بها كهان الشمس ، وأثاروها حربا على البيت المالك أيام الاسرة الرابعة ، وشواهد ذلك بادية واضحة فى ذلك القصص الذى نطـالعه فى القرطـاس المعروف باسـم «بردية وستكار»[١٧] .

ومنها (ثانيـا) زعم هيرودوت أن خوفو أجبر البعض على جر الاحجار من المحاجر الموجودة بالجبل العربى (أى المحاجر التى تقع شرق النيل) حتى النيل ، وأمر البعض الآخر باستلامها بعد نقلها فى السفن عبر النهر ، وجرها الى الجبل المسمى بالجبل الليبى[١٨] (أى

(١٧) أنظر : عن بردية وستكار :
G. Maspero, Popular Stories of Ancient Egypt, p. 21 F.
وكذا A. Erman, The Literatune of Ancient Egyptians, London, 1927, p. 36-46.
وكذا R. D. Faulkner, JEA, 37. 1951, p. 114.
وكذا A. M. Blackman, JEA, 22, p. 42 F.
وكذا G. Lefevre, Romans et Contes L'Epoque Pharaonique, Paris, 1949, p. 70-77.

(١٨) هيرودت يتحدث عن مصر ص ٣٤٩ .

الهضبة التى أقيمت فوقها الاهرام) ، وهذا يعنى أن جميع أحجار الهرم قد جيء بها من الضفة الشرقية للنيل ، وأنهم حملوها فى سفن عبر النهر ، ولكننا نعلم تماما أن الهرم ذاته مشيد من الحجر الجيرى المحلى ، أى المأخوذ من الهضبة نفسها ، ولم يستخدموا فى بنائه أحجارا من محاجر الضفة الشرقية ، الا تلك الاحجار الجيرية البيضاء الجيدة النوع التى بنوا بها الكساء الخارجى للهرم(١٩) .

ومنها (ثالثا) زعم هيرودوت أن الترجمان قرأ له من نقش على الهرم : أن النفقات بلغت ١٦٠٠ تالنت من الفضة ، فهو زعم غير صحيح ، ذلك لان حسبة التكاليف انما هى من عمله هو ، هذا فضلا عن أن الفضة لم تتداول فى مصر ، الا بعد عهد ((خوفو)) بوقت طويل ، وفى ذلك ما يدل على بساطة هيرودوت ، فهو لم يخدع فى هذه فحسب ، بل خدع غير مرة(٢٠) .

ومنها (رابعا) زعم هيرودوت بأن بناء الطريق الصاعد استغرق عشر سنوات ، وأن بناء الهرم نفسه استغرق عشرين سنة ، أى أنهما استغرقا معا ثلاثين سنة، وأن مدة حكم خوفو استغرقت خمسين عاما(٢١)، مع أن النصوص القديمة تذكر أن ((خوفو)) حكم ثلاثة وعشرين عاما فقط(٢٢) .

ومنها (خامسا) زعم هيرودوت أن خفرع تولى الملك بعد أخيه خوفو ، وأن مدة حكمه ستا وخمسين سنة ، وفى هذا الزعم خطآن ، الواحد : أن خفرع لم يكن من اخوة خوفو ، وانما كان من أبنائه ، كما كان ثاني خلفائه(٢٣)، وربما كان ثالثهم ، غير أنه من المؤكد أن (جد فرع)

(١٩) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ص ١٧٧ .
(٢٠) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .
(٢١) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٠ — ٢٥١ — ٢٥٥ .
(٢٢) A. H. Gardiner, Egypt of the Pharaohs, Oxford, 1961, p. 434
(٢٣) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٥ .

هو الذي خلف خوفو على العرش المصرى ، ولمدة سنوات ثمان[٢٤] ، والاخر : أن «من كاورع» (منقرع) الذي تولى بعد «خفرع» (خع اف رع) لم يكن ابنا لخوفو (كيوبس) ، كما يزعم هيرودوت ، وانما كان من أحفـــاده •

ومنهـــا (سادسا) زعــم هيرودوت أن المصريين ما كانوا يرغبون مطلقا فى تسميته «خوفو» و «خفرع» لكرههم لهما ، بل انهم ليسمون الهرمين باسم الراعى «فيليتيوس» الذى كان يرعى غنمه يومئذ بالقرب من تلك المنطقة[٢٥] •

والواقع أن شواهد التاريخ انما تكذب هذا الادعاء ، ذلك لان اسم «خوفو» انما كان تميمة قوية لمن يحملها ، ونرى هذا الاسم مذكورا على «جعلان» (جعارين) كثيرة كان يحملها المصريون القدامى كتمائم تحميهم مما يخـــافون شره ، كما ارتبط اسم خـــوفو أيضا بكثير من الاساطير ، وأشهرها تلك التى جاءت على «بردية وستكار» ، هذا فضلا عن أن الشعائر الدينية والطقوس الجنازية الخاصة بالملك خوفو ، انما ظلت قائمة عند ضريحه على أيام العصر الصاوى (٦٦٤ ـــ ٥٢٥ ق•م) كما ظلت كذلك على أيام الحكم الفارسى ، كما عثر على تمثال لخـــوفو فى معبد أبيدوس •

أضف الى ذلك أن هناك آثارا من العصر البطلمى (٣٢٣ـــ٣٠ق•م) تشير الى استمرار عبادته ووجود كهنة له حتى ذلك العصر ، بل ان هرم خوفو نفسه ، ظل قرونا عديدة مركزا لاكبر جبانة مصرية تحيط به ، وبعد أن مضى على موت خوفو أكثر من أربعة قرون كان المصريون الذين ينتمون الى الطبقات الكادحة (وهم المسخرون بطبيعة الحال) يحرصون على اقامة مقابرهم على مقربة من هرم خوفو •

(٢٤) أنظر : محمد بيومى مهران : مصر ـ الكتاب الاول ـ الاسكندرية ١٩٩٨٢ ص ٣٩٨ ـ ٤٠٠ •

(٢٥) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٧ •

ومكذا يبدو واضحا ، أن خوفو ان كان من العتاة المستبدين ــ كما يزعم هيرودوت ومن تابعه فى دعـواه ــ لما ظلت ذكراه عالقة بأفئدة المصريين طوال هذه القرون ، ولما حرصوا على تقديسه بهذا الشكل ، وطوال قرابة ستة وعشرين قرنا[٢٦] .

وأما نسبة هرمي خوفو وخفـرع الى الراعى «فيليتيوس» ، فهى موضع شك ، وحتى لو سلمنا بصدق رواية هيرودوت فقد لا يعـدو سببها فى الاغـلب الاعم ، سوى ملازمة ذلك الراعى منطقـة هذين الهرمين ، كما سمى النـاس فى العصر الحديث أحد الاهـرام باسم «هرم الشواف» ، وذلك لان اللصوص من نباشى القبور قد استخدموه مرقبا ، لرصد حركات الحراس ، ولسنا نستبعد آخر الامر أن يكون اسم «فيليتيوس» Philitis اسما مصريا مؤغرقا[٢٧] .

ومنها (سابعا) رواية هيرودوت عن «منكاورع» الذى لم يرض عن أعمال أبيه (جده لا أبيه) ففتح المعابد وسمح للشعب بان يمارس أعماله ويقدم الاضحيات ، فكانت الاحكام التى يصدرها أعـدل من أحكام سائر الملوك ، ومن ثم فقـد أحبه الشعب دون سـائر الملوك السابقين ، كما كان يعطي تعويضا من ماله الخاص كل من لم ترضه أحكامه ، ويبدىء ثورة غضبه ، وفجأة توفيت ابنته الوحيدة ، فأمر بصنع بقرة جوفاء من الخشب وطلاها بالذهب ، ثم دفن ابنته فيها ، وأن هذه البقرة لم تزل حتى عهده (أى عهد هيرودوت ٤٨٤ ــ ٤٣٠ ق.م) فى مدينة «سايس»[٢٨] فى القصر الملكى ، يحرقون طول النهار

(٢٦) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٨٥ ؛ أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٥٧ ، الكسندر شارف : تاريخ مصر ــ ترجمة عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ، ١٩٦٠ ص ٦٢ ــ ٦٣ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٥٠ .

H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo. 1907, p. 78.

(٢٧) أحمد بدوى : هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٧ .

(٢٨) سايس : كانت عاصمة الاقليم الخامس من اقاليم الدلتا ، ويسمى «نيت سميت» بمعنى اقليم «نيت» الشمالى ، وعاصمة لمصر فى العصر الصاوى ، وهى فى المصرية «ساو» ، وفى اليونانية «سايس» ، وفى العصر =

بجانبها مختلف أنواع البخور[٢٩] •

وفى الواقع أن هذه الرواية تلخص عدة أمور ، منها بقية من آثار الدعاية التى أثارها أصحاب مذهب هليوبوليس ، فقد كان منكاورع أول من يسمون أنفسهم «ابن الشمس» (ابن رع = سارع) ثم سار على منواله من أتى بعده ، وان أصبح لقبا دائما من ألقاب ملك مصر ، منذ عهد «نفر اير كارع» ثالث ملوك الاسرة الخامسة ، ومنها الخلط بين الملك «منكاورع» وبين الملك «بوخريس» ملك سايس فى الاسرة الرابعة والعشرين •

ومنها أن التابوت الذى على هيئة بقرة ربما مرجعه أن الناس كانوا يرون صورا ورسوما على توابيت العصور المتأخرة ، ومن بينها مايمثل جثة الميت محمولة على ظهر بقرة ، ومنها أن الجبانة التى كان يجب أن تدفن فيها ابنة منكاورع (من كاورع) ، ان صح أن ينظر الى مثل هذه القصة ، انما هى جبانة الجيزة ، حيث مدافن الاسرة ، ولم يكن هناك من داع مطلقا الى نقلها الى سايس ، وليس من المقبول أن نتصور أن الاجيال قد احتفظت بتابوت ابنة منكاورع حتى أيام هيرودوت ، كما أنه ليس من المعقول أن يوضع تابوتها فى القصر الملكى ، ليحرق فوقه البخور ، وتضاء من حوله المصابيح[٣٠] •

وأخيرا منها (ثامنا) ذلك الافتراء الدنىء من هيرودوت حين صور «خوفو» ، وقد بلغ من سوء الخلق أقصى حد ، اذ أنه بعد أن نفـذت

= الحديث «صا الحجـر» ، على مبعدة ٧ كيلا شمال بسيون بمحافظة الغربية ، وقد سميت فى العصر الصاوى «حات انب حج» بمعنى قصر الحائط الابيض ، وهو اسم المقر الملكى فى منف •
انظر : محمد بيومى مهران ، الحضارة المصرية القديمة ص ١٧١ •
وكذا J. De Rouge, op. cit., p. 25.
وكذا P. Lacau et H. Chevrier, op. cit., p. 233.
(٢٩) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٥٧ — ٢٥٩ •
(٣٠) نفس المرجع السابق ص ٢٥٨ •

ذخائره واحتاج الى المال ، وضع ابنته فى ماخور لتحصل له على قدر من المال ، فحصلت له عليه ، بيد أنها رغبت أيضا فى أن يكون لها أثر خاص بها ، فكانت تطلب من كل رجل يزورها أن يهدى اليها حجرا ، وأنها شيدت من هذه الاحجار الهرم الذى يقع وسط الاهرامات الثلاثة، بجانب الهرم الاكبر[٣١] .

ومن البدهى أن أقل الناس حظا من معرفة أخلاق المصريين وسلوكهم ، وايمانهم بالقيم الانسانية ، واعتبارهم الزنا من كبائر الاثم ، التى يجازى مرتكبها بالموت ، لا يستطيع أن يصدق زعم هيرودوت الكذوب هذا ، ثم كيف يتفق هذا مع وصف هيرودوت لخوفو بالطغيان والجبروت ؟ أما كان فى استطاعة هذا الطاغية أن يجبر الناس على اكمال هرمه ، الذى يزعم هيرودوت أنه سخر الناس فيه عشرين سنه ، فضلا عن سنوات عشر فى طريقه الصاعد ؟ واذا لم يستطع ذلك ، أليست هناك وسيلة غير تلك التى يأباها أحط الناس ، وهو الملك المؤله ، والذى بلغت الملكية الالهية فى عهده ، قمة سطوتها ، وعنفوان قوتها ، فى تسلطها على شعبها ، وايمانها بنفسها ، وايمان شعبها بها .

وعلى أية حال ، فالرواية لا تستحق ، فيما أظن ، حتى مجرد التعليق عليها ، وان كانت تشير الى مستوى كاتبها ، أو على الاقل الى مستوى مصادره التى نقل عنها،فضلا عن شعوره نحو الملوك المصريين.

ثانيا : رواية مانيتو :

لعل مؤرخنا المصري الكبير قد وجد الكثير من الروايات التى تركها كهان «رع» ضد خوفو وأسرته ، كما رأينا من قبل من روايات هيرودوت وعلى أية حال ، فان رواية مانيتو عن السخرة وكراهية المصريين لخوفو،

(٣١) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

انما كان سببها الكره التقليدى الذى ورثه الكهنة جيلا بعد جيل لخوفو، ومانيتو ، كما هو معروف ، انما كان كاهنا قبل أن يكون مؤرخا .

ثالثا : رواية المؤرخين المسلمين :

اعتمد المؤرخون المسلمون على وصف القرآن الكريم لفرعون موسى بالطغيان والجبروت(٣٢) ، فضلا عن ادعائه الالوهية من دون الله(٣٣) ، وربما اعتمدوا كذلك على روايات التوراة ومسلمة أهل الكتاب ، والذين نشأوا على كره مصر والمصريين ، حتى أن بنى اسرائيل انما يعتبرون يوم خروجهم من مصر عيدا ، بل أكبر أعيادهم، وأعنى به «عيد الفصح» يحتفلون به كل عام فى الزابع عشر من ابريل (نيسان) ، ويسمون مصر «أرض العبودية» ، حيث أستعبد أسلافهم هناك .

غير أن طغيان الفرعون الذى عاصر موسى عليه السلام ، (والذى جاء بعد «خوفو» صاحب الهرم الاكبر ، بأكثر من ألف وخمسمائة عام) شيء ، وبناء الاهرامات بالسخرة شيء آخر ، ذلك أنه اذا كان الله ، سبحانه وتعالى ، قد وصف الفرعون الذى عاصر موسى ، فى القرآن الكريم ، بالطغيان والجبروت ، وتجاوز عن ذكر اسمه ، فاننا ــ والحمد لله ، نؤمن الايمان ، كل الايمان ، بما جاء فى كتاب الله الكريم ، كما نؤمن كذلك عن عقيدة ، لا تزعزعها السنوات الطوال ، ولا الخطوب الجسام ، بأنه «لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد»(٣٤) .

ولكن ليس من المنطق ، فضلا عن العدل ، أن نعمم صفات الفرعون الذى عاصر موسى ، على كل الفراعين المصريين ، والذين حكموا مصر قرابة آلاف ثلاثة من الاعوام (من الملك مينا حتى الاسكندر المقدونى=

(٣٢) انظر : سورة يونس : آية ٨٣ ، طه : آية ٢٤ ، ٤٣ ، ٧٩ ، الشعراء : آية ١١ ، القصص : آية ٤ ، الذاريات : آية ١٧ .
(٣٣) أنظر : سورة الشعراء : آية ٢٩ ، سورة القصص : آية ٣٨ ، سورة : النازعات : آية ٢٢ ــ ٢٤ .
(٣٤) سورة فصلت آية ٤٢ .

۳۲۰۰ ــ ۳۳۲ ق٠م) ، فالحكام فى كل زمان ومكان ، وأيا كانت ألقابهم، يظهر منهم الصالح والطالح ، والعادل والظالم ، شأنهم فى ذلك شأن بقية جنسهم من بنى الانسان ، ومن ثم فوجود فرعون عاصر نبى الله موسى عليه السلام(٣٥) ، ليس معناه أن كل الفراعين على شاكلته ٠

ثم ان اصطلاح ((فرعــون)) انما يعنى ، كما أشرنا فى أول هذه الدراسة ، ((حـاكم مصر)) ، وبدهى أنه ليس بالضرورة أن يكون كل حاكم لمصر ظالما جبارا ، كما أنه ليس بالضرورة أيضا ، أن يكون كل من يحمل لقب ((خليفة)) مثلا ، عادلا صالحا ، وكما فى عصرنا الحـاضر ، فان ألقاب رؤساء الدول قد لا تدل على نوع الحكم الذى يمارسونه مع شعوبهم ، وربما يكون كثير ممن يحملون أكثر الالقاب بريقا،وأشدها قربا من الشعب ، أكثرهم جبروتا وطغيانا ، وقد يكون العكس صحيحا٠

وفى الواقع ، فان المؤرخين المسلمين ، ومن تابعهم فى العصر الحديث من مرتزقة التاريخ ، أولى الناس بمعرفة تلك الحقيقة والا لحكموا على الخلفاء الراشدين ، الهداة المهديين ، رضـوان الله عليهم ، بل وحتى معاوية بن أبى سفيان ، مؤسس دولة بنى أمية ، بما حكموا به على ولده الطاغية الفاجر ((يزيد بن معاوية بن أبى سفيان))(٣٦) ، وهو الذى

(٣٥) انظر : عن اسم الفرعون الذى عاصر موسى ، والاراء التى دارت حوله ، وما يرجح من أنه (مرنبتاح) (محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الكتاب الاول ــ التاريخ ــ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٣٥٧ ــ ٤٣٩) ٠

(٣٦) لن ينسى التاريخ لهذا اليزيد ،الذى ابتلى به الاسلام والمسلمون، أنه قاتل آل النبى ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وعلى رأسهم مولانا الامام الحسين ، سبط النبى ، فى كربلاء ، وأنه الذى استباح مدينة سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، ثلاثة أيام ، تجرى فيها دماء الصحـابة والتابعين ، بيد السفلة من جيوش يزيد ، وأنه هو الذى استباح مكة المكرمة والمسجد الحرام ، ثم أن يزيد هـــذا ظل ، كما كان أبوه ، وكما سيكون خلفاؤه من الامويين (غير عمر بن عبـــد العزيز) يأمرون الناس بلعن سادة أهل بيت النبى الكرام ، وعلى رأسهم الامام على والامام الحسين ، على منابر المسلمين فى جميع أرجاء الدولة الاسلامية ، والعياذ بالله ، ثم يستفتون من يفتيهم من مرتزقة السلطان ، باهدار دمائهم ، وصواب عقابهم بما أصابهم ٠

خلفهم فى حكم المسلمين ، والعكس صحيح ، أعنى ، والا لحكموا على خلفـاء بنى أمية بالورع والتقوى ، والعـدل والاستقامة ، لان منهم الخليفة الراشد «عمر بن عبد العزيز» •

وهكذا تبدو رواية السخرة هذه ، ليست فوق مستوى الشبهات ، بل هى نفسها شبهة ، ألصقها هيرودوت ، بخوفو العظيم ثم عممت على كل الفراعين فى سياستهم البنائية الدينية ، دون أن يكون لها نصيب من صواب •

(٢) نظرية القضاء على البطالة

هناك وجه آخر للنظر ، يذهب أصحابه من المؤرخين المحدثين الى أن ذلك العمل الهائل الذى كان يستلزمه بناء الاهرامات الضخمة ، نوع من الاحسان الاستبدادى يقوم به الفراعين نحو رعاياهم ، ذلك أن بناء الهرم انما كان يتم فى وقت الفيضان ، حين لم يكن هناك عمل زراعى يقوم به الفلاحون ، لان المياه كانت تغمر الاراضى ، وكانت الاماكن التى يعيشون فيها تشبه الجزر ، وكان أجرهم اطعامهم وكساءهم،وكان العمال العاطلون يقطون الاحجار من منطقة الهـرم نفسها ، وأحجار الكسوة من طره ، ويأخذون لقاء ذلك خبزهم وكساهم ، وليس فى هذا لون من ألوان السخرة والاستبداد(٣٧) •

وهكذا كان الملك يتوسع فى اقامة منشآت عامة ، أهمها هرمه ، فى زمن بطالة الفلاحين أيام الفيضان ، فيهيىء بذلك عملا لآلاف الفلاحين، فى مقابل أن تقوم الدولة بايوائهم وتغذيتهم وكسوتهم على نفقتها •

غير أن هناك من يعارض هذا الرأى القائل بأن تشييد الاهرام ، ليس الا مشروعا لانقاذ آلاف الناس من البطالة ، ويرى أنه رأى غير

= أنظر : محمد بيومى مهران : الامام الحسين ـ سبط النبى وسيد شباب أهل الجنة .

(٣٧) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٦٨ ـ ١٦٩ .

معقول أو مقبول ، لأنه رأى حديث جدا[٣٨] .

والرأى عندى أنه ليس هناك ما يمنع قبوله ، وان كنا لا نملك أدلة تؤيده ، فضلا عن أننا انما نحكم على أحداث مضت عليها قرابة آلاف خمسة من السنين ، بمقاييس عصرنا الحاضر ، على أننا فى الوقت نفسه، انما نحرم الفرعون ، بمعارضتنا لهذا الاتجاه ، من العمل لصلحة شعبه، وهو أهم واجبات الفرعون ، لا بحكم رياسته للدولة ومسئوليته عن رفاهية شعبه فحسب ، بل بحكم كونه ملكا مؤلها أيضا ، فقد كان الملك يتقيد فى سياسته بتعاليم «الماعت» وهى الهة رمز المصرى بها الى كل المثل العليا التى يجب على الحاكم أن يرعاها فى تنفيذ سياسته فى الحكم ، وهى العدل المطلق والصدق الكامل والرحمة ، والقسوة مع المذنب ، وكانت هذه المعانى هى الرائد لكل ملك ، وهى الاطار الذى يتحرك فيه كاله عاش بين الناس يحكمهم ، ويوجههم الى الخير ، ويمنعهم عن الشر[٣٩] .

بل ان ألوهية الملك انما كانت مرتبطة الى حد كبير بتقدم البلاد وازدهارها ، وليس بالعوامل الجغرافية فيها ، وأنه فى أية فترة من الفترات التى كان يضعف فيها الحكم كان القطران (الصعيد والدلتا) ينفصلان بعضهما عن البعض الاخر ، ولم يمسك عليهما وحدتهما ، الا أعتمادهما المشترك على مياه النيل[٤٠] .

وبدهى أنه ليس هناك ما يمنع الفرعون من العمل على رفاهية شعبه ، وايجاد عمل لآلاف الشباب العاطلين فى أيام الفيضان ، وخاصة فى عصر كانت الزراعة فيه هى الحرفة الاساسية ، ان لم تكن الوحيدة،

(٣٨) J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 84.

(٣٩) الموسوعة المصرية ١/١١٧ .

(٤٠) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1962, p. 45-46.

فى القرية المصرية • وفى نفس الوقت ، فان الفرعـون يستفيد بوقت فراغ القادرين على العمل فى بناء هرم له •

وحتى يثبت ذلك ، فـرأى عندى أن استمرار بناء الاهرام حتى نهاية الدولة القديمة انما يجعل الباحث المنصف يتردد كثيرا فى قبول وجهة النظر هذه ، حتى أننا نرى فى الاسرة السادسة ، كما سنفصل فيما بعد ، أن الملوك ، رغم ضعفهم ونقص موارد الدولة على أيامهم ، يسيرون على سنة الدولة القديمة من أسـلافهم من الفراعين العظام فى بنـاء أهرامات يدفنون فيها ، بل ان الملك «ببى الثانى» ، والذى وصلت البلاد فى عهده الى مرحلة تنذر بالخطر ، لم يكتف ببناء هرم له ، وانما بنى ــ الى جانب مجموعته الهرمية ــ أهراما ثلاثة لثلاث ملكات من زوجاته وهن : «نيت» و «ابيوت» و «أوجبتن» ، مما كلف الدولة ما لا تطيق ، وكان ذلك واحدا من أسباب الثورة الاجتماعية الاولى ، وان كان عهد خوفو وخفرع ، يختلف كثيرا عن عهد «ببى الثانى» ، مما يجعـل بناء الاهرامات فى عهديهما يختلف عنه فى عهد خلفائهم الضعاف ، من حيث قوة الملوك ، وموارد الدولة ، على الاقل •

ومع ذلك تبقى هذه النظرية مجرد فرض ، حتى تمدنا الوثائق بما يؤيدها ، أو يقف حائلا دون قبولنا لها •

(٣) النظـرية الدينيـة

هناك وجه ثالث للنظر ، يذهب أصحابه الى أن الملك المصرى انما كان الها فى نظر شعبه[٤١] ، كان الها كغيره من الآلهة الذين فى السماء ، ولكنه رضى أن يعيش على الارض ليحكمها ، ويسعد النـاس بوجوده بينهم ، فـاذا تذكرنا ذلك ، وتذكرنا أن المصرى كان شـديد التدين ، لادركنا أنه كان يسر الكثير من الناس ، وبخاصـة أولئك الذين كانوا

(٤١) أنظر : عن «نظريه الوهية الملك فى مصر» (محمـد بيومى مهران ــ الحضارة المصرية القديمة ــ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ٩٩ ــ ١١٥) •

يعيشون فى القرى النائية بعيدا عن المدن ، أن تتاح لهم فرصة على أيام الفيضان ، وفى أيام الضيق المادى ، وفى الوقت ذاته ، ليزوروا العاصمة التى طالما سمعوا عن عجائبها ، ويمتعوا الطرف بالنظر الى معابد الآلهة وقصور العظماء ، وكان يسرهم دون شك أن يساهموا فى عمل شىء لالههم الملك عسى أن يكون فيه قربى ورحمة بهم ، وكان يسر الفقراء من عامة الشعب أن يضمنوا عدم الحاجة طيلة أيام اقامتهم فى العاصمة(٤٢) .

وقد آمن المصريون بأن الملك اله كغيره ، أقام فى مصر ليحكمها ، ويسعد المحكومين فيها ، كما آمنوا بأنه يستحق قربانا عظيما يقدمونه اليه بجهودهم ، فاذا أضيف الى ذلك أن المصرى كان ولايزال انسانا متدينا بطبعه ، فيجب علينا أن نعيد النظر فى موضوع السخرة هذا ، وعلينا أن ننحوا نحوا آخر فى تفسير بناء الاهرامات .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى حقيقة هامة ، دينية وتاريخية ، قبل أن نقدم التفسير الدينى لبناء الاهرام ، تلك الحقيقة أن القرآن الكريم انما حدثنا فى قصة موسى مع فرعون عن «الملكية الالهية فى مصر الفرعونية» ، وأوضح أن ألوهية الفرعون انما كانت موضع جدل شديد بين النبى الكريم والملك الفرعون ، بل ان تلك الالوهية المزعومة انما كانت الصخرة التى تحطمت عليها كل أوجه التقارب بينهما ، بل ان الفرعون انما يهدد النبى نفسه «لئن اتخذت الها غيرى لأجعلنك من المسجونين»(٤٣) ، ثم يعلن للناس عامة «ما علمت لكم من اله غيرى»(٤٤) وعندما يتقدم له موسى بآيته الكبرى ، ما كان منه الا أن رفض الدعوة كلها «ثم أدبر يسعى ، فحشر فنادى ، فقال أنا ربكم الأعلى»(٤٥) .

---

(٤٢) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ص ١١٣ .
وكذا J. A. Wilson, op. cit., p. 73.
(٤٣) سورة الشعراء : آية ٢٩ .
(٤٤) سورة القصص آية ٣٨ .
(٤٥) سورة النازعات : آية ٢٢ — ٢٤ .

ثم هناك أمر آخر ، يتصل بواجبات الملك نحـو شعبه فى الحياة الاخرى ، ذلك أن المصريين انما كانوا يعتقدون أن الملك المؤله لا يمكن أن يموت ، وانما يبدأ حياة خارقة للطبيعة ، حياة يكون فيها الوسيط بين الاموات من الناس وبين الآلهة ، فيظل الحامي والشفيع الذى يرعى الموتى ، كما كان يرعى الاحياء •

ومن هنا جاءت لهفة القوم على تشييد مقابر ضخمة للمحافظة على جثة الملك من كل أذى ، ولتهيىء له وسائل خاصة ملائمة وخالدة ، وأن مقابر ملوك عصر التأسيس فى سقارة وأبيدوس ، انما تشهد على أن المصريين منذ عهد الاسرة الاولى كانوا يعلقون أهمية كبرى على شفاعة الملك الميت لهم عند الآلهة(٤٦) •

وانطلاقا من كل هذا فعلينا ، حين نناقش النظرية الدينية أو التفسير الدينى لبناء الاهرام ، أن نتذكر أن الفيضان انما كان يغمر الاراضى ويجعل الفلاحين بدون عمل ، فاذا صح من أن أهل القرى النـائية ، يأتون ابانه لزيارة معابد الآلهة للتبرك ، أو ربما كان ذلك من شعائر دينهم(٤٧) ، ان صح ذلك ، وليس هناك ما يمنع صحته ، فان القادمين قد أدوا واجبهم نحو الآلهة ، انما بقى أمامهم واجب يؤدونه نحـو الاله الجالس على العرش ، وكان هذا الواجب هـو المشاركة فى بناء مقبرة الاله الملك •

---

(٤٦) عبد المنعم عبد الحليم : حضارة مصر الفرعونية ـ الاسكندرية ١٩٧٧ ص ٤٠ ـ ٤١ •

(٤٧) حاول بعض الباحثين فى علوم اللاهوت والاجتماع والاثار : أن يحصروا الدين فى نطاق الاديان المستندة الى الوحى السماوى ، والتى تتخذ معبودا واحدا ، هو الخالق المهيمن على كل شىء ، ومن ثم فالديانات الطبيعية المستندة الى محض العقل ، والديانات الخرافية التى هى وليدة الخيالات والاوهام ، وكل ديانة تقوم هى أو جانب منها على عبادة التماثيل أو عبادة الحيوان أو النبات أو الكواكب أو الجن أو الملائكة ••• الخ ، تخرج بمقتضى اتجاهات هؤلاء الباحثين عن أن تكون دينا ، مع أن القرآن الكريم قد سماها دينا ، وذلك حين يقول سبحانه وتعالى «ومن يبتغ غير الاسلام دينا فلن يقبل منه ، وهو فى الاخرة من الخاسرين» بل أن =

وربما يبدو ذلك خيالا بالنسبة للغربيين ، وربما كان كذلك بالنسبة لسكان المدن عندنا ، وربما لأولئك الذين لا يؤمنون بتفسير التـاريخ تفسيرا للروحانيات شأن فيه ، ولكن الامر يختلف كثيرا بالنسبة لسكان القرى ، والذين شيد أسلافهم هذا الطود الشامخ وغيره من آثارنا ، فلايزال أبناء القرى يتسابقون حتى الان ، ان دعى الداعى الى بنـاء بيت من بيوت الله ، يتساوى فى ذلك العالم والجاهل ، الغنى والفقير، الحاكم والمحكوم ، الشيوخ والشباب ، ثم هناك مثل آخر ، نأخذه من تحمل المشـاق فى زيارة الاماكن المقدسة — فى مكة المـكرمة والمدينة المنورة — وانفاق المال عن رغبة ، وان كان صاحبه على غير ميسرة •

ومن البدهى أن كل ذلك وغيره كثير ، ان دل على شىء ، انما يدل على رسوخ العقيدة الدينية فى النفوس ، والايمان الكامل بأن فى ذلك قربى الى الله سبحانه وتعالى ، واذا كنا نفعل ذلك فى القرن العشرين بعد الميلاد ، هـذا القرن الذى طغت فيه على أذهـاننا فلسفة المادية ومنطقها ، فلماذا نرفض الشىء نفسه ، ان أتى من المصريين القدامى ؟ مع الفارق بالطبع بين عقيدتنا وعقيدتهم ، أعنى أننا — والحمد لله — نؤمن بالله الواحد الاحـد ، وهم يؤمنون بألوهية فرعـونهم ، الاله العظيم أو الاله الطيب ، ابن رع ، كما يسمونه ، أو كما يسمى هـو نفسه ، كما تقول النصوص المصرية القديمة •

بل ان هناك مثالا نقدمه من خارج مصر ، من بلاد العرب ، لهؤلاء الذين يكرهون مصر ، ولايرون فى كل تاريخها — وخاصة القديم منه — الا الكفر والبهتان ، والا الظلم والطغيان ، وكأن العالم وقت ذاك كان كله ، غير مصر ، يدين بعقيدة التوحيد ، ويحكم بشريعة الاسلام ،

= القرآن الكريم انما يسمى معتقدات الاخرين دينا ، حتى أن كان هذا الدين هو الكفر ذاته ، وذلك حيث يقول : «لكم دينكم ولى دين»
انظر : سورة آل عمران : آية ٨٥ ، سورة الكافرون : آية ٦ ، محمد عبد الله دراز : الدين — القاهرة ١٩٦٩ ص ٢٥ — ٣٥ ، محمد بيومى مهران : الديانة العربية القديمة — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٦ — ٩ •

ويعيش الناس فيه جميعا ، سواسية كأسنان المشط ، كلهم لآدم ، وآدم من تراب .

وأما المثال ، فهو اعادة بناء الكعبة المشرفة فى عام ٦٠٥م أو ٦٠٦م، وقبل البعثة النبوية الشريفة بخمس سنوات ، بعد أن جرف مكة سيل عرم ، انحدر الى البيت الحرام ، فأوشكت الكعبة منه على الانهيار ، فلم تر قريش بدا من أن تجدد بناءها حرصا على مكانتها ، وتذهب الروايات الى أن القرشيين انما كانوا يصرون على أن يبنوا البيت الحرام من كل طيب ، حتى قال قائلهم ((يا معشر قريش لا تدخلوا فى بنيانها من كسبكم الا طيبا ، ولا تدخلوا فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس)) كما أصر القوم على ألا يشترك فى البناء غير سادة قريش ورجالاتها الكبار ، ذلك لان بناء رفع ابراهيم واسماعيل عليهما السلام من قواعده قبل قرون سحيقة ، لا يوكل أمره الى صغار الفعلة ، ولا الغرباء ، ومن ثم فلا غرو اذ أقبل على البناء الشيوخ وأهل السن والصدارة ، وعلى رأسهم السادة من بنى هاشم ، رهط النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وقد اشترك سيدنا رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بنفسه وأعمامه فى البناء(٤٨) .

ولعل سائلا يتساءل : ما علاقة بناء الكعبة ببناء الهرم ؟

والجواب : أن العلاقة دينية ، فالكعبة(٤٩) عند قريش بيت الله بناه أبيهم ابراهيم عليه السلام ، فهى مقدسة عندهم ، غير أن الكعبة وقت

(٤٨) أنظر : تاريخ الطبرى ٣٨٧/٣ – ٢٩٠ ، تاريخ ابن الاثير ٤٤/٢ – ٤٥ ، البداية والنهاية لابن كثير ٢٩٩/٢ – ٣٠٤ ، سيرة ابن هشام ١٩٥/١ – ١٩٩ ، طبقات ابن سعد ٩٣/١ – ٩٥ ، تاريخ الخميس ص ١٢٦ – ١٣١ ، أخبار مكة للازرقى ١٥٧/١ – ١٦٤ ، المقدسى : كتاب البدء والتاريخ ١٣٩/١ – ١٤٠ ، ياقوت الحموى ٤٦٦/٤ ، مروج الذهب للمسعودى ٢٧١/٢ – ٢٧٢ .

٤٩) قدم المؤلف دراسة متصلة عن الكعبة .
أنظر : محمد بيومى مهران : دراسات تاريخية من القرآن الكريم – الجزء الاول – الرياض ١٩٨٠ ص ١٨١ – ٢٣٥ .

ذلك انما كانت ملجأ للاصنام ، حتى أن سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، انما وجد بها يوم فتح مكة عام ٨ هـ (٦٣٠ م) ٣٦٠ صنما ، ذلك أن قريشا رغبة منها فى اجتذاب القبائل العربية ، أجازت للقبائل أن تنصب أصنامها عند الكعبة ، فكان لكل قبيلة أوثانها تأتى فى الموسم لزيارتها وتقديم القرابين لها(٥٠) •

فالامر اذن أمر عقيدة يفسرها الناس فى كل عصر حسب ايمانهم بها ، وعلى قدر تمسكهم بشعائرها ، فلا غرابة اذن أن يبنى المصريون القدامى للملك هرما ، حتى ولو كان هذا الهرم هو «هرم الجيزة الاكبر» ، ذلك لأن الملك كان يعتبر الها على قدم المساواة والآلهة الاخرى ، وانه يمثلهم على سطح الارض ، وأنه فى مماته يحكم الآلهة والبشر ، وأن جسده مقدس ، وأنه روح الدولة وقوامها •

هذا فضلا عن أن خوفو وخفرع كان لهما فوق ذلك ، من قوة الشخصية وحسن الادارة ، ما رفع من شأنهما لدى الشعب وزاد فى تقديسهما ، وكانت خزائن الدولة مليئة مما كان يسمح بالصرف ، كساء وغذاء ، على أعداد جمة من الفنانين والعمال فى وقت ساد فيه الامن والسلام فى البلاد ، وقد توفر أنذاك من البنائين والفنانين والعمال المدربين عدد وافر اكتسبوا خبرة ممتازة فيما أنشأوا من قبل من منشآت ، وكان النيل يغمر الحقول ثلاثة أشهر طوال كل عام ، ولم يكن الفلاحين والعمال خلالها من عمل يذكر •

وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة خوفو وخفرع فى أن ينشئا هرميهما ، وقد تفانى العمال والفنانون عن عقيدة وايمان فى بناء كل منهما ، باعتباره عملا دينيا وسياسيا معا ، فيه ما يحفظ على الدولة

(٥٠) انظر : تاريخ اليعقوبى ٢٥٤/١ - ٢٥٥ ، الروض الانف للسهيلى ٢٧٦/٢ ، أخبار مكة للازرقى ١٣٠/١ - ١٣١ ، ابن الكلبى كتاب الاصنام ص ٢٧ - ٢٨ ، محمد بيومى مهران : تاريخ العرب القديم - الرياض ص٤٢١ - ٤٢٢ •

نظامها وقوامها[51] .

وانطلاقا من كل هذا ، فانني أميل الى أن بناء الأهرام ، انما كان عن عقيدة ، ولم يكن عن سخرة ، وهذا لا يمنع من أن الملوك قد انتفعوا بالقوى المعطلة على أيام الفيضان ، فاختاروه وقتا لبناء أهراماتهم ، على أن يؤدوا للعاملين فيها طعامهم وكساءهم ، وأما القول بأنه كان من الافضل استغلال هذه الجهود — البشرية والمادية والفنية — فى عمل عام ينتفع به المصريون جميعا فهذا ما كنا نأمله ، وليس كل ما يتمنى المرء يدركه ، ثم انه من الخطأ الحكم بمقاييس عصرنا ، على عصور مضت منذ خمسة آلاف عام .

(٥١) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

الفصل الثالث

التنظيم الادارى

كان الاساس الاجتماعى والسياسى الذى قامت عليه الحضارة المصرية القديمة هو التأكيد ، كل التأكيد ، بأن مصر يحكمها «اله» وأن هذا الاله الجالس على العرش ، غير محدود المعرفة والمقدرة ، وأنه عليم بكل ما يدور فى البلاد ، وأن مصر — بمن فيها وما فيها ملك يمينه، ومن هنا كانت السلطات فى الدولة القديمة — أو على الاقل حتى النصف الثانى منها — تتركز بشكل واضح فى يده ، وقد باشر الملوك — وبخاصة الاوائل منهم — سلطاتهم بصورة تكاد تكون فعلية •

ومع ذلك فهذا الوضع غير معقول من الناحية العملية ، ذلك لان الملك لن يستطيع وحده أن يتحمل مسئوليات الحكم الادارية والقضائية والدينية فى جميع البلاد ، ومن ثم فقد استعان بجمهرة من الموظفين لينوبوا عنه فى تلك الاعمال ، وليؤدوا ما فرض عليهم من واجبات •

ويشبه «جون ويلسون» الدولة والمجتمع حينئذ بالهرم ، فيضع فى أعلى الهرم هرم صغير مستقل ، ويرى هذا الهريم الحجرى ممثلا للملك الذى يحكم فوق وزرائه،الذين كانوا بدورهم فوق حكام الاقاليم، الذين كانوا فوق عمد البلاد والقرى ، ومن الناحية الاجتماعية كان فرعون فوق النبلاء ، الذين كانوا بدورهم فوق خدام الاراضى ، أما عن التنظيم الدينى للدولة ، فكان فرعون هو حلقة الاتصال الوحيدة مع الالهة ، وكان فوق الكهنة الذين كانوا بدورهم فوق الشعب •

وهذه التشبيهات الهرمية ليست فى الحقيقة الا شيئا واحدا ، لان

كبار الموظفين والنبلاء وكبار الملاك والكهنة كانوا فى درجـــه واحدة . لأنهم انما كانوا يكونون الطبقة التى تلى فرعون مباشرة ، وكان ينيبهم عنه فى تأدية المهام الخاصة به على وجه التحديد(١) .

وهكذا كان ــ بجانب الملك ــ عدد من الموظفين لادارة الوظـــائف المدنية والحربية والقضـــائية والدينية ، وكانوا ينالون ــ بادىء ذى بدء ــ غذاءهم وكساءهم ، فى مقابل ما يؤدون للملك الاله من خدمات، ثم تطور هذا الاجراء بمنحهم بعض الاراضى بما فيها ومن فيهـــا من الفلاحين ، وحـــين بدأوا يحسون بقوتهم تطلع كبـــارهم الى توريث مناصبهم وأملاكهم لابنائهم من بعدهم ، وقد كان لهم ذلك ، حين بدأت الملكية تضعف ، وأصبح لا مناص لها من الالتجاء اليهم لحمايتها من الانهيار ، ولكن الذى حدث غير ذلك ، اذ أن هذه الوسيلة انما كانت احدى عوامل الانهيار التام .

وكان الهيكل الادارى العام فى مصر يتكون من :

١ ــ الوزير : كان منصب الوزارة هو أعلى المناصب وأسماها،وكان منتهى كبار الموظفين طوال العصور الفرعونية ، كما أن الوزير انما كان أكثر موظفى الدولة محبة فى نفوس الشعب : اذ كان ــ فيما يعتقد القوم ــ هو الشخص الوحيد الذى يقيم الحق ، ويمحق الباطل ، وقد اتفق المؤرخون على أن هذا المنصب انما قد وجد بصورة فعلية فى مصر القديمة ، فيما بين العهد الثينى والاسرة الرابعة،وان اختلفوا فى الاسرة التى بدأ فيها ، فبينما يرجعه البعض الى العهد الثينى : يذهب آخرون الى أنه قد بدأ منذ عهد الاسرة الثالثة،حين اختار ((زوسر)) ((ايمحوتب)) وزيرا له ، على أن هناك فريقا ثالثا انما يرجعه الى الاسرة الرابعة(٢) .

وكان الوزير واحدا من أبناء الملك فى الاسرة الرابعة ، وكان من

(١) J. A. Wilson, op. cit., p. 73.

(٢) أنظـــر ايتين دريوتون وجاك فانديبه : المرجـــع السابق ص ١٩٨ ــ ١٩٩ ، أدولف ارمان وهرمان رانكة : مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة ــ ترجمة عبد المنعم ابو بكر ، ومحرم كمال ــ القاهرة ١٩٥٣ ص ٧٩ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣١ .

بين ألقابه الهامة «كاهن تحوت» ، ومن أشهر وزراء ذلك العهد ابنى سنفرو (كانفر ونفر ماعت) ثم ابن «نفر ماعت» ويدعى «حميون» ، وكذا «نيكاورع» بن «خفرع»[٣] ، ويذهب «جورج رايزنر» الى أن الملوك انما جعلوها فى أكبر أبناء الملكات الثانويات تعويضا لهم عن وراثة العرش ، وارضاء لأمهاتهم[٤] .

وتسير الاوضاع الاجتماعية والسياسية فى سبيل التطور المحتوم خلال عصر الاسرة الخامسة ، ويرى ملوكها أنهم يعملون فى ظروف تختلف بعض الشيء عن الظروف التى عمل فيها أسلاف لهم من الملوك الاقوياء ، أو الآلهة العظام ، فيزيدون — مكرهين لا راغبين — من التزاماتهم المادية نحو أفراد الطبقة العليا ، ويسمحون لكبار أفرادها بتولى منصب الوزارة ، أكثر مناصب الدولة ، بل تكاد تكون مقصورة على هذه الطبقة ، اذا استثنينا الاميرين «سخم كارع» و «نفر سشم — سشات» اللذين توليا هذا المنصب من الامراء ، ولعل أشهر من لمع من وزراء الشعب فى عهد الاسرة الخامسة ، انما كان الوزير «بتاح حوتب»[٥] ، صاحب التعاليم المشهورة[٦] .

هذا وقد كان من ألمع وزراء الاسرة السادسة الحكيم المشهور

(٣) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٩ ٢
(٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣١ .
وكذا G. A. Reisner and W. S. Smith, A History of The Giza Necropolis, II, The Tomb of Hetep-Heres, Cambridge, 1955, p. 9.
(٥) اختلف المؤرخون فى وظيفة «بتاح حوتب» ، فذهب البعض الى أنه كان مربيا للملك «جد كارع» (اسيسى) ورائدا له . وعما له ، أما وزيره فهو «سنزم ايب» ، وذهب آخرون الى أنه وزيره ، بينما ذهب فريق ثالث انما كان وزيرا للملك وناس ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٩٤ ، عبد المنعم أبو بكر . تاريخ الحضارة المصرية — العصر الفرعونى ص ١١٣ ، عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٦ .
وكذا James Henry Breasted, A History of Egypt, New York, 1946, p. 129.
(٦) أنظر : A. Weigall, op. cit., p. 17-48.
وكذا Z. Zaba, Les Maximes de Pathotep. Paris, 1965.

((كاجمنى))[٧] ، هذا فضلا عن الوزير ((زعو[٨])) ، والذى كان فى فترة وزارته : يكاد يكون صاحب النفوذ الاول فى البلاد ؛ خاصة فى الفترة التى كان فيها ابن اخته الملك ((ببى الثانى)) طفلا ، وكانت أمه وصية عليه ، وعندئذ خلا الجو للوزير ((زعو)) ليفعل ما يريد ، وليمارس سلطة كانت من حق الفرعون ، دون سواه ، وذلك لان الجالس على العرش فى منف انما كان طفلا ، وكانت الوصية عليه شقيقة الوزير نفسه •

كان الوزير رأس الادارة المركزية ، والثانى بعد الملك ، كما أنه كان حلقة الاتصال بين الملك وموظفيه ، وكانت ترسل اليه تقارير الادارة المحلية ثلاث مرات فى العـام ، كما أصبح الوزير محـافظا للعاصمة ، ورئيسا للبلاط وللديوان الملكى ، ويتولى الاشراف الاعلى على الخزائن ، وشون الغلال ، وعلى المنشآت العامة ، والاشغال المعمارية الكبرى ، ويتولى الاشراف الاعلى على دور القضاء ، ودور المحفوظات ، ودور السلاح •

وكان منذ الاسرة الرابعة ـ يحمل لقبا قضائيا يجعله ((كبير خمسة دار تحوت)) ، وربما بمعنى كبير الرؤساء القضائيين الذين ينسـبون عدالتهم الى ((تحوت)) رب العدالة والحساب والكتابة ، ثم تلقب فى عهد الاسرة الخامسة بلقب ((خادم العدالة)) وهو لقب عبروا عنه من الوجهة الدينية بعبارة ((حم ماعت)) أى ((كاهن ماعت)) ربة العدالة ، ولقب ((رئيس الدور الست)) أو ((رئيس الدواوين الكبيرة))[٩] •

---

(٧) A. H. Gardiner, The Instructions Addressed to Kagemni and his Brethren, JEA. 32, 1946, p. 71-4.
وكذا B. Gunn, The Instructions of Ptah-Hotep and The Insturctions of Kegemni, London; 1918.
(٨) A. H. Gardiner, Was The Vizier Djau on of Six Brothers, ZAS, 79, 1954, p. 95-96.
(٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٣ •
وكذا PSBA. XIII, p. 121 F.
وكذا A. Weil, op. cit., p. 10-12.

ولم يكن بين وظائف الدولة العالية فى جميع عصور التاريخ المصرى القديم ، ما هو أعز عند الشعب ، وأحب الى قلبه من وظيفة الوزير ، وكان الشاعر اذا وصف قصر الملك لم ينس أن يضيف الى وصفه أن فيه «وزيرا يتولى الحكم عطوفا على مصر» فاذا تكلم عن الاله آمون، لم يجد ما يذكره عنه خيرا من أن يقول انه «عطوف على التعساء ، كوزير طيب القلب»[١٠] .

٢ ـ حكام الاقاليم : وكان الملك يعين على رأس كل اقليم حاكما ، يقوم بكل النشاط الحكومى فى اقليمه ، هذا وترجع نشأة وظيفة حاكم الاقليم الى أن مصر ، انما كانت مقسمة الى مقاطعات حتى قبل ذلك العهد ، وكان المصريون يعتمدون على الزراعة ، وعلى فيضان النيل الذى كان يتوقف عليه نظام الرى ، ومن ثم فمن الطبيعى أن تبلغ طريقة الرى درجة الكمال بسرعة فائقة ، مادامت موضع عنايتهم من قديم فحفروا الترع والقنوات وأقاموا الجسور ، وقد استدعى ذلك وجود موظف يشرف على هذه الاعمال ، ليقوم بالتفتيش على هذه القنوات ، والمحافظة عليها وعلى تطورها .

ولعل أصل وظيفة حاكم المقاطعة انما قد بدأت منذ العهد الثينى ، حيث نرى منذ هذا العهد ظهور لقب «عدج مر» ومعناه المشرف على حفر القنوات ، وهو اللقب الرسمى لحكام المقاطعات عند ابتداء الدولة القديمة[١١] ، ويظهر أن أصحاب هذا اللقب انما كانوا أيضا حكاما للاقاليم ، وترجع نشأته ـ فيما يرى أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر ، طيب الله ثراه ـ الى أن بعد هذه الاقاليم عن العاصمة يحتاج الى رئيس مقيم فيها لتصريف الامور فى مدنها والاراضى التى تجاورها،

(١٠) أدولف ارمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٧٩ .
وكذا A. Weil, op. cit., p. 182.
(١١) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ١٤٠ .
وكذا A. H. Gardiner, Egyptian Grammar, 1960, p. 559.

ومن ثم فقد كان الملك يعين عليها حكاما من قبله، يكونون مسئولين أمامه(١٢) .

وكانت ألقاب حكام الاقليم كثيرة ، منها اللقب القديم ((عدج مر)) بمعنى المشرف على حفر القنوات ، ومنها لقب ((زاب)) بمعنى القاضي أو المحترم ، ولقب ((سشم تا)) بمعنى موجه الارض أو مديرها ، ولقب ((حقا حت)) بمعنى حاكم القصر ، أو متولى زمامه ، أو بمعنى رئيس القرية ، ومن ثم فالقصر هنا ، هو قصر الحكم والادارة في الاقاليم وليس القصر الملكي (حتا حت عا) ، وهناك كذلك لقب ((كاهن ماعت))، وماعت هي الهة الحق والعدالة ، ولما كان القضاء في الاقاليم يخضع للحكام ، فهم رؤساء المحاكم وما يتصل بها من ادارات قضائية محلية، ومن هنا فقد اعتبروا كهنة لها ، كما حمل بعضهم لقب ((كاهن حقت)).

هذا وقد عرفت الدولة القديمة — الى جانب حكام الاقاليم — عددا من كبار الشخصيات ، حملوا لقب ((ور مج شمعو)) ، وهو لقب مايزال بعد غامض القراءة والمدلول،فهو قد يترجم بمعنى ((كبير عشرة الصعيد)) أو ((أحد كبار عشرة الصعيد)) ، وربما يدل على عشرة يكونون المجلس الاستشارى للوزير ، فيما يختص بشئون الصعيد وقضاياه ، ولعل مما يؤيد وجهة النظر هذه ، أن الوزراء انما كانوا يحملون ألقابا تدل على رياستهم لهذا المجلس ، كما حمل بعضهم لقب ((مفتش عشرة الصعيد الكبار))،وحمل آخرون لقب ((المشرف على بيوت عشرة الصعيد))، أو هو يدل على عشرات (مجو) ، وليس عشرة فقط ، ولعل مما يدفعنا الى هذا القول ظهور لقب ((كبير عشرة القصر)) ، و ((كبير عشرة عين شمس))(١٣) .

---

(١٢) عبد المنعم ابو بكر : المرجع السابق ص ١١٧ .

(١٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٧٥ .

وكذا Urk., I, 1932, p. 281.

وكذا A. Weil, op. cit., p. 19.

وأيا ما كان الامر ، فلقد كان حكام الاقاليم يشرفون على كل النشاط الحكومى الادارى فى أقاليمهم ، فكانوا يشرفون على جمع الضرائب فضلا عن شئون الزراعة ، اذ كان عليهم أن يحصلوا من الارض بالوسائل المناسبة على أحسن غلة ممكنة ، وهذا يقتضى حفر الترع واقامة الجسور ، وغير ذلك من وسائل تنمية الزراعة والمحصول ، وبذا يمكنهم أن يساهموا فى الثراء العام للبلاد ، وعلى الاخص ثراء الخزانة الملكية، كما كان عليهم كذلك أن يدونوا ارتفاع فيضان النيل •

وكان حكام الاقاليم مسئولين عن الامن ، وتنظيم جمع الافراد لتجنيدهم وارسالهم فى حملات لصد ما قد يتهدد الحدود ، كما كانوا يقومون بدور الوسيط بين الحكومة المركزية وبين رعاياهم ، فكانوا يتلقون أوامر الملك ومراسيمه، ثم يذيعونها بين الناس من سكان أقاليمهم، ومن ثم فقد لقبوا أنفسهم «بالمستشار للاوامر الملكية» كما كانوا يرأسون محاكم الاقاليم ، وما يتصل بها من ادارات ، فقد كانت هناك فى الاقاليم محاكم محلية ، تقوم بمحاسبة الزراع ، ومحاكمة الموظفين — حتى حكام الاقليم نفسه — اذا قاضاهم أحد من أفراد الشعب أصابه ضرر من تصرفاتهم الادارية ، أما من الناحية الدينية فقد جرت العادة على أن يكون أمراء الاقاليم فى الوقت نفسه ، كبارا لكهنة الاله الرئيسى فيها(١٤) •

كانت الحكومة الفرعونية فى عهد الثينى ، وفى النصف الاول من الدولة القديمة ، تسير على نظام المركزية المطلقة ، فجعل منها ذلك ادارة رخوة غير متماسكة ؛ بمعنى أنه كلما كان الجالس على العرش فى منف قوى البأس ، كان حكام الاقاليم موظفين لديه يعملون بوحى منه ، ويبقون فى وظائفهم ماداموا حائزين على رضائه الالهى ، فاذا ما حدث

---

(١٤) أدولف أرمان وهرمان رانكه : المرجع السابق ص ٧٨ ، سليم حسن : مصر القديمة : الجزء الثانى ص ٦ ؛ محمد أنور شكرى : حضارة مصر والشرق القديم — حضارة مصر ص ١١٣ •

العكس ، وتراخت سلطته ، انتهز حكام الاقاليم الفرصة وتصرفوا بوحى من أنفسهم . واعتبروا أقاليمهم دويلة صغيرة للحاكم فيها ما للفرعون من سلطات وحقوق ، الامر الذى رأيناه فى النصف الثانى من الدولة القديمة ، والذى أدى آخر الامر — بجانب عوامل أخرى — الى اضعاف تلك الحكومة القوية التركيز ، ثم انهيار الدولة القديمة نفسها ، وقيام الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة(١٥) .

كان حكام الاقاليم حتى منتصف الدولة القديمة موظفين لدى الملك الاله ، يعملون بوحى منه ، ويتصرفون فيما أوكل اليهم من أمور ،حسب رغبته ، يتساوى فى ذلك من كانت أقاليمهم على مقربة من العاصمة ، ومن كانت فى أقاصى الصعيد أو الدلتا ، وينالون فى مقابل ذلك غذاءهم وكساءهم ، وكان الواحد معهم يعمل جاهدا — ما استطاع الى ذلك سبيلا — على آداء واجباته ، حتى ينال رضى مولاه الملك ، لانه ان قصر فى ذلك فان مصيره الى العزل من منصبه ، وربما ما هو أقسى من العزل ، هذا فضلا عن أن الواحد منهم انما كان يخضع لنظام النقل من اقليم الى آخر ، وربما من وظيفة الى أخرى ، ومن ثم فان واحدا منهم لم يذكر اسم الاقليم الذى كان يحكمه .

وكانوا حين يتوفون أجلهم فى هذه الدنيا ، يدفنون فى جبانة العاصمة ، على مقربة من مقبرة الملك الاله ، الذى قضوا حياتهم فى خدمته ، لعل وعسى أن ينالوا ذلك الشرف العظيم فى الحياة الثانية ، هذا فضلا عن أن الواحد منهم انما كان يأمل أن ينتهى به المطاف فى آخر حياته الوظيفية الى احدى وظائف الحكومة المركزية فى العاصمة ، كمدير لاحدى المصالح الحكومية ، ثم قد تمتد آماله ، فيرنوا الى أن يصبح عضوا فى محكمة الستة العليا ، أو مستشارا سريا ، أو نائبا لفرعون فى نخن أو «مخن» (البصيلية) ، وربما يصبح وزيرا .

---

(١٥) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٤٦ — ٤٨ .

هذا وقد كان القوم يعتقدون في الحياة الاخرة ، ومن هنا فقد كانوا يرغبون في قبر جميل واسع ، حتى يحفظوا فيه جسد المتوفى ، ولعل هذا هو الذي دفعهم الي تحنيط أجسامهم ، الامر الذي توصلوا اليه منذ فترة مبكرة ، ترجع الى أوائل أيام الاسرة الثالثة ، وربما كان ذلك سببا في أن يذهب البعض الى أن المصريين القدامى ، انما كانوا يهتمون بالموت ، أكثر من اهتمامهم بالحياة ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، اذا كانت أغلب الجبانات في الصعيد ، انما تقع على حواف الصحراء ، ومن ثم فقد احتفظت الارض الجافة بكثير من المقابر ، هذا في الوقت الذي كانت المنازل والقصور تقام عادة على مقربة من الاراضى الزراعية ، وبالطوب اللبن في معظمها ، ومن ثم فقد اختفت بسرعة(١٦) .

وعلى أي حال ، فان القوم لم يقتصروا في اهتمامهم بالحياة الثانية على القبور وتحنيط الاجساد ، وانما كانوا يعتقدون في ضرورة تقديم القرابين واقامة الصلوات في هيكل يشيدونه ، الى غير ذلك من مطالب الخدمة الجنازية ، ولم يكن في استطاعة أحد أن يقوم بذلك كله ، لان الملك الاله انما كان هـو المالك الفعـلى لكل شيء في مصر — الارض والمحاجر ، ومن عليها وما عليها — ومن هنا فان المقبرة ومطالبها الجنازية انما كانت جميعها هبة من الملك ، يقدمها لمن يشاء من رعاياه المخلصين ، وقد نال ذلك العطف الملكي كثيرون ، اذ تفضل الملك فوهبهم من الاراضي ما يكفى لذلك كله .

ومن هنا بدأت أول خطوة في الطريق الي انهيـار الملكية المطلقة السلطة ، اذ بدأ يظهر ملاك جدد ، يقابله في الناحية الاخري ، نقص في أملاك التاج الخاصة ، هذا فضلا عن أن هذه الاراضى الممنوحة للملاك

(١٦) F. Daumas, La Vie dans L'Egypte Ancienne Paris, 1968, p. 120.
وكذا J. Vandier, La Religion Egyptienne, Paris, 1944, p. 111.
وكذا R. Engelbach, Introduction to Egyptian Archaeology, p. 190-200.

الجدد انما كانت معفاة من الضرائب ثم سرعان ما بدأ حكام الاقاليم خطوة أخرى نحـو اللامركزية ، والبعد عن رقـابة الفراعين ، فبدأوا يبتعدون بمقابرهم عن مقبرة الملك ، اذ فضلت أسرات أمراء الاقاليم فى الصعيد الاوسط والاعلى ، الدفن فى أراضى أقاليمهم ، ففى الشيخ سعيد ودشاشة (محافظة بنى سويف) وفى زاوية الميتين (بمحافظـة المنيا) وفى دير الجبراوى (بمحافظة أسيوط) وقصر الصياد (بمحافظة قنـا) وفى أسوان[17] ، وفى أماكن أخرى عديدة[18] ، حفر حكام هذه الاقاليم مقابر فخمة منقورة فى صخـور بلادهم ، كما لو كانت جبانة العاصمة قد أصبحت غير صالحة ، لتكون مأوى لجثثهم[19] .

بل ان الامر انما كان أعمق من هذا بكثير ، فهناك المقاصير التى كشف عنها فى جزيرة «اليفانتين» (مقابل أسوان عبر النهر) لاسرتى «سارنبوت» و «حقا ايب»[20] تقدم لاصحابها من أمراء الاقاليم هناك فروض العبادة ، كما كانت تقدم للملوك من قبل ، والامر كذلك بالنسبة الى «ايسى» والى ادفو فى بداية عصر الاسرة السادسة[21] .

وليت الامـر اقتصر على ذلك ، فـان الاراضى الممنوحة أصبحت خاضعة للتوريث ، وأخذت تنتقل عن طريق الزيجات الى أسرات أخرى ، ثم خضعت لعمليات البيع والشراء ، وهكذا تكونت عند بعض الشخصيات البارزة اقطاعات واسعة ، وتمكن آخـر الامر بعض الحـكام من أن يجعلوا وظائفهم هذه خاضعة للوراثة ، وبخاصة فى الصعيد ، كما يبدو واضحا من نقوش بعض هؤلاء الحكام .

(١٧) J. de Morgan, Catalogue des Monuments et Inscriptions de L'Egypte Antique, I, 1894, p. 141 F.

(١٨) انظر : A. M. Blackman, The Rocks Tombs of Meir, 7 Vols, London, 1914-1953.

(١٩) ادولف ارمان وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ٨٦ .

(٢٠) H. G. Polotsky, JEA, 16, 1930, p. 194-199.

(٢١) Alliot. BIFAO, XXXVII, p. 93.

وهكذا أصبحت تلك الوظائف التى كان الملك يختار من يتقلدها ، وقفا على أفراد أسرة واحدة ، استقروا فى اقليم بعينه وهيمنوا عليه ، وأبقوا على علاقتهم الطيبة بالعاصمة ، مادام الملك الجالس على عرش البلاد ، يستطيع أن يقبض بيد قوية على شئون البلاد ، الا أن كلا منهم انما كان فى حل من هذا الخضوع اذا اختلفت الظروف[٢٢] ، الامر الذى حدث فى أخريات أيام الدولة القديمة •

وهكذا أصبح الملك لم يعد بقادر على أن يكبح جماح المتمردين من حكام الاقاليم ، وقد باعدت الظروف بينه وبين الوسائل التى كان يملكها أسلافه ، من أمثال سنفرو وخوفو وخفرع ، من ملوك الاسرة الرابعة ، ابان سطوة الملكية الالهية وعنفوانها فألوهيته المقدسة لم تعد كما كانت وأصبح لكهانة رع بعض النفوذ فى سلطانه المطلق ، وتغير لقبـه من «الاله المعظم» الى «الاله الطيب» ، وبعد أن كانت أملاكه تشمل البلاد كلها • أصبح يشاركه فيها الكهنة وحكام الاقاليم بنصيب غير قليل ، وبعد أن كان حكام الاقاليم موظفين لديه يفعلون مايأمر به،وينتهون عما نهى عنه ، وينقلون من وظائفهم فى أى وقت شاء ، والى أى مكان شاء، اصبحوا أمراء بالوراثة — وراثة المنصب والثروة — ويدينون فى ذلك أول ما يدينون بالفضل لآبائهم ، لا الى مليكهم[٢٣] •

ويفكر الفراعين فى أية وسيلة ينقذون بها عرشهم من الانهيـار ، ويهتدون آخر الامر ، أو يهتدى المشفقون على العرش ، والموالون له ، فى أخريات أيام الاسرة الخامسة ، الى اختيار واحد من أهل الثقـة ، ليكون واليا من قبل الفرعون على الصعيد،اختاروه من موظفى الحكومة المركزية ، أعنى به «رع شبسس» الذى ارتقى الى منصب الوزارة فيما بعد ، كما كان خلفاؤه من بعد ، من أمثال آخ حتب بتاح حتب ، ثم

(٢٢) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٦٥ •
(٢٣) محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٨ — ٥١ •

كاجمنى ، وزراء كذلك[٢٤] ، وعهدوا اليه بالرقابة على ضرائب الصعيد، وشئون حكامه •

غير أن هذا الحل لم يأت بالنتيجة المرجوة ، اذ انتحل لقب حاكم الصعيد أكثر من واحد فى وقت واحد ، بل أن بعض حكام الاقاليم انما قد اتخذ لنفسه لقب «حاكم الصعيد» ، فضلا عن لقب الوزير ، دون أن يقوم بما كان يفرضه عليه اللقبان من واجبات ، وانما لكيلا يتميز عليه أحد من موظفى الحكومة المركزية •

وهكذا وصلت الملكية الى مرحلة خطيرة نتيجة سياستها نحو الكهانة وحكام الاقاليم ، والتى كانت تبغى من ورائها ضمهم الى صفوفها ، تاركة الشعب دونما أى اعتبار ، ومن ثم فعندما ثار عليها هؤلاء الذين أغدقت عليهم المنح والهدايا ، لم تحرك جماهير الشعب ساكنا ، ولم تقم بأى جهد لحماية الاله الجالس على العرش ، بل ان هذه الجماهير انما قد انتهزت تأزم الموقف ، فقامت بثورة عاتية ضد الجميع ، ضد الملك ، وضد الكهانة ، وضد حكام الاقاليم ، هذه الثورة هى التى عرفت فى التاريخ الفرعونى باسم «الثورة الاجتماعية الاولى»[٢٥] •

(٢٤) ابتين دريوتون وجاك فانديية : المرجع السابق ص ٣٣٧ •
(٢٥) أنظر : محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ــ الاسكندرية ١٩٦٦ (رسالة ماجستير) •

الفصل الرابع

السياسة الخـــارجية

(١) فى الشمال والشمال الشرقى

تابع «زوسر» — ثانى ملوك الاسرة الثالثة — سياسة الاسلاف ، ومن ثم فقد أرسل حملة لتأديب بعض بدو شبه جزيرة سيناء ، الذين ربما تعرضوا للبعثات التى كان يرسلها الفراعين لاحضار النحــاس من قبل المغارة ، فضلا عن انشاء الحصن المعروف ببوابة ايمحوتب .

هذا وقد وجد اسم «سانخت» — والذى يرى البعض فيه أخا أكبر لزوسر ، وسابقا له على العرش المصرى — مكتوبا الى جوار اسم «زوسر» فى شبه جزيرة سيناء ، كما يشير الى ذلك نقشين من وادى مغارة ، الواحــد فى المتحف المصرى فى القاهرة ، والاخــر فى المتحف البريطانى فى لندن .

هذا وقد بقيت من عهد «سخم خت» — خليفة زوسر — نقــوش على بعض صخور شبه جزيرة سيناء ، صورته ثلاث مرات ، مرتين بتاج الصعيد ، ومرة بتاج الدلتا ، وأظهرته فى هيئة فارعة يهوى بمقمعة على أحد كبار أعدائه ، وصورت أمامه أميرا يحمل لقب «قائد الجيش» ، وهو من أقدم الالقاب الحربية الكبيرة المعروفة حتى الان من الدولة القديمة[١] .

---

(١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣١٧ .

وكذا E. Drioton and J. Vandier, l'Egypte, Paris, 1952, p. 197.

وكذ R. Weill, les IIe et IIIe Dynasty Egyptiennes, Paris, 1908, p. 128.

وكذا A . H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, Ple, I, 4, II, 1955, p. 52.

وكانت السياسة الخارجية فى عهد الاسرات ، الرابعة والخامسة والسادسة ، تنحصر فى سلسلة من الحملات والغزوات والبعثات الاقتصادية ، التى كانت تنطلق من العاصمة أو من قواعد على الحدود، لتعود مرة ثانية الى نقطة الانطلاق محملة بالثروات ، وهى كذلك لم تكن تتضمن دورات من الكر والفر ، الامر الذى تتسم به سياسة التوسع الاستعمارى ، وهكذا ، ففى الاسرة الرابعة — وعلى أيام مؤسسها سنفرو — يزداد الاهتمام بسيناء — ذات الاهمية الاقتصادية الكبرى لمصر — ففيها موارد البلاد الرئيسية من الفيروز والدهنج والنحاس ، وعلى صحراواتها كانت تسير القوافل التجارية من مصر الى فلسطين ، ومن فلسطين الى مصر •

ومن هنا نرى «سنفرو» يقوم بحملة أو بضع حملات الى سيناء ، اذ تمثله النقوش فى المغارة (وتسمى خطأ وادى مغارة أو جبل المغارة)[٢] ، وهو يقضى على أحد البدو ، ورغم أن سنفرو لم يكن أول الفراعين الذين استغلوا مناجم المغارة أو أرسلوا حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو ، فان الاجيال القادمة قد اعتبرته الها حاميا للمنطقة ، الى جانب المعبودين «حاتحور» و «سوبد» لان أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية ، وما قام به من تحصينات هناك ، أصبحت المثل الذى يحتذى به ، بل وظلت بعض نقط الحراسة تعرف باسمه «ساق حور — نب ماعت» حتى أيام الدولة الوسطى ، وحتى رأينا أحد النصوص التى كتبت فى مناجم سيناء بعد وفاته بحوالى ألف سنة ،

---

(٢) من أسف أنه فى عام ١٩٠١ م ذهبت احدى الشركات البريطانية لاستغلال مناجم الفيروز ، واستخدمت الديناميت فى تحطيم الطبقات التى يوجد فيها الفيروز ، فحطمت أكثر النقوش التاريخية التى كانت على مقربة من فتحات المناجم القديمة ، وقد نقل «بترى» فى عام ١٩٠٥ م ما بقى من النقوش الى المتحف المصرى بالقاهرة ، انقاذا لها من الدمار ، ولم يترك غير نقش «سخم خت» لانه كان على ارتفاع كبير •
أنظر : الموسوعة المصرية ٣٧٢/١ •
وكذا W. M. F. Petrie, Researches in Sinai, London, 1906.

يفاخر صاحبها بأنه فعل ما لم يفعله الاوائل منذ عهد «سنفرو»[٣] •

هذا وقد جاء فى «حجر بالرمو» بأن سنفرو قد أرسل أسطولا بحريا مكونا من أربعين سفينة لاحضار كتل من أخشاب الارز من لبنان[٤] ، ويذهب «سير ألن جاردنر»[٥] (١٨٧٩ — ١٩٦٣م) بأن التنديد بترجمة الكلمة الاصلية «عاش» الى «أرز» أصبح شائعا ، وأنه يجب أن تستبدل بكلمة «صنوبر» ، ويمكننا الاعتماد على نطق المختصين المتأخرين ، وهو غير غامض تماما ، ومن ثم نستطيع أن نقنع أنفسنا بألا نكون أكثر خطأ من «بلينى» وأن نتشبث باستخدامه لكلمة «سدروس» لتشمل العرعر وغيره من الصنوبريات •

وعلى أى حال ، فهناك ما يدل على احضار «سنفرو» الخشب من لبنان ، وأن كثيرا من تلك الاخشاب قد عثر عليها فى هرمه القبلى فى دهشور ، ومازالت تلك الاخشاب فى حالة جيدة حتى الان ، ومازالت تؤدى مهمتها التى أقيمت من أجلها مثل تثبيت بعض الاحجار أو سندها فى أماكنها ، رغم مضى أكثر من أربعة آلاف وستمائة سنة عليها[٦] •

وهكذا يبدو واضحا أن «سنفرو» قد أدى واجبه نحو حدوده الشمالية والشرقية بجانب حدوده الجنوبية والغربية — مما جعله حاكما مرهوب الجانب ، يخشاه جيرانه ، ويعملون له ألف حساب ، وفى عهد

---

(٣) جان يويوت : مصر الفرعونية ـ ترجمة سعد زهران ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٥١ •

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 168.

وكذا A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, op. cit., pl. 4,

وكذا Urk, I, p. 7.

(٤) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Chicago, 1906, Parag, 146.

(٥) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 42.

(٦) A. Fakhry, The Bent Pyramid at Dahshur, Cairo, 1954, Pl. 38, p. 559.

ولده «خوفو» تزداد أهمية الميناء الاسيوى «جبيل» ذلك الميناء الذى كانت تقيم فيه جالية مصرية ، منذ أيام الاسرة الثانية على الأقل ، والذى أصبح أكبر ميناء للتبادل التجارى بين مصر وغربى آسيا ، كما أصبحت السفن التى تتعامل مع «جبيل» أو المصنوعة من أخشابها تسمى «الجبيلية» ، أحيانا[7] ، بل وزاد بعض الباحثين فرأى أن ميناء جبيل ، انما كان يقوم كذلك بدور الوسيط بين تجارة مصر وكريت[8] .

ورغم أن الامر بهذه الصورة غير مؤكد ، الا أن الاتصال بكريت انما كان قائما منذ زمن بعيد ، ذلك لان الثقافة المينووية انما تقدم دلائل قوية على التأثير المصرى[9] ، هذا فضلا عن أن هناك من يذهب الى أن المصريين انما قد وصلوا الى كريت رأسا بوسائلهم الخاصة[10] .

وأيا ما كان الامر ، ففى عهد «خوفو» قام وسط «جبيل»[11] معبد مصرى ، أضاف اليه من جاء بعده ، كما تشهد بذلك أحجار من هذا المعبد ، تحمل اسم «خوفو» بل وأسماء من سبقوه على عرش الكنانة ، وممن لحقوا به على هذا العرش من فراعين الدولة القديمة ، وليس هناك ما يعرف حتى الان عن الصورة الاولى التى نشأ عليها هذا المعبد ، فقد يكون معبدا آمورى الاصل ، أراد الملوك المصريون أن يجاملوا أصحابه ، وأهدوهم هدايا ثمينة تحمل أسماءهم ، ولم يمنعهم تمسكهم

---

(٧) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ٨٩ .

(٨) رشيد الناضورى : اقدم صلات حضارية بين مصر ولبنان ــ الاسكندرية ١٩٦٨ ص ٢ .

وكذا W. M. F. Petric, The Royal Tombs of The First Dynasty, II, London, 1901, p. 46.

(٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 36.

(١٠) الكسندر شارف : تاريخ مصر ــ القاهرة ١٩٦٠ ص ٤٨ .

(١١) كانت تكتب فى الدولة القديمة «كبن» ، وفى الدولة الوسطى «كبنى» وفى الدولة الحديثة «كبنا» ، وذكرها الاشوريون باسم «جوبلا» والاغريق «بيبلوس» ، والعرب «جبيل» ، وتقع على مبعدة حوالى ٤٠ كيلا شمال بيروت .

(A. H. Gardiner, Onom, I, 257).

بدينهم المصرى من أن يتسامحوا مع معبودات جيرانهم ، ويعملوا على اثراء معابدها .

وقد يكون معبـدا مصرى الاصل شادته جـالية مصرية تجارية ، أقامت فى جبيل ، وعكفت على عبادة أربابها المصريين ، وسجلت أسمـاء ملوكهـا على مقتنياته ، وقد يكون معبـدا مصريا ، أقامه أمراء جبيل أنفسهم ، مجاملة للمصريين ، وتقبلوا فيه بعض العقائد المصرية ، كما تقبلوا له هدايا الفراعنة المصريين(١٢) .

هذا وقد أسفرت الحفائر عن اكتشاف معبد للالهة المصرية «ايزة»، بجانب معبد «بعلة» جبيل ، وان الالهتين قد أصبحتا بمرور الزمن الهة واحدة(١٣) ، وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى ازدهار التجـارة بين مصر وفينيقيا على أيام خوفو ، كما أن هناك ما يشير الى قيامه بنشاط حربى فى سيناء ، اذ أرسل عـدة حملات الى المنـارة للحصول على الفيروز ، وربما النحاس كذلك(١٤) .

ولم يكن ملوك الاسرة الخـامسة أقل نشـاطا من أسلافهم ملوك الاسرة الرابعة ، فلقد عثر على اسم الملك «وسر كاف» منقوشا على آنية من المرمر فى جزيرة «سريجو» ، على مقربة من الشاطىء الجنوبى

---

(١٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٠٦ .

وكذا W. A. Ward, Egypt and The Mediterranean from Predynastic Times to The End of The Old Lingdom, JES HO, VI, Part, I, 1963, p. 24.

وكذا P. Montet, Byblos et l'Egypte, Paris, 1928, p. 29 F.

وكذا H. H. Nelson, in Beyruts, 1934, p. 19 F.

(١٣) فيليب حتى : تاريخ لبنان ــ ترجمة أنيس فريحـــة ونقولا زيادة ــ بيروت ١٩٧٢ ص ٧٨ (يذهب جاردنر الى أن الالهة المصربة هنا «حاتحور» وليست ايزة ، وأنها قد اقترنت بالالهة عشتار) .

(١٤) محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ــ الجزء الثالث ــ حركات التحرير فى مصر القديمة ــ القاهرة ١٩٧٦ ص ٢٧ ــ ٤٤ .

لليونان ، مما يشير الى علاقات تجارية مع الشاطىء الشمالى للبحـــر الابيض المتوسط(١٥) •

وهناك فى المعبد الجنازى للملك «ساحـــورع» ما يدل على نشاط خارجى عظيم ، خرجت فيه مصر من عزلتها ، واحتكت بجيرانها،بدرجة أكثر من عصور سبقت ، فهناك منظر رائع للسفن العائدة من سورية بالتجارة ، والاسيويون ، على ظهورها وأسلحتهم مرفوعة ولاء لفرعون، وربما كان ذلك بمناسبة حملة الى لبنان للبحث عن الخشب القـــديم جدا من غاباتها(١٦) •

وقد اختلفت الآراء حول هذه الحملة ، فذهب رأى الى أن مناظر الاسطول وعودته لا تدل على أنها حملة حربية ، وان كنا لا نستطيع أن نتبين الغرض منها على وجـــه اليقين ، وذهب فريق آخـــر الى أن المناظر انمـــا تدل على شيء أكثر من اقـــلاع الاسطول وعودته ، ثم استقبال الملك ، وقد حف به كبار موظفيه ، ومن ثم فهى حمـــلة ودية ، وربما عادت بأميرة من هناك لتصبح احدى زوجات الفرعون ، بينمـــا ذهب فريق ثالث الى أن جبيل انما كانت مستعمرة مصرية ، وان رأى «جاردنر» أن فى ذلك مبالغة الى حد ما ، ولكننا ندرك على الاقل أن الرسل المصريين انما كانوا يقابلون هناك دائما بكل الترحاب(١٧) •

وهناك فى «دشاشة»(١٨) حيث تقع مقبرة «أنتى» ـــ ولعـــله أحد

---

(١٥) A. Weigall, op. cit., p. 42.

(١٦) Urk., I, 1932, p. 169.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 88.

وكذا CAH, I, Part, 2, 1971, p. 182.

(١٧) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ١٠٤ ، أحمد فخرى : مصر الفرعونية ١٣٣ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٤٤ •

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 89.

وكذا A. Weigall, op. cit., p. 43.

(١٨) تقع دشاشة على الشاطىء الغربى لبحـــر يوسف، جنوبى اهناسيا المدينة،والى الشمال الغربى من ببا بمحافظة بنى سويف وتمتد =

أشراف عهد ساحورع — منظر يمثل الاستيلاء على قلعة اسيوية ، وأهميته تقع فى تصوير أطوار القتال فى صور ساذجة ، حين يغزو المصريون مكانا فى آسيا يدعى «نديا» — وموقعه غير معروف — ونرى المصريين فى المنظر يلتحمون مع الاسيويين رجلا ضد رجل فى أرض خلاء ، وما يكاد الاسيويون يحسون وطأة المصريين حتى يعمدوا الى الفرار ، والتحصن فى قلعتهم ، غير أن المصريين سرعان ما يحاصرونهم فى دقة تسترعى الاعجاب ، ثم ينقبون أسوارها بخوابير مدببة من الخشب ، ويقيمون السلالم لاعتلائها لاتمام عملية الاستيلاء على القلعة ، وعندما يسمع المحاصرون أصوات أدوات المصريين التى تستعمل فى نقب الجدران ، يصيبهم فزع وهلع ، ومن ثم يسرع بعضهم الى زعيمهم لاعلامه بذلك ، فيأخذ الرجل فى شد شعر رأسه يأسا ، بينما تأخذ النساء فى نقل الجرحى واسعافهم ، ثم ما يلبث النصر أن يعقد لواءه للمصريين ، فيأسرون عددا كبيرا من الرجال والنساء والاطفال •

على أننا وان كنا لا نعرف اسم الملك صاحب هذه الغزوة على وجه اليقين ، فمن المرجح أن يكون «ساحورع» ، الذى مثلت على جدران معبده الجنازى صورة حملة تشبه تلك الحملة من مصر وعودتها محملة بالغنائم والاسلاب ، وان كان هناك من يذهب الى أنها انما ترجع الى عهد «ببى الاول» من الاسرة السادسة[١٩] •

وأيا ما كان الامر ، فان مصر — على أيام الاسرة الخامسة — قد بدأت صفحة جديدة فى حياتها ، فأخذت ترنو بناظريها نحو الجنوب ونحو الشرق،ومن ثم فان الجهود الحربية المعتادة انما تستمر لاستغلال

= خلفها حافة الصحراء الغربية التى تضم جبانة ، ترجع أهم مقابرها — مقبرة أنتى — الى الدولة القديمة ، وكذا مقبرة «شدو» •

(١٩) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٥٢ — ٢٥٣ ، أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٣٤ ، ايتين دريوتون وجاك فانديه : مصر ص ١٩٦ • وكذا

W. M. F. Petrie, Deshasheh, London, 1898, Pl. IV

مناجم سيناء وتأمينها من شعب البدو، كما تروى نصوص «ساحورع»[٢٠] و «نى وسر رع»[٢١] و «من كاو حور»[٢٢] و «حد كارع» (اسيسى)[٢٣] فى وادى مغارة .

وتروى النصوص أن «نى وسر رع» قد قام بعدة حروب فى سورية، كما يبدو ذلك من المناظر التى كانت فى معبده ، كما نجح «وناس» فى الحفاظ على جبيل ، بواسطة أسطوله ، وربما كانت المدينة وقت ذاك من مستعمرات التاج المصرى ، فقد عثر هناك على آنية تحمل اسمه فى البقايا الاثرية التى كشف عنها فى بيبلوس[٢٤] .

وهناك ما يشير الى أن الامر قد تغير كثيرا على أيام الاسرة السادسة ، حيث يشهد عهد «ببى الاول» نشاطا واسعا من العناصر المجاورة لمصر من ناحية الشمال ، ويحدثنا «ونى» ، ذلك الرجل الذى نشأ نشأة متواضعة ، ولكنه استطاع بقدراته الشخصية أن يصبح قائدا لاحدى الحملات الجريئة التى أرسلها الملك الى آسيا — والتى اشترك

---

(٢٠) A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, Pls, V, VII.
وكذا J. H. Breasted; op. cit., p. 236.
(٢١) J. H. Breasted, op. cit., p. 350.
وكذا A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, op. cit., Pl. IV, VI.
(٢٢) A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, op. cit., Pl. VII.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, Chicago, 1906, p. 263.
وكذا K. Sethe, op. cit., p. 54.
(٢٣) A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, op. cit., Pls. IV, VI-VII.
وكذا K. Sethe, op. cit., p. 55.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., p. 264-7.
(٢٤) فيليب حتى : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين — الجزء الاول — بيروت ١٩٥٨ ص ١٣٧ .
وكذا P. Montet, Byblos et l'Egypte, Paris, 1928, p. 69.
وكذا P. Montet, in Syria, 19, 1929, p. 14.
وكذا M. Dunand, Fouilles des Byblos, II, Paris, 1958, p. 267.

فيها الجيش والاسطول معا لاول مرة فى التاريخ المصرى — يحـدثنا «ونى» فى لوحته المشهورة عن هذه الحملة فيقول :

«وحين أراد جلالته أن يوقع العقوبة على الاسيويين والساكنين على الرمال ، جمع جلالته جيشا من عشرات الآلاف الكثيرة من كل أرض مصر العليا (الصعيد) من اليفانتين (جزيرة أسوان) فى الجنوب ، حتى «مزينية» (المقاطعة رقم ٢٢ فى شمال الصعيد) فى الشمال ، من مصر السفلى (الدلتا) فى تمامها ، من سدجر ، ومن خن سجرو ، من نوبى ارثى ، ومن نوبى مدجا ، ومن نوبى يام ، ومن نوبى واواى ، ومن نوبى كا ، ومن أرض التمحو» .

«وأرسلنى جلالته على رأس هذا الجيش ، وقـد كان به أمراء ، وحاملوا أختام ملك الوجه البحـرى ، وسمراء وحيدون من القصر ، وقواد ورؤساء مدن الوجهين (الصعيد والدلتا) ، ورؤساء تراجمة ، ورؤساء متنبئين لمصر العليا والسفلى ، ورؤساء ملحقات المعابد ... على رأس جيوش مصر العليا والسفلى والمدن والقرى التى يحكمونها، والنوبيين من هذه البـلاد الاجنبية ... كنت أنا قائدهم ، رغم أن وظيفتى لم تكن سوى وظيفة المشرف على مستأجرى القصر ، لاننى كنت أستطيع أن أمنع الواحد من أن يتشاجر مع أخيه ، وأن أمنع اى واحدا من أن يأخذ خبزا أو نعالا من المارة أو أن يغتصب نقبة من أية قرية ، وأن أمنع أيا منهم من أن يختلس نعجة من الناس ، وقد خرجت بهم سريعا من الجزيرة الشمالية (بوابة ايمحوتب) ، و «ساق حور نب ماعت» ، ورغم أننى كنت فى هذه الوظيفة ، فقد كشف لى الملك عن عدد هذه الجيوش ، وهو أمر لم يكشف عنه من قبل لأى خادم .

وعند هذه المرحلة ينتقل النص الى رواية شعرية ، تمثل مظهـرا مفردا فى النص ، حيث تقول :

«عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن خرب أرض ساكنى الرمال .

عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن اجتاح أرض ساكنى الرمال •

عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن دمر محلاتها المسورة •

عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن قطع تينها وكرومها •

عاد هذا الجيش فى سلام : بعـد أن أشعل النـار فى كل بيوتها الفـاخرة •

عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن ذبح عشرات الآلاف من رجال جيوشهم •

عاد هذا الجيش فى سلام : بعد أن حمل معه جيوشا كثيرة العدد كأسرى •

وقد نالنى من مديح جلالته من أجل ذلك أكثر من أى شىء(٢٥) •

غير أننا نلاحظ أن «ونى» رغم أنه يشير الى انتصاره الساحق ، والى ذبحه لعشرات الآلاف من رجال عدوه ، ثم عودة جيشه منتصرا ، ومعه الكثير من الجيوش أسرى ، الا أنه سرعان ما يضطر الى القيام بأربع حملات ــ منها واحدة كانت برية وبحـرية معا ، وقد حصر فيها عدوه بين فكى الكماشة ــ وقد كتب له فيها نجحا بعيد المدى فى تأديب العصاة من سكان الرمال •

هذا ويحدثنا «ونى» كذلك عن تمرد عند «أنف الرئم» ــ وهو اقليم يظن أنه جبل الكرمل ــ وقد عاد بجيوشه الى ماوراء منطقة التلال ،

---

(٢٥) Francois Daumas, La Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 292.

وكذا Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 95-96.

وكذا M. Lichtheim, Ancient Egyptian Literature, California, 1973, p. 18.

حتى شمال أرض سكان الرمال ، بينما كان نصف الجيش يقترب على الطريق الصحراوى،وقد عول «ونى»على القضاء على كل المتمردين(٢٦) .

وبدهى أن تقرير «ونى» لم يبرأ من المبالغة فى تصوير كثافة جيوشه ، وحين ادعى أن جنوده لم يحيدوا عن جادة الصواب فى كل كبيرة وصغيرة ، ولكنه لم يخل من دلالات تاريخية صريحة ، منها (أولا) أن القوم قد تعودوا على أيامه أن يجندوا قطاعا واسعا من امكانات البلاد ، لاغراض الدفاع والهجوم كلما آن أوانها ، ومنها (ثانيا) إنهم اطمأنوا الى اخلاص بعض النوبيين والليبيين ، واستعانوا بهم فى جيوشهم ، ومنها (ثالثا) أن رجال الدين كان لهم دور فى الحروب ، وربما كانوا يثيرون حماس الجنود ، ويذكرونهم بالارباب ، والولاء للحكام والرؤساء ، والحرص على تقاليد الدين .

ومنها (رابعا) أن التراجمة انما كانوا يعاونون القادة على التفاهم مع أهل المدن المفتوحة ، ومنها (خامسا) أن رؤساء عهد « ونى » — ممثلين فى شخصه — انما كانوا يقدرون من تبعات القيادة واجبات أربع هي : محاولة تغليب روح الطاعة فى الجيش ، وتقليل دواعى الشقاق بين الجنود ، وتغليب روح التراحم بينهم وبين مواطنيهم المدنيين ، والعمل على تزويد الجيش بمؤنة مناسبة ، تصرف رجاله عن الدنية ، وعن محاولات النهب والعدوان(٢٧) .

هذا ويبدو أن مصر ، انما كان عليها أن تجابه صعوبات من ناحية الشمال الشرقى ، أكثر من تلك التى تأتيها من ناحية الجنوب ، ولكن من هو ذلك العدو ، الذى سبب المتاعب لمصر من ناحية الحدود الشرقية؟ والذى أشير اليه باصطلاح «حر يوشع» أو «عامو حر يوشع» .

(٢٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 96.

(٢٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٠ .

ان «سير ألن هندرسون جاردنر»[٢٨] (١٨٧٩ — ١٩٦٣) يرى أن ذلك العدو ، الذي أشير اليه باصطلاح «حر يوشع» ومعناه الحرفي «أولئك الذين فوق الرمال» ، لا يمكن أن يعنى فقط أولئك الذين أضر بهم شظف العيش فى شبه جزيرة سيناء ، فـرد مثل هؤلاء لا يتطلب جيشا من الآلاف ، وما لم نغفل أمر التين والعنب ، ونعتبرهما كمجرد خيال ، فان جزءا معينا من جنوب فلسطين ، كان من غير شك داخلا فى نطاق العملية ، وربما كانت أكثر التخمينات قابلية للتصديق ، وهى أن ما وصف بعبارة لطيفة كأنما هو عصيان وتمرد ، كان يتضمن فى الواقع أول موجة من الضغط الاسيوى ، الذى أزعج مصر بعد ذلك بأكثر من مائة عام ، وكان تهديدا دائما لها طوال تاريخها •

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح الى أن هؤلاء الذين أطلق عليهم اسم «عامو حر يوشع» بمعنى بدو الرمال ، أو القبائل التى كانت تعيش على الرمال ، ربما كانوا بداية للهجرة الامورية القديمة ، هددت سبل التجارة بين مصر وجيرانها ، وحاولت أن تثير الاضطرابات ، وأن تعبر حدود مصر الشمالية الشرقية[٢٩] •

وهناك رأى غريب ، بعيد عن المنطـق الزمنى والمنطق التاريخى ، وقد اعتمد على ماسجله الملك الاكدى «نارام — سن» (حوالى ٢٢٩١ — ٢٢٥٥ ق•م) عن أحداث عصره ، وروى فيــه أنه قبض بنفسه على «مانو — دانوا» ملك «ماجان» أو «مجان» ، ومن ثم فقد ذهب فريق من المؤرخين المحدثين الى أن «مجان» انما هى «مصر» وأن «مانو» انما هو تحريف لاسم «منى» (مينا) أول ملوك الاسرة الاولى المصرية[٣٠] حوالى عام ٣٢٠٠ ق•م •

---

(٢٨) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford 1964, p. 97.

(٢٩) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٥ •

(٣٠) A. H. Sayce, Menes and Naram-Sin, JEA, 6, 1820, p. 296.

وكذا S. Langdon, JEA; 7, 1927, p. 121 F.

وكذا W. F. Albright, JEA; 6, 1920, p. 89 F.

ويذهب أستاذنا الدكتور عبد المنعم أبو بكر — طيب الله ثراه — (١٩٠٧ — ١٩٧٦م) الى أنه من الغريب أن هذا الاسم ذاته انما كان يطلق على مصر في جميع النصوص البابلية المتأخرة ، غير أن هذا الغزو انما يفتقر الى أسانيد تثبته من جانب المصريين أنفسهم[٣١] .

هذا فضلا عن أن «فريتز هومل» انما يذهب الى أن كلمة «مجان» التى جاءت فى نقش «نارام — سن» ، والذى يقول فيه أنه « أخضع بلاد مجان ، أخذ مانو دانوا» (مانيوم) أمير مجان أسيرا[٣٢] انما هو تحريف لاسم اقليم «معين» فى اليمن[٣٣] .

ويذهب الدكتور حسن ظاظا الى أنه من المحتمل أن يكون لفظ «مجان» هو الاصل فى «معان» فى أقصى الشمال من الحجاز شرقى خليج العقبة ، وليس قرب هذا المكان من العراق هو الذى يدعو الى ترجيح هذه الفكرة ، ولكن اسم هذا الامير الذى كان يحكم هذا الاقليم «مانيوم» الذى يبدو أنه نطق آشورى للاسم العربى «معين» (بالضم والتنوين) ، وهو شائع فى أسماء عرب الشمال ، نادر فى أسماء عرب الجنوب ، لا نجده — فيما نعلم — فى النقوش اليمنية ، بينما يقابلنا بكثرة جدا فى الشعر العربى الجاهلى ، وفى النقوش العربية الشمالية ، كالنقوش الصفوية مثلا[٣٤] .

على أن «هوجو فنكلر» انما يذهب الى أن «مجان» انما تقع فى الاقسام الشرقية من شبه الجزيرة العربية[٣٥] ، بينما يذهب «أو ليرى»

---

(٣١) عبد المنعم ابو بكر : كفاحنا ضد الغزاة ص ٢٠ — ٢١ .

(٣٢) A. Grohman, Arabien, Munchen, 1963, p. 21.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 126.

وكذا L. W. King, Studies in Eastern History, I, p. 15.

(٣٣) H. Fleisch, Introduction a l'Etude des Lengues Semitiques, Paris, 1947, p. 90.

(٣٤) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٢٦ .

(٣٥) E. Schrader, Die Keilschriften und des Alte Testament, p. 15 F.

الى أنها «جزها» (جرعاء) على ساحل الاحساء[٣٦] ، وأما «تشيزمان» فالرأى عنده أنها تقع على مقربة من الخليج العربى فى موضع «مجيمنة» جنوب «يبرين»[٣٧] ، بينما رأى «جون فلبى»[٣٨] أنها على مقربة من الساحل ، عند وادى شهبة ، وهى البقعة التى نشأت فيها مملكة مجان القديمة •

هذا ويذهب «كيتانى» الى أنها «مدين» والتى كانت حوالى الالف الخامسة قبل الميلاد كثيفة الاشجار ، وكان البابليون يأخذون منها الذهب والنحاس والاخشاب ، ويعارض «الويس موسل» هذا الاتجاه، محددا موقع مجان على ساحل الخليج العربى[٣٩] ، على أن هناك من يذهب الى أنها منطقة «عمان» أى الطرف الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية[٤٠] •

وأخيرا فلقد حاول بعض المؤرخين أن يحدد موقعها بخط طول ٥٥ شرقا ، وخط عرض ٢٤ شمالا ، وبحوالى ٤٥٠ ميلا الى الشمال الغربى من مسقط ، وأن كلمة «مجان» انما تتكون من الكلمة السومرية Ma بمعنى ميناء أو أرض السفن ، وذلك لشهرة أهلها فى ركوب السفن ، فضلا عن أن هناك نصا يرجع الى أيام الملك «دونجى» (أحد ملوك أور حوالى عام ٢٤٥٠ ق•م) يحدثنا عن صناع السفن من «مجان» وأن النصوص السومرية قد وصفتها بأن «جبل النحاس» ، تدفعنا الى أن ندخل فى دائرتها منطقة الجبل الاخضر بعمان ، حيث يوجد النحاس ،

---

(٣٦) De Lacy D. D. O'Leary, Arabia before Muhammad, London, 1927, p. 47.

(٣٧) Major R. E. Chee.man, In Unkonuen Arabia, London, 1925, p. 266.

(٣٨) J. B. Philly, The Empty Quarter, N. Y. 1933 p. 119 F.
وأنظر : محمد بيومى مهران : دراسات فى تاريخ العرب القديم — الرياض ١٩٧٧ ص — ٢١٨ •

(٣٩) A. Musil, The Northern Nejd, N. Y. 1928, p. 307.

(٤٠) W. F. Leemans, Foreign Trade in The Oold Babylonian Period. Leeden, 1960, p. 12.

وهكذا يبدو واضحا أن لدينا من القرائن القوية التى تقربنا من وضع مجان كمرادف لعمان ، لأن كل ما ذكر آنفا انما هو موجود فى عمان[٤١] .

وأيا ما كان الامر بالنسبة الى موقع «مجان» ، فالرأى — كما أشرنا من قبل — غريب ، وبعيد عن المنطق الزمنى والمنطق التاريخى ، وعلى اى حال ، فلقد استمر «ببى الثانى» على سياسة أسلافه بالنسبة الى التجارة الخارجية ، فهناك ما يدل على اتصال تجارى بين مصر وبلاد بونت وسواحل فينيقيا ، من ذلك ما سجله الملاح المصرى «خنوم حتب» من أنه قد زار جبيل وبونت احدى عشرة مرة ، كان تحت رياسة «ثثى» فى زيارته الاولى ، وتحت رياسة «خوى» عند زيارته الثانية[٤٢] .

هذا وقد استمرت البعثات الى مناجم سيناء كذلك ، ومن ثم فهناك ما يثبت قيام حملة فى السنة الاولى من حكمه ، ويبدو أنه كان تحت وصاية أمه ، مادامت تذكر معه فى سجل هذه الحملة[٤٣] ، هذا فضلا عن أن هناك ما يشير كذلك الى ازدياد الاضطرابات فى الخارج وقت ذاك ، اذ يبدو أن العناصر الاجنبية انما كانت تحس بما ينتاب مصر من ضعف ، وأنها كانت فى انتظار الفرصة التى تسنح لها بالاغارة على الدلتا وقد كانت بعد وفاة «ببى الثانى» بسنوات لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة ، حيث اندلعت نيران الثورة الاجتماعية الاولى ، وقضت على الدولة القديمة .

(٢) فى الجنـــوب

تسجل حوليات «سنفرو» على حجر بالرمو — وكذا القطعة الكبيرة بمتحف القاهرة — قيام مؤسس الاسرة الرابعة بحمـلة ضد «أرض

---

(٤١) عبد الحميد زايد : الشرق الخالد — القاهرة ١٩٦٦ ص١٣٢ — ١٣٣ ، محمد بيومى مهران : المرجع السابق ص ٢١٦ — ٢١٨ .

(٤٢) Urk, I, 1932, 140-141.

(٤٣) P. M. VII, 1951, p. 342.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 101.

«النوبيين» يؤكد فيها احضاره سبعة آلاف أسير،ومائتى ألف ماشية[٤٤]، ويعزو الكثيرون من الباحثين الى هذا النص تفسير الاختفاء الفجائى للمجموعة «أ» التى عاشت فى النوبة السفلى معاصرة لبداية الاسرات، والنصف الاول من الدولة القديمة[٤٥] ، وربما كان اختفاء المجموعة «أ» بسبب تسرب مجموعة أخرى ، وحلولها مكانها ، وهى المجموعة «ب» أكثر منه بسبب حملات كانت تأديبية فى معظم الاحوال[٤٦] .

وأيا ما كان الامر ، فليس من الواضح الى أى مدى وصلت حملة «سنفرو» هذه فى اخضاع النوبة ، الا أن ابنه وخليفته « خوفو » قد استعمل محاجر الديوريت التى تقع الى الشمال الغربى من «توشكى»[٤٧]، وأن «جد فرع» (رع — جدف) خليفة «خوفو» قد ترك اسمه هناك ، وأن «خفرع» قد حصل على الديوريت الذى صنع منه تماثيله المشهورة من محاجر تلك المنطقة[٤٨] .

وفى الاسرة الخامسة سجل «ساحورع» و «جد كارع» (اسيسى) اسميهما عند «توماس» فى منتصف الطريق بين أسوان ووادى حلفا ، وربما كان لذلك صلة بمحاجر الديوريت هناك ، ويبدو أن المصريين انما كانوا يسيطرون تماما على المنطقة التى تقع الى الجنوب من أسوان ، ومن ثم فقد استطاعت البعثات أن تقوم بعملها فى المحاجر ، وهى آمنة، حيث لا توجد مياه ، وحيث يفصلها عن النيل قرابة خمسين ميلا[٤٩] .

---

(٤٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 97.

(٤٥) J. Vercoutter. Ancient Egyptian Influence in Sudan, SNR. XI. p. 20.

وكذا A. J. Aikell. A History of The Sudan from Earlest Times to 1821. London. 1961. p. 41.

(٤٦) فوزى فهيم جاد الله : ليبيا فى التاريخ — مسائل فى مصادر التاريخ الليبى قبل هيرودوت ص ٦٢ .

(٤٧) PM. 7. 1951, p. 275.

(٤٨) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 183.

(٤٩) Ibid., p. 183.

وتصبح العــلاقات مع النوبة أكثر ســلاما ، فالمزايا التى يمكن الحصول عليها من علاقات ودية كانت مزايا مشتركة ، ذلك أن النوبة كانت مصدر سلع للترف قيمة ، ولا يمكن الحصول عليها من مكان آخر ، وكان النوبيون بدورهم يعتمــدون كثيرا على جــيرانهم الاكثر ثراء وحضارة ، وكانت الحبوب من أهم ما يسعون وراءه وان لم يكن لها ذكر فى المستند الوحيد الذى يشير الى ما جاء به المصريون معهم بقصد التبادل التجــارى ، وحيث ذكرت الانواع المختلفــة من زيت وعسل وملابس وقيشانى وكل الاشياء(٥٠) •

وأخذ اهتمام مصر بالنوبة السفلى يزداد ، وبدأ المصريون ينظرون اليها كجزء متمم لحدودهم الجنوبية ، ومن ثم فقد بدأوا يعملون على تأمين المواصلات اليها ، وعلى الحد من شغب قبائلها القلقة — والفقيرة كذلك — ومنع اعتداءاتها على مراكز الحدود ، وقوافل التجار ، فضلا عن تأمين استغلال محــاجرها ، وفتح أسواق التجــارة مع مناطقها المسكونة ، ولاتخاذها وسيطا تجاريا بين مصر ومناطق السودان الغنية بمنتجاتها الطبيعية ونباتاتها وحيواناتها(٥١) ، الا أن فكرة استعمــار النوبة لم تطــرأ — فيما يرى ألن جاردنر — فى أذهــان المصريين الا متأخرة ، وقد تقبلوا فى تعقل «الفانتين» كحد جنوبى لهم مدركين أن المنطقة وراء الجندل الاول ليس مرغوبا فيها كممتلكات ، وأن حاجاتهم يمكن أن تسد عن طريق رحلات خاصة(٥٢) •

وفى مرسوم الملك «ببى الاول» — الآنف الذكر — والذى يعفى أتباع هرمى سنفرو من خدمات معينة ، كان رعايا فرعون الاقــل حظا يكلفون بها ، وقد عثر على اللوحة التى تحمل هذا المرسوم ، وفيها نلتقى بفقرات متعددة تحرم التدخل معهم بواسطة « النوبيين المسالمين » وهو

---

(٥٠) A. H. Gardiner, op cit., p. 117.

(٥١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٧ •

(٥٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 98.

اصطلاح يظن أنه رجال الشرطة من «المدجايو» فى العصور المتأخرة ، ونستطيع أن نستنتج من قول «ونى» أنه استطاع أن يجند متطوعين لحملاته الاسيوية من بين مختلف القبائل النوبية ، كيف رحب هؤلاء بفرصة وجود عمل فى أرض كانوا يعدونها أنسب من أرضهم ، وكيف نجح «ونى» فى توطيد علاقاته بزعماء النوبة(٥٣) •

وقد زار «مر ان رع» بشخصه منطقة اليفانتين (جزيرة أسوان) ليتقبل ولاء رؤساء مدجا وارثت وواوای(٥٤) ، وانتهز الرؤساء النوبيون الفرصة لاعلان خضوعهم ، ولتقبيل الارض بين يدى الفرعون(٥٥) ، وربما لا يقدر لنا أن نعرف سوى القليل — الى جانب الحقائق الآنفة الذكر — عن علاقة مصر بالنوبة ، لولا النقوش التى أمر أمراء أسوان الكثيرون أن تنقش على جدران مقابرهم التى حفروها فى التلال الحجرية عند أسوان ، وربما كان هؤلاء الامراء نصف نوبيين •

وعلى أى حال ، فانهم انما كانوا يعرفون لغة أو لغات القبائل التى كان يطلب اليها زيارتها ، كما يبدو كذلك أنهم كانوا أكثر صلاحية للسفر للخارج من معظم النبلاء المصريين ، مادامت بونت وبيبلوس تذكران كأماكن تردد عليهما أحدهم(٥٦) ، وحملوا ألقاب المترجمين «امير اعو»، كان الواحد منهم يلقب بلقب يدل على رياسة فرقة من المرتزقة ، حيث أن عددا من هؤلاء أو من الجنود النظاميين ، كانوا يرافقون تلك البعثات لحمايتها(٥٧) ، ومن أشهر رجال البعثات فى الاسرة السادسة «ارى» و «حر خوف» و «ببى نخت» و «ميخو» و (سابنى) وكان أكثرهم شهرة «حر خوف» و «ببى نخت» •

---

(٥٣) ZAS, XLII, p. IF.

(٥٤) Urk., I, 1932, p. 101.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 99.

(٥٥) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Chicago, 1906. p. 317.

(٥٦) A. H. Gardiner, op cit., p. 99.

(٥٧) H. Goedicke, JEA, 46, 1960, p. 60-64.

قام «حر خوف» محافظ أسوان (آبو = اليفانتين) بأربع رحلات الى الجنوب ، وكانت الثلاثة الاولى — كما تحدثنا نقوش قبره بأسوان —[٥٨] فى عهد الملك «مرى ان رع» ، وأما رحلته الرابعة فقد كانت على أيام «ببى الثانى» ، وتبدأ النقوش بالطريقة المعتادة،بالالقاب والنعوت للامير ، رئيس التراجمة «حر خوف» : «أرسلنى جلالة مولاى مرى ان رع ، مع أبى الصديق الوحيد ، والكاهن المرتل «ارى» الى «يام» لأعبد الطريق الى هذه البلاد ، وقد أتممت الرحلة فى سبعة شهور ، وعدت من هناك بكل الهدايا العظيمة النادرة ، ونالنى المديح من وراء ذلك[٥٩] .

ويقوم «حر خوف» برحلته الثانية ، فيحدثنا عنها قائلا : «أرسلنى جلالته مرة ثانية بمفردى ، فخرجت على طريق اليفانتين وعدت من ارتى وخر ، وتررس وارتبنى فى مدى ثمانية شهور . وعدت وحملت معى هدايا من هذه البلاد فى كميات ضخمة جدا ، لم يحدث أن جىء بمثلها من قبل ، وقد رجعت عن طريق مجاورات بيت رئيس زاتو وايرتى ، وفتحت بهذا طريقا الى هذه البلاد ، ولم يحدث أن تم هذا بالنسبة لأى سمير أو رئيس تراجمة ممن توجهوا الى يام من قبل[٦٠] .

ويذهب الدكتور عبد العزيز صالح الى أن الرحلة الثانية هذه،انما بدأت من أبيدوس ، وسلك فيها طريقا سماه «طريق العاج» وقطع — فيما يظن «ايدل» و «ديكسون»[٦١] — نحوا من ١٧٢٥ كيلا ، على ظهور الحمير ، بلغ فيها دنقلة الاوردى ، على مقربة من الشلال الثالث، وعاد بعد ثمانية شهور قضاها فى ذهابه وايابه[٦٢] .

---

(٥٨) J. de Morgan, Catalogue des Monuments et Inscriptions de l'Egypte Antique, I, p. 163 F.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 333-336.
وكذا K. Sethe, Urk, I, 1932, p. 120-131.
(٥٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 99.
(٦٠) Ibid., p. 119.
(٦١) D Dixon, JEA, 44, 1958, p. 54-55.
(٦٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٨ .

ويتحدث «حر خوف» عن رحلته الثالثة فيقول : «أرسلنى جلالته الى يام مرة ثانية ، فخرجت من المقاطعة الثينية ، من أبيدوس — أو من بلدة «هو» الحالية (على مقربة من نجع حمادى) ، فيما يرى هرمان كيس[٦٣] على طريق الواحات ، ووجدت رئيس «ايام» قد ذهب الى أرض التمحو ، ليضرب التمح فى ركن السماء الغربى ، فذهبت وراءه الى أرض التمحو وأرضيته حتى مدح الآلهة من أجل الملك»[٦٤] .

وهكذا يحدثنا «حر خوف» هنا عن حروب استعر أوارها بين زعيم يام وبين قبائل التمحو ، الذين كانوا يعيشون غربى مصر ، ونجح فى عقد مصالحة بينهما رغبة منه فى تهدئة الاحوال على طريق القوافل ، حتى يستطيع تأمين سبل التجارة التى أوكل اليه «مرى ان رع» أمرها ، وعاد من رحلته هذه ، ومعه ثلاثمائة حمار محملة بالبخور والابنوس وزيت حنكووسات وجلود فهود وأنياب فيلة وبذر سمسم وبوميرانج (عصى رماية) وكل المنتجات العظيمة ، فضلا عن مرافقيه الذين دلوه على الطريق .

وأما رحلته الرابعة ، فقد قام بها فى العام الثانى من حكم «ببى الثانى» وقد غطت أخبار حصوله على قزم من أسواق السودان على كل شىء آخر فى الرحلة ، وذلك حين كتب الى مولاه «ببى» يخبره بأمر هـذا القزم ، فاهتم الملك الطفـل بهذه الدمية ، أكثر من اهتمـامه بـ «حرخوف» نفسه ورحلته .

ثم كتب اليه : «تعال الى الشمال ، تعال سريعا الى القصر ، وأحضر معك هذا القزم الذى جئت به من أرض الارواح حيا سالما ، وفى صحة جيـدة ، ليرقص للاله ، ويدخـل السرور آلاف المرات على قلب ملك مصر العليا والسفلى ، الملك «نفر كارع» (ببى الثانى) عاش الى الابد ،

---

(٦٣) H. Kees, Ancient Egypt, London, 1961, p. 177.
(٦٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 100.

ثم يطلب منه بعد ذلك تشديد الحراسة على القزم ، حتى لا يقــع فى الماء ، وأن يسهر على راحته رجال أذكياء ، «لان جلالتى يجب أن يرى هذا القزم ، أكثر من هدايا المناجم ، وهدايا بلاد بونت» ، ثم يعهد بهداياه — بعد أن وصل القزم حيا ، وفى صحة جيدة — أكثر من تلك التى أعطيت لقائد السفينة «باور — دد» على أيام الملك «جد كارع» (اسيسى)[٦٥] .

بقيت مشكلة التعريف بالاماكن التى أشار اليها «حر خوف» ، فأين تقع — بصفة خاصة — بلاد «يام» و «واواى» و «ارتى» و «مدجا» ؟.

لقد قام جدل طويل حول موقع «يام» والتى كانت نقطة النهاية فى رحلات «حر خوف» ، فذهب «ديكسون»[٦٦] الى أنهــا جنوب بطن الحجر ، وأنها لا تتعدى جنوب خط ٢٢ ، بينما ذهب «جان يويوت» الى أنها فى واحة دنقلة[٦٧] ، وأما الدكتور عبد العزيز صالح فالرأى عنده أنها انما تقع على مقربة من مجرى النيل ، حول الجندل الثانى[٦٨] ، على أن «جاردنر» انما يذهب بها الى ما وراء الشلال الثانى ، ولكنها ليست «كرما» التى تقع فيما وراء الشلال الثالث ، ومن ثم فهى بين الشلالين الثانى والثالث[٦٩] .

وهناك من يرجح أن رحلات «حر خوف» التى استغرقت من الزمن شهورا ستة ، واعتمدت على الحمير فى تنقلاتها ، انما استخدمت درب الاربعين ، ولم تتم عن طريق النيل — كما يظن البعض — والا فقد كان

---

(٦٥) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٥٥ — ١٥٦ .
وكذا Urk., I, 1932, p. 129 F.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 351 F.
(٦٦) D. M. Dixon, JEA, 44, 1958, p. 40 F. 53-54.
(٦٧) جان يويوت : مصر الفرعونية ص ٥٢ .
وكذا J. Yoyotte, BIFAO, LII, 1953, p. 176 F.
(٦٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٣٨ .
(٦٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 101.

أيسر لحر خوف أن يسافر بالنيل الى الشلال الثانى على الاقل ، حتى يتحاشى الصخور والرمال على جانبى النيل[٧٠] •

وهكذا يرجح «أركل» أن «حرخوف» انما قد استخدم « درب أسيوط » ، وأن « يام » فى رأيه انما تقع فى دارفور[٧١] ، وأما « هرمان كيس » فالرأى عنده أن « يام » انما تقع عند جزيرة «ساى» شمال الجندل الثالث[٧٢] ، ويذهب أستاذنا الدكتور أحمد فخرى — طيب الله ثراه — أن «يام» انما تقع فى المنطقة الواقعة جنوب وادى حلفا[٧٣] •

والرأى عند أستاذنا الدكتور نجيب ميخائيل أن «يام» انما تعنى من الناحية الجغرافية اقليم بحر الغزال الحالى ، وأن الوصول اليها كان عن أحد طريقين : أولهما وادى ألك بالقرب من الجندل الثالث حتى جبال النوبة (جنوب كردفان) ، ثم منطقة بحر الغزال التى يقع فيها خط تقسيم المياه بين النيل والكنغو • وثانيهما : سكة وادى الاربعين عن طريق الفاشر أو شرقها بقليل مارا بالواحة الخارجة ، ومن الفاشر الى بحر الغزال ، عن طريق بلاد النوبة •

ويعضد أستاذنا رأيه بأمور ، منها طول مدة الرحلات ، ومنها النص على أنها رحلات تستهدف الكشف عن بلاد مجهولة ، ومنها نوع المحصولات التى يؤتى بها من هذه البلاد وهى محصولات استوائية ، ومنها احضار القزم الذى ربما انتقل من الكنغو مع التجار ، ومنها الاسم الذى يطلق على المنطقة التى يعيش فيها (دنج أو دنجى)[٧٤]•

---

(٧٠) فوزى فهيم جاد الله : المرجع السابق ص ٦٤ •

(٧١) A. J. Arkell, A History of The Sudan from Earlest Times to 1820, London, 1961, p. 42 F.

(٧٢) H. Kese, Ancient Egypt, A Caultural Topography, London, 1961, p. 128 F.

(٧٣) احمد فخرى : مصر الفرعونية — القاهرة ١٩٧١ ص ١٥٤ •

(٧٤) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢١٦ — ٢١٨ •

وأما الاماكن الاخرى ، فقد حددت «واواى» بأنها تمتد جنوبا من الجندل الاول الى مسافة كبيرة ، وأما «ارتى» فقد حددت على مقربة من «توماس» عند منتصف الطريق بين أسوان ووادى حلفا ، وأما «مدجا» فتقع على مقربة من الجندل الثانى[٧٤] .

وجاء بعد «حرخوف» محافظ آخر لاسوان ، عرف بشدة البأس ، ويدعى «ببى نخت»[٧٦] ، ويكنى «حقا — ايب» بمعنى (المتحكم فى نفسه أو صاحب القلب المسيطر) ، ونعرف من نقوش فى مقبرته بأسوان أنه كان رجلا حكيما ، يستعمل الشدة حين يحتاجها ، واللين حين يكون مناسبا[٧٧] ، فتابع سياسة سلفه فى أعمال الكشف ، وتأمين التجارة فى النوبة ، وان كنا لاندرى على وجه اليقين ، ماذا حدث فى «واواى» و «ارتى» ؟ مما دفع «ببى الثانى» الى أن يرسل «ببى نخت» على رأس حملة تأديبية الى هناك ، وان كان يبدو أن الصعاب بدأت منذ رحلة «حر خوف» بسبب تلك القبائل القوية الشكيمة ، والتى بدأت تزحف من جنوب النوبة الى شمالها ، فى اتجاه الحدود المصرية ، حتى أن الرجل لم ينجح هذه المرة ، الا بجهود بعض الزعماء الذين كان يرتبط بهم بصلات الود،فضلا عن الحماية التىهيأتها له حاميته العسكرية[٧٨] .

وأيا ماكان الامر ، فان «ببى نخت» يحدثنا عن مهمته هذه ، فيقول : «أرسلنى جلالة مولاى لاسارع الى بلاد واواى وارتى ، وقد تصرفت بما أرضى مولاى ، وذبحت عددا كبيرا منهم ، من أبناء الرؤساء وضباط الجيش الشجعان ، وأحضرت الى العاصمة من هناك عددا كبيرا من

---

(٧٥) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 101.

(٧٦) Urk., I, 1932, p. 131 F.

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, p. 355-360.

وكذا J. de Morgan, op. cit., I. p. 175 F.

(٧٧) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 358-359.

(٧٨) محمد أبو المحاسن عصفور : المرجع السابق ص ٣٠ .

الاسرى ، وكانت على رأس مجموعة من الجنود الاقوياء الشجعان»[٧٩]

ويتحدث «ببى نخت» فى موضع آخــر من قصته ، أنه ذهب مرة أخرى الى تلك البلاد لتهدئة الاحوال ، وأنه أحضر معه قائد التمرد ، مقبوضا عليه ، ومعه الكثير من الهدايا من الثيران والابقار ، ولعل هذه الحملة ، انما كانت لتهدئة النفوس ، ولازالة آثار الحملة الاولى التى صاحبها العنف فى كثير من مراحلها ، وربما كان من نتيجة هذه السياسة ــ الشدة حينا ، واللين حينا آخر ــ استمرار تجارة مصر فى النوبة ، وربما وصلت هذه التجارة الى «كرما» جنوب الجندل الثالث[٨٠] •

هذا ويقص علينا «ببى نخت» (حقــا ايب) كذلك ، أن الملك قد أرسله الى «بلاد الاسيويين»[٨١] ــ وربما كانت تقع فى مكان ما على شاطىء البحر الاحمر ــ لاستعادة جثة موظف ذبحه البدو ، مع كل رفاقه ــ هناك ، وهو يبنى سفينة لرحلة الى بونت[٨٢] •

ولعل هذا كله انما يشير الى أنه رغم العلاقات الطيبة المعتادة ، فقد كان من الممكن أن تقوم بعض المتاعب الخطيرة فى النوبة ــ وكذا على شاطىء البحر الاحمر ــ وأن سلطة الفرعون انما كانت فى حاجة الى من يعضدها من أمراء الاقاليم ، وأن «ببى الثانى» انما قد وجد فى أمراء أسوان ذلك السند الذى يعضد هذه السلطة[٨٣] •

وجــاء بعد ذلك «ميخــو» وولده «سابنى» ونعــرف من نقوش

---

(٧٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 89.
(٨٠) G. A. Reisner, ZAS LII, 1917, p. 43 F.
وكذا G. A. Reisner, Exavations at Kerma, Cambridge, 1923, p. 16.
(٨١) J. H. Breasted, ARE, I, Chicago, 1906, p. 360.
(٨٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 101.
وكذا W. S. Smith, CAH, I Part, 2, 1971, p. 194.
وكذا K. Sethe, Urk., I, 1932, p. 131-135.
(٨٣) محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٥٨ ــ ٦٤ •

مقبرتيهما فى أسوان[٨٤] أن «ميخو» قد دفـــع حياته ثمنا لتفانيه فى خدمة فرعون ، حيث قتله أحد رجال القبائل النوبية ، ابان عودته من احدى رحلاته •

ويحدثنا «سابنى» أنه خلف أباه فى امارة أسوان ، وأنه قد أسرع لاحضار جسد أبيه من بلاد «واواى» و «ارتى» وليهدىء الاحوال فى تلك البلاد ، وهناك فى منطقة نائية نجح فى الحصول على بغيته ، وفى أن يعود بها الى «واواى» ثم يرسل الى فرعون يخبره بما حــدث ، فيأمر بارسال المحنطين الملكيين من العاصمة منف لتحنيط الجثة ، ثم دفنها بما يتفق ومكانة رجل ضحى بحياته من أجــل مولاه الفرعون • وأخيرا يصدر الملك أوامره بأن يتولى «سابنى» وظائف أبيه ، ثم يكتب اليه قائلا : لقد فعلت كل هذه الاشياء العظيمة مكافأة لك على عملك الكبير ، لانك أحضرت جثة أبيك[٨٥] •

وأخـــيرا فهناك فى مقابر قـــادة البعثات فى أسوان ، ما يشير الى رحلات بحرية الى بيبلوس وبلاد بونت ، الامر الذى ظهر ربما بصورة منتظمة فى الاسرة السادسة[٨٦] •

(٣) فى الغــــــرب

هناك فى حجر بالرمو ما يشير الى أن «سنفرو» ــ مؤسس الاسرة الرابعة ــ انما قد قام بحملة ضد «تيحنو الليبيين» وأنه قـــد حصل على غنائم كثيرة منها ، فقد أسر من «التحنو» ١١٠٠ أسيرا ، واستولى على ١٣١٠٠ رأسا من الماشية والاغنام[٨٧] ، وليس هذا مجال الدخول

---

(٨٤) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 362-374.
(٨٥) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٥٧ ــ ١٥٨ •
وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 194.
(٨٦) W. S. Smith, op. cit., p. 194.
وكذا K. Sethe, Urk., I, 1932, p. 140.
(٨٧) E. Drioton et J. Vendier, Les Peuples de L'Orient Mediterraneen, II, l'Egypte, Paris, p. 170.

فى مناقشة جدلية حول القيمة التاريخية لهذه الارقام ، طالما أنها المصدر الوحيد لدينا ، وهى تشير — على أى حال — الى وجود اضطرابات على الحدود الغربية فى ذلك العهد ، مما أدى الى القيام بعمليات عسكرية كبيرة هناك[٨٨] .

وفى الاسرة الخامسة ، يبدو أن الاضطرابات قد تجددت على الحدود الغربية ويقدم لنا معبد «ساحورع» الجنازى فى «أبو صير» مناظر توضح نشاطه العسكرى ضد فريق من عصاة القبائل الليبية فى الصحراء الغربية ، مسجلة أعداد الاغنام والماعز والماشية التى تم الاستيلاء عليها ، وهى من الكثرة بحيث تدل على أن واحاتهم ومناطقهم الساحلية كانت وفيرة العشب والمرعى ، كما تصور المناظر اخضاع أمراء أجانب وعائلاتهم ، حيث تقدم لنا زوجة الامير الليبى الاسير وولديه ، وقد كتبت اسماؤهم فوق مناظرهم[٨٩] .

ومن عجب أن نلتقى بالمنظر نفسه فى معبد الملك «ببى الثانى» من الاسرة السادسة ، حيث يحمل الامراء الليبيون الاسماء نفسها[٩٠] ، ولعل هذا هو الذى دفع «أركل» الى القول بأن الكثير من هذه المناظر التى تمثل الحروب والانتصارات لا تخرج عن كونها مناظر تقليدية[٩١]، والامر كذلك بالنسبة الى «ايتين دويوتون» و «جاك فاندييه» ، اللذين ذهبا الى أن هذه المناظر والنقوش ، يجب ألا تأخذ كوثائق تاريخية ، دون أن نضعها تحت منظار البحث العلمى[٩٢] .

ومع ذلك ، فليس هناك من ريب،فى أن مناظر معبد الملك«ساحورع»

---

(٨٨) فوزى فهيم جاد الله : المرجع السابق ص ٦٢ .

(٨٩) A. Weigall, op. cit., p. 43.

(٩٠) G. Jequier, le Monument Funeraire de Pepi II, Vol, II, Cairo, 1963, p. 8-11.

(٩١) A. J. Arkell, op. cit,. p. 95.

(٩٢) E. Drioton et J. Vandier, op. cit., p. 100.

مناظر أصيلة[٩٣] ، فضلا عن أن فائدة هذه المناظر والنقوش جد كبيرة، حتى وان كانت مناظر تقليدية ، ذلك لانها انما تقدم لنا الكثير من مميزات الازياء والملابس والاسلحة وغيرها من المميزات والخصائص ، مما أفاد المعرفة التاريخية كثيرا[٩٤] .

وفى الاسرة السادسة ، يحدثنا «ونى» أنه ضم الى جيشه الذى قاده الى غربى آسيا ، ليقضى على الاضطرابات هناك ، جنودا من «أرض التمحو»[٩٥] ، كما أن رئيس القوافل «حر خوف» يحدثنا فى مقبرته بأسوان ، أنه تقدم الى «أرض التمحو» أثناء رحلته الى بلاد «يام»[٩٦] — الامر الذى ناقشناه من قبل .

---

(٩٣) H. Kess, Ancient Egypt, 1961, p. 170 F.

(٩٤) فوزى فهيم جاد الله : المرجع السابق ص ٦٣ .

(٩٥) J. A. Wilson, Asiatic Campaigns under Pepi I, ANEI, 1966, p. 228.

(٩٦) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 100.

الباب الثالث

عصر الثـــورة الاجتمــاعية الاولى

ويتكـــــون من :

١ ـ **الفصل الاول :** أسباب قيام الثورة الاجتماعية الاولى ·

٢ ـ **الفصل الثانى :** الحيـــاة السياسية فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى ·

٣ ـ **الفصل الثالث :** نتائج الثورة الاجتماعية الاولى ·

الفصل الأول

أسباب قيام الثورة الاجتماعية الاولى

يختلف المؤرخون فى الوقت الذى قـامت فيه الثورة الاجتمـاعية الاولى فى مصر الفراعنة ، فبينما يرى فريق منهم انها انما تقع فى عهد «ببى الثانى» ، يرى فريق آخر أنها انما تقع فى عهد خليفتيه الضعيفين، وانى لأعتقد أن عهد « ببى الثانى » قد مهد لقيام الثورة ، وأعطاها مبرراتها ، ولكنها لم تتم فى عهـده ، وانما فى عهد آخـر خط الملوك المنفيين ، فربما قامت فى عهد «مرى ان رع» (عنتى ام سا اف) وأنه دفع حياته ثمنا لها ، وطبقـا لرواية «هـيرودوت» عن الملكة «نيتو كريس»[1] فان «مرى ان رع» قد قتل بيد رعاياه[2] .

وربما قامت الثورة[3] فى عهد «نيتو كريس» نفسها ، وربمـا كان انتقامها لأخيها ، حين احتالت على قتلته حين حبستهم فى قصرها ، ثم أطلقت عليهم ماء النهر فجأة ، عن طريق سد سرى ضخم ، ثم انتحرت

---

(١) اختلفت المؤرخون فى الملكة «نيتوكريس» ، فاعتبرها بعضهم أم الملك «ببى الثانى» واعتبرها آخرون زوجته وأخته ، وربما عاشت بعده ، واعتبرها فريق رابع امرأة انتهت اليها وراثة العرش فى آخـر الاسرة السادسة ، وأنها انفردت بالعرش لمدة عامين · غير أن أيامها انتهت بانهيار الاسرة بعدها (عبد العزيز : المرجع السابق ص ٤٠٠) ·
وكذا P. E. Newberry, Queen Nitocris or The Six Dynasty, JEA, 29, 1943, p. 51-54.

(٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ــ ترجمة محمد صقر خفاجة ص ٢١٣ ــ ٢١٦ ·
وكذا Herodotus, II, Parag, 100.

(٣) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن «الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة» فقد كانت موضوع رسالته التى حصل بها عام ١٩٦٦ على درجة الماجستير من كلية الآداب ــ جامعة الاسكندرية ·

بعد ذلك ، حين ألقت بنفسها فى أتون متأجج من النار ، وقضت على نفسها بنفسها .

وربما أدى ذلك الى أن ينتهز الشعب فرصة خلو العرش من شاغليه ، وانتقاما لكثيرين قتلوا من المصريين ، فكان ذلك سببا مباشرا للقيام بالثورة — بجانب أسبابها الاخرى الاصلية ، والتى سنوجز الحديث عنها حالا — ومع ذلك فهذه كلها افتراضات(٤) ، اذ أنه من المستحيل أن نقرر فى أية لحظة حدث الاضطراب الخطير ، وأما حدوثه فأمر ليس فيه شك ، وهناك ما يدعو الى الظن بأن الفوضى قد ظلت بصفة مستمرة أو متقطعة ، حتى الاسرة الحادية عشرة(٥) .

ان المؤرخ لتاريخ مصر الفراعنة ، حين يصل الى عهد الثورة الاجتماعية الاولى ، فان عدة مشاكل تظهر أمامه وتحتاج الى حل ، وأول ما يخطر بباله دوافع تلك الثورة التى قام بها المصريون ضد مليكهم ، وهم يعتقدون فى ألوهيته ، وفى الحقيقة ان الثورة لم تكن ضد الفرعون وحده ، وانما كانت كذلك ضد الكهانة — بل وضد الآلهة نفسها — فضلا عن أمراء الاقاليم ، وأن ذلك كله انما حدث فى أخريات أيام الأسرة السادسة ، عندما وصلت حالة البلاد الى درجة كبيرة من السوء ، نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية ، فضلا عن عوامل نفسية ، وأخرى خارجية ، وكان الوعى الشعبى وقت ذلك قد وصل الى درجة ، دفعت الثائرين الى القيام بثورتهم .

١ — الاسباب الاقتصادية :

قامت الثورة الاجتماعية الاولى لاسباب اقتصادية كثيرة ، منها (أولا) تشييد مبان تهدد الاقتصاد القومى ، وتشييد أهرام لكل ملك

---

(٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى — الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٥) A. H. Gardiner, op. cit., p. 190.

جديدة أمراء كان المفروض فى كل منها أن يخلد على الدهر ، وكانت تبنى واحدا بعد آخر فى كل جيل •

ولقد كان بناء الاهرامات وغيرها من المبانى الدينية ، نتيجة سطوة الدين على المصريين ، وأثره فى حياتهم وتفكيرهم ، فالدين — كان ولايزال وسيظل — أكبر قوة تؤثر فى حياة الانسان ، كما أنه كان منفذا للخيالات ، ومحاولة لتفسير الظواهر المحيطة به ، ذلك التفسير الذى أوحى اليه بفكرة الخلود ، أو الحياة بعد الموت ، هذه الفكرة قد اعتنقها القوم وكان لها أكبر الاثر فى نفوسهم ، بل انه — فيما يرى برستد — لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة التى احتلتها فى نفس الشعب المصرى القديم(٦) •

وكان من نتائج ذلك أن ترك لنا المصريون القدامى عددا هائلا من المقابر والاهرامات والمعابد التى لا يمكن حصرها ، بينما لا نجد الا قليلا من المنازل التى كان يعيش فيها القوم ، بل أن العواصم الكبرى — كمنف وطيبة — قد اختفت ولم تكد تترك أثرا ، ولعل السبب فى ذلك أن الاولى انما كانت تبنى بالاحجار ، بينما كانت الثانية تبنى باللبن ، ايمانا منهم بأن الاولى أبدية ، وأن الاخرى وقتية •

غير أن هذه العقيدة ، وما نتج عنها من مبان ضخمة هائلة أرهقت الاقتصاد القومى ، وألقت عبأ ثقيلا على خزائن الدولة ، واذا صدقنا رواية هيرودوت من أن بناء الهرم الاكبر استغرق عشرين عاما ، عمل فيه مائة ألف رجل ، كان يستبدل بهم غيرهم كل ثلاثة شهور ، وأن بناء طريق مرتفع (الطريق الصاعد) لنقل الاحجار التى استخدمت فى بناء

(٦) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, London, 1939, p. 45.

الهرم انما استغرق عشر سنوات ، وأن هذا العمل لا يقل مشقة عن بناء الهرم نفسه[٧] .

اذا صدقنا ذلك ، وأضيف اليه أن سنة ملوك الدولة القديمة ، انما كانت بناء الاهرامات ، حتى بلغ مجموع ما فى مصر من أهرام أكثر من سبعين هرما نعرف أماكنها ، ويصعب على أى انسان أن يذكر تقديرا صحيحا لما عساه أن يكون ما يزال مدفونا منها تحت رمال الصحراء[٨]، لظهر لنا أى عبء ألقى على خزانة الدولة .

ومع ذلك فقد ظلت هذه العادة متسلطة على عقول القوم وعقائدهم، حتى أننا نرى فى الاسرة السادسة — رغم ضعف ملوكها ، ونقص موارد خزائنها — فقد سار ملوكها على سنة أسلافهم من الفراعين العظام فى بناء أهرامات يدفنون فيها ، بل ان «ببى الثانى» — والذى وصلت البلاد فى عهده الى مرحلة تنذر بالخطر — لم يكتف ببناء هرم له ، وانما بنى — الى جانب مجموعته الهرمية —[٩] أهرامات ثلاث لثلاث ملكات من زوجاته ، وهن «نيت» و «ايبوت»[١٠] و «أوجبتن»[١١] .

وهكذا اهتم الفراعين فى عهد الدولة القديمة ببناء الاهرام اهتماما كبيرا ، وقد كلف ذلك خزانة الدولة ما لا تطيق ، خاصة فى أخريات عهد الدولة القديمة ، عندما وصلت مواردها الى حد أن أصبحت حكومتها شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها ، وممارسة حقوقها ، وتحمل تبعاتها ، ومع ذلك لم ينس الفراعين أن يقيموا لانفسهم أهراما يدفنون فيها ،

---

(٧) هيرودوت يتحدث عن مصر ص ٢٤٧ — ٢٥٥ . وكذا G. Rawlinson, The History of Herodotus, II, London, 1929, p. 177-179.

(٨) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٦ .

(٩) G. Jequier, Les Monuments Funerairerde Pepi, II, 3 Vols, Cairo, 1936-1940.

(١٠) G. Jequier, Les Pyramides des Reines Neit et Apouit, Cairo, 1933.

(١١) G. Jepuier, Pyramide d'Neupjeptin, Cairo, 1928.

مما أرهق الشعب أيما ارهاق ، وجعل بوادر السخط تتجمع ضدهم ، وهكذا يمكن أن يقال أن ما أنفق من أموال على هذه الجبانات الضخمة انما كان واحدا من عوامل الثورة ، وان كان هذا لا يعنى أن العاملين فى بنائها كانوا مكرهين ، لا راضين ، فذلك أمر آخر .

وكان السبب الاقتصادى الثانى : ذلك العبء الناتج من تخصيص هبات دائمة للصرف منها الى أبد الابدين على العناية بمقابر الملوك والملكات ، فضلا عن الامراء والنبلاء ، ومن ثم فقد كان الملوك يبعدون جزءا من الاراضى عن حظيرة الاقتصاد الطبيعى ، والقاء تبعات ثقيلة على الاراضى الاخرى[١٢] ، وكانت تلك الاوقاف تبلغ أحيانا مقدارا كبيرا من المال ، ففى القرن التاسع والعشرين قبل الميلاد ، أوقف على قبر الامير «نكاو رع» بن «خفرع» ما لا يقل عن اثنى عشرة بلدة من ممتلكاته الخاصة ، وأوقف كل دخلها على صيانة قبره[١٣] .

وفى الاسرة السادسة أصدر «ببى الاول» أمرا ملكيا نيابة عن سلفه «سنفرو» لصالح مدينتى هرميه ، جاء فيه «أمر جلالتى بأن تعفى هاتان المدينتان الى الابد من آداء أى عمل للقصر الملكى ، ومن أى عمل بالقوة لاجل المقر الملكى الى الابد ، ومن أية سخرة يأمر بها أى انسان الى الابد»[١٤] .

وفى عهد «ببى الثانى» صدر مرسوم ملكى باعفاء جميع العاملين بمعبد الاله «مين» فى مدينة «قفط» من أية التزامات نحو الدولة ، ويصب اللعنات على أى حاكم للصعيد يكلفهم بأى عمل أو يأخذ منهم حبوبا أو ماشية ، بل انه يتجاوز كل حد عندما ينظر الى من يفعل ذلك، على أنه خائن[١٥] .

---

(١٢) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 98.

(١٣) J. H. Breasted, A History of Egypt, London, 1946, p. 60.

(١٤) J. A. Wilson, op. cit., p. 99.

(١٥) W. C. Hayes, JEA, 32, 1946, p. 3-23.

وكذا J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, p. 99-100

وليت الامر اقتصر على ذلك ، بل ان أمراء الاقاليم قد نحتوا قبورهم فى صخور أقاليمهم — وخاصة فى مصر العليا والوسطى — وكان ذلك عبأ جديدا على الخزينة ، كلف الكثير من المال ، حتى رأينا مدير قصر الملك «وسر كاف» يعين ثمانية من الكهنة الجنازيين لخدمة قبره،ويكافىء الملك «ساحورع» أحد رجاله المقربين ، ويدعى «برسن» بأن يحول اليه دخلا من الخبز والزيوت كان يصرف من قبل على الملكة «نفر حتبه»[١٦]، ولعل الذى دفعه الى ذلك انما هو الرغبة فى التخلص من تلك الالتزامات الثقيلة التى نشأت من تضاعف عدد المقررات الموقوفة على القبور ، وذلك بتحويل القرابين التى كانت مخصصة من قبل لقبور قديمة الى قبور حديثة العهد[١٧] .

وأما ثالث الاسباب الاقتصادية ، فهو عبء مشترى الولاء من حكام الاقاليم المصرية البعيدة عن العاصمة ، وذلك حين بدأ هؤلاء الحكام يتباعدون عن الملوك ، وينشدون خلودهم فى أقاليمهم ، وبذا تولدت لديهم نزعة فردية دفعتهم على أن يتباهوا بما فعلوه ، وبما رفـع من شأنهم فى خدمة الملوك ، وكلما مر الزمن ، وضعف الملوك ، زاد حكام الاقاليم فى تباهيهم بما نجحوا فيه ، مما اضطر الملوك الى أن يعملوا على اكتساب رضاهم ، واقطاعهم الاراضى لربط دخلها على مقابرهم ، التى كان يقومون ببنائها من خزانة الدولة .

وتحدثنا الوثائق التاريخية أن «ونى» قد التمس من فرعـون أن يعطيه تابوتا من الحجر الجيرى من طره ، فأعطاه الملك التابوت ، فضلا عن غطائه ، الى جانب الباب الوهمى ومائدة القرابين[١٨] ، ومن المعروف أنه قد تمتع بهذا العطف الملكى أحد أمراء الصعيد (زعـو) ، عندما التمس من الملك أن يهدى أباه من بيت المال تابوتا وكتانا وعطرا ، فأمر

---

(١٦) J. H. Breasted, op. cit., p. 61.

(١٧) Ibid., p. 62.

(١٨) جيمس هنرى برستد : فجر الضمير — ترجمة سليم حسن — القاهرة ١٩٥٩ ص ٦٩ .

الفرعون باحضار تابوت من خشب ، فضلا عن عطور وزيت ومائتى قطعة من أجود الكتان[19] •

ويسمح الملوك بأن يرث الابنــاء آباءهم فى اقطاعياتهم ، وتتوزع ثروة البلاد بين الاسر القوية ، فى الوقت الذى تتناقص فيه ثروة الملك تدريجيا ، ويلجأ الفــراعين الى وسائل عــدة لاسترداد سلطانهم ، فيتعهدون تربية أبناء الحكام فى قصورهم ، لعلهم يصبحون أوفيــاء للعرش ، حين تصبح الامور بأيديهم فى أقاليمهم[20] ثم يعيدون وظيفة «حاكم الصعيد» ، الذى يعهدون اليه بالاشراف على ضرائب الصعيد ، وشئون حكامه[21] ، الا أن ذلك كله لم يغير من الوضع شيئا ، ولم ينجح الملوك فى كسب ولاء الحكام ، الذين أخذوا يستقلون عن الفراعين بأقاليمهم ، مما أدى آخر الامر الى قيام حــكومة متنافسة أحيانا ، متعادية أحيانا أخرى ، وحين تحرج الموقف للغاية ، عمت الفوضى فى البلاد ، وبالتالى قامت الثورة الاجتماعية الاولى •

وأما رابع الاسباب الاقتصادية : فهو انقطاع أو احتمال انقطاع الموارد التى كانت تأتى من التجارة الخارجية ، والتى كانت احتكارا ملكيا ، فقد كانت مصر على علاقات تجارية مع بلاد غربى آسيا ، ومع جزر البحر المتوسط ، ومع النوبة وليبيا وبلاد بونت ، وتدلنا نصوص أواخر الدولة القديمة على وجود اضطرابات فى تلك البلاد الاجنبية التى كانت تتجر معها مصر ، مما استدعى بعض اجراءات حربية فى النوبة والسودان[22] ، ومنها تلك الحملات التى أرسلت لتأديب النوبيين تحت قيادة «ببى نخت»[23] ، وتلك التى أرسلت الى غربى آسيا تحت

---

(١٩) A. H. Gardiner, ZAS, 79, 1954, p. 95-96.
(٢٠) انظر : Urk, I, p. 251 F.
وكذا H. Kees, ZAS, LXIV, p. 93.
(٢١) ايتين دريوتون وجاك فانديه : المرجع السابق ص ٢٦٣ •
(٢٢) J. A. Wilson, op. cit., p. 100.
(٢٣) J. H. Breasted ARE, I, 1906, Parag. 360, p. 163.

قيادة «بيبي» القضاء على التمرد عند أنف الرئم[٢٤] .

٣ — الأسباب الاجتماعية :

كان الفرعون يتمتع بوضع خاص بين رعاياه ، ربما يبعده عن وضع الطبقات اذ كان القوم يعتقدون أنه ليس واحدا من البشر وانما هو اله ، ورغم ذلك فهناك نصوص — وان كانت نادرة — تكشف فى ومضات قصيرة عما كانت تنطوى عليه نفس هذا الاله من مشاعر نبيلة ، ولمسات انسانية نحو رعاياه ، تبدو فى بعض المناسبات فتومض كالبرق الخاطف وسط تكاليف الحياة الرسمية الصارمة ، فهناك «نبوءة نفرتى» ، والتى تتحدث عن «سنفرو» على أنه كان ملكا محسنا ، وأنه كان حين يخاطب أحد رعاياه ، انما يقول له : «يا صاحبى» ، وحين يوجه حديثه الى رجال بلاطه انما يخاطبهم بقوله : «يا اخوتى» ، ثم حين ينزل من عليائه الالهية ليقوم بعمل «كاتب» فيمد يده الى صندوق مواد الكتابة ، ويأخذ قرطاسا وقلما ومدادا ، ثم يدون حديث الكاهن المرتل «نفرتى» ، حكيم الشرق التابع للالهة «باست»[٢٥] .

وهناك ما يروى عن الفرعون «نفر اير كارع» — ثالث ملوك الاسرة الخامسة — من أنه لم يترفع عن أن يترضى أحد رجاله ، ويدعى «رع ور» عندما لطمت عصا الفرعون ساقه عن غير قصد ، بل انه انما يأمر بأن ينقش ذلك على لوحة وضعت فى مقبرة هذا الموظف[٢٦] .، وهناك قصة أخرى تبين مدى حزن نفس الفرعون على ما أصاب وزيره «واش بتاح» ، الذى وافته منيته فجأة ، عندما كان «نفر اير كارع» يتفقد احدى المنشآت الملكية ، وأنه حاول اسعافه ولكنه فشل ، ثم عاد

(٢٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 96.

(٢٥) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 112.

(٢٦) S. Hassan, Excavations at Giza, (Season 1929-1930), I, Oxford Cairo, 1932, p. 18-19.

وكذا A. Weigall, Histoire de L'Egypte Ancienne, Paris, 1968, p. 45.

الى حجرته يدعو ربه «رع» من أجل وزيره ، ثم يأمر ولده بأن يسجل الحادث على قبره الذى منحه اياه(٢٧) •

هذا وقد كانت الطبقة الحاكمة ترتبط بالملك بروابط كثيرة ، ففى النصف الاول فى الدولة القديمة كان أمراء الاسرة المالكة يعينون فى منصب الوزارة ، كما كانت هناك مصاهرات بين أفراد من البيت المالك، وآخرين من الشعب ، ــ كما حدث فى زواج الامير «رع حوتب» من «نوفرة الجميلة» التى لم تحمل غير لقب يصلها بحاشية الملك أو معارفه (رخت نيسو)(٢٨) ، وزواج «بتاح شبس» من ابنة «شبسسكاف» ــ بل ان «ببى الاول» قد أصهر الى احدى الأسر القوية فى الصعيد ، حين تزوج من ابنتى أمير أبيدوس ، الواحدة تلو الاخرى(٢٩) •

وهكذا فان وجود أبناء الملك وأقاربه انما يجعل الخط الفاصل بين الملك والطبقات الاخرى غير واضح المعالم(٣٠) ، ولكن من ناحية أخرى، فان هذه الطبقة انما كانت بمثابة همزة الوصل بين الملك ورعيته ، وأنها تمتعت بالمناصب الكبيرة ، ثم الحصول على امتيازات كانت من قبل وقفا على الملوك دون سواهم •

وأما طبقة العامة ، فكانت تشمل التجار والصناع والعمال والفنانين والفلاحين ، وأما التجار فهم أصحاب التجارة الداخلية ، والتى كانت محدودة لدرجة كبيرة ، ومن ثم فان النصوص لا تتحدث عن التجار ، مما يدل على أن التجارة الداخلية ابان تلك الفترة لم تلعب دورا هاما، اذ أنها لا تعدو المعاملات المحدودة ، والتى تجرى فى الاسواق المحلية ، وقوم هذه صناعتهم لا ينتظر أن يكون لهم دور كبير فى تاريخ البلد

---

(٢٧) J. H. Breasted, ARE, J, Parag. 257 F.

(٢٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٣٣ •

(٢٩) A. Mariette, Catalogue General des Mouments d'Abydos, No. 253.

(٣٠) J. A. Wilson, op. cit., p. 76.

الذى يعيشون فيه ، ومن ثم فانهم لم يقوموا بدور هام فى الثورة أو فى هوامشها ، اللهم الا اذا كانوا قد شاركوا فى الاحداث المؤلمة ، ابان الثورة ، حين اختلط الحابل بالنابل ، وانتشر الغوغاء من القوم يبعثرون أشلاء الموتى ، ويحرقون قصور الاغنياء ، وينهبون مخازن الحكومة ، ويبعثرون محتويات مكاتبها ، وينشرون الرعب بين الناس[٣١] .

أما الصناع والفنانون فكانوا أكثر عددا ، وأشد خطرا من التجار، وذلك يرجع الى حرفتهم نفسها وأهميتها بالنسبة الى الحضارة المصرية القديمة ، والتى كانت فى أخص صفاتها حضارة فنية راقية ، وفنونها وصناعاتها هو أجل ما امتازت به ، حتى لا يعادلها شىء من عقائدها وآدابها وعلومها ، ولو لم يكن الفنانون والصناع موضع تقدير المجتمع وتشجيعه ، لكان من المستحيل أن يبلغا ذروة الابداع مع كثرة فى الانتاج لا يدانيها انتاج أية أمة أخرى[٣٢]

وليس أدل على قيمة الفن والفنان من أن رئيس كهنة منف ، انما كان يعد فى الدولة القديمة ، رئيسا أعلى للفنانين ، ويحمل لقب «المشرف العام على الفنانين» ، وربما كان يزاول المهنة ، وربما لان الاله بتاح كان بمثابة الفنان بين الالهة المصرية ، ومن ثم فقد أصبح كبير كهنه أكبر فنان فى مصر ، كما تحتم على كهنة اله الحق والعدل أن يكونوا المشرفين على القضاء ، ولقد استمر اشراف كبير كهنة بتاح على أهل الفن فى مصر طوال العصور التى بقى فيها بتاح رب منف[٣٣] .

كان المرجو أن تكون حياة الصناع والفنانين ميسرة ، جزءا وفاقا لما أنتجوا من فن رائع ، ولكن ليس هناك من دليل على أنهم كانوا من أهل الميسرة ، وان لم يكونوا فقراء ، كبقية الطبقة العاملة ، وقد وضعهم

---

(٣١) محمد بيومى مهران : الثـورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٧٦ ـ ٧٩ .
(٣٢) محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ١٢٣ .
(٣٣) أدولف ارمان وهرمان رانكة : المرجع السابق ص ٤٨٥ .

«برستد» الذى قسم المجتمع الى أمراء وعبيد ، (وان كنا لا نوافق على هذا التقسيم) بين هاتين الطبقتين ، ودعامهم بالطبقة الوسطى ، التى احتكرت الصناعات والفنون الجميلة ، وبرعت فيها كثيرا[٣٤] •

وانطلاقا من هذا ، فالرأى عندى أن هذه الطبقة التى تمثل الوسط فى المجتمع المصرى القديم ، انما قد قامت بدور ليس بالهين اليسير ، ذلك لان هذه الطبقة الوسطى هى التى تشعل فى الغالب الثورات بين الشعوب حين تثور ، لانها بحكم وضعها المحك بين الطبقتين العليا والدنيا ، كما أنها فى الغالب الاعم ، لم تفسد عن مترع وانغماس فى الشهوات ، ولم تذل عن فقر واملاق ، ومن ثم فهى غالبا ــ فى كل الشعوب ــ تحمل سمات المجتمع بما فيه من نقائص وعيوب ، وكذا بما فيه من حسنات وأفضال •

وأما طبقة العمال ، وهم الذين كانوا يعملون فى المناجم والمحاجر ، وفى بناء الاهرامات وفى المقابر والمعابد ، وكانت الدولة هى التى تحتكر استغلال المناجم والمحاجر ، وهى التى تشرف على العمال ، بطريقة تضمن العناية بهم والسهر على مصلحتهم ، فكانت تجند طوائف من العمال المختصين تحت اشراف رؤساء للعمال يقسمون الى فرق ، ثم الى زمر ، وكانت كل فرقة تحمل اسما معينا ، وكان هناك كاتب يسجل أسماء كل فرقة ، كما كان يسجل عملها وتاريخ انجازه ، هذا الى جانب مفتشون يمرون يوميا أو أسبوعيا ، وقد عثر فى منطقة الاهرام على مساكن للعمال ، على هيئة قاعات ضيقة طويلة ، يبلغ عددها قرابة المائة، ويتسع كل منها لنحو خمسين عاملا •

وقد أسهمت طبقة العمال هذه بنصيب وافر فى بناء هذه الشوامخ ، من الاهرامات الخالدة ، والمعابد الضخمة ، والمقابر البديعة ، مما يثبت

---

(٣٤) James Henry Breasted, A History of Egypt., New York, 1946, p. 85.

تلك الانتصارات المادية التى لم يسبق لها مثيل ، اذ لم يوجد شعب آخر فى بقاع العالم القديم ، نال من السيطرة على عالم المادة — بحالة واضحة العيان تنطق بها آثاره للان — مثل ما ناله المصريون القدامى فى وادى النيل ، فلقد بنى المصريون الاقدمون بنشاطهم الجم صرحا من المدنية المادية ، يبدو أن الزمن يعجز عن محوه محوا تاما(٣٥) •

ومع ذلك فيبدو أن هذه الطبقة لم تعش حياة ، تتفق والمجد الذى حققته للحضارة المصرية ، ربما كان النظام الدقيق الذى اتبع مع العمال، قد أعطاهم بعض حقهم ، وضمن لهم مأكلا وملبسا ، وربما كانوا أحسن حالا من الفلاحـين ، حتى أن الحكيم المصرى «ايبو — ور» عندما أراد أن يبين أن الصناعة قد تعطلت وأن الفنون قد أفسدها أعداء البلاد ، يقول دليلا على ذلك «حقا لقد أصبح بناة الاهرام فلاحين» مما يشير الى أن العاملين فى بناء الاهرام أفضل حالا من العاملين فى الزراعة ، وأما دور هذه الطبقة فى الثورة ، فربما كان أكثر أهمية من دور الفلاحين، وأقل خطرا من دور الصناع والفنانين •

وكانت طبقة الفلاحين — كما هى الان — تؤلف الغالبية العظمى من الشعب ، وربما كانت تتكون من فريقين الواحد : يملك أرضه وحقله، والاخر : أجير عند الفرعون — بادىء ذى بدء — ثم عند النبيـل أو حاكم الاقليم ، حين شارك هؤلاء سيدهم الغنيمة ، وكان هـذا الفريق مرتبطا بالارض ، لا ينفك عنها بحيث اذا انتقلت ملكية الارض ، انتقلت معها تبعيتهم من المالك القديم الى المالك الجديد ، وكان عليهم بجانب العمل فى الزراعة أن يعملوا كذلك فى حفر الترع والقنوات واقـامة السدود ، أما دور هذه الطبقة فى الثورة ، فيبدو أنه أقل من غيرها •

وعلى أى حـال ، فلم يكن هناك نظـام صريح ، يظل فيه النبلاء

---

(٣٥) James Henry Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 115-116.

والصناع والفلاحون مرتبطين بطبقة معينة جيلا بعد جيل ، ذلك لان قوما عمليين متسامحين — كالمصريين — لا يمكنهم اجبار شخص لكى يظل دائما فى طبقته التى توارثها ، ان واتته فرصة أو ضرورة للتغيير ، ففى العصور التى نمت فيها البلاد أيام الدولة القديمة كانت تحتاج الى خدمات الاكفاء من الرجال ، وفى مثل تلك الظروف يمكن أن يوجد الصناع من بين الفلاحين ، ويكون خدم المنازل عمالا مهرة ، ثم يكافأون بالممتلكات والوظائف والمميزات ، ومن ثم يصبحون ضمن الارستقراطيين(٣٦) .

وهناك أمثلة كثيرة انتقل فيها بعض المواطنين من أشخاص عاديين الى موظفين كبار فى الدولة ، فمثلا هناك «ونى» الذى يفهم من نصه المشهور(٣٧) ، أنه رجل من أسرة بسيطة جدا ، استطاع أن يرتفع الى كثير من الوظائف المرموقة فى البلاد ، ذلك أنه بعد أن خدم كموظف صغير فى عهد الملك «تتى الاول» ، أصبح فى عهد «ببى الاول» واحدا من رجال البلاط المقربين ، ثم عين بعد ذلك فى مركز كهنوتى ، ثم سرعان ما اكتسب ثقة سيده الذى عينه قاضيا لمساعدة الوزير فى مؤامرة أفرخت فى الحريم الملكى ، والبيوت الستة الكبرى(٣٨) ، وحين أنهى هذا الواجب الهام ، أصبح القائد العام لاحدى الحملات الحربية التى أرسلها الملك الى آسيا ، ثم سرعان ما أصبح «حاكم الصعيد» وأخيرا فلقد أنهى حياته بأن أصبح مؤدبا لابناء الملك ، ورقيبا له فى مخدعه(٣٩) .

وهناك المهندس المعمارى «نخبو» الذى بدأ حياته بناء عاديا ثم

---

(٣٦) J. A. Wilson, op. cit., p. 75.

(٣٧) انظر : J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 227-228.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag., 291-294, 306-313, 319-324, p. 134-135, 140-150.

(٣٨) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 94-95.

(٣٩) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 89.

مفتش بنائين ، ثم رئيس بنائين ، ثم مشرفا على طائفته ، ثم سرعان ما أصبح الرفيــق الوحيد ومصمم المبانى الملكية فى البيتــين القبلى والبحرى(٤٠) •

وعلى أى حال ، فالرأى عندى أن الوظائف العليا انما كانت متاحة لكل من تتوافر فيه الصفات اللازمة لشغل هذه الوظائف ، إلا أن ذلك لم يكن الا من الناحية النظرية ، اذ ارتفع من الطبقات الدنيـــا الى الطبقات العليا الاقلون ، غير أن الاكثرية انما قد بقيت فى قاع المجتمع، يذيقها من هو أعلى منها سوء العذاب •

وهكذا كانت هناك أسباب اجتماعية للثورة ، ربما نتيجة تسلطة طبقة خاصة على كل الوظائف الهامة فى البلاد ، وربما نتيجة استغلال هذه الوظائف الهامة استغلالا سيئا ، صحيح أن مصر قد نادت بالمســاواة النظرية ، لكن ضعف الملوك أمام قوة حكام الاقاليم وأبناء الاسر الكبيرة، واتجاههم نحو النزعة الفردية ، قد جعل هذه المساواة النظرية غير ذى موضوع ، ومن ثم فقد بقى نظام الطبقات المنفصلة معترفا به حتى قيام الثورة •

وهكذا يمكننا القول أن الثورة ربما أرادت فى هذا المجال أن تقضى على نظام الطبقات المنفصلة ، وأن تضربها فى قوتها التى تستند اليها ، وقد نجحت الى حدما فى ذلك ، حتى رأينا الملك ــ بعد الثورة ــ انسانا أكثر منه الها ، بعد أن كان الها أكثر منه انسانا ، وان كانت لم تستطع القضـــاء على نظام الطبقـــات ، وان زلزلته حتى قضى عليه فى الاسرة الثانية عشرة ، وهكذا كانت العوامل الاجتماعية احدى عوامل الثورة للقضاء على الفوارق الاجتماعية لحد ما بين المواطنين ، وقد كتب لها بعض النجح آخر الامر •

---

(٤٠) D. Dunham, The Biographical Incriptions of Nekkebu, JEA, 24, 1938, p. 4-5.

٣ ـ الاسبـــاب السياسية :

ترجع أسباب الثـورة السياسية الى ضعف الملكية وتخاذلها أمام حكام الاقاليم ، وقد بدأ هـذا الضعف منذ منتصف الاسرة الخامسة ـ كما أشرنا من قبل ـ ثم اشتد فى الاسرة السادسة ، وخاصة على أيام «ببى الثانى» الطويلة ، مما دفعه الى أن يعين وزيرين ، الواحد للصعيد ، والاخر للدلتا[٤١] ، أملا فى أن يساعداه على حماية عرشه ، ورغم ذلك فقد استمر الحكام فى فرض الضرائب الفادحة ، وامتنعوا عن توريدها الى بيت المال ، حتى أصبحت الحكومة فى منف شبه عاجزة عن تنفيذ أوامرها ، وممارسة حقوقها ، والقيام بمسئولياتها ، فتوقف ارسال البعثات الى المناجم ، وتجدد خطر الهجرات الاسيوية فيما وراء الحدود الشرقية ، مما أدى آخر الامر ـ بجانب عوامل أخرى ـ الى قيام الثورة •

٤ ـ الاسبـــاب النفسيـــة :

فى أخريات الاسرة السادسة ، بدأ الشعب يفقد ثقته فى حاكميه ، فلقد أصبحت الملكية ضعيفة ، والكهانة مستغلة ، والاقطـاع ينافس الجميع فى استغلاله ، وهنا يحس الشعب أن عليه أن يتحرك ، هـذا التحرك هو ما يعن للباحث أن يسميه الاحساس بالظلم ، فالثورات تقوم عادة حين يحس الناس بالظلم ، وهذا ما حدث فى ثورتنا هذه ، عندما أحس الشعب بالدور الذى يجب أن يقوم به ليخلع عن رقـابه ظلم الملكية ، وفساد الكهنة ، وسوء استغلال الحكام •

وكان ذلك نتيجة وعى شعبى دفع الثائرين للقيام بثورتهم،فالشعب يثور عادة لانه يحس بالغبن ، وهو لا يصل الى هذه المرحلة الا حين يرتفع لديه الوعى والادراك ، فالشعوب الجاهلة لا تثور ، وانما تقوم الثورات بين قوم يستطيعون أن يقدروا مدى ما يحيط بهم ، ويدركوا

(٤١) انظر : H. Stock, Die Erste Zwischenzeit Agyptens, Rome, 1949.

من الأمور خيرها وشرها ، وليس من شك أن الشعب المصرى كان قد بلغ اذ ذاك هذه المرحلة ، فأحس بوجوب تغير الاوضاع التى درج عليها لانها لم تعد تتفق ومطالبه الجديدة فى الحرية والحياة ، ولم تعد تتفق وما ينشده من عزة وكرامة ، يرى أنها جميعـا أصبحت عناصر لازمة لمقومات كيانه[٤٢] .

٥ ـ الاسبـــاب الخـــارجية

كان للثورة أسباب خارجية ــ بجانب الاسباب الداخلية ــ والتى ربما كانت نتيجة للانهيار الداخلى ، مما أدى الى التسلل الاجنبى الى البلاد ، والذى سيطر على جزء منها فترة من الزمن ، الا أن هذا الدافع من دوافع الثورة انما كان أقسى دوافعها ، حتى أن المصريين المعاصرين، انما كانوا يعزون حالة الانهيار التى أصابت البلاد ، انما كانت بسبب وجود أسيويين جامحين فى الدلتا المصرية .

وقد قام جدل طويل بين المؤرخين حـول هؤلاء الاسيويين الذين هبطوا مصر فى غفلة من الزمن ، فذهب فريق من المؤرخين الى أنهم غزاة أتوا الى مصر عن طريق غـزو مسلح ، نتج عنه احتلال أجنبى للدلتا ، بينما ذهب فريق آخر الى أن الامر لا يعدو أن يكون تسـللا لقبائل أسيوية من تلك القبائل الظاعنة أو المرتحلة حول الحدود المصرية.

كان «سيرفلندر رزبترى» أول من نادى بأن قوما من شمال سورية قد غزوا مصر فى نهاية الأسرة السادسة ، ثم تسللوا الى داخل البلاد حتى مصر العليا ، وأنهم قد حكموا على أيام الاسرتين السابعة والثامنة، وأن الاسرتين التاسعة والعاشرة قد وضعتا حدا لسلطانهم[٤٣] ، ويذهب

---

(٤٢) نجيب ميخائل : المرجع السابق ص ٣٥٩ .

(٤٣) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 120.

وكذا H. Frankfort, Egypt and Syrie in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 88.

الدكتور الناضورى[٤٤] الى أن هناك تحركات سامية كانت من الاسباب التى أنهت الاسرة السومرية الثالثة فى مدينة «أور» ، بل انها لم تقتصر فى اتجاهها نحـو جنوب العراق ، وانما ظهرت شعبـة سامية أخرى اتخذت طريقها نحو شبه جزيرة سيناء ، واستقرت فى شرق الدلتا فى عصر الانتقال الاول •

ويتابع «جيمس بيكى» (١٨٦٦ — ١٩٣١) مواطنه (فلندرز بترى) فى دعواه ، فضلا عن غزو آخر أتى من الجنوب فى أوائل هذه الفترة، وأدى الى أن يستوطن طيبة ، ذلك الجنس الذى أعطى مصر فيما بعد سلسلة الملوك الذين نعرفهم فى الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة، وأن الصفـات النوبية فى دم الملـوك « منتو حتب » و « أمنمحات » و «سنوسرت» من هاتين الأسرتين ، انما يبدو واضحا فى وجوه هؤلاء الحـكام •

كما أن هناك عنصرا ثالثا قد نجح فى أن يؤسس لفترة قصيرة مملكة محدودة مزعزعة فى منطقة تمتد من الفيـوم وحتى ثنى وأبيدوس ، واستمر القادمون الجـدد مسيطرين على هـذه الاماكن المقدسة عند القوم ، لفترة قصيرة[٤٥] •

وهناك فريق ثان من المؤرخين يذهب الى ذلك لم يكن غزوا ، وانما كان تسللا ، وأن الامر انما كان محصورا على حدود الدلتا الشرقية ، فالدكتور «جون ويلسون»[٤٦] يرى أنه لا يوجد شك فى أن الاسيويين

---

(٤٤) رشيد الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا — للكتاب الاول — بيروت ١٩٦٨ ص ٢٨٠ •

(٤٥) W. M. F. Petrie, op. cit., p. 126-128.

وكذا J. Baikie, A History of Egypt, I, London, 1929, p. 221

وكذا

(٤٦) J A. Wilson, op. cit., p. 110.

قد اقاموا بالدلتا ، وأن الوثائق الادبية — وكذا الأدلة الاثرية[٤٧] — انما تثبت دخول عناصر أسيوية الأصل الى مصر فى تلك الفترة ، وهناك فقرات فى تحذيرات «ايبو — ور» تثبت الدور الذى لعبه الاجانب بحيث أختزلت مصر الحقيقية الى الصعيد فقط[٤٨] .

غير أن هـذا كله ، لا يعنى أن الدولة القديمة قد سقطت بغـزو أجنبى اسيوى ، أو أن هذا الغزو كان سببا فى ظهور العناصر الجديدة التى عمت فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، اذ أن ذلك خـلط بين السبب والنتيجة ، فليس هناك من ريب فى وجود اضطرابات وتغيرات فى الحالة فى آسيا ، ولكن لم يعبر جيش محارب صحراء سيناء،ويغزو مصر ، ويقضى على الدولة فيها ، وانما الصحيح أن الدولة قد انهارت من الاجهـاد الداخلى فتركت الحدود مفتوحة بدون حماية ، فتدفق الاسيويون المهاجرون بصفة مستمرة ، واستقروا فى الدلتا ، ولم تمض غير قرون قليلة حتى أصبح عددهم كافيا ليستقلوا بأنفسهم ، مما جعل ملوك اهناسية يقومون باجراء حربى ضدهم[٤٩] .

ولعل «وليم هيز» انما يرى نفس الرأى ، ذلك أن الانهيار الذى أصاب البـلاد فى تلك الفترة ، انمـا كان من أسبابه — فيما يرى — الحروب الاهلية ، وتسلل البدو من سيناء وجنوب فلسطين ، فضلا عن انفصال أقاليم مصر عن الحكومة المركزيه ، وانتشار النهب والتمـرد العام والفقر الشديد[٥٠] .

والرأى عند «هنرى فرانكفورت» أن الدليل الاثرى يثبت بالتأكيد أن نمو التهـديد الاسيوى الذى نستطيع أن نقتفى أثره منذ الاسرة

---

(٤٧) H. Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 88, 92.
وكذا W. M. P. Petire, Scarabs and Cylinders With Names, London, 1917, Pl. 10, p. 7-10.
(٤٨) A. H. Gardiner, op. cit., p. 107.
(٤٩) J. A. Wilson, op. cit., p. 110-111.
(٥٠) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 135-136.

السادسة قد ظهر فى التدفق الاسيوى ، بينما كانت البلاد قد وهنت بسبب بداية الاضطرابات التى قضت على الدولة القديمة ، أما الى أى مدى عجل هذا التدفق الاجنبى بهذا السقوط ؟ فذلك أمر من الصعب أن يقال ، فمن الطبيعى أنه ليس هناك احتلال أجنبى قد حل بالبلاد ، فان هذا شيئا لا يمكن تصوره قبل أيام الاشوريين ، فى القرن السابع قبل الميلاد ، وبعد ذلك بحوالى ستة عشر قرنا ، ونظن أن زيادة التسلل الاجنبى بسبب الضغط فى آسيا ، كان سببا فى دخول الدلتا أول الامر ، ثم تسربوا منها الى داخل البلاد فى مجموعات صغيرة أو كبيرة ، وبدهى أن التسلل لا يقاوم حين تكون فى البلاد حكومة مركزية معطلة ، وكانت هذه هى الحال وقت ذاك(٥١) .

وتقدم لنا تحذيرات «ايبو ـــ ور» صورة لهذا التسلل ، حيث يقول : «ما الذى جعل الارض الحمراء (الصحـــراء) تنتشر فى طول البـــلاد وعرضها ، خرجت الاقاليم وجاء الهمج الاجانب الى مصر ... لايوجد فى الحقيقة اناس فى أى مكان .... ويمشى ذو الاخلاق الكريمة وهم محزونون لما أصاب البلاد ، أصبح الاجانب اناسا فى كل مكان ، لماذا لم تصبح أرض المراعى فى الدلتا مكانا مرهوبا ، ان سر الاراضى الشمالية أصبح معروفا ، أنظر : انها أصبحت فى أيدى أولئك الذين لم يعرفونها ، وصار الاجانب مهرة فى أشغال الدلتا(٥٢) .

وهكذا تثبت هذه الكلمات التدرج من تطفل الدخلاء ، الى حدوث الاضطراب ، ثم أخيرا الاندماج ، واستيعاب البلاد لهم ، فلقد أصبح الاسيويون مع مضى الزمن مصريين . وأخذوا يزاولون أعمال ســـكان الدلتـــا(٥٣) .

---

(٥١) H. Frankfort, op. cit., p. 95.

(٥٢) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 37-38.

(٥٣) J. A. Wilson, ANET, p. 442.

أما عن الغزو الجنوبى : والذى يقدمون له من أدلتهم ، مجمـوعة من تماثيل أبو الهـول وجدت فى تانيس بالدلتـا ، كما أن دماء ملوك الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة بها دماء نوبية(٥٤) : فربما كانت هذه التماثيل ترجع الى فترة أخرى من فترات التاريخ المصرى القديم وحتى لو كانت ترجع الى هذه الفترة التى نحن بصددها ، وأنها وجدت فى مدينة «الكاب» ، وأن دماء ملوك الاسرتين الحادية عشرة والثـانية عشرة بها دماء نوبية ، وأن هذه التماثيل لهؤلاء الملوك •

فالرد على ذلك أن منطقة الكاب منطقة مصرية ، وهى المحـافظة الثالثة من محافظات الصعيد ، من ناحيـة الجنوب ، وكانت عاصمتها «نخن» (البصيلية) — والتى تقع عبر النهر تقريبا ، وهى فى نفس الوقت كانت عاصمة مصر العليا فيما قبل التوحيد — ثم ان « نبـوءة نفرتى» تروى عن «أمنمحات الاول» ، مؤسس الاسـرة الثانية عشرة ، أنه ملك من الجنوب ، يدعى «امينى» ابن امرأة من «تاستى» ، طفل من «خن نخن»و «تاستى» اسم أول محافظات الصعيد من الجنـوب ، وكانت عاصمتها «اليفانتين» (جزيرة أسوان) ، وكان معظم سكانها من العنصر النوبى(٥٥) •

فاذا أضفنا الى ذلك أن «أمنمحات» ولد فى «نخن» على الاغلب(٥٦)، فربما أمكن القول انه مصرى من مدينة «نخن» (البصيلية) ، وأمه من اليفانتين (أسوان) ومن ثم فهـو مصرى من أم نوبية ، ورث الدم المصرى عن أبيه ، كما ورث الدم النوبى عن أمه ، هذا اذا سلمنا بأن أمه من النوبيات القاطنات فى مقاطعة «تاستى» (اليفانتين) ، أضف الى ذلك أن المنطقة شمال أسوان ، وحتى نهاية المحافظة ، بحكم أنها تجاور بلاد النوبة ، كانت — وظلت حتى بنـاء السد العالى — على اتصال بشرى ببلاد النوبة •

---

(٥٤) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, 1924, p. 126.
(٥٥) A. H. Gradiner, Egypt of The Pharaohs, p. 126.
(٥٦) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٢٠ •

وهكذا فان الدليلين يكادان يتركزان فى منطقة «نخــن ــ الكاب» (أى البصيلية ومجاوراتها عبر النهر) ، مما جعلنى أتردد كثيرا فى قبول هذه الغزوة ، ومن ثم فالرأى عندى أن ملوك الاسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ، انما هم من هذه المنطقة ، وأن سحنتهم القريبة الشبه بسحنة النوبيين طبيعية فيهم ــ بخاصة اذا سلمنا بأن أم «أمنمحات الاول» نوبية ، هذا فضلا عن أن الدماء العربية فى أهل المنطقة الحاليين، ربما أبعدتهم كثيرا عن هذه السحنة •

وأما الغزوة الليبية ، فربما كان اعتمــاد «بترى» فيها ، على أن الغزاة كانوا ملتحين بلحى وشوارب قصيرة، كما يبدو من الخراطيش[٥٧]، الا أنه لا توجد أدلة تؤكد انتساب ملوك اهناسية الى الاصل الليبى ، فليس فى أسماء أولئك الحكام ولا فى أسلوب حكمهم ومظاهره ، ممــا يشير الى بعد أصلهم عن مصر ، وقد يكون لموقع المدينة أثره فى زعم الرواة والمؤرخين ، فهى انما تقع فى مكان كانت القوافل تفضل النزول فيه عند الوادى ، أو الخروج الى الواحات ، وهى بذلك كانت أول حاضرة تطالع الوافد من صحراء الغرب ، وفيها نزلت تلك القبيلة الليبية التى خرج منها «شيشنق الاول» مؤسس الاسرة الثانية والعشرين ، ولعل تلك الواقعة قد أثرت فى أصحاب الرأى القائل بالرجوع بأصل حكام اهناسية الى واحات الصحراء الغربية[٥٨] ، وهكذا لا يوجد دليل مادى أو أدبى قاطع يؤكد تلك الغزوة •

---

(٥٧) W. M. P. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 129.

(٥٨) احمد بدوى: فى موكب الشمس ــ الجزء الثانى ــ القاهرة ص ١٧ ــ ١٨ •

الفصل الثانى

الحياة السياسية فى عصر الثورة الاجتماعية

١ ــ الاسرة السابعة :

يجمع المؤرخون ــ أو يكادون ــ على أن عصر الثورة الاجتمـاعية الاولى ــ أو عصر الانتقال الاول ــ انما يشمل الاسرات : السابعة والثامنة والتاسعة والعاشرة ، وأنه ينتهى فى أيام «منتو حتب الاول» (نبت حتب رع) ، الذى يكتب له نجحا بعيد المـدى فى القضاء على الفوضى ، واعادة توحيد أرض الكنانة من جديد ــ كما فعل سلفه البعيد مينا من قبل ــ .

ويذهب (سير ألن جاردنر) الى أن العقدة الحقيقية فى الامر عقدة تأريخية ، فهناك خلاف كبير بين المؤرخين على طول هذه الفترة ، ولئن اتفقت معظم الاراء الحديثة على تقدير الفترة من عهد الملكة « نيتـو كريس » الى نهاية حكم الملك « منتو حتب الاول » بمائتين الى مائتين وخمسين عاما ، فهذا لا يعدو أن يكون مجرد تخمين[١] .

ويذهب «مانيتو» الى أن ملوك الاسرة السابعة ، انما هم سبعون ملكا ، حكموا سبعين يوما فى منف ، ويرجح «وليم هيز» أن هذا انما هو حكم طارىء اتخذ من منف مقرا له ليحل محـل الملكية المنهارة فى أخريات أيام الدولة القديمة ، ولعله حكومة خاصة شكلت من مجـلس شورى ، أعضاؤه من الصفوة الممتازة من الحـكام الذين عاشوا من سلالة ملوك الاسرة السادسة ، أو من كبار الموظفين وحكام الاقاليم ،

---

(١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 102.

الذين كونوا من أنفسهم هيئة حاكمة يطلق على كل واحد من أولئك السبعين لقب ملك أو حاكم ، غير أن هـذا النوع من الحكم الذى لم يعهده القوم ، لم يجد منهم قبولا ، فلم يعش أكثر من سبعين يوما[2].

وعلى أى حال ، فسواء أصح هذا ، أم أن حكم الاسرة السابعة فى منف لم يزد عن عدة شهور[3] أو أنها حكمت سنوات سبع[4] ، أو حتى خمسا وسبعين سنة[5] فان كل هذا انما يشير الى الفوضى التى عمت البلاد ، والى أن القائمين بالامر فيها لم يكونوا على قوة تمكنهم من تدعيم حكمهم واستقراره ، اللهـم الا اذا كانت فترة حكمها خمسـة وسبعين عاما ، حكمها خمسة ملوك ، ففى هذه الحالة تكون فترة الحكم مناسبة ، وأيا ما كان الامر فان هذه الاسرة ذهبت ــ سواء بعد حكم طويل أو قصـير ــ دون أن تخلف من ورائهـا شيئا يذكرها ، أو يذكر الناس بها .

٣ ــ الاسرة الثامنة :

قامت الاسرة الثامنة فى منف ــ فيما تروى بردية تورين ــ وقـد دفن أكثر ملوكها فى سقارة الجنـوبية ، على مقـربة من هرم « ببى الثانى »[6] ، غير أن هناك من يذهب الى أنها قامت فى الصعيد ، وكان

---

(٢) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ــ القاهرة ١٩٧١ ص ١٦٣ .

(٣) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ١٤٦ .
وكذا William C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 136.

(٤) J. Vercoutter, L'Egypte Ancienne, Paris, 1963, p. 66.
وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, Cambridge, 1971, p. 197.

(٥) يرى «سمث» أن الاسرة السابعة حكمت فى الفترة (٢١٨١ ــ ٢١٧٢ ق.م) وأن ملوكها هم : نفر كارع الصغير ٢ ــ نفـر كارع نبى ٣ ــ جد كارع شماى ٤ ــ نفر كارع خندو ٥ ــ مرى ان حور ٦ ــ نفر كامين ٧ ــ نى كارع ٨ ــ نفر كارع تيريرو ٩ ــ نفر كاحور (انظر : J. Vercoutter, op. cit., p. 66.
وكذا W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, p. 197.

(٦) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 108.

من جـانب الملك ، بغية استرضـاء عظيم معين من عظمـاء الصعيد الاقوياء(٢٤) .

ولعل من الاهمية بمكان أن بعضا من الباحثين انما يرى فى وجود أسماء ذات طابع سورى من أمثال «خندى» على خاتم اسطوانى ، أو «تربو» على جعل ، فى نص متأخر ، أن الاسرة الثامنة أسرة غير مصرية، وأن ملوك الاسرتين التاسعة والعاشرة المصريين هم الذين أزاحوا هؤلاء الحكام السوريين الذين كونوا الاسرة الثامنة ، وأن هناك مقـاومة حدثت ، وأنهم تحصنوا فى «أتريب» (بنها الحالية) كعاصمة مؤقتة لهم، وأنهم استقدموا عن طريق وادى طميلات عددا من القبائل الجوالة فى الصحراء ، والذين هم أنفسهم على علاقة نسب وثيقة بهم(٢٥) .

على أن «وليم هيز» انما يذهب الى أنه على الرغم من أن بعض الاسماء من طراز اسيوى ، فان الاسرة الثامنة ليست من أصل أسيوى، أو على الاقل فمن المحتمل ألا تكون كذلك(٢٦) .

وعلى أى حال ، فان أمور البلاد على أيام الاسرة الثامنة انما هى جد قلقة ، ففى الدلتا كانت عصابات البـدو ، وقطاع الطرق ، الذين تسللوا الى البلاد منذ أخريات أيام «ببى الثانى» قد أصبحوا يتجولون فى كل الدلتا ، وقد انقطعت أخبارها المباشر عنا ، أما البعثات الى سيناء لاستخراج الفيروز ، فقد توقفت ولم تستأنف حتى قبيل أيام الاسرة الثانية عشرة(٢٧) .

وأما فى الصعيد الاقصى فقد كانت الامور غير مستقرة ، ذلك لان سلطان «قفط» لم يجد قبولا حسنا من حكام الاقاليم الجنوبية الثلاثة، والتى تكون الان محافظة أسوان تقريبا (البصيلية وادفو وأسوان)

---

(٢٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 100.
(٢٥) H. Frankfort, JEA, 12, 1926, p. 98.
(٢٦) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, p. 136.
(٢٧) A. H. Gradiner, Egypt of The Pharaoha, p. 110.

فقامت الحرب هناك ، وان انتهت بانتصار «طيبة» و «قفط» وغلبتها على «عنخ ــ تيفى» أمير نخن الذى ناصبهما العداء[٢٨] •

وانتهت الاسرة الثـامنة ، دون أن ندرى كيف انتهت على وجـه اليقين ، وتصبح البـلاد أقساما ثلاثة ، ففى الشمـال كانت جحافل الاسيويين ؛ وفى الجنوب التفتالبلاد حـول أمراء «طيبة» ، وليس «قفط» ، وان كنا لا نعرف كيف اختفى حكام قفط ، وهم الذين كانوا أصحاب الجاه والسلطان فى المقاطعات الجنوبية ، وربما كان ذلك بعد هزيمتها لامير نخن «عنخ ــ تيفى» •

أما فى مصر الوسطى ، فلقد انتهز حكام اهناسية فرصة ضعف الملك «دمج ايب تاوى» ــ آخر ملوك الاسرة الثامنة ــ وأقاموا بيتا جديدا للحكم فى اهناسية ، قـدر له أن يحكم البـلاد فى الاسرتين التاسعة والعاشرة ، وعرف فى التاريخ باسم «العصر الاهناسى»[٢٩] •

٣ ــ العصر الاهناسى (الاسرتان التاسعة والعاشرة) :

كان مؤسس الاسرة التاسعـة ، هو «خيتى الاول» «مرى ايب رع»[٣٠] ، ويبدو أنه بدأ حكمه بنوع من الشدة التى قصد بها تأييد ملكه • والذود عنه ، ورددت الاجيال شدته وضخمت فيها ، حتى أننا نرى «مانيتو» يصفه بأنه من بين التسعة عشر ملكا اهناسيا ، والذين

---

(٢٨) J. Vandier, Moalla, Cairo, 1950.

(٢٩) W. S. Smith, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 198.

(٣٠) اختلف المؤرخون فى ترتيب ملوك الاسرة التاسعة ، فذهب فريق الى أنهم (واح كارع ــ مرى ايب رع ــ نب كارع ــ مرى كارع) وذهب آخرون الى أنهم (مرى ايب تووى ــ واح كارع ــ نب كاو رع) ، وذهب فريق رابع الى أنهم مرى ايب رع ــ (خيتى الاول) ــ اسم ملك مهشم ــ نفر كارع الاول ــ نب كاو رع (خيتى الثانى) ــ ستوب ــ خيتى (ربما خيتى الثالث) ــ ثم أسماء مهشمة لا يمكن قراءتها) •

انظر : A. H. Gardiner, op. cit., p. 112.

وكذا E. Drioton et J. Vandier, L'Egypt, p. 629.

وكذا H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 184-210.

حكموا ٤٠٩ عاما ، كان خيتى الأول أبعث للرعب من كل من سبقوه ، وأنه كان يفعل الشر فى مصر كلها ، ولكنه وقع بعد ذلك فريسة الجنون، وافترسه تمساح(٣١) ، وربما كان «مانيتو» صادقا فيما رواه عن قسوة (اختوى) ، فظروف البلاد ربما هى التى دفعته الى ذلك ، فالبدو يتحكمون فى الدلتا ، وحكام الصعيد يتنافسون فيما بينهم على السلطان، وهو نفسه محاط بمنافسين حاقدين ، وربما كان ذلك هو السبب ، وربما لان شهرته بالقسوة أتت لان الذين نافسوه كثيرين ، ولانه وصل حيث تخلف الزعماء جميعا •

وعلى أى حال ، فان «مرى ايب رع» (المحبوب من قلب الارضين) لم يتردد — تأكيدا لدعواه — فى أن يظهر نفسه بألقاب فرعونية كاملة، ولابد أنه كانت له صفات شخصية غير عادية ، استطاعت أن ترتفع به الى هذا المستوى العالى ، وليس لدينا مما يؤكد وجوده سوى موقد نحاسى فى اللوفر ، وعصا للتوكؤ من الأبنوس ، عثر عليها فى « مير » (مركز القوصية ، بمحافظة أسيوط) ، ثم أشياء أخرى قليلة الاهمية(٣٢)، منها قطعة فى صندوق عاجى ، مع نقوش طعمت بأحجار نصف كريمة ، اكتشفتها بعثة متحف المتروبوليتان فى «اللشت»(٣٣) (ايثت تاوى = على مبعدة ١٨ كيلا الى الجنوب من منف) ، هذا وقد عثر للملك «مرى ايب رع» على مجموعة من النصائح ، منها قوله : (على من يريد أن يعيش آمنا أن يكون مستعدا للحرب» •

وهناك شك فى أن حكمه قد امتد الى الدلتا ، التى بقيت فى قبضة

---

(٣١) F. Daumas, Le Civilisation De L'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 575.
وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 575.
(٣٢) ASAE, 10, 1910, p. 185.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 143.
وكذا H. Gauthier, op cit., I, p. 204.
(٣٣) W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, London, 1924, p. 131-132.

الاسيويين ، أما فى الجنوب فقد امتد نفوذه حتى «ثنى» (أبيدوس)، وان وجد اسمه فى نقوش عند الشلال الاول[٣٤] ، ورغم أن هناك من يرى فى ذلك دليلا على امتداد نفوذه حتى أسوان ، فان أمراء طيبة انما قد تزعموا الاقاليم الجنوبية ضده ، حتى نجحوا آخر الامر فى القضاء على البيت الاهناسى كله ، مؤسسين الاسرة الحادية عشرة .

وهناك اختوى آخر ، لقب نفسه «نب كاو رع» نعرفه عن طريق ثقل ميزان ، عثر عليه «فلندرز بترى» فى «بيثوم» (تل الرطابة)[٣٥] ، فضلا عن ورود اسمه فى الاعمال القصصية المصرية القليلة التى بقيت لنـا كاملة ، وهى «قصة الفلاح الفصيح» ، والتى تروى قصة فـلاح من الواحة المتاخمة لوادى النطرون ، كان قد اغتصب حماره ، وكذا بضائعه وهو فى الطريق الى اهناسية ، ولكنه قذف بشكواه الى مولى السارق فى فصاحة دفعت الى احتجازه ، حتى تتم كتابة توسلاته وعتبه ولومه وسبابه ، كى يدخل السرور الى نفس الملك (نب كاو رع)[٣٦] .

وكان البيت الاهناسى يزداد ضغطا على أيام الاسرة التاسعة ، وفى نفس الوقت كان حكام الاقاليم يزدادون قوة ، حتى جاء اليوم الذى

---

(٣٤) A. H. Sayce, Letter from Egypt, in The Academy, 41, 1892, p. 333.

وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 143.

(٣٥) W. M. F. Petrie, Rec. Trav, XL, p. 186.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 112.

(٣٦) يجمع المؤرخون على أن قصة الفلاح الفصيح قد حدثت فى عهد الملك «نب كاو رع» ، ولكنهم يختلفون فى مكانه من العهد الاهناسى، فالبعض يرى أنه من ملوك الاسرة التاسعة ، بينما يرى فريق آخر أنه من ملوك الاسرة العاشرة ، بل ان هناك من يراه آخر ملوك العهد الاهناسى كله ، وأنها كتبت فى عهد الاسرة الحادية عشرة على الاقل (أحمد فخرى: مصر الفرعونية ص ١٧١ ، الكسندر شارف : تاريخ مصر ص ٧٧) .

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 112.

وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y, 1953, p. 145.

زال فيه حكم هذه الاسرة وتلتها أسرة أخرى،هى «الاسرة العاشرة»[٣٧] أظهرت شيئا من النشاط ، وبدأ الظلام المخيم على تاريخ مصر ينقشع رويدا ، فنرى خلاله بعض أشباح تتحرك،ثم نرى هذه الاشباح تتحول الى قوى تتطاحن فيما بينها ، وتدخل مصر مرة أخرى فى فترة استقاظ[٣٨] .

كان «مرى حاتحور» هو مؤسس الاسرة العاشرة ، وقد عرفناه من نص مشوه عثر عليه فى محاجر «حتنوب»[٣٩] ، وأما خليفته « نفر كارع» فقد ورد اسمه فى بردية تورين ، وأما ثالث ملوك الاسرة فهو «واح كارع» (اختوى الثالث — أو الرابع فيما يرى البعض) ، وهو صاحب الارشادات التى وجهت الى الملك «مرى كارع» ، والتى تحدثت عن «الحرب الاهلية» بين طيبة ، واهناسية ، والتى دارت رحاها — فيما يرى القوم — على الارض المقدسة فى «ثنى» (أبيدوس) بسبب النزاع على ملك الصعيد ، وليس على أبيدوس فحسب ، وانتهت بانتصار طيبة مؤقتا ، وخروج الارض المقدسة من يد فرعون اهناسية .

وهناك ما يشير الى أن أيام «خيتى الثالث» (واح كارع) انما كانت أيام حروب ، فهناك النزاع بينه وبين البدو الاسيويين والذى حاول فيه أن يطهر الدلتا من الاجانب المغتصبين ، ويذهب البعض الى أن الرجل قد كتب له نجحا بعيد المدى فى تطهير الدلتا منهم[٤٠] ، وان

---

(٣٧) رتب البعض ملوك الاسرة العاشرة كالتالى (مرى حاتحور ، نفر كارع ، واح كارع ، مرى كارع ، خيتى الخامس) وهناك بعض الملوك الذين حكموا فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، ولم يستطع المؤرخون تحديد مكانهم فى هذا العصر ، وهم : ايمحوتب ، انى ، سخم كارع ، وأخيرا جسر — نوب .

(٣٨) احمد فخرى : المرجع السابق ص ١٦٩ .

(٣٩) انظر : R. Anthes, Die Felseninschriften Von Hatnub, Leipzig, 1928, Pl. 7, p. 14.

وتقع «حتنوب» فى الصحراء الشرقية على مبعدة ٢٧ كيلا ، خلف منطقة آثار تل العمارنة بمحافظة المنيا .

(٤٠) الكسندر شارف : المرجع السابق ص ٧٤ ، ايتين دريوتون وجاك فانديه ، المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .

ذهب فريق آخر الى أن ذاك لم يتم الا بعد توحيد مصر ، وبناء حائط الامير(٤١) .

وعلى أى حـال ، فان خيتى أنما يوجـه النصح لولده بأن يكون مستعدا لكل احتمال ، وأن يهتم بتحصين ((منف)) ، ولتسهيل المواصلات بينها وبين مقر الملك فى اهناسية ، فعليه أن يقوم بحفر قناة (وربمـا جسر) طولها ٥٥ ميلا ، لتربط المدينتين الواحدة بالاخرى ، ولعل ذلك قد يشير الى أن ((منف)) — رغم اقامة الملك فى اهناسية — انما قد ظلت مركزا للادارة ، ومستقرا المقابر الملكية(٤٢) .

وجاء بعد ((واح كارع)) (مرى كارع) واستقبلته مصر الوسطى بثورة ضده،وطبقا لنص مولاه((خيتى)) — محافظ أسيوط — فقد قضى مؤقتا على هذا التمرد ، وأنه أراد أن يعبر عن شكره من أجل هذا التوفيق الكبير ، فأمر باجراء اصلاحات ضخمة فى معبد الاله ((وب واوة)) الاله ((ابن آوى)) معبود أسيوط(٤٣) ، ويبدو أن ((مرى كارع)) لم يعش بعد ذلك طويلا ، فودع الدنيا بعد أعوام ثلاثة ، ثم دفن فى منف ، على مقربة من مقبرة الملك ((تتى)) من الاسرة السادسة فى هـرم يسمى ((اشراق مرى رع الدائم)) ، وفى هذا ما فيه من تحريف ضخم للحقيقة(٤٤) ولا يزال المتحف المصرى بالقاهرة يملك له تمثالا .

ويبدو أنه لم يترك خلفا يرث العرش من بعده ، فانتهت به الاسرة العاشرة ، وان كان هناك من يرى أن ((اختوى)) (خيتى الخامس) قد خلفه على عرش اهناسية ، وأنه لم يعش على العرش طويلا ، اذ عاودت جيوش طيبة هجومها فقضت على عائلة اهناسية ، واخضعت مصر كلها،

(٤١) H. Franfort, Egypt and Syria in The First Intermediate Period, JEA, 12, 1926, p. 99.
(٤٢) W. G. Hayes, op. cit., p. 144.
(٤٣) A. H. Gardiner, op. cit,., p. 114.
(٤٤) W. C. Hayes, op. cit., p. 144.

وبدأت الاسرة الحادية عشرة عهدا جديدا وعــادت مصر الى وحدتها القديمة ، يحكمها ملك واحد ، كما بدأت أيضا الدولة الوسطى[٤٥] .

٣ ــ الفوضى السياسية فى عصر الثورة الاجتماعية :

قدمت لنا الوثائق الادبية أن الشعب المصرى قد قام بثورة عاتية ضد الاوضاع السياسية والاجتماعية التى اشتد فسادها ، ويفهم من الوثائق أن الثورة قامت فى العــاصمة ((منف)) فى بادىء أمرها ، ثم سرعان ما انتشرت فيما وراءها من الاقـــاليم ، وان رأى البعض أن العمــل الثورى انما قــد اقتصر على منطقة منف ، وجــزء من مصر الوسطى ، وأن مصر العليا لم يصبها من الثورة سوء[٤٦] .

هذا وقــد صاحب الثورة فى بدايتها كثـــير من العنف والرغبة فى التفتيت والانتقام فنزع الثـــوار عن الملكية ما بقى لها من قداســـة ، وأباحوا لانفسهم نهب خزائنها ، واقتحام دواوينها ، وأضاعــوا حرمة محاكمها ، وألقيت قوانينها فى العراء ، ومزقتها العامة فى الشـــوارع ، وانتشرت الفتن الداخلية ، وفقد الناس الأمن والامان ، حتى خيــل للقوم أن شعار الثورة ومنطقها قد أصبح ((اهدم ما استطعت أن تضرب بمعولك ، واقتل من تستطيع أن تقتله ، وخذ كل ما تصل اليه يدك[٤٧] .

وهكذا بدأت الثورة عنيفة عاتية ، ويبدو أنه قد أعوزتها القيــادة الرشيدة ، ومن ثم فقد استغلها بعض الغوغاء ، وأهل السوء ، ويقدم لنا الحكيم المصرى ((ايبو ــ ور)) وصفا لبدايتها جاء فيه : ((يقـــول حراس الابواب : فلننطلق وننهب ، وتتخلى الغسال عن حمله ، وأعد صيادو الطيور أنفسهم للمعركة،وحمل آخرون من الدلتا الدروع))[٤٨] ، وهكذا احتل الغوغاء مكانا فى الثورة منذ قيامها ، ومن هنا فقــد غاب

---

(٤٥) أحمد فخرى ، المرجع السابق ، ص ١٧١ .
(٤٦) ايتين دريوتون وجاك فانديه ، المرجع السابق ص ٢٤٠ .
(٤٧) أحمد بدوى ، المرجع السابق ص ٢٢٢ .
(٤٨) A. Erman, op. cit., p. 94.

عليها التدمير والنهب وسفك الدماء ، حتى أنها لم تترك أحدا دون أن تصيبه بشرها .

ويصف «ايبو — ور» تلك المرحلة العصيبة من تاريخ الكنانة فى قوله: «تدور البلاد كما تدور رحى الفخار ، حقا ان البلاد قد امتلأت بالعصابات ، لقد شحبت الوجوه ، وأصبح الرماة متحفزين فى كل مكان، لقد انعدم رجل الامن ، ولكن اللصوص فى كل مكان»(٤٩) .

وهكذا عمت الفوضى البلاد ، حتى شملت مخازن الحكومة ودواوين الدولة ، فمزقت القوانين وديس عليها بالاقدام ولم ينج من تلك الفتنة الهوجاء موظفى الدولة ومحاكمها ، يقول «ايبو — ور» : «وفى الحق ، لقد سلبت قاعة المحاكمة الفاخرة ، وأصبح المكان السرى مكشوفا ، لقد فتحت الادارات العامة ، ونهبت قوانينها ، لقد سلب الموظفون ونهبت قوائمهم ، لقد دمرت سجلات كتبة المحاصيل ، وأصبحت غلال مصر متاعا مشاعا ، لقد ألقيت قوانين دار القضاء فى البهو ، وديست فى الشوارع ، ومزقها الرعاع فى الازقة ، لقد أصبحت قاعة العدل العظمى مكتظة ، وأخذ القوم يروحون ويجيئون فى دور القضاء العظيمة(٥٠) ، وضاعت هيبة الحكومة ، وتجرأ الناس على موظفيها فقتلوهم ، وعلى قضاتها فنفوهم فى الارض ، يقول «ايبو — ور» : «وذبح الموظفون ، وألقيت أوراقهم فى العراء ، وطرد قضاة البلاد»(٥١) .

ويصور «نفرتى» البلاد ، وقد عز فيها الامن ، وسادتها الحرب الاهلية ، فيقول : «ان البلاد فى كرب وعويل ، لقد حدث ما لم يحدث من قبل ، سيحمل الناس أسلحة الحرب ، حتى تعيش الارض فى قلق

---

(٤٩) J. A. Wilson, The Admonitions of I Pu-Wer, ANET, p. 441.

(٥٠) Ibid., p. 442.

(٥١) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 10.

واضطراب ، وسيصنع الناس أسلحة من النحاس حتى يلتمسوا الخبز بالدم ، ويضحكوا ضحكة الموت ، لن يبكى الناس من الموت ، لقد أصبح الاب خصما ، والاخ عدوا ، وأخذ الرجل يقتل أباه ، واختفى كل شيء طيب ، وخربت البلاد ، وأصبحت أملاك الرجل تغتصب وتعطى للغريب، وغدا المالك فى حرمان،والاجنبى فى شبع ورفاهية(٥٢))•ويضيف «ايبو ــ ور» : «لقد أصبح الرجل يذبح أخاه من أمه ، أنظر ، ان الرجل يذبح بجوار أرضه ، وأخاه يتركه دون عون لينجو بنفسه ، لقد أصبح الرجل ينظر الى ولده نظرته الى عدوه ، ويذهب الى حقله ، وهــو مسلح بدرعه»(٥٣) •

وقد انتهت هذه الاحداث الدامية آخر الامر الى انهيار الحكومة المركزية ، التى كان القوم يعترفون فيها بأن «الملك ــ الاله» انما كان هو الاعلى والاقوى ، ورخص السر الغامض ، سر الطبيعة الالهية للملك من جراء التنافس على الحكم ، يقول «ايبو ــ ور» : انظر : لقد وصل بنا الامر الى الحد الذى جعل الناس يثورون ضد حية التاج ••• التى كانت تهدىء الارضين ، انظر : لقد عرف سر البلاد التى لا يعرف أحد حدودها ، ان القصر الملكى يمكن أن يهدم فى ساعة ، وتصبح أسرار ملك مصر معروفة»(٥٤) •

هذا وقد امتدت الاضطرابات من منف الى الاقاليم ، حيث هاجم العامة هناك المسيطرين عليهم ، وفعلوا ما فعــله سكان العاصمة من تخريب وتدمير ، وسلب ونهب ، بل نادت كل مدينة «فلنطرد الاقــوياء من بيننا»(٥٥) ، كما امتنعت بعض الاقــاليم عن دفــع الضرائب الى

---

(٥٢) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 113-114.

(٥٣) A. Erman, op. cit., p. 99.

وكذا J. A. Wilson, op. cit., p. 442.

(٥٤) J. A. Wilson, The Admonitions of Ipu-Wer, ANET, 1966, p. 441.

(٥٥) Sir Alan H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 10.

الخزائن الملكية ، كما فعلت ثنى واليفانتين[٥٦] .

ويزداد الامر سوءا ، وينحرف الثوار ، ويسيرون فى طريق العنف والقسوة ويسيئون الى المواطنين ، حتى الابرياء منهم ، بل لم تقف ثورتهم عند حد فى أذاها ، حتى الأطفال الرضع نالهم منها عذاب أليم، يقول «ايبو — ور» : «حقــا لماذا يقذفون الجــدران بأبناء النبلاء ، فالأطفال الذين كان أهلهم يدعون ربهم من أجلهم ، أصبحوا يلقون فوق الاكوام»[٥٧] .

وتنقلب الاوضاع الاجتماعية فى البلاد رأسا على عقب « فيعــز الاذلاء ، ويذل الاعزاء ، وتكتب الحاجة على الاغنياء ، ويغتنى الفقراء، ويصور ، «ايبو — ور» هذه الحالة ، وانقلاب أوضاع الطبقات،ويقارن بين ما كان فى الماضى ، وما يحدث فى ذلك الوقت ، وربما كان الحكيم المصرى من طبقة أرستقراطية ، ولم يكن من الهين عليه أن تزول النعمة منها الى غيرها أقل منها منزلة ، فهو يقول : «انظر : لقد حدث هذا بين الناس ، فمن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح الآن يملك فنــاء مسورا،ان الفضيلات الشريفات يرقدن على الفراش الخشن ، والامراء يناموون فى المخزن ، ومن لم يكن فى امكانه أن ينام على الجدران أصبح صاحب سرير ، انظر : ان الرجل الغنى أصبح يمضى الليل وهو ظمآن، ومن كان يستجدى منه الحثالة أصبح يمتلك الجعة القوية»[٥٨] .

وبلغ الاسى بالحكيم المصرى نهايته أسفا على ما أصاب البلاد من اضطراب ، لا يعرف له علاجا ، فيفقد الامل فى انقاذ شىء ، ويزداد تأثره بالكارثة التى لحقت بالبلاد ، حتى أنه يطلب من الالهة أن تجعل نهاية الامر ، نهاية الحياة نفسها ، فيقول : «ألا ليت ذلك يكون نهــاية

(٥٦) Ibid., p. 34.
(٥٧) Ibid., p. 10.
(٥٨) Ibid., p. 10.

الناس ، فلا يحدث حمل ولا ولادة ، ليت العالم يتخلص من الغوغاء ، وتنقضى المشاحنات»[٥٩] .

ويتجه بعد ذلك نحو نفسه ، فيوجه اللوم اليها ، ويحملها جزءا من الوزر ، الذى ارتكبه حين سكت على الشر ، وامتنع عن أن يقول الحق ، وتمنى أنه قال ذلك فنصح وانتصح ، وأنقذ نفسه وأنقذ أمته مما تعانيه من الآلام ، وذلك بقوله : «ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت ، حتى كنت أنقذ نفسى من الالم الذى أنا فيه الان»[٦٠] .

ولم يقتصر «ايبو — ور» فى توجيه اللوم على نفسه ، بل وجه اللوم كذلك الى الجالس على العرش حينئذ فى تقريعات قاسية ، ونقد لاذع ، فيتهمه بأنه سبب الفوضى والاضطرابات التى سادت البلاد ، ذلك لانه ، وان كان قد أعطى السلطة والحكمة ، الا أنه قد بقى فى قصره يحيط نفسه بمجموعة من رجاله ، لا تنقل اليه الا صورة غير حقيقية للامور ، حتى ساءت الحال ، وفقد الناس الطمأنينة والامن ، حتى أنه اذا سار ثلاثة فى الطريق فلا يعود منهم الا اثنان ، فالعدد الاكبر يقتل منهم أقل[٦١] عددا ، ثم يقص عليه بلايا الناس ، وأخيرا يبلغ به العنف أشده ، حتى أنه يتمنى للفرعون نفسه أن يتذوق هذا البؤس بنفسه ، وذلك حين يقول له «ليتك تتذوق هذا البؤس بنفسك»[٦٢] .

٤ — الانهيار الاقتصادى فى عصر الثورة الاجتماعية :

كانت الاحداث الدامية التى مرت بها البلاد ، سببا فى الازمة الاقتصادية الطاحنة التى صاحبت أيام الثورة الاجتماعية الاولى ،

---

(٥٩) J. A. Wilson, op. cit., p. 442.
(٦٠) Ibid., p. 442.
(٦١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 84-85.
(٦٢) J .A. Wilson, The Admonitions of Ipu-Wer, ANET, 1966, p. 415.

ويفهم من الوثائق أن أسباب الأزمة الاقتصادية انما يرجع الى عدم استتباب الأمن ، والامتناع عن زراعة الاراضى ، فضلا عن امتناع بعض الاقاليم عن دفع الضرائب ، وتعطيل الصناعة ، وعدم القيام بالبعثات الى سيناء ، هذا الى جانب انقطاع التجارة الخارجية ، وضياع ثروات الدلتا التى أصبحت تحت أيدى الاسيويين •

كان اضطراب الامن فى البـلاد من أسباب الأزمة الاقتصـادية ، فالنـاس لا يستطيعون أن يعمـلوا الا اذا كانوا آمنين على أنفسهم وأموالهم ، وقد فقدوا ذلك كله ابان الثورة ، مما أدى الى أن تعطلت الزراعة ، حين امتنع الفلاحون عن زراعة الارض ، يقول «ايبو — ور»: «ان النيل يفيض ومع ذلك لا يقوم أحد من الفلاحين بحرث الارض ، لان كل انسان انما يقول اننا لا نعلم ما سوف يحل بالبلاد»(٦٣) •

ويؤيد المتنبىء «نفرتى» وجهة النظر التى ذهب اليها «ايبو — ور» وان كان يعلل امتناع الفلاحين عن زراعة الارض — بجانب اضطراب الامن — الى عدم فيضان النيل ، حيث يقول «لقد جف نيل مصر ، حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء ، لتمخر عبابه السفن ، فاذا بهم يجدون أن الطريق قد صار شاطئا ، وأن الشـاطىء صار ماء»(٦٤) •

وربما كان «نفرتى» انما يعنى أن اضطراب الامن انما قد أدى الى عدم تطهير الترع ، وحفر ترع جديدة ، فضلا عن اصلاح الارض البور التى كثرت نتيجة اهمال العناية بأمر الزراعة ، وتحويل كثير من الاراضى الزراعية ، الى أرض بور ، نتيجة هجرة أصحابها ، أو تركها بدون زراعة لسبب من الاسباب ، وربما حدث انخفاض فى النيـل فى تلك السنين القاسية ، فساعد ذلك — بجانب غيره — على حدوث المجاعة التى تحدث عنها النبيئان «نفرتى» و «ايبور — ور» •

---

(٦٣) A. H. Gardiner, op. cit., p. 10.

(٦٤) A. Erman, op. cit., p. 113.

وينتهز حكام الاقاليم فرصة الاضطرابات ، فيستأثر أغلبهم بثروات أقاليمهم ، كما فعل أمراء ثنى والبيفانتين ، يقول ((ايبو — ور)) : ((لماذا لم تدفع اليفانتين وثنى الضرائب ، وهناك حاجة الى الفاكهة والقمح ، وكل أنواع التجارة ، وكل ما تنتجه الضياع ، فما فائدة الخزانة بدون دخل))(٦٥) ، وزاد الطين بلة ، أن القليل من الضرائب الذى كان يصل الى الخزائن الملكية ، انما كان ملكا مشاعا لكل قادر على النهب ((حيث دمرت سجلات كتبة المحاصيل ، وأصبحت غلال مصر ملكا مشاعا))(٦٦) ، كما زاد عدد الموظفين المشرفين على جمع الضرائب ، بحيث أصبحت موارد الدولة لا تطيق مرتباتهم ، هذا فضلا عن قلة الانتاج ، ومغالاة فى تقدير الضرائب ، وتطفيف الكيل ، يقول ((نفرتى)) : ((لقد نقصت الارض ، وتضاعف حكامها ، وأصبحت الحقول عارية ، ومع ذلك فضرائبها كثيرة ، وغلتها قليلة ، كما صار المكيال كبيرا))(٦٧) .

وكان تعطيل الصناعة من أسباب الازمة الاقتصادية الطاحنة ، فقد تسببت أحداث الثورة ، وما أدت اليه من اضطراب فى الامن ، الى تعطيل العاملين فى الصناعة ، وساهم الاجانب فى الازمة الاقتصادية ، والقضاء على صناعة البلاد ، ((لا صانع يعمل ، والعدو يحرم البلاد حرفها))(٦٨) .

وأدت أحداث الثورة الدامية الى حرمان البلاد من دخل التجارة الخارجية التى كانت تجنى منها دخلا كبيرا ، يقول ((ايبو — ور)) : ((ما عاد أحد يبحر الى جبيل ، فما الذى سوف نفعله بشأن أخشاب الارز ، التى اعتدنا أن نصنع منها توابيتنا ، والزيوت التى يحنط بها

(٦٥) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909.

(٦٦) J. A. Wilson, The Admonitions of I Pu - Wer, ANET, 1966, p. 442.

(٦٧) A. Erman, op. cit., p. 114.

(٦٨) A. H. Gradiner, op. cit., p. 10.

الامراء ، والتى كانت ترد اليد ا من هناك ، ومن كفتيو (كريت))[٦٩]، كما أن استيلاء الاسيويين على الدلتا ، انما قد حرم البلاد من ثروتها ، يقول «ايبو — ور» : «ما الذى جعل الارض الحمراء (الصحـــراء) تنتشر فى طول البلاد وعرضها ، خربت الاقاليم ، وجاء قـــوم أجانب الى مصر»[٧٠] ، كما تسبب الاجانب كذلك فى عدم استغلال منــاجم سيناء،ومن ثم فاننا لا نرى سوى اشارات عن بعثات أرسلت لاستغلال بعض محاجر الصحراء الشرقية ، أما استغلال المعادن — كما كان قبل عهد الثورة — فلم يعد الا على أيام الاسرة الثانية عشرة[٧١] .

ويصور الحكيم المصرى «ايبو — ور» أحوال البلاد الاقتصادية ، وانتشار المجاعات بين الناس ، فيقول : «لقـــد أصبح الناس يأكلون الحشائش ، ويشربون الماء ، ولا توجد فاكهة ، كما لا يوجد عشبا يأتى منه الطير ، وقد أصبحت القاذورات تختلط من أفواه الخنازير ، ولم يعد أحد يقول : هذا لك فخذه بدلا منى ، لان القوم صاروا جياعا[٧٢]»، ويقول : «لقد ضاع محصول القمح ، وأصبح القوم لا يجدون لباسا أو عطورا أو زيوتا ، وكل انسان يقول : لم يبق شىء ، وأصبحت مخازن الحكومة خاوية ، وقد ألقى حراسها على الارض»[٧٣] .

ويصور أمراء الاقاليم هذه الازمة الاقتصادية فى نقوش مقابرهم، مشيرين الى جهودهم فى محاولة حلها ، والقضاء على أسبابها ، وهكذا رأينا الواحد منهم يحدثنا عن جهوده فى استتباب الامن ، وتطهير الترع، ومد المعونة للمعوزين ، ولكن يجب علينا أن نأخـــذ ذلك بحذر ، فهم كثيرا ما كانوا يبالغون فى نقوشهم هذه ، فهاهو «غخ — تيفى» أمير «نخن» (البصيلية) يتحدث عن سنى المجاعة فى مقبرته فى «المعـــلا»

(٦٩) Ibid., p. 32.
(٧٠) Ibid., p. 36.
(٧١) A. H. Gradiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 110.
(٧٢) J. A. Wilson, op. cit., p. 442.
(٧٣) A. Erman, op. cit., p. 99.

(فيما بين اسنا وأرمنت) ، فيقول انه أمد خلالها مدنا أخــرى ــ الى جانب مدينته ــ بالهبات والقمح ، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى مدينة «دندرة» ــ على مبعدة ٥ كيلا شمال غرب قنا عبر النهر ــ وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كاد يموت جوعا ، وكل رجل فيه كان يغتــال أطفاله[٧٤] .

وهناك «مرى» أمير دندرة على أيام الاسرة الثامنة ، حيث تقدم لنا نقوش مقبرته سيرة عطرة لصاحبهــا ، مملوءة بتقارير عن حكمته وعدله وعطفه على الفقراء والمضطهدين[٧٥] ، وهناك مقبرة لرجل يدعى «نفريو» من نفس المنطقة ، يزعم فيها أنه قد أعطى الخبز للجوعان ، والمــلابس للعريان ، وأنه أغــاث الرجل العظيم حتى انتهت ســنة المذابح[٧٦] .

ونقرأ فى نقوش مقبرة «خيتى الثــانى» أمير أسيوط ، على أيام الاهناسيين ، عن جهوده فى القضاء على الازمة الاقتصادية بأن قــدم هدية لمدينته ، وذلك بأن حفر ترعة ليروى الفــلاحون منها أرضهم ، ويسقوا زرعهم ، ثم يقول : «اننى غنى بقمح الشمال ، حيث كانت الارض فى جفاف ، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز ، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ، وقد أعطيت الارملة وولدها ، وتجاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى ، وملأت المراعى بالماشية»[٧٧] .

ويتحدث «أمينى» أمير بنى حسن ، عن دوره فى القضاء على هذه

---

(٧٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 111.
وكذا J. Vandier, La Tombe d'Ankhtifi a moaila, Le Cairo, 1950

(٧٥) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 111.

(٧٦) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, New York, 1953, p. 138.

(٧٧) ARE, I, 1906, p. 181.
وكذا J. Vandier, La Famine dans L'Egypte Ancienne, Cairo 1936, p. 101 F.

المجاعة ، فيقول : ((وعندما حلت سنوات المجاعة حرثت جميع أراضى الاقليم ، من حده الجنوبى الى حده الشمالى ، وأبقيت الاهالى أحياء ؛ وأعطيتهم طعاما ، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد ، وقد أعطيت الارملة، كما أعطيت المتزوجة))(٧٨) ، وعلى نفس طريقة ((أمينى)) يقص علينا جيرانه أمراء ((حتنوب)) من أن الواحد منهم انما كان قد ((أنقذ الارملة، وواسى المتألم ، وأطعم الطفل ، وعال مدينته فى زمن القحط ، وأطعمها أيام المجاعة ، وهو الذى زودها بسخاء بلا تفرقة ، فكان عظماء مدينته كغيرهم فى ذلك))(٧٩) .

٥ ـ الحرب الاهلية بين اهناسية وطيبة :

كانت طيبة قد بدأت تأخذ زمام القيادة على أقاليم الجنوب منذ أيام الامير بالوراثة ((أنتف الاول)) (أنيوتف) ، المولود من ((ايكو)) ، مؤسس سلسلة الملوك المعروفين باسم الاسرة الحادية عشرة ، وهو نفس الامـير بالوراثة ((أنيوتف)) الذى نلتقى به فى الحصر المضطرب للملوك الذين يحملون هذا اللقب ، والمذكورين فى جدول الكرنك ، وهناك ثلاث لوحات يمكن أن تعد وثائق معاصرة لهذا الامير ، يوصف فى اثنين منها ـ وربما آخر يحمل نفس اللقب ـ بأنه ((الرئيس الاعلى لمصر العليا)) ، ويوصف فى الثالثة بأنه ((الرئيس الاعلى لمقاطعة طيبة)) وربما كان أكثر قبولا أن نفترض وجود سلف واحد فقط يحمل نفس اللقب ، وأن ((أنيوتف)) هـذا انما هو ((أنيوتف عا)) (انيوتف العظيم) الذى استطاع أن يخضع نواحى الجنوب من وراء حدود اقليمه ، وان لم يجرؤ على انتحال الملكية(٨٠) .

أما أول ((أنيوتف)) ملكى ، فقـد كان ((سهر تاوى)) (مهـدىء الارضين) ، ويظن ((هربرت ونلوك)) (١٨٨٤ ـ ١٩٥٠) أنه صاحب

---

(٧٨) J. Vandier, op. cit., p. 111.
وكذا P. E. Newbery, Beni Hassan, I, London, 1883, Pl. 8, p. 27.
(٧٩) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, p. 214 .
(٨٠) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 117-118.

المقبرة الشمالية من مجموعة المقابر الثلاثة الكبرى ذات الطراز الخاص التى كشف عنها فى السهل على خط وهمى بين معبد «مونت» فى الكرنك، والفتحة المؤدية الى مقابر الملوك ، وتسمى «الصف» لانها ذات مداخل تجعلها تبدو كأنما هى محاطة بأروقة من ثلاث نواح ، وربما كانت مقابر لهؤلاء الثلاثة الاوائل الذين يحملون لقب «أنيوتف» مادام من المؤكد أن احداها — وربما كانت الوسطى — تخص «واح عنخ أنيوتف الثانى»[٨١] ٠

وعلى أى حال ، فلقد كان «سهر تاوى» أول حاكم طيبى أحس فى نفسه القوة على أن يغتصب نوعا من الملكية فى الجنوب ، وان لم يستطيع هو — أو أحد خلفائه الثلاثة — أن يلبس التاج المزدوج ، وان أسبغوا على أنفسهم لقب «نسوت بيتى» الذى يمكن ترجمته الى ملك مصر العليا والسفلى ، وقد حفظ لنا اسمه «حور سهر تاوى ، مهدئ الارضين ، ابن رع ، أنيوتف» ، وهو — على أى حال — أول حكام الاسرة الحادية عشرة ، الذين حكموا نصف البلاد ، حوالى عام ٢١٣٤ ق٠م ، أى قبل قيام الاسرة الثانية عشرة فى عام ١٩٩١ ق٠م ، بحوالى ١٤٣ سنة ، كما أنه كان أول حاكم طيبى يكتب اسمه داخل خانة ملكية (خرطوش) ، كما أنه ظهر كثائر ومناهض لخصمه القوى فرعون اهناسية ، الا أن الاحتكاك الحربى بين طيبة واهناسية لم يبدأ الا فى عهد خلفه «واح عنخ أنتف» (٢١٣٠ — ٢٠٨١ ق٠م)[٨٢] ٠

وكانت اهناسية تحس أن سلطانها على مصر لن يتم ، مادام هناك أسيوى فى الشمال ، وطيبى فى الجنوب ، وكل منهما يحتل جزءا من

---

(٨١) H. Winlock, The Rise and Fall of Middle Kingdom in Thebes, N. Y, 1947, p. 11.

(٨٢) W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 476.

وكذا H. Winlock, op. cit., p. 10.

وكذا R. O. Faulkner, The Rebellion in The Hare Nome, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

البلاد ، وكانت طيبة بدورها تحس أن استقلالها لن يمكنها من زعامة الصعيد والتحكم فى شئونه ، مادامت تدين بالولاء لاهناسية ، وتدفع الجزية ، وكان كل من الفريقين يتربص بالاخر الدوائر ، ويعمل على تجميع أنصـــار له •

وهكذا عمل الاهناسيون على ربط حكام الاقاليم بهم برباط الود ، واتبعوا فى ذلك سياسة بعض ملوك الدولة القديمة فى تربية أبناء الحكام الاقوياء فى قصورهم ليشبوا أوفياء لهم ، ويحدثنا ((خيتى)) أمير أسيوط عن ذلك بقوله : ((لقـــد كنت محبوبا من الملك ، وثقـــة من أمرائه ، وممجدا فى مصر الوسطى ، وقد أدى ذلك الى أن أحكم وأنا طفل طوله ذراع ، ورفع منزلتى فى شبابى ، وتعلمت السباحة مع أطفال الملك ، وكنت شخصا جادا فى حديثه ، مبرأ مما يسىء سيده ، الذى رباه طفلا ، وسعدت أسيوط بحكمى ، وشكرت اهناسية الاله بسببى ، وقالت مصر الوسطى والدلتا : تربية ملك))(٨٣) •

وحاولت طيبة بدورها أن تجمع الاحلاف من حولها ، وربما نجحت فى ذلك بعض الشىء ، ولكنها اعتمدت أكثر ما اعتمدت على حصانتها ، وعلى صلابة رجالها الصعايدة ، وعلى اذكاء روح الامل فيهم •

وبدأ التنافس بين اهناسية وطيبة فى صورة خفية أول الامر ، ثم سرعان ما اتخذ صورته المكشوفة بعد ذلك ، اذ قـــامت بين الفريقين المتنافسين معارك دارت رحاها على صفحـــة الماء مرة ، وفى البر مرة أخرى ، ولعل السبب أن كلا من ((خيتى)) و ((أنيوتف)) انما كان يتطلع الى ((أبيدوس)) كأنما هى من أملاكه الخاصة ، فهى بالنسبة لملك اهناسية ــ أو بالنسبة الى مولاه ((تف ايب)) صاحب أسيوط ــ قلعة باب الجنوب، وهى بالنسبة الى ((أنيوتف)) بوابة الشمال •

---

(٨٣) J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Chicago, 1906, Parag, 413, p. 190.

ومنطقة أبيدوس منطقة حساسة ، هى مركز القداسة لدى الجميع ، واثارة الحرب على أرضها تدنيس يحمل وزره من يسعى اليها، ولعل هذا ما دعا «خيتى» الى اظهار ندمه ، وخاصة بعد نهب المقابر ، وانتهاك حرمتها[٨٤] .

بدأت اهناسية الحرب على طيبة ، ويصف لنا «تف ايب» الذى كان قد خلف أباه «خيتى» فى امارة أسيوط ؛ أول معركة بين جنود الصعيد الاقصى وبين قوات اهناسية . والتى يبدو أنه انتصر فيها ، وذلك حين يقول : «لقد أتيت الى المدينة وهزمت أعداء الفرعون ، واقتفيت أثرهم الى حصن رأس مصر العليا ، وأعطانى الملك أرضا كمكافأة»[٨٥] ، وقد تابع «تف ايب» الحرب ضد أهل طيبة وحلفائهم حتى فروا الى شرق البلاد ، بينما اصطادهم آخرون فى الجنوب ، مثل كلب الصيد الذى يقفز فى خطوات واسعة خلف غزال مذعور[٨٦] .

وهكذا هزم أمراء طيبة ، وان لم تكن هزيمتهم حاسمة ، اذ احتاج الاهناسيون الى عمليات حربية أخرى ، مما اضطر «تف ايب» الى منازلة ثوار طيبة مرة أخرى فهو يقول : «قد جاء آخر كابن آوى . مع جيش آخر من حلفائه ، فخرجت لملاقاته ، ولم أتوقف عن القتال حتى النهاية ، واستخدمت الريح الشمالية ، كما استخدمت الريح الجنوبية.. وسقط فى الماء ، وغرقت سفن أسطوله ، وكان جيشه كثيران تهاجم بحيوانات مقدسة فتجرى ، وذيولها الى الامام[٨٧] . وفى نهاية النص نقرأ : «وكانت البلاد فى فرح من جنودى ، ولم تعد هناك بلاد

---

(٨٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٠٧ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٩١ .

وكذا R. O. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

(٨٥) H. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N. Y, p. 14.

(٨٦) H. Winlock, op. cit., p. 14.

وكذا J. H. Breasted, op. cit., Parag, 396, p. 182-183.

(٨٧) J. H. Breasted, op. cit., Parag, 396, p. 183.

أجنبية لا تخاف اهناسية ، بعد ما رأت الدخان يتصاعد من المقاطعات الجنوبية[٨٨] ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن هذه الموقعة انما كانت الاولى من نوعها فى التاريخ المصرى ، ذلك لاننا لا نعرف معركة من قبل دارت رحاها على صفحة الماء •

وهناك اشارة بقيت لنا عن هذا الصدام فى أيام «واح عنخ» يفهم منها أن الجانب الطيبى انما قد استطاع أن يسترجع أبيدوس ، وأن يمد حدوده حتى الاقليم العاشر ، أى حتى مدينة «واجت» (افروديتو بوليس) ، وهى «كوم أشقاو» الحالية ، على مبعدة خمسة كيلو مترات شرقى «مشطا» — بمركز طهطا — محافظة سوهاج •

وعلى أى حال ، فلقد كان من المنتظر أن يعود «واح عنخ — أنتف» الى طيبة ، وأن ينتظر ما تقرره اهناسية بعد هزائمه السابقة ، غير أن قائدا مثله — فيه عناد أهل الصعيد ، وفيه صلابتهم ، وفيه صبرهم على الكفاح — لن يقنع من الغنيمة بالاياب ، ولن يستسلم عن استكانة وضعف وخنوع ، ومن ثم فقد أعاد الكرة من جديد ، حيث كتب له من النجح ما لم يكتب له من قبل •

ونقرأ قصة نصر «واح عنخ» هذه فى لوحته التى عثر عليها «أوجست فرينـاند فرانسوا مارييت» (١٨٢١ — ١٨٨١م) فى عام ١٨٦٠م ، ولكنه تركها فى مكانها ، حتى عثر عليها «جاستون ماسبرو» (١٨٤٦ — ١٩١٦) فى عام ١٨٨٢م ، ثم جمع «دارسى» ما تبقى منها ، حيث حفظت بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وهى ذات شقين ، الواحد دينى ، والاخر سياسى ، وفى الشق السياسى يخبرنا «حور واح عنخ»، ملك مصر العليا والسفلى ، ابن رع ، «أنيوتف الكبير» ، كيف سقطت «ثنى» وكيف دمر تخومها الشمالية حتى اقليم افروديتوبوليس ، حيث يقول : «لقد نزلت بالوادى المقدس ، واستوليت على اقليم ثنى ،

(٨٨) H. Winlock, op. cit., p. 15.

وفتحت كل حصونه ، لقد جعلت ثنى بوابة الشمال ، كما أن اليفانتين بوابة الجنوب»[٨٩] .

وهكذا استطاع «واح عنخ» أن يضيف الى أملاكه مقاطعة «ثنى»، وأن يوطد حدوده الشمالية عند «افروديتوبوليس» (كوم أشقاو) فى غربى النيل ، وعند « بانوبوليس » (أخميم) فى شرقى النيل ، الا أن الغنيمة الكبرى انما كانت أبيدوس ، ومعبد « أوزير » الذى يرجع الى أيام الدولة القديمة ، فضلا عن مقابر الملوك الاوائل من الاسرتين الأولى والثانية فى الصحراء ، فيما وراء أبيدوس[٩٠] عند «أم القعاب» على مبعدة كيلو مترين جنوب غرب معبد رعمسيس الثانى هناك .

ولعل مما يؤكد اتساع الرقعة التى كان يحكمها «واح عنخ» مانسجله الآثار التى خلفها عدد من الموظفين فى اقليمه ، ولعل أجملها ما تحمل اسم حامل المختم المدعو «نيتى» الذى يفخر أكثر ما يفخر بانه عهد اليه ادارة الثروة الواسعة التى جىء بها لمولاه،من مصر العليا والسفلى، فضلا عما جىء به من رؤساء بلاد الصحراء[٩١] .

وهكذا تنتهى المرحلة الاولى من النزاع بين طيبة واهناسية بغلبة طيبة ، وينتقل «واح عنخ» الى جوار ربه ، ويخلفه فى زعامة طيبة ابنه «نخت نب تب نفرة — اينوتف» ، ومعنى لقبه «قوى سيد البداية الجميلة» ، ولم يمكث فى الحكم سوى سنوات ثلاث ، ثم جاء من بعده «سعنخ ايب تورى» (منتوحتب الاول) ، ولقبه يعنى «آمون راض» وكان المؤرخون يعتبرونه الملك السابق للفرعون «نب حبت رع» الذى كتب له نجحا بعيد المدى فى النصر على الاهناسيين ، والقضاء على

---

(٨٩) W. C. Hayes, CAH, I, Part, 2, 1971, p. 477.
وكذا W. M. F. Petrie, A History of Egypt, I, p. 126.
(٩٠) H. Winlock, op. cit., p. 15-16.
(٩١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 119.
وكذا JEA, XVII, p. 55 F.

ملكهم ، واعادة توحيد البلاد كلها ، وقد حدثت ثورة فى العام الرابع عشر من حكم ((ايب تورى)) فى ((ثنى)) أدت الى معارك جديدة ، أودت بالملكية الاهناسية وقضت عليها ، وان كان النصر النهائى انما كان من نصيب ((نبت حبت رع))[٩٢] •

هذا وقد توصل ((هانز شتوك))[٩٣] الى ثلاثة ألقاب منفصلة ، كانت تنسب من قبل الى ثلاثة ملوك مختلفين ، يحملون جميعا لقب ((منتو حتب)) ، تخص فى الواقع ملكا واحدا فقط ، ويعكس كل لقب منها مرحلة مختلفة من حياته العملية ، والواقع أن مثل هـذا التغير الاساسى فى الالقاب ، انما هو فريد من نوعه تقريبا فى الحوليات الفرعونية ، ولكن يحمل على تصديقه الاحداث الخطيرة الشأن التى يعكسها •

ففى بداية حكم ((منتو حتب الاول)) ــ شأنه فى ذلك شأن الحكام الاوائل فى أسرته ــ اكتفى باسمه ورضى أن يطلق على نفسه ((الحور سعنخ ايب تورى)) (الذى يجعل قلب الارضين يعيش) ، وقد يعنى ((ذلك الذى يحيى آمالهم)) ، وهناك لوحة فى المتحف البريطانى تعد واحدة من الاثار القليلة التى تسجل هـذا المظهر ، وهى تشير الى أنه فى السنة الرابعة عشرة من حكمه ثارت ((ثنى)) وربما أرادت أن تعطى الاشارة للملك للتقدم شمالا •

وفى المظهر التالى ، أردف ((منتو حتب)) اسم ((نب حبت رع)) الى كنيته (لقبه العائلى) ، وربما كان المراد من ذلك الاشارة الى سيطرته التامة على مصر العليا ، ولم يصلنا أى شىء مؤرخ من هذه الفترة ، ولكن اللقب الحورى هنا يروى قصته ، ومنذ العام التاسع والثلاثين ــ وربما قبل ذلك ــ استبدل اللقب الحورى الى ((سام تووى)) (موحد الارضين) ، بينما ظل الاسم يقرأ ((نب حبت رع)) وان كتب بعـلامة

---

(٩٢) J. Vercoutter, op. cit., p. 348.

(٩٣) H. Stock, Mitt. Kairo, XIV, p. 42 F.

المجداف ، بدل أن يكتب بعلامة غـير معروفة تماما ، وقد أدت هذه الحقيقة الى الاسم النهائي الذي قرىء خطأ «نب خرورع» ، ونسب الى منتو حتب آخر ، يختلف عن الاثنين اللذين حملا اللقب السالف الذكر .

واذا نبذنا هذا الخطأ ، فانه بدلا من الاسماء الخمسة التي تحمل اسم «منتو حتب» والذين يعدهم معظم المؤرخين في الاسرة الحادية عشرة ، سوف نعترف هنا بثلاثة فقط ، ومن ثم فاننا سوف نتعامل مع أحداث الصدام في عهد «سعنخ ايب تووى» و «نب حبت رع» على أنها قد حدثت في عهد ملك واحد(٩٤) .

كان «مرى كارع» قد اعتلى عرش اهناسية بعد وفاة أبيه «خيتى» الذي ترك له تعاليمه المشهورة ، كما كانت اماوة أسيوط قد آلت الى «خيتى الثاني» بعد وفاة أبيه «تف ايب» ، أما في طيبة فقد كان الحاكم فيها «سعنخ ايب تووى» ، ويبدو أن ثورة عاتية قد استقبلت عهد «مرى كارع» ، ومن ثم نجد «خيتى الثاني» والى أسيوط ـ والذي ربما كان يشغل منصب القائد الحربي لملكية اهناسية ـ يفاخر بأنه قد أدب مصر الوسطى ، وأخضع الثوار ، وأعاد النظام ، وحمى شمال مصر من الفيوم ، وذلك حين يقول :

«أضاءت السماء ، وأصبحت الأرض كلها معه ، وجاء أمراء مصر الوسطى وأقطاب اهناسية ـ اقليم سيدة الأرض ـ ليدفعوا العدوان ، ارتعدت الارض ، واستولى الخوف على مصر الوسطى ، وأصبح كل الناس في رعب ، وكانت القرى مذعورة ، ودخل الرعب كل نفس ، ووقع موظفو الفرعون فرائسة للخوف ، وأضحى المقربون في اهناسية ضحية للذعر ، واحترقت البلاد بتسليمها ، ولم يكن هنالك شيء أمام

---

(٩٤) J. Vercoutter, op. cit., p. 348-349.
وكذا A. H. Gardiner op. cit., p. 120-121

الاسطول الذى وصلت مقدمته الى «شاس حوتب» (الشطب الحالية ، على مبعدة ٢½ كيلا جنوبى أسيوط) ، بينما كانت مؤخرته فى ..... ولقد عادوا بالماء ، ورسوا بأرض اهناسية ، وجاءت المدينة فرحة بسيدها ، وابن سيدها ، واختلط الرجال بالنساء والشيوخ بالاطفال ، ووصل ابن السيد الى المدينة ، ودخل بلاط أبيه ، وأعاد هؤلاء الذين تركوا بيوتهم ، ودفن هؤلاء الذين لا أولاد لهم ، سيد الارضين ، الملك مرى كارع(٩٥) .

وهكذا يبدو أن هنا كثورة استقبلت عهد «مرى كارع» ، ربما كانت الثورة التى حدثت فى السنة الرابعة عشرة من حكم «سعنخ ايب توى» فى اهناسية ، وربما كانت ثورة أخرى ، ولكن ليس فى الدلتا التى كان أبوه يخشى ثورتها ،وانما فى قلب مملكته فى اهناسية — فيما يرى جيمس بيكى — وربما فى الاقاليم التى تمردت عليه ، وبدأت تعلن العصيان ، وربما كان هذا أو ذاك ، وربما كان قد نجح فى أن يهدى الاحوال مؤقتا(٩٦) .

لم تقدم لنا نقوش «خيتى» والى أسيوط صورة حقيقية عن الحالة فى اهناسية وبين حلفائها ، فليس صحيحا كل ما ذكره ، ولعله أراد بهذه الكلمات الحماسية أن يخفى الحقيقة المرة التى كانت تواجهه ، وتنذره بأن حربا شعواء سوف تندلع فى عهد سيده «مرى كارع» وليس صحيحا كذلك أن كل زعماء مصر الوسطى كانوا فى صف سيده .

فهناك ما يشير الى أن ولاء حكام أقاليم مصر الوسطى لقضية حكام اهناسية ليس فوق مستوى الشبهات ، ففى مقابر «حتنوب» كتابات لا تهيل النعوت المليئة بالزلفى على الحكام الاقليميين فحسب ، بل نجدها تصحب أسماءهم بصيغ التمنيات مثل «ألا فليعش الى الابد»

---

(٩٥) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag., 401, p. 185-188.

(٩٦) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفرعونية ــ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٣٨ ــ ١٤٦ .

أو «حماية الحياة تحيط به مثل رع الى الابد» ، وهى صيغ عرفناها — من قبل ومن بعد فى أماكن أخرى — مقصورة على الفراعين دون سواهم ، ولعل أعجب من هذا أن هذه الكتابات مؤرخة بسنى الحكم لامراء الاقاليم ، وليس للملوك المعاصرين ، وهناك كتابتان من أقدمها تسجل العامين الثلاثين والعشرين للحكم على التوالى(٩٧) .

وهناك ما يثبت أن « الاشمونين » قد ثارت على الاهناسيين منذ عهد واليها «نحرى» . ففى نقش ربما كان من السنة السابعة ، يتحدث فيه «كاى بن نحرى» عن الجنود الذين حلوا محل آخرين شتتوا بسبب العصيان ، «لقد جندت جنودها من الشـباب لكى تكون قوتها كثيرة العدد ، بدل الجنود الذين أصبحوا موظفين واستقروا فى دورهم ولم يخرجوا للقتال فى وقت الفزع من القصر ولقد أنقذت مدينتى فى يوم الشدة من رعب القصر ، وكنت قد حصنتها فى يوم المعركة ، وملجأها فى «شديت شا» ويقول «دحوت نخت» أخو «كاى» ، والمشرف على الامور الدينية فى الاقليم ، فى نفس السنة السابعة ، «لقد كنت مواطنا شجاعا ، ضرب قوات الملك فى يوم المعركة»(٩٨) .

وهكذا يعلن أمير مقاطعة الارنب الحرب على الفرعون ، ويفخر بأنه حمى مدينته من الفرعون نفسه ، وان كان عاد ثانية الى حظيرة مولاه اسميا ، وهكذا أفلت الزمام من أيدى ملوك اهناسية ، ولم تعد سياستهم تجاه الامراء ذات فائدة للحفاظ على عرشهم ، وأصبح القضاء عليهم أمر وقت ، وكان ذلك على يد «منتوحتب الاول» .

وليس هناك شىء محـدد تماما عن الحمـلات التى استطاع بها «منتوحتب الاول» استعادة التاج المزدوج ، وتوحيد البلاد ، والقضاء على الفوضى الداخلية التى بدأت فيها منذ نهاية الاسرة السادسة والتى فصلت البلاد الى شمال وجنوب ، ولكن مما لاشك فيه أن «منتوحتب

(٩٧) A. H. Gardiner, op. cit., p. 114.

(٩٨) R. O. Faulkner, JEA, 30, 1944, p. 61-63.

الاول» قد بذل كثيرا من الجهد لاخضاع كل معارضة قامت فى طريقه ، حتى انتهى الامر باستيلائه على اهناسية ، وبذلك استطاع أن يخضع الصعيد لسلطانه ، وأن يستخدم اللقب الحورى «نب حدج» الذى يعنى «سيد التاج الابيض» •

ثم تابع جهاده فى سبيل السيطرة على الوادى كله ، فطوى الدلتا تحت رايته ، وبذا بدأ منذ العام التاسع والثلاثين — وربما قبله — فغير لقبه الحورى الى «سام تاووى» (موحد الارضين) ، ثم اتجه بعد ذلك الى تأمين حدوده ، فحارب العدو فى الشرق والغرب ، كما أخضع المنطقة جنوبى أسوان ، ولم يحاول أن يصطدم بالامراء الاقوياء فتركهم يحكمون أقاليمهم واكتفى منهم بالطاعة والجزية وحسن الولاء•

أما الادلة الاثرية على ذلك كله فكثيرة ، منها تلك المقبرة التى عثر عثر عليها «هربرت ونلوك» تضم جثث قرابة ستين جنديا ، على مقربة من معبده فى طيبة الغربية ، رأى فيهم «ونلوك» جنودا وقعوا فى معارك ضد الشمال ، وتدل أجسادهم على أنهم قتلوا عندما كانوا يهاجمون حصنا ، وأن فريقا منهم انما قتل فى ساحة الوغى ، بينما جرح الفريق الاخر من المهاجمين الذين كانوا فوق الاسوار ، وحين هرب رفاقهم نزل رجال الحامية والتقطوهم من شعرهم الكثيف ، ثم ضربوهم بالعصى حتى قتلوهم ثم تركوهم فى ميدان القتال حتى نهشتهم جوارح الطير ، وأخيرا تمكن «منتو حتب الاول» فى هجومه الثانى من جمع موتاهم وحملهم الى قبر على مقربة من مدفنه الذى كان يجهزه لنفسه[٩٩] •

ورأى الدكتور أحمد بدوى أنهم قتلوا أثناء مهاجمة القلاع الواقعة

---

(٩٩) H. E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N. Y., 1947, p. 29.

وكذا H. E. Winlock, The Slain Soldiers of Neb-Hepet-Re, Mentu-Hotpe, N. Y., 1945.

فى تخوم أبيدوس[١٠٠] ، ورأى «سير ألن جاردنر» أنهم ذبحوا دون شك فى معركة على مسافة لا تبعد كثيرا عن العاصمة[١٠١] ، ورأى الدكتور عبد العزيز صالح أنهم استشهدوا فى معركة انفصالية ضد «منتو حتب» على مقربة من عاصمته طيبة ، فوسدهم اخوانهم فى قبر كبير نحتوه فى الصخر على هيئة المغارة قرب القبر الذى أعده ملكهم لنفسه[١٠٢] .

كان «منتو حتب الاول» «نب حبت رع» أول ملوك الاسرة الحادية عشرة ، الذى أصبح ملكا حقيقيا على مصر كلها ، ومن هنا فان المصادر انما تجمع على ذكر اسمه ، فعلت ذلك بردية تورين وقائمة أبيدوس — ولعل ذلك هو الذى دفع البعض الى اعتبار قيام الاسرة الحادية عشرة انما كان فى عام ٢٠٥٢ ق.م ، أى منذ توحيد القطرين تحت زعامة «منتو حتب الاول» .

هذا وقد احتل «منتو حتب الاول» مكانة عظيمة بين أقرانه من عظماء الفراعين ، بوصفه واحدا من مؤسسى الدول ، فلقد اعترف كاتب قائمة الكرنك بالمركز الهام الذى ناله هذا الفرعون ، بوصفه ملكا على مصر كلها ، ومن ثم فلم يكتف بوضع اسمه فى جزء آخر من قائمة الاجداد الصغيرة ، غير الذى كان فيه أجداده الذين سبقوه مباشرة ، بل انما يصفه كذلك بأنه «الاله الطيب ، رب الارضين ، ملك مصر العليا والسفلى ، سيد القربان ، نب حبت رع ، المبرأ» ، كما نجد اسمه كذلك فى قائمة الملوك بمقبرة «نترى» بسقارة ، وقد ذكره «ترنى» فى قائمة أبيدوس .

وتظهر مكانته بصورة بارزة فى الرمسيوم ، فهناك نجد الملك «مينا»

---

(١٠٠) أحمد بدوى . فى موكب الشمس — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٥٠ ص ٥٠ .

(١٠١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 121.

(١٠٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٢٤ .

والملك «نب حبت رع» (منتو حتب الاول) والملك «نب بحتى رع» (أحمس الاول) يظهرون بوصفهم المؤسسين للدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة(١٠٣) .

هذا وقد اتخذ «منتو حتب الاول» الالقاب التى تدل على أنه ملك مصر الحقيقى ، فسمى نفسه «الحور، سماتاووى (موحد الارضين) وصاحب الالهتين سام تاووى ، حور الذهبى ، قا — شوتى ، ملك مصر العليا والسفلى ، نب حبت رع ، ابن رع ، منتو حتب الاول» ، وهذه هى الالقاب الفرعونية الخمسة(١٠٤) .

---

(١٠٣) H. E. Winlock, op. cit., p. 31.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 181.
وكذا M. Cassirer, An Egyptian Funerary Stele with a Rare Title, ASAE, 52, 1954, p. 42-43.
(١٠٤) H. E. Winlock. op. cit., p. 30.

الفصل الثالث

نتائج الثورة الاجتماعية الاولى

١ ـ فى المجـال السياسى :

قامت الملكية الفرعونية منذ العهد الثينى على أساس دينى ، فالملك فيها اله تكرم فأقام فى أرض مصر ليحكمها وليسعد المحكومين من أبنائها، ومن هنا سيطر الفراعين على رعاياهم فى دنياهم وآخرتهم ، ثم ماتلبث الامور أن تتغير ، وتقـوم الثورة الاجتماعية الاولى ، ويتغير مركز الفراعين المؤلهين .

وتصور تحذيرات «ايبو ــ ور» كيف هان شأن الفراعين ، وكيف أصبحوا مجالا للنقد والتجريح المرير ، بعد أن كانوا مجـالا للتأليه والتقديس ، حتى أن «ايبو ــ ور» يتهم الملك بأنه سبب البلايا التى حاقت بالبلاد ، ويتمنى له أن يتذوق منها[1] ، بعد أن كان أى فرد فى البلاد ــ مهما علت مكانته ــ يفخر ، ان كتب له هذا الفخر ، بأنه قد سمح له أن يقبل قدم الملك ، بدل أن يقبل الارض بين يديه .

وفى العصر الاهناسى ، نرى الفرعون نفسه يتطرق اليه الشعور بضياع الهـالة التى كانت تسبغ على الملـكية ، فيعترف بخطئه وأن القصاص قد حل به ، فعوقب بمثل جريمته ، «ان مصر تحارب حتى فى الجبانة ، انى فعلت ذلك ، وحدث لى ما يحدث لمن يخالف أوامر الاله ، انظر : لقد حدثت كارثة فى عهدى ، غزى اقليم ثنى بسبب ما فعلت ، غير أنى لم أعرف الا بعد حدوثه ، أنظر : ان ما فعلته هو السبب فيما

(١) J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 242.

جوزيت به ، فالضربة ترد بضربة أخرى»[٢] ، مما يدل على أن الهالة التى كان الفراعين يحيطون بها أنفسهم — أو يحيطهم بها شعبهم — قد ضاعت ، وأن ذلك الحجاب الفاصل بين الفرعون الاله وبين العامة من شعبه ، قد انهار •

هذا وقد دعا عصر الثورة الى تطبيق العدالة الاجتماعية بين الناس جميعا ، وكان على الحكام أن يفعلوا ذلك ، ومن هنا فقد رأينا بعض الفراعين انما يتخذ عند جلوسه على العرش أسماء رسمية ، تعبر عن رغبتهم فى أن يكون العدل الاجتماعى هدفهم ، وأن تكون «ماعت» — الهة الحق والعدل — رائدهم ، فان ألقينا نظرة على أسماء ملوك الاسرة الثانية عشرة نرى «ماعت» تتكرر باستمرار فيذكرون «ماعت» التى تعنى الحق أو العدل ، أو «ماعت» بمعنى الصادق أو العادل ، وقد اتخذ «أمنمحات الثانى» اسمى «الذى يسره العدل» و «ذو الصوت الصادق» ، أما «سنوسرت الثانى» فقد سمى نفسه «الذى يرفع شأن العدل» ، وكان «أمنمحات الثالث» ، «المنتمى الى عدل رع» ، وكان أمنمحات الرابع «رع هو الصوت الصادق» وفى هذه الاسماء نرى شيئا من مميزات ذلك العصر[٣] •

وهكذا نرى أن الثورة الاجتماعية ، رغم أنها أبقت على الملكية الالهية ، لم تترك الفرعون بكل ما كان له ميزات ، بل شاركه فيها الكثيرون ، ولم يعد حكام الاقاليم ينظرون الى الفرعون ، كما كانوا ينظرون اليه من قبل ، اذ عملت أحداث الثورة وعواملها على التقليل من قدسية الفرعون ، كما رفعت شأن النبلاء ، وأصبح كل منهم يفخر بنفسه ، ويثق فى قدراته ، فمن ذلك «عحا نخت» الذى يقول فى نقش على مقبرته فى البرشا (جبانة الاشمونين) « كنت انسانا أدى الحق ، ذرب اللسان بين الخصوم ، تكلم بلسانه (أى بدون وحى من أحد) ،

---

(٢) J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 415.

(٣) J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 133.

وعمل بساعديه متيقظا لخطوات الامراء ، والذى يدخل أولا ، ويخرج أخيرا ، وكنت صاحب المشورة فى استشارة الموظفين ، المخلص «عحا نخت» «المبرأ»[٤] ، ويفخر «أمينى» أمير بنى حسن ، بأن كل ما يأمر الملك بعمله انما يتم عن طريقه : «لقد كنت كحاكم لاقليم الوعل ، كل أعمال بيت الملك تمر من بين يدى»[٥] .

وهكذا لم يعد الملك بعد الثورة ، ذلك الاله المترفع الجبار ، الحاكم فوق البشر ، وانما غـدا انسانا له ما للانسان من ضعف ونزوات ، وحاكما يعمل لخير شعبه ، ويعمل جهد طاقته على أن يكون دائم اليقظة والانتباه ، حتى لا يؤخذ على غرة بيد آثمة ، شأنه مع شعبه ، وشأن شعبه معه ، شأن أى انسان من كافة البشر ، قد يفعل الخير فيجد خيرا ، وقد لا يجد سوى الشر .

وخلاصة القول ، أن الملك الذى كان قبـل الثورة الها أكثر منه انسانا ، أصبح ، فيما بعـد الثورة ، انسانا أكثر منه الها ، ذلك لان ضعف الملكية فى العهد الاقطاعى وضياع قدسيتها ، قد هبط بها كثيرا من عليائها ، كما أن الدعوة الى العدالة الاجتماعية أدت الى ارتفـاع شأن الشعب ، ومن ثم فان الفروق بين الملكية والرعية قد قلت كثيرا ، أو لم تعد لها تلك الهالة القديمة التى كانت لها قبل الثورة .

كانت نظرية تولى العرش فى مصر تجعل العـرش وقفا على من تكون أمه من نسل ملكى ، وكذا يجب أن يكون أبوه ، ولعل هـذا هو السبب فى زواج الاخ بأخته ، التى لجأ اليها بعض الفراعين ، بغرض تأكيد صفـاء الالوهية ، ولغرض آخر ، هو التقليل من عدد المتطلعين الى العرش[٦] ، أما الان فنجـد أن « نفرتى » يصرح فى نبوءته بأن

---

(٤) P. E. Newberry and F. L. Griffith, El Bersheh, London, 1893, Tomb, 5, p. 32.

(٥) P. E. Newberry, Beni Hassan, I, London, 1890, p. 26.

(٦) J. A. Wilson, op. cit., p. 96-97.

مليكه الجديد ، ليس من سلالة البيت المالك القديم ، فهو اذن ليس باله — كغيره ممن سبقه من الفراعين الالهة — وانما هو ابن امرأة من تاستى ، طفل من «خن نخن»[٧] .

هذا وقد رسم عصر الثورة صفات جديدة للحاكم الذى يجلس على العرش ، فان القوم — بعد أن سمعوا بأحوال الملكية المتسيطرة القديمة، وبعد أن لمسوا أحوال الملكية المهلهلة الضعيفة ، وبعد أن جربوا سيطرة العوام — رأوا أن يكون الجالس على العرش رجلا يخدم مصالح الدولة ، ويرعى شئونها ، ويعمل على وحدتها ، رجلا يمتلىء قلبه بحب رعاياه ، والرغبة فى العمل من أجل مصلحتهم ، ومن ثم فقد اقتربت الملكية من الشعب ، وأصبحت تحس باحساسه ، وتهتم به وتتفانى فى خدمته ، يقول الملك الاهناسى : «اكسب الى جانبك الجماهير ، وابعد عنها اللهب ، فالشعب الغنى لا يثور ، فلا تفقره حتى لا تدفعه الى الثورة ، لان الفقير هو الذى يخلق المتاعب .. اعمل على غنى الفلاح وأهل المدينة»[٨] .

وطالبت الثورة الملوك بالتزام العدل بين رعاياهم وحذرتهم من العقاب ، وان اضطروا الى ذلك فالضرب والحبس ، وليس القتل ، هو الطريق الذى يجب أن يسلكوه فى تقويم المعوجين من رعاياهم ، اللهم الا الخونة المتآمرين ، فان دمهم مباح لان جرمهم أشنع من أن تكون الرحمة سبيل الحاكمين فيه ، ولهذا يقول الملك الاهناسى لولده «مرى كارع» ، الزم العدل تخلد فى الارض ، واحذر أن تعاقب خطأ ، فالقتل لن يفيدك ، بل عاقب بالحبس والضرب ، وبذلك تزدهر أحوال البلاد ، أما المتآمر فالله يقدر خبثه ، ويطلب دمه جزاء جرمه»[٩] .

---

(٧) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 126.
(٨) Francois Dumas, La Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1965, p. 394-395.
(٩) J. A. Wilson, The Instruction for King Meri-Ra-Re, ANTE, Princeton, 1966, p. 415.

ونادت الثورة بأن صـــلاح الامور فى البلاد انما يأتى عن طريق حكومة صالحة ، وان انقسم مفكروها الى فريقين ، الواحد يرى أن ذلك يأتى على يد جيل جـديد من الموظفين الاكفاء الامناء العـدول ، والاخر يرى أن ذلك يتأتى على يد ملك حازم مخلص عادل مجـدد ، ينقذ البلاد من الهوة التى تردت فيها .

وفى تعاليم «خيتى» معالم واضحة لفكرة الفريق الاول ، الذى ينادى بتكوين جيل جديد من الموظفين الاكفاء الامناء العدول ، فالملك ينصح ولده بمبدأ يعتبر من أنبل المبادىء التى تمخضت عنها الثـورة الاجتماعية ، اذ يحثه على أن يقدر الفرد لذاته ، وذلك بأن يبحث عن الكفايات الممتازة فى الاوساط الدنيا ، وتكوين جيل جديد من هـؤلاء ، ويحذره من أن يتخـذ من الحسب والنسب أساسا للاختيـار ، وانما الاختيار يجب أن يعتمد على الكفـاية الشخصية فحسب ، ولعل هذا ما نسميه الان بمبدأ تكافؤ الفرص بين جميع المواطنين(١٠) ، ثم ينصحه بعد ذلك أن يجعل لموظفيه مرتبات موفورة ، لان العفة والكرامة وطهارة اليد واللسان ، والنزاهة فى الحكم ، والقدرة على تنفيذ الامور ، لن تكون لرجل جـائع ، يفنى نفسه تفكيرا فى الحصول على قوته وقوت عيـاله(١١) .

غير أن ذلك وحده لا يكفى ، وانما يجب أن يسانده حاكم عادل ، ففى « قصة الفلاح الفصيح » ما يدل على أن ذلك العلاج وحده غير ناجح ، فلقد وقع على مقربة من قصر فرعون فى مجاورات اهناسية ، اضطهاد غاشم أقدم عليه موظف سىء الخلق فى ضيعة المدير العظيم لبيت الملك ، مما يدل على أن الوظيفة ذات المرتب الضخم لا تغرس فى نفس صاحبها العدالة ، ولن تغنى الفقـير شيئا من اضطهاد رجـال

---

(١٠) A. H. Gardiner, The Instruction for King Merykare, JEA, I, 1914, p. 27.

(١١) Ibid., p. 26.

الحكومة له[١٢] ، وانما يجب أن يصاحب ذلك حاكم قوى حازم يحمى الضعيف من عسف القوى ، ويمنع تلك الطبقة من الموظفين التى تتخذ من صلتها بالحاكمين وسيلة لظلم الناس ، وهكذا تدل قصة الفـلاح الفصيح على مدى حاجة الدولة الى حاكم قوى ، عادل حازم .

وهكذا يذهب «ايبو — ور» و «نفـرتى» الى أن اصلاح الامور سوف يأتى على يد ملك عادل ، وأن ذلك الحاكم انما قد حكم فى يوم من الايام باسم اله الشمس «رع» ، ولما كان «ايبو — ور» يرى فى سلطته المقدسة العصر الذهبى ، فانه يوازن بينه وبين الحاكم الغاشم، الذى ترزح البلاد تحت عبئه على أيامه ، وهكذا فانه يصف ذلك المنقذ، ، الذى يأمل الخير على يديه : «انه يجلب البرودة الى اللهب ، انه راعى الانسانية ، لايحمل فى قلبه شرا ، يقضى يومه فى لم شمل رعيته»[١٣] .

وأما «نفـرتى» الذى كتب نبوءته بعـد الثورة ، كدعاية للملك «أمنمحات الاول» ، مؤسس الاسرة الثانية عشرة ، والذى كان مجيئه هو الامل الذى ينشده الحكيم «ايبو — ور» ، وقد سماه « نفـرتى » (امينى) ، وهو اختصار مؤكد لاسم الملك امنمحـات الاول ، اذ يقول «سيأتى ملك من الجنوب ، يدعى امينى ، ابن امرأة من تاستى ، طفل من خن نخن ، سيستقبل التاج الابيض ، وسيلبس التاج الاحمـر ، وسيسعد من يعيشـون فى عصره ، وهو ابن واحد منهم ، اسمه خالد الى الابد[١٤] ، « وأما الذين كانوا قد تآمروا على الشر ودبروا الفتنة ، فسيطبقون أفواههم خوفا منه ، وسيسقط الاسيويون بسيفه ، والليبيون أمام لهيبه ، وسيستسلم الثوار أمام غضبه ، والعصاة أمام جـلالته، وسيخضع المتمردون للصل الذى على جبينه ، وسوف يبنى حائط الامير حتى لايدع الاسيويين يهبطون مصر ، أمـلا فى الحصول على المـاء

(١٢) J. H. Breasted, ARE, I, p. 183.
(١٣) A. Erman, op. cit., p. 105-106.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., p. 199.
(١٤) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, p. 126.

لتشرب ماشيتهم ، وستعود العدالة الى مكانها ، ويقضى على الظلم ، وسيفرح من سيرى ، ومن سيكون فى خدمة الملك»[١٥] •

هذان هما الرأيان اللذان نادى بهما المفكرون الاجتماعيون لاصلاح الامور ، والدخول فى عهد جديد ، على يد جيـل من الموظفين الامناء والاكفاء العدول ، أو على يد ملك حازم عادل مخلص ينقذ المجتمع مما هـو فيه •

والرأى عندى أن كلا الرأيين فى حـاجة الى الاخـر حتى ينجح الاصلاح ، ذلك أن حكم الملك الحازم العادل لن يأتى بثماره المرجوة ، ما لم يعتمد على طائفة من الموظفين الاكفاء الامناء العـدول ليقوموا بتنفيذ الاوامر الملكية العادلة ، والعكس صحيح ، فان الموظفين الامناء لن يتأتى اصـلاح على أيديهم ، ان كان على رأس الدولة ملك فاسد خانع ، وهكذا لن يتم الاصلاح الا على يد ملك حازم عادل ، تسنده جمهرة من الموظفين الامناء الاكفاء العدول[١٦] •

٢ ـ فى المجال الاجتماعى :

دعت الثورة الاجتماعية الى مبدأ تكافؤ الفرص بين المواطنين جميعا، ومن ثم فيجب أن يختـار الحاكم أعـوانه على أساس من كفـاءتهم الشخصية ، وليس على أساس من حسب أو نسب ، يقول الملك الاهناسى لولده «لاتفرق بين ابن النبيل ، وبين ابن الفقير ، وتخير الفرد بكفاءته الشخصية»[١٧] ولعل مما يزيد أهمية هذا المبدأ ، أن قائله ملك ، وأن الموجه اليه ملك ، وهذا يعنى أن سياسة الدولة على أعلى مستوى فيها انما تنادى «بمبدأ تكافؤ الفرص» •

وقد أدى هذا المبدأ الى ظهور طبقة جديدة من الموظفين ، لا تعتز

---

(١٥) A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 105.

(١٦) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى،الاسكندرية ١٩٦٦ ص ١٧٦ ـ ١٨٦ •

(١٧) J. A. Wilson, ANET. 1966, p. 415.

بالحسب والنسب ، وانما تمجد العصامية ، يفخر الواحد منها بأنه حر فى رأيه ، ويعمل بساعده ، ويحرث بمواشيه ، وينتقل بقاربه ، يقول «ابن وجا»[١٨] ، «كنت مواطنا نشطا ، ذا سمعة طيبة ، عاش فى أملاكه ، وحرث بثيرانه ، وسافر بسفينته ولم يكن ذلك وجدته فى حيازة أبى المبجل «وجا» ، ويقول «حقا ايب» : «كنت مواطنا صالحا ، يتكلم بفمه ، ويعمل بساعده ، وقد جعلت مدينتى قريبة منى ، لقد كنت نبيلا فى طيبة ، والساعد العظيم فى «خنتى ويت» ، وقال الناس لقد أحرز الممتلكات بساعده»[١٩] .

هذا وقد نادت الثورة بالمساواة التامة بين المواطنين فى الحقوق والواجبات ، وفى تعاليم الملك الاهناسى ما يدل على أن الناس سواسية أمام خالقهم ، وأن الملكية واجبات توازى حقوقها ، وأن كل راع مسئول عن رعيته ، وأن نعم الله التى أسبغها على خلقه انما هى لهم جميعا ، وأن رحمته انما قد تداركتهم وهم مايزالون أجنة فى بطون أمهاتهم[٢٠] .

ولعل من أهم دواعى المساواة بين الناس ، أن الله خلق كل انسان مثل أخيه الانسان ، وأنه لم يأمرهم بالشر ، وانما نفوسهم هى التى وسوست لهم به ، ولعل الجمع هنا بين المساواة وبين فعل الشر ، انما ليشير الى أن الفوارق الاجتماعية ليست من أمر الله ، وانما هى من شر بنى الانسان ، وأن المجتمع المثالى مجتمع يتساوى فيه جميع مواطنيه فى الحقوق والواجبات .

وهناك نص عثر عليه فى «متون التوابيت» جاء فيه : «ان الله خلق أشياء أربعة لمنفعة الناس ، وساوى بينهم فيها ، صنع الرياح ليتنفس منها كل انسان مثل أخيه ابان حياته ، وهذا أول الافعال ، وصنع مياه

---

(١٨) D. Dunham, Nega, ed Der Stela of The First Intermediate Period. 1947, pl. XXXII, p. 104.

(١٩) H. G. Poltsky, The Stela of Heka-Yeb, JEA, XVI, 1930, p. 144.

(٢٠) A. H. Gardiner, JEA, I, 1914, p. 34.

الفيضان العظيمة ، وجعل فيها للفقير ما للعظيم من حق ، وذلك ثاني الافعال ، وخلق كل انسان مثل أخيه ، ولم يأمرهمَ بفعل الشر ، الا أن قلوبهم قد انتهكت حرمة ما فعل ، وذلك ثالث الافعال ، وخلق قلوبهم بحيث تفكر فى الغرب (الآخرة) لكى تقدم القرابين المقدسة لالهة الاقاليم ، وذلك رابع الافعال»(٢١) •

وهكذا نادت مصر ، قبل ظهور المسيح عليه السلام ، ودعوته السمحاء ، بأكثر من ألفين من السنين ، بالقضاء التام المطلق على الفوارق الاجتماعية بين بنى البشر جميعا ، ومن هنا كان هذا العصر من أهم العصور التاريخية فى مصر الفراعنة لانه نادى بالقضاء على الفوارق بين الناس •

ومن أسف أن مصر لم تسر فى هذا الشوط حتى نهايته ، ربما لان الوقت كان مبكرا جدا فى تاريخ العالم ، ليصل أى شعب الى تحقيق هذا الحلم تحقيقا تاما ، وربما لان الظروف التى أحاطت بذلك العصر هى التى ألهمت مفكروه تلك المبادىء الخالدة ، أما حين تتغير الاحوال ، وتقوم الدولة الوسطى ، وتؤدى رسالتها خير أداء ، فيسود الامن ، ويعم الرخاء فان هذا المذهب القائل بمساواة كل رجل بأخيه ، واصرار الفلاح الفصيح على أنه يجب أن يكون لافقر الناس حقوقا طبيعية ، فقد أصبحت أشياء باهتة ونسيها الناس فى غمرة الرخاء الذى عم البلاد ، ولم يعد فرعون فى حاجة الى أن يقضى الليل ساهرا يحرس قطيعه ، فلقد أصبح القطيع سمينا الى الحد الذى تمنعه سمنته من أن يتحرك فيضل طريقه بعيدا عن العرش(٢٢) •

هذا وقد نجح عصر الثورة الاجتماعية فى تحقيق العدالة الاجتماعية،

---

(٢١) J. A. Wilson, Creation and Myths of Origins, All Men Created Equal in Opportunity, ANET, 1966, p. 7-8.

(٢٢) J. A. Wilson, The Burden of Egypt, Chicago, 1954, p. 143-144.

فقصة الفلاح الفصيح تلح وبشدة فى ذلك العدالة الاجتماعية ، واعطاء الفقير حقه ، ومن حسن الحظ أن مصير العـدالة الاجتماعية لم يكن كمصير المساواة فى العصور التالية ، فلقد استمـر المصريون فى عهد الدولة الوسطى يؤمنون بالعـدل الاجتماعى ، وحقوق الفرد ، وجهد الفراعين على رفاهية شعبهم ، ونشر العدالة بين أفراده ، فهناك نسخ من خطاب اعتاد الملك أن يوجهه مشافهة الى وزيره الاعظم ابان تعيينه، ويرجع الى الدولة الحديثة ، ويقدم الدليل على أن أحلام «ايبو — ور» و «نفرتى» فى ظهور مخلص عادل ، انما قد تحققت فيما يتصل بالاخلاق الملكية ، أو بعبارة أخرى أن روح العدالة التى كان يشعر بها المتنبئان قد وصلت الى صاحب العرش ، ثم سرت فى كيان حكومته .

وقد جاء فى الخطاب الذى وجهه الفرعون الى وزيره : «ان الوزارة ليست حلوة بل انها مرة ، انها لا تعنى اظهار احترام أشخاص الامراء والمستشارين ، وليس الغرض منها أن يتخذ الوزير من الشعب عبيدا له ، اعلم انه عندما يأتى اليك صاحب مظلمة أو حاجة من الصعيد أو الدلتا ، أو من أية بقعة من البلاد ، فعليك أن تراعى أن يسير الامر وفقا للقانون ، وأن يعطى كل ذى حق حقه » .

ثم يقول : «احترس من الذى يقال عن الوزير خيتى ، اذ يحكى أنه جار فى حكمه على بعض ذوى قرباه ، منحـازا الى غرباء ، حتى لا يقال عنه : انه حابى ذوى قرباه خيانة منه ، وعندما أستأنف أحدهم الحكم الذى أصدره خيتى ضده ، أصر على اجحافه لهم ، ان ذلك أكثر من عدالة ، فلا تنس أن تحـكم بالعدل ، لان التحيز يعد طغيانا على الاله نفسه»(٢٣) .

ثم يقول له «عامل من تعرفه معاملة من لا تعـرفه ، والمقرب من

(٢٣) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, New York, 1939, p. 209.

الملك كالبعيد عنه ، ولا تغضبن على رجل لم تتحر الصواب فى أمره ، بل أغضب على من يجب الغضب عليه » ، ثم يقول له : «لا تتوان قط فى اقامة العدل ، وهو القانون الذى تعرفه ، واعلم أنه جدير بالملك ألا يميل الى المستكبر أكثر من المستضعف»(٢٤) •

وهكذا نجد أن سياسة الدولة أصبحت تسير على مبدأ العـدالة الاجتماعية ، فالوزارة — أسمى المناصب وأرفعها شأنا — ليس الغرض منها تفضيل الامراء والمستشارين على العامة من القوم ، كما أنها ليست وسيلة لاستعباد النـاس ، وانما هى وسيلة لنشر العـدالة ، وتنفيذ القانون على الناس جميعا ، دونما تفرقة بين قريب أو بعيد ، فليس من العـدل أن يظلم من له صـلة بولى الامر ، كما أنه ليس من العـدل كذلك أن يظلم الاقربون ، وانما العدل أن ينال كل ذى حق حقه ، كما يجب أن يكبح ولى الامر غضبه ، حتى يستطيع أن يقوم بالعدل بين الناس بالقسطاس المستقيم •

وهكذا نجـد أن هذه الوثيقة الرسمية انما تضغط بشدة وبالحاح على تطبيق العدالة الاجتماعية بين المواطنين جميعا ، وهكذا تتحقق أحلام «ايبو — ور» اذ أن هذا الخطاب يعد بمثابة تصريح رسمى من رئيس الدولة الى أكبر موظفيها يحـوى المبادىء الرئيسية للعـدالة الاجتماعية •

وهكذا تتصدر مصر مكانا ممتازا فى هذا المجال ، فعندما نفحص قوانين حمورابى ، والتى ترجع الى عصر تال (١٧٢٨ — ١٦٨٦ ق٠ م)، نجد أن اجراء العدالة انما يشترط فيه الاتفاق بين الطبقات الاجتماعية، انه عن نفس الجـرم انما تختلف العقـوبة والاضرار ، طبقا للطبقة الاجتماعية التى ينتمى اليها الفرد الذى وقع منه الجرم(٢٥)،وفى خطاب

---

(٢٤) Ibid., p. 210.

(٢٥) انظر : Theophile J. Meek, The Code of Hammurabi, ANET, 1966, p. 163-177.

تنصيب الوزير المصرى تمحى مثل هذه الفروق والجميع يقفون على قدم المساواة ، وعندما قال «افلاطون» فى مقالته عن السياسة «الدولة تجسيم العدالة المنظم» ، ربما لم يكن يعلم الا قليلا ، أن مصر كانت قد اتخذت منذ ألف وخمسمائة سنة خلت ، هذا المثل الاعلى ، وحاولت أن تجعله حقيقة واقعة ، أو أن هذا دليلا آخر على أن افلاطون كان فى مصر ، وأن ذلك رأيا استحوذ عليه هناك[٢٦] •

٣ ـ فى المجال الدينى :

دفعت أحداث الثورة المصريين القــدامى الى أن يبدو آراءهم فى العقــائد التى كان يعتنقها السلف بالنقد تارة ، والمديح تارة أخرى ، وبالرغبة فى التعديل ــ فى بعض الاحايين ــ مرة ثالثة •

كان المصريون أول من فكر فى معنى الحياة ، فحوار « المتعب من الحياة مع روحه »[٢٧] نموذجا لذلك ، اذ نرى صاحب الحوار (نسو) يفكر فى الخلاص من الحياة ، لانها أصبحت ــ فى نظره ــ لا تطاق ، لما فيها من آلام ونكبات أحاطت به وبقومه •

ويتناول «نسو» التساؤل عن معنى الحياة من ناحيتين ، الواحدة تتعلق بمعنى الحياة ، اذا اختفى منها كل ما كان من شأنه أن يجعلها سعيدة ، والاخرى أكثر عمقا ، وأوسع مدى ، فلم يكتف الكاتب فيها باستمرار ذلك العراك بين الافكار والرغبات ، وانما عمد الى الموازنة بين وجهتى النظر المختلفتين اللتين سادتا الحياة فى ذلك العصر ، بينما نجد روح «نسو» تلتزم الدفاع عن متع الحياة الرخيصة ، وتدعوه الا يفكر كثيرا فى الاخرة ، وأن يتقبل برضى كل ما تقدمه الحياة ، ويمثل الكاتب ذلك الفــريق من المصريين الذين احتفظوا بجأشهم ، والذين

---

(٢٦) جيمس هنرى برستد : تطور الفكر والدين فى مصر القديمة ، ترجمة زكى سوسن ــ القاهرة ١٩٦١ ص ٣٣٨ •

(٢٧) انظر : J. H. Breasted, op. cit., p. 168-181.

وكذا A. Erman, op. cit., p. 86-92.

محصتهم الآلام والنكبات وطهرتهم من أدرانها ، فأكسبتهم بصيرة ، وزادتهم ايمانا بالاخرة ، وبقيمة أعمالهم الصالحة فى الحياة الدنيا .

ومن ذلك يتضح أن ما حدث يتكرر فى الانسانية ، وأن فرط النكبات والمساوىء الاجتماعية المنتشرة ، وازدياد البلاء ، يحدث أثرا مزدوجا ، ففريق ممن تصيبهم النكبات — وهم الاكثرية — يجرفهم تيار الاحداث ، بينما يفترض أن تدعو تلك الاحداث الى التبصر ، وأحيانا الى التشكك[٢٨] .

هذا وقد نادى «ايبو — ور» كذلك ، بفكرة التخلص من الحياة ، وأن يكون ذلك نهاية الناس من الدنيا ، «ألا ليت ذلك يكون نهاية الناس، فلا حمل ، ولا ولادة ، ليت العالم يتخلص من الغوغاء ، وتنقضى المشاحنات[٢٩] .

ولم يقتصر الامر على التفكير فى معنى الحياة ، وتمنى الخلاص منها ، بل ان الثورة انما دعت فريقا من الناس الى الشك فى الاخرة نفسها ، ودعوة المترفين الى التمتع بمباهج الحياة الدنيا ، ما وسعهم الى ذلك سبيل ، دونما قلق على الاخرة ، وما يصيبهم فيها ، لانهم لا يعلمون عنها شيئا ، ذلك أن واحدا من الراحلين لم يعد اليهم لينبئهم بخبر الحياة الاخرى وما فيها ، كما أن واحدا من الراحلين لم يأخذ معه شيئا مما اقتناه فى الدنيا ، حين ذهب الى الاخرة[٣٠] .

هذا وقد ظل المصريون — كما كانوا قبل الثورة — يؤمنون بأهمية الوسائل المادية ، كطريق للسعادة فى الاخرة ، فالقبر الفخم والهبات السخية ، من الامور الهامة فى ذلك ، ولكن الثورة أضافت الى ذلك أن السعادة فى الاخرة ، لن تكون بقبر يبنى ، أو قرابين تقدم بانتظام .

---

(٢٨) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(٢٩) J. A. Wilson, op. cit., p. 442.

(٣٠) Ibid., p. 467.

أو بعطف من الملك الاله ورضاه ، وانما السعادة فى الاخرة بشىء أفضل من ذلك وأهم ، بالعمل الصالح ، فهو طريق النجاة من أخطار العالم الثانى .

ويقدم لنا الملك الاهناسى فى نصائحه أمثلة كثيرة على ذلك ، عندما يحث ولده على نبذ المادية فى ثلاث فقرات : «لا تكن شريرا ، فالصبر خير ، اجعل بيت ذكراك خالدا بحب الناس لك»(٣١) ، وذلك عندما أراد أن يقارن ذلك العمل الاخلاقى ببناء بيت الذكرى من الحجر «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان»(٣٢) .

وهكذا تأتى لنا الثورة بما يعد من أنبل ما جاء به التفكير الخلقى أو الدينى فى مصر القديمة ، ويؤكد الملك الاهناسى ذلك المبدأ حين ينصح ولده بأن فضيلة الرجل المستقيم أحب الى الله من أضاحى الرجل الظالم ، «ان فضيلة الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الشرير»(٣٣) (أى الثور الذى يقدمه كقربان) ، وهكذا تنادى الثورة ، وتؤكد مبادؤها بأن الاخرة انما هى نتاج عمل الدنيا .

ويقدم صاحب قصة الفلاح الفصيح مثلا آخر ، فهو يحذر كبير الحجاب فى جملة مقتضبة تحمل كل معانى التحذير من يوم الحساب حيث يقول « احذر أن الابدية تقترب»(٣٤) ، ونرى كذلك أمراء العهد الاقطاعى يفخرون بمراعاة العدالة ، وحبهم للفقراء وعنايتهم بهم ، فكل منهم يفخر بأنه أنقذ الارملة ، وواسى المتألم والحزين ، وأطعم الطفل ، ولم يفرق بين رجل فقير وآخر عظيم(٣٥) .

---

(٣١) Ibid., p. 417.
(٣٢) Ibid., p. 417.
(٣٣) Ibid., p. 417.
(٣٤) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 123.
(٣٥) P. E. Newberry Beni Hassan. I. London. 1833. Pl. 8, p. 27.

وهكذا نادت الثورة،منذ ذلك العهد البعيد ، بأن القيم الخلقية،يجب أن تحل محل القيم المادية ، وأن المرء ان أراد خلودا فى آخرته،وسعادة فى حياته الثانية فليسلك الى ذلك سبيل الخير ، وبذا تكون مصر أول أمة عرفت القيم التى فى الانسان العادى ، ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان هذه المعرفة انما كانت تهدف فى محاولاتها الى أن يتمتع عدد كبير من الناس بحياة أفضل(٣٦) •

وكان من نتائج الثورة كذلك ، أننا نقرأ — ولاول مرة فى التاريخ المصرى — عن وجود محكمة بعد الموت ، يقف الناس أمامها جميعـا يؤدون امتحانا عسيرا عما قدموه فى دنياهم — خيرا كان أم شرا — ولن ينجح فى هذا الامتحان الالهى أصحاب الثروة والجاه والاهرامات الشاهقة والقبور الضخمة ، وما يقدم لاصحابها من قرابين وأدعيات ، وما يقام فيها من طقوس وصلوات ، وانما سيكتب النجاح فيها لاصحاب العمل الصالح ، وذوى النفوس الطيبة ، لان أعمال كل انسان سوف توضع مكدسة بجواره ، وستقرر المحكمة مصير الموتى أجمعين •

ونقرأ فى تعاليم الملك الاهناسى : «انك تعـلم أن القضاة الذين يحاسبون المذنب ، لا يرحمون الشقى يوم المحـاكمة ، وتسوء العاقبة ان كان الذى سوف يحاسب انما هو الواحد العاقل (ربما تحوت رب الحكمة ، الذى يدير المحاكمة يوم القيامة) ، ولا تضع ثقتك فى طول السنين ، فهم ينظرون الى الحياة كساعة ، ثم يبعث المرء ثانية بعد الموت ، وتوضع أعماله بجانبه كأكوام ، لان الخلود مثواه هناك ، غبى من لا يهتم بذلك ، أما من يأتى دون ذنوب فانه سيمشى هناك سعيدا مرحا ، مثل سادة الابدية (اسم للابرار المتوفين)(٣٧) •

وهكذا استطاع المصريون القـدامى أن يقتربوا الى حد ما ، من

---

(٣٦) J. A. Wilson. The Burden of Egypt, Chicago. 1954, p. 114.

(٣٧) A. Erman; The Literature of Ancient Egyptians, London, 1927, p. 77.

المبدأ الذى قررته الكتب السماوية ، وهو أن الاخرة انما هى نتيجة عمل الدنيا ، ((من عمل صالحا فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد))[٣٨] •

غير أن هناك أمورا أودت بذلك المبـدأ النبيل ، أو على الاقل ، أوجدت ثغرة فيه،منها أن القوم قد استمروا فى اعتقادهم القديم من أن اقامة المقابر المفخمة ، والانفاق عليها ، انما يضمن سعادة المتوفى فى العالم الاخر ، ومنها انتشار السحر ، وزيادة الاعتماد عليه فى عـالم الاخرة ، ومن ثم فقد لجأوا الى التعاويذ التى رأوا فيها حماية للمتوفى من الاخطار التى تحف به فى الاخـرة ، وانتهز الكهنة تلك الفرصة لابتزاز أموال الناس ، فضاعفوا أخطار الاخرة بدرجة كبيرة ، وأدعوا أنهم قادرون على انقاذ المتوفى من كل خطر ، عن طريق تعويذة خاصة، تنجيه من ذلك الخطر المحتوم ، وبذلك يضمن المتوفى قبوله خلقيا عند المحاكمة فى عالم الاخرة[٣٩] •

ومنها امتزج القوم بعد موتهم بالاله ((أوزير)) وكان ذلك من شأنه أن يقضى على الهدف من المحاكمة ، اذ أصبح مجرد هذا الامتزاج كفيلا بأن يحقق براءة الميت ، وأصبح كل ميت يلقب بالمبرأ ، ولم يكن هناك مجال للاعتراف بأى ذنب اقترفه فى حياته ، اذ كان عليه أن يعـلن براءته من كل ذنب وخطيئة ، وأن يزعم لنفسه سلسلة من الفضائل والاعمال الطيبة ، وهـكذا أدت مساواة كل ميت بأوزير ، وامتزاجه به ، الى براءة صورية ، ضيعت الغرض من المحاكمة ، وأصبح الاهتمام بالشكليات والسحر شائعا[٤٠] •

---

(٣٨) سورة فصلت : آية ٤٦ •

(٣٩) J. H. Breasted, The Dawn of Conscience, N. Y., 1939, p. 268.

(٤٠) نجيب ميخائيل : مصر والشرق الادنى القـديم ـ الجـزء الاول ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٣٨١ •

الباب الرابع

الدولـــة الوســـطى

٢٠٥٢ ـ ١٧٨٦ ق٠م

ويتكون من :

الفصل الاول : السياسة الداخلية

الفصل الثانى : السياسة الخارجية

الفصل الثالث : ابراهيم عليه السلام فى مصر ٠

الفصل الأول

السياسة الداخلية

١ ـ الاسرة الحادية عشرة

(٢٠٥٢ ـ ١٩٩١ ق٠م)

(١) منتوحتب الاول

أشرنا من قبل الى الامراء الطيبيين ، الذين كتب لهم آخر الامر نجاحا بعيد المدى فى القضاء على الاهناسيين فى عهد « منتوحتب الاول » والذى اعتبرناه المؤسس الحقيقى للاسرة الحادية عشرة ، ومن هنا فان المصادر انما تجمع على ذكر اسمه ، فعلت ذلك بردية تورين وقائمة أبيدوس ، ولعل ذلك هو الذى دفع البعض الى اعتبار قيام الاسرة الحادية عشرة ، انما كان فى عام ٢٠٥٢ ق٠م ، أى منذ توحيد القطرين تحت زعامة «منتوحتب الاول»[١] ٠

وهناك نقش صخرى هام فى الوادى الصغير المعروف باسم «شط الرجال» على مبعدة ثلاثة كيلومترات من وراء جبل السلسلة ــ على مبعدة ٤ كيلا الى الجنوب من مدينة كوم امبو ــ بمحافظة أسوان ، يظهر فيه «منتوحتب الاول» مصحوبا بخازنه «اختوى» ــ وكذا أمه « قمر» (ايعح = يوعح) ، وأبيه « انيوتف الثالث » ــ وقد سجل اسمه فى

---

(١) بدأت طيبة تكون أسرة حاكمة على أيام الاهناسيين ، وقد أخذت زمام القيادة على أقاليم الجنوب منذ أيام «أنتف الاول» غير أن أول انتف ملكى انما كان «سهر تاوى» ثم خلفه «واح عنخ أنتف» ثم «نخت نب تب نفرة» ، ثم «سعنخ ايب تورى» (منتو حتب الاول) والذى حمل ثلاثة القاب سعنخ ايب تووى ، نب حبت رع ، سام تاوى) تعكس كل منهما مرحلة مختلفة من حياته العملية ، كما أشرنا من قبل ٠

خرطوش ، على عادة الملوك ، وقد لقب «الاب الالهى ، حبيب الرب ، ابن الشمس» ، ثم دعا له بقوله «عاش أبدا» ، ثم أضاف الكاتب الى هذه الاسماء ، أسماء جماعة من كبار رجال الدولة الذين يحتمل أنهم قد خفوا الى استقبال فرعونهم ، أو أنهم كانوا فى بعثة جنوبية ، ورأى فرعون أن يستقبلهم بعد عودتهم منها ، وعلى أى حال ، فربما كانت هذه الزيارة التى أرخت بالعام التاسع والثلاثين ، مجرد حدث فى تقدم ملكى يزمع أن يمارس فيه سلطانه[٢] .

هذا وقد عثر للرجل على آثار أخرى كتب عليها اسمه ، وبها تماثيل له ، كما فى معبد الالهة «ساتت» فى اليفانتين ، وفى أساسات معبد الالهة «نخابة» فى الكاب[٣] — على مبعدة ١٩ كيلا شمال ادفو — وفى بلدة «الجبلين» — على مبعدة ١٨ كيلا شمالى اسنا — كما أعاد بناء معبد الاله «مونتو» فى «طود»[٤] على مبعدة ثلاث كيلو مترات شمال محطة أرمنت — هذا وقد عثر على اسمه فى معبد «مونتو» بأرمنت[٥]، كما أقام عدة مقاصير فى «دندرة»[٦] وفى أبيدوس[٧] .

وأما أهم آثار « منتو حتب الاول » فهو معبده الهرمى فى منطقة

(٢) H. E. Winlock, The Court of Neb. Hepet-Re, Mentu-Hotpe, AJSL, 1940, p. 137 F.

(٣) Fouilles d'El-Kab, Executees Par la Fondation Egyptologique Reine Elisabeth, 1940, Pl. 30.

(٤) P. E. Newberry, Extracts from my Notebook. VII, in PSBA, 25, 1903, p. 362, Pl. 1.

وكذا J. Vandier, in Syria, 18, 1937, p. 174-182.

وكذا Bisson de la Roque, Tod (1934-1936), p. 1, 10, 14.

(٥) R. Mond and O. H. Myers, Temples of Arment, A preliminary Survey, I, London, 1940, p. 166.

(٦) W. M. F. Petrie, Dendereh, 1898, London, 1900, Pl. 12, p. 53.

(٧) W. M. F. Petrie, Abydos, Part, II, London, 1903, Pls. 24, 54, p. 14, 33, 43.

الدير البحرى فى طيبة الغربية ــ والذى كشف عنه «ادوارد نافيل» (١٨٧٥ ــ ١٩٢٤) ، فيما بين عامى ١٩٠٣ ، ١٩٠٧[٨] ــ والذى يعد طرازا فريدا فى تصميمه ، فقد اعتاد مهندسو الدولة القديمة على أن يجاوروا بين أهرام الفراعين ومعابدهم ، ولكن الجديد هنا الجمع بينهما فى وحدة معمارية واحدة ، فلقد جمع المهندس هنا ــ ولاول مرة ــ بين هرم الفرعون ومعبده فى بناء واحد قائم متصل ، وتخير لمشروعه حضن جبل ناهض من جبال طيبة الغربية ، وأراد أن يطاول هرم فرعون ارتفاع الجبل فصمم تحته مسطحين واسعين عظيمين يعلوا الواحد منهما فوق الاخر ، ويؤدى اليهما طريق طويل عريض ، يبدأ بمدخل متسع عند حافة الوادى المنزرع أضيف اليه مسحة جديدة، تتمثل فى وجود حرش من أشجار الطرفاء والجميز ، تمتد حتى تصل الى جانبى الطرف الداخلى للبهو الكبير •

وكان هناك منحدر يقطع صفا أدنى من أعمدة مربعة الشكل ، يذكرنا بصف المقابر ، ويؤدى الى شرفة لها أعمدة مماثلة فى الواجهة والجانبين ، وكانت هناك بوابة تؤدى الى بهو مغطى فى نهايته قاعدة متينة تحمل هرما متناسق النسب ، وهناك الى الغرب ، محفورا فى الجبل ، يوجد حوش أضيق ، ينتهى بصالة أخرى ، ومحراب دقيق ، وأما حجرة الدفن فيمكن الوصول اليها عن طريق حجرة بين الهرم والجبل •

هـذا وتزخر جنبات معبد «منتوحتب الاول» الجنازى بمقابر حاشيته ، وقد تابع الحفر فيها «هربرت ونلوك» (١٨٨٤ ــ ١٩٥٠) ، فهناك مثلا دفن الوزير «ايبى» وأمين بيت المال «اختوى» ، وربما كان الاكثر اهتماما أمر الكشف فى احدى المقابر عن نماذج غريبة تمثل ما يمارسه الناس من نشاط الحياة اليومية من نسج وصناعة جعة

(٨) E. Naville, The XI th Dynasty Temple at Deir El-Bahari, 3 Vols, London, 1907-1913.

وتعداد ماشية ، وهى تعرض حياة العصر فى وضوح قد يفوق مناظر النقوش التى عرفتنا بحضارة مصر القديمة فى واقعية لا نظير لها من أى عصر سالف(٩) .

هذا وقد عثر فى «دندرة» — مقابل قنا عبر النهر — على لوحة لرجل كان فى خدمة احدى ملكات العصر ، يصف فيها سيدته بأنها «ماهرة فى الكتابة ، وبارعة فى العلوم التى تمتلىء بها مكتبة الجنوب الكبيرة ، وأنها قد أضافت اليها مجموعة كبيرة من كتب قيمة ، قام هو بترتيبها ، وأصلح ما تلف منها ، وجمع المخطوطات الممزقة منها(١٠) .

وأما عن ادارة «منتوحتب الاول» الاقليمية ، فمن المرجح أن أمراء الاقاليم — ماعدا القليل منهم — قد عينهم الملك فى وظائفهم ، وان سحب منهم الحق فى وراثة المناصب ، ومن ثم فقد اختفى لقب «حاكم الاقليم العظيم» وغيره من النعوت الضخمة التى انتحلها حكام الاقاليم فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، وندرت مقابرهم فى أقاليمهم ، ونحتوا أغلبها حول مقابر فراعينهم فى غرب العاصمة طيبة ، تأكيدا لتبعيتهم لهم ، والتفافهم حولهم .

هذا وقد عبر عن سلطان الفراعين ، وحكومتهم المركزية وقت ذاك، قائد خرج لقمع تمرد بدوى ، ثم سجل أخبار نصره الذى نسبه الى سيده الفرعون ، فقال : «كان الخوف من فرعون هو الذى جعلهم يخشوننى ، وكانت سطوته هى التى جعلتهم يرهبوننى ، كما أن حب الارباب له ، هو الذى جعل الارضين تعشقانه»(١١) .

---

(٩) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford. 1964, p. 122-123.

(١٠) A. Weigall, Histoire de l'Egypte Ancienne, Paris, 1955, p. 66

(١١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٢٧ ، ايتين دريو تون وجاك فانديية : مصر — ترجمة عباس بيومى — القاهرة ١٩٥٠ ص ٣٧١ ، ٢٨٠ .

وكذا A. H. Gradiner, The Tomb of A Much-Travelled Theban Official, JEA, 4, 1917, p. 35-38.

هذا وقد بدأت الفنون تنتعش فى عهد «منتوحتب الاول» ، بعد أن بقيت مهملة قرابة قرنين من الزمان ، وخلف فنان من هذا العصر ، يدعى «ارتيسن» ، نقشا يوجـد الان فى متحف اللوفر ، يقـول فيه «كنت فنانا بارعـا فى فنى ، متفوقـا فى علمى ، عرفت كيف أصور الحركات فى صورة الرجل وقوام المرأة .. وموازنة الذراع عند التغلب على فرس النهر ، وحركات الشخص الذى يجرى ، وليس هناك شخص بقـادر على أن يكتب له نجحـا بعيد المـدى فى كل هذا ، غـيرى ، فضلا عن ابنى الاكبر من صلبى ، «سنوسرت»[١٢] .

(٢) منتوحتب الثـــانى

جاء منتوحتب الثانى على عرش الكنانة بعد «منتوحتب الاول» ، وقد سار «منتوحتب الثانى» (سعنخ كارع) على سياسة أبيـه فى التعمير ، فنشطت حركة البناء فى الصعيد والدلتا ، وتقدمت الفنون فى عهده ، وهناك نقش من العام الثامن من الحكم ، على صخور وادى الحمامات ، يروى كيف أن أحد رجاله المدعو «حنو» أرسل الى هناك ليقتطع أحجارا لتماثيل تقام فى مبانيه المقدسة ، ويروى «حنو» كيف خرج من «قفط» (بمحافظة قنا) فى ثلاثة آلاف جندى مجهزين ، بعد أن طهرت قوة من الشرطة ، الطريق أمامهم من العصاة ، وربما فعلت ذلك بعثة أخرى سبقته ، وأكد أنه أكرم رجاله فسمح لكل منهم بسقاء، أو قربة ماء صغيرة ، وعصا يعلق فيها سرة الخبز وسقاء الماء،وأضاف أنه ود لو جعل الطريق نهرا ، وجعل الصحراء طريقا زراعيا .

وقد حفر فى الطريق الى البحر الاحمر آبارا كثيرة ، ربما بلغت خمسة عشر بئرا ، لايزال بقايا بعضها قائما حتى الان ، ثم استمر فى طريقه حتى بلغ ساحل البحر الاحمر ، ربما عند ميناء « ساو » عند

---

(١٢) M. Baud, le Metier, d'Iristisen, dans Chronique d'Egypte, 1938, p. 21 F.

وكذا H. E. Winlock, The Rise and Fall of The Middle Kingdom in Thebes, N. Y., 1947, p. 32.

نهاية وادى جاسوس الفوقانى ، وشمالى القصير القـديمة بحوالى أربعين ميلا (وهو الميناء الذى تحددت معالمه بعد ذلك فى الاسرة الثانية عشرة) ، وأنزل سفينة أو سفنا حملها ببضائع يستبدلون بها ما تحتاج اليه الخزائن الملكية ومعابد الدولة من بلاد «بونت» ، ثم قطع الاحجر لتماثيل مولاه فى طريق العودة(١٢) .

هذا وقد دفن «سعنخ كارع» فى مكان ما فى المنطقة المجاورة للدير البحرى ، مادمنا نلتقى فى المرتفعات التى تشرف على الواديين بكتابات لكهنته الجنازيين ، الذين عملوا فى خدمة عبادة هـذين الملكين اللذين يحملان لقب «منتوحتب» (الاول والثانى) .

تشير بردية تورين الى فترة سنوات سبع ، فيما بين نهاية حكم «منتوحتب الثانى» (سعنخ كارع) وقيام الاسرة الثانية عشرة ، دون أن تحدد لها ملكا معينا ، ويرجح البعض أن هذه الفترة انما كانت من نصيب «منتوحتب الثالث»(نب تووى رع) ، وليس هناك ما يشير الى أنه كان مغتصبا للحكم ، ولعل السبب فى اهمال اسمه فى بردية تورين ، وقوائم الرعامسة ، انما هو نقص فى الوثائق التى استخدمت كمصدر لمؤلفى هذه القوائم(١٤) .

وهناك آثار تحمل اسم «منتوحتب الثالث» منها اناء حجرى عثر عليه فى اللشت ، على مقربة من هرم الملك «أمنمحات الاول» ــ مؤسس الاسرة الثانية عشرة ــ وقد نقشت أسماؤه من الخارج «حور ، نب ،

---

(١٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٤٣٠ ــ ٤٣١ .

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag, 429-433, p. 208-210.

وكذا Jean Vercoutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, p. 351-352.

وكذا W. C. Hayes, Career of The Great Steward Henenu under Nebhepetre, JEA, 35, 1949, p. 43 F.

(١٤) J. Vercoutter, op. cit., p. 353.

وكذا H. Goedicke, JEA, 42, 1956, p. 50-53.

نووى ، ابن رع ، منتوحتب)) ، ومن الداخل كتب الاسم الحورى لامنمحات الاول،وفى الحالين كتب ((محبوب حاتحور، سيدة دندرة))[١٥] •

وهناك ثلاث كتابات من عامه الاول ، وواحدة من عـــامه الثانى ، وتسجل ايفاد موظف للحصول على الجمشت (الاماتيست) من وادى الهودى ، على مبعدة ١٧ ميلا ، الى الجنوب من أسوان[١٦] ، ولعـل أهم حـــدث يرتبط بعهــد ((منتو حتب الثالث)) انما هو قيام وزيره ((أمنمحات)) ، على رأس عشرة آلاف جندى من الصعيد والدلتا،بحملة الى وادى الحمامات ، لقطع الاحجار اللازمة لتابوت سيده الفرعون ، فضلا عن تشييد معابد فى الصعيد ، وأنه قد أتم ما عهد اليه انجازه بنجاح ، ثم عاد بعد أن سجل عدة نقوش ، وقد جاء فيها أنه كان يلقب ((الامير الوراثى ، الشريف ، حاكم طيبة ، والوزير ، ورئيس كل النبلاء ومراقب كل ما تمنحه السماء ، وما تغـــله الارض ، وما يهبه النيل ، مراقب كل شىء فى هذه الديار)) •

على أن هنـــاك من يتشكك فى الآلاف العشرة من الرجـــال الذين صحبوا أمنمحات فى بعثته هذه ، ولكنهم لا يتشككون فى أمرين صحبا هذه البعثة ، الواحد ماروى عن غزال يتقدم فى غير خوف ، باديا للعيان أمام العمال ، ليضع صغيره على كتلة الحجر المزمع لتكون غطاء للتابوت، والاخر ، هطول أمطـــار غزيرة بعد عاصفة عـــاتية ، كشفت عن بئر مساحتهـــا عشرة أذرع طـــولا ، ومثلهما عرضـــا ، ملأى بالماء حتى الحافة[١٧] •

---

(١٥) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953, p. 167, fig. 102.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 125.

وكذا H. E. Winlocke, JEA, 26, 1940, p. 116-119.

(١٦) Ahmed Fakhry, The Amethyst Quarries of Wadi El-Hudi, Cairo, 1952, p. 19-23.

(١٧) A. Erman, ZAS, 1891, p. 60.

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 436-453, p. 212-216. =

وعلى أية حال ، فسرعان ما تتغير الاحوال ، وتقوم أسرة جديدة ، هى الأسرة الثانية عشرة ، يؤسسها وزير «منتوحتب الثالث» والمدعو «أمنمحات» ، وعلينا أن نفترض أنه فى فترة معينة تآمر ضد سيده الملك ، وربما استطاع أن يعتلى العرش مكانه بعد بضع سنوات من الاضطراب ، وهناك كشف حديث يلقى ضوءا على هذه النظرية ، ذلك أن هناك كتابة من الاسرة الثامنة عشرة منقولة عن الصرح الثالث بالكرنك تذكر بعد الملكين «نب حبت رع» و «سعنخ كارع» الاب المقدس المدعو «سنوسرت» ، الذى نستطيع أن نعرف من لقبه أنه الاب غير الملكى لامنمحات ، ومن المعروف أن الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ - ١٧٨٦ ق.م) كانت تتكون من عدد من الملوك يتبادلون فيما بينهم ألقاب «أمنمحات» و «سنوسرت» على التوالى فى معظم الاحيان[١٨] .

على أن هناك من يرى أن أمنمحات الاول لم يصل الى العرش عن طريق القوة اعتمادا على جزء من آنية عليها الخراطيش الملكية للملك «منتوحتب الثانى» و «أمنمحات الاول» مكتوبة معا ، ورغم أن نهاية الاسرة الحادية عشرة تكتنفها ظلمة ، غير أننا فى ضوء معلوماتنا الحالية، لا نستطيع القول بأن هناك تدبيرا سياسيا عنيفا ، كان سببا فى أن يعتلى أمنمحات الاول عرش البلاد ، كما أن الملك الجديد لم يكن يميل الى استخدام العنف ، كما كان يقظا فى كل من بداية ونهاية حكمه[١٩] .

= وكذا G. Goyon, Nouvelles Inscriptions Rupestres du Wadi Hammamat, Paris, 1957, No. 52-60.

(١٨) A. H. Gardiner, op. cit., p. 125.

(١٩) J. Vercoutter, op. cit., p. 354.

٢ ـ الاسرة الثـــانية عشرة

(١٩٩١ ـ ١٧٨٦ ق٠م)

(١) أمنمحات الاول (١٩٩١ ـ ١٩٦٢ ق٠م)

في عـــام ١٩٩١ قبل الميلاد ، جلس أمنمحـــات الاول على عرش الكنانة ، ورغم أن هناك من يذهب الى أن الرجل انما قد تولى العرش في ظروف قاسية ، تعرضت البلاد فيها الى هجمات من بدو الصحراء الشرقية والغربية[١] ، غير أننا لا نملك أى دليل يؤكد هذا الاتجاه ، وعلى أى حال ، فان «امنمحات الاول» (سحتب ايب رع) ربمـــا كان يرتبط بعـــلاقة ما بالاسرة المالكة ، عن طريق الملك الاخير « منتو حتب الثالث» ، والذى لم تكن أمه من نسل ملكى ، ولعل هذا انما يفسر لنا الحظوة التى كان يتمتع بها أمنمحات الاول عند آخر المناتحة ، والجرأة التى استولى بها على عرشهم ، وعلى أى حال ، فنحن على يقين من أن أمنمحات الاول لم يكن من النسل المباشر لفراعين الاسرة الحـــادية عشرة[٢] ٠

ومصادرنا هنا ليست وثائق رسمية ، وانما روايات وقصص شعبى، فهناك بردية في متحف لينينجراد بالاتحاد السوفيتى تحمل رقم (١١٦ ب) ، عثر عليها الاثرى الروسى «فلاديمير ساميو نوفيتش جولينشف» (١٨٥٦ ـ ١٩٤٧) ، وقام بنشرها في عام ١٩١٣[٣] ، كما قام بترجمتها كذلك كثير من علمـــاء المصريات ، من أمثال «ســير ألن جاردنر»[٤]

---

(١) A. Weigall, op. cit., p. 69.

(٢) J. Vecoutter, op. cit., p. 354-355.

(٣) V. S. Goleuischeff, Les Papyrus Hieratiques, N. 1116 B, del Ermitage Imperial, Petersbourg, 1913.

(٤) A. H. Gardiner, The Prophecy of Neferti, JEA, I, 1914, p. 100-106.

و «أدولف ارمــان»[٥] و «جون ويلسون»[٦] و «جــورج بوزنر» وغيرهم[٨] .

وليس من شك فى أن هدف هذه البردية انما كان تمجيد «أمنمحات الاول» «سحتب ايب رع» ولابد أنها تبعا لذلك انمــا كتبت فى عهد أمنمحات الاول ـــ وربما بعده بقليل ـــ وان زعم صاحبها « نفرتى » (أو كما كان يسمى الى عهد قريب «نفرـــ رىهو») أنها انما ترجع الى عهد «سنفرو» ـــ مؤسس الاسرة الرابعة ـــ فقد جاء فيها أن سنفرو كان يسعى وراء ما يسليه ، فدعا اليه بعضا من رجال حاشيته ليبحثوا له عن رجل ماهر يستطيع أن يقدم له ما يريد ، وكان هناك كاهن مرتل من « بو باســطة » يدعى « نفرتى » وقع الاختيار عليه ، فطلب منه فرعون أن يحدثه عن المستقبل ، أكثر مما يحدثه عن الماضى ، فاندفع هذا فى وصف كارثة مقبلة ، تذكرنا بجلاء الصورة التى التقينا بها فى عصر الثورة الاجتماعية الاولى .

ومع ذلك فان الخلاص سوف يأتى فى النهاية ، «سيأتى ملك من الصعيد يدعى «امينى» (اختصار مؤكد لاسم امنمحات) ، ابن امرأة من تاستى ، طفل من خن نخن (البصيلية مركز ادفو) ، يستقبل التاج الابيض ، ويلبس التاج الاحمر ، وسوف يسعد من يعيشون فى عصره ، وسيجعل ابن واحد منهم ، خالدا الى الابد» .

وهكذا تشير نبوءة «نفرتى» الى أن «امينى» انما سيتولى عرش الكنانة بناء على ارادة الهية ، وأن الحكماء قد تنبأوا بذلك أمام الملك سنفرو ، ذلك الفرعون الذى كان له فى قلوب الشعب مكانة لا تعادلها

---

(٥) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, Lonoon, 1927, p. 100-110.

(٦) J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 444-445.

(٧) G. Posener, op. cit., p. 22, 47-51.

(٨) J. H. Breasted, The Dawn of Conseience, N. Y., 1939, p. 200-206.

مكانة فرعون آخر ممن سبقوه ، وانطلاقا من هذا فان أمنمحات الاول لم يكن يحمل دماء ملكية ، ذلك لان اصطلاح «ابن واحد منهم» انما كان طريقة شائعة عند القوم ، عن ذلك الشخص الذى كان من منبت طيب ، ولكنه لم يكن من أسرة ملكية .

هذا وقد اعتبر «أمنمحات الاول» نفسه بداية لعصر جديد ، الامر الذى يبدو جليا فى اصطناعه اللقب الحورى «وحم مسوت» — وهو نفس التعبير الذى سيستعمله «سيتى الاول» من الاسرة التاسعة عشرة ، كما سوف يستخدم فى أخريات أيام الاسرة العشرين[٩] — ومع ذلك فاننا نرى «سنوسرت الاول» يكرس تمثالا ، لسلف الاسرة الحادية عشرة «أنيوتف الاكبر ، المولود من ايكو» فضلا عن مذبح للملك «سعنخ كارع ، منتوحتب الثانى» الذى ختمت قوائم الملوك به الاسرة الحادية عشرة ، فلو أنه كان هناك لون من ألوان الصراع بين « أمنمحات الاول » وبين أسرة المناتحة ، فان ذلك لم يحدث الا فى الفترة القصيرة لحكم «نب تووى رع ، منتوحتب الثالث»[١٠] .

وليس هناك من ريب فى قوة «أمنمحات» الاول ، الامر الذى مكن ولده وخلفاءه من بعده أن يحتفظوا بالعرش مدى قرنين كاملين ، وسنوات خمس (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق.م) ، هذا الى جانب زيادة ضخمة من الناحية العددية فى الآثار ، كما أن مدد حكم الملوك طويلة فى معظم الاحايين ، وهى آيات بينة على التقدم والاستقرار فى جميع أنحاء البلاد ، وقد كثرت المعابد المحلية ، سواء تلك التى شيدها ملوك الاسرة ، أو أضافوا اليها ، رغم أنه لم يبق لنا — كقاعدة عامة — سوى

---

(٩) J. Corny, A Note on The Repeating of Birth, JEA, 14, 1929, p. 194-198.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., p. 51.
(١٠) A. H. Gardiner, op cit., p. 127.
وكذا H. E. Winlock, op. cit., p. 5.
وكذا H. Gauthier, Le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 245.

كتل متفرقة منها فقط ؛ أما البقية الباقية فقد دمرت ، أو نقلت من مكانها لتفسح طريقا لابنية من عصور لاحقة ، هـذا فضلا عن كثرة اللوحات الخاصة ، وبالذات تلك التى عثر عليهـا فى أبيدوس ، التى اشتهرت كمكان لدفن الاله أوزير •

ولعل مما تجدر ملاحظته أن أمنمحـات الاول انما كان يستهدف الاستحواز على سلطان أوتوقراطى ، ينافس به سلطان فراعين الدولة القديمة ، ومع ذلك فان النقوش الرائعة على جدران المقابر الصخرية فى بنى حسن تكشف عن أن كبار مقاطعة «أوريكس» (Oryx = اقليم الوعل) انما كانوا سادة صغارا فى ممارسة حقوقهم ، وهناك كثير من الموظفين تذكرنا ألقابهم بالوظائف التى كانت تتصل بالقصر الملكى ، من أمناء ومشرفين على قاعة العدل ، ومشرف على المخازن وخزنة وقائد فرقة ، فضلا عن حملة الجزى الاجنبية(١١) •

ولعل من أهم أعمال أمنمحات الاول الداخلية انشاؤه لعاصمة جديدة لمصر ، وذلك حين أدرك أن طيبة (الاقصر) لا تصلح عاصمة للبلاد ، ولم يسع الى أن يتخذ من احدى العواصم القديمة ــ كاهناسية أو منف ــ مركزا له ، وانما اختار مكانا وسطا بين الصعيد والدلتا ، هذا فضلا عن رغبته فى أن تكون عاصمته على مقربة من الاسيويين الذين كانوا يتسللون الى الدلتا ، وكذا على مقربة من منطقة خصـبة يمكن استغلالها فى مشاريعه الزراعية ، وأخيرا ليكون على مقربة من أنصاره فى مصر الوسطى ، وهكذا كانت «ايثت تاوى» ــ على مبعدة ١٨ كيلا الى الجنوب من منف ــ ويعنى اسمها «القابضة على الارضين» (أرض الصعيد والدلتا) عاصمة لامنمحات الاول ، وأسرته من بعده ، فشيد هرمه ــ وكذا فعل سلفه سنوسرت الاول ــ على مقربة منها •

هذا وقام «سمبسون» فى عام ١٩٦٣م بدراسة بعض مشاكل من

---

(١١) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 127-128.

الاسرة الثانية عشرة ، ومنها العاصمة (ايثت تاوى) وقد انتهى الى أنها انما قد أنشئت فى أوائل عهد «أمنمحات الاول» ، وأن أقدم ذكر لها انما كان فى السنة الاخيرة لحكمه ، أثناء اشتراك «سنوسرت الاول» معه ، وأن وجود مقابر من الدولة القديمة ، وكذا من الأسرة الحادية عشرة ، فى جبانة «اللشت» المجاورة لهـا ، لا يعنى أبدا أن «ايثت تاوى» عريقة فى القدم •

وطبقا لرواية «بعنخى» فهى تقع فيما بين منف وميدوم ، وأغلب الظن أنها تقع فيما بين القرى التالية : «بمها» أو «المتنيا» أو «اللشت»، وان أشار بعض الباحثين الى موقع قـديم فى «بمها» شمـال هرم أمنمحات بقليل ، على أنه موقع العاصمة ، وان كنا فى الواقع لانستطيع حتى الان تحـديد موقعها على وجه اليقين ، حتى ينجح الاثريون فى الكشف عن موقعها بصفة قاطعة •

هذا وقد جاء اسم «أمنمحـات الاول» ضمن اسم المدينة بمعنى «أمنمحات يمتلك الارضين» ، ثم اختصرت الى «ايثت تاوى» ثم الى «اثو» ، وعلى أى حال ، فقد كانت «ايثت تاوى» مقر الملك ، ومركز النشاط الفنى والادارى فى مصر ، واستمرت كذلك طوال عهد الاسرة الثانية عشرة ، وان ظلت فى أعـين الاجيال التالية العـاصمة الملكية النموذجية وليس عاصمة الاسرة الثانية عشرة فحسب ، وان كان شأنها كمدينة انما قد أهمل بعـد الدولة الوسطى ، وقد مر بهـا «بعنخى» (٧٥١ ـــ ٧٣٠ ق٠م) عندما أتى الى مصر ليعيد اليها وحدتها ، كمـا أشار «بسماتيك الاول» (٦٦٤ ـــ ٦١٠ ق٠م) الى زيارته لها[١٢] •

وهناك ما يشير الى أن أمنمحات الاول انما قد حكم البلاد بيـد قوية ، وانه استطاع خلال بضع سنوات أن يحقق لمصر رخاء لم تعرفه

---

(١٢) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٣٥٤ ـــ ٣٥٥ •

وكذا W. K. Simpson, JARCE, II, 1963, p. 53-63.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p.

منذ الاسرة السادسة ، وليس من شك فى أن الرجل قد بذل جهدا كبيرا لاسترداد الهيبة الملكية تماما ، ولكى يضع حكام الاقاليم تحت سلطانه المباشر ، ورغم أن أمراء الاقاليم ظلوا فى الواقــع أقوياء حتى عهد سنوسرت الثالث ، الا أن أمنمحات الاول انما نجح الى حد كبــير فى تثبيت حقوقه كفرعون ، فلقد أصبحت وظيفة حاكم الاقاليم وراثية ، ولكن يمنحها الملك لمن يضمن ولاءه ، ومع ذلك لم يلغ سلطات الحكام الوراثيين ، كما حدث فى بنى حسن ، حيث يؤكد الملك بنفسه سلطات أمراء «منعت خوفو» على اقليم الوعل ، وهو الاقليم السادس عشر من أقاليم الصعيد ، كما ظهرت فى تلك الفترة عائلات جديدة ــ كما فى اليفانتين وأسيوط والقوصية ــ حلت مكان الامراء الذين عينهم فراعين الاسرة الحادية عشرة •

هذا وقد اتبع أمنمحات الاول سياسة جديدة بين أمراء الاقــاليم منعت التنافس بينهم ، وذلك عن طريق اقامة حدود ثابتة بين كل اقليم وآخر ، كما سن قانونا نظم به نصيب كل اقليم من مياه النيل الخاصة برى الاراضى الزراعية ، هذا فضلا عن تحديد الكمية التى يقدمها كل اقليم من المواد الغذائية ، وعدد السفن اللازمة للاسطول ، وأعــداد الرجــال للجيش المرابط ، وذلك للمشروعات الملكية فى أقــاليمهم أو خارجها ، ومن المعروف أن أمراء الاقاليم انما كانوا هم المكلفون بحشد الجند ، الذين كانوا يكونون فى ذلك الوقت الجزء الاكبر من القوات المسلحة المصرية[١٣] •

هذا وقد مارس أمنمحات الاول سلطانه فى الاقاليم ، فى الدرجة الاولى ، عن طريق الضرائب ، التى كانت تدفعها الاقاليم للتاج الملكى ، وقد استلزم ذلك أن تكون الحكومة المركزية على معرفة تامة بالوضع

---

(١٣) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ، ص ٣٥٧ •
وكذا R. O. Faulkner, Egyptian Military Organization, JEA, 39, 1953, p. 36 F.

الاقتصادى للبلاد ، ومن ثم فقد عين موظف أطلق عليه اسم «رئيس المراقبين لاراضى الخزانة الملكية» .

هـذا ويبدو واضحا أن أمنمحـات الاول انما أراد أن يستعيد السلطات الملكية تدريجيا ، وان كان قد ترك لامراء الاقاليم قدرا كبيرا من السلطة والحـرية فى ادارة أقاليمهم ، كمـا أن تثبيت الحـدود الاقليمية ، فضلا عن استرجاع الاراضى الحكومية المسجلة ، انما كانا فى نفس الوقت اعادة للتدخـل الملكى فى الادارة الاقليمية ، وبمرور الايام زاد هذا التدخل الملكى ، عن طريق سيطرة الحكومة المركزية ، والاراضى التى ضمت للتاج فى كثير من الاقـاليم ، وانطلاقا من هذا كله ، فقد أصبحت الخزائن الملكية من وسائل قوة فرعون ، التى كان لها أسطولها الخاص ، والذى كان يشرف عليه رجال البلاط المستقلون تماما عن أمراء الاقاليم(١٤) .

على أن هناك دلالات تشير الى أن هناك ضرورة ماسة لاتخـاذ احتياطات واسعة للحفاظ على سلطان فرعون ، وربما كان «أمنمحات الاول» (سحتب ايب رع = أمنمس الاول) يقرب من أواسط العمر حين اعتلى العرش ، ومن ثم فانه قد أشرك معه فى الحكم(١٥) ولده الاكبر «سنوسرت الاول» فى العام العشرين ، ثم حكما معـا عشر سنوات بعد ذلك ، وقد اتبعت هذه السنة طوال حكم الاسرة الثانية عشرة ، ومع ذلك فربما لم يكن ذلك فى بداية الامر تجديدا كاملا ، ذلك لان هناك ما يشير الى أن «ببى الاول» فى الاسرة السادسة ، ربمـا فعل ذلك(١٦) ، وربما كان الهدف من ذلك انما هـو اتقاء خطر أمراء

---

(١٤) J. Vercoutter, op. cit., p. 360-361.

(١٥) انظر عن أنواع الحكم المشترك (محمـــد بيومى مهـــران : اخناتون ـ القاهرة ١٩٧١ ص ١٣٦ ١٣٨) .

(١٦) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 97, 129.

الاقاليم الاقوياء فى لحظـات الضعف المؤقت عند نقل التاج من ملك الى آخر(١٧) .

وكان أمنمحات الاول على نشاط جم فى تدبير أمور مملكته وحسن تنظيمها ، ولم يدخر وسعا فى نشر الامن والسلام فى ربوعها ، ومع ذلك فقد دبرت مؤامرة لاغتياله ، بتدبير من الحريم فى أكبر الظن ، وقد اختلف المؤرخون فى نتائجها ، فذهب فريق الى أنها قد أودت بحياة فرعون ، بينما ذهب آخرون الى أن الرجل قد أصيب فيها ، ولكنه لم يلق حتفه ، ومن ثم فقد أشرك معه ولده «سنوسرت الاول» فى العرش ثم زوده بنصائحه فى الاثر المعروف باسم «تعاليم الملك أمنمحات»(١٨) ، وهو قطعة أدبية تشتمل على خلاصة تجـاربه الشخصية الواسعة ، يصف فيها أعماله ، وما لقيه من جحود وسوء تقدير ، وقـد جاء فيه عن المؤامرة :

«كان ذلك بعـد العشاء حين حـل الليل ، اقتطعت لنفسى ساعة للراحة ، وأنا ممدد فـوق سريرى ، كنت مجهـدا ، واستشعر قلبى للنعاس ، وفجأة تراشقت الاسلحـة ، وسمعت حـديثا يدور حول شخصى ، فظللت فى مكانى كثعبان الصحراء ، ثم قمت لاحارب وحدى ، وأدركت أن هـذا هجوم دبره الحرس ، لو أننى كنت قـد أسرعت بالاسلحة فى يدى لاستطعت أن أرد الادنياء ، ولكن ليس هناك قوى فى الليـل ، ولا يستطيع المرء أن يحارب منفردا ، وليس هناك مهرب موفق دون حماية»(١٩) .

---

(١٧) W. K. Simpson, The Single-Dated Monuments of Sesostris, I, An Aspect of The Institution of Coregency in The Twelfth Dynasty, JNES, 15, 1956, p. 214-219.

(١٨) أنظر : عن هذه التعليمات :
A. de Buck, The Instructions of Amenemas, p. 847-852.
وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 418-419.
وكذا A. Erman, op. cit., p. 72-74.

(١٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 130.

ومن الواضح أن ذلك انما يشير الى المؤامرة التى أودت بحياة «أمنمس الاول» ، ويتساءل الرجل : «أكانت المؤامرة بفعل الحريم ، أنبتت بذورها فى أركان البيت ؟ ان سوء الطالع لم يلزمنى منذ ولادتى، ولم يحدث شيء من قبل يعدل بسالتى واقدامى ، ومع ذلك فهذه خاتمة كل شيء» .

ولعل الاشارة الاخيرة انما قد تشير الى أن المؤامرة قد أودت بحياة أمنمحات الاول ، وان كنا لا نستطيع أن نقول ذلك ، دون أن يخالجنا ريب فيما نقول أنّ ذلك هو الحق الصراح ، فمازال أمر نتيجة المؤامرة موضع خلاف بين المؤرخين ، وأما ما يلى ذلك فيرويه نص يعد من أروع ما وصلنا من الادب المصرى القديم ، وهو ما عرف باسم «قصة سنوهى»[٢٠] .

كان «سنوهى» شابا نشيء فى البلاط الملكى[٢١] ، وكان يصاحب الجيش الذى أرسله «أمنمحات الاول» ، وعلى رأسه ولده «سنوسرت الاول» : الى أرض التمحو فى ليبيا ، وحين تم لسنوسرت انهاء مهمته، وفى أثناء عودته الى القصر ، أرسل رفقاء القصر اليه بأمر وفاة أبيه ، وتصادف أن كان سنوهى واقفا على مقربة من خيمة سنوسرت ، حين أنهى اليه بالسر الكبير ، فذعر أشد الذعر ، وأصابت القشعريرة كل

---

(٢٠) أنظر عن قصة سنوهى :

A. Erman, op. cit., p. 14-20. ET

وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 18-22.

وكذا A. M. Blackman, Some Notes on The Story of Sinuhe., JEA, 22, 1936, p. 35-44.

(٢١) اختلف المؤرخون فى صلة سنوهى بالاسرة المالكة،فهناك من يرى فيه شابا نشيء فى البلاط الملكى ، ومن يرى أنه يرتبط بالعائلة المالكة برابطة قرابة ، ومن يرى فيه أحد أبناء أمنمحات الاول من ام غير ملكية ، ومن يرى فيه واحدا من رجال البلاط فى عهد أمنمحات الاول ، ولكنه من الحزب المعارض لتوليه سنوسرت العرش ، وهذا ما نرجحه (أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٢١٥ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٢٢٨) .

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 131.

أعضاء جسده ، ومن ثم فقد أخذ يعدو ليجد له مخبأ ، وسرعان ماوجده أخيرا بين شجرتين •

ولعل ذلك انما يشير الى أن سنوهى انما كان مواليا لحزب يعارض فى تولية ((سنوسرت الاول)) عرش الكنانة ، فلما علم بوفاة أمنمحات فر الى الشرق ، فقد خشى أن يصيبه الاذى ، بعد أن فقد أكبر معين له فى القصر ، وربما خشى أن تنشب فتنة على العرش فى العاصمة ، يعز عليه أن يلتزم الجانب الصالح فيها ، فآثر البعد ، واستخفى عن الجيش واعتزله ، وتخطى الحدود الشمالية الشرقية وحيدا ، ويواصل سنوهى فراره على أطراف الصحراء ، فيبلغ رأس الدلتا ، وما يكاد يركبه حتى هبت ريح من الغرب ، فدفعته فى غير عسر على متن النهر، وظلت تدفعه حتى بلغ محاجر الجبل الاحمر من وراء العباسية ، فمضى وجهه حتى بلغ حصنا يقال له ((سور الامير)) أو ((حائط الامير)) •

ويستمر سنوهى فى مغامرته ، فيروى لنا أن بلدا قد أسلمه الى آخر ، حتى وصل الى ((جبيل)) ، ثم غادرها الى بلد آخر دعاه ((كومى))، حيث أمضى هناك شهورا ستة ، ويبدو أن سنوهى كان على معرفة بتلك البقاع ، كما كان على معرفة ببعض أهلها ، ويتجه سنوهى بعد ذلك الى ((رتنو العليا)) بعيدا عن سلطان ((سنوسرت الاول)) ، وربما كان هناك مصريون آخرون يعيشون هناك ، وربمـــا كانوا منفيين كذلك . ورغم أن سنوهى انما كان فى أمن من عقاب فرعون ، فانه كان يكرم وفادة حاملى الرسائل المصريين ، والذين كانوا يسافرون جيئة وذهابا من هناك الى العاصمة المصرية ، ومن ثم فربما كان سنوهى يعيش على مقربة من الطريق الرئيسى بين مصر وبين لبنان وشرقى سورية[٢٢] •

وأيا ما كان الامر ، فلقد أقام سنوهى هناك وتزعم احدى القبائل الى أن وصل الى سن الشيخوخة ، وهنا وصلته أوامر فرعون بأن ((عد

---

(٢٢) J. A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 134-155.

الى مصر حتى ترى الارض التى نشأت فيها ، وقبل الارض عند البوابة الثنائية العظمى ، والتحق بالبلاط ، لقد هرمت الان ، وعز نشاطك ، فتذكر يوم الدفن .... ولا ينبغى أن تموت فى بلد غريب ، ولا ينبغى أن يخفرك البدو ، أو أن تكفن فى جلد شاة ، هذا ليس أوان الطوفان فى الارض فعد واعذر المرض» .

ويعود سنوهى الى مصر ، ويأمر فرعون بأن يمنح بيتا ، وأن يقدم له الطعام من القصر ثلاث مرات يوميا ، وأن يبنى له هرما من الحجر، وأن يرتب لخدمة روحه الكهنة الجنازيين .

بقى أن نشير الى مجموعة أمنمحات الاول الهرمية ، والتى بناها فى مجاورات عاصمته الجديدة (ايثت تاوى) ، على غرار المبادىء الاساسية فى بناء المقابر الملكية فى الدولة القديمة ، وفى نفس الوقت شابهت معبد منتو حتب الاول فى الدير البحرى ، وذلك باقامتها على أرضية مرتفعة، وجعل مبانيها على مستويين مختلفين ، وفى داخل حدودها مقابر أعضاء الاسرة المالكة والمقربين من الحاشية ، وقد قامت بعثة من متحف المتروبوليتان فى عام ١٩٢٠م بحفر هذه المجموعة الهرمية حفرا جزئيا، ووجدت محتوياتها الداخلية قد نهبت كلها من قديم الزمن .

هذا ولم يتم حتى الان الكشف عن معبد الوادى لهذا الهرم ، وان عثر على أجزاء من الطريق الصاعد الموصل اليه ، وأما المعبد الجنازى فمازالت خرائبه باقية حتى اليوم من الجهة الشرقية من الهرم ، هذا وقد عثر فى خرائب هذا المعبد على احدى ودائع الاساس ، والتى تتكون من ستة قوالب من الطين ، وقد ثبت فى كل منها لوحة صغيرة عليها اسم المعبد واسم هرمه «مساكن سحتب ايب رع مضيئة» ، ولكننا نعرف، من آثار أخرى أن اسم هرمه انما هو «عظيمة هى حسنات أمنمحات».

ويذهب « وليم هيز » الى أن الاول ربمـا كان اسم هرم الملك ، أو اسم الهرم الذى كان موضوعا فوق قمته ، وأن الاسم الثانى هو اسم المعبد الجنازى أو اسم المجموعـة الهرمية كلها ، غير أن هـذا

التفسير — فيما يروى الدكتور أحمد فخرى — لا يتفق مع ما نعرفه عن الاهرام السابقة ، اذ أن اسم الهرم انما كان هو نفسه اسم كل جزء من مجموعته الهرمية ، بما فى ذلك هرم الملكة وبقية الجبانة الملكية، وربما قد حدث تغيير فى اسم الهرم ٠

ويبلغ ارتفاع هرم امنمحات الاول الان حوالى ٢٠ مترا ، ولكن ارتفاعه الاصلى كان ٥٨ مترا ، وطول ضلعه ٨٤ مترا ، وزاوية ميله ٥٤° ، وتحت ركنه الجنوبى الغربى عثروا على وديعة أساس فيها أشياء مماثلة لوديعة الاساس التى عثروا عليها فى المعبد الجنازى(٢٣) ٠

وهناك ما يشير الى أن أمنمحات الاول انما قد استعمل فى بناء قلب هرمه ، وجدران معبده الجنازى ، عددا هائلا من كتل الحجر الجيرى المأخوذة من مقابر الدولة القديمة فى دهشور وسقارة والجيزة، والمزينة بالنقوش والكتابات ، غيرأننا لا نستطيع — بسبب التخريب الذى أصاب هرم أمنمحات الاول ومجموعته عند اجراء الحفائر — أن نفرق بين أحجار الدولة القديمة ، وتلك التى صنعت فى الاسرة الثانية عشرة لتزين هذا المعبد ، ولم يكن من الميسور دائما معرفة الفرق بين نقوش كل من العهدين ، لان أمنمحات الاول كان يقلد فى عمد بعض مميزات النقوش فى الدولة القديمة ، وكثيرا ما نقلت على آثار الاسرة الثانية عشرة مناظر مشابهة للمناظر الموجودة فى مقابر الدولة القديمة(٢٤) ٠

(٢) سنوسرت الاول (١٩٧١ — ١٩٢٨ ق٠م) :

تابع «سنوسرت الاول» (خبر كارع) سياسة والده ، وقد تمكن من أن يحكم البلاد بخبرة ودراية ، ذلك لانه لم يكن حديث عهد بادارة شئون البلاد ، فقد اشركه والده معه فى الحكم منذ حوالى ١٩٧١ ق٠م،

---

(٢٣) احمد فخرى : الاهرامات المصرية ص ٣٠٤ — ٣٠٦ ٠
وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, 1953, p. 175.
(٢٤) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 219-220.

أى طوال الاعوام العشرة الاخـيرة من حكمه ، وقـد عثر «جيمس ادوارد كويبيل» فى عام ١٨٩٥/١٨٩٦ بين خرائب الغـرف الخلفية فى معبد الرمسيوم على أوراق من البردى تبين احتفـالات تتويج الملك «سنوسرت الاول»(٢٥) .

هذا وقد اشتهر «سنوسرت الاول» بكثرة أعماله العمرانية ، ففى مصر ما يقرب من ٣٥ منطقة وجدت بها آثار من عهده ، موزعة على الوادى من الاسكندرية وحتى الجندل الاول ، جنوبى أسوان ، كما فى تانيس وفاقوس والفيوم وعرب الاطـاولة بأسيوط وأبيدوس ودندرة وقفط والكرنك والطود ونخن (البصيلية) والفيانتين(٢٦) .

غير أن أهم أعماله فى هذا المجال ، انما كان تشييده من جديد لمعبد رع بمدينة هليوبوليس ، وقد بدأ العمل فيه منذ العام الثالث للحكم ، وعندما أتم ثلاثين سنة على العرش ، واحتفل بعيده الثلاثينى ، أقام أمام المعبد مسلتين من الجرانيت ، مازالت احـداهما قائمة فى مكانها هناك حتى الان ، وهى عبارة عن كتلة واحدة من الجرانيت الاحمـر الوردى ، يبلغ ارتفاعها أكثر من ٢٠ مترا ، جىء بها من محاجر الشلال الاول ، ثم نقلت ووضعت فى مكانها بمهارة فائقة .

وليس هناك من شك فى أن اهتمام « سنوسرت الاول » بمدينة هليوبوليس (أون) (عاصمة الاقـليم الثالث عشر من أقـاليم مصر السفلى) انما كان لاسباب سياسية ودينية ، ذلك أن الاله رع — معبود هليوبوليس — هو أكبر الالهة المصرية طرا وسيدهم ، كما أنه واحد من أقدمهم جميعا ، وكانت الاسرة الثـانية عشرة تهتم كثـيرا باحياء العقيدة وسطوتها ، فضلا عن ارضاء الكهانة المصرية جمعاء ، وكان رع الحامى العظيم لفراعين الدولة القديمة ، الذين حملوا لقب «ابن

---

(٢٥) J. E. Quibell, Ramesseum, London, 1896, p. 3-5.

(٢٦) Revue d'Egyptologie, 16, 1964, p. 201-203.

وكذا W. M. F. Petrie, Abydos, I, London, 1900, Pl. LIV.

رع» (سارع) ، كما أن «سنوسرت الاول» كان شديد الرغبة فى اعادة المقام الارضى لهذا الاله ٠

وأخيرا فان هليوبوليس (أون = عين شمس) انما كانت تقع فى مدخل الدلتا ، وكان معبدها من المراكز الكبرى للحج لكل سكان مصر السفلى ، ومن ثم فقد كسب «سنوسرت الاول» احترام الحجاج جميعا، عندما قام بتبجيل أرن ، وهو مكسب جد عظيم ، بالنسبة للملك ترجع كل أصوله الاولى والاصيلة الى الصعيد ، وفى ضوء هذا كله يمكن القول أن اعادة معبد هليوبوليس ، انما يمكن أن ينظر اليه على أنه دليل على تحالف الصعيد والدلتا ، وهو منحة من الملك الصعيدى الى رعاياه فى الدلتا ، واشارة الى انتهـاء البغض الطويل المـدى الذى كان نتيجة الحروب الاهلية بين الاخوة فى الصعيد والدلتا(٢٧) ٠

هذا وقد شيد «سنوسرت الاول» بناء صغيرا فى الكرنك ، يستخدم أثناء الاحتفالات لتستريح فيه سفينة الاله آمون ، وقد عثر «شيفرييه» على أحجاره داخل الصرح الثالث الذى شيده الملك «أمنمحت الثالث» (١٤٠٥ ـــ ١٣٦٧ ق٠م) ، وقد كان عند هدمه كاملا ، ومن ثم عثروا فى السنوات الماضية على جميع أحجاره تقريبا ، وأعادت هيئة الآثار المصرية تركيبها ، وهو قائم الان فى المعبد نفسه ، ولا يبعد الا قليلا عن مكانه الاصلى ونقوشه من أجمل ما أخرجته يد الفنان المصرى فى أى عصر من العصور(٢٨) ٠

وفى شمال الوادى ، تحدث الكتاب القدامى من الاغارقة والرومان عن قناة كانت تصل بين النيل والبحـر الاحمر ، وتبـدأ من الفرع البوباسطى ، شمال الزقازيق بقليل ، ثم تمتد فى وادى طميلات ، حتى

---

(٢٧) J. Vercoutter, op. cit., p. 370-371.

(٢٨) P. Lacau and H. Chevrier, une Chapelle de Secostris Ier a Karnak, Cairo, 1956, p. 2.

وكذا أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٢١٨ ٠

تنتهى الى البحيرات المرة ، ونسب «بلينى» أقدم مشروع لهذه القناة الى «سيزوستريس» ، والذى يرى فيه بعض المؤرخين المحدثين الملك «سنوسرت الاول» وأن القناة انما بدأت فى عهده ، بينما ذهب فريق آخر الى أن هذه القناة ، بصورتها ووظيفتها آنفة الذكر ، لم يكن لها وجود قبل عهد «نخاو الثانى» (٦١٠ — ٥٩٥ ق٠م) ، وهو الاتجاه الذى يرجحه الكثيرون من المؤرخين[٢٩] ٠

هذا وقد عنى «سنوسرت الاول» عنـاية كبرى باستغلال مناجم الصحراء ، فأرسل البعثات التى جلبت الفيروز والنحاس من سيناء ، والمرمر من محاجر حتنوب[٣٠] — على مبعدة ٢٧ كيلا فى الصحراء الى الشرق من تل العمارنة — والاحجـار الصلبة والجـرانيت من وادى الحمامات[٣١] وأسوان ، وقد كشف مهندسوه الذهب والنحـاس فى وادى العلاقى فى الصحراء شرقى كوبان[٣٢] ، كما حصل على الديوريت من الصحراء النوبية ، على مبعدة ٥٠ ميـلا الى الشمال الغربى من توشكى[٣٣] والاماتيست من وادى الهودى[٣٤] ، والجرانيت الوردى من محاجر الجندل الاول ، والتى كان يحكمها «سرنبوت الاول» من قبل فرعون[٣٥] ٠

---

(٢٩) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ١٧١ ٠

وكذا G. Posener, La Canal du Nile a la Mer Rouge. Chronique d'Egypte 13, 1938, p. 259-273.

(٣٠) B. Grdseloff un Nouveau Graffito de Hatnoub. ASAE, 51, 1951, p. 143-146.

(٣١) W. K. Simpson, Historical and Lexical Notes on The New Series of Hammamat Inscriptions, JENS, 13, 1959, p. 20-37.

(٣٢) A. Lucas, Ancient Egyptian Naterials and Industries, London, 1962, p. 237, 256.

وكذا JEA, 33, 1947, p. 52-57.

(٣٣) T. Save Soderbergh, Aegypten und Nubien, Lund, 1941, p. 7.

(٣٤) A. Fakhry, The Amethyst Quarries of Wadi El-Hudi, Cairo, 1952, p. 19-23.

وكذا B. Porter and R.L.B. Moss, op. cit., VII, p. 319.

(٣٥) T Save Soderberghe, op. cit., p. 67-69, 72.

وكذا A. Rowe, ASAE, 39, 1939, Pls 25-26, p. 187-194.

هذا وقد اتبع ((سنوسرت الاول)) سياسة أبيه نحو أمراء الاقاليم، والذين كان الكثير منهم من أبناء أولئك الذين كانوا يحكمون أقاليمهم على أيام أبيه أمنمحات الاول ، فظلوا موالين له بعد اغتيال أبيه ، ولم يتجاوزوا سلطان فرعون الذى منحهم حقوقهم الوراثية ، فضلا عن ثرواتهم الشخصية ، كما كانوا دائما يمدونه بفرق الجند التى كان يتكون منها الحرس الملكى(٣٦) .

واذا صدقنا ما جاء على جدران مقبرة ((امينى)) أمير بنى حسن ، فان ((سنوسرت الاول)) انما يكون حقا اداريا ممتازا ، اذ تشير نصوص هذه المقبرة الى جهوده الطيبة ، وحزمه فى ادارة البلاد ، يقول ((امينى)) — والذى عينه سنوسرت الاول خلفا لابيه خنم حتب الذى كان واليا على أيام أمنمحات الاول — ((قضيت سنين حاكما على اقليم أوريكس (الوعل) ، وقمت بآداء كل الخدمات المطلوبة لبيت الملك ، ولقد عينت مشرفين واداريين على ضياع الاقاليم ، وبها ثلاثة آلاف من الثيران الجيدة وقد نالنى المديح فى بيت الملك بسبب ذلك عند كل سنة تعداد ، وقد قدمت كل انتاجها لبيت الملك ، ولم يحدث أن أثير ضدى ما يشير الى عجز فى أى مكتب من مكاتبه))(٣٧) .

ويتابع امينى القول بأنه رغم كل ما فرضه بسبب ولائه ، فانه كان يحكم اقليمه بعدالة لا تنحرف ، فلم يظلم أية أرملة ، ولم يحتقر أى فلاح أو عامل ، ((وعندما حلت سنة المجاعة حرثت جميع أراضى الاقليم ، من حده الجنوبى الى حده الشمالى ، وأبقيت الاهالى أحياء، وأعطيتهم طعاما ، حتى لم يوجد بينهم جائع واحد(٣٨) .

هذا وقد بدأت سياسة تقوية نفوذ الملكية التى وضعها أمنمحات

---

(٣٦) J. Vercoutter, op. cit., p. 368.
(٣٧) A. H. Gardiner, op. cit., p. 129.
(٣٨) P. E. Newberry, Beni Hassan, I, Yondon, 1893, p. 27.
وكذا J. Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne, Le Caire, 1963, p. 101 F.

الاول تأتى ثمارها الان ، يبدو هذا واضحا فى تقريظ «سنوسرت الاول» الذى جاء فى قصة سنوهى «انه بالتأكيد اله لا نظير له ، وليس أحـد مثله ، انه سيد الحكم ، وصاحب الخطط النابهة ، والوصايا الرائعة »، وهكذا يبدو واضحا أن سنوهى ، رغم انه ينسب لفظ الاله لنفس الملك، الا أنه ينسب اليه كذلك الصفـات الانسانية كالاخـلاص والسياسة الحكيمة والشجاعة ، والتى كانت نتيجة التأثير الاوزيرى ، حيث تظهر لنا أقوى تباين ممكن مع السلطة غير البشرية لفراعين الدولة القديمة، كما أن الملك كان وما يزال «الاله الطيب» •

واتبع سنوسرت الاول سياسة أبيه فى نظام الحكم المشترك،ولكنه ربما عرف ــ من خبرته الشخصية ــ أخطار المدة الطويلة فى المشاركة ، ومن ثم فهو لا يعطى ولده أمنمحات الثانى المقام الملكى الا فى العامين الاخيرين من حكمه ، كما استعان سنوسرت الاول فى ادارته لشـئون البلاد بالوزراء ، الذين كانوا يقومون بالدور التـالى الملك فى ادارة شئون مصر فى الفترة المبكرة من عهد الاسرة الثانية عشرة ، وقد تعاقب على منصب الوزير فى عهد سنوسرت الاول خمسة رجال على الاقل ، ولعل الملك انما يخشى الوزراء الاقـوياء ، ومن ثم فقد قسمت مهام الوزير بين اثنين ، الواحد للصعيد ، والاخر للدلتا ، وعلى أى حال ، فأيا كان الحد الجغرافى لسلطات الوزير ، فقد كان ، على أيام سنوسرت الاول ، هو رأس البلاط والادارة بشكل عام ، فهو الذى يعلن القوانين ويحافظ على السجلات ، ومن ألقابه رئيس الاعمال الملكية ، وأمين بيت المال ، الى جانب الاشراف على الجيش والشرطة[٣٩] •

هذا وقد بنى سنوسرت الاول مجموعته الهرمية على مبعدة ميـل ونصف الى الجنوب من هرم أبيه أمنمحات الاول ، وكان « جاستون ماسبرو» أول من كشف عنها عام ١٨٨٢م ، عندما وجد بعض أجزاء من أدوات صنعت من المرمر تحمل اسم سنوسرت الاول ، وفى عام

---

(٣٩) J. Vercoutier, op. cit., p. 368-369.

١٨٩٤ قام جوتييه وجيكييه بحفر جزء من المنطقة ، وقد عثروا فى الجهة -
الشرقية من الهرم فى حفــرة كبيرة من الارض على عشرة تماثيل من الحجر الجيرى بالحجم الطبيعى للملك «سنوسرت الاول» توجد الآن بالمتحف المصرى بالقــاهرة ، وتمثل الملك جــالسا على عرش ، ويلبس النقبة الملكية ، وعلى رأسه لباس الرأس المعروف باسم «نمس» ، وفى الفترة فيما بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٣٤ م قامت بعثة متحف المتروبوليتان بنيويورك بحفر الباقى من المنطقة ، هذا ورغم أن مجموعة سنوسرت الاول الهرمية تشبه فى كثير من تفاصيلها مجموعة أبيه ، الا أننا لانعرف عن مجموعة أمنمحات الاول غير الخطوط العامة ، بينما نعرف الجزء الاكبر من التخطيط الاصلى لمجموعة سنوسرت الأول معرفة جيــدة ، والتى تكاد تكون صورة من معابد الاسرة السادسة الجنازية ، وخاصة مجموعة «ببى الثانى»(٤٠) .

وكان ارتفاع هرم سنوسرت الاول الاصلى ٦١ مترا ، وطول ضلعه ١٠٥ مترا ، وزاوية ميله ٤٩° ، ويتكون مبنى الهرم من ثمانية جدران ضخمــة من الحجر ، تسير من مركز الهــرم الى كل ركن فيه ، والى منتصف كل ضلع ، وكذلك ثمانية جدران قصيرة ، اثنان منها على مقربة من كل ركن من الأركان ، وهى مشيدة بعناية ، وفى قوة الجــدران الأخرى ، وقد أحاط سنوسرت الاول هرمه بسور زين بألواح نقشت باسمه ، والى جوار الهرم بنى الكاهن الأكبر لاونو ، ايمحتب ، قبره هناك ، هذا وقد عثر فى سرداب من الطوب ، الى الشرق من الهرم ، على تمثالين للملك ، الواحد بتاج الصعيد ، والاخر بتاج الدلتا(٤١) .

هــذا وتشير لوحــات الاساس الى أن الهــرم انما كان يسمى «سنوسرت يشاهد الارضين» ، غير أن الوثائق الاخرى ، ومنها قصة

---

(٤٠) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية ص ٣٠٨ .
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 220.
(٤١) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٠٩ .
وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953, p. 193-194.

سنوهى ، ولوحة أوقاف المعبد التى عثر عليها فى منف — انما تدعوه «محمية هى أماكن سنوسرت» ، أى أن الهرم كان يحمل أسمين ، كما كان هرم أبيه من قبل ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه أنه لم يعثر للآن على معبد الوادى لهذا الهرم ، وان عثر على الطريق الصاعد له ، والمبنى بالحجر الجيرى الجيد ، وهناك بقايا للمعبد الجنازى تكفى لمعرفة رسمه التخطيطى ، وهو يشبه الى حد كبير المعابد الجنازية فى الدولة القديمة ، وان وجدت به مائدة قرابين من الجرانيت مزينة برسوم أشخاص يمثلون الاقاليم المصرية ، تشبه مائدة القرابين التى عثر عليها فى معبد أبيه أمنمحات الاول[٤٢] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن عهد سنوسرت الأول ، انما قد بدأ والسحب تتجمع من حوله ، وانتهى كواحد من أمجد الفترات فى تاريخ مصر ، فقد استعادت البلاد كل قوتها القديمة ، واستعادت الملكية كل هيبتها السابقة ، ومن ثم فقد رأينا القوم يؤلهون سنوسرت بعد موته ، كما يشير الى ذلك نص على أحد التماثيل الصغيرة لأحد الأفراد ، عثر عليه فى العاصمة «إيثت تاوى»[٤٣] وقد ظلت عبادته قائمة حتى الاسرة الثالثة عشرة ، كما تشير الى ذلك طبعات أختام القرابين التى قدمت الى معبد هرمه[٤٤] ، فضلا عن لوحات من الدولة الحديثة جاءت بها أسماء لاشخاص كانوا يعملون كهنة للفرعون المؤله[٤٥] ، وأخيرا فلقد حفظ أسمه اليونانى (سيزوستريس) فى أسطورة من العهد الاغريقى ، نسبت فيها أعمال بطولية من النوع الخرافى الى سنوسرت الاول وسنوسرت الثالث ، من الاسرة الثانية

---

(٤٢) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٠٨ ، ٣١٠ .
وكذا A. H. Gardiner, Notes on The Story of Sinuhe, Paris, 1916, p. 9, No. 2.

(٤٣) BMAA, 19, 1924, Part, 2, p. 35.

(٤٤) BMMA, 28, 1933, Part, 2, p. 21-22.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 191, 342.

(٤٥) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I' 1953, p. 195..II, 1959, p. 51, 168.

عشرة ، فضلا عن رعمسيس الثانى من الاسرة التاسعة عشرة[٤٦] .

(٣) أمنمحات الثـــانى (١٩٣٩ ــ ١٨٩٥ ق٠م) :

وضـــع خلفــاء سنوسرت الاول سياستهم على أساس الاحتفــاظ بمكاسبه بالنسبة لحكام الاقاليم ، فأمنمحات الثانى ــ كان قد اشترك مع أبيه فترة لا تقل عن سنتين ــ قد اتبع مع أمراء الاقــاليم نفس سياسة أبيه ٠ فقد أكد لبعضهم حقوقهم الوراثية ، مع الحفــاظ على هيمنة العرش على أقاليمهم ، ويبدو أن حياة الهدوء والاستقرار التى عاشتها البلاد على أيامه قد أتاحت له فرصة الاشراف عليهم ، يولى منهم من يشاء ، ويعزل من يشاء ، ويقيم لهم حدود أملاكهم ، ومع ذلك فهناك ما يشير الى أن حاكمى اقليمى الاشمونين وبنى حسن ، قد استفادوا كثيرا من سلطاتهم ، وبدأوا فى منافسة فرعون فى الثراء والتفاخر ٠

وفى الواقع فان سعة الالقاب التى ادعاها أمراء الاقاليم حينذاك، واحتفاظ أغلبهم بقوات محلية كبيرة فى أقاليمهم ، وجرأة «امينى» أمير بنى حسن ، على تأريخ نصوصه بسنوات ولايته ، قد دفــع بعض الباحثين الى القول بأن النصف الاول من عصر الاسرة الثانية انما يعد عصرا اقطاعيا من نوع جديد ، لم تهن فيه سلطة الملوك ، ولكن تضخمت فيه سلطة حكام الاقاليم ، برضا الملوك ولصالح الرعية ، واستمرت هــذه الاوضـــاع قائمة طوال عهــدى أمنمحات الثـــانى وسنوسرت الثانى[٤٧] ٠

هــذا وقد اختار أمنمحات الثـــانى لبناء هرمه مكانا منعــزلا فى

---

(٤٦) أنظر : K. Lang., Sesostris, Ein Agyptischer Konig in Mythos Geschichte und Kunts Munich; 1954.

(٤٧) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٦٩ ٠
وكذا H. Kess, Ancient Egypt, London, 1961, p. 318.
وكذا A. H. Gradiner, op. cit., p. 129.

الصحراء ، على مبعدة ثمانية كيلومترات الى الجنوب الشرقى من هرم سنفرو الشمالى فى دهشور ، قريبا من حافة الهضبة ، وعلى مبعدة ١٥ كيلا من النيل ، ويبدو أن مشاريع أبيه قد أثرت على خزائن الدولة ، ومن ثم فقد لجأ الى خفض التكاليف ، وخلط بناء الاحجار بالطوب اللبن ، ولم يقم أحد حتى الآن بحفر معبد الوادى ، وان وجد طريق صاعد ، طوله ٧٠٠ مترا ، ويمتد من حافة الاراضى الزراعية متجها نحو الغرب الى الهرم ، وأما المعبد الجنازى فهو مخرب ، وان وجدت بين خرائبه أحجارا تحمل اسم أمنمحات الثانى ، مما يؤكد نسبة الهرم اليه •

وليس هناك فى مجموعة أمنمحات الثانى الهرمية ما يشير الى أى تجديد فى التصميم أو طريقة البناء ، ولكنها نالت شهرة فى نهاية القرن الماضى بسبب ما عثر فيها على ما عرف باسم «كنز دهشور» وهو مجموعة من المجوهرات والامتعة الشخصية،التى اكتشفها«دى مورجان» فى عام ١٨٩٤/١٨٩٥م ، ومحفوظة الآن بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وتشتمل على عقود ذهبية وأحجار كريمة ، وأدوات أخرى مغطاة بصفائح من الذهب ، منها خنجر مطعم بالذهب ، وبمختلف الرموز الملكية وتشهد دقة الصناعة والذوق الفنى فى المجموعة كلها بمهارة الصانع المصرى فى درجاتها ، وقد كشفت جميعها فى قبر «كمى نوب» زوج الملك ، فضلا عن قبور أميرات أربع ، هن : «أتا» و «أناروت» و «خنمت» و «ست حاتحور آت»[٤٨] •

هذا وقد أشرك أمنمحات الثانى معه فى الحكم ولده سنوسرت الثانى ، ولكنه قتل ــ فيما يرى مانيتو ــ فى السنة السابعة من الحكم المشترك[٤٩] ، ولكن يبدو أن «مانيتو» قد خلط بين سيرة أمنمحات

---

(٤٨) J. De Morgan, Dahchour, II, Vienns, 1903, p. 37, 57, 68, 75.
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 225.
(٤٩) A. Weigall, Histoire de l'Egypte Ancienne, Paris, 1968, p. 74.

الاول وحفيده أمنمحات الثانى ، فنسب قصـــة المؤامرة التى دبرت لاغتيال الاول خطأ الى الثانى ، وعلى أى حال ، فلقد مات أمنمحات الثانى بعد أن حكم ٣٥ عاما ، وهناك على صخور الجندل الاول نقش لاحد رجال عهده المدعو «حابو» ، ويؤرخ بالعام الخامس والثلاثين من حكم أمنمحات الثانى ، والثالث من حكم ولده(٥٠) •

(٤) سنوسرت الثانى (١٨٩٧ - ١٨٧٧ ق٠م) :

خلف سنوسرت الثانى أباه أمنمحات الثانى على عرش الكنانة ، ويحدثنا «مانيتو» عن سنوسرت (خع خبررع) كأنما هو عملاق يبلغ ارتفاع قامته أربعة أذرع وثلاث قبضات واصبعين أى أكثر من مترين، وان لم يتحدث عنه قليلا ، ربما لقصر مدة حـــكمه التى لم تزد عن سنوات تسع •

وقد قام سنوسرت الثانى بنشاط عمرانى فى اهناسية ، حيث عثر على بعض كتل حجرية لمعبد هناك(٥١) كما عثر فى الكرنك على رأس تمثال من الجرانيت الوردى ، هذا فضلا عن آثار أخرى فى مناطق متفرقة من البلاد ، كمـــا فى سرابيط الخادم ووادى الحمامات وفى القصير واللاهون وأسوان ، وقد تزوج سنوسرت الثانى من ســـيدة تدعى «نفرت» ، عثر لها على تمثال فى تانيس ، وقد حملت لقبا غير مألوف بين ألقاب ملكات الفراعين هو «حاكمة النساء» وأنجب منها بنتا دعيت «حتشبسوت»(٥٢) •

هذا وقد شيد سنوسرت الثانى هرمه عند مدخل الفيوم ، فى منطقة اللاهون ، على مبعدة ٤٠ كيلا الى الجنوب من العاصمة (ايثت تاوى)، فوق صخرة مرتفعة ، على حافة الصحراء التى تفصل بين محـــافظة الفيوم ووادى النيل ، وهناك على مبعدة ١٦٠٠ مترا ، أمام منتصف

A. Weigall; Guide to the Antiquities of Upper Egypt; p. 411. (٥٠)
E. Naville, Ahnas El-Medineh, London, 1894, p. 25. (٥١)
(٥٢) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٨٠ •

واجهته الشرقية نجد معبد الوادى المخرب الان ، واما معبده الجنازى، فقد بنى أمام الواجهة الشرقية للهرم ، وهناك ما يشير الى أنه كان معبدا فخما ، ذلك لان أكثر أجزائه كانت مشيدة بأحجار الجرانيت الاحمر ، وكانت النقوش التى عليها نقوشا غائرة ملئت باللبن الأخضر، غير أن أكثر أجزاء الهرم انما هى مشيدة باللبن ، وكان كساؤه الخارجى غير سميك ، ومن ثم فلم يصمد أمام التخريب الذى حدث للحصول منه على الحجر الجيرى الابيض ، وبالتالى فلم يبق منه الا مرتفع من اللبن ، يشبه كوما مرتفعا له قاعدة مربعة ، ولكن ارتفاعه عند تشييده كان ٤٨ مترا ، وطول ضلع قاعدته ١٠٦ مترا(٥٣) .

ويشير هرم «سنوسرت الثانى» الى تجديد تمت محاكاته فى هرمين آخرين من أهرام الاسرة ، ذلك أن التجربة قد أثبتت أنه من النادر أن يفلت الهرم من النهب ، مادام المدخل المؤدى الى غرفة الدفن يشغل مكانه الطبيعى فى الجانب الشمالى من المبنى العلوى ، ومن ثم فسان مهندس سنوسرت رأى أن يضع المدخل خارج الهرم نفسه ، ومع ذلك فان هذه الخطة أثبتت ، على أى حال ، عدم صلاحيتها للغرض الذى صممت من أجله ، لانه اتضح عند الوصول فى النهاية الى غرفة الدفن، أنها نهبت من غير وازع ضمير حى ، ولم يبق من كل المعدات الجنازية الثمينة التى كانت تملؤها أصلا من غير شك ، سوى تابوت رائع من الجرانيت الاحمر ، مع مائدة قربان من المرمر ، ومع ذلك فاننا لا ننكر عبقرية المهندس التى كلفت الاثرى الكبير «فلندرز بترى» شهورا طويلة مضنية فى عام ١٨٨٧/١٨٨٨م ، حتى استطاع الوصول الى البئر التى تنزل الى الممر المؤدى الى المدخل(٥٤) .

هذا وقد إختلف هرم سنوسرت الثانى فى بنائه العلوى فى كثير من

---

(٥٣) احمد فخرى : المرجع السابق ص ٣١٣ — ٣١٤ .

(٥٤) I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, p. 225-226.

وكذا B. Porter and R. L. B. Moss, op. cit., IV, p. 107 F,

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 138-139.

النواحى عن هرم أسلافه ، فقد احتوى بناؤه الداخلى على ربوة من الصخر ، ترتفع عن سطح الارض بأربعين قدما ، أقام فوقها شبكة من الجدران السائدة ثم ملأ المساحات المختلفة بين تلك الجدران بطوب اللبن ، ثم كسى هذا البناء الداخلى بالطريقة المعتادة بأحجار جيرية من نوع جيد ، وبنو المدماك الاسفل داخل الاساس الصخرى ليتحمل ضغط البناء الخارجى ، ويوجد حول كل جانب من جوانب القاعدة خندق غير عميق مملوء بالرمال ، كان الغرض منه امتصاص مياه الامطار التى كانت تنزل على واجهة الهرم ، وقد قدر «فلندر زبترى» أن مثل هذا الخندق يستطيع أن يستوعب كمية من ماء المطر ، فى أى مرة تسقط فيها الامطـار بشدة فى مصر ، ويحيط بالهـرم جدران ، الواحد من الحجر على حافة الخندق ، والاخر من الطوب اللبن أقيم بعيدا الى الوراء ، وكان خلف السور الخارجى صف واحد من الاشجار ، زرعت فى الحفر التى نقرت فى الصخر ، وملئت بالطين(٥٥) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن «سنوسرت الثانى» انما قد شيد على مقربة من هرمه فى «اللاهون» (كاهون) عند مدخل الفيوم من قبل النيل مدينة صغيرة ، للمهندسين والموظفين والصناع والعمال، الذين كانوا يعملون فى بناء الهرم ، ولتكون بيوتها بعد ذلك مســاكن للكهنة الذين سوف يعهد اليهم بأداء الطقوس الجنازية فى معبديه ، وقد سماها «حتب سنوسرت» (سنوسرت راض) وترجع أهمية المدينة فى أنها أقدم مدينة مصرية واضحة المعالم تعرف الاثريون على رسوم مساكنها ، لانها لم تعمر الا فترة قصيرة ، ولم تبن فوقها منازل أخرى، بينما تعاون على اخفاء آثار أمثالها بناء بيوتها من اللبن سريع الهدم ، واستخدامها للسكنى جيلا بعد جيل ، وقيام مساكن العصور اللاحقة لها على أطلالها ، هذا فضلا عن أن اللاهون انما قد شيدت فى منطقة من مناطق الحواف الصحراوية الجافة ، ثم هجرهـا أصحابها ، فغطت

(٥٥) I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, (Penguin Books), 1965, p. 227.

الرمال ما بقى من أطلالها ، وحفظت منها ما سلم من أيدى القرويين المنقبين عن قوالب اللبن والسماد القديم •

ومن ثم فان مكتشفها «فلندرز بترى» انما يذهب الى أنه انما أماط اللثام عن بقايا مدينة كلها من عصر واحد ، كما كشف عن مرحلة غير متوقعة لتخطيط المدن ، وهى ، على أية حال ، انما تصور للاثريين حياة الدولة الوسطى ، كما تمكنهم من أن يطرقوا الشوارع والازقة التى مشى فيها أهلها ، ويريحوا فيها حيث كانوا يريحون •

وكان هناك سور يدور من ثلاثة جوانب حول المدينة ، التى تنفتح على سهل النيل الى الجنوب ، وهناك شارع رئيسى فى الداخل حول المجموعة الرئيسية من المبانى ، كما أن هناك شوارع أصغر تتخلل المبانى ، وكانت المدينة تنقسم الى حيين متمايزين ، الواحد للمساكن الخاصة ، وتتميز بيوته بأنها على مثال الدورات الواسعة فى الريف ، بحيث بلغت مساحة الواحد منها ٢٧٠٠ مترا ، وتضمن البعض منها نحو سبعين حجرة وصالة ودهليزا ومخزنا ، ويميز كل منها بجناح لرب الدار وضيوفه ، وجناح للحريم وغرف النوم ، وابتعدت عن الجناحين حجرات الخدم والمطابخ والمخازن •

وأما الحى الاخر ، فهى حى العمال ، ويشغل نحو ربع المدينة ويشمل من مائتين الى مائتين وخمسين بيتا ، وهى فى الواقع بيوت ضيقة متلاصقة ، يتخللها شارع رئيسى من الجنوب الى الشمال،عرضه تسعة أمتار ، وتتصل به على زوايا قائمة شوارع جانبية عديدة ، يبلغ عرض كل منها أربعة أمتار تقريبا(٥٦) •

هذا وقد بنيت بيوت المدينة جميعا من اللبن ، ولكل منها قاعة

---

(٥٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧١ – ١٧٢ ، محمد أنور شكرى : المرجع السابق ص ٧٨ – ٨٠ • وكذا
W. M. F. Petire, Illahum; Kahun and Gurob, I, (1889-1890), London, 1891, Pl. XIV, p. 5 F.

كبرى ذات عمد ، بها حوض من الحجر الجيرى فى الوسط ، وكان السقف عادة من كتل خشبية ، فوقها حزم من القش (وربما من الجريد) المغطى بالطين ، ولاتزال سقوف مقببة من اللبن فى مكانها ، بعضها كامل ، وبعضها لم يبق منه سوى الجزء الاسفل ، أما الابواب فمعقود من اللبن ، ونحن نعرف ، على وجه اليقين ، أن القوم قد عرفوا العقد والقبو ، وأن استعماله انما كان شائعا منذ أمد بعيد لدى المصريين(٥٧) .

هذا وقد عثر فى اللاهون على كمية من الاثاث والادوات والحلى ، تكاد تكون فريدة من نوعها فى أرض الفراعين ، كما عثر كذلك على مجموعة من البرديات التى كتبت بالخط الهراطيقى تناولت موضوعات مختلفة ، فمن بينها ورقة طبية تتناول أمراض النساء ، وجزازة عن الطب البيطرى .

ثم هناك برديات نستنتج منها أن المرء يستطيع أن يورث من يشاء ــ بيته ومتاعه ووظيفته ــ وفى حالة أخرى،ترى من بين ماتركه الرجل، زوجة وأربعة من العامو ، وبضعة عبيد أسيويين ، وكانت مثل هذه الوثائق تتطلب شهودا من الناحية الرسمية،وتودع فى مكتب السجلات، والامر كذلك فى عملية احصاء السكان ، اذ كان يتطلب الامر أن يذهب رب الاسرة الى مكتب حكومى ، يتبع ديوان الوزير فى منطقته ، فيدلى ببيان عن أفراد أسرته وأعمار أطفاله ، ثم يقسم على صحة بياناته ، كما يقدم شهودا على ذلك ، وهكذا كانت الحياة الدائبة لهذه المجموعة المحلية الهامة كانت تنظم عن طريق معايير ادارية دقيقة ، نستطيع أن ندرك مداها ومراميها من لمحات فيما بقى من هذه المخطوت .

وأخيرا فقد كانت هناك قصاصات تعليمية لتعليم الانشاء وصيغ

---

(٥٧) W. M. F. Petrie, Ten Year's Digging in Egypt, London, 1893, p. 115.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 143.

الرسائل ، ثم تمارين حسابية ورياضية ، كان أمتع ما فيها أخذهـا بطريقة التربيع والجـذر المربع ، فضـلا عن مسائل تشبه معادلات الدرجة الاولى[٥٨] •

(٥) سنوسرت الثالث (١٨٧٨ ـ ١٨٤٣ ق٠م) :

ورث سنوسرت الثانى ولده «سنوسرت الثالث» (خع كاو رع) ، والذى قدر له أن يكون واحدا من أعظم من جلسوا على عرش الفراعين طوال العصور ، وقد طال حكمه حتى أربى على ثمان وثلاثين سنة ، رأت فيها مصر من المجد والخير ، ما لم تره فى عصـور كثيرة ، وفى الواقع أن تلك السمعة الطيبة التى اشتهر بها سنوسرت الثالث ، انما تستند الى أساس من حقيقة ثابتة ، ذلك أنه فى ظل حكمه بلغت الدولة الوسطى أقصى سموها وقوتها ، فالفراعنة الاوائل من الاسرة الثانية عشرة انما قد وصلوا بالدولة الى القوة بمساعدة أمراء الاقاليم ، ومن ثم فقد تركوا لهم امتيازاتهم دون مساس •

غير أن سنوسرت الثالث انما بدأ منذ أوائل عهده بالغـاء منصب حاكم الاقليم ، وان كنا لا نعرف سببا لذلك على وجه اليقين ، فربما حاول الامراء الثورة على الرجل فى أوائل عهده ، وربما رأى هو أن سيطرته على الدولة ، لاتتفق واستقلال أمراء الاقاليم[٥٩] •

وأيا ما كان الامر ، فليس هناك من ريب فى أن سياسة سنوسرت الثالث نحو أمراء الاقاليم انما كانت سياسة ناجحة ، فقد أزالت من البلاد كل أثر لما كانوا يتمتعون به من نفوذ ، ذلك النفوذ الذى ظل قويا ، كل القوة ، طـوال عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، وعندما استطاع «منتوحتب الاول» اعادة توحيد البلاد ، أخضعهم لسلطته •

---

(٥٨) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧١ ـ ١٧٣ •
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 144.
وكذا W. C. Winlock, The Treasure of El-Lahun. N. Y., 1934.
(٥٩) J. Vercoutter, op. cit., p. 373.

وقد استغل أمنمحات الاول ما فى نفوسهم من حفيظة ، وانتهج سياسة وسط . فلم يعمد الى القضاء الحاسم على أمراء الاقطاع ، الذى ظل نفوذهم قويا ، بالرغم مما فعله بهم منتوحتب الاول ، وانما عمل أمنمحات الاول على مهادنة أمراء الاقطاع ، بشريطة أن يعلنوا ولاءهم للسلطة المركزية ، ويقدموا لها الاموال والرجال ، ويعترفوا بنوع من الاشراف المركزى على شئونهم الداخلية ، وكان يقرب اليه الامراء الذين يرتضون هذه الشروط ، ويعلنون الولاء للملك ، ويأخذ بالشدة أولئك الذين تسول لهم أنفسهم التمرد ، ومناصبة الملك العداء.

وهكذا وجـد نوع من العـداء المستمر المستتر بين الملك وأمراء الاقاليم ، وأحيانا كان هذا الصراع يأخذ مظهرا علنيا حين زاد نفوذ بعض هؤلاء الامراء وتضخمت ثرواتهم ، فضـلا عن اصرارهم على توريث أبنائهم حكم أقاليمهم ، حتى لو كان الوريث طفلا صغيرا ، فكان من الضرورى وضع حد لهذا الامر ، ولم يكن هناك أقدر من «سنوسرت الثالث» لتسديد هذه الضربة .

وهكذا رأينا النصوص المصرية منذ حوالى عام ١٩٦٠ ق.م ، وحتى منتصف عهـد سنوسرت الثالث ، لا تتحدث كثيرا عن أمراء الاقاليم فالاسرات المحلية القليلة ، والامراء المتغطرسون الذين أرخوا الاحداث بسنوات حكمهم ، والذين رسمت صورهم على المعابد فى هيئة تماثيل ضخمة بحجم كبير كالملوك تماما ، لم تعد تظهر فى المناظر المصرية ، فقد أصبحت الاقاليم تدار مباشرة من القصر الملكى ، عن طريق ثلاث ادارات حكومية ، واحدة لمصر العليا ، وأخرى لمصر الوسطى ، وثالثة لمصر السفلى ، ويرأس كل ادارة منهما موظف كبير ، ويساعده معاونون ومجلس شورى ، ثم هيئة حكومية ثانوية ، وكل تلك الاجهزة ــ وخاصة ادارات العـدل والزراعـة والخـزانة ــ انمـا كانت تحت اشراف الوزير[٦٠] .

---

(٦٠) J. H. Breasted, ARE. Parag. 641, p. 285.

وهناك مايشير الى أن نزع ملكية أمراء الأقاليم انما قد تم بصورة تدريجية ، بل انها حتى لم تكن شاملة ، ذلك لانها انما قد وجهت أساسا الى حكام الاقاليم الاقوياء ، وبخاصة فى اقليمى الاشمونين وبنى حسن، اذ أننا نعلم أن الاقليم العاشر (أنتايوبوليس — قاو الكبير) قد احتفظ أميره «واح كا الثانى» بكل سلطاته فى عهد أمنمحات الثالث[٦١] وكذا أمير الكاب[٦٢] .

هذا فضلا عن أن سياسة سنوسرت الثالث هذه ، لم تؤد الى الاجحاف بالحقوق المشروعة ، والثروات المعقولة ، العاملين المخلصين من حكام الاقاليم فى عهده ، يدل على ذلك أن تضمنت مقبرة «تحوت حتب» فى وادى البرشا ، ما يصور تمثالا ضخما يمثله ، أذن له الفرعون باقامته فى مقبرته ، وقد بلغ ارتفاعه ما يقرب من سبعة أمتار ، ووزنه ٦٠ طنا ، وتكفل بنقله ١٧٢ رجلا ، ويصف لنا «تحوت حتب» طريقة نقل هذا التمثال الضخم بأن الطريق من المحاجر الى مكان اقامته انما كان صعبا ، وأن قوى الرجال سوف تخور ، ان استمروا فى نقله على هذا الطريق ، ومن ثم فقد أنشأ طريقا جديدا ، وأن سكان المدينة قد تجمعوا عندئذ لنقل التمثال ، راضين غير مكرهين ، وأن ذلك قد أسعد «تحوت حتب» كثيرا ، وبخاصة أن من بين المتطوعين رجلا هرما كان يستند على طفل ، وأن الجميع انما كانوا يصفقون ويغنون[٦٣] .

= وكذا W. C. Hayes, A Papyres of The Late Middle Kingdom in The Brooklyn Museum, Brooklyn, 1958.

وكذا W. Helck, Zur Verwaltung des Mitteren un Neuen Reichs, Leiden, 1958, p. 241-243.

وكذا JNES, 12, 1943, p. 31-33.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 374.

(٦١) J. Vandier, Reflexions sur L'Histoire de la XIIe Dynastie, Revue Historique, 1958, p. 18.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 374.

(٦٢) E. Drioton et J. Vandier, L'Egypte, Paris, 1962, p. 302, 307.

(٦٣) A. Weigall, op. cit., p. 77-78.

وكذا P. E. Newberry, El-Bersheh, I, London, 1895, Pd, 15.

وعلى أي حال ، فلقد كتب للفرعون نجحا بعيد المدى فى اعادة المركزية المطلقة للادارة الحكومية ، مركزية أقرب ما تكون الى تلك التى كانت على أيام الدولة القديمة ، ومن ثم فلم يكن أمرا مفاجئا أن نرى ظهور طبقة اجتماعية جديدة ، ربما يمكن أن نطلق عليها « الطبقة الوسطى » — فيما يرى وليم هيز — وتتكون من طبقة الموظفين فضلا عن الصناع ، وصغار ملاك الاراضى الزراعية ، وقد استغلت هذه الطبقة الجديدة ثرواتها فى اقامة لوحات بأسماء أصحابها ، وتماثيل صغيرة أقاموها لانفسهم بمعبد أوزير فى أبيدوس(٦٤) •

هذا وقد اهتم «سنوسرت الثالث» كثيرا ببناء دور العبادة وغيرها، فأقام معبدا فى اهناسية(٦٥) (هيراقليوبوليس) ، وآخر فى أبيدوس ، مقر أوزير ، كما اهتم بهذه المدينة المقدسة عند القوم ، ومن ثم فقد أمر بترميم ما تهدم من معابدها ، وتنظيم أعيادها ، كما عثر له على تمثالين بين أطلالها ، ومعبد جنازى صغير ، هذا فضلا عن قبر له هناك، لا يدرى الاثريون ان كان قبرا أصليا ، أو رمزيا — وهو الارجح — لانه وجد منهوبا تماما ، وهو ، على أية حال ، عبارة عن نفق طويل يوصل الى غرفة بها تابوت من الجرانيت الوردى ، وكذا صندوق لحفظ أوانى الاحشاء ، وقد بنى فوق القبر مزارا ، أحيط بسور أقام حوله بعض الامراء وكبار الموظفين قبورا لهم(٦٦) ، وأخيرا ، فلقد شيد الرجل معبدا للاله منتو فى المدامود ، على مبعدة ٥ كيلا شمالى طيبة ، على مقربة من الصحراء الشرقية •

وقد اختار سنوسرت الثالث منطقة دهشور لتشييد هرمه الذى

---

(٦٤) J. Vercoutter, op. cit., p. 374.
وكذا J. Spiegel, Zum Osirskult Von Abydos in mittleren Reich, Die Welt des Orients, II, 1959, p. 397-403.
وكذا W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953.
(٦٥) W. M. F. Petrie, Ehnasia, Pls. XI, XIII, XIV.
(٦٦) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٩٠ — ٣٩١ •
وكذا W.M.F. Petrie, Abydos, II, London, 1903, Pl XVII.

دفن فيه ، ومن حوله أفراد أسرته وكبار رجال بلاطه ، وقد بنى الهرم من اللبن ، وكسى من الخارج بالحجر الجيرى ، فوق احدى المرتفعات المشرفة على العاصمة ، على مقربة من هرم جده «أمنمحات الثانى» ، ولم يتم حتى الان حفـــر معبد الوادى لهـــذا الهرم ، وان كان من السهل تتبع آثار طريقه الصـــاعد ، على مقربة من حـــافة الاراضى الزراعية ، وهو يسير فى اتجاه شمال غربى ، ويصل الى السور المحيط بالهرم الى الجنوب قليلا من المعبد الجنازى ، والمخرب الان تماما ، وقد عثر فيـــه فى عامى ١٨٩٣/١٨٩٤م على أحجـــار منقوشة باسم «سنوسرت الثالث»(٦٧) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن سنوسرت الثالث — وكذا أمنمحات الثالث — قد سارا على نهج «سنوسرت الثانى» فى استخدام الطوب اللبن فى اقامة البناء العلوى ، وزيادة عدد الحجرات والممرات فى الجزء الاسفل ، كما اتبعا نفس الطريقة فى عدم وضع مدخل المبنى السفلى فى الواجهة الشمالية ، ولكن عند نقطة بعيدة عن الهرم نفسه، لا يمكن العثور عليها ، الا بطريقة الصدفة ، أو بعـــد البحث المضنى — كما حدث مع «دى مورجان» عندما قام بحفر هذين الهرمين فى عام ١٨٩٤/١٨٩٥م ، حيث استطاع بعد شهور عدة من العمل ، أن يعين فى النهاية موقع مدخل هرم سنوسرت الثالث فى الفناء الذى يقع فى الجانب الغربى منه ، وأن يعين مدخل هرم أمنمحات الثالث فى مكان مشابه مواجه للركن الجنوبى من واجهة الهرم الشرقية — ورغم كل ذلك ، فقـــد تمكن اللصوص من الوصـــول اليها ، ومن ثم فلم يجـــد «دى مورجان» سوى القليل •

هذا وقد عثر «دى مورجان» فى مقبرتى الاميرتين «سات حاتحور»

---

(٦٧) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣١٨ •
وكذا J. De Morgan, Fouilles a Dahchour (Mars-Juin, 1894) Vienna, 1895, p. 47 F.

و «مريت» (داخل السور الخارجى لهرم أمنمحات الثالث) على مجموعة من الحلى ، من نوع تلك التى وجدت فى مقابر أميرات أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى ، ولم توضع هذه الحلى على مومياء الاميرات، وانما أخفيت فى مكان خاص داخل المقبرة ، مما كان سببا فى أن يذهب البعض الى أن هناك مجموعة أخرى من الحلى — ربما كانت من نوع أردأ — كانت تجهز لتوضع مع المومياء ، أما الحلى الاخرى التى أخفيت فى مكان خاص من المقبرة ، فهى الحلى التى كانت تلبسها الاميرات أثناء حياتهن[٦٨] .

وأخيرا فما من ريب فى أن سنوسرت الثالث قد اتبع سنة أسلافه فأشرك معه فى الحكم ولده «أمنمحات الثالث» فى أخريات أيامه لفترة قصيرة ، وان كان هناك من يرى أنها انما كانت فترة طويلة ، اعتمادا على عدة نصوص فى وادى الحمامات ، غير أن هذا لا يتفق مع معلوماتنا عن هذين الملكين ، فضلا عن تأريخ النصوص نفسها[٦٩] .

(٦) أمنمحات الثالث (١٨٤٣ — ١٧٩٧ ق٠م)

ورث أمنمحات الثالث (نى ماعت رع) عرش الكنانة عن أبيه العظيم سنوسرت الثالث ، وقد قيض الله له أن يجلس على العرش قرابة نصف قرن من الزمن (٤٨ عاما) ، وقد ورث عن أبيه قوة العزيمة ، ولكن فى ميدان آخر ، غير ميدان القتال ، ويبدو أن جهود أبيه الموفقة فى السودان وفلسطين ، انما جعلت هذه الشعوب المجاورة تحس بقوة مصر ، وتجنح الى المسالمة ، فاستغل أمنمحات الثالث (أمنمس الثالث) ذلك فى تنشيط أعمال التعدين فى الصحراوين .

ومن هنا نراه يرسل عماله الى سيناء لاستخراج كنوزها من

---

(٦٨) انظر : J. De Morgan, Fouilles a Dahchour en 1894-1895, II, Vienna, 1903.

وكذا I. E. Edwards, op. cit., p. 228.

(٦٩) G. Goyon, Nouvelles Inscriptions Rupestres du Wadi El-Hammamat, Paris, 1957.

الفيروز والنحاس ، وقد بدأت بعثاته فى السنة الثانية من حكمه ، واستمرت كذلك كل عامين تقريبا ، وكان آخرها فى عامه الثامن عشر أو العشرين ، وربما الخامس والاربعين ، وهناك فى النقوش ما يشير الى ما كانت تلاقيه البعثات للحصول على الفيروز من صعوبات ، منها ما كان يتصل بحرارة الجو ، وخاصة تلك التى تتم فى شهور الصيف ، ومنها ما يتصل باشتباكات بين أعضاء البعثات ، فضلا عن المتسللين من الاسيويين[٧٠] .

هذا وقد كان لأمنمحات الثالث نشاط فى وادى الحمامات ، وفى كثير من المحاجر الأخرى ، فلقد أرسل بعوثا الى صحراء النوبة الغربية لاحضار أحجار الديوريت وغيرها من الاحجار الاخرى ، وقد عثر هناك على لوحات منحوتة ، منها واحدة مؤرخة بالسنة الرابعة ، وأخرى بالسنة السادسة ، كما قام كذلك بأخذ أحجار من محاجر طرة ، هذا وقد عثر على اسم الملك أمنمحات الثالث فى الكاب والكرنك ومنف وتل اليهودية ، فضلا عن معبد الاله (سوبك) فى كيمان فارس ، بقيت منه أعمدة كبيرة من الجرانيت الوردى على هيئة البردى[٧١] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أهم آثار عهد أمنمحات الثالث ، والتى كتب لها نجحا بعيد المدى فى تخليد اسم الرجل بين فراعين الدولة الوسطى ، فضلا عن الفراعين جميعا فى كل العصور «سد الفيوم» فقد كان من بين ما عنى به أمنمحات الثالث تنظيم أمر فيضان النيل الزائدة عن الحاجة ، والتى لم تستطع البلاد قبله الافادة منها .

---

(٧٠) W. M. F. Petrie, Researches in Sinai, London, 1906, p. 94.
وكذا J. H. Breasted, Ancient Records of Egypt, I, Cnicago, 1906, Parag, 733-738, p. 321-323.

(٧١) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٣٨٣ ــ ٣٩٤ ،
وكذا W. M. F. Petrie, Labuyrinth Gerzeh and Mozghuneh, London, 1912, Pls, 22-32, p. 27-28.

ولقد أمر – بادىء ذى بدء – بتسجيل ارتفاع النهر عند القلاع التى أنشأها أبوه (سنوسرت الثالث) فى (سمنــة) و (قمــة) ، ولاتزال مسجلة فى الاعــوام (٤، ٥، ٦، ٧، ٩، ١٤، ١٥، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٣٠، ٣٢، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٤) ، وهى تزيد فيما بين عامى ٢٦ ، ٣٠ ، قدما عن متوسط مستويات ارتفاعه اليوم ، وكان يظن أنه أقام هناك خزانا رفــع من المستوى الى ذلك الحد ، ولكن ليس هناك من الآثار المادية أو غيرها ما يشير الى ذلك ، ولسنا نعرف سببا لانخفاض مستويات النهر خلال الثلاثين قرنا الماضية[٧٢] .

وهناك من يعلل ذلك بأن الفيضان فى تلك السنين ربما كان أعلى منه اليوم ، أو أن مجرى النيل هناك قــد انخفض من جراء التعرية والتآكل وشدة الانحدار وسرعة المياه ، وكانت هناك صلة بين تدوين هذه المناسيب وبين سد الفيوم – الذى سوف نتحدث عنه حالا – اذ أن هذه المناسيب الموجودة على مبعدة حوالى ٧٠٠ كيلا من الفيوم، كان لها أثرها فى تقوية هذا السد ، وتقدير المياه قبل وصــولها اليه وتنظيمها[٧٣] .

وهناك على مبعدة ٨٠ كيلا من القاهرة ، وفى الصحراوات التى تمتد الى الغرب من وادى النيل ، واحة غنية بها مدينة وعدة قرى ، وتشغل مساحة قدرها ٥٠ كيلا ، وتسمى «الفيوم» (بمعنى أليم أو البحيرة) ، فضلا عن بحيرة فى أطرافها ، كانت تصل اليها مياه فيضان النيل ، عن طريق لسان من الارض الخصبة ، عرضه ثمانية كيلو مترات، وقد كانت فى بادىء أمرها عبارة عن مستنقعات واسعة مملوءة بالمياه، وفى الاسرة الخــامسة جففت الاجزاء الاكثر قــربا عن طريق عمل جسور ، وشيدت هناك مدينة «شيدت» .

هذا وقد كانت البحيرة التى تشغل منخفض الفيوم تسمى فى الدولة

---

(٧٢) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٣٤٩ .
(٧٣) عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٢٩٥ .

القديمة (تاحنت ــ ان ــ مرور) ، ثم أطلق عليها فى العصر الاغريقى (بحيرة موريس) ومازالت بقايا منها تعرف حاليا باسم (بحيرة قارون)، وكان بحر يوسف ــ وما يزال ــ يصب فيها ، وهو يخرج من ديزوط ــ على مبعدة ٣٠ كيلا شمالى أسيوط ــ كفرع من فروع النيل (والان من ترعة الابراهيمية) ويسير محازيا لمجراه من الناحية الغربية ، ثم ينحرف الى الغرب مخترقــا المرتفعات الغربية بالقــرب من اللاهون ــ على مبعدة ٢٥ كيلا من مدينة الفيوم[٧٤] ــ تاركا أجزاء صغيرة من الاراضى الصالحة للزراعة .

وليس هناك من بين هذه الاجزاء من تشغل مساحة كبيرة غــير الفيوم ، حيث كانت هناك فى العصر الحجرى الحديث ، تلك البحيرة التى كانت تتدفق اليها أمواه النيل ، ومن ثم فقد كانت أرضها غنية بطمى النيل ، التى يمكن أن تنتج محصولات وفيرة ، وهكذا رغب ملوك الاسرة الثانية عشرة فى اعادة اتصال تلك البحيرة بالنيل ، وكان لقرب الفيوم من العاصمتين (منف وايثت تاوى) أثره الكبير فى التفكير فى اقامة سد الفيوم ، حتى يمكن أن يسد احتياجات الناس هناك[٧٥] .

هذا وقد نسب الكتاب القدامى من الاغارقة والرومان فكرة الافادة من مياه الفيضان ، واقامة سد الفيوم ، الى «أمنمحات الثالث» وحده، رغم أن هناك ما يشير الى أن المشروع انما قد بدأ منذ أيام (سنوسرت الثانى) ، ان لم يكن قبله ، وذلك عندما عمل الرجل على تنظيم جريان المياه عن طريق سد أقيم فوق مصب قنــاة هوارة على مقــربة من اللاهون[٧٦] .

---

(٧٤) A. H. Gardiner, and I. H. Bell, The Name of Lake Mceris, JEA 29, 1943, p. 37-50.
وكذا A. H. Gardiner, Ancient Egyptian Onomastica, Oxford, 1947, p. 115-116.
(٧٥) Jean Vercoutter, The Near East, The Early Civilizations, London, 1967, p. 370.
(٧٦) J. J. Clere, Histoire des XIe et XIIe Dynasties Egyptien- =

وعلى أى حال ، فان أمنمحات الثالث انما هو المسئول ، على وجه اليقين عن اقامة هذا المشروع ، عندما فكر فى الافادة من مياه الفيضان، عندما اتخذ من بحيرة منخفض الفيوم (تاحنت ان مرور) خزانا طبيعيا، فبنى سدا يحجز المياه ، ثم يصرفها بمقدار فى أوقات التحاريق ، ومن ثم فقد فكر فى طريقة منظمة لدخول المياه وخروجها من هـذا الخزان الطبيعى ، وذلك باستخدام المجرى الطبيعى (بحر يوسف) الذى كانت تجرى فيه مياه النيل من شمال أسيوط ، عند ديروط ، وكانت المياه تجرى فى بحر يوسف الى الفيوم عن طريق سدود ، لها عيون لتصريف الميـاه .

وقد بنى هذا السد عند المدخل الطبيعى للبحيرة ، فى أضيق ممر ينفذ منه بحر يوسف الحالى ، خلال جريانه من النيل الى منخفض الفيوم ، وكان ممرا يسمى (راحنة) بمعنى (فم البحيرة) ثم حرف اسمه الى (لاهنة) ، وأخيرا الى (لاهون) ، وهو اسمه الحالى ، وان كان (بترى) قد حرفه الى (كاهون) .

وقد سمحت الفتحات الجديدة بتوجيه المياه توجيها سليما ، حين تجرى على الانخفاض التضاريسى التدريجى من ضفة النهر حتى بحيرة الفيوم وربما سمحت كذلك بوقف اتجاه المياه الى البحيرة بعد الفيضان، وتوجيهه الى قناة أخرى تجرى الى الشمال الشرقى منها ، وبذلك أمكن اكتساب ٢٧ ألف فدان من غمر الفيضان ، كانت شيئا كبيرا فى زمانها .

ويروى (سترابو) أنه شهد بنفسه الطريقة التى كانت تخزن بها المياه ، وهذا يشير الى أن عملية تخزين المياه انما قد ظلت قائمة حتى عام ٢٤ قبل الميلاد ، على الاقل .

= nes, in Cah. H. M. I. 1954, p. 653.

وكذا Strabo, XVII, 809 F.

وكذا Herodotus, II, 129.

وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 379.

وهكذا استطاع أمنمحات الثالث أن يحول اقليم الفيوم الى بقعة من أخصب بقاع مصر ، استغلتها الدولة فى انشاء القرى والمدن الجديدة، ويصور أهمية هذا المشروع أن المدن التى أنشئت معه ارتفعت نحو ٣٠ مترا ، عن مستوى القرى القديمة التى سبقت عصره ، وأن بعض مدنه الجديدة التى جاورت البحيرة أصبحت تبعد الآن عن ضفافها عدة كيلو مترات ، بعد أن انكمشت مساحة البحـيرة ، وانخفض مستوى مائها(٧٧) .

وقد أقام أمنمحات الثالث على الشاطىء الشمالى من البقعة التى اقتطعها من الغمر ، عند مكان يدعى (بياهمو) حاجزين ضخمين ، أقام فوقهما تمثالين كبيرين جالسين يمثلانه ، ارتفاع الواحد منهما حوالى ١٢ مترا ، فضلا عن قاعدة من الكوارتز الصلب ، وقد زعم هيرودوت أنه رآهما يرتفعان من بحر موريس .

وليس هناك من ريب فى أنه انما كان يعنى بذلك التمثالين العملاقين لامنمحات الثالث ، اللذين شهدهما (فلندرز بترى) يطلان على البحيرة عند بياهمو ، ويفترض أنهما كانا قائمين فى حوش قريب من قمة السد، ولم يعثر على ما يمـاثل هذا الاثر فى مصر كلها ، الا اذا أخـذنا فى الاعتبار مسلة (ايجيج) ، التى أقامها سنوسرت الاول ، ويبلغ ارتفاعها ٥٠ قدما ، ويعلو قمتها تمثال الملك سنوسرت الاول ، وعلى أى حال ، فان التمثالين العملاقين لامنمحات الثـالث قد اختفيا ، ولم يبـق الا قاعدتهما ، وبعض قطع محفوظة بمتحف الاشموليان باكسفورد(٧٨) .

---

(٧٧) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٣ ، نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص٣٥٠ ، عبد الحميد زايد : المرجع السابق ص ٣٩٤-٣٩٥،
وكذا Pasarge, Fajum und Moeris-See, Geog. Zeitschrift, XLVI, 1946, p. 353 F.
وكذا I. E. S. Edwards, The Pyramids of Egypt, 1965, p. 229-230.
(٧٨) A. H. Gardiner, op. cit., p. 138, 140.
وكذا W. M. F. Petrie, Kahun, Gurob and Hawara, London, 1890, Pls. XXV, XXVII.

وعلى أى حال ، فاننا نلتقى من جديد مع الملك أمنمحات الثـالث بظاهرة تملك فرعون لاكثر من هرم ، فقد كان الاثر الذى أمر أن يقام ـــ بالاضافة الى هرم دهشور ـــ يقع فى ((هوارة)) ، على مبعدة بضعة أميال الى الغرب من اللاهون ، بجـوار قنـــاة من العصر العربى ، وهناك اتخذت كذلك خطى واسعة لاحباط مساعى النهابين ، ولم تكن جهود ((بترى)) فى عام ١٨٨٦م ، للوصول الى مكان الدفن الحقيقى ، أقل مما اتبعه فى اللاهون فى العام التالى(٧٩) .

ولعل من الاهمية بمكان أنه لم يكن لهـرم هوارة(٨٠) معبد واد أو طريق صاعد ، والى الجنوب منه مباشرة نجد المكان الذى كان فيه مبنى ((اللابيرانت)) التيـــه الشهير ، ومن المؤكد أن المعبد الجنـــازى لامنمحات الثالث انما كان على الاقل جزءا من ذلك المبنى الذى مات أمنمحات الثالث دون أن يتم العمل فيه ، فأكملته ((سوبك نفرو)) آخر ملوك الاسرة الثانية عشرة ، وكان طول هذا المبنى حوالى ٣٥٠ مترا ، وعرضه ٢٤٤ مترا ، وان لم يبقى منه الان جدار واحد فى مكانه ، فقد استخدمه أهل المنطقة منذ العصر الرومانى كمحجر يأخذون منه حاجتهم من الاحجار .

هذا وقد قـــام بوصف ((اللابيرانت)) باسهـــاب كل من هيرودوت وديودور الصقلى وسكلوس وسترابو ، وقد فحص ((فلندرز بترى)) المكان فحصا سطحيا فى نفس الوقت الذى فحص فيه الهرم ، ثم أعاد الفحص فى عام ١٩١١م ، فكشف عن مساحة واسعة من شظايا الحجر

---

(٧٩) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaobs, Oxford, 1964, p. 139.

(٨٠) يبلغ ارتفاع هرم هوارة ٥٨ مترا ، وطول كل ضلع من أضلاعه ١٠٠ مترا ، وزاوية ميله ٤٥ ـ ٨ ٤٥° ، ومدخله فى الجهة الجنوبية وهو يؤدى الى عدد من الدرجات تنزل الى ممر يظهر كانه مسدود تماما لا يتصل بأى مكان آخر (أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٢٣) .

الجيرى ، مع بقـايا قليلة تحمل أسماء أمنمحات الثالث والملكة سوبك نفرو ، ويحول اتساع هذه المساحة وشكلها المربع ، دون التفكير فى أن هذا المبد الجنازى يمكن أن يكون من الطراز المعتاد ، والواقع أنه يمكن أن نتقبل فى ثقة ما قدمه الكتاب الكلاسيكيون ، حيث أنهم لم يغالوا كثيرا ، فهيرودوت يتحدث عن المبنى ، وكأنما هو أعجوبة فاقت الاهرام نفسها[٨١] .

يقول هيرودوت فى وصف اللابيرانت « لقد رأيته بنفسى ، وهـو عمل يعجز عن وصفه البيان ، اذ لو قـدر لامرىء أن يجمع معرضـا للمبانى والاثار الفنية التى شيدها اليونانيون ، لبدت عمـلا أقل من اللابيرانت ، بشأن ما تطلبه من نفقات ومن عمل شاق ، ولو أن معبدى أفسوس وساموس ليستحقان الكلام ، كذا لاحظنا أن الاهرام تجل عن الوصف ، وأن كلا منها يكافىء كثيرا من آثار يونانية ، حتى عظيمها ، ولكن اللابيرانت يفـوق الاهرام أيضا ، وبه اثنا عشر بهـوا مسقوفا مداخلها متقابلة ، ستة تتجه نحو الشرق ، وستة نحو الغرب ، متتابعة ، يحيط بها سور خارجى واحد ، وهناك نوعان من القاعات ، بعضها تحت الارض ، وبعضها فوق الاولى فوق سطح الارض ، وعددها ثلاثة آلاف قاعة ، خمسمائة وألف من كل نوع ، ولقد رأينا بأنفسنا التى فوق سطح الارض ، وجلسنا خـلالها ، وأنا لنتكلم عمـا شاهدناه بأعيننا ، أما القاعات التى تحت الارض ، فوقفنا على أمرها مما قيل لنا ، لان هؤلاء الذين يشرفون عليها من المصريين لم يرضوا البتة أن يرونا اياهـا ، مدعين أنه توجد بها توابيت الملوك الذين بنـوا — لاول مرة — ذلك اللابيرانت ، وبها توابيت التماسيح المقدسة أيضا ، أما القاعات العليا فقد رأيناها بأعيننا ، وهى تفوق أعمال البشر ، فالممرات خلال الردهات

---

(٨١) Strabo, XVII, 37.
وكذا Herodotus, II, 148-149.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 140.
وكذا I. E. S. Edwards, op. cit., p. 231-235.
وكذا W. M. F. Petrie, Hawara, Pl. p. 4-11.

والمتعرجات المعقدة منتهى التعقيد خـلال الابهاء ، كانت لنا مصـدر اعجاب لاحد له ، أثناء مرورنا من البهو الى القاعات ، ومن هذه الى الاروقة ، ومن هذه الى ردهات أخرى ، ومن القاعات الى سائر الابهاء، وسقف هـذه الابنية كلها من الحجر مثل الجـدران ممتلئة بالاشكال المحفورة ، وتحيط بكل بهو أعمدة من الحجر الابيض متداخلة باتقان ، ويلتصق بالركن الذى ينتهى عند اللابيرانت هـرم[٨٢] (هرم هوارة الآنف الذكر) •

وأما «سترابو» فيصف «اللابيرانت» وكأنما هو يحتوى على عدد ضخم من الابهاء المتصلة بعضها بالبعض الاخر ، عن طريق ممرات دوارة لا يستطيع الغريب أن يحدد مساره خلالها ، وأن سقف كل غرفة انما يتكون من كتلة واحدة من الحجر ، بل ان الرجل انما يظن أن كل مقاطعة فى مصر انما كانت لها صالة اجتماعات خاصة بها •

وطبقـا لرواية «بلينى» فان هذه الصـالات انما شيدت بطريقة خاصة ، حتى أنه فى اللحظة التى تفتح فيها الابواب انما يحدث صوت مزعج ، يشبه صوت الرعد ، وينعكس فى الداخل ، وأنه يجب عبـور معظم أبنية اللابيرانت فى ظلام تام ، وربما كانت هذه المبانى التى أطلق عليها «اللابيرانت» مبان حكومية تدار منها شئون الدولة ، وان كان الارجح أنه كان معبـدا ضخما لامنمحـات الثالث ، أقيم بجـواره هرم له[٨٣] •

وأيا ما كان الامر ، فمما يدعو للاسف أننا لا نستطيع اليـوم أن نتحقق من وصف المؤرخين القدامى للابيرانت ، بعد أن تتابعت محن الايام على البناء ، وعدت عليه العوادى فى القـديم والحديث ، ففى

---

(٨٢) هيرودوت يتحدث عن مصر ـ ترجمة محمد صقر خفاجه تقديم ومراجعة أحمد بدوى ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٧٩ ـ ٢٨١ •

(٨٣) Strabo, XVII, 37.

وكذا A. Weigall, op. cit, p. 80.

وكذا H. Kese Ancient Egypte, London, 1961, p. 225.

العصر الرومانى بنيت من أنقاضه مدينة «كروكوديلوبوليس» (مدينة التمساح) ، ومنها بنيت أكثر مرافق السكة الحديدية فى العصر الحديث.

ولعل ذلك يرجع ، أول ما يرجع ، الى مارزئت به مصرنا الحبيبة من حكام أجانب ، لا تهمهم اثارها ، التى جهد الأسلاف فى اقامتها ، لانها دليل على عظمة هذا الشعب العريق وعلى مجد أجداده العظام ، فضلا عن أنها انما تذكر أبناءه ، دائما وأبدا ، الى أى وطن عظيم هم ينتسبون ، والى أى شعب عريق ينتمون ، فتدفعهم دفعا الى طرد كل غاز ، أراد أن يدنس وطنهم بغزوه ، حتى يكونوا أكفاء للمجد العريق ، جديرين بهؤلاء الاجداد ، الذين صاغوا تاريخ العالم، حين كان العالم يعيش فيما قبل التاريخ ، وما كان ذلك أبدا يوافق هوى المعتدين ، ويحلو لحظة واحدة للمغتصبين .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن أمنمحات الثالث انما أقام لنفسه هرما آخر فى دهشور ، بين هرم سنفرو المنحنى وبين قرية دهشور قريبا من حافة الاراضى الزراعية ، وهو آخر مجموعة أهرام دهشور فى الجهة الجنوبية ، ولم يحفر معبد الوادى لهذا الهرم حتى الان ، وان دل على مكانه طريق صاعد طويل ، كان طوله ٦٠٠ مترا ، وعرضه ١٨٫٥ مترا ، وفى نهايته بقايا مكاتب ادارة هذا الهرم ، ومنازل كهانته ، فضلا عن المعبد الجنازى الذى لم يبق منه الا القليل(٨٤) .

(٧) أمنمحات الرابع (١٧٩٨ — ١٧٩٠ ق.م) .

لم يكن أمنمحات الرابع (ماعت خرو رع) فى نشاط أسلافه ، أو فى مهارتهم السياسية والادارية ، وان كان قد أرسل بعض البعثات الى المحاجر فى النوبة ، وفى وادى هودى للحصول على أحجار الاماتيست ، وعلى أية حال فلقد حكم — طبقا لما جاء فى بردية تورين —

---

(٨٤) أحمد فخرى : الاهرامات المصرية — القاهرة ١٩٦٣ ص ٣٢٦ — ٣٢٨ .

سنوات تسع ، وأشهر ثلاثة ، وعشرين يوما ، وان كان عامه السادس هو آخر ما سجل له من سيناء •

هذا ويرجح الاثريون أنه قد دفن فى أحد الهرمين اللذين ينسبان اليه والى الملكة «سوبك نفرو» وقد كشف عن بقاياهما «ماكاى» فى عام ١٩١٠/١٩١١م ، خلف قرية «مزغونة» — على مبعدة ٣٠ كيلا الى الجنوب من الجيزة — والى الجنوب من أهرام أجداده فى اللشت ، وهناك فى هرمى مزغونة هذين ، من التحسينات ما يشير الى أن بانيهما انما قد أفاد من التجارب المعمارية التى تمت فى هرم هوارة ، الذى ينسب الى الملك أمنمحات الثالث(٨٥) •

هذا وقد جاء اسم أمنمحات الرابع على جدران معبد مدينة ماضى ، جنوب غرب الفيوم ، وقد كشفت عنه بعثة ايطالية فى عام ١٩٣٦م(٨٦)، وهناك ما يشير الى أن المعبد قد بدىء فى بنائه فى الفترة التى اشترك فيها أمنمحات الرابع مع أبيه فى الحكم ، وهو يتكون من بوابتين عظيمتين ، ثم قاعة عمد لها باب كبير ، ثم ممر ضيق ، وينتهى المعبد بثلاثة مقاصير ، مازال سقفها باقيا ، وقد خصصت لعبادة ثالوث منطقة الفيوم ، الالهة «رننوتت» (ربة الحصاد) والاله « سوبك » والاله «حورشدت» (حورس الفيوم)(٨٧) •

(٨) سبك نفرو (١٧٨٩ ـ ١٧٨٦ ق•م)

انقطعت سلسلة الملوك الذكور فجأة بعد أمنمحات الرابع ، وان كان هناك ملك يدعى «حور أوت ايب» لا يعرف الباحثون مكانه على وجه التحقيق من أخريات أيام الاسرة الثانية عشرة ، وعلى أى حال ،

---

(٨٥) I. E. S. Edwards, op. cit., p. 235-236.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 140-141.
وكذا G. Jequier, Deux Pyramides, du Moyen Empire, Cairo, 1938, p. 67.
(٨٦) A. Voglinano, Medinet Madi, Millano, 1936-1937.
(٨٧) عبد الحميد زايد مصر الخالدة ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٤٠١ •

فان هذه الاسرة انها تنتهى بشكل غامض بحكم ملكة ، كتب اسمها بعدة مترادفات (سبك كارع ، سبك نفرو رع)[88] ، والاسم الاخير هو الاكثر شيوعا •

هذا وتذهب بردية تورين الى أن «سبك نفرو رع» انما قد حكمت أعواما ثلاثة ، وأشهرا أربعة ، وعشرين يوما ، وأما قائمة سقارة فقد ذكرتها باسم «سبك كارع» ، واعتبرتها خليفة للملك أمنمحات الرابع ، وأما المؤرخ المصرى «مانيتو» فقد أطلق عليها اسم «سكميوفوريس» واعتبرها أختا للملك أمنمحات الرابع ، وهناك خاتم أسطوانى فى المتحف البريطانى يحمل ألقابها كاملة ، كما دعيت كذلك «حبيبة رع» و «ربة التاجين» ، وغير ذلك من الالقاب التى تزدان بها أسماء الملوك من آل فرعون[89] •

وقد عثر «ادوارد نافيل» فى نواحى تانيس على تمثال فى هيئة أبو الهول ، وعليه أثر من طغراء ملكى ، قدر أن يكون لهذه الملكة ، هذا فضلا عن أنقاض عمارة لها كانت قد شيدتها فى «اهناسية» ، ثم هدمها الرومان واستعملوا حجارتها فى بعض مبانيهم[90] •

هذا ويذهب بعض الباحثين — اعتمادا على ظهور اسم سبك نفرو على أحد العناصر المعمارية الى جوار اسم أمنمحات الثالث — الى أن الاخير ربما كان أباها ، وأنها قد اشتركت معه فترة فى الحكم[91] ،

---

(٨٨) عبد العزيز صالح : الشرق الادنى القديم — الجزء الاول — القاهرة ١٩٦٧ ص ١٨٣ ، وكذا •
أنظر : H. Gauthier, le Livre des Rois d'Egypte, I, Cairo, 1907, p. 341.

(٨٩) H. Gauthier, op. cit., p. 341.

(٩٠) أحمد بدوى : فى موكب الشمس — الجزء الثانى — القاهرة ١٩٥٠ ص ١٥٣ — ١٥٤ •
وكذا ASAE, 18, 1918, p. 34.
وكذا E. Naville, Goshen and The Schrine of Saft el Henna, p. 192.

(٩١) W. M. F. Petrie, Kahun, Gurob and Hawara, London, 1890, Pl. XXVI. 12.

كما أن هناك دليلا أكثر تأكيدا على اشتراك أمنمحات الثالث والرابع فى الحكم لفترة ما ، بينما لا نجد اشارة الى اشتراك فى الحكم بين أمنمحات الرابع وسبك نفرو ، وأمام مثل هذه الملاحظات نرى أنه من الخطورة بمكان أن نقدم نتائج ايجابية ، وان كان هناك احتمال مقبول عن امكان وجود نزاع فى الاسرة خرجت منه «سبك نفرو» منتصرة(٩٢).

وهكذا فان «سبك نفرو» انما تمثل ثانى حالة فى تاريخ مصر تنجح فيها امرأة فى أن تجعل من نفسها «ملك مصر العليا والسفلى» ، غير أن مثل هذا الموقف الشاذ انما كان يحمل بذور الكارثة ، ذلك أنه بعد «سبك نفرو» — كما حدث بعد نيتوكريس — تعاقبت سلسلة من الملوك لم تزد مدة حكم أحدهم — فيما يرى سير ألن جاردنر — على ثلاث سنوات ، وأيا كان السبب ، فان الدولة الوسطى المجيدة قد انهارت نهائيا(٩٣).

(٩٢) P. E. Newberry, The Co-Regencies of Ammenemes, III, IV, and Sebeknofru, in JEA, 29, 1943, p. 74-75.
وكذا

(٩٣) T. Save-Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 53.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 141.

الفصل الثانى

السياسة الخـــارجية

١ ـ الاسرة الحادية عشرة

بدأ منتو حبت الاول (نب حبت رع) ، بعد أن كتب له نجحا بعيد المدى فى تحقيق وحدة البلاد ، فى استعادة نشاط مصر فى الصحراء الشرقية ، فارسل حملة الى وادى الحمامات ، هــذا وقد سجل أحد جنوده المدعو «توحمانو» ـــ وهــو نوبى فيما يبدو ـــ فى نقش على صخور «أبيسكو» ، على مقربة من الشلال الاول ، أن سيده الفرعون قد «استولى على الارض كلها ، وأقــدم على ذبح أسيوى دجاتى» (جاتى) ـــ أى أهل جنوب الشام ـــ .

ولا يبدو ان أمر تهــدئة الأرض كلها تم قبل العــام السادس والاربعين اذ أن هناك لوحة فى تورين من ذلك التــاريخ تحدثنا بأن «تقدما طيبا تم بسبب منح الاله منتو الارضين (الصعيد والدلتـــا) للملك «نب حبت رع» ، وقبل انتهاء الحكم أصبح من الممكن كذلك لحامل ختم الهى يدعى اختوى ، من أن يذهب فى رحلة واسعة النطاق الى الخارج ، وأن يعود بكثير من المعادن والأشجار الثمينة من مختلف الانواع ، مما يشير الى أن القوات المصرية قد دخلت آسيا ، وان لم تذهب الى ما ذهبت اليه قوات الاسرة السادسة[١] .

---

(١) L. Llebs, Reliefs und Malerei des Mittleren Reichs, Heidelberg, 1922, fig. 14, p. 22.
وكذا A. H. Gardiner, JEA, 4, p. 28 F.
وكذا A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 121-122.

هذا وليس هناك من النقوش ما يشير الى بعثات للملك منتو حتب الاول الى سيناء ، غير أن اقامة سنوسرت الاول تمثال للملك منتو حتب الاول فى سرابيط الخادم — أهم مناطق مناجم الفيروز فى سيناء — انما يشير الى أن منتو حتب الاول انما قد أعاد فتح الطريق الى مناجم الفيروز هناك ، الامر الذى أكده «خيتى» — أحد موظفى منتو حتب الاول — عندما أعلن أنه ختم كنوز مناجم الفيروز فى سيناء فى معبد حور ، وبالتالى استعادة سيادة مصر وسلطانها على بدو الصحراء فى سيناء •

وأما بالنسبة الى ليبيا ، فقد أرسل منتوحتب الاول قوات كان هدفها أن تتظهر ، كما لو كانت تمسك بأعناق أولئك الذين أزعجوا مصر منذ عهد الدولة القديمة ، وقد تمكنت من قتل قائد الليبيين (تحنو) فى احدى هذه الغارات ، هذا فضلا عن أن قوات منتوحتب الاول قد وصلت الى واحات الصحراء المغربية ، كما اتخذ كثيرا من الخطوات السيطرة على الصحراء الجنوبية الغربية والجنوبية الشرقية[٢] •

وهناك ما يشير الى أن سيادة مصر على النوبة السفلى لم تستمر بعد موت «ببى الثانى» ، اذ ضاعت قوة الحكم المصرى المركزى بعد موته ، ثم أعقب ذلك فوضى فى البلاد ، على أيام الثورة الاجتماعية الاولى ، مما أدى فى النهاية الى ضياع ممتلكات مصر فى الجنوب ، فى الفترة فيما بين نهاية الاسرة السادسة وبداية الاسرة الحادية عشرة •

وهكذا يذهب «سيسل فرث» الى أن هجرة «المجموعة الثالثة» انما كانت نتيجة الضعف الذى أصاب النوبة السفلى ، بعد حملة «ببى نخت»، وبداية العهد الاقطاعى ، والحروب الاهلية التى دارت رحاها بين فراعين اهناسية وأمراء طيبة ، مما مكن المجموعة الثالثة (٢٤٠٠ — ١٦٠٠ ق٠م) من وضع أقدامها فى النوبة السفلى[٣] •

---

(٢) J. Vercoutter, The Near East, The Early Civilizations, London, 1967, p. 350.

(٣) G. M. Firth, The Archaeological Survey of Nubia, II, Cairo, 1915, p. 20.

هذا ويبدو أن المجموعة الثالثة هذه لم تكن قد انتشرت جنوبا حتى الجندل الثانى ، ولكنهــا اقتصرت على النوبة السفلى (واوات)[٤] ، تاركة النوبة العليا (كوش) لجــيرانها المحبين للحــروب ، وان ذهب البعض الى أن أقــوام المجموعة الثــالثة كذلك كانوا لا يميلــون الى الحروب ، اعتمادا على ندرة الاسلحة بين الاشياء التى عثر عليهــا فى مقابرهم ، فضلا عن أن الفرق الزنجية فى الجيوش المصرية انما كانت من أهل «كرما» ، هذا الى أن الحصــون المصرية التى فى قلب وطن المجموعة الثالثة ــ كما فى كوبان وايكور ــ انما توجد بها آثار أهل كرما الذين خدموا كجنود ، بينما لا نجد نفس الاثار العسكرية لاصحاب المجموعة الثالثة ، وأخيراً فهناك ما يشير الى وجود مساكن لاهــل المجموعة الثالثة على مقربة من الحصــون المصرية ، وليس فى داخلها مما يشير الى أن أهل المجموعة الثالثة انما كانوا قوما محبين للسلام ، ولم يعتبرهم المصريون لائقين للخدمة العسكرية ، ومن ثم فقد اعتمدوا على المحاربين الجنوبيين كاحتياطى فى معسكراتهم[٥] .

على أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب الى أن أقــوام المجموعة

---

(٤) لعل أهم القبائل التى سكنت النوبة السفلى انما كانت هى : ١ ــ قبيلة واوات ، وقد سكنت المنطقة حول كورسكور . ٢ ــ قبيلة ايرثت ، وسكنت المنطقة حول توماس . ٣ ــ قبيلة ستاو ، وسكنت المنطقة حول توشكى . ٤ ــ قبيلة ايام وسكنت المنطقة فيما بين أرمنا وبوهن (وان كان هذا موضع جدل طويل ، كما أشرنا من قبل) . ٥ ــ قبيلة المدجاو . وهى من القبائل الرحل التى لم تستقر فى منطقة بعينها ، وكانت تجوب مناطق السودان والنوبة السفلى ، وقد انتمت هذه القبائل كلها الى الجنس الحامى الذى انتمى اليه سكان شمال أفريقية فى كافة العصور (عبد المنعم أبو بكر : بلاد النوبة ــ القاهرة ١٩٦٢ ص ١٥ ــ ١٦) .

(٥) والتر ايمرى : مصر وبلاد النوبة ــ ترجمة تحفــة حندوسة ، ومراجعة عبد المنعم أبو بكر ــ القاهرة ١٩٧٠ ص١٤١ ــ ١٤٣ ،

وكذا G. A. Reisner, Excavations at Kerma, II, Cambridge, 1923, p. 555.

وكذا W. B. Emery and L. P. Kirwan. The Excavations and Survey between Wadi Essebua and Adindan Cairo, 1935, p. 8.

الثالثة انما كانوا أصحاب حرب ، وأن عدم وجود الاسلحة فى أثاث مقابرهم ، لا يعنى بالضرورة أن يكونوا أهل سلم ، فربما كانت الاسلحة غالية بالنسبة الى النوبى ، ومن ثم فهو غير قادر على شرائها بهدف وضعها فى قبره ، وربما كانت عادات القوم الجنازية لا تتفق ووضع الاسلحة فى المقابر ، هذا فضلا عن أن الاحتلال النهائى للنوبة على أيام «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٤٣ق٠م) انما يشير الى مقاومة عنيدة من جانب النوبيين ، وأن أقوام المجموعة الثالثة انما كانوا قد استوطنوا النوبة منذ فترة طويلة(٦) ٠

وأيا ما كان الامر ، فهناك نقش فى طيبة (الاقصر) يسجل أن جنديا يدعى «جمى» — ويلقب بالمشرف على الجنود ، والمشرف على التراجمة (رئيس القافلة) — أنه جعل «وأوات» تدفع الجزية لامير طيبة ، وأنه قضى على تمرد أى ثائر هناك ، مما يدل على أن المصريين ، حتى أبان ضعفهم بسبب الانقسامات الداخلية ، انما كان أمراؤهم فى طيبة ، ما يزالون يهتمون بالنوبة ، ويفرضون سلطانهم عليها ، وان كان هناك من يذهب الى أن هذا لا يعنى أكثر من حملة قام بها «جمى» على النوبة هذا فضلا عن أن نشاط الاهناسيين عند الحدود الجنوبية انما هو أمر يحيطه الشك والابهام ، وان وجد نقش يشير الى مراقبة الحدود الجنوبية ، ومنع الهجرة من الجنوب الى داخل مصر(٧) ٠

وعلى أى حال ، فما أن بدأت مصر تقضى على فوضى عصر الانتقال الاول ، وتعيد وحدة القطرين ، حتى وجهت اهتمامها صوب النوبة ، وهناك ما يشير الى نشاط عسكرى مصرى فى النوبة ابان الجزء الثانى من عصر الاسرة الحادية عشرة (٢١٣٤ — ١٩٩١ ق٠م) وفى ذلك عدة نقوش صخرية فى «بوهن» (مقابل وادى حلفا عبر النهر) ، ولكنها

---

(٦) سليم حسن : مصر القديمة — الجزء العاشر — القاهرة ١٩٥٥ ص ٩٢ ٠

(٧) W. M. F. Petrie, A Season in Egypt, 1887, London. 1888, Pl. XII, No. 310.

كانت حملات تأديبية للرد على اعتداءات النوبيين على القوافل التجارية المصرية ، والعمل في المناجم ، فمثلا يسجل نقش أبيسكو — وقد أشرنا اليه من قبل — أن الملك «نب حبت رع» قد سافر الى بوهن ، وأنه قد عبر البلاد جميعا أثناء رحلته البحرية هذه ، وطبقا لرواية خيتى — خازن بيت المال — فقد عاد بمعادن وأحجار كثيرة .

غير أن الامور فى النوبة العليا ربما كانت تختلف عن ذلك ، اذ يبدو أنه أثناء الفوضى التى سادت مصر قد تكونت قوة عسكرية فى الجنوب، أطلق المصريون عليها اسم «كوش» أصبحت فيما بعد قوة تهدد مصر نفسها ، حتى أن ملوك الاسرة الثانية عشرة انما قد اضطروا الى بناء مواقع حماية كبيرة هناك(٨) .

وفى عهد الملك «سعنخ كارع» أرسلت بعثة — بقيادة حنو — الى وادى الحمامات ، قوامها ثلاثة آلاف رجل ، وعندما وصلت الى شاطىء البحر الاحمر ، صنعت سفنا لاحضار المرمر من بلاد بونت(٩) ، ونظرا لان شاطىء البحر الاحمر فى النهاية الشرقية لطريق وادى الحمامات، عبارة عن أرضين صحراوية ، فقد حملت البعثة معها المراكب التى صنعت فى وادى النيل ، لاعادة تركيبها على الشاطىء ، ثم الابحار الى بونت، وهكذا أبحر الاسطول الى بونت، بينما بقى أعضاء البعثة فى وادى الحمامات ، لاحضار أحجار البرانيت الخضراء لصنع التماثيل منها ، ثم عادت مرة أخرى الى مدينة «قفط» بدون أية حوادث عارضة(١٠) .

---

(٨) والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٤٣ — ١٤٤ ،
وكذا T. Save Soderbergh. Agypten und Nubien, Lund. 1941, p. 58.
وكذا A. E. P. Weigall, Report on The Antiquities of Lower Nubia, Cairo, 1907, Pl. XIX.
(٩) J. Couyat and P. Montet, les Inscriptions Hieroglyphiques du Ouadi Hammaman, Cairo, 1912, No. 114.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag., 4027-433, p. 208-210.
(١٠) J. Vercoutter, op. cit., p. 351-352.

هذا وقد زاد «حنو» أمرا آخر فى عهد «سعنخ كارع» (منتو حتب الثانى) ، فذكر لنفسه دورا فى معاملة «الحاونبو» ، أى أهل جزر البحر الابيض المتوسط ، لاسيما الكريتيين ، وقد تكون هذه المعاملة ودية أو عدائية ، وان كان الاحتمال الاول هو الارجح[11] .

وهناك من عهد «منتو حتب الثالث» (نب تووى رع) — كما أشرنا من قبل — ثلاث كتابات من عامه الاول ، وواحدة من عامه الثانى تسجل ايفاد موظف للحصول على الجمشت (الاماتيست) من وادى الهودى[12] ، هذا فضلا عن ارسال بعثة فى عامه الثانى — بقيادة وزيره أمنمحات — الى وادى الحمامات ، لتأتى له بتابوت ضخم[13] .

---

(١١) عبد العزيز صالح : حضارة مصر القديمة — الجزء الاول — ص ٤٣٣ .

وكذا J. H. Breasted, op. cit., Parag. 428, p. 209.

(١٢) A. Rowe, ASAE, 39, 1939, p. 187 F.

وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 125;

وكذا A. Fakhry, op. cit., p. 19-23.

(١٣) J. H. Breasted, op. cit., Parag. 439, p. 212.

٢ ـ الاسرة الثانية عشرة

(١) فى الشمال والشمال الشرقى

قامت السياسة المصرية الخارجية فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، على أساس تغليب علاقات الود مع الدول المجاورة فى الشام والعراق وجزر بحر ايجة ، واتخاذ الصلات التجارية معها سبيلا الى التأثير الحضارى فيها ، كما قامت على أساس توطيد النفوذ ، وتوسيع الإشراف والاستثمار على امتداد الحدود فى الغرب والجنوب ، أى فى ليبيا والنوبة ، مع ايثار السلام المسلح القائم على التحصين واليقظة فى الناحيتين ، وعدم الالتجاء الى استخدام القوة فيها ، الا حين الضرورة[١] .

وهكذا بدأ امنمحات الاول — مؤسس الاسرة الثانية عشرة — فى تنفيذ سياسة السلام المسلح ، فاهتم بحدوده الشرقية ، ونعرف من نبوءة «نفرتى» انه قضى النصف الاول من حكمه فى طرد البدو الاسيويين الذين نزحوا الى الدلتا واستقروا فيها ، خلال فترة الاضطرابات التى كتب على البلاد أن تعيشها فى أخريات أيام الاسرة الحادية عشرة ، ورغبة من الفرعون فى عدم عودة الاسيويين مرة أخرى الى الدلتا ، فقد شيد أمنمحات سلسلة من الحصون على حدود الدلتا الشرقية ، عرفت باسم «أسوار الحاكم» أو «حائط الامير» .

ورغم أننا لا نعرف على وجه اليقين ، أين كانت تقع تلك الاسوار ؟ غير أن ذكرها مرتين انما يكفى لجعلنا ندرك مدى الخطر المتوقع من هذه الناحية ، وهى ، على أية حال ، سلسلة من الحصون والتحصينات

---

(١) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ١٧٦ — ١٧٧ .

أقيمت للاشراف على الممرات التى تؤدى الى داخل مصر من ناحيـة حدودهـا الشرقية والشمالية الشرقية ، وربمـا كان أكثرها فى مدخل وادى طميلات(٢) .

وهناك فى قصة سنوهى ما يشير الى أهمية هذه الحصون فى اداء دورها ، فالرجل يحدثنا أنه عندما بلغ أحد الحصون (حائط الامير) خشى أن يقبض عليه «هناك خبأت نفسى بين الحشائش ، خشـية أن يرانى الحارس ، الذى كان مكلفا بالمراقبة فى هذا اليوم ، اذا ما نظر فى اتجاهى» ، ولما أمن عين الرقيب ، واصل سيره بالليل ، وعند الصباح بلغ البحيرات المرة على طريق السويس ....»(٣) .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن قصة سنوهى انما تشير الى أن اللغـة المصرية ـ لغة سنوهى ـ انمـا كانت معـروفة لدى بعض السوريين وأن الرسل والتجار المصريين انما كانوا يترددون على لبنان حيث كان يقيم ، ويمـرون بها الى ما هو أبعـد منها ، وأن الحـكام السوريين انما كانوا على اتصال بمجريات الامور فى مصر ، ويحبون أن يستزيدوا من أخبارها ، وأن سنوهى قد اشترك بفرقة من أهل الشام فى صد جماعات سمى رؤساؤهم باسم «حقاو خاسوت» بمعنى حكام البلاد الأجنبية أو حـكام البرارى ، وهـو نفس الاسم الذى أطلقه المصريون فيما بعد على زعماء الهكسوس ، وذلك مما يعنى أن سورية بدأت تتعرض منذ ذلك الحين لهجرات أجنبية عنها ، ليس من المستبعد أنها كانت تمثل أسلاف الهكسوس الآريين ، وان كانت هذه الهجرات لاتزال حينذاك قليلة ضعيفة(٤) .

هذا فضلا عن أن زعامة مصر المادية والثقافية انما كانت أمرا ثابتا

---

(٢) J. Vercoutter, op. cit., p. 361-362.

وكذا Alan H. Gardiner, The Prophecy of Neferti, JEA, I, 1914, p. 105.

(٣) J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 19.

(٤) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ١٧٨ .

بالأدلة المادية ، فقد كان الملوك — وربما النبلاء كذلك — يرسلون الهدايا الى الامراء السوريين الموالين لهم ، وأن هؤلاء الامراء انما كانوا يحبون تلك الهدايا ، وتنشرح لها صدورهم ، كما كانت كافية لكسب صداقة تلك الدويلات الصغيرة فى آسيا(٥) ، ومن هذه الهدايا أوان من الاوبسديون الاسود اللامع الى أمير جبيل فى عيد توليته امارة مدينته ، فضلا عن تمثال صغير على هيئة أبو الهول من قطنة للاميرة «أتا» ابنة أمنمحات الثانى وهو أقدم تمثال معروف من نوعه يمثل سيدة مصرية فى هيئة أبى الهول(٦) .

ومع ذلك فان لوحة نسمونت — وتؤرخ بفترة الحكم المشترك بين أمنمحات الاول وولده سنوسرت — انما تشير الى أن هذا القائد انما كان عليه أن يشهر الحرب على الاسيويين الرحل ، وأن يدمر حصونهم ، ولكننا لا نعرف الى أى مدى بلغ نشاطه فى الاقاليم الاسيوية(٧) .

وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى أن النشاط المصرى فى غربى آسيا لم يتوقف فى تلك الفترة ، حيث قدر لمصر أن تقوم هناك بدور قيادى ، ومن ثم فقد تم احتلال مدينة جبيل ، أو على الاقل ، فلقد فرضت عليها التبعية المباشرة(٨) ، وهكذا رأينا الحكام هناك يتخذون لاماراتهم شعارا ذا طابع مصرى ، وربما كانوا يتطيبون عند تتويجهم بزيت ، وضع فى آنية تحمل اسم ملك مصر(٩) ، هذا فضلا عن أنهم

---

(٥) John A. Wilson, The Egyptian Middle Kingdom, at Megiddo, in AJSL, 58, 1941, fig. 14, B. p. 225-236.

(٦) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٩ .

وكذا P. Montet, Byblos, et l'Egypte, Paris, 1928, Pls. 88-89.

(٧) A. H. Gardiner, op. cit., p. 132.

وكذا J. H. Breasted, ARE, I, Parag. 469-471, p. 227-228.

(٨) جان يويوت : مصر الفرعونية — ترجمة سعد زهران — القاهرة ١٩٦٦ ص ٩٨ .

(٩) T. Save Soderberghe, The Hyksos in Egypt, JEA, 37, 1951, p. 53.

كانوا يكتبون أسماءهم بالهيروغليفية المصرية ، ويستعملون اللقب المصرى «حاتى عا» الذى حمله الموظفون المصريون منذ أمد بعيد فى أقاليم مصر نفسها[١٠] •

ومع ذلك فان استاذنا الدكتور أحمد فخرى (١٩٠٥ — ١٩٧٣) — طيب الله ثراه — انما يرى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا من موالى مصر ، أو كانوا يحكمون باسمها ، أو يقدمون لها جزية مفروضة[١١] ، ذلك لان مصر لم يكن لها — فيما يرى جون ويلسون — امبراطورية سياسية فى آسيا ابان عهد الدولة الوسطى ، ولكنها كانت تتمتع بالفوائد الروحية والاقتصادية اللتين كانت تجنيها ، فقد كانت لها سيطرة فعلية على تلك البلاد فى ميدان الحضارة والتجارة[١٢] •

ورغم ذلك كله ، فان شواهد التاريخ انما تشير الى أن مصر ، انما كان لها نفوذ هناك ، وأن هذا النفوذ لم يكن مقصورا على مدينة جبيل وحدها ، وربما قد امتد الى مدن سورية أخرى،مثل «أو جاريت» (رأس الشمرة) ، التى يحتمل أنها كانت — فيما يرى البعض — تتبع مصر سياسيا[١٣] ، هذا فضلا عن الآثار المصرية ، انما كانت قد انتشرت فى كثير من المدن السورية[١٤] ، فهناك فى «قطنة» — وتقع فى مكان تل المشرفة الحالية ، على مبعدة ١١ ميلا الى الشمال الشرقى من حمص — عثر على تمثال يحمل اسم الملك أمنمحات الثانى (١٩٢٩ — ١٨٩٥ ق• م)[١٥] •

وفى عام ١٩٣٦ ، عثر فى «طود» — على مبعدة ثلاث كيلو مترات

---

(١٠) جان يويوت : مصر الفرعونية ص ٩٩ •
(١١) أحمد فخرى : مصر الفرعونية ص ٢٢٨ •
(١٢) John A. Wilson, The Culture of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 155.
(١٣) T. Save Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 53.
(١٤) أنظر : محمد بيومى مهران : اخناتون — عصره ودعوته — القاهرة ١٩٧٩ ص ٣ — ٦ •
(١٥) A. H. Gardiner, op. cit., p. 132.

شمال محطة أرمنت — على كنز ثمين من مصنوعات من الذهب والفضة واللازورد ، تشير بوضوح الى يد الصانع الميزوبوتامى والايجى ، وقد نقشت عليها خراطيش أمنمحات الثانى ، وربما كانت هدايا — وربما جزية — من حكام جبيل[١٦] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن مقبرة «خنوم حتب» أمير بنى حسن (اقليم الوعل) ، على أيام «سنوسرت الثانى» انما قد احتفظت لنا بمناظر تمثل ملابس ومستوى الحضارة فى سورية فى ذلك العصر ، حيث تقدم لنا «خنوم حتب» ، وهو يستقبل مجموعة أسيوية (كنعانية) تتكون من ٣٧ شخصا ، من شباب وشيوخ ، ونساء وأطفال، بزعامة كبيرهم «أبشاى» (أبشا) ، والذى لقب «حقا خاست» (أى حاكم البلد الاجنبى) ، والذى حرف فيما بعد الى «هكسوس» ، وكان القادمون يلبسون ملابس فاخرة ، ذات ألوان متعددة ، ويطلق الرجال لحاهم ، ويسلحون بسهام وأقواس ، وكان للنساء شعر طويل أسود، كما كن يلبسن النعل ، وليس الصندل ، كما فى مصر ، والكتابة التى تحت صورهم انما يمكن أن تقرأ كالتالى : «السنة السادسة تحت حكم جلالة حور ، مرشد الارضين ، ملك مصر العليا والسفلى سنوسرت الثانى ، عدد الاسيويين الذين حضروا عند الحاكم ، الامير خنوم حتب، ومعهم الكحل ، انما كان ٣٧ فردا» .

وفى الواقع أن وفود الكنعانيين الى مصر لم يكن جديدا فى تاريخها، لكن الجديد هنا هو تصويرهم فى مجموعات أسرية بخصائصهم القومية، هذا فضلا عن أن الاسيويين انما كان قد كثر مجيئهم الى مصر على أيام الاسرتين الثانية عشرة ، والثالثة عشرة ، رجالا ونساء ، فى أعداد كثيرة،

---

(١٦) R. Bisson de la Roque, Tresor de Tod, Cairo, 1950.
وكذا R. Bisson de la Rouque, Depot Asiatique Trouve a Tod (1934-1936) Cairo, 1937, p. 113.
وكذا J. Vandier, A Propos d'nn depot de Provenance Asiatique Trouve a Tod, Syria, 18, 1937, p. 174-182.

وقد احتفظت النصوص من عهد الدولة الوسطى بأسماء كنعانية كثيرة، عمل بعض أصحابها فى مناطق المناجم والمحاجر المصرية ، وعمل آخرون أتباعا وإماء فى البيوت والمعابد[17] .

بقى أن نشير الى أن هناك جدلا طويلا بين العلماء عن علاقة مجموعة ((ابشاى)) (أبشا) هذه ، ودخول سيدنا ابراهيم ، صلوات الله وسلامه عليه ، أرض الكنانة ، فضلا عن دخول بنى اسرائيل — بقيادة يعقوب عليه السلام — اليها[18] ، والرأى عندى أن مجموعة أبشاى هذه ، لا تتصل من قريب أو بعيد ، بابراهيم الخليل ، أو حفيده يعقوب، ذلك أن الخليل عليه السلام[19] ، انما قد ولد فى العراق حوالى عام ١٩٤٠ ق٠م ، وأنه هاجر الى كنعان ، حوالى عام ١٧٦٥ ق٠م ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، حيث بقى هناك حينا من الدهر ، ثم رحل الى أرض النيل الطيبة ، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ، أو بسبب نشر دعوته ، وهذا ما نميل اليه ونرجحه ، ثم عاد الى فلسطين ، وتزوج من السيدة هاجر المصرية ، وأنجب منها ولده اسماعيل عليه السلام ، حوالى عام ١٨٥٤ ق٠م ، وهو فى السادسة والثمانين من عمره ، فاذا كان ذلك كذلك ، فان دخول ابراهيم مصر ، انما كان فيما بين عامى ١٨٦٥/١٨٥٤ ق٠م ، وهى فترة تقع فى عهد ((سنوسرت الثالث)) (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق٠م) .

وأما حفيده يعقوب فقد عاش فى الفترة (١٧٨٠ — ١٦٣٣ ق٠م) ، وهكذا نستطيع القول أن أبا الانبياء — ابراهيم الخليل عليه السلام —

---

(١٧) جيمس بيكى : الاثار المصرية فى وادى النيل ٧٢/٢ — ٧٣ .
عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٠ .
وكذا W. C. Hayes, A Papyrus of The Late Middle Kingdom in The Brooklyn Museum, 1955, p. 87-99, 133-134.
وكذا P. E. Newberry, Beni-Hassan, I, London, 1893, Pls. 28-31.
وكذا A. Erman and H. Rake, la Civilisation Egyptienne, p. 689.
(١٨) انظر : Vergote, Joesph en Egypt, Paris, 1969, p. 16.
(١٩) سنتعرض لقصة سيدنا ابراهيم عليه السلام بالتفصيل بعد آخر هذا الفصل ، حيث سنفرد لها فصلا خاصا بها ، وان كان موجزا .

قد أتى الى مصر على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق٠م)، وربما فى عصر «سنوسرت الثالث» (١٨٧٨ — ١٨٤٣ ق٠م) ، وأن الاسرائيليين قد دخلوا مصر — بزعامة يعقوب — على أيام الهكسوس (١٧٢٥ — ١٥٧٥ ق٠م)[٢٠] ٠

وأيا ما كان الامر ، ففى عهد «سنوسرت الثالث» ارتحل الملك نفسه للقضاء على الاسيويين ، ووصل الى اقليم «سكمم» الذى يرى فيه بعض الباحثين ناحية «شششم» فى منطقة السامرية الجبلية[٢١] ، ولعل السبب فى هذه الحملة انما كان اغارة بعض القبائل الاسيوية ، وربما بدو الصحراء المتاخمين لفلسطين ، اغارة مفاجئة على مصر ، فوجه اليهم هذه الحملة التى كسرت شوكتهم ٠

وعلى أى حال ، فلقد عثر فى «مجدو» — وهى تل المتسلم الحالية، الى الغرب قليلا من بحيرة طبرية ، وعلى مبعدة ٢٠ ميلا جنوب شرق حيفا[٢٢] — على ختم أحد مسجلى المواشى ، وعلى تمثال لامير الاشمونين «تحوت حتب الثانى» ، فى عهد سنوسرت الثالث ، ومن ناحية أخرى ، فلقد عثر فى مقبرة أمير الاشمونين نفسه ، فى مصر ، على صورة ماشية واردة من فلسطين[٢٣] ، كما عثر فى بيروت على تمثال صغير لابى الهول وقلادة للملك أمنمحات الرابع (١٧٩٨ — ١٧٩٠ ق٠ م)[٢٤] ، وأما أقصى الاماكن الى الشمال التى عثر فيها على مثل

---

(٢٠) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن هذا الموضوع فى الجزء السابع من كتابه «دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم» (انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل — الكتاب الاول — التاريخ — الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٥٠ — ٢٥٩) ٠

(٢١) J. H. Breasted, op. cit., p. 302.

(٢٢) قاموس الكتاب المقدس ٢/٨٤٠ — ٨٤١ ، وكذا M. F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 709-710.

(٢٣) W. S. Smith, Interconnection in The Ancient Near East, London, 1965, p. 14.

(٢٤) محمد بيومى مهران : اخناتون ص ٤ — ٥ جان يويوت : المرجع السابق ص ٩٨ — ٩٩ ٠

هذه الاشياء فهى «أنخانا» التى لا تبعد كثيرا عن منصب الاورنت[٢٥] .

ولعل كثرة الآثار المصرية فى آسيا من تلك الفترة ، انما هى التى دفعت أثريا محنكا مثل «سير ليونارد وولى» (١٨٨٠ — ١٩٦٠) الى أن يؤكد أنه لابد من أن هناك حملات أكيدة قد تمت فى ذلك العصر ، حتى نلتقى بمثل هذا العدد الذى عثر عليه من الاشياء التى تنتمى الى الاسرة الثانية عشرة[٢٦] .

هذا وقد اهتم أمنمحات الثالث كثيرا بأعمال التعدين لاستخراج الفيروز والنحاس من مناجم سيناء ، وقد أحصى له هناك ما لا يقل عن ٥٩ نقشا (٤٩ فى سرابيط الخادم ، ١٠ فى وادى مغارة ووادى ناصب)[٢٧] ، وقد رتبت النقوش من السنة الثانية وحتى السنة الخامسة والاربعين ، وهى تضم أسماء رؤساء العمال الذين كانوا يشرفون على آبار التعدين ، وموظفى الخزانة الذين كانوا يفتشون على المناجم ، ويوازنون بين الانتاج واحتياجات الدولة .

وقد حولت المواقع القديمة الى محطات ثابتة ، وزودت بمنازل للموظفين وأكواخ للعمال ، وآبار ومستودعات للمياه ، فضلا عن حصون لصد هجمات البدو ، الى جانب قبور لاولئك الذين يتوفون فى تلك الصحراوات البعيدة عن وادى النيل ، وأخيرا فلقد اهتم الفرعون بمعبد الالهة حاتحور ، راعية المنطقة ، وربة الفيروز ، فوسع معبدها بدرجة كبيرة[٢٨] .

---

(٢٥) B. Porter and R.L.B. Moss, op. cit., VII, p. 395.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 132-133.
(٢٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 132.
وكذا Sir Loenard Woolley, PM; p. 386.
(٢٧) A. H. Gardiner, T. E. Peet and J. Cerny, The Inscriptions of Sinai, I, London, 1952, p. 15 F.
وكذا G. Posener, Litterature et Politique dans l'Egypte de la XIIe Dynastie, Paris, 1956, p. 131-132.
(٢٨) عبد الحميد زايد : مصر الخالدة ص ٢٩٩ .

واتسعت صلات مصر التجارية والثقافية بمناطق سورية ، وقد عثر فى مقابر أمراء جبيل وأوجاريت على آثار مصرية وصلتهم على هيئة هدايا من أمنمحات الثالث والرابع[٢٩] ، وهناك ما يشير الى أن الرغبة فى استمرار العلاقات الودية بين مصر وسورية ، انما كانت رغبة مشتركة من الطرفين ، فمصر انما كانت تبغى فتح أسواق لتصريف منتجاتها ، واستيراد الاخشاب والزيوت من لبنان ، وأن تستورد ماكان يتجمع فى موانيها من منتجات شرق البحر الابيض المتوسط من فضة وزيوت ومعادن وأحجار كريمة ، وأن تستورد ما كان يتجمع فى أسواقها الداخلية من منتجات بلاد النهرين وايران والاناضول وبلاد العرب ، وأخيرا فانها انما كانت حريصة على قوة صلتها بفلسطين باعتبارها العصب الرئيسى لتجارتها البرية مع ما ورائها من بلاد الشام .

والامر كذلك بالنسبة الى الدويلات الصغيرة فى فلسطين وسورية وفينيقيا التى وجدت فى مصر خير عميل للتبادل التجارى الواسع ، ومصدرا رئيسيا للتبادل الحضارى ، وكان يعنيها أن تظل علاقاتها بمصر القوية المتحضرة الغنية ، لولا مشاكل الحدود التى كانت تنشب بين الحاميات المصرية وبين بدو الصحراء الفلسطينية ، ولم تأب مصر من ناحيتها أن تفتح مجالات العمل أمام رجال جنوب سورية فى مناجم الفيروز فى سيناء ، بل انها لم تأب أن تفتح أمام الراغبين منهم فى الاستقرار فيها باب الوظائف فى العاصمة المصرية نفسها[٣٠] .

(٢) فى الغـــرب

لم يقتصر نشاط أمنمحات الاول على الاهتمام بحدوده الشرقية ، وانما اهتم كذلك بحدوده الغربية ، ومن ثم نراه يقوم ببناء سلسلة حصون على حدود الدلتا الغربية ، كما فى واحة النطرون ، وربما

---

(٢٩) B. Porter and R. L. B. Moss, op. cit., 7, p. 386.
وكذا J. A. Wilson, AJSL, 8, 1941, p. 235.

(٣٠) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

الخارجــة كذلك ، ومازالت بقايا الاولى قــائمة حتى الان فى وادى النطرون ، وبداخلها معبد له بوابة من الجرانيت عليها اسمه(٣١) .

وهناك فى قصة سنوهى ما يشير الى أن أمنمحات الاول انما قــد أرسل حمــلة فى أخريات عهــده ــ تحت قيــادة ولى عهده الامــير سنوسرت ــ لتأديب الثائرين فى الصحراء الغربية ، حيث نقرأ «أرسل جلالته جيشا الى التحنو (الليبيين) بقيادة ولده البكر ، الاله الطيب ، سنوسرت ، ليضرب البلاد الاجنبية ، وليأسر سكان أرض تحنو ، وكان فى طريق العودة ، ومعه أسرى أحياء من التحنو ، وكل أنواع الماشية التي لا تحصى»(٣٢) .

وتابع سنوسرت الاول سياسة أبيه فى مراقبة الليبيين ، وهى نفس السياسة التى تابعه فيها خلفاؤه ، حتى لنرى لقبا جديدا يظهر فى هذه الفترة ، هو «مراقب الصحراء الغربية»،والذى حمله كبار الموظفين(٣٣)، وهناك ما يشير الى قيام تجريدة على أيام سنوسرت الاول الى الواحات الغربية ، وقد قامت هذه التجريدة من طيبة ، ويحدثنا أحد قــوادها بقوله : «لقد وصلت الى الواحات الغربية ، وكشفت عن الطرق المؤدية الى المتمردين ، وأسرت الذين وجدتهم هناك وبقى جيشى سالما ، وبدون خســائر» .

وأما الليبيون فقد أخــلدوا الى السكينة بعد الحمــلة التى قادها الفرعون ــ على أيام أبيه ــ ضدهم ، ومن ثم فلم نجد اشــارة الى التمحو فى النصوص التى ترجع الى أيام «سنوسرت الاول» ، وان كان الملك قد داوم على الاتصال بالواحات ، ومن ثم فقد ذهبت رسله الى

---

(٣١) A. Fakhry; Wadi El-Natrun, ASAE, XL, p. 837-848.

(٣٢) J. A. Wilson, The Libyans and The End of The Egyptian Empire, AJSL, LI, 1935, p. 74.

(٣٣) محمد بيومى مهران : مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث الاسكندرية ١٩٦٩ ص ١١٧ .

الواحة الخارجية عن طريق أبيدوس[٣٤] .

(٣) في الجنـــــوب

كانت مصر في القرن التاسع عشر قبل الميلاد من أقوى دول الشرق الادنى القديم ، ان لم تكن أقواها جميعا — ذلك لان منطقـــة النوبة السفلى ، انما كانت تحتلها القـــوات المصرية ، بعد أن تم اخضاعها اخضاعا تاما للنفوذ المصرى ، وبعد أن بنى فيها من الحصون ما بلغ عدده سبعة عشر حصنا ، بل ان مصر كانت قد دفعت بحدودها الجنوبية حتى كرما ، جنوب الجندل الثالث[٣٥] .

(أ) في عهد امنمحات الاول وولده سنوسرت الاول :

هذا وقد تابع أمنمحات الاول سياسة أسلافه في الاهتمام بالجنوب، وقد امتد نشاطه الحضارى ، فضلا عن الاشراف السياسى ، فى بلاد النوبة حتى كورسكو (جنوبى دنقلة) ، ورغم أن هناك من يذهب الى أن المركز التجارى فى كرما انما قد أنشىء فى عهد الدولة القديمة ، فمن المرجح أنه قد أنشىء فى عهد أمنمحات الاول حتى أطلقت النصوص على أسوارها «أسوار أمنمحات المبجل»[٣٦] ، وهو حصن كبير مبنى بالطوب على هيئة حوش كبير ، ذى جدران ضخمة عالية تستطيع صد أية غارة من الصحراء ، وتجعل جاليتها التجارية تعيش فى أمن وأمان وقد كان لهذا المركز من الاهمية ما جعل فرعون يولى عليه أحد كبـــار موظفيه ، ومن أشهرهم «حعبى زفاى» وهو أحد أمراء أسيوط[٣٧] .

---

(٣٤) ZAS, 42, 1905, p. 124-128.
وكذا G. Posener, op. cit., p. 53, 104.
وكذا J. Vercoutter, The Near East, The Early Civilization, London, 1967, p. 368.

(٣٦) G. Reisner, Excavations at Kerma, I, p. 30.
وكذا T. Save-Soderbergh, op. cit., p. 107-108.
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, Chicago, 1906, Parag. 472-473, p. 228.

(٣٧) J. A. Wilson, op. cit., p. 159.

هذا وينسب الى أمنمحات الاول كذلك اقامة حصن فى « سمنة » ، جنوبى الشلال الثانى ، فضلا عن حصن آخر فى «بوهن» ، أقـامه سنوسرت الاول فى العام الخامس والعشرين من حكم أبيه ، وفى العام التاسع والعشرين أرسلت حملة الى النوبة ـ وطبقا لنص كروسكو ، فقد أخضعت النوبة السفلى (واوات) للسيادة المصرية ، تحسبا لمعـارك حـربية أكثر خطورة مع كوش ، ويذهب «والتر ايمـرى» (١٩٠٣ ـ ١٩٧١) الى أن الحملة المصرية انما كانت تهدف الى أمرين ، الواحد فرض السيادة المصرية على المنطقة التى تقع فيما بين الجندل الاول والثانى ، فضلا عن استغلال ثروة المناجم ، وبعض المحاصيل الجنوبية الاخرى ، والاخر : ابقاء النوبة السفلى ، كمنطقـة حاجزة بين مصر وكوش[٣٨] •

وقد أبدى «سنوسرت الاول» همة ملحوظة فيما يتصل بالنوبة ، وسار بنفسه مستهدفا ارساء قواعد ثابتة للحكم المصرى فى الجنوب ، حتى ذهب بعض العلماء الى أن ينظر اليه وكأنما هو أول من اتبـع سياسة حاسمة نحو النوبة ، فقد مد الحدود المصرية حتى وادى حلفا، على الاقل ، كمـا ينسب اليه تشييد ما لا يقـل عن ثلاثة قـلاع فى هـذه الجهات •

وعلى أى حال ، فلقد ظهر فى النصوص المصرية ـ ولاول مرة ـ الاسم الجغـرافى «كاش» ، والذى حرف فيما بعـد الى «كوش» ، ويعنى فى الدولة الحديثة اقليما اداريا متميزا عن «واوات» يمتد الى الجنوب وراء الجندل الثانى ، بينما يقصد به فى التوراه « أثيوبيا » عامة ، وذلك مقابل تسمية النوبة السفلى «واوات» وتمتد فيمـا بين الجندل الاول والثانى •

---

(٣٨) والتر ايمرى : مصر وبلاد النوبة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٤٥ ـ ١٤٦ ، وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 362.

هذا وقد بدأت العملية الحربية المهمة فى عهد سنوسرت الأول بعد تسع سنوات من تهدئة «واوات» ، وكانت وادى حلفا قد أصبحت فى عهد سنوسرت الاول فى قبضة المصريين ، واحلوا بها حامية مصرية ، ومن ثم فقد أصبح الفرعون فى وضع يمكنه من تشييد سلسلة من الحصون ، أصبحت فيما بعد أعظم الموانع الحربية التى صنعتها أيد بشرية فى العالم القديم ، هذا وقد عثر فى بوهن على نقش يمثل الملك واقفا أمام اله الحرب مونتو ، وهو يخاطبه بقوله : «لقد أحضرت لك كل بلاد النوبة تحت قدميك أيها الاله الطيب» ، هذا الى جانب منظر لرأس أسير وأكتافه ، فوق سياج بيضاوى يتوسطه اسم مركز أو مدينة مغلوبة ، كما عثر كذلك على أسماء عشرة مناطق تم اخضاعها ، فى منطقة الجندل الثانى(٣٩) .

وهناك نقش آخر فى مقبرة «امينى» أمير بنى حسن ، يقول فيه : «لقد تبعت سيدى عندما أبحر جنوبا لطرد أعدائه ... كابن حاكم قليم ، وواحد من الاشراف وكقائد للجيش ، وعظيم اقليم الوعل ، وكابن يمثل والده العجوز الذى يتمتع بالحظوة عند الملك ، وحب البلاط له ، وفى أثناء ابحارى جنوبا ، مررت فى كوش ووصلت الى حدود الدنيا ، وأحضرت الجزية ، وقد وصل مديحى الى السماء ، ثم رجع مولاى سالما ، بعد أن طرد أعداءه فى كوش الخسيسة ، ورجعت معه ، دون خسارة فى جنودى»(٤٠) .

وهكذا أصبحت منطقة الجندل الثالث بعد هذا النصر تحت رقابة المصريين ، وبدأ سنوسرت فى تشييد حصون وقلاع بقيت لسنين عديدة السد المانع الذى حد من قوة كوش ، وبعد أن اختار مهندسو سنوسرت

---

(٣٩) J. H. Breasted, The Wadi Helfa Stela of Senwosrt, I, in PSBA, 23, 1901, p. 230-235.

كذا T. Save-Soderbergh, Aegypten und Nubien, Lund, 1941, p. 69-70, 88, 92, 98.

(٤٠) J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 515-523, p. 250-263.

العسكريين البعد الطبيعى فى منطقة الجندل الثانى والمعروفة باسم «بطن الحجر» ، وأقاموا مجموعة من الحصون على شاطىء النهر على مقربة من بعضها ، وقد عثر على معظم معالم هذه الحصون ، وقد دل الفحص على أنها شيدت كلها فى وقت واحد تقريبا ؛ وأنها بنيت على طراز واحد ، كجزء من فكرة حربية واحدة ، ويبدو أن معظمها قد بدأ فى عصر سنوسرت الاول[41] .

هذا وقد عين سنوسرت الاول بعد انتصاره على النوبة «سرنبوت» أمير اليفانتين (جزيرة أسوان) حاكما على أملاكه الجديدة هناك ، ويصف «سرنبوت» نفسه فى مقبرته بأسوان بأنه «الامير الوراثى ، الحاكم ، نبيل الملك وسميره الوحيد والمشرف على كهانة ساتت فى اليفانتين ، مراقب النوبة الاكبر ، والمشرف على كل الاراضى الاجنبية ، الحاكم سرنبوت» .

وهكذا كان «سرنبوت» أول وال يحكم النوبة من قبل فرعون ؛ وذلك قبل عصر الدولة الحديثة بمئات السنين ، عندما أصبح حاكم النوبة المصرى يدعى «ابن الملك فى كوش» ، ربما منذ أيام تحوتمس الاول (١٥٢٨ — ١٥١٠ ق.م) ، وعلى أى حال ، فلقد أدت جهود سنوسرت الاول فى النوبة الى أن أصبحت الاحوال عادية هناك طوال عهدى «أمنمحات الثانى» و «سنوسرت الثانى» .

هذا وقد عين سنوسرت الاول كذلك حكاما مصريين للمدن الكبيرة فى النوبة ، وخاصة «كرما» جنوب الشلال الثالث ، والتى كانت تعتبر الحد الشمالى للمناطق الزراعية فى الجنوب ، كما كانت تعتبر كذلك سوقا رئيسيا لتجارة القوافل التى تخرج منها غربا الى واحد سليمة ثم تتجه الى درب الاربعين ، أو تتجه منها شمالا حتى الشلال الثانى[42] .

---

(٤١) والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٤٧ .
(٤٢) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٧٧ ، والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٦٠ — ١٦١ ، محمد بيومى مهران : اخناتون ص ١٤ — ١٥ .
=

ولعل أشهر ولاة سنوسرت الاول على كرما انما كان «حعبى زفاى» (زفاى حعبى) ، والذى كان يحمل ألقاب «الرئيس الاعلى للجنوب ورئيس زعماء الجنوب» ، وكان الرجل فخورا بنفسه ، ومن ثم فانه يروى فى نقوشه ، أن علماء الدنيا كانوا يقدرون سياسته ، وأنه كان نجما هاديا لامثاله ، ومرشدا لمن هم أكبر منه ، ثابت الفؤاد ، يخمن الامور المستقبلية ، ويتنبأ بما فى الصدور ، فصيح اللسان لبق الكلام ، اهتدى بعقله الى سبيل الحسنى ، وعرف دائما كيف يقدر خطورتها(٤٣).

هذا وكان «حعبى زفاى» قد أعد لنفسه مقبرة فخمة فى موطنه الاصلى بأسيوط وتتكون من سبع حجرات ، ويبلغ عمقها ٤٥ قدما وتشتهر بنقوشها التى توضح تفاصيل الاعمال والطقوس الكهنوتية التى كان يريد أن يقوم الكهنة بها بعد موته ، وقد أوقف عليها الكثير من الاراضى والعبيد والماشية ، ولكن الاقدار لم تكتب له أن يدفن فيها ، وانما دفن فى كرما ، تحت ركمة من التراب ، يحيط بها حوش دائرى ضخم ، مبنى من الطوب قطره ٢٧٥ قدما ، وعلى طريقة النوبيين(٤٤).

ويروى الدكتور «جورج رايزنر» (١٨٦٧ — ١٩٤٢) الذى كشف عن مقبرة «حعبى زفاى» فى كرما فى عام ١٩١٤/١٩١٥م(٤٥) ، فيقول : «أقيمت مأدبة جنازية فخمة ، ذبحوا فيها أكثر من ألف ثور ، دفنوا

وكذا G. Reisner, Excavations at Kerma, Harvard African Studies, Cambridge, 1923, p. 5-6.

(٤٣) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ١٧٧ — ١٧٨ .

(٤٤) J. H. Breasted, ARE, I, 19/6, p. 285-260.

وكذا JEA, 5, 1918, p. 79-98.

وكذا P. Montet, Kemi, I, 1923, p. 53.

وكذا A. Weigall, op. cit., p. 73.

وكذا J. H. Breasted, The Development of Religion and Thought in Ancient Egypt, London, 1912, p. 259.

(٤٥) J. A. Wilson, op. cit., p. 139-140.

وكذا G. A. Reisner, in Bulletin of The Museum of Fine Arts, Boston, XIII, 1915, p. 72.

رؤوسها حول النصف الجنوبى للدائرة من الخارج ، ثم وضعو الامير فى الحجرة المقببة ، والى جانبه القرابين المقدمة ، ثم أقفلو الخشبى ؛ وأما الضحايا فكانوا جميعا من النوبيين ، وكانوا يخدرونهم أثناء الحفلة باعطائهم منوما ، أو كانوا يخنقونهم يحملونهم ليضعوهم فوق أرضية الدهليز ، وكان عددهم يتراوح مائتين وثلاثمائة ، من الرجال والنساء والاطفال ، ثم وضعو بضع أوان وقدور ، وأحيانا نجد سيفا الى جانب صاحبه ، فضـ حليهم الشخصية أحيانا ، ثم ملأوا الدهليز بعد ذلك بالتراب ، شكله شبيها بتل قليل الارتفاع ، مقبى السطح ، وغطوا أعلاه ، من الطوب اللبن ، ثم وضعوا فوق القمة هريما من الحجر الكو ثم بنوا حجرة من الطوب اللبن حول ذلك الحجر» .

وفى الواقع أن عادة التضحية البشرية بالاتباع والخدم انه أمرا شائعا فى كثير من حضارات الشرق القديم[٤٦]،وأن «حعبى لم يأت أمرا ادا فى السودان ، اذ كانت تلك عادة القوم هناك ، ؛ كنا نرجو أن يعمل الامير المصرى على القضاء على هذه العادة الـ المنتشرة فى النوبة العليا ، والتى كانت قد انتهت فى مصر منذ ما قبل التاريخ ، أو على الاقل منذ عصر التأسيس[٤٧] ، وأن يند السودان الحضارة المصرية الراقية ، وأن يمتنع عن عادات ا الهمجية ، غير أن ما نرجوه شيء ، وماحدث هناك شيء آخر[٤٨]

وعلى أى حال ، فهناك من عهد أمنمحات الثانى ، موظف

---

(٤٦) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن « التضحية البشرية» (: د بيومى مهران : اسرائيل ـ الكتاب الاول ـ التاريخ ص ١٦٢ ـ ١٧٤

(٤٧) أنظر : Reisner, The Development of The Egyptian , London, 1936, p. 128.

وكذا F. Petrie, Tombs of The Courties and Oxyrhynkhes, ı, 1925, p. 3.

(٤٨) أنظر : محمد بيومى مهران الثورة الاجتماعية الاولى فى الفرعونية ـ الاسكندرية ١٩٦٦ ص ٢٠٩ ـ ٢١١ .

«سى حاتحور» يشغل منصب مساعد خزائن فرعون ، وقد سجل على لوحته الجنازية فى أبيدوس قوله : «لقد زرت أراضى المناجم فى صباى، وأجبرت النوبيين على أن يغسلوا الذهب ، وأحضرت الملاخيت ووصلت الى النوبة التى تتبع الزنوج ، وقد ذهبت محاربا مع سيد الارضين ، وجئت الى «الحيح» (ربما حح = سمنة) ، وقـد تجولت فى جزرها ، وأحضرت منتجاتها» .

هذا وتسجل كذلك لوحة «حابو» الصخرية فى أسوان ، أنه فى السنة الثالثة من حكم سنوسرت الثانى ، قد زار النوبة ليتفقد حصن واوات، مما يشير الى أن المنطقة التى غزيت فى عهد سنوسرت الاول انما قد خضعت لنظام جمع المحاصيل التى تنتجها النوبة ، وأن الحيـاة هناك قد سارت على أيام أمنمحات الثانى وسنوسرت الثانى سيرا هـادئا ومنظما ، وان النوبة كانت تنعم فى عهديهما بفترة سلام[٤٩] .

(ب) فى عهد سنوسرت الثالث :

كانت عواقب سياسة السلام التى نهجتها مصر فى عهد سلفيه سببا فى دفع القبائل النوبية الى القيام بمحـاولات للتخلص من الحـكم المصرى ، هذا فضلا عن أن هجرات المجموعة الثالثة التى بدأت بوادرها منذ أيام سنوسرت الاول ، انما تقدمت نحو النوبة ، محاولة السيطرة على طرق القوافل بين النوبة ومصر ، حتى خشى ملوك الدولة الوسطى أن تتوغل فى الاراضى المصرية نفسها .

ومن هنا فقد بدأ سنوسرت الثالث يحول كل اهتمامه نحو النوبة ، تلك البلاد التى أصبحت فى عهد الدولة الوسطى خيرة البلاد التى تنتج الذهب ، هذا الى جانب أشياء أخرى كان يتم الحصول عليها عن طريق المقايضة مع المواطنين ، وبخاصة المدجاوى (المجاى = المدجايو) من وراء حدود الجنـدل الثانى ، وانه لمن الواضح ، على أية حـال ، أن

---

(٤٩) والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٦١ .

الغزو من الجنوب كان مصدر خـوف دائم ، وأنه رغم الحملات إلى النوبة السفلى والصحراء المجاورة أصبحت الآن كثـيرة ، فانها كانت دائما تتسم بشئ من المغامرة[٥٠] .

وهناك بردية عثر عليهـا «الدوارد كوبيل» عـام ١٨٩٦م فى مقبرة أسفل معبد الرمسيوم فى طيبة الغربية ، تقدم قائمة فيها ثلاث عشرة قلعة بين أسوان وسمنة[٥١] ، ومعظم هذه القلاع أمكن التعرف عليها

(٥٠) Sir Alan H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, Oxford, 1964, p. 133.

(٥١) هذه القـلاع أو الحصون هى (١) الحصن المعروف باسم «القامع ... (وبقية الاسم ضائع) ، ويقع على مبعدة كيلو متر ، جنوبى سمنة على الضفة الغربية للنيل ، وتدل بقاياه على أنه من الدولة الوسطى ، ومعاصر للحصون الاخرى فى المنطقة (٢) حصن «خع كاورع ــ المبجل قوى» وهو حصن سمنة على الضفة الغربية ، فى مقابل حصن قمة على الضفة الشرقية ، حيث يكون النيل فى أضيق مجرى له ، بين جبل من الصخر ، ويشير اسمه الى أنه بنى فى عصر سنوسرت الثالث ، ولكن الحفريات تثبت أن النصف الشرقى منه شيد على أيام سنوسرت الاول (٣) حصن قمة ، ويعرف باسم «رادع الاقواس» ، وتصميمه العام مربع ، كما أنه أصغر بكثير من الحصن الذى يواجهه عند الجندل ، ومع أن تصميمه أبسط ، الا أنه يبدو من العصر نفسه ، وأنه يكون وحدة دفاعية واحدة مع سمنة (٤) حصن أورونارتى («القلعة التى تصد الاينو ، أو التى تطرد القبائل») ، وهـو عند قرية الملك الحالية ، وهناك لوحة عثر عليها ١٨٩٩م فى المنطقة ، تسجل أن «سنوسرت الثالث» هو الذى قام ببنـاء الحصن ، وأن كان بناؤه يشير الى أنه صمم وبدئ فى بنـائه فى عهـد «سنوسرت الاول» (٥) حصن سرس وكان يسمى «قامع البلاد» ويعرف باسم «شالفاك» ، ويشبه حصن «أورونارتى» ، ولكنه أصغر منه حجما (٦) حصن ميرجيسا ، والمعروف باسم «الذى يكبح الصحراوات» ، ويبدو أن هذا الاسم انما كان يطلق على حصنى «ميرجيسا» و «دبنرتى» اللذين يظهران كما لو كانا وحدة واحدة ، والحصن الاكبر منهما هو «حصن ميرجيسا» ، ويقع على الضفة الغربية ، وأما حصن «دبنرتى» فهو الاصغر ، وقد بنى على جزيرة أمام ميرجيسا تقريبا ، وعلى مسافة قريبة منه (٧) حصن أيكن ، ويقع جنوبى بوهن ، ويمكن أن يشبه بحصن كبير طوله ٩٠٠ مترا ويحيط بمدينة على الضفة الغربية أمام جزيرة «مايانرتى» ، عند قمة الجندل الثانى (٨) حصن بوهن وهو على الضفة الغربية أمام وادى حلفا ، وهـو أكبر حصون النوبة العليا والمركز القيادى لتنظيم حاميات الحصون الاخرى ، ومركز نائب الملك الذى كان يحكم النوبة فى الدولة الوسطى ، ويتكون من التحصينات الحربية على شكل شبه مربع (١٧٣ × ١٦٢ مترا) ، ويحيط =

وعلى تخطيطها ، أما تلك التى تقع الى شمال وادى حلفا ، فمقامة على الارض السهلة ، ومن الواضح أن المقصود بها أن تكون نقط مراقبة يقظة على المواطنين .

وهناك على الاقل سبع قلاع واقعة فى الرقعة التى تمتد على مدى أربعين ميلا من الجندل الثانى،معظمها فوق روابى،وعدد منها فوق الجزر، وقد صممت بغير شك لتكون مواقع دفاعية ، كما يتضح من أسمائها «التى تطرد القبائل» (التى تصد الاينو) ، و «التى تكبح الصحراوات» (التى تخضع سكان الواحات) ، وهى منشآت ضخمة لها جدران

= بالمدينة المكونة من مساكن وثكنات الجيش ومصانع ومعبد وقصر الحاكم وقد أظهرت الحقائق تخطيطا لمدينة مستطيلة ، ذات طرق معبدة ، وذات نظام للصرف والمجارى ، ومن الناحية المواجهة للنهر وجدت بوابتين كبيرتين فى الجدران ، توصلان الى رصيف من الحجارة لرسو سفن الجزى والمحاصيل التجارية من النوبة ، وكل ذلك يشير الى رخاء وغنى ومستوى معيشى مرتفع (٩ ـ ١٠) ، وهما الحصنان الواقعان بين وادى حلفا وعنيبه ، وفى قرية «فرس» (باخورس القديمة) ، على مبعدة ٢٥ ميلا شمال الجندل الثانى ، وعند الحدود المصرية السودانية الحالية ، كشف «جريفث» عام ١٩٢١م مبان من الدولة الوسطى (١١) حصن ميعام (عنيبة) ، ويرجع الى أيام سنوسرت الاول (١٢) حصن كوبان (باكى) ، على الضفة الشرقية ، وقد عثر على حصن آخر من نفس الطراز على الضفة الغربية للنيل عند «اكور» على مبعدة بضعة أميال شمال كوبان والحصنان (باكى واكور) لم يكونا معسكرين ، وانما كانا محطة تجارية ، ومقرا لابعثات الى مناجم الذهب فى وادى العلاقى ، فضلا عن توفير الحراسة لصد أى هجوم لاية قوة تأخذ طريق وادى العلاقى ، عبر الصحراء من أبو حمد ، بغية أن تتحاشى حصون الحدود الجنوبية عبر النهر ، (١٣) حصن سنموت ، ويقع على الشاطىء الشرقى للنيل عند جزيرة بيجة (١٤) قلعة أبو (اليفانتين = جزيرة أسوان) عند الجندل الاول وقد جاء ذكرها على أيام سنوسرت الثالث ، طبقا لرواية «رخمى رع» وزير تحوتمس الثالث أنظر : والتر ايمرى : مصر وبلاد النوبة ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ١٤٧ ـ ١٥٧ وكذا W. B. Emery, Preliminary Reports on The Excavations of The Egypt Exploration Society at Bohn, Kush, 7, 1959, 8, 1960, 9. 1961, 10, 1962.

وكذا G. A. Reisner, Excavtions at Semna and Uronarti by The Harvard-Boston Expedition, in Sudan Notes and Records, 12, 1929, p. 141-161.

سميكة من اللبن ، تدور حول مسافة تكفى لايواء العديد من الموظفين والكتاب ، وكذا الحاميات اللازمة •

وكان يبلغ ارتفاع كل قلعة أو حصن منها ، فيما بين عشرة أمتار ، واثنى عشر مترا ، ويبلغ سمكها ما يتراوح بين أربعـة أمتار ، وستة أمتار ، وأحاطت به الابراج ، وتضم فى مداخله مساكن الجنـد ومعبدا صغيرا ، لاداء الشعائر الدينية للالهة وبعض الالهة النوبية •

ولسنا نعرف ، على وجه اليقين ، التاريخ الصحيح لبنائها ، وان كنا نعرف أن الفرعون الذى بذل جهدا ونشاطا جما ، ليؤكد سلطانه فى هذه الناحية هو «سنوسرت الثالث» فهو الذى منح اسمه « قـوى هو الملك خع كاورع» لقلعة «سمنة» فى الطرف الجنوبى للجندل الثانى ، مقابل قلعة قمة على الضفـة الشرقية ، وأسهمت القلعتان فى حراسة الممرات البرية والنهرية •

ولدينا كلمة «سنوسرت الثالث» بنفسه ، من أنه حدد هنا حدوده الجنوبية ، وفى اللوحة الكبرى التى ألقى بها ضوءا من ادراكه ، نراه يقول : «ان أيا من ولدى يستطيع أن يحمى الحدود التى أقرها جلالتى، فهو ولدى من صلبى ، وانه لمثل صادق لذلك الابن الذى يحمى أباه ، ويذود عن حدوده ، فأما من قعد عن ذلك ولم يذد عن حدودى ، فذلك ليس من ولدى لاننى لم ألده ، وهذا تمثالى أقمته لكم على الحدود عله أن ينهضكم فذودوا عنه»(٥٢) •

وأمر«سنوسرت» الثالث فىالعام الثامن من حكمه ـــ حيث أبحر جنوبا «ليهزم كوش الشريرة» ـــ بحفر قناة جديدة ، على مقربة من جزيرة سهيل ـــ على مبعدة ثلاثة كيلو مترات جنوبى أسوان ـــ لخدمة سفنه ،

وقد عرفت هذه القناة باسم «جميلة طرق خع كاو رع» (أى سنوسرت

---

(٥٢) F. Daummas, op. cit., p. 80-81.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., p. 293.

الثالث) ، واستعملتها أساطيل الفراعين لمئات من السنين ، أثناء حروبهم المتقطعة مع كوش ، ويمكن اعتبارها من أكبر الاعمال التى قام بها هذا الملك العظيم ، وأما مقاييس هذه القناة ، فهى ٢٥٠ قدما طولا ، ٣٤ قدما عرضا ، ٢٥ قدما عمقا(٥٣) .

وهناك نقش فى سمنة يؤرخ بالعام الثامن من حكم سنوسرت الثالث ، يبين الاجراءات المشددة التى اتخذت لمنع النوبيين من التسرب شمالا ، «الحد الجنوبى الذى أقيم فى العام الثامن من حكم ملك مصر العليا والسفلى «خع كاورع» سنوسرت (الثالث) ، الذى يعطى الحياة أبدا ، لمنع أى زنجى(٥٤) (نوبى) من المرور شمالا ، برا أو بقارب ، وكذا أى قطعان من ماشية النوبيين ، ماعدا أولئك الذين يأتون للتجارة فى «ايكن» (جنوب بوهن) ، أو لعمل مشروع يتفق عليه معه ، فسوف يقدم لهم كل شيء طيب ، على ألا يسمح لاية سفينة بأن تعبر «حح» (سمنة) نحو الشمال»(٥٥) .

هذا وقد نفذت هذه السياسة بحزم ، كما تشير الى ذلك الرسائل التى بعث بها من سمنة الى العاصمة الطيبية منذ أوائل عهد الاسرة الثانية عشرة ، والتى تبين أنه ، حتى التحركات التافهة لجماعات المجاى ، كان يتم التبليغ عنها ، وتنتهى معظم الرسائل اليومية بالصيغة التقليدية «كل الامور فى أملاك الملك فى أمن وسلام ، وكل شئون المولى آمنة سليمة»(٥٦) .

---

(٥٣) والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٦٢ .
وكذا J. H. Breasted, ARE, I, 1906, Parag. 642-643.
(٥٤) ان الاشارة الى أعداء مصر بالزنجى اشارة مضللة ، لان أهل كوش لم يكونوا زنوجا بمعنى الكلمة التى نعنيها فى عصرنا الحالى ، وقد استعمل المصريون القدامى كلمتى «زنجى» و «نحسى» لكل قاتمى اللون ، القادمين من الجنوب ، مهما كانت اجناسهم .
(٥٥) A. H. Gardiner, op. cit., p. 135.
وكذا J. H. Breasted, op. cit., Parag. 652, p. 293.
(٥٦) A. H. Gardiner, op. cit., p. 135-136.

وأخيرا فلقد عثر فى نواحى دهشور على بعض حلى لاحدى بنات «سنوسرت الثالث» تصور فرعون على هيئة سبع ، برأس الصقر ، تحميه عقاب الوادى بجناحيها ، وهو يضرب شعوبا من النوبيين والاسيويين ، وشبيه بذلك ما عثر به من أيام أمنمحات الثالث ، وقد أخذ بناصية أحد البدو ، وانهال عليه بالسيف يضرب عنقه(٥٧)

هذا وما أن تمضى بضعة قرون ، حتى نرى سنوسرت الثالث يعبد كاله فى النوبة ، اذ نرى «تحوتمس الثالث» — أعظم فراعين مصر المحاربين على الاطلاق — يعيد دور العبادة فى النوبة ، كما نراه كذلك يؤله سنوسرت الثالث ، وفى الحقيقة لقد كان تحوتمس الثالث بطلا يقدر البطولة ، أو كما يقولون لا يحسن الفضل الا ذووه — ففى معبد «عمدا» — على مبعدة ١٧٥ كيلا ، جنوب خزان أسوان — أقدم معابد النوبة ، والذى شيده تحوتمس الثالث (١٤٩٠ — ١٤٣٦ ق٠م) ، نراه يقدس فيه سنوسرت الثالث(٥٨) ، وكذا فعل طهراقا (٦٨٩—٦٦٤ق٠م) وفى بوهن والليسيه ، بل حتى العامة من القوم قد قدسوا سنوسرت الثالث ففى أحد المناظر على صخور أسوان منظر يمثل عائلة قام أفرادها باحضار قرابين للالهة ، ومن بينها سنوسرت الثالث(٥٩) .

هذا ويختلط سنوسرت الثالث عند مانيتو مع سلفه سنوسرت الثانى ، وكلاهما يشترك فى لقب «سيزوستريس» ، ومهما تكن غزواتهم الخارجية عظيمة ، فمن الصعب أن ندرك كيف أن انتصاراتهما يمكن أن

= P. Smither, The Semnch Despatches, JEA, 31, 1945, Pls. 2-7, p. 3-10.

(٥٧) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٤٦ .

J. De Morgan, Fouilles a Dahshour, I, Vienna, 1898, p. 15, 19-20.

(٥٨) أنظر : A. Weigall, op. cit., p. 104.

H. Gauthier, le Temple d'Amada, Cairo, 1913.

(٥٩) D. Randall-Maciver and C. L. Woolley, Buhen, Philadelphia, 1911, p. 41-42.

تفسخم ، بحيث يطلق على صاحبها لقب «البطل قاهر العالم» كما يصفه كل من هيرودوت وديودور الصقلى،ذلك أنه عندما وفد الاغريق والرومان الى مصر سمعوا عن سنوسرت الثالث حكايات شائعة ، وخلطوا بين أعماله وأعمال سنوسرت الاول فضلا عن أعمال الرعامسة ، فنسبوا اليه فتوحات واسعة فى آسيا الغربية وأوربا الشرقية •

ويروى «هيرودوت» أن الكهنة قد أخبروه أن سنوسرت الثالث (سيزوستريس) قد أقلع من الخليج العربى بسفن حربية وأخضع السكان على سواحل بحر أروترى ، ثم واصل الابحار حتى بلغ المنطقة التى لم يعد عندها البحر صالحا للملاحة لضحالته ولما عاد الى مصر أعد جيشا جرارا ، واخترق القارة ، وأخضع الشعوب التى كانت فى طريقه، ثم سرعان ما عبر القارة بعد ذلك ، واجتاز آسيا الى أوربا ، وأخضع السكثيين والتراقيين ، ويخيل الى أن هذين الاقليمين هما أقصى ماوصل اليه الجيش المصرى ، اذ أن الاعمدة ماتزال قائمة بهما ، ولكن لا يرى لها أثر أبعد من ذلك ، ومن هناك دار على عقبه ورجع ، وليس بامكانى أن أتكلم بدقة عما تم بعدئذ عندما بلغ نهر فاسيس ، هل ترك الملك سيزوستريس جزءا من جيشه هناك لاستعمار تلك الديار ؟ أم أن طائفة من الجنود — وقد أنهكها السير — بقيت بمحض ارادتها على ضفاف نهر «فاسيس» على شاطىء البحر الاسود ؟ مما يدل على أن الكولخيين مصريون ، بدليل أنهم سمر البشرة،كما أنهم — كالمصريين — يمارسون، دون سائر البشر ، عادة الختان منذ البداية ، ذلك لان الفينيقيين والسوريين بفلسطين يعترفون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين ، كما أن طريقة الحياة واللغة متشابهة عند المصريين والكولخيين •

ويستمر هيرودوت فى روايته ، فيقول ان «سيزوستريس» قد ترك كثيرا من الاعمدة ، التى اختفى كثير منها ، ومع ذلك فقد بقى منها الكثير فى فلسطين السورية ، وفى ايونا ، حيث يوجد تمثالان ، الواحد فى الطريق من افسوس الى «فوكايا» والاخر فى الطريق من ساراديس الى سميرنا ، وفى كلا الحالتين يصور التمثال المنحوت رجلا ضخما

ارتفاعه أربعة أذرع ونصف ، ممسكا بيمينه حربة وبيسراه قوسا ، ويمتد بعرض الصدر من كتف الى كتف نقش محفورا باللغة المصرية المقدسة يقول : «لقد استوليت على هذه الارض بقوة اكتفى» .

ويذهب هيرودوت بعد ذلك الى أن «سيزوستريس» قد استخدم الاسرى فى جر الاحجار التى استخدمت فى معبد «هيفايستوس» (معبد بتاح) وفى حفر القنوات ، وأنه قد وزع الاراضى على جميع المصريين ، فأعطى كل فرد بالتساوى نصيبا مربعا ، ومن هذا المصدر أوجد الدخل لانه أمر بتأدية ضريبة سنوية ، واذا أكل النهر جزءا من نصيب أحد الافراد ، بسبب طغيانه على هذا الجزء ، توجه الى الملك وبين له ما حدث ، فكان يرسل معه أشخاصا لمعاينة الارض وقياس المقدار الذى نقص منها ، حتى يدفع الضريبة المقررة بما يتناسب والمتبقى من الارض ، ويخيل الى أن هذا كان بدء اكتشاف علم المساحة الذى انتقل الى اليونانيين(٦٠) .

وبدهى أن ما كتبه هيرودوت عن سنوسرت الثالث — وبخاصة فيما يتصل بحروبه — انما قد خلط فيه بين الخيال والحقيقة ، فمثلا من المعروف أن الرجل لم يركب البحر فى حروبه ، وانما ركب النيل ، ليخضع العصاة فى بلاد النوبة ، وليرد عنها غارات الزنوج ، وأنه حفر قناة فى الصخر على مقربة من جزيرة سهيل ، كما أشرنا من قبل — وأن هيرودوت انما يذهب الى أن الرجل قد هزم السكثيين والتراقيين،وأنه قد عبر قارة أفريقية ، واجتاز آسيا الى أوربا ، ليخضع هاتين القبيلتين، وهو قول لا يستند الى أساس من علم .

وأما أمر وصوله الى نهر فاسيس (أشهر أنهار كولخس على شاطىء البحر الاسود) ، فربما كان كذلك ، وان كنا لا نستطيع التسليم برأيه فى أن الكولخيين كانوا مصريين ، وأنهم من بقايا عساكر سيزوستريس

---

(٦٠) هيرودوت يتحدث عن مصر — ترجمة محمد صقر خفاجه ، ومراجعة وتقديم أحمد بدوى — القاهرة ١٩٦٦ ص ٢١٧ — ٢٢٨ .

هناك ، وأما توزيع الاراضى على جميع المصريين فأمر يصعب تصديقه، وان كان ذلك معروفا بالنسبة لحكام الاقاليم والكهنة والجند ، وأما مسح الاراضى الزراعية سنويا ، وتقدير الضرائب على قدر المنزوع من الارض ، فذلك نوافقه عليه تماما ، وهو أمر أثبته كثير من المؤرخون القدامى ، وأخيرا فان «سيزوستريس» هذا ، انما كان يعنى به هيرودوت — فى بعض الاحيان — رعمسيس الثانى ، أكثر مما يعنى به سنوسرت الثالث .

وعلى أى حال ، فان المؤرخ المصرى «مانيتو» يذهب الى أن سنوسرت الثالث قد أخضع آسيا فى تسع سنوات ، وكذا أوربا حتى تراقيا ، وأنه اهتم بتسجيل أحوال الناس أينما ذهب ، وأنه حدد جماعات النبلاء والنبيلات على النصب .

ويروى «ديودور الصقلى» أنه تحقق من أن «سيزوستريس» قد نشأ على طبيعة الحرب منذ صغره ، وأنه تحبب الى رعيته حتى يساندوه فى مشاريعه ، وأنه اتخذ له بطانة من أترابه الاشداء ، وأنه قد فتح بلاد العرب والحبشة والهند وبلغ البحر الاسود ، ووصل الى تراقيا ، وجعلها حدود مملكته ، وهو أمر جد مبالغ فيه(٦١) .

وعلى أى حال ، فلقد بقى الحكم المصرى فى النوبة ، بعد انتصارات الملك سنوسرت الثالث العظيم هناك ، والتى أدت الى أن يمد حدوده حتى «سمنة» ، على الاقل ، طوال حكم خلفائه «أمنمحات الثالث» (١٨٤٢ — ١٧٩٧ ق.م) و «أمنمحات الرابع» (١٧٩٨ — ١٧٩٠ ق.م) والملكة «سبك نفرو» (١٧٨٩ — ١٨٧٦ ق.م) ولم نجد أية اشارة الى نشاط عسكرى فى تلك المنطقة ، وبقيت النوبة السفلى (واوات) دونما

---

(٦١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٢ .
Diodurus, I, 53 F.
A. H. Gardiner, op. cit., p. 439.

أى اضطراب[٦٢] ، وان كانت هناك اشارة من الكاب الى أن أمنمحات الثالث قد قام ببناء جدار فى حصن النوبة •

غير أن هناك كشفا لا يستطاع فى يسر التوفيق بينه وبين تثبيت سنوسرت الثالث لحدوده الجنوبية عند سمنة ، جنوبى الجندل الثانى، فهناك فى «كرما» — جنوبى الجندل الثالث ، وعلى مبعدة أكثر من مائة ميل جنوب الجندل الثانى — اكتشف الاثرى الامريكى «جورج أندروز رايزنر» (١٨٦٧ — ١٩٤٢) مبنى يشــبه القلعة وجبــانة ، ترجع الى بداية الاسرة الثانية عشرة كما عثر على نقش لامنمحات الثالث ، يسجل كمية قوالب اللبن المطلوبة لترميم نقطة الحدود هــذه ، والتى عرفت باسم «أسوار أمنمحات» ، ، وتشير أشياء أخرى عثر عليها هناك الى مشابهة تؤكد أن مؤسس الاسوار — كما أشرنا من قبل — انمــا كان «أمنمحات الاول» ، بل ان هناك كذلك أوان من المرمر تحمل اســم «ببى الاول» ، من الاسرة السادسة ، ولكن ربما كانت هذه مستوردة جىء بها بقصد التبادل •

وأما الجبانات التى عثر عليها هناك ، فليس بها طابع مصرى،وكذا الفخار والقاشانى والتطعيم بالعظام والاسلحة ، وأما القبور فهى كومة دائرية ضخمة ، تختلف تماما عن المصاطب فى مصر المعــاصرة ، وأما الموتى فقد دفنوا راقــدين على جنوبهم بغير تحنيط ، ومن حــولهم زوجاتهم وأتباعهم مقتولين ومدفونين مع مولاهم ، ليقوموا على خدمته فى العالم الاخــر ، وقد عثر فى احــدى الكومات على تمثال للحاكم «حعبى زفاى» (حب دجفاى) ، وآخر لزوجته ، وهمــا من أسيوط — كما أشرنا من قبل — وأنه كان يحكم كرما على أيام « سنوسرت الاول» أفكانت كرما محطة دائمة للتجارة والصناعة ، ولكن كيف كانت تسد حاجاتهما ، مادام خط الدفاع (القلاع) فى الجندل الثانى ، يشير الى أن ماوراءه كان معاديا له ؟[٦٣] •

(٦٢) والتر ايمرى : المرجع السابق ص ١٦٤ •

(٦٣) T. Save-Soderbergh, Aegypten und Nubien, 1941, p. 103 F.

وأما عن الادارة المصرية فى النوبة فى عهد الدولة الوسطى ، فمن المؤكد أنها كانت تخضع لاشراف الوزير المقيم فى طيبة مباشرة ، وأن هذا الوزير انما كان يقوم بجولات تفتيشية دورية ، وكما أشرنا من قبل ، فهناك برديات من الرمسيوم تشير الى دقة الاشراف على حصون النوبة ، وأنه كان يبلغ الى طيبة ، حتى التحركات التافهة لجماعات المجاى[٦٤] ، كما كانت كل قلعة من تلك القلاع النوبية انما تتضمن عدد من المصالح المنفصلة ، كما هو الحال فى مصر — يديرها موظفون مصريون حتى أننا لا نجد أية اشارة لموظفين نوبيين أو غير مصريين ، وأن مهمة هؤلاء الموظفين انما كانت الاشراف على عمليات التعدين ، وتأمين طرق التجارة والحدود ، وأن هناك نوعا من الضرائب كان يفرض على النوبيين الذين كانوا يعيشون فى المناطق الخاضعة للسيادة المصرية.

وفى كل ذلك كان المصريون يعاملون النوبيين بالحسنى ، ماداموا يؤدون ما هو مفروض عليهم ، سواء كان ذلك جزية ، أو أعمالا أخرى يكلفون بها ، وكانت الحاصلات النوبية من المواد الخام تسلم فى كوبان ، أما المواد المشغولة ففى قلعة «اكور» ، والتى كانت تشرف على تحركات القوم[٦٥] .

= B. Porter and R. L. P. Moss, op. cit., 7, p. 175 F.
A. H. Gardiner, op. cit., p. 136-137.
(٦٤) P. Smither, op. cit., Pls, 2-7, p. 3-10.
(٦٥) محمد أبو المحاسن عصفور : علاقات مصر بالشرق الادنى القديم — الاسكندرية ١٩٦٢ ص ١١ — ٥٢ ، ٥٦ ،
T. Save Soderbergh, op. cit., p. 71.
A. Row. ASAE. 39, 1939, p. 187-188.

الفصل الثالث

ابراهيم عليه السلام فى مصر

(١) تقـــــديم :

شاءت ارادة الله — ولا راد لمشيئته — أن يكون لارض الكنانة ذكر فى كتبه من توراة وانجيل وقرآن عظيم ، فلقد تحدثت التوراة والانجيل عن مصر،ماشاء الله لهما أن يتحدثا ، وتحدث القرآن الكريم عن مصر فى مواضع كثيرة ، بالاسم الصريح تارة ، وبالكناية تارة أخرى .

اخـرج الامام السيوطى فى «حسن المحـاضرة فى أخبـار مصر والقـاهرة» عن «ابن زولاق» أن مصر ذكرت فى القـرآن فى ثمانية وعشرين موضعا ، وقال : بل أكثر من ثلاثين وقع فيها ذكر مصر من القرآن صريحا أو كناية ، ونقل عن «الكندى» تعليقه على طائفة من آياته فيها قوله : «لايعلم بلد فى أقطار الارض أثنى الله عليه فى القرآن بمثل هذا الثناء ، ولا وصفه بمثل هذا الوصف ، ولا شهد له بالكرم ، غير مصر» .

وهكذا كانت مصر فصلا فى كل دين ، شرفت أرضها الطيبة بزيارة أبى الانبياء ، سيدنا ابراهيم ، وبين ربوعها بعث الله يوسف الصـــديق نبيا ورســـولا ، وعلى ضفـــاف نيلها ، أو على أحـــد فروعه ، ولـــد موسى الكليم وعاش حتى تلقى وحى ربه ، فى أرض كانت ، ومازال وستظل ان شاء الله أبد الدهر ، أرضا مصرية ، ثم أقبل عليها بعد حين من الدهر ، طال قرونا وقرونا ، عيسى ابن مريم ، وكانت به أسبق المؤمنين .

وهـكذا كانت مصر الحبيبة ، مقصدا للانبياء ، ومهبطا للوحى .

فلئن كان حبيب الله ، ورحمة العالمين ، وخاتم النبيين ، جدنا ومولانا وسيدنا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، نال من الله ما ناله موسى الكليم ، على أرض المعجزات الباهرة ، ولئن كان المسيح كلمة الله وروحه ، ولد في بيت «لحم» وربى في «الناصرة» في أرض كنعان ، ثم شهدت فلسطين معجزات المسيح ، فنيها علمه ربه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل،وفيها «بعث رسولا الى بنى اسرائيل»[1] .

لئن كان ذلك كذلك ، وهو كذلك على وجه اليقين ، فان مصر قد شرفت بثلاثة من أولى العزم ، أفضل النبيين والمرسلين ، شرفت بزيارة أبي الانبياء ابراهيم الخليل ، وفيها بعث موسى الكليم ، وعلى أرضها درج المسيح في المهد صبيا ، كما شرفت بقدوم يوسف الصديق اليها، وهو صبى لما يبفع بعد ، وعاش فيها حتى لقى ربه الكريم ، ثم ضمت بين ثراها جسده الطاهر الكريم ، كما شرفت بمثل ذلك من أبيه يعقوب، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وهكذا نالت مصر نصيبا وافرا من شرف النبوة ، وكرامة الرسالة ، فمن الانبياء من شرفها بزيارة ، فأقام بين أهلها حينا من الدهر ، يقول لهم ، ويعلمهم مما علمه الله ، ويهديهم سواء السبيل ، ومنهم من جاءها ، وقد كتب عليه شيء من الرق ، فأكرمه الله حتى كان عزيزها ، وصاحب الامر فيها ، ثم بعث الى أهلها رسولا نبيا ، ومنهم من ولد ونشأ فيها ولبث في أهلها من عمره سنين ، «ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين»[2] ، ومنهم من جاءها هربا من ظلوم غشوم يحتمى بحمى الله فيها «وجعلنا ابن مريم وأمه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين»[3] .

وكان ختام المسك لنعم الله على أرض الكنانة من شرف النبوات ،

---

(١) سورة آل عمران : آية ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) سورة القصص : آية ١٤ .
(٣) سورة المؤمنون : آية ٥٠ .

أنّ كان لسيدنا ومولانا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وعلى آله وسلم — ما كان لابيه ابراهيم الخليل — زوج مصرية ، وكمـا كانت «هاجر»(٤) المصرية ، أما لبكر ابراهيم ، سيدنا اسماعيل عليه السلام، جد العرب ، وكانت «مارية» المصرية ، أما لابراهيم ، ولد المصطفى صلوات الله وسلامه عليه •

وأخيرا ، وليس آخرا ، وكما ذكرنا فى مقدمة هذه الدراسة ، فلقد أوصى نبى الاسلام ، ورحمة الله للعالمين ، سيدنا ومولانا محمد رسول الله ، صلى الله عليه وآله وسلم ، بأهل مصر خيرا ، فقال ، صلى الله عليه وآله وسلم : «اذا فتحت مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحمـا» ، وفى رواية أخرى «ستفتح عليكم بعـدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لكم منهم صهرا وذمة» ، وفى رواية « ستفتحون أرضـا يذكر فيهـا القيراط ، فاستوصوا بأهلهـا خـيرا ، فان لهم ذمة ورحما»(٥) •

فأما «الذمة» فان «مارية» أم ابراهيم ولد المصطفى ، صلوات الله وسلامه عليه ، انما كانت امرأة صعيدية من «حفـن» (قرية الشيخ عبادة الحالية ، بمحافظـة المنيا) ، وأما «الرحم» ، فـان أم العرب السيدة «هاجر» زوج ابراهيم ، وأم اسماعيل ، عليهم السلام ، انما كانت مصرية كذلك •

---

(٤) هاجر : سيدة مصرية تحمل اسما مصريا ، ورد فى الاثار المصرية بما لا يدل على غـير تصحيف يسير ، اذ نقرؤه فى المصرية «هاقـر» و «هقرة» (أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ص ١١ — ١٣ ، وكذا

H. Ranke, Die Agyptischen Personennamen,
(Glickstadt, 1935, 1952), Band, I, S. 231.

(٥) أنظر : صحيح مسلم ١٩٧/٤ ، سيرة ابن هشام ٦/١ — ٧ ، طبقات ابن سعد ٩٢/١ — ٩٣ ، الكندى : فضائل مصر ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) مكانة ابراهيم عنـــد المسلمين :

يقدم القرآن الكريم سيدنا ابراهيم عليه الصـــلاة والسلام[٦] ، على أنه انما كان وحده أمة ، قانتا لله ولم يك من المشركين ، يقـول سبحانه وتعالى «ان ابراهيم كان أمــة قانتا لله حنيفـا ولم يك من المشركين ، شاكرا لانعمه اجتباه وهداه الى صراط مستقيم ، وآتينـاه فى الدنيا حسنة وانه فى الاخرة لمن الصالحين»[٧] .

وهكذا يرسم القــرآن ابراهيم عليه السلام ، نموذجـا للهداية والطاعة والشكر والانابة لله تعالى ، ويقول عنه هنا : انه كان أمة ، واللفظ يحتمل أنه يعدل أمة كاملة ، بما فيها من خير وطاعة وبركة ، ويحتمل انه كان اماما يقتدى به فى الخير ، وقد ورد فى التفسير بالمأثور هذا المعنى وذاك ، وهما قريبان ، فالامام الذى يهدى الى الخير ، هو قائد أمة ، وله أجره وأجر من عمل بهدايته ، فكأنه أمة من الناس فى خيره وثوابه ، لا فرد واحد[٨] .

ومن هنا كان سيدنا ابراهــيم عليه السلام فى القــرآن الاسوة الحسنة للمؤمنين جميعا ، يقول تعالى «قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه»[٩] .

هذا وينظر القرآن الكريم الى ابراهيم الخليل عليه السلام ، على

---

(٦) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن سيدنا ابراهيم (انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٥٠ ــ ١٨٤ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ١/١٣ ــ ١٨٠) .

(٧) سورة النحل : آية ١٢٠ ــ ١٢٢ ، وانظـــر : تفسير ابن كثير ٢/٩١٥ ــ ١٩٦ ، تفسير القرطبى ص ٣٨١٣ ــ ٣٨١٥ ، صفوة التفـــاسير ٢/١٤٨ ، تفسير النسفى ٢/٣٠٣ ــ ٣٠٤ .

(٨) فى ظلال القرآن ٤/٢٢٠١ (بيروت) ١٩٨١ .

(٩) سورة الممتحنة : آية ٤ ، وانظر : تفسير الطبرى ٢٨/٦٢ ــ ٦٣ ، تفسير الطبرسى ٢٨/٤٧ ــ ٤٨ ، تفسير روح المعانى ٢٨/٦٩ ــ ٧٢ ، تفسير الفخر الرازى ٢٩/٣٠٠ ــ ٣٠١ ، تفسير القاسمى ١٦/٥٧٦٥ ــ ٥٧٦٦ ، تفسير القرطبى ص ٩٥٣٥ ، تفسير الكشاف ٤/٢٩٥ ، تفســـير ابن كثير ٤/٥٤٣ ــ ٥٤٤ ، تفسير النسفى ٤/٢٤٧ ، صفوة التفاسير ١/٤٠٣ ــ ٤٠٤ ،

أنه أبو الانبياء ، فكل كتاب أنزل من السماء على نبى من الانبياء ، بعد ابراهيم ، فمن ذريته وشيعته(١٠) ، وهذه رتبة لابراهيم لا تعلو عليها رتبة ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى ، أخرج من صلبه أنبياء بررة حملوا الراية وتوارثوا المشعل ، فكان منهم اسماعيل واسحاق ويعقوب، وكان يحيى واليسع وزكريا والياس ، وكان داود وسليمان ويوسف وهارون ، وكان موسى وعيسى ومحمد ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين • ولنقرأ هذه الآيات من سورة الانعام ، يقول تعالى «وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، ان ربك حكيم عليم ، ووهبنا له اسحاق ويعقوب كلا هدينا ، ونوحا هدينا من قبل ، ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزى المحسنين ، وزكريا ويحيى وعيسى والياس كل من الصالحين ، واسماعيل واليسع ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين ، ومن آبائهم وذرياتهم واخوانهم ، واجتبيناهم وهديناهم الى صراط مستقيم»(١١) •

---

(١٠) ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٦٧ •

(١١) سورة الانعام : آية ٨٣ ـ ٨٧ ، تفسير الطبرى ١١/٥٠٤ ـ ٥١٣ تفسير البحر المحيط ٢/١٧٢ ـ ١٧٣ ، الجواهر فى تفسير القرآن الكريم ٤/٥٧ ، تفسير المنار ٧/٤٨٥ ـ ٤٩١ ، تفسير ابن كثير ٢/٢٤٦ ـ ٢٥٠ ، تفسير النسفى ٢/٢١ ـ ٢٢ ، تفسير القرطبى ص ٢٤٦٦ ـ ٢٤٧٠ ، هذا ويلاحظ أن لوطا ذكر من ذرية ابراهيم ، وهو فى الواقع ابن أخيه ، فقد دخل فى الذرية تغليبا ، كما ذكر عيسى ، دلالة على دخول ولد البنات فى ذرية الرجل لان عيسى ينسب لابراهيم من أمه مريم ، وروى ابن أبى حاتم أن الحجاج الثقفى أرسل الى يحيى بن يعمر ، فقال بلغنى انك تزعم أن الحسن والحسين من ذرية النبى صلى الله عليه وسلم ، تجده فى كتاب الله ، وقد قرأته من أوله الى آخره فلم أجده ، قال : أليس تقرأ سورة الانعام «ومن ذريته داود وسليمان» حتى بلغ «ويحيى وعيسى» فقال : اليس عيسى من ذرية ابراهيم ، وليس له أب ،قال صدقت ، ولهذا اذا أوصى الرجل لذريته أو وهبهم ، دخل أولاد البنات فيهم ، فاذا أعطى الرجل بنيه أوقف عليهم ، كما ثبت فى صحيح البخارى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال للحسن بن على بن أبى طالب «ان ابنى هذا سيد» ، فدل على دخوله فى الابناء ، ولهذا يقول العلماء أن أولاد فاطمه الزهراء عليها السلام أولاد النبى صلى الله عليه وآله وسلم (تفسير ابن كثير ٢/٢٤٨ ـ ٢٤٩ ، تفسير النسفى ٢/٢١ ، تفسير القرطبى ص ٢٤٦٨ ، صحيح البخارى ٣/٣٤٣ ـ ٣٤٤) •

هذا فضلاً عن أن الله تعالى يقول لنبيه وحبيبه محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم فى سورة النحل «ثم أوحينا اليك أن اتبع ملة ابراهيم حنيفا»(١٢) .

وابراهيم الخليل فى القرآن الكريم ، أحد أولى العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصا من بين سائر الانبياء فى آيتين من القرآن الكريم ، وهما قوله تعالى «واذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وابراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا»(١٣) ، وقوله تعالى «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا، والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه»(١٤) .

وابراهيم الخليل ، فى عقيدة المسلمين ، أفضل الرسل اطلاقا ، بعد سيدنا محمد ، صلى الله عليه وآله وسلم ، وليس أدل على هذه الافضلية من أن المسلمين يصلون على إبراهيم وآله ويباركونهم ، كما يصلون على نبيهم محمد وآله ويباركونهم ، حتى أن النبى — كما جاء فى الصحيح — عندما سئل : كيف نصلى عليك يا رسول الله ؟ قال : «قولوا اللهم صل على محمد وآل محمد ، كما صليت على ابراهيم وآل ابراهيم ، وبارك على محمد وآل محمد ، كما باركت على ابراهيم وآل ابراهيم ، انك حميد مجيد»(١٥) .

---

(١٢) سورة النحل : آية ١٢٣ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٩١٦/٢ ، تفسير القرطبى ٣٨١٤ — ٣٨١٥ ، تفسير النسفى ٣٠٤/٢ .

(١٣) سورة الاحزاب : آية ٧ ، وانظر : تفسير ابن كثير ٧٤٧/٣ ، تفسير النسفى ٢٩٥/٣ ، تفسير القرطبى ص ٥٢٠٨ — ٥٢٠٩ ، صفوة التفاسير ٥٣/٢ ، زاد المسير لابن الجوزى ٣٥٤/٦ ، تفسير البيضاوى ١١٤/٢ ، فى ظلال القرآن ٢٨٢٩/٥ — ٢٨٣٠ .

(١٤) سورة الشورى : آية ١٣ ، وانظر : تفسير القرطبى ٥٨٣٩ — ٥٨٣٠ تفسير النسفى ١٦٣/٤ — ١٦٤ ، حاشية الصاوى على الجلالين ٣٢/٤ ، تفسير البيضاوى ١٧٢/٢ .

(١٥) أنظر روايات أخرى عن كيفية الصلاة على النبى صلى الله عليه وآله وسلم (صحيح مسلم ١٢٣/٤ — ١٢٧ — بيروت ١٩٨١ ، صحيح البخارى ١٥٠/٦ — ١٥١ ، تحفة الاحوزى ٦٠٤/٢ ، ٤٥٠/١٠ ، مسند الامام أحمد ١١٩/٤ ، ١٨/٦ ، تفسير ابن كثير ٨٠٦/٣ — ٨٠٩) .

وهكذا يكرر المسلمون فى مشارق الارض ومغـاربها ، ومنذ أيام النبى صلى الله عليه وآله وسلم ، وحتى تقوم الساعة ، يكررون هذا الدعاء المبارك يوميا خمس مرات ، على الاقل ، فى صلاتهم •

(٣) هجرات ابراهيم عليه لسلام :

بدأ ابراهيم عليه السلام دعوته الى التوحيد فى العراق القـديم بعشيرته الاقربين ، على طريقة الانبياء فى الدعوة الى الله «أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن»[١٦]، ومن ثم فقد بدأ أبو الانبياء دعوته مع أبيه بلهجة تسيل أدبا ورقة ، يهديه بها صراطا مستقيما ، فأشـار الى الاصنام مبينا أنها لا تنفع ولا تضر ، ولا تسمع ولا ترى ، ولا تشعر بعابد يعبدها أو عـاص يعصاها ، ثم بين له أنه ليس مخترعا للدعوة ، وأنها من لدن على قدير. وأنه تلقى من العلم ما لم يتلق أبوه ، وأنه لا ضرر على الاب ، ان اتبع ملة ولده أو عمل برأيه ، واختتم نصحه برجاء تقدم به الى والده، أن يحذو حذوه ، ويسلك سبيله ، والا فالطريق التى يسلكها غير طريق الهدى ، انما هى طريق الشيطان الرجيم[١٧] •

ولكن أباه رفض الدعوة ، بل وهدده ، ان لم ينته عن دعوته هذه، ليرجمنه وليهجرنه الى حين ، وكان «آزر»[١٨] ، والد النبى الكريم ، فى ذلك مغمضا عينيه عن اعتبارات النبوة ، متجاهلا اياها ، فاستنكر النصيحة ، وسفه الرأى ، وسخر من الشرعة الجديدة ، فما كان من أبى الانبياء ــ تأدبا مع أبيه وحدبا عليه ــ الا أن يدعو له بالمغفرة ، وأن ينتظر اجابة دعوته الى حين •

ولنقرأ هذه الآيات من سورة مريم «واذكر فى الكتاب ابراهيم انه

---

(١٦) سورة النحل : آية ١٢٥ •

(١٧) محمد حسنى عبد الحميد : أبو الانبياء ابراهيم الخليـل ــ القاهرة ١٩٤٧ ص ٣١ •

(١٨) أنظر : الاراء التى دارت حول آزر (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١/٥٣ ــ ٦١) •

كان صديقا نبيا ، اذ قال لابيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت انى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى اهدك صراطا سويا ، يا أبت لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، ياأبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ، قال أراغب أنت عن آلهتى يا ابراهيم ، لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربى انه كان بى حفيا ، واعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا))[١٩] .

والآيات الكريمة انما تدل على أن هناك بين ابراهيم وأبيه خلافا عميق الجذور ، تأدى بالوالد أن يأمر ابنه بالهجرة ، حيث لا أمل فى اتفاق ، ولكن سرعان ما تتأزم الامور بين أبى الانبياء وقومه ، الى الحد الذى لا يجد القوم منه مخرجا ، الا أن يلقوا بابراهيم فى نار أوقدوها لاحراقه ((قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على ابراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الاخسرين، ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين))[٢٠] .

ومن البدهى أنه ليس فى هذه الآيات الكريمة ما يشير الى ايمان أبى ابراهيم ، ولو آمن أبوه ، لكان ذلك حدثا هاما جديرا بالتنصيص عليه ، تكريما له ولولده ابراهيم ، ولم يكن ابن أخيه لوط أقرب اليه من أبيه ، حتى ينال وحده مثوبة التوحيد[٢١] .

---

(١٩) سورة مريم : آية ٤١ ــ ٤٨ ، وانظر : تفسير القرطبى ص ٤١٤٩ ــ ٤١٥٢ ، تفسير النسفى ٣٦/٣ ــ ٣٧ ، صفوة التفسير ٢١٨/٢ ــ ٢١٩ ، تفسير الفخر الرازى ٢٢٥/٢١ ــ ٢٢٦ ، تفسير البيضاوى ١٦/٢ ــ ١٧ ، تفسير ابن كثير ١٩٨/٣ ــ ٢٠٠ ، فى ظلال القرآن ٢٣١٠/٤ــ٢٣١٣ .

(٢٠) سورة الانبياء : آية ٦٨ ــ ٧١ ، وانظر : تفسير البيضاوى ٧٦/٢ ــ ٧٧ ، تفسير القرطبى ص ٤٣٤٣ ــ ٤٣٤٥ ، تفسير ابن كثير ٢٩٤/٣ ــ ٢٩٦ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور ٣٢٢/٤ ــ ٣٢٣ .

(٢١) محمود محمد عمارة : اليهود فى الكتب المقدسة ــ القاهرة ١٩٦٩ ص ١٢ ــ ١٣ .

وهكذا فقد أبو الانبياء الامل فى ايمان أبيه ، فضلا عن قومه ، ولم يؤمن به الا ابن أخيه لوط ، قال تعالى : «فآمن له لوط وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم»[٢٢] ، وهكذا قرر الخليل عليه السلام الهجرة ، «وقال انى ذاهب الى ربى سيهدين»[٢٣] ، وهكذا كانت هجرة الخليل — ومعه زوجه ساره ، وابن أخيه لوط — الى «الارض التى باركنا فيها للعالمين» ، الى فلسطين ، حيث بقى هناك حينا من الدهر ، بنشر دعوة التوحيد ، ويدعو الى عبادة الله الواحد الاحد .

(٤) زيارة ابراهيم الخليل لمصر :

ويقيم أبو الانبياء ، ما شاء الله له أن يقيم ، فى أرض كنعان ، ثم يرحل عنها صوب أرض الكنانة ، بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ، فيما تروى التوراة[٢٤] ، وتشاء ارادة الله أن تكون مصر دائما وأبدا ، للبدو الكنعانيين ، وبخاصة فى أيام القحط ، ملاذهم ، وغالبا منقذهم الوحيد، فحينما كانت الارض تجف فى أوطانهم ، كانت أرض الكنانة تقدم لهم المأوى والمرعى ، وكان النيل بفيضانه المنتظم يتعهد بذلك[٢٥] .

وهكذا أقبل سيدنا ابراهيم من كنعان الى مصر ، وطبقـا لرواية التوراة ، فعندما أشرف على التخوم المصرية ، اتفق مع زوجه «سارة» على أن تقول : انها أخته ، وليست زوجته ، ذلك لان المصريين ان علموا أنها زوجه قتلوه ، وأما ان كانت أخته فمن أجلها أكرموه .

وحدث ما توقعه ابراهيم ، وبرت سارة بوعدها ، وأخذت الى بيت فرعون ، ونال ابراهيم خـيرا كثيرا بسببها ، اذ أسبغ فرعـون عليها بسببهما وافر نعمه ، من غنم وبقر وحمير واماء واتن وجمال ، الا أن المصائب سرعان ماتوالت على فرعون وبيته،مما اضطره الى أن

---

(٢٢) سورة العنكبوت : آية ٢٦ .
(٢٣) سورة الصافات : آية ٩٩ .
(٢٤) تكوين ١٢/١٠ .
(٢٥) W. Keller, The Bible as History, 1967, p. 87.

ابراهيم ، ويؤنبه على فعلته هذه ، وطبقا لرواية التوراة ، فقد خاطبه قائلا : «لماذا لم تخبرنى أنهـا امرأتك ، لماذا قلت انها أختى ، حتى أخذتها لتكون لى زوجـة» ، ثم سرعان ما يصدر فرعـون أمره بطرد ابراهيم وامرأته من مصر ، وان سمح له بأن يأخذ ما كان قد أعطاه اياه من قبل[٢٦] .

ويعلم الله ، وتشهد ملائكته ، أن نفسى تتأفف من مجرد التعليق على هذه الفرية الدنيئة التى يلصقها كاتب التوراة[٢٧] ، بأبى الانبياء صلوات الله وسلامه عليه ، فتلك فعله لا يقبلها على نفسه أحط الناس خلقا ، فضلا عن أن يكون ذلك نبى الله وخليله العظيم ، ومع ذلك فانى مضطر الى مناقشتها ، والمضطر قد يركب الصعب من الامور .

ولعل من أهم ما يوجه الى هـذه الرواية الكذوب من نقد ، انما يتلخص فى نقاط ، منها (أولا) أن التوراة[٢٨] نفسها تحدثنا أن الخليل قد جاء الى كنعان ، وهو فى الخامسة والسبعين من عمره ، وأن «سارة» كانت فى الخامسة والستين ، وأنهما أقاما فى أرض كنعان ، ما شاء الله لهما أن يقيما ، ثم هاجرا الى مصر ، فهل كانت سـارة ، وقد جاوزت الخامسة والسبعين من عمرها طبقا لرواية التوراة هذه ، تفتن الرجال ، فضلا عن أن يرى ملوك مصر المترفين أنهـا من آرابهم ، ثم هى قـد وصفت فى اصحاح قبل هذا الاصحاح من سفر التكوين ، وقد بشرت

---

(٢٦) تكوين ١٢/١٠ ـ ٢٠ .

(٢٧) من عجب أن كاتب التوراة يابى الا أن يجعل ابراهيم عليه السلام ، وكانما هو يتاجر بامرأته من بلد الى بلد ، فها هـو يكرر نفس الامر من «ابيمالك» ملك جرار والذى يكاد يقع فى نفس المازق الذى وقع فيه فرعون من قبل ، لولا أن الرب تراءى له فى المنـام وحذره من أنه سيموت من أجل المرأة التى أخذها لانها ذات بعل ، وامره أن يردها له ، وحين يستدعى ابراهيم ويطلب منه تفسـير الموقف ، يقـول له ابراهيم «بالحقيقة هى أختى ابنة أبى ، غير أنها ليست ابنة أمى ، فصارت لى زوجة» ، ثم رد له سارة ، بعد أن أعطاه ، كما أعطاه فرعون (تكوين ٢٠/١ ـ ١٨ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٣/١٧٣ ـ ١٧٥) .

(٢٨) تكوين ١٨/٩ ـ ١٥ .

باسحاق ، بأنها قد صكت وجهها وضحكت وقالت : أيحدث هـذا مع عجوز عقيم ، انقطعت عنها عادة النساء[٢٩] •

ومنها (ثانيا) أن التاريخ ما حدثنا أن ملوك مصر كانوا يأخـذون النساء من أزواجهم — أو من أهليهم — غصبا ، ولكنه حدثنا أن عقوبة الزنا كانت عندهم من أقسى العقوبات وأشدها ضراوة ، حيث كان يكتب على الزانى والزانية — فيما تروى بردية وستكار —[٣٠] الموت غرقا أو حرقا ، وان كان هذا لا يمنع من وجود ملك فاجر فاسق لا يتورع عن انتهاك الاعراض ، فالملوك ، فى كل مكان وزمان ، فيهم الصالح والطالح، شأنهم فى ذلك شأن بقية بنى جنسهم من بنى الانسان •

ومنها (ثالثا) أن أبا الانبياء ، عليه السلام ، ربما كان يعرف من اللغة المصرية القديمة بحكم انتشارها من البلاد التى قدم منها ، طائفة من عباراتها وألفاظها ، تعينه على شئونه فى مصر ، حين أقبل عليها ، فاذا كان ذلك صحيحا — وهـذا مجرد افتراض ، لا يصـل الى حد اليقين — فان الخليل عليه السلام ، لم يخرج عن مألوف المصريين فيما كانوا به يتحدثون ، فقد كانوا يطلقون على الزوجة فى لغتهم ، فضلا عن لفظ المرأة «حمة» و «ست حمة» ، يطلقون عليها لفظ «الاخت» (سونة = ولعلها تشبه اللفظ العربى صنو) ، وكان ذلك نوعا من التعبير عن المحبة والاعزاز • ولعـل ابراهيم عليه السـلام حدسا عن غير يقين ، حين لقى الناس قد آثروا التوراة والتعريض ، فوصف زوجـه سارة ، على مألوف المصريين ، بأنها « سونة » بمعنى الزوجة أو الاخت ، حيث وقع وأوقع فى روع المصريين بإكنته الاجنبية ، وما عسى أن رأوا معاملته لسـارة ، انما قصـد المعنى الاصـلى للفظ «الاخت» لا الى المعنى المجازى له •

---

(٢٩) تكوين ١٨/١١ — ١٢ •

(٣٠) سليم حسن : الادب المصرى القديم — الجزء الاول — القاهرة ١٩٤٥ ص ٧٧ — ٧٩ ، وكذا G. Lefevre, Romans et Contes Egyptiens de L'Epoque, Paris, 1949, p. 70-77.

ولعل هذا الاتجاه فى تفسير القصة انما هـو قريب مما ذهب اليه مفسرو الاسلام حين حرصوا على نفى الكذب عن أنبياء الله وتنزيههم عن الوقوع فيه : وقالوا : ان الكذب حرام ، الا اذا عرض ، ومن أمثلة العرب «ان فى المعاريض مندوحة عن الكذب»[٣١] .

هذا ويفسر الامام ابن كثير قول ابراهيم عليه السلام : انها أخته؛ أى فى دين الله ، وأما قوله ، كما فى حديث البخارى وأحمد ، «انه ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وغيرك» فيعنى زوجين مؤمنين غـيرى وغيرك ، ويتعين حمله على ذلك ، لان لوطا عليه السلام ، كان معهم وهو نبى[٣٢] .

ومنها (رابعا) أنه ليس صحيحا أن ملك مصر قد منح ابراهيم عليه السلام جمالا ، ذلك لان «الجمال» وقت ذاك ، انما ظلت على التحقيق غريبة على المصريين ، بل لقد كانت غريبة كذلك على من أقبل على مصر من قبائل الساميين ، فلقد أقبلت قبيلة «أبشاى» أو قافلته[٣٣] ، تسوق الحمير وليس الجمال ، كما لم ترد فيما نقش على صخور سيناء ، فى ذلك العهد صور للجمال[٣٤] ، بل ان استعمال الجمال فى هذه المنطقة لم يعرف الا فى أخريات القرن الثالث قبل الميلاد ، وربما بعد ذلك[٣٥] .

ومنها (خامسا) ذلك الاستعمال الخطأ للقب «فرعون» فى التوراة، والذى لم يبدأ الا فى الاسرة الثامنة عشرة[٣٦] ، وليس فى أيام الاسرة

---

(٣١) احمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٢٩ ـ ٣٠ .

(٣٢) انظر عن : «ابشاى» وقافلته (محمد بيومى مهران : مصر البخارى ١٧١/٤ ، فتح البارى ٢٤٦/٦ .

(٣٣) انظر عن : «ابشاى» وقافلته (محمـد بيـومى مهران : مصر ٦٤٦/١ ـ ٦٦٧ ، وكذا

P. E. Newberry, Beni-Hassan, I, London, 1893, Pls, 28-31.

وكذا E. Erman et H. Rake, la Civilisation Egyptienne, p. 689.

(٣٤) احمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٢٦ .

(٣٥) حسن ظاظا : الساميون ولغاتهم ص ١٢ ـ ١٣ .

(٣٦) انظر : A. H. Gradiner,

Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 52, and Egyptian Grammar, 1966, p. 75.

وكذا J. A. Wilson, The of Ancient Egypt, Chicago, 1963, p. 102.

الثانية عشرة ، والتى يفترض ، كما سنرى ، ان ابراهيم عليه السلام ، زار مصر على أيامها •

ومنها (سادسا) أن الهدف من زيارة الخليل عليه السلام لمصر ، لم يكن بسبب مجاعة حلت بأرض كنعان ، كما تقول التوراة ، وليس بسبب الشدة التى واجهها فى كنعان ، كما يقول الدكتور ماير ، كما انه لم يكن ، كما يقول يوسف اليهودى ، أن يصيب من خيرات مصر ، وأن يسمع ما يقوله رجال الدين فيها فى أمر الله تعالى ، وفى نفسه : اذا علم من كلامهم ما هو خير عنده (؟) أن يتقبله ، أو يرى أن عقيدته خير مما عندهم فيدعوهم اليها ، هذا فضلا عن دوره فى الاصلاح بين الكهنة •

وبدهى أن السبب فى رفضنا لكل هـذه الاتجاهات الفـاسدة أن هجرات الخليل عليه السلام لم تكن أبدا لاسباب سياسية أو اقتصادية، وانما كانت لاسباب دينية ، تتصل بدعوة التوحيد التى حمل لواءها جدنا الاكبر ، أبو الانبياء ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، أضف الى ذلك أن نبى الله عليه السلام ما كان أبدا ليجد عند المصريين الوثنيين ، خيرا مما عنده من الوحى ، ومن ثم فعلى وجه اليقين أن عقيدته خير وأفضل مما عند المصريين ، وهذا ما نؤمن به ونعتقده ، وهو ما يجب أن يعتقده كل مسلم يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الاخر ، والقضاء خيره وشره ، وتلك عقيدتنا والحمد لله •

وأما عن دوره فى الاصلاح بين الكهنة ، فربما كان الافضل القول : اصلاح عقيدة الكهنة ، وعلى أية حال ، فلقد رأى ابراهيم عليه السلام المصريين متشبسين بعادات شتى ، يخالف بعضها البعض الاخر ، مما أدى الى أن يخالف بعضهم بعضا ، والى أن يعـادى بعضهم بعضـا لاجلها ، ومن ثم فقد جعل يناقشهم فيها ، كل فريق على حدة ، ويبدى لهم جميعا أنها ليست على شىء من الحق ، ويحل بذلك منهم محـل الاعجاب ، فيتعلمون أنه لم يكن على نصيب وافر من الفطنة وحسب ، بل كان كذلك عظيم القدرة على اقناع سامعيه فى كل موضوع تناوله

بالبخت ، الامر الذى ساعده كثيرا على تبليغ رسالته ، ونشر دعـوة التوحيد بين المصريين ابان اقامته بينهم[٣٧] .

ولعل من الجدير بالاشارة هنا الى أن دعوة التوحيد التى نادى بها أبو الانبياء ، ابراهيم عليه السلام ، فى ربوع الكنانة ، انما هى أول دعوة سماوية تصل الى المصريين ، لدينا عنها وثائق من التوراة والتاريخ والحديث الصحيح ، وان كان هذا لا يعنى أبدا أن المصريين لم يعرفوا دعوات التوحيد السماوية قبل عصر ابراهيم عليه السلام ، ذلك لان الله جل وعلا ، يخبرنا فى القرآن الكريم ، أنه ما من أمة الا وجاءها رسول من عند الله العلى القدير ، قال تعالى «وان من أمة الا خلا فيها نذير»[٣٨] ، وقال تعالى «وكم أرسلنا من نبى فى الاولين»[٣٩] ، «منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك»[٤٠] ، «ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ، ورسلا لم نقصصهم عليك»[٤١] .

هذا فضلا عن أن هناك رأيا نذكره لمجرد الاستئناس به ، لا نقره ولا ننفيه ، يقول بعض الباحثين فى الآثار المصرية أن «ادريس» تعريب لكلمة «أوزريس» المصرية القديمة ، كما أن «يحيى» تعريب لكلمة يوحنا، وكلمة «اليسع» لكلمة اليشع،وأنه هو الذى صيغت حوله أساطير كثيرة، فهم يعتقدون أنه صعد الى السماء ، وصار له فيها عرش عظيم ، وكل من وزنت أعماله بعد الموت ، فوجدت حسناته ترجح سيئاته ، فـانه يلحق بأوزريس الذى جعلوه الها لهم وقد علمهم العلوم والمعارف قبل صعوده الى السماء .

---

(٣٧) تكوين ١٠/١٢ ، عباس العقاد : ابراهيم أبو الانبياء ص ٩٧ ـ ٩٨ ، ف.ب. ماير : حياة ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٠ ص ٦٢ (مترجم) وكذا W. Keller, op. cit., p. 87.

(٣٨) سورة فاطر : آية ٢٤ .

(٣٩) سورة الزخرف : آية ٦ .

(٤٠) سورة غافر : آية ٧٨ .

(٤١) سورة النساء : آية ١٦٤ .

ونحن لا نملك من الوثائق ما يساعدنا على تحديد زمن «ادريس»، ولكن الارجح أنه سابق على ابراهيم ، وليس من أنبياء بنى اسرائيل، فلم يرد ذكره فى كتبهم ، والقرآن يصفه بأنه كان صديقا نبيا ، ويسجل له أن الله رفعه مكانا عليا ، فأعلى قدره ورفع ذكره(٤٢) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن القرآن الكريم لم يشر الى زيارة ابراهيم عليه السلام لمصر ، وانما أشار اليها الحديث الشريف، وهو ما نؤمن به ونصدقه تماما عن عقيدة وايمان ، روى الامام البخارى فى صحيحه روايتين عن القصة ، وكلاهما من رواية أبى هريرة ، جاء فى الاولى عن النبى ، صلى الله عليه وآله وسلم انه قال «بينا هو (أى ابراهيم) وسارة ، اذ أتى على جبار من الجبابرة ، فقيل له : ان هاهنا رجلا معه امرأة من أحسن الناس ، فأرسل اليه فسأله عنها ، فقال : من هذه ؟ قال : أختى : فأتى سارة قال يا سارة ليس على وجه الارض مؤمن غيرى وغيرك ، وان هذا سألنى فأخبرته أنك أختى فلا تكذبينى ، فأرسل اليها فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده ، فأخذ ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك . فدعت الله فأطلق ، ثم تناولها الثانية فأخذ مثلها أو أشد ، فقال ادعى الله لى ولا أضرك ، فدعت فأطلق ، فدعا بعض حجبته فقال انكم لم تأتونى بانسان انما أتيتمونى بشيطان ، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلى، فأومأ بيده مهيا، قالت : رد الله كيد الكافر أو الفاجر فى نحره ، وأخدم هاجر ، قال أبو هريرة : تلك أمكم يابنى ماء السماء»(٤٣) .

وجاء فى الرواية الثانية عن النبى ، صلى الله عليه وسلم أنه قال : هاجر ابراهيم بسارة ، دخل بها قرية فيها ملك من الملوك ، أو جبار من الجبابرة، فأرسل اليه أن أرسل الى بها، فأرسل بها، فقام اليها فقامت توضأ

---

(٤٢) فى ظلال القرآن ٢٣١٣/٤ ـ ٢٣١٤ (بيروت١٩٨١) ، وأنظر : عن الاساطير التى دارت حول ادريس عليه السلام (عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء ـ القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ ـ ٢٩) .

(٤٣) صحيح البخارى ١٧١/٤ ، وأنظر : فتح البارى ٢٤٦/٦ .

وتضلني فقالت : اللهم إن كنت آمنت بك وبرسولك فلا تسلط على الكافر ، فغط حتى ركض برجله»[٤٤] •

ولعل من الجدير بالاشارة هنا أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم لم يذكر أن هذا الملك أو الجبار هو ملك مصر ، وانما فهم ذلك من الرواية الاولى ، من قول أبى هريرة عن السيدة هاجر «تلك أمكم يابنى ماء السماء» ، كما أن ذكر هاجر فى هذه الرواية انما يشير الى مصر ، وان كان المؤرخون يرون أن هاجر انما كانت من جهة العريش ، هذا فضلا عن أن القصة ، كما جاءت فى التوراة ، انما تكررت مع «أبيمالك» ملك جرار ، كما أشرنا من قبل ، ومع ذلك فالذى لاشك فيه أن هناك زيارة من أبى الانبياء عليه السلام ، شرفت بها أرض الكنانة ، وذلك من فضل الله على مصر والمصريين •

(٥) تاريخ زيارة ابرهيم لمصر :

يرجح العلماء ، أو يكادون ، وصول أبى الانبياء ابراهيم الخليل عليه السلام لمصر ، على أيام الاسرة الثانية عشرة (١٩٩١ — ١٧٨٦ ق•م) ، ذلك لان القوم فى مصر منذ أيام عصر الثورة الاجتماعية الاولى ، بدأت أفئدتهم تتجه نحو معان جديدة ومبادىء جليلة ، صحيح أن فريقا من الناس قد اهتز يقينه بالدين ، نتيجة الاضطرابات العنيفة التى صاحبت الثورة ، فأنكر الاله ، واستخف بالاخرة والحساب ، حتى ذهب بعضهم ، فيما يروى «ايبو — ور» حكيم الثورة ومسجل أحداثها ، الى «أن الرجل الاحمق يقول : اذا عرفت أين يوجد الاله ، فانى أقدم له قربانا»[٤٥] •

وصحيح كذلك أن فريقا آخر من الناس بدأ يشك فى الحياة الاخرة ، كما بدأ يدعو المترفين من القوم الى التمتع بمباهج الحياة الدنيا

---

(٤٤) صحيح البخارى ٩/٢٧ — ٢٨ •

(٤٥) A. H. Gardiner, The Admonitions of an Egyptian Sage, Leipzig, 1909, p. 41-42.

وزخرفها — ما وسعهم الى ذلك من سبيل — دونما قلق على الاخرة وما يصيبهم فيها ، لانهم لا يعلمون عنها شيئا ، ذلك أن واحـدا من الراحلين لم ياخذ معه شيئا ، مما اقتناه فى الدنيا ، عندما ذهب الى الاخرة ، كما أن أحـدا منهم لم يعد حتى ينبئهم بالخبر اليقين عن الحياة الاخرة وما فيها(٤٦) .

ولكنه صحيح كذلك ، أن فريقا منهم لم يرض عما آل اليه حال البلاد ، ولا سكت عما نزل بها من الكوارث والمحن ، فانطلقت الافواه والاقلام بما أتيح لها من التعبير عن الشوق الى العدل ، وعودة البلاد الى النظام والامن ، وذاعت فى الناس دعوة تبشر بالمخلص المنتظر الذى يملأ الدنيا عدلا ، بعد أن ملئت جورا(٤٧) ، يقول الحكيم «ايبو — ور» فى وصفه للمنقذ الذى يأمل الخير على يديه «انه يجلب البرودة الى اللهب ، ويقال عنه انه راعى الانسانية ، ولا يحمل فى قلبه شرا ، وحين تكون قطعانه (رعيته) متفرقة ، فانه يصرف يومه فى جمعها»(٤٨) .

وقد بدأ المصريون ، فى هذه الفترة من تاريخ أرض الكنانة المجيد ، يتخذون من المساواة بين الناس دستورا تسير الدولة عليه ، ونصوصا مكتوبة فيما صدر من نصائح على لسان الجالس على العرش نفسه ، يقول الملك الاهناسى «خيتى» لولده «مرى كارع» : «لا تفرق بين ابن النبيل وبين فقير الاصل ، وتخير الفرد بحسب كفاءته الشخصية»(٤٩) ، وذلك لان الناس سواسية أمام خالقهم ، يقول الملك الاهناسى « البشر رعايا الاله ، خلق السماء والارض وفق رغبتهم ، وأجرى المياه دافقة

---

(٤٦) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ص ٣١٤ ، وكذا
J. A. Wilson, in ANET, 1966, p. 467.

(٤٧) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٣٦ .

(٤٨) A. Erman, in LAE, London, 1927, p. 105-106.

(٤٩) J. A. Wilson, The Instrictions for King Meri-Ka-Re, in ANET. 1966, p. 415.

لهم ، وخلق الهواء لتحيا به أنوفهم ، وخلق العشب والماشية والطير والاسماك ليقتاتوا بها ...»[٥٠] .

هذا فضلا عن ايمان القوم بأن الوسائل المادية ليست وحدها هى الوسيلة للسعادة فى الاخرة ، وانما أصبح للاخلاق فى هذا العصر شأن عظيم فى تقرير مصير الانسان بعد مماته ؛ ومن ثم فقد غدت الاهمية الكبرى للوصول الى الخلد ؛ انما هو العمل الصالح ، يقول الملك الاهناسى لولده «لا تكن شريرا فالصبر خير ، اجعل ذكراك خالدا بحب الناس لك»[٥١] . ويقول «اجعل الناس يحبونك فى الدنيا ، فالخلق الطيب ذكرى للانسان»[٥٢] ، ثم يعلن فى صراحة ووضوح أن الخلق الطيب أفضل عند الله من القرابين التى تقدم لاستعطافه « ان خلق الرجل المستقيم أحب عند الله من ثور الرجل الشرير» ، (أى الثور الذى يقدمه كقربان الى الله)[٥٣] .

وهكذا أصبح القوم يؤمنون بمبادىء جديدة ، ومعان جليلة ، غلبت فيها الروح على المادة ، وأصبحت السعادة فى صالح الاعمال ، وفيما يكتسب المرء من فضائل ؛ فأشادت الاقلام بالنظام والعدل والمساواة وبشرت بأن الخلود لاتسوغه وجاهة أو ثراء ، وانما سبيله اجتناب الآثام وفعل الخيرات،وهى بهذا قد أرهصت بما علم الانبياء (وربما كانت عندهم بقايا تعاليم أنبياء) وأعدت الناس لما يبعثون به من رسالة ودين ، بل ربما نطقت ببعض ما بثته الانبياء بلفظه ومعناه[٥٤] ، مما يدل بوضوح على أن مصر انما كانت فى تلك الفترة أرضا خصبة لبذر بذور دعوة أبى الانبياء ، عليه السلام ، ومبادئه السامية .

---

(٥٠) A. H. Gardiner, The Instruction for King MeryKare, in JEA, I, 1914, p. 34.

(٥١) FRACTIONATOR

(٥٢) Ibid., p. 417.

(٥٣) Ibid., p. 417.

(٥٤) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٣٦ .

ولعل هذا كله يدعونا الى أن نتفق مع الذين يذهبون الى أن العصر الذى جاء فيه الخليل عليه السلام الى مصر ، انما كان على أيام الاسرة الثانية عشرة(٥٥) ، ذلك لان الاحوال المواتية التى كانت خليقة أن تجذبه اليها والاقامة فيها ، انما تهيأت واستقرت على عهد ملوك الاسرة الثانية عشرة ، ولم تتهيأ قبلها ، ولا استمرت طويلا بعدها(٥٦) .

ذلك أن الفترة التى سبقت الاسرة الثانية عشرة ، وخاصة تلك التى كانت على أيام الثـورة الاجتمـاعية الاولى ، انما كانت أيام فوضى سياسية وانهيار اقتصادى ، حتى أن «ايبو ــ ور» يصور لنـا حالة البلاد فى تلك الفترة العصيبة وكيف انقلبت الى عصابات ، وأصبح كل فرد فيها مسلحا بدرعه ، لان المشاغبين قد انتشروا فى البلاد يعيثون فيها فسادا ، فيقول « تدور رحى الفخـار ، حقا لقد شحب الوجه ، وأصبح حامل القوس مستعدا ، والمجرمون فى كل مكان ، ولا يوجد رجل من رجال الامس ، حقا ان الناهبين فى كل مكان»(٥٧) .

وهكذا عمت الفوضى البلاد ، وعز فيها الامن والامان ، وسـادت الحرب الاهلية ، فأخذ الاهل يقتلون بعضهم البعض الاخر ، حتى وصل الامر الى الاسرة الواحدة «فالرجل يذبح أخاه من أمه» ، « والرجل ينظر الى ولده نظرته الى عدوه»(٥٨) .

ويحدثنا «نفرتى» فى نبوءته عن ذلك كله ، فيقول « أصبحت البلاد فى كرب وعويل ، لقد حدث ما لم يحدث من قبل ، سيحمل الناس

---

(٥٥) نجيب ميخائيل : المرجع السابق ص ٦٩ ،
M. F. Mnger, op. cit., p. 3323.
وكذا Westminester Historical Atlas to The Bible, Philadelphia, 1946, p.
وكذا A. Weigal, A History of The Pharaohs, II, London, 1922, p. 40.

(٥٦) احمد عبد الحميد يوسف : ص ٢٤ .

(٥٧) J. A. Wilson, op. cit., p. 441.

(٥٨) A. Erman, op. cit., p. 99.

أسلحة الحرب ، حتى تعيش الارض فى اضطراب ، وسيصنع النــاس أسلحة من النحاس ، حتى يلتمسوا الخبز بالدم ، ويضحكوا ضحكة الموت»(٥٩) .

وانطلاقا من هذا كله ، فلم يكن أبو الانبياء ليأتى الى مصر فى ذلك الزمان ، فان هذه الاحوال التى نستطيع اتخاذها ــ فضلا عن حساب السنين من قرائن عصره ــ لمانعة رجل مثله ، أن يهجر جوعا الى جوع ، وأملاقا الى املاق ، بل يهجر أمنا واملاق الى اضطراب واملاق(٦٠) ، فضلا عن استحالة نشر الدعوة فى هذا الجو المحموم .

وأما بعد عهد الاسرة الثانية عشرة ، أى فى عهــد الاسرة الثالثة عشرة ثم دخــول الهكسوس مصر ، فرغم اضطراب الامــور فى تلك الفترة(٦١) ، فانها ، أى عصر الهكسوس ، هى التى يرجح العلماء دخول يوسف الصديق ، ومن بعده عشيرته من بنى اسرائيل ، الى مصر ، كما سنرى ، وليس بحال من الاحوال ، دخول أبى الانبياء أرض الكنانة .

وعلى أية حال ، فظاهر من رواية التوراة والمشنا(٦٢) أن أبا الانبياء انما دخل مصر جهرة ، ولم يدخلها تسللا ، وأنه لم يدخل فى عهد من

---

(٥٩) A. Erman, The Literature of The Ancient Egyptians, London, 1927, p. 1332-134.

(٦٠) تكوين ١٢/١٠ ، أحمد عبد الحميد يوسف : المرجــع السابق ص ٣٥ .

(٦١) انظر : من هذه الفترة (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ــ دار المعارف ــ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠١ ــ ٢٢٤) .

(٦٢) المشنا : احد قسمى التلمود (المشنا والجمارا) ، وهى مجموعة من الشرائع اليهودية المروية على الالسنة ، يعتبرها اليهود من مصادر التشريع عندهم وتأتى فى المقام الثانى بعد التوراة ، ويظنون أنها ترتفع الى موسى عليه السلام ، ومن ثم فهم يسمون «المشنا» التوراة الشفوية ، وقد كتبت بعبرية متطورة بالنسبة لعبرية العهد القديم ، تسمى عند اليهود «لغة الائمة» أو لغة الحكماء ، وتنقسم المشنا الى ستة أقسام يتضمن كل منها عدة أسفار ، بلغ جميعها ٦٣ سفرا أو مسكتة (انظر : محمد بيومى مهران : اسرائيل ــ الجزء الثالث ــ التلمود ص ٣٨٠ ــ ٤٥٧ ــ الاسكندرية ١٩٧٩) .

عهود الاضطراب والفوضى التى سبقت أيام الأسرة الثانية عشرة ، أو لحقتت بها على أيام الهكسوس ، بل انه ، صلى الله عليه وسلم ، انما أقبل ، وهو يعلم ، على دولة مستقرة منظمة ، سوف يسأل عند الحدود عن هويته ، وهوية من معه من رجال ونساء ، فكان منه ما كان من حديثه الى امرأته سارة ، فيما اتصلت روايته فى سفر التكوين من التوراة •

هذا ويستخلص أيضا من أحاديث المشنا فيما كان من دخول ابراهيم مصر مع سارة ، أن التخوم المصرية ، انما كان عليها من عمال المكوس من يسأل ويستقصى القادمين فيما يحملون فى أمتعتهم من عروض ، اذ روت أن الخليل عليه السلام قد خاف على فرعون وقومه الفتنة من جمال سارة ، فحملها فى تابوت وهم يعبرون تخوم الديار ، وسأل عمال المكوس عما فى التابوت ، فأنبأهم أنه شعير ، قالوا بل نأخذ المكوس على قمح ، قال خذوا ما تشاءون ، فعادوا يطلبون الضريبة على بهار ، فأجابهم الى ما طلبوه ، فارتابوا فيما يخفيه وأمروه أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا ، فقبل وأعطاهم سؤلهم ، فحيرهم قبوله كل ما يسومونه أن يبذله ، وخامرهم شك عظيم ، ففتحوا التابوت ، فاذا بالنور يفيض من وجه سارة ، حتى يعم الديار ، ويغشى وجه فرعون(٦٣) •

ورغم ما فى هذه الرواية من نقاط ضعف تكاد تقضى عليها ، وتحول الشك فيها الى يقين بعدم صحتها ، الا أنها فى الوقت نفسه ، انما تشير الى أن عصر دخول ابراهيم عليه السلام أرض الكنانة ، انما كان عصر استقرار وأمن فى البلاد ، فالحدود محمية ، وعمال المكوس يجبون الضرائب من القادمين الى مصر ، ولا يستطيع واحد منهم ، الا أن يخضع لما يريدون •

غير أن ما تشير اليه الرواية من قدرة ابراهيم المالية ، حتى انه كان

---

(٦٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ •

بقادر على أن يؤدى الضريبة على وسق التابوت ذهبا ، إنما يهدم رواية التوراة التي تذهب الى أن ابراهيم انما جاء الى مصر هربا من قحط حل بأرض كنعان ، فضلا عن تعارضها لبقية قصة ابراهيم عليه السلام، كما جاءت فى التوراة ، وكيف أنه عرض شرفه وشرف سارة — والعياذ بالله من إفتراءات يهود — فى مقابل قطيع أو قطعان من ماشية ، منحها اياه فرعون(٦٤) .

ثم اذا ما تذكرنا أن القصر الملكى على أيام الاسرة الثانية عشرة ، انما كان فى «ايثت تاوى» (على مبعدة ١٨ كيلا الى الجنوب من منف) وأن المكوس انما كانت تجبى على حدود الدلتا الشرقية (ربما عند «ثارو» وهى تل أبو صيفة فى مجاورات القنطرة شرق) لتبين لنا الى أى مدى لعب الخيال اليهودى فى القصة ، ولكن ما حيلتنا ، وكل رواية توراتية تناقض أخرى ، وهذه تناقض الثالثة ، وهكذا .

---

(٦٥) تكوين ١٢/١٠ — ٢٠ .

الباب الخامس

عصر الانتقــــال الثــــانى

(١٧٨٦ ـ ١٥٧٥ ق٠م)

ويتكون من :

الفصل الاول : الاسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

الفصل الثاني : الهكسوس فى مصر

الفصل الثالث : حــــرب التحــــرير

الفصل الأول

الاسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة

١ ـ صعوبة تاريخ عصر الانتقال الثانى :

ليست هناك فترة فى تاريخ مصر استعصت على المؤرخ المعاصر ، كما استعصت فترة عصر الانتقال الثانى (١٧٨٦ ـ ١٥٧٥ ق٠م) ، والتى تقع فيما بين نهاية الاسرة الثانية عشرة ، وبداية الاسرة الثامنة عشرة، فالمصادر المتاحة لنا عن هذه الفترة جد قليلة ، بل وباهتة كذلك،ومؤرخنا الوطنى «مانيتو» لا يمكن التعويل عليه كثيرا ، والامر كذلك بالنسبة الى تتابع الملوك الذى نقل الينا عنه ، أما بردية تورين فهى تقدم لنا بعض الاسماء ، ولكنها تحذف أسماء أخرى ، وأما قـائمتا سقارة وأبيدوس فهما تتجاهلان هذه الفترة تماما •

وفى الواقع ليس هناك من بين قوائم الملوك ما يحصى ملوك هـذه الفترة ، سوى قائمة الكرنك ، وهى فى حالتها المهشمة تستطيع أن تقدم لنا ثلاثين اسما ، وهو رقم يقرب من نصف العدد الذى تؤكده الاثار الباقية ، وانا لنجد من سوء الحظ أن هذه الاسماء مبعثرة بين أسماء ملوك الدولة القديمة والوسطى فى صورة غير منتظمة ، تجعل من العسير أن نقدم من ورائها تتابعا سليما ، والاثار المعاصرة التى يعتمـد عليها لاستخلاص الحقائق ، وملء الفراغات الزمنية قليلة ، وهى بصفة عامة لا تقدم نفعا كبيرا •

وقد أدى ذلك كله الى أن يلجأ المؤرخون الى مصدر لا يحظى بمثل هذه الاهمية فى ظروف أخرى ، وأعنى به «الجعارين» ، وهكذا كانت طرز الجعول التى عثر عليها تحمل خراطيش ملكية ، ثم مظهر تركيب الاسماء

نفسها ، وكذا أدلة أخـرى دقيقة ، من أهـم الاشياء التى استعان بها المؤرخون لتحقيق تاريخ هذه الفترة ، بخاصة وأن المصريين لم يكونوا راغبين فى تسجيل أحداث عصر الهكسوس البغيض • بل انهم حتى لم يحاولوا الاشارة اليه ، الا أيام الملكة «حتشبسوت» ، فضلا عن تدميرهم للكثير من آثار الهكسوس بعد أن كتب لهم نجحا بعيد المدى فى طردهم، بل ومطاردتهم حتى زاهى ، وتحرير الكنانة من دنسهم[١] •

هذا وتميل الابحاث الحديثة الى أن هذا العصر لم يستغرق أكثر من ٢٢٠ عاما ، وربما أقل من ذلك ، لان الاحداث التى مرت بها آسيا الصغرى لا تستغرق كل هذه المدة ، أما ذلك العدد الهائل من الملوك الذين حكموا فى تلك الفترة ، فيمكن تفسيره بأن هناك مجموعات كانت تحكم فى الشمال ، وأخرى فى مصر الوسطى ، وثالثة فى الصعيد ، وأن ذلك قد حدث فى أوقات متعاصرة ، أو على الاقل متقاربة ، وأن غـزو الشعوب الهند أوربية لمنطقة غربى آسيا ومصر ، انما تجعل نقاطا عديدة تربط بين الاحداث فى المنطقة مما يجعلنا نأمل فى أن تقـدم لنا بعض المصادر الاسيوية ما يساعدنا على ترتيب بعض التواريخ بدقة أكثر مما عليه الان ، وبالتالى تحديد تلك الفترة المظلمة من تاريخ البلاد[٢] •

٣ ـ الأسرة الثالثة عشرة (١٧٨٦ ـ ١٦٣٣ ق•م) :

انتهت الاسرة الثانية عشرة فى عام ١٧٨٦ ق•م ، بالملكة « سوبك نفرو» ، ربما بسبب عدم وجود وريث شرعى من الذكور يعتلى العرش بعدها[٣] وتصاب مصر بفترة من الضعف يقف المؤرخون حيارى أمامها، فحاول فريق منهم أن يرجعها الى ظهور أعداء لمصر فى سورية وفلسطين والنوبة ، اعتمادا على التماثيل والاوانى الصغيرة التى نقشت عليها فى

---

(١) A. H. Gardiner, op. cit., p. 147-149
وكذا J. Vercoutter, op. cit., p. 383-386.
(٢) J. Vercoutter, l'Egypte Ancienne, Paris, 1963, p. 71.
وكذا F. Daumas, le Civilisation de l'Egypte Pharaonique, Paris, 1965 p. 82.
(٣) W. C. Hayes, CAH, II, Part, 2, 1973, p. 42-43.

أخريات الاسرة الثانية عشرة ، تلك الدعوات التى تستنزل اللعنـة على الاعـداء[٤] .

على أن هناك وجها آخر للنظر يذهب الى أن نظام الاقطاع ربما كان قد بعث فى ذلك العهد من جديد ، وأن هناك عددا من الاسرات المحلية قد تقاسم حكم البلاد فى وقت واحد[٥] ، غير أن هناك من يرى أن وجهة النظر هذه لا تستند الا على تفسير لبعض الوثائق النادرة ، والمشتقة جغرافيا ، الامر الذى يجعلنا لا نعزو اليها قيمة احصائية ثابتة[٦] ، فضلا عن أن نظام الاقطاع كان قد قضى عليه منذ أواسط الاسرة الثانية عشرة، ولم يبق من آثاره غير صورة واحدة ، لايكاد التاريخ يعرفها فى غير امارة الكاب ، كما تشير الى ذلك لوحة المتحف المصرى رقم ٥٢٤٥٣ ، من عهد الملك «سواج — ان — رع»[٧] .

وهناك وجه ثالث للنظر ، يذهب الى أن الاسباب انما كانت خارجية فى الدرجة الاولى ، ذلك أن العالم القديم انما كان منذ القرن العشرين قبل الميلاد يغلى كالمرجل ، وقد سادت الثورات منطقة الشرق الادنى القديم ، وتعددت الغزوات حين بدأت الشعوب «الهندوأوربية» تأتى من الشمال والشمال الشرقى من مواطنها الاصلية فى أواسط آسيا ، لتستقر فى بلاد الرافدين وفى سورية .

وهكذا كانت تلك الهجرات تتقدم ببطء ، وكان ذلك فى مدى بضعـة قرون ، ونزلوا الهـلال الخصيب ، وتغلبوا على السـكان الذين كانوا يقيمون هناك ، أو أجلوهم عن ديارهم ، مما أدى الى اضطراب شديد بين تلك الاقوام والشعوب المستقرة فى تلك المنطقة .

---

(٤) جان يويوت : المرجع السابق ص ٩٩ .
(٥) T. Save - Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 53.
(٦) جان يويوت : المرجع السابق ص ٨١ .
(٧) أنظر : P. Lacau; BIFAO, 30, 1931, p. 88 F.
وكذا F. A. Schaeffer, ASAE, 28, 1928, p. 131.

على أن هناك من يقدم صورة مختلفة عن المنظر التاريخى ابان تلك الفترة من تاريخ الكنانة ، ذلك أن تصورنا القديم عن الفترة التى تلت الاسرة الثانية عشرة كحقبة اضطراب سياسى ، وتدهور ثقافى ، يجب أن ينقح الى حد كبير على ضـوء الاكتشافات التى تمت فى السنوات القريبة •

ويذهب «وليم هـيز»(٨) الى أن السبب فى قصر مدة حـكم ملوك الاسرة الثالثة عشرة ، والضعف الواضح فى عنصر الاستمرار والتتابع الاسرى ، انما يرجع الى أنهم لم يكونوا ملوكا بالمعنى الحقيقى للكلمة؛ فهم مجـرد دمى يوضعون فـوق العرش ــ ربمـا بالتعيين أو حتى بالانتخاب ــ ولفترة قصيرة محدودة ، فى حين كانت السلطات الحقيقية فى يد الوزراء ، يقبضون على خيوطها بقوة ، وهـذه النظرية جـذابة للغاية ، ولكن من المستحيل اثباتها •

ومع ذلك فليس هناك من ريب فى أن عدم استقرار السلطة المركزية فى البلاد قد أنهك اقتصادها ، وان بقيت الوحدة الوطنية متماسكة،ولمدة قرن على الاقل ، كانت فيه مصر تحكم بفرعون واحد ، وان كان ضعيفا ، وفى نفس الوقت ظلت هيبة مصر فى النوبة وفى غربى آسيا قوية الى حد كبير(٩) •

ويذهب المؤرخ المصرى «مانيتو» الى أن ملوك الاسرة الثالثة عشرة انما كانوا من طيبة ، وانهم كانوا ستين ملكا ، حكموا ٤٥٣ عاما(١٠) ، غير أننا نعرف أن الاسرة الثانية عشرة انما قـد انتهت فى حوالى عـام

---

(٨) W. C. Hayes. Egypt. From The Death of Amme nemes III. to Seqenenre II. CAH II. Part, 2, Cambridge, 1973, p. 44-45.

(٩) W. C. Hayes. A Papyrus of The Late Middle Kinkdom : in The Brooklyn Museum. p. 146-148.

(١٠) W. G. Waddell. Manetho. with an English Translation London, 1940, 72-75.

١٧٨٦ ق٠م ، وأن الاسرة الثالثة عشرة قد انتهت — كما سوف نرى — في عـام ١٦٢٣ ق٠م ، ومن ثم يمكننا القول أن هنـاك خطأ في تقدير «مانيتو» — أو من نقلوا عنه — ومن ثم يصبح حكم الإسرة الثـالثة عشرة ١٥٣ عاما ، وليس ٤٥٣ عاما ، وأما بردية تورين فانها تقدم لنا ما بين ٥٠ ، ٦٠ ملكا ، ولكنها تجاوزت عن عدد من ملوك الاسرة عرفناهم من مصادر أخرى[١١] ٠

وعلى أى حال ، فان ملوك الاسرة الثالثة عشرة — مثلهم في ذلك مثل أسلافهم من ملوك الاسرة الحادية عشرة والثانية عشرة — انما كانوا من طيبة ، أو على الاقل كان معظمهم من طيبة ، وقد عثر على معظم آثارهم في طيبة ومجاوراتها — في الدير البحرى والكرنك والمداموود وطيبـة — وقد خصصت لآلهة طيبة — وبخاصة الاله مونتو — هذا فضلا عن أن كثيرا من أسمائهم الشخصية (أمنمحات ، أنيوتف ، سنوسرت ، نفـر حونب) من طـراز طيبى[١٢] ، وان كان اسم «سوبك حـوتب» أكثر الاسماء استعمالا[١٣] ، ومع ذلك فان «وليم هيز» انما يذهب الى أن العاصمة المصرية انما قد ظلت حتى عام ١٦٧٤ ق٠م ، كما كانت من قبل «ايثت تاوى» ، على مقربة من اللشت ، وان كان البـلاط ينتقل أحيانا الى طيبة[١٤] ٠

وأيا ما كان الامر ، فان الاراء انما تتفق — أو تكاد — على أن مؤسس الاسرة الثالثة عشرة انما هو «أمنمحات سوبك حـوتب» (سخم رع خوتوى) ، ويبدو أنه كان وريثا شرعيا للعرش ، وأنه كان يرتبط بملوك الاسرة الثانية عشرة عن طريق الدم ، أو حتى عن طريق الزواج من

(١١) E. Drioton and J. Vandier. l'Egypte. Paris, 1952, p. 284-287.

(١٢) W. C. Hayes, CAH. II. Porr, 2, 1973, p. 45.

(١٣) J. Vercoutter, op. cit., p. 388.

(١٤) W. C. Hayes. JEA. 33, 1947, p. 10-11, JNES. 12 1953. p. 38-39.

«سوبك نفرو» آخر ملوك الاسرة الثانية عشرة[١٥] ، وأن انتقال السلطة اليه انما قد تم فى هدوء ، وبدون عنف[١٦] ، وان كان هناك من يرى أن الرجل لم يصل الى العرش عن طريق الزواج،وانما اغتصبه اغتصابا[١٧].

وأيا ما كان الامر ، فان مصر على أيامه استمرت تحكم النوبة حتى «سمنة» ، حيث وجد اسمه محفورا هناك على الصخور ، بجوار اسم «أمنمحات الثالث»[١٨] ، وانه قام فى العام الرابع من حكمه بتسجيل ارتفاع الفيضان عند مقياس سمنة وقمة ، عند الشلال الثانى[١٩] ، مما يدل على أن الفرعون قد ركز مجهوداته على تلك المنطقة ، حيث أنه ربما كان يشغل وظيفة الحاكم هناك قبل أن يرتقى العرش[٢٠] ، وأنه استمر يحكم أملاك أسلافه الواسعة ، كما تركها «سنوسرت الثالث»[٢١] .

ويبدو أن الرجل لم يحكم سوى أربع سنوات ، ذلك لان مقاييس منسوب مياه النيل لم تدون عند قلعتى سمنة وقمة بعد هـذا العـام الرابع ، ومع ذلك ، فيبدو أن قـوة ذلك الحاكم وحـزمه — على قصر أيامه — أتاحت له أن يوجه كثيرا من نشاطه الى أعمال العمران ، فأخذ فى اصلاح عمائر السلف فى غير مكان من أقـاليم الديار ، وعواصمها المختلفة ، مثل طيبة والمدامود واللاهون وتل بسطة[٢٢] .

وهناك ما يشير الى أن خليفته «أمنمحات سونب اف» (سخم كارع) قد حكم مصر كلها ، حيث وجدت آثاره فى مصر العليا والسفلى فقد عثر

---

(١٥) E. Drioton and J. Vandier, op. cit., p. 283. 322.

(١٦) E. Drition and J. Vandier, op. cit., p. 287.

وكذا J Vecoutter, op. cit., p. 387.

(١٧) احمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٦٤ .

(١٨) B. Porfer, and R. L. B. Moss, op. cit., VII, p. 150, 156.

(١٩) De Rouge, Revue Archeologique, V. P. 312.

(٢٠) A. Weigall, op. cit., p. 35.

(٢١) J. Vercoutter, op. cit., p. 388.

(٢٢) أحمد بدوى : المرجع السابق ص ٢٦٤ .

وكذا F. L. Griffith, Bieartic Papyri from Kahun and Groub. p. 87.

على اسمه منقوشا على لوحة اكتشفت فى «أتريب» (حت حرى ايب = أثر يباى = بنها الحالية) ، كما عثر له على بعض الاثار فى الفيوم وفى بعض مناطق الصعيد ، وان كان هناك ما يشير الى أن السيادة المصرية فى النوبة انما قد بدأت فى التدهور ، فاسم الملك لم يعد له وجود فى صخور سمنة ، وانما فى «أسكوت» ـ على مبعدة ١٨ ميلا الى الشمال من الحدود التى اختطها سنوسرت الثالث العظيم[٢٣] .

وأما فى آسيا فمازال نفوذ مصر قويا ، ففى أيام الملك «سحتب ايب رع» ـ وهو الخلف المباشر للملك «أمنمحات سونب اف» ، نرى «ياكين ـ اليوم» أمير بيبلوس يعترف بنفسه بأنه «خادم ملك مصر»[٢٤] .

وتستمر الاسرة الثالثة عشرة فى الحفاظ على نفوذ مصر الخارجى ، وهناك فى «سمنة» تمثال للملك «خوتوى رع» (وجاف) ، يدل على أن المصريين مايزالون يحتفظون بحماية حدودهم عند الشلال الثانى[٢٥] ، هذا وقد عثر «جيكييه» عام ١٩٢٩م وعلى مبعدة كيلو مترين جنوبى مصطبة فرعون ، فى منطقة سقارة القبلية ، على هرم بناه الملك «وسر كارع» (خنجر) ، مما يدل على أن ملوك الاسرة الثالثة عشرة مايزالون يحكمون مصر العليا والسفلى ، هذا ولم يعثر على معبد واد لهذا الهرم ولم يكتشف حتى الان طريق صاعد له ، وان وجد له معبد جنازى فى الجهة الشرقية منه ، وهيكل قرابين فى الجهة الشمالية ، وعلى أى حال، فلقد شيد هرم «خنجر» هذا من الطوب ، وكساؤه الخارجى من الحجر الجيرى[٢٦] .

ولعل عهد الملك «خع سخم رع ، نفر حوتب الاول» (١٧٤٠ ـ

---

(٢٣) J. Vercoutter, op. cit., p. 388.
(٢٤) W. C. Hayes, The Scepter of Egypt, I, N. Y., 1953, p. 342.
(٢٥) E. A. W.Budge, The Egyptian Sudan, its History and Monuments, I London, 1907, p. 484-486.
(٢٦) أحمد فخرى : المرجع السابق ص ٣٣٠ ، ٣٣٣ .
وكذا G. Jequier, Deux Pyramides du Moyen Empire, Cairo, 1933.

١٧٣٠)[٢٧] من أهم عهود هذه الاسرة[٢٨] ، ولدينا من عهده أهم أثر لدارسى الكتابة الهيروغليفية وهـو لوحة كبيرة ، كشف عنهـا العالم الفرنسى «أوجست فرديناند فرانسوا ماربيت» (١٨٢١ — ١٨٨١م) فى أبيدوس[٢٩] ، وتركت لحالها مهملة فى المنطقة بالنسبة الى حالتها المشوهة تشويها بالغا ، ولايزال مرماها العام واضحا ، رغم أن النسخة الوحيدة التى بين أيدينا الان مليئة بالعيوب •

وعلى أى حال ، فهى تعد ثانى أقدم مثال ، كما تعد أكثر النمـاذج اتقانا لطراز الكتابة الملكية المشار اليها من قبل ، ويصور الملك وهـو يستشير حـاشيته منبئا اياهم أنه يود أن يصوغ تمثـال للاله أوزير وتاسوعة فى أشكالهم الحقيقية[٣٠] • ومن ثم يظهر الملك رغبة ملحة فى أن يزور مكتبة معبد الاله أتوم فى هليوبوليس ، لكى يفتش فى الكتب القديمة بحثا عن ضالته قبل أن يأمر بتنفيذ المشروع[٣١] •

ويتم لفرعون ما أراد ويرسل موظفا الى أبيدوس ليمهد الطريق ، فيقوم بعمل الترتيبات كى يظهر أوزير فى الموكب فى قاربه المقدس ، ثم يصل الملك بشخصه ، ويشرف بنفسه على صناعة الصور ، ويسهم فى الابادة التقليدية لاعداء الاله ، وأما بقية النص فمخصص للملك الذى يتسم بالتقوى للمعبود ، ولتهديد من تسول له نفسه مستقبلا ، أن يحول دون تذكر مثل هذا الملك الخير العظيم[٣٢] •

ويبدو أن سيادة «نفر حوتب الاول» كان معترفا بها فى سورية ،

---

(٢٧) يرى «سيف سودربرج» أنها فى الفترة (١٧٦٠ — ١٧٤٠ ق٠م) (انظر : JEA, 37, 1951, p. 54.)

(٢٨) W. F. Albright, BASOR, 99, 1945, p. 16.

(٢٩) A. F. F. Mariette, Catalogue des Monuments d'Abydos, No. 767, p. 234.

(٣٠) E. Drioton and J. Vandier, op. cit., p. 315.
وكذا A. H. Gradiner, op. cit., p. 154.

(٣١) W. C. Hayes, op. cit., p. 50.

(٣٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 154.

وقد أدى ذلك بالتأكيد الى القول بأن الدلتا ــ ما عدا منطقة خويس ــ وهى سخا الحالية ــ انما كانت ماتزال تحت ادارته[٣٣] ، وتوضح لوحة من الستياتيت عثر عليها عند وادى حلفــا أن نفوذه قــد امتد الى هناك[٣٤] ، بل ان الموقف هنا أصبح كثير الشبه بما كان عليه أيام الاسرة الثانية عشرة ، فقد عثر فى منطقه النوبة السفلى على كثير من المقابر الغنية ، والتى تقع على مقربة من المدن المحصنة ، وأما فى السودان ــ فى كرما ــ فقد اتصفت الحضارة التى سادت تلك المنطقــة بالثراء البالغ كنتيجة لازدهار التجارة المصرية[٣٥] .

ولعــل أكثر الاثار أهمية نقش كشف عنه بعيدا فى «ببيلوس» ، ويصور «يوناثان» أمير ببيلوس ، جالســا أمام شخص عظيم اختفت صورته ، ولكن النصوص المدونة الى جــانبه دلت على أنه الفرعــون المصرى «نفر حوتب» (خع سخم رع) بالذات[٣٦] ، وربما كان «يوناثان» أو «يانتين» هذا ، انما هو ابن الامير «ياكين ــ اليوم» الذى كان أميرا لمدينة ببيلوس على أيام الملك «سحتب ايب رع الثانى» وربمــا كان «يانتين» هو نفسه أمير ببيلوس ، الذى يدعى «يانتين خامو» الثرى ، الذى تذكره سجلات مدينة «مارى» الشهيرة[٣٧] ، وفى هذا ما يشير الى أن النفوذ المصرى فى جبيل انما قد استمر الى ما قبل سيطرة الهكسوس على الدلتا بعقد من السنين ، أو نحو ذلك[٣٨] .

وعلى أى حال ، فلقد جاء بعد «نفر حوتب الاول» أخوه « ســبك حوتب» (خع نفر رع) وقد عثر له فى تانيس (صان الحجر) على عدة تماثيل ، يبدو أنها قد نقلت الى الدلتا فى فترة متأخرة ، ربما فى الاسرة

(٣٣) W. C. Hayes, op. cit., p. 49.

(٣٤) A. H. Gardiner, op. cit., p. 154.

(٣٥) T. Save - Soderbergh, Aegypten und Nubien, 1941, p. 119 F.

(٣٦) عبد العزيز صالح : مصر والعراق ص ١٨٤ ــ ١٨٥ .

(٣٧) W. F. Albright, BASOR, 99, 1945, p. 9 F.

(٣٨) W. S. Smith; Interconnections of The Ancient Near East, London, 1965, p. 16.

التاسعة عشرة ، ذلك لان النقوش المدونة على واحد من هذه التماثيل انما تذكر اسم الاله «خمن» معبود «حفات» (المعلا الحالية ، فيما بين أرمنت واسنا) كما أن هناك تمثالا له عثر عليه في جزيرة «أرجو» فيما وراء الشلال الثالث ، يبدو أنه نقل هناك في عهد الاسرة الخامسة والعشرين ، مما يشير الى أن مصر ، على أيام الملك «سبك حوتب» كانت ملتزال تسيطر على الجنوب •

وعلى أي حال ، فان آثار الاخوين «نفر حوتب» و «سبك حوتب» انما تتركز بصفة خاصة في منطقة طيبة ، والتي كانت مقرا لهما ، ولعل مما تجدر الاشارة اليه هنا ، وجود «جعل» مشترك بين الملك «خع نفر رع» (سبك حوتب) وخليفته «خع عنخ رع» مما يشير الى تتابع الملكين على العرش فضلا عن أنهما انما كانا ينويان اقامة حكم مشترك بينهما ، وهى حيطة حكيمة في فترة اضطراب كهذه[٣٩] •

وأيا ما كان الامر ، فان البلاد انما تمر — بعد حكم الاخوين «نفر حوتب» و «سبك حوتب» بفترة من الشغب ، وتقدم لنا قوائم الملوك والاثار فيضا من أعداد الملوك المحليين الذين كانوا — فيما يبدو — معاصرين بعضهم للبعض الاخر وتصبح مصر — وهى في تلك الحال من الضعف والفوضى — ثمرة ناضجة يمكن أن تمتد اليها أي يد ، دون كبير عناء ، ربما نتيجة للاضطرابات التى سادت سورية وتسرب الاسيويين الى الدلتا[٤٠] ، والذين كانوا خليطا من جماعات آرية غازية، دفعتها الظروف الى جنوب الشام ، وبين جماعات آمورية هاربة ، عجزت عن الاحتفاظ بأرضها في سهول الشام وبواديها[٤١] ، وربما كنتيجة لقلة الاستقرار ، وفساد الادارة ، وتفرق الكلمة ، وربما للسببين معا •

---

(٣٩) ايتين دريوتون وجاك فاندييه : مصر — ترجمة عباس بيومى القاهرة ١٩٥٠ ص ٣١٩ — ٣٢٠ •

(٤٠) T. Save - Soderbergh, op. cit., p. 55.

(٤١) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ١٨٩ •

وأيا ما كان الامر ، فما أن يجلس «مر نفر رع — ابى» على عرش الكنانة حوالى عام ١٧٠٠ ق٠م ، حتى تبدأ البلاد فى الانهيار السريع نحو النهاية المحتومة ، رغم أن حكمه الطويل — والذى قارب ربع قرن من الزمان[٤٢] — قد يشير الى اطمئنان رعاياه ، والى أنه لم يكن واحدا من هؤلاء الملوك الضعاف ، ولكن ربمـا كان ذلك بسند من الهكسوس ، الذين كانوا قد سيطروا على شرق الدلتا — فيما يرى بعض الباحثين — قبل عقدين من اعتلائه العرش ، أى حوالى عام ١٧٢٠ ق٠م[٤٣] ٠

ويخيم المنظر التاريخى ، بعد «مر حوتب» الملقب «ايناى» فـلا يخلف مما يرى فى الغسق سوى القليل من وراء الاسماء الملكية ، التى تقدمها لنا بردية تورين ، وهناك رأى يقترح توحيد الملك «جد نفر رع» (دودى موسى) بالملك «توتيمايوس» الذى شهد حكمه — فيما يروى مانيتو — غزو الهكسوس لمصر[٤٤] ، ولان اعتلاء «دودى موسى» العرش لا يمكن أن يكون قبل عام ١٦٧٣ ق٠م ، وأن الهكسوس قد استقروا فى شرق الدلتا حوالى عام ١٧٣٠ ق٠م ، فمن المحتمل أن الغزو الذى ذكره «مانيتو» انما كان يعنى به احتلال الهكسوس لمنف (والمدينة الملـكية ايثت تاوى) بقيادة «سالاتيس» مؤسس الأسرة الخامسة عشرة[٤٥] ، وان كان «سير ألن جاردنر» يرى أن هناك أسسا قوية تتصل بالنطـق السليم ، تجعلنا لا نقرن حامل الاسم الملكى «دودى موسى» (دجـد موسى) بالملك «توتيمايوس»[٤٦] ٠

كان سقوط منف فى أيدى الهكسوس فى حوالى عام ١٦٧٤ ق٠م ، بمثابة النهاية الفعلية للاسرة الثالثة عشرة ، وقد ذكرت بردية تورين

---

(٤٢) A. H. Gardiner, The Royal Canon of Turin, Oxford, 1959, p. 16, Pl. 3.

(٤٣) L. Habachi, ASAE, 52, 1954, p. 471-479, 558.

(٤٤) T. Save - Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 62.

وكذا W. F. Albright, BASOR, 99, 1945, p. 15.

(٤٥) W. G. Waddell, Manetho, London, 1940, p. 72-75.

(٤٦) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 157.

أكثر من ستة أسماء ملكية بعد ذلك ، الا أن هؤلاء الملوك لم يكونوا فى الواقع سوى أشباح ، أو مجرد أتباع للهكسوس ، أو حتى فى أحسن الفروض حكاما محليين ، لايعدو حكم الواحد منهم أكثر من منطقة محدودة ــ ربما لا تزيد فى بعض الاحايين عن مدينة واحدة ــ بل ان الملك «دودى موسى» نفسه انما قد عرف من آثار وجدت فى اقليم طيبة فقط ، سواء أكانت من الدير البحرى ، أو من الجبلين(٤٧) .

وهناك «دودى موسى» آخر أو الثانى عثر على اسمه على لوحة من ادفو(٤٨) ، ثم عثر على اسم أحد الملكين «دودى موسى» الاول والثانى على لوحة من ادفو كذلك ، فضلا عن نقش صخرى من الكاب ، وقطعة من الالبستر من كرما ، وعلى أى حال ، فيبدو أن الملكين انما كانا يحكمان فى فترات متقاربة فى مصر العليا ، وأنهما ينتسبان الى أخريات أيام الاسرة الثالثة عشرة ، والتى عاصرت فترة ما من بداية الاسرة الرابعة عشرة فى الدلتا(٤٩) .

وما أن يمضى قرابة ربع القرن من الزمان على سقوط منف فى أيدى الهكسوس وفى حوالى ١٦٥٠ ق.م ، الا ونرى الاسرة الثالثة عشرة فى انهيار شبه تام ، حتى فى موطنها الاصلى فى طيبة ، حيث تنهض أسرة حاكمة جديدة ، تحاول جاهدة انقاذ ما يمكن انقاذه من أرض الكنانة من الوقوع فى أيدى المتطفلين الاسيويين ، تلك هى الاسرة التى عرفت فيما بعد بالاسرة السابعة عشرة المصرية .

ومع ذلك فان بردية تورين ومانيتو ظلا يعتبران الاسرة الثالثة عشرة ، على أنها الاسرة الشرعية حتى عام ١٦٣٣ ق.م ، على الرغم من أنه فى كل الاحتمالات ، لم يكن كل الملوك الذين حرص هذان

---

(٤٧) W. C. Hayes, op. cit, p. 52-53.
(٤٨) A. Barsanti, ASAE, 9, 1908, p. 1-2.
(٤٩) R. Engellbach, ASAE, 21, 1921, 189-190.

المصدران على تسجيلهما بعناية فى الفترة (١٦٥٠ – ١٦٣٣ ق٠م) أكثر م أمراء محليين ، خلفاء ، وربما أتباع ، لحكام طيبة الجدد[٥٠] •

٣ – الاسرة الرابعة عشرة (١٦٣٣ – ١٦٠٣ ق٠م)

انتهز الامراء المحليون فى منطقة سخا بغرب الدلتا فرصة الضعف التى انتابت الاسرة الثالثة عشرة ، فضلا عن بعدهم عن نفوذ الهكسوس فى شرق الدلتا ، ومن ثم فقد استقلوا عن الاسرة الثالثة عشرة – ولمدة ثلاثين عاما بعد سقوطها – متخذين من مدينة «خويس» (سخا الحالية فى مجاورات كفر الشيخ) عاصمة لهم ، ومنشقين عن بقية أرض الكنانة، وطبقا لرواية «مانيتو» فان عدد ملوك الاسرة الرابعة عشرة انما كانوا ستة وسبعين ملكا ، وأن أيام حكمهم أربعة وثمانين ومائة عـام وأنهم كانوا من منطقة سخا ، التى اتخذوا منها مقرا لعرشهم[٥١] •

وهكذا كتب على الكنانة أن يتنازع السلطـان فيها فى تلك الايام النكدة من تاريخها ، ملوك الاسرة الثالثه عشرة ، وأمراء طيبة فى الصعيد الاعلى ، وأمراء سخا فى غرب الدلتا ، فضلا عن الاسيويين المتطفلين فى شرقها ، وكان الموقف جد مختلف بالنسبة الى كل منهم ، كانت الاسرة الثالثة عشرة تلفظ أنفاسها الاخيرة ، وكان أمراء سخا من الضعف بدرجة تجعلهم غير قادرين على منع تسلل العدد المتزايد من القبائل الوافدة من آسيا الى مصر ، وكان أمراء طيبة بمثابة القبس الذى يأمل القوم أن ينير الطريق وسط الظلام الحالك ، ومن ثم فقد عملوا جـاهدين على احياء تقاليد الدولة الوسطى المجيدة ، أملا فى أن تبقى جذوة الاستقلال المصرية حية وليمهدوا الطريق أمام خلفائهم المحـاربين فى أن يطهروا البـلاد فى غـد قريب من دنس الاستعمار ، وذل الاستعباد ، وكان الاسيويون المتطفلون – أو الهكسوس كما عرفوا فيما بعد – هم القوة التى قدر لها أن تحكم الجزء الاكبر من البلاد ، ولكن الى حين •

---

(٥٠) W. C. Hayes, op. cit., p. 53.

(٥١) J. Vercoutter, op. cit., p. 390-391.

الفصل الثانى

الهكسوس فى مصر[1]

١ ـ دخول الهكسوس مصر :

يزعم المؤرخ اليهودى «يوسف بن متى» فى «مجادلاته ضد ايبون» أنه يروى الكلمات الاصيلة عن«مانيتو»فيقول : «فى عهد الملك توتيمايوس لسبب لا أعرفه حلت بنا ضربة من الله ، وفجأة تقدم فى ثقة بالنصر ، غزاة من اقليم الشرق من جنس غامض الى أرضنا ، واستطاعوا بقـوة أن يتملكوها فى سهولة ، فى ضربة واحدة ، ولما تغلبوا على حكام الارض أحرقوا مدننا بغير رحمة ، وقوضوا أرض معابد الالهة ، وعاملوا المواطنين بعدوان قاس ، فذبحوا بعضهم ، وساقوا زوجات آخرين مع أطفالهم الى العبودية ، وأخيرا عينوا من بينهم ملكا يدعى «سالتيس» وكان مقره منف ، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى ، وكان يترك وراءه حاميات فى الاماكن الهامة ...» .

وتستمر الرواية فتذهب الى أن الغزاة اتخذوا من أفاريس عاصمة لهم ، وترك ملكهم فيها حامية عدد رجالها ٢٤٠ ألف جندى ، مزودين باسلحتهم لحماية حدوده ، ونشر الرعب بين القبائل الاجنبية[2] .

وتحدثنا النصوص المصرية ـ كمـا فى معبد حتشبسوت فى بنى

---

(١) قدم المؤلف دراسة مفصلة عن الهكسوس فى كتاب آخر له (انظر : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ـ القاهرة ١٩٧٦ ص ١٠١ ـ ٢٢٣) .

(٢) W. C. Waddell, Mentho, London, 1940, p. 79-83.

حسن[٣] ، وبردية ساليه الاولى فى عهد مرنبتاح[٤] — عن جحافل من الهكسوس هاجمت أرض مصر فى أخريات أيام الدولة الوسطى ، وكانت قد بدأت تضمحل وتكبو كبوة طويلة منذ عهد الاسرة الثالثة عشرة ، فلم يجد العدو المغير أية مقاومة عند دخول الدلتا من الشرق ، غير أن هناك ما يثبت أن الهكسوس قد وجدوا مقاومة عنيفة فى الدلتا ، اذ تشير تلك الجبانة الواسعة التى عثر عليها عام ١٩٤٥م فى «كوم الحصن» بمركز كوم حمادة ، أن أصحابها كانوا فى حالة حرب ونضال وأن كلا منهم قد اصطحب معه الى العالم الاخر أدواته الحربية ، التى فضلها على أى متاع آخر من الدنيا[٥] .

غير أن هناك وجها آخر للنظر ، يذهب الى أنه لم يكن هناك غــزو بالمعنى المفهوم ، وانما كان تسللا من العناصر الاسيوية التى استقرت فى شرق الدلتا على مقربة من مواطنها الاصلية ، ربما بسبب اضطرابات انتشرت فى المناطق التى تقع الى الشمال والى الشرق من مصر ، وأما بالنسبة للمصريين فقد ظهر المقتحمون ، وكأنهم من نفس أولئك الاسيويين الذين دعوهم من قبل بأسماء عامو ، ستيتيو ، منتوساتت ، قوم رتنو ، بمعنى استخدام كل الاسماء التى عرفت فى الدولة القديمة والوسطى ، والتى كانت تشير الى الاسيويين الذين كانوا جيرانا لمصر ، وهذا يعنى أن المصريين — على عكس ما نقــل عن مانيتو — لم يروا فيهم شعبا مجهول الاصل ، أو غازيا جديدا ، وأنهم كأولئك الذين أزعجوا الحدود الشمالية الشرقية فى عصر الانتقال الاول[٦] .

وعلى أى حال ، فرغم أن كثيرا من الاسيويين كانوا فى مصر ، فيما بين نهاية الاسرة الثانية عشرة وأواسط الاسرة الثالثة عشرة ، فان تسلل

(٣) J. H. Breasted, ARE, II, 122-126.

(٤) Ibid., p. 165-167.

(٥) عبد المنعم ابو بكر : كفاحنا ضد الغزاة ص ٢٧ — ٢٨ .

(٦) J. Vercoutter, op. cit., p. 392.

وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 136.

الهكسوس[٧] أنفسهم ، بمعنى العناصر التى سيطرت على مصر ، انما قام بشكل أساسى فيما بين عامى ١٧٢٠ ، ١٧٠٠ ق٠م ، والتى تشمل عهود «سوبك حوتب الخامس» و «نفر حوتب الثالث» و «واح ايب رع بارع ايب» من الاسرة الثالثة عشرة ، وكانت الخطوة الكبرى هى فرض سيطرتهم على المناطق الشرقية من الدلتا ، واتخاذ عاصمة جديدة هناك، كان المصريون قد أطلقوا عليها اسم «حت وعرت» ، وهى اسم بقى معروفا حتى الان باسم «هوارة» ثم حوره الاغريق الى «أفاريس» •

وقد اعتمد اختيار هذه العاصمة على أساس وقوعها وسط أنصار الهكسوس ، وقيامها فوق كثبان رملية تطل على فرع النيل ، وحماية المناقع لها من حولها ، ثم على أساس قربها من آخر المواطن التي وفد الهكسوس منها على مصر (أى من فلسطين) وقربها من الطريق التجارى البرى الذى يصل بين جنوب الشام ، وقد حصن الهكسوس عاصمتهم الجديدة تحصينا شديدا ، وزودوها بحامية كبيرة العدد ، اتقاء ثورات المصريين ، من ناحية ، واتقاء الهجرات المحتملة الجديدة التى تخوفوا أن يقوم بها أقرباؤهم الاريون أو الاموريون[٨] •

ثم بدأ الهكسوس يتجهون نحو الاستيلاء على منف ، وقد تطلب منهم ذلك أكثر من ٤٦ عاما ، كانوا أثناءها يسيطرون على مقاطعات الدلتا ــ ما عدا المناطق الغربية منها ، حيث كانت الاسرة الرابعة عشرة تحكم من مدينة سخا من مجاورات كفر الشيخ[٩] ــ وهكذا استطاع الهكسوس

---

(٧) اختلف الباحثون فى تفسير اسم «الهكسوس» ، فذهب رأى الى انه بمعنى ملوك الرعاة ، لان «هيك» تعنى فى اللغة المقدسة ملك و «سوس» تعنى فى اللغة الدارجة «راعى» ، وذهب رأى آخر الى أنه بمعنى الملوك الاسرى ، لان كلمة هيك المصرية تعنى «أسير» ، وأرجح الاراء أن كلمة هكسوس مشتقة من اصطلاح «حقا ــ خست» (وتجمع حقاو ــ خسوت) بمعنى «رئيس البلد الاجنبية الجبلية» ، كما أنها تشير الى الحكام وحدهم ، وليس الى الجنس كله •

(٨) عبد العزيز صالح ، مصر والعراق ــ القاهرة ١٩٦٧ ص ١٩٠ •

(٩) J. Vercoutter, op. cit., p. 393.

حوالى عام ١٦٧٤ ق•م ، احتلال منف ، وقد صاحب ذلك ، دون شك ، مقاومة عنيفة من جانب المصريين ، أحرقت أثناءها المدن ودمرت المعابد ، وخضع قطاع من السكان الوطنيين لقسوة الطغيان[١٠] •

هذا ويذهب ((سيف سودر برج)) الى أن حكم الهكسوس فى مصر ، انما كان مجرد تغيير فى القيادة السياسية ، ولم يكن غزوا واسع المناطق، قامت به جماعات كثيفة من عنصر أجنبى هام ، يميزه أسلوب متقدم من أساليب الحرب ، وحضارة خاصة ، وتؤكد وجهة النظر هذه شواهد أثرية معاصرة ؛ منها (أولا) وجود مقابر كثيرة فى مصر من عصر الهكسوس ، كتلك التى عثر عليها فى عام ١٩٦٨ فى تل الضبعة ، قريبا من قنتير ، غير أنه لا توجد أية اشارة واضحة فيها لغزو قام به شعب أجنبى من الشمال •

ومنها (ثانيا) وجود أوان فخارية أجنبية كثيرة ، غير أن تلك الاوانى لا تعدو أن تكون نتيجة تزايد مطرد للبضائع الاجنبية ، ومنها (ثالثا) عدم وجود تغيير مفاجىء فى عادات الدفن ، وان كان هناك عدد محدود للغاية من المقابر فى تل اليهودية — وتقع على مبعدة ثلاث كيلو مترات جنوب شرقى شبين القناطر ، ٢٣ كيلا من القاهرة — وأبو صير الملق وسدمنت ودشاشة (بمحافظة بنى سويف) ينسب الى الهكسوس ، ورغم ذلك فان هذه الصنعة غير مؤكدة ، فمقابر أبو صير الملق — على الاقل — ترجع الى أخريات المرحلة الاخيرة من عصر الهكسوس •

ومنها (رابعا) أن ما عرف باسم ((فخار تل اليهودية)) على أنه من منتجات الهكسوس أمر مشكوك فيه ، ذلك أنه من الخطورة بمكان اتباع أسلوب فى البحث يؤدى الى استنتاج تحركات شعبية ، استنادا الى وجود نوع معين من الاوانى الفخارية وحدها ، ما لم يوجد فى الوقت نفسه بعض التغيرات الهامة فى عادات الدفن ، كما أنه من الممكن فى

---

(١٠) W. C. Hayes, Egypt, From The Death of Ammenemes. III, to Sequenenre, II, 1973. p. 53.

أغلب الاحايين ارجاع حدوث تغيير ما فى الشواهد الاثرية ببساطة الى التجـارة •

هذا فضلا عن أن هذا النوع من الفخار قد وجد فى مصر قبل وصول الهكسوس اليها بزمن طويل فى منطقة النوبة السفلى ومصر الوسطى ، وكل ما يمكن أن يقال عن العلاقة بين الهكسوس وبين أوانى فخـار تل اليهودية ، هو أن الهكسوس ربما قد أعجبهم هذا النوع من الفخار ، وأن كميات كبيرة منه قد استوردت عندما كان الهكسوس يسيطرون على التجارة ، ومن ثم فقد أصبح شائعا فى عهدهم أكثر من شيوعه فى عهد حكومة مصرية وطنية ، تكون بالطبع أشد منهم تمسكا ومحـافظة على الطراز المصرى التقليدى •

ومنها (خـامسا) أن الهكسوس قـد واصلوا السياسة المصرية فى السودان ، وهنـاك ما يدل على أن التجـارة ظلت مستمرة مع المركز التجارى المصرى فى «كرما» ، جنوب الجندل الثالث ، اذ لو كان هناك أقوام من الاجانب قد غزوا مصر بأعداد ضخمة ، وحطموا هيكل الادارة ونظام الحكم المصرى ، والقـوة العربية المصرية ، فان هذا التقدم فى الجنوب سوف يصعب عندئذ تفسيره(١١) •

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن المؤرخين قد اختلفـوا فى موطن الهكسوس هؤلاء ، فمنهم من ذهب الى أنهم من سلالة آرية كان موطنها فى وسط آسيا ، وذهب آخرون الى أنهم من أعراب شبه الجزيرة العربية ، بينما رأى فريق ثالث أنهم من أصل سامى ، وأنهم من طائفة اليهود الذين ورد ذكرهم فى القرآن الكريم ، وان اتجه فريق من أصحاب هذا الرأى الى انهم ربما كانوا أقرباء لليهود ، وليسوا يهودا •

وهناك فريق رابع يذهب الى أن الهكسوس ليسوا شعبا له جنسه

---

(١١) T. Save-Soderbergh. The Hyksos Rule in Egypt. JEA. 37, 1951, p. 56-62.

المعين الخالص ، وانما هم مجموعة من الشعوب التى سكنت منــاطق آسيا القريبة التى اضطرت الى أن تهاجر من أوطانها تحت ضغط أقوام أتوا من هضبة أرمينيا ، وعرفوا فى التاريخ باسم قبائل «الخوريين» ، واستقروا فى مناطق نهر الفرات الشمالية حوالى عام ٢٠٠٠ ق٠م ، ولقد تزعم هؤلاء الخوريون قادة ينتمون الى الجنس الارى ، وتمكنوا من أن يقيموا دولة فى شمال سورية فى عهد الدولة الحديثة باسم «دولة الميتان» ثم أدت غــارة الخوريين هــذه على مناطق سكان سورية الشمــالية واستقرارهم فيها الى نشر الفزع والرعب بين سكان سورية وفلسطين، فهرب الكثيرون منهم واندفعوا نحو الجنوب ، ووصلوا فى هروبهم الى مصر[١٢] .

وأيا ما كان الصواب فى هذه الاراء . فما نميل اليه ونرجحه أن الوجود الهكسوسى فى مصر[١٣] انما كان نتيجة تسلل بشرى أكثر منه نتيجة غزو حربى ، وأنه قد استغرق عدة أجيال ، استطاعت العنــاصر المتسللة فى نهايتها أن تسيطر على الدلتا ومصر الوسطى . حتى القوصية جنوبا ، وأن المتسللين لم يكونوا من جنس واحد ، وانما كان الساميون — من سورية وفلسطين — يتفوقون على غيرهم فى العدد ، ولكن القيادة كانت للاريين ، ذلك لان الكنعانيين ما كان فى استطاعتهم وحــدهم أن يتمكنوا من السيطرة على الدلتا والوادى ، وهم الذين لم يقفوا يوما أمام أجناد المصريين ، فضلا عن مواطنهم الاصلية ، فلم يكونوا بقادرين

---

(١٢) أنظر عن مناقشة هذه الاراء بالتفصيل (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٣١ — ١٣٧) .

(١٣) يفهم من لوحة الاربعمائة سنة المشهورة أن بداية وصــول الهكسوس الى أفاريس انما كان حوالى عام ١٧٣٠ ق٠م أو ١٧٢٥ ق٠م، أو ١٧٢٠ ق٠م ، على أن هناك من يذهب الى أن بداية حكم الهكسوس فى مصر انما كان فى وقت ما فى السنوات العشر ، التى تقع فيما بين عامى ١٦٦٠ ، ١٦٤٩ ق٠م ، على أساس أن طرد الهكسوس انما كان بين العام السابع والعام السابع عشر من حكم أحمس الاول ، وفى التواريخ فيمــا بين عامى ١٥٥٢ ، ١٥٤١ ق٠م (أنظر : محمد بيومى مهران : المرجــع السابق ص ١٣٧ — ١٣٩) .

وحدهم على الاستيلاء على السلطة فى مصر ، الا عن طريق جحافل قوية من الغزاة تنقض على الدلتا فجأة ، وتنزل الهزيمة بها ، الامر الذى لم يثبت بعد .

٢ ـ ملوك الهكسوس :

نجح الغزاة الهكسوس فى توطيد نفـوذهم فى مصر السفلى تحت قيادة مجمـوعة من الامراء الاسيويين الذين نجهل أسماءهم ، وفى عام ١٦٧٤ ق.م ، يبدأ تتابع حكام الهكسوس الستة المهمين ، والذين دعاهم مانيتو بملوك الاسرة الخامسة عشرة ، وطبقا لبردية تورين فقد حكموا مائة وثمانى سنوات ، وهذا يصل بنا الى عام ١٥٦٧ ق.م ، عندما نجح المصريون بقيادة مؤسس الدولة الحديثة فى طرد الهكسوس[١٤] .

ومن ثم فهناك وجهة نظر ، يتقبلها كافة المحدثين من علماء المصريات هى أن الحصر الاحصائى للبردية انما يضم ملوكا كثيرين كانوا موجودين معا فى وقت واحـد ، ومن المحتمل أنهم كانوا من أنحـاء متباعدة من البلاد[١٥] ، وينظر اليهم كمجرد رؤساء لقبائل أسيوية مختلفة وعديدة ، متجمعين تحت لواء ملك الهكسوس الكبير .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن معلوماتنا الحالية عن أول ملكين من الاسرة الخامسة عشرة ، انما تأتى فى الدرجة الاولى من جزء من تاريخ مانيتو ، زعم يوسف اليهودى فى «مجادلاته ضـد ابيون» (Contra Apionem) أنه نقلها عنه ، ومن ثم فلا نستطيع سوى أن نرجع اليه ، حيث نراه يقول ، بعد أن يصف الغزو ، «وأخيرا عينوا من بينهم ملكا يدعى «سالتيس» ، وكان مقره فى منف ، ففرض الضرائب على مصر العليا والسفلى ، وكان يترك وراءه حاميات فى الاماكن الهامة ، وأنه قد مات بعد أن حـكم ١٩ عاما ، ثم خلفه ملك آخـر يدعى «بنون» حكم ٤٤ عاما[١٦] .

---

(١٤) W. C. Hayes, op. cit., p. 58.
(١٥) A. H. Gradiner, op. cit., p. 150.
(١٦) W. C. Hayes, op. cit., p. 58-59.

ومن المحتمل أن الملك «سالتيس» انما هو الملك «شارك» (شالك) ، الذى جاء ذكره فى قائمة منف ، وقد عاش هذا الحاكم قبل ملك الهكسوس «أبو فيس» بجيل واحد ، وقبل أحمس الاول بجيلين ، وربما كان هو نفسه الملك «مى ايب رع ، شيشتى»[١٧] ، وقد سيطر خلفاء سالتيس ، وحتى أبو فيس ، على البلاد ، من مدينة الجبلين — على مبعدة ١٨ كيلا شمال اسنا — وحتى حدود الدلتا الشرقية ، وربما قد امتد نفوذهم حتى الشلال الاول[١٨] ، وان كانت الاراء الحديثة انما تذهب الى أن نفوذهم لم يمتد الى الجنوب الى أكثر من القوصية[١٩] ، على مبعدة ١٥ كيلا شمالى أسيوط ، اللهم الا فى احتلال مؤقت قصير لاقليم الجبلين (بى حتحور) ، قام به «أبو فيس» — آخر من حمل هذا اللقب — .

وليس هناك من دليل حقيقى على أن غيره من ملوك الهكسوس قد تم له ذاك الامر[٢٠] ، بل ان آثارهم تكاد تنحصر فى الدلتا ، فى تل الضبعة وتل اليهودية وتل الصحابة ، عند مدخل وادى طميلات من الشرق ، فضلا عن تل الفراشة وأنشاص (حيث دفن الحمار الذى عبدوه فى مقابر هذه المنطقة فى مستوى أعلى من دفن الادميين) وفى تل بسطة فى مجاورات الزقازيق وغيتة وغيرها من الاماكن المجاورة ، هذا فضلا عن أن جتشبسوت لم تجد ضرورة لاعادة بناء معابد جنوبى المعبد الموجود الى الجنوب من مدينة القوصية ، وان ذهب «هول» الى غير ذلك[٢١] .

وأما أمر جبايتهم للضرائب من مصر العليا والسفلى على السواء ، فموضع شك على الاقل ، ذلك لان وجهة النظر التى ترى احتلال الهكسوس للبلاد كلها ، ليست سوى وهم قضى عليه النص الكبير للملك

---

(١٧) W. C. Hayes, CAH, II, Part, I, 1973, p. 59.
(١٩) J. Vercoutter, op. cit., p. 394.
(١٨) F. W. Von Biasing, AFOF, II, p. 327 F.
(٢٠) A. H. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1964, p. 168.
(٢١) G. Daressy, Rec. Trav., 14, 1892, p. 26, 16, 1894, p. 42.

«كاموزا» الذى يتضمن فى وضوح أن الغزاة لم يتقدموا اطلاقــا فيما وراء الجبــلين ، وأنهم اضطروا الى ارساء حــدودهم بعد قليل عند الاشمونين •

وجاء بعد سالتيس «مر وسر رع» (أو ياكب بعل أو يعقوب حر)، وان كان من الصعب أن نتصور أن «يعقوب حر» هو «بنون» أو «بيون» الذى ذكره مانيتو ، وعلى أى حال ، فيبدو أنه الملك الثانى من حــكام الهكسوس الكبار ، وقد حكم ٨ أو ١٨ سنة[٢٢] •

وجاء بعد ذلك أشهر ملوك الهكسوس «خيان» ، والذى عرف عن طريق عدد من الجعول باسم «رئيس البلد الاجنبية خيان» كما وصف على بعضها بأنه «ابن رع — سا — وسر — ان رع» ، وقد جاء الاسم واللقب معا فى خرطوش واحد على غطــاء من المرمر عثر عليه فى قصر «كنوسوس» بكريت ، وكذا على تمثال صغير على هيئة أسد رابض جئ به من تاجر من بغداد ، ويحمل اسم العرش «سا وسر ان رع» ؛ وهناك تمثال من الدولة الوسطى عثر عليه فى بوباستة ، يشــير الى اغتصابه اياه،بما يشبه الاغتصاب الذى قام به «عاقنن رع» فى تانيس ، وهو هنا يستخدم اللقب الحــورى «محتضن الارضين» ، ويعلن عن نفسه فى جرأة بأنه «المحبوب من كاه» (أى روحه) ، هذا فضلا عن كتلة فى الجبلين عليها لقبه كذلك[٢٣] •

وهكذا أراد البعض أن يتخذ من تلك الاثار دليلا على أن «خيان» قد أقام امبراطورية عالمية تمتد من العراق وحتى كريت وتضم سورية وفلسطين ومصر ، غير أن العلماء يستبعدون ذلك لاسباب ، منها أن هناك

---

(٢٢) J. Vercoutter, op. cit., p. 395.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 59-60.
(٢٣) T. Save - Soderbergh, JEA, 37, 1951, p. 63.
وكذا A. H. Gardiner, op. cit., p. 158.
وكذا A. Evans, The Palace of Minos at Konssos, 1921, p. 419.

علاقات تجارية ، فيما يبدو ، بين العراق وجزر البحر المتوسط وبين مصر، وربما كان من نتائجها غطاء المرمر الذى عثر عليه فى كريت ، ومنها أن أسد بغداد ربما جاء به «اسر حدون» من مصر تذكارا لنصره هنـاك ، ومنها أن آثار الهكسوس فى مصر وغيرها مصرية الطابع ، والا لوجدنا فى مصر فنا متأثرا بالفن الاشورى أو البابلى •

ومنها ما ذهب اليه مانيتو من أن الهكسوس قد أقاموا قلاعـا من ناحية الشرق ، وحصنوا الحدود الشرقية ، فاذا كانوا يملكون مصر وما وراءها ، فلم يقيمون هذه الحصون ، وممن يخافون ؟ ومع ذلك فربما كان الهكسوس يتمتعون بنفوذ فى سورية وفلسطين ، وان كان من الارجح أن سلطتهم فى غربى آسيا لم تمتد كثيرا عبر الحدود الجنوبية لفلسطين، وان امتدت الصلات التجارية حتى بلاد ما بين النهرين وكريت ، أما فى الجنوب فلم يعثر على أية أختام أو جعارين تحمل اسم «خيان» فى كرما، هذا فضلا عن قيام دولة مستقلة فى «بوهن» عرف أميرها باسم « أمير كوش»[٢٤] •

وجاء بعد «خيان» الملك «أبوفيس» (عا وسر رع) — وهو تحريف للاسم المصرى «ايبى» — وحكم أكثر من أربعين عاما ، وقد سجل عامه الثالث والثلاثين على عنوان صفحة من بردية «رند الرياضية» ، كما أن هناك عتبة باب من الحجر الجيرى من الجبلين تحمل اسمه • ويبدو أن الحكام الهكسوس أصبحوا الان أكثر تمصرا ، ففى مقبرة « أمنحتب الاول» من الاسرة الثامنة عشرة ، عثر على اناء مرمرى يحمـل اسم الاميرة «حريت» ابنة «أبو فيس» ، يبدو أنه أخذ ينتقل جيلا بعد جيل، حتى استقر آخر الامر فى مقبرة الفرعون المصرى فى طيبة ، مما أدى الى أن يفترض البعض زواج «حريت» من أمير معاصر من طيبة ، ولعل هذا يشير الى أن القوم كان لهم رأى أكثر تسامحا من تلك الاراء التى

---

(٢٤) W. F. Albright, ASOR, 13, p. 72 F.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 61.

تعكسها المصادر المتأخرة ، وان كان الامر كله مجال حدس وتخمين[٢٥] .

وعلى أى حال ، فان الصلات بين الهكسوس وحكام طيبة على عهد أبو فيس الاول تبدو طيبة فى الغالب ، ولم تتغير الامور الا قبيل نهاية حكمه بقليل ، عندما بدأ الصعيد الاعلى فى الثورة ضد الغزاة الاسيويين[٢٦] ، وكان على «أبو فيس» أن يتخذ العدة لترك مصر الوسطى ، وأن ينقل حدوده الى «أطفيح» — جنوبى مدينة الصف ، بمحافظة الجيزة — وأن تعبر نساء حريمه عن رعبهن ، حين يصبح أسطول طيبة تحت أسوار أفاريس نفسها ، أو عند مدينة هامة فى منطقة أفاريس[٢٧] .

ويأتى بعد ذلك «أبو فيس الثانى» (عاقنن رع) ، وكما نتوقع من أسرة تتداعى على حافة الدمار ، فان اسمه — فيما عدا ظهوره على خنجر اشترى من الاقصر[٢٨] لايوجد جنوب بوباستة فى الدلتا الشرقية ، وقرب نهاية الاسرة ، فان الحاكم الذى دعاه مانيتو «أسيس» (أسيت = أرخليس)[٢٩] ، وربما كان هو الملك «عاسح رع» الذى وجد اسمه على مسلة صغيرة من صان الحجر ، وهى الاثر الوحيد من عهده ، الذى لم يتجاوز العام أو العامين ، وعلى أى حال ، فان المسلة رغم أنها لا تحمل اسمه الشخصى ، فمن المنطقى أنه «خامودى» الذى اعتبرته بردية تورين أنه الملك الاخير من الاسرة الخامسة عشرة[٣٠] .

---

(٢٥) W. C. Hayes, op. cit., p. 61.
وكذا G. Daressy, Rec. Trav., 14, 1892, p. 26.
وكذا JEA, 3, 1916, p. 152, 37, 1951, p. 69.
(٢٦) J. Vercoutter, op. cit., p. 396.
(٢٧) L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 200-202.
وكذا T. Save - Soderbergh, in Kush, 4, 1956, p. 54-55.
(٢٨) W. R. Dawson, A Bronze Dagger of The Hyksos Period; JEA, GI, 1925, p. 216-217.
(٢٩) W. C. Waddell, Manetho, London, 1940, p. 82-83.
(٣٠) W. C. Hayes, op. cit., p. 63.

وأما الاسرة السادسة عشرة — والتى يجب أن تكون معاصرة للاسرة الخامسة عشرة — فانها بالتخمين تضم حكام الهكسوس الصغار ، من أمثال «عنت حر» و «سمقن» و «خع وسر رع» و (سكت) و (عا حوتب رع» و «سخع أيد رع» و «عامو» وقريبا جدا من نهاية هذه الاسرة يمكن أن نضع «نب خبش رع» (أبو فيس الثالث) ؛ حيث لانجد له مكانا فى بردية تورين ، أو فى أيه قائمة أخرى ، ورغم ذلك فهناك عدد من الاثار الصغيرة تحمل أسماءه وألقابه الملكية ، منها خنجر برنزى وجد فى سقارة فى تابوت رجل يدعى «عابد» ، يدل اسمه على أنه سامى الاصل ، هذا فضلا عن أثر آخر يحمل على أحد جوانبه اسم وصورة صاحبه «تابع سيده نحمن» ، وربما كان ساميا كذلك ، ونقرأ على الوجه الاخر «الاله الطيب ، سيد القطرين : نب خبش رع ، ابن رع ، أبو فيس ، له الحياة»(٣١) .

ويرى «سير ألن جاردنر» أنه ليس هناك مجال لاكثر من ستة من الهكسوس الاقوياء ليغتصبوا عرش الفراعين ، وأن تقدير مائة وثمانى سنة ، يكفى لتدعيم هذا الرأى ، وعندئذ فان وصف مانيتو لهم بأنهم «أول الحكام» مضلل ، ويجب فى هذه الحالة أن تختفى الاسرتان السادسة عشرة والسابعة عشرة ، وهناك دلالة أقوى مقنعة هى وجود «أبو فيس» بين الحكام لدى مانيتو ، وذلك يعنى أن نفس الاسم هو للهكسوسى الذى حاربه أخ أحمس ، وسلفه المباشر «كاموزا» .

وهكذا فان الملوك الستة لا يلحقون بأول الاحتلال الاجنبى فقط ، بل بآخره ، وكذا ليس لنا أن نغفل الدليل الذى تقدمه لوحة من عصر متأخر ، تسجل سلسلة طويلة من الكهنة المفيين يذكرون أنهم مارسوا الوظائف الكهنوتية من الاب الى الابن ، ابتداء من الاسرة الحادية عشرة ، ونجد فيها أن الملك السابق لاحمس هو «ابوبى» ، الذى يتبع

---

(٣١) W. C. Hayes, op. cit., p. 63-64.
وكذا E. Diroton and J. Vandier, l'Egypte, Paris, 1952, p. 348.

بدوره «شارك» الذى كان دون شك واحدا من أواخر الهكسوس ، وفى المكان السادس قبل «شارك» نجد «عقن» خلفا مباشرا للملك يدعى «ايبى» الذى يشير اسمه الى أنه من مولد مصرى ، وربما كان هو صاحب الاسم المسجل فى منتصف العمود السابع من بردية تورين ، وهناك افتراض به بعض الجرأة قد يؤدى بنا الى أن نقرن «عقن» بالملك «عقنن رع ايوبى» ، والنقطة الهامة فى هذه اللوحد الممفية هى أنها تغطى كل عصر الهكسوس ، ونستطيع تبعا لذلك ألا نشير لاكثر من ست مدد للحكم ، ان سلمنا بأن طول كل مدة منها عادى •

وأما شخصيات الهكسوس الاضـــال شأنا ، والذين عرفنـــاهم من الجعول والاختام الاسطوانية ، فيبدو أن هؤلاء كانوا أول المعتـــدين الذين كانوا يأملون فى السيادة ، قبل أن يستطيع الملكان خيان وأبو فيس أن يصلا الى هذا الهدف ، غير أن هناك افتراضا آخر ، هو أن هـــذه الاشياء التى ذكرت كأثر لهم كانت من أصل فلسطينى ، وقـــد خلدت ذكرى أسماء أضال شأنا اصطنعوا الالقاب الفرعونية ، دونما أى حق ، ومع ذلك فهذه كلها افتراضات ويجب أن نكرر أن الاسرة السادسة عشرة لدى مانيتو ملفقة تماما ، وأن أسرته السابعة عشرة يمكن أن تعد عنوانا ينطوى تحت لوائه الامراء الطيبيون(٣٢) •

---

(٣٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 159-160, 171.

الفصل الثالث

حــــرب التحــــرير

١ — الاسرة السابعة عشرة :

يتفق الباحثون — أو يكادون — على أن الملك «رع حوتب» (سخم رع واح خاعو) هو مؤسس الاسرة السابعة عشرة الطيبية ، وقد جاء اسمه فى قائمة الكرنك وبردية تورين ، وفى لوحة من قفط ، ونقش من أبيدوس ، وفى قصة من عصر متاخر ، وربما كان الملك التالى هو «سخم رع وب ماعت أنيوتف» الخامس (الاكبر) ، الذى دفن بعد حكم دام ثلاث سنوات فى منطقة ذراع أبو النجا ، ثم خلفه أخ له يدعى «سخم رع ، حرو حر ، أنيوتف السادس» لأشهر قليلة[1] ، ثم جاء من بعده «سوبك ام سا اف» (سخم رع شد تاوى) الذى حكم ستة عشر عاما ، والذى وصف فى تقـرير التفتيش على مقبرته بأنه «الملك العظيم» ، ويرجح البعض أنه هو الذى دفع الهكسوس الى شمال القوصية غير أن هناك فى بردية رند الرياضية ما يشير الى استمرار نفوذ الهكسوس فى طيبة حتى العام ٣١ من حكم «عا وسر رع ، أبو فيس»[2] .

وكان تحوتى (سخم رع سمن تاوى) هو الملك التالى « وقد جاء اسمه فى قائمة الكرنك ، وفى أثرين من نقادة والدير ، ولكنه ترك العرش بعد عام من الحكم للملك «سنخ ان رع» (مونتو حوتب السادس) ، والمعروف لنا من تمثالين من ادفو ، ثم جاء بعد ذلك خمسة ملوك لانعرف

---

(١) H. E. Winlock, JEA, 10, 1924, p. 121-6. 234-237.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 66-67.

(٢) جان يويوت : المرجع السابق ص ١٠٢ .
وكذا J. Vercoutter, op. cit., 406.

عنهم سوى أسمائهم،وهم «سواج ان رع» ثم «نب ارى ار أوت الثانى» (نفر كارع) ثم «سى وسر ان رع» ثم «سمن مدجات رع» ثم «سخم رع شد واست» •

وأما المجموعة الثانية من الامراء فتتكون من خمسة حكام ، فقدت أسماؤهم من بردية تورين ، ورغم ذلك فليس ثمة شك فى أن الثلاثة الاخيرين هم محرروا مصر من الهكسوس ، وهم «سقنن رع ، تاعو الاول» (الاكبر) و «سقنن رع تاعو الثانى» (الشجاع) ثم «وادج خبر رع» (كاموزا) ، وقد أكدت الادلة الاثرية هذا التتابع ، والمشكلة هنا هى تحديد سلفيهما المباشرين ، غير أننا نستطيع أن نجعل «نوب خبر رع» (انيوتف السابع) رأس تلك المجموعة من الملوك الجدد الاقوياء ، الذين يظهرون فى طيبة كعلامة واضحة للتحدى الخطير الاول لقوة الهكسوس ، كما يعد كذلك «سنخت ان رع» كخلف له[3] •

٢ ـ سقنن رع ـ تاعو الثانى ، وبدء حرب التحرير :

لاريب فى أن بداية الصدام بين الملوك الوطنيين فى طيبة ، وبين المغتصبين فى أفاريس انما يبدو غامضا الى حد ما[4] ، ومصدرنا الوحيد فى ذلك قصة ، ربما كانت خيالية ، من عصر مرنبتاح من الاسرة التاسعة عشرة تعرف باسم «بردية سالييه الاولى» ، والتى تلخص لنا كيف بدأ ملك الهكسوس يتحرش بأمير طيبة عندما أدرك أنه بدأ يعد العدة لطرد الغزاة من البلاد ، فيلفق له اتهاما سخيفا مؤداه أن فرس النهر فى طيبة كان يصدر خوارا بالليل يمنعه من النوم ، ومن ثم فقد طلب منه أن «اعمل على طرد فرس النهر الذى فى حوش مدينتك (أى طيبة) لانه يقض مضجعى نهارا وليلا ، وأن الضوضاء تؤذى أذنى» •

---

(٣) H. Gauthier, ASAE, 31, 1931, p. 1-6.
وكذا W. C. Hayes, op. cit., p. 68-71.

(٤) انظر عن حرب التحرير : محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ١٦١ ـ ٢٢٣ •

ويصل رسول أبو فيس الى طيبة ، ويسأله أمير المدينة : لماذا جئت الى مدينة الجنوب ، ولم قمت بهـذه الرحـلة حتى مثلت بين يدى ؟ ويجيبه الرسول بأن أميره أبو فيس هو الذى أرسـله الى هنا ، ثم سرعان ما يقص عليه الهدف من رحلته ، وتعقد الدهشة لسان أمير طيبة، حتى انه ليسأله فى النهاية : هل سمع سيدك حقا ، وهو فى تلك البلاد النائية عن بركة أفراس النهر ، الواقعة شرقى مدينة الجنوب ، ويجيب الرسول : فكر فيم بعثنى من أجله مولاى ؟ .

وهكذا يبدو واضحا أن الامر ليس أمر أفراس النهر التى لا يمكن أن تصل أصواتها من طيبة الى أفاريس التى تبعد عنها مئات الاميال ، ولكنه أمر تلك المشاعر الوطنية التى بدأت تقلق مضاجع الهكسوس فى شرقى الدلتا ، بعد أن ظل أبناؤها حينا من الدهر يطوونها فى صدورهم، وبعـد أن باتوا يجترون ذكريات تلك الايام النكـدة ، منذ أن حـل الهكسوس فى أرض الكنانة الطيبة ، ولعلهم الان بدأوا يرفعـون راية التحرير ، ومن ثم فلعل أبو فيس أراد أن يقول فى رسالته الى «سقنن رع» ان المؤامرة التى تحاك ضدى فى طيبة تعكر على صفو حياتى ، ثم هى أخيرا تحذير من أبو فيس لامير طيبـة ، يطلب منه أن تجمد تلك المشاعر فورا ، والا فليتحمل النتائج .

ومع ذلك فقد استطاع الامير الصعيدى أن يكظم غيظه وأن يتظاهر بالاقتناع ، بل وأن يأمر بأن تكرم وفادة الرسل ، وأن يقـدم لهم كل طعام طيب ، ثم يطلب من رسول أبو فيس أن يعود الى سيده ، وأن يبلغه بأن «سقنن رع ، تاعو الثانى» سوف يستجيب لطلبه ، وما يكاد الرسل يعودون الى افاريس ، حتى يستدعى «سقنن رع» مستشاريه ، ويحيطهم بالامـر علما ، ويطلب منهم النصح والمشورة ، «غـير أنهم سكتوا جميعا لما نالهم من أسى ، ولم يعرفوا بماذا يجيبون ، خيرا كان أو شرا»[٥] .

---

(٥) LAE, p. 165-167 JEA, 5, 1918, p. 40-45. ANET. p. 231-232.

وهنا ينقطع النص ، ولم نعثر على وثيقة أخرى تحكى لنا بقية الحدث الخطير ، حتى بات من الصعب علينا أن نصيب كبد الحقيقة فى أمرنا هذا ، وان كان الامر الذى لا ريب فيه أن الحرب قد قامت بين أبناء الصعيد الاعلى وبين الهكسوس ، وأن النصر كان من نصيب أبناء الصعيد تحت قيادة «سقنن رع» الذى دفع حياته ثمنا لهـذا النصر ، وأنه قد طرد الهكسوس — ومن تابعهم من ضعاف النفوس — من مصر العليا الجنوبية ، ودفـع بهم الى الشمال حتى القوصية وأن تسجيل القصة نفسها ربما كان تسجيلا لانتصار «سقنن رع» على أبو فيس ، والذى ربما كان هو نفسه الذى سيصبح عدوا لولده «كاموزا»[٦] .

٣ ـ كاموزا ودوره فى الجهاد :

لم تكد الاخبار تأتى باستشهاد البطل «سقنن رع» فى حومة الوغى، حتى هب ولده وخليفته «كاموزا» (وادج خبر رع) يقود الثورة ويتم رسالة أبيه ، وقد سجلت معارك التحرير التى خاضها فوق أثرين : لوح كارنارفون[٧] ، ولوح الكرنك[٨] ، وقد جاء فى لوح الكرنك (وهو جزء من اللوحة الاصلية التى نقلت عنها لوحة كارنارفون) : « السنة الثالثة للملك القوى فى طيبة ، كاموزا ، الذى عينه رع ملكا حقيقيـا ، ومنحه القوة فى رضى تام ، تحدث جلالته فى قصره الى مجمع الكبراء الذين فى حاشيته ، قائلا : «أريد أن أعرف ما معنى قوتى هذه ، حين يكون هناك رئيسا فى أفاريس ، وآخر فى كوش ، وأنا جالس بين أسيوى ونوبى وكل منهما يمتلك جزءا من مصر ، وأنا لا أستطيع أن أتجاوز منف ، هاك انه يضع يده على خمون ، وليس هناك توقف عن النهب بسبب العبودية للستيو ، انى سأصارعه وأبقر بطنه ، ان رغبتى أن أخلص مصر ، وأن أضرب الاسيويين ، وعندئذ قال كبار القوم فى مجلسه : هاك ان الجميع موالون للاسيويين حتى القوصية ونحن مطمئنون فى نصيبنا من مصر ،

---

(٦) W. C. Hayes, op. cit., p. 72.
(٧) JEA, 3, 1916. p. 95-110. 5. 1918. p. 45-47.
(٨) ASAE, 35, 1935, p. 97-121. 39. 1939. p. 245-271.

اليفانتين قوية ، والقسم الاوسط معنا حتى القوصية ، والناس يحرثون لنا أجمل أراضينا ، وماشيتنا ترعى فى مناقع البردى ، ان الحبوب ترسل الى خنازيرنا ، وماشيتنا لا تستلب»[٩] .

وهكذا جمع كاموزا رجال بلاطه ليسترشد برأيهم ، وليتدبر معهم أمر هذا العدو الجاثم على صدر البلاد ، وربما ليحصل منهم على قرار باعلان الحرب على الهكسوس ، غير أن الحاشية انما كانت ترى انه ربما كان من الانسب ، لظروف معينة ، ألا يبدأ كاموزا بالعدوان .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن النص انما يشير الى أن مصر انما كانت عشية اعلان كاموزا الحرب ضد الهكسوس تتقاسمها قوى ثلاثة ، الهكسوس ويسيطرون على الدلتا ومعظم مصر الوسطى ، من منف الى القوصية ، وكانت النوبة تكون دويلة مستقلة ، عاصمتها «بوهن» (أمام وادى حلفا) ، ومن ثم فلم يبق تحت حكم كاموزا ، سوى مصر العليا ، كما يشير النص كذلك الى أن أشراف طيبة انما كانوا يرعون ماشيتهم فى مناقع البردى فى الدلتا ، ويحرثون الحقول فى الشمال ليحصلوا على الحبوب لاطعام الخنازير والماشية ، وأن ذلك قد تم بين الطيبيين والهكسوس[١٠] ، نتيجة الحرب بين أبو فيس وسقنن رع[١١] .

ويتابع النص الرواية ، فيقول ، على لسان كاموزا ، « أبحرت شمالا فى عزم وقوة لاغلب الاسيويين بأمر آمون أعدل الناصحين ، وكان جيشى أمامى كلفحة اللهب ، وكان جند المدجا يقفون عاليا فوق قمراتنا ، ليراقبوا الستيو ويدمروا مواقعهم ، وكان الشرق والغرب يتملكان خيرة ما كان لهم ، وكان يتم تموين الجيش بكل شىء فى كل مكان» ويحدثنا النص أن كاموزا ما ان وصل الى الشمال من الاشمونين ، حتى بدأ فى معاقبة من يدعى «تتى بن ببى» الذى جعل من مدينته «نفروسى» شمال

---

(٩) A. H. Gardiner, op. cit., p. 166.
(١٠) J. A. Wilson, op. cit., p. 167.
(١١) G. H. James, CAH, II, Part, I, 1973, p. 290.

الاشمونين ببضعة كيلو مترات ، وكرا للاسيويين ، «ولما أضاءت الارض، انقضضت عليه كالصقر ، كان ذلك فى وقت تطهير الفم (ساعة الظهيرة) فهزمته ودمرت أسواره ، وذبحت قومه ، وجعلت زوجته تأتى الى ضفة النهر ، كان جنودى كالاسود مقابل فريستهم ، فاقتسموا فيما بينهم ممتلكاتهم من العبيد والماشية واللبن والدهن والعسل[١٢] .

ويستمر بطلنا الشجاع فى تقدمه نحو الشمال ، ويكتب له نجحا بعيد المدى فى طرد الهكسوس من مصر الوسطى ، والاستيلاء على منف ، ومن ثم فقد أصبحت مصر العليا والوسطى ، سواء بسواء ، تحت سلطان كاموزا ، وبالتالى نستطيع أن نقدر أن الهكسوس قد ارتدوا الى الشمال واعتصموا بعاصمتهم أفاريس ، وفى مجاوراتها ، ومن حولها ، كانت خواتيم تلك الحرب على أرض هذا الوادى التى انتهت بطرد الهكسوس من مصر .

وفى يوليه من عام ١٩٥٤م ، كشف الدكتور محمد حماد فى معبد الكرنك فى طيبة عن لوحة تروى فى افاضة الجهود الحربية التى قام بها «كاموزا» على مقربة من قلعة أفاريس يقرع عدوه بالمفاخرة والتهديد ، وقد سجل تتابع الاحداث فى اسهاب ، وفى لغة جد بليغة[١٣] ، مما يشير الى وصول كاموزا الى مقاطعة أفاريس ، ثم سرعان ما عمل رجاله على قطع الامدادات التى كانت تصل الى الهكسوس عن طريق فرع النيل ، وهنا ينقسم الهكسوس على أنفسهم ، ويخرج البعض منهم على طاعة مليكهم ، ويحرز كاموزا نصرا فى بعض المواقع ، ثم يصف دخوله الى احدى المدن فى أسلوب لطيف ، حيث يقول : «لمحت نساء العدو فوق دياره يتطلعن من النوافذ ، وحين رأيننى لم يستطيعوا حراكا ، وأخذن يتلصصن من خلال الابواب والجدران كأفراخ القطا من جحورها»[١٤] .

---

(١٢) A. H. Gardiner, op. cit., p. 166-167.

(١٣) L. Habachi, ASAE, 53, 1955, p. 195-202.

وكذا M. Hammad, Chronique d'Egypte, 30, 1955, p. 198-208.

(١٤) عبد العزيز صالح : المرجع السابق ص ٣٢٠ .

ثم يتحدث كاموزا بعد ذلك عن حرب خاض غمارها على صفحة الماء، فيذكر انتصاره على عدوه ، ويعد الغنائم التى استولى عليها ، ومن بينها ثلاثمائة سفينة مصنوعة من خشب الارز ، ثم يبدأ المحارب الصعيدى الشجاع ينتقم لمواطنيه ، فيتحدث كيف أنه لم يترك لافاريس شيئا ، وربما يعنى ملكها ، وكيف أنه أخذ بثأر كل ما فعله الهكسوس بمصر من تخريب لمدنها ، وحرق لديارها ، محولا اياها الى أكوام حمراء[١٥] .

وهنا نأتى الى فترة بالغة الاهمية فى التاريخ السياسى لمصر فى نهاية عصر الهكسوس ، اذ يتحدث النص عن تطور مفاجىء خطير ، ذلك أن ملك الهكسوس انما قد حاول أن يوقع كاموزا بين فكى الكماشة،فيرسل الى أمير كوش— عن طريق الواحة البحرية — يطلب منه عونا سريعا ، ولكن كاموزا علم بالامر ، فأرسل سرية من جيشه ، استولت على الرسالة وأطاقت الرسل لينقلوا الى ملك الهكسوس خيبة أمله ، وفشل مسعاه ، ثم احتلت الواحة البحرية حتى تمنع الاتصال بين الهكسوس وكوش[١٦] .

٤ — احمس بطل التحرير :

كان أحمس هو بطل التحرير الثالث الذى كتب له نجحا بعيد المدى فى تطهير البلاد من كل أثر للرعاة الهكسوس ، ولعل من مفارقات التاريخ اننا لا نملك وثيقة رسمية عن طرد الهكسوس من مصر ، وأن التقرير المعاصر الوحيد للحملات النهائية فى نقش مقبرة «أحمس بن ابانا» فى الكاب[١٧] ، وهو ممن شاركوا فى حرب التحرير ، وأبلى فيهـا بلاء حسنا ، ونال تقدير مليكه ، فأنعم عليه بمنحه «ذهب الشجاعة» ، كما أغدق عليه نحوا من سبعين فدانا ، فضلا عن تسعة عشر رقيقا ، ومن أسف أننا لا نجد فى سيرة «أحمس الكابى» هذا ، كثيرا من التفصيلات عن الحملات المتتابعة التى شارك فيها ، وانمـا نراه يفصل فى تاريخ

---

(١٥) L. Habachi, op. cit., p. 201.

(١٦) T. G. H. James, op. cit., p. 291-292.

(١٧) JEA, 5, 1918, p. 48-51, ARE, II, p. 3-9.
ANET, p. 233-234.

حياته ، فيحدثنا أنه قد شارك فى مجموعة من الهجمات على أفاريس ومجاوراتها ، وأنه قد رقى الى امارة سفينة كبيرة تدعى «ضوء منف».

وعلى أى حال ، فهناك ما يشير الى أن القتال حول أفاريس كان عنيفا ، وربما دام عدة سنوات ، حتى تم اخضاعها ، على أن يوسف اليهودى انما يزعم — نقلا عن مانيتو — أن الهكسوس قد استسلموا لاحمس الاول ، على أن يخرجوا بأمتعتهم وقواتهم (٢٤٠ ألف) دون أن ينالهم أى أذى ، وان كذبت الاحداث السابقة هذه الرواية[١٨] .

وأيا ما كان الامر ، فلقد تحصن الهكسوس بعد طردهم من مصر فى «شاروحين» ، فى جنوب غربى فلسطين ، وأسرع أحمس الاول الى حصارهم فترة دار حولها جدل طويل ، فمن خالها أعواما خمسة ، ومن ظنها ستة أعوام ، وان كان العلماء يرجحون الان أنها لم تتجاوز أعواما ثلاثة ، وعلى أى حال ، فلقد نجح أحمس آخر الامر فى الاستيلاء على شاروحين ، ثم تابعهم حتى «زاهى»[١٩] ، وهذا يعنى أن الفرعون لم يطهر مصر من الهكسوس فحسب ، بل طهر منهم كذلك سورية وفلسطين[٢٠] ، حتى يأمن غدرهم ومعاودتهم العدوان ، ورغبة فى أن يوجه اهتمامه نحو الجنوب لاسترداد النوبة ثانية الى حظيرة النفوذ المصرى ، وتسجل نقوش «أحمس بن ابانا» فى مقبرته بالكاب ثلاث حملات على النوبة فى عهد أحمس الاول ، استطاع الفرعون بعدها استعادة سيادة مصر هناك ، حتى أننا لم نسمع بعد ذلك عن أية محاولة للعصيان ، وربما قد ساعد على ذلك ضعف الرغبة عند السكان المتمصرين فى مقاومة تغيير السيادة من أمير كوش الى الفرعون المصرى فضلا عن اعادة توطيد الحكم المصرى فى النوبة ، انما كان فى الواقع انضباطا

---

(١٨) W. C. Waddell, op. cit., p. 89.
وكذا T. G. H. James, op. cit., p. 293-294.
(١٩) ARE, II, p. 8-12, PSBA, 15, p. 258.
(٢٠) أنظر عن دور المرأة فى حرب التحرير (محمد بيومى مهران : حركات التحرير فى مصر القديمة ص ٢١١ — ٢٢٣) .

سياسيا أكثر منه اخضاعا دمويا ذلك لان عملية التمصير التى كانت قد بدأت منذ أيام الدولة الوسطى قد أتت ثمارها الان[٢١] •

---

(٢١) T. G. H. James, Egypt, From The Explulsion of The Hyksos to Amenophis, I, in CAH, II, Part, I, Cambridge, 1973, p. 296-297.

الباب السادس

قصة يوسف عليه السلام فى مصر

ويتكون من :

الفصل الاول : يوسف فيما قبل الوزارة

الفصل الثانى : يوسف عزيز مصر

الفصل الأول

يوسف فيما قبل الوزارة

١ ـ يوسف واخوته فى كنعان :

يوسف الصديق عليه السلام هو : يوسف النبى بن يعقوب النبى بن اسحاق النبى بن ابراهيم النبى ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، وقد أثنى عليه ربنا جل جلاله فى القرآن الكريم بقوله تعالى « كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين »، كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى عن عبد الله بن عمر ، حيث وصفه بقوله الشريف « ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم » ، وقد جاءت قصته فى سورة كاملة من القرآن الكريم هى سورة يوسف[1] .

---

(١) أنظر عن قصة يوسف كاملة من وجهة النظر الاسلامية : سورة يوسف آية ١ ـ ١٠٢ ، تفسير الطبرى ١٥/٥٤٧ ـ ٥٨٦ ، ١٦/١ ـ ٣١٥ (دار المعرف) تفسير الفخر الرازى ١٧/٨٣ ـ ٢٩٩ ، تفسير الطبرسى ١٣/٥ ـ ١٣٤ ، تفسير النسفى ٢/٣٥٢ ـ ٣٩٧ ، تفسير أبى السعود ٣/٧٧ ـ ١٤٣ ، فى ظلال القرآن ٤/١٩٤٩ ـ ٢٠٣٧ (بيروت ١٩٨٢) تفسير الدر المنثور للسيوطى ٤/٢ ـ ٤٢ ، تفسير ابن كثير ٤/٢٩٤ـ٣٤٩، تفسير القرطبى ص ٣٣٤٧ ـ ٣٥٠٦ ، تفسير المنار ١٢/٢١٣ ـ ٢٦٨ ، محمد رشيد رضا : تفسير سورة يوسف (القاهرة ١٩٣٦) ، صفوة التفاسير ٢/٣٩ ـ ٧١ ، تفسير الجلالين ص ٣٠٢ ـ ٣٢٠ ، تيسير الكريم الرحمن فى تفسير كلام المنان ٤/٣ ـ ٤١ ، تفسير الخازن ٣/٢٦٢ ـ ٢٩٣ ، تفسير البغوى (على هامش الخازن) ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/١٩٧ ـ ٢٢٠، تاريخ الطبرى ١/٣٣٠ ـ ٣٦٤ ، تاريخ ابن خلدون ٢/٤٤ ـ ٤٧، تاريخ ابن الاثير ١/٧٨ ـ ٨٨ ، تفسير ابن عباس ٢/٤٩٧ ـ ٥٠٢ ، حسن محمد باجودة : الوحدة الموضوعية فى سورة يوسف عليه السلام، جدة ـ ١٩٨٣م، صحيح البخارى ٦/٩٤ ـ ٩٨ (دار الحديث ـ القاهرة) .

هذا وتشير التوراة الى أن يوسف الصديق قد ولد لابيه من زوجه الثانية «راحيل» ، ابنة خال أبيه لابان فى «حاران» (وتقع على نهر بلخ على مبعدة ٦٠ ميلا من اتصاله بالفرات ، والى الغرب من تل حلفا، وعلى مبعدة ٢٨٠ ميلا الى الشمال الشرقى من دمشق) ، وكان يعقوب عليه السلام قد تزوج من أختها الكبرى «ليئة» ، ثم تزوج من راحيل ، ثم من جاريتها بلهة ، ثم من زلفة جارية ليئة[٢] ، وهكذا جمع يعقوب تحته الشقيقتين ، فضلا عن جاريتيهما ، وكان ذلك ، فيما يرى ابن كثير ، سائغا فى ملتهم ، ثم نسخ فى شريعة التوراة ، وهذا وحده دليل كاف على وقوع النسخ ، لأن فعل يعقوب عليه السلام دليل على جواز هذا واباحته لانه معصوم[٣] ، بل ان الطبرى[٤] يرى فى ذلك قوله تعالى «وأن تجمعــوا بين الاختين الا ما قــد سلف» ، وان كان المفسرون يجمعون أو يكادون على أن المراد بقوله تعالى «الا ما قد سلف» أى فى الجاهلية قبل الاسلام ، وليس قبل نزول التوراة ، كما ذهب ابن كثير ، أى أن النسخ كان بالقرآن ، وليس بالتوراة ، وعلى أية حال ، فلقد ماتت راحيل أم يوسف ، وهى تضع ابنها الثانى «بنيامين» ودفنت فى بيت لحم (على مبعدة خمسة أميال جنوبى القدس) حيث ولد داود والمسيح عيسى بن مريم ، عليهما السلام[٥] .

هذا وقد رزق يعقوب من زوجاته الاربع باثنى عشر ولدا ، فضلا عن ابنته دينة التى ولدتها ليئة ، وهكذا «كان بنو يعقوب اثنى عشر ، بنو ليئة راؤبين بكر يعقوب وشمعون ولاوى ويهوذا ويساكر وزبولون ، وأبناء راحيل يوسف وبنيامين ، وأبناء بلهة جارية راحيل ، دان ونفتالى،

---

(٢) تكوين ٢٣/٢٩ ، ٢٨ ، ٥/٣٠ ، ٩ .
(٣) تاريخ ابن كثير ١٩٥/١ .
(٤) تاريخ الطبرى ٣٢٠/١ .
(٥) تكوين ١٩/٣٥ ـ ٢٠ ، تاريخ ابن كثير ١٩٧/١ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ٦٤٦/٢ (الاسكندرية ١٩٧٨) ، وانظر عن قصة يوسف من الناحية التاريخية ودخول بنى اسرائيل مصر (محمد بيومى مهران ـ اسرائيل ٢١٢/١ ـ ٢٦٠ ـ الاسكندرية ١٩٧٨) .

وأبناء زلفة جارية ليئة : جاد وأشير ، هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا فى فدان أرام»[٦] ، ثم هاجر يعقوب ببنيه وزوجاته إلى كنعان (فلسطين) حيث عاشوا فى «حبرون» (وتقع على مبعدة ١٩ ميــلا جنوب غربى القدس ، وهى مدينة الخليل الحالية ، وفيها قبر ابراهيم وسارة واسحاق ويعقوب ، حيث يقوم اليوم مسجد كبير هو الحرم الابراهيمى) وظلوا هناك فى أرض كنعان حتى هاجـــروا الى مصر بدعوة من الصديق عليه الســـلام •

وهكذا عاش الصديق مع أبيه واخوته حينا من الدهر فى كنعان ، كان الصديق أحب الاخوة الى أبيه يعقوب النبى عليه السلام ، لانه كان ، فيما تزعم توراة اليهود ، «يأتى بنميمتهم الرديئة الى أبيهم» ، ولانه «ابن شيخوخته» ولانه صنع له من دونهم قميصا ملونا ، ولانه رأى حلمين فسرهما اخوته على أنه سيكون سيدا عليهم ، أما أولهما : «فهانحن حازمون حزما فى الحقــل ، واذا حــزمتى قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتى» ، وأما الثانى فقد رأى فيه «واذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكبا ساجدة لى ، وقصه على أبيه وعلى اخوته ، فانتهره أبوه ، وقال له ما هذا الحلم الذى حلمت ، هل نأتى أنا وأمك واخوتك لنسجد لك الى الارض ، فحسده اخوته ، وأما أبوه فحفظ الامر»[٧] ، ولم يشر القرآن الكريم الا الى الرؤيا الاخيرة ، وأن أباه أمره أن يكتم رؤياه عن اخوته ، يقول تعالى «اذ قال يوسف لابيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين ، قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا أن الشيطان للانسان عدو مبين»[٨] •

---

(٦) تكوين ٢٢/٣٥ ــ ٢٦ •
(٧) تكوين ١/٣٧ ــ ١١ •
(٨) سورة يوسف : آية ٤ ــ ٥ ، وانظر : تفسير الطبرى ٥٥٤/١٥ــ ٥٥٩ ، تفسير المنار ٢٩٠/١١ ــ ٢٩٩ ، تفسير ابن كثير ٢٩٧/٤ ــ ٢٩٩ ، تفسير الخازن ٢٦١/٣ ــ ٢٦٣ ، تفسير القرطبى ص ٣٣٤٩ ــ ٣٣٥٧ •

وهكذا عرف يعقوب ، كما جاء فى تفسير أبى السعود (٣٥٢/٤) ، من رؤيا يوسف أن الله تعالى سيبلغه مبلغا جليلا من الحكمة،ويصطفيه للنبوة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه حسد الاخوة ، ونصحه بأن لا يقص رؤياه عليهم فيكيدوا له ، مع أن يعقوب كان يعلم أنهم ليسوا بقادرين على تحويل مادلت الرؤيا عليه ، وقد جاء فى الاثر «استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان ، فان كل ذى نعمة محسود» .

وهكذا بدأ اخوة يوسف يضمرون له الشر ، لانه أحب الى أبيهم منهم «قالوا ليوسف وأخوه أحب الى أبينا منا ونحن عصبة ، ان أبانا لفى ضلال مبين» ، والآية الكريمة تشير الى ايثار يعقوب ليوسف وأخيه عليهم ، وهم عصبة (والعصبة والعصابة : العشرة من الرجال فصاعدا سموا بذلك لان الامور تعصب بهم) ويقول الشيخ الشعراوى فى الفتاوى : أن ايثار فرد بالحب عن الاخرين ينشىء فى نفس الاخرين عقدة النقص التى تؤدى الى أن يكون السلوك غير منطقى على المبدأ الخلقى ، ولذلك حين أحس اخوة يوسف بأن يوسف وأخاه أحب الى أبيهم منهم ، فكروا فى أن يزيحوا ذلك الحب من طريقهم وقالوا : نحن عصبة ، ولو أنهم فهموا بعض الفهم لعرفوا أنهم جاءوا بحيثية امتياز ذلك الصغير بالحب ، لانهم عصبة ، ولانهم أشداء ، وهو صغير يعطف عليه ، فلا يقيسوا العطف والحب هنا على العطف والحب عليهم ، لانهم اجتازوا مرحلة العطف والحب ، فالانسان منا يحب صغيره لانه يعتقد أن هذا الصغير بالنسبة لاخوته هو أقصرهم عمرا معه ، وأنه فى حاجة مع العجز الى شىء كثير من الحب ، فلو أن الكبار فهموا تلك العلاقة لما جعلوها عيبا فى الاب[٩] .

وعلى أية حال ، فالآية ، كما فى ظلال القرآن[١٠] ، لا تشير الى

---

(٩) محمد متولى الشعراوى : الفتاوى ٧١/١٠ ـ ٧٤ (بيروت ١٩٨٢) .

(١٠) فى ظلال القرآن ١٩٧٣/٤ (بيروت ١٩٨٢) .

علمهم برؤياه ، ولو كانوا قد علموا برؤياه لجاء ذكرها على ألسنتهم[11]، ولكانت أدعى الى أن تلهج ألسنتهم بالحقد عليه ، فما خافه يعقوب على يوسف لو قص رؤياه على اخوته قد تم عن طريق آخر ، وهو حقدهم عليه لايثار أبيهم له ، ولم يكن بد أن يتم لانه حلقة فى سلسلة الرواية الكبرى المرسومة لتصل بيوسف الى النهاية المرسومة ، والتى تمهد لها ظروف حياته وواقع أسرته ، ومجيئه لابيه على كبره ، وأصغر الابناء هم أحب الابناء ، وبخاصة حين يكون الوالد فى سن الكبر ، كما كان الحال مع يوسف وأخيه ، واخوته من أمهات ، وهكذا بدأ الحقد يغلى فى نفوس اخوة يوسف ، ويدخل الشيطان بينهم ، فيختل تقديرهم للواقع ، وتتضخم فى حسهم أشياء صغيرة ، وتهون أحداث ضخام ، تهون الفعلة الشنعاء المتمثلة فى ازهاق روح غلام برىء لا يملك دفعا عن نفسه ، وهو أخ لهم ، وهم أبناء نبى ، وان لم يكونوا هم أنبياء ، يهون هذا ، وتتضخم فى أعينهم حكاية ايثار أبيهم له بالحب ، حتى توازى القتل ، أكبر جرائم الارض قاطبة ، بعد الشرك بالله ، وهكذا دبروا له مكيدة ، كى يخلو لهم وجه أبيهم ، وأنجزوا خطتهم للتخلص منه ، بأن «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين»[12] .

وفى الواقع ، فان قصة الصديق ، كما جاءت فى التوراة والقرآن العظيم ، انما تشير بوضوح الى أن اخوته انما ظلوا ردحا من الزمن ضحايا الكبت الذى عانوه ، كى يخفوا رغبتهم فى التخلص من يوسف رغبة فى أن يخلوا لهم حب أبيهم ، ولكنهم كانوا يفشلون فى اخفائها

---

(١١) جاء فى تاريخ ابن الاثير : أن امرأة يعقوب سمعت ما قال يوسف لابيه ، فقال لها يعقوب : اكتمى ما قال يوسف ولا تخبرى أولادك ، قالت نعم ، فلما اقبل أولاد يعقوب من الرعى اخبرتهم بالرؤيا ، فازدادوا حسدا وكراهة له وقالوا : ماعنى بالشمس غير أبينا ولا بالقمر غيرك ولا بالكواكب غيرنا ، ان ابن راحيل يريد أن يتملك علينا ويقول : انا سيدكم» (الكامل فى التاريخ ١/٧٨ — ٧٩) .

(١٢) سورة يوسف : آية ٩ .

وكبتها ، بل كثيرا ما كانت تبدو فيما يصدر عنهم من مواقف أو كلمات ضد يوسف ، مما جعل أباهم يعقوب يشك في حسن نواياهم ، عندما دعوا يوسف ليلعب معهم[١٣] ، فقال لهم «وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون»[١٤] ، وهو فى الواقع انما كان يتخوف عليه من عـدوانهم أكثر مما يتخوف عليه من عدوان الذئب ، ولكنه أراد أن يصرفهم عنه بتلك التعلة ، ولكن اخوة يوسف كانوا بارعين فى الدهاء ، فقالوا لابيهم «لئن أكله الذئب ونحن عصبة انا اذا لخاسرون»[١٥] .

وهكذا كان من نتيجة الكبت الذى عانوه أن انحرفوا بتفكيرهم ، فكل ما كان يهمهم تحقيقه هو أن يحولوا بين يوسف وأبيه فاتفقوا على قتله، وتلطيخ قميصه بالدم ، وادعاء أن الذئب أكله ، لما ذهبوا يتسـابقون وتركوه عند متاعهم ، غير أن التلفيق انما كان واضحا ، أو كان ساذجا ، لان القميص لم يكن ممزقا بآثار أسنان الذئب ، أو كما قال يعقوب ، فى رواية السدى ، ان كان هذا الذئب لرحيما ، كيف أكل لحمه ولم يخرق قميصه[١٦] ، وهكذا ألهاهم الحقد الغائر عن سبك الكذبة ، فلو كانوا

---

(١٣) التهامى نقرة : سيكولوجية القصة فى القرآن – تونس ١٩٧٤ ص ٥١٦ (رسالة دكتوراه) .

(١٤) سورة يوسف آية ١٣ .

(١٥) سورة يوسف : آية ١٤ .

(١٦) جاء فى تفسير الطبرى عن ابن عباس أنه قال : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص ، فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتم لو أكله الذئب لخرق قميصه ، وفى رواية أخرى ، كما فى تفسير النسفى وأبى السعود والخازن ، انهم ذبحوا سخلة ولطخوا القميص بدمها ، وزل عنهم ان يمزقوا القميص ، فلما سمع يعقوب بخبر يوسف صاح باعلى صـوته ، وقال : أين القميص فأخذوه وألقاه على وجهه وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله مارأيت كاليوم ذئبا أحلم من هذا ، أكله ولـم يمزق عليه قميصه ، وفى رواية ثالثة فى تفسير الخازن أنهم أتوا بذئب وقالوا ليعقوب : هذا أكل ابنك ، فقال الذئب حين سأله ، وقد أنطقـه الله ، والله ما أكلت وما رأيت ولدك قط ، ولا يحل لنا أن ناكل لحـوم الانبياء ، فقال يعقوب كيف وقعت فى أرض كنعان ، قال : أتيت لصلة الرحم فأخذونى وأتو بى اليك فاطلقه يعقوب (أنظر : تفسير الطبرى ١٢/١٦٤ ، تفسير أبى السعود ٤/٢٦٠ ، تفسير الخازن ٣/٢٦٩، تفسير النسفى ٢/٢١٤ – ٢١٥ ، صفوة التفاسير ٢/٤٤) .

أهدأ أعصابا ما فعلوها منذ المرة الاولى التى يأذن لهم فيها يعقوب باصطحاب يوسف معهم ، ولكنهم كانوا معجلين لا يصبرون ، يخشون ألا تواتيهم الفرصة مرة أخرى ، كذلك كان التقاطهم لحكاية الذئب المكشوفة دليلا على التسرع ، وقد كان أبوهم يحذرهم منها أمس وهم ينفونها ، ويكادون يتهكمون بها ، فلم يكن من المستساغ أن يذهبوا فى الصباح ليتركوا يوسف للذئب الذى حذرهم منه أبوهم أمس ، وبمثل هذا التسرع جاءوا على قميصه بدم كذب لطخوه به فى غير اتقان ، فكان ظاهر الكذب حتى ليوصف بأنه كذب[١٧] ، الامر الذى جعل يعقوب لا يصدقهم ، ولهذا كان يدعوهم دائما الى أن يتقصوا آثار أخيهم ، وقد وقعوا فى حالة «التبرير» ، كما يفعل المذنب ، اذ يعمد الى تفسير سلوكه ليبين لنفسه وللناس أن لسلوكه هذا أسبابا معقولة[١٨] ، فهم يقولون «يا أبانا انا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا ، فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين»[١٩] .

وعلى أية حال ، فلقد كان أخوة يوسف قد أجمعوا أمرهم على أن يجعلوه فى غياهب الجب[٢٠] ، ولكنهم سرعان ما غيروا رأيهم حيث أشار يهوذا على أن يبيعوه للاسماعيليين ، ولكن الامور لم تسر كما يرغبون ، وكما تقول التوراة «جاء رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر ، وباعوا يوسف للاسماعيليين بعشرين من الفضة ، فأتوا بيوسف الى مصر»[٢١] ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلى دلوه ، قال يابشرى هذا غلام

---

(١٧) فى ظلال القرآن ١٩٧٥/٤ — ١٩٧٦ .
(١٨) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥١٦ — ٥١٧ .
(١٩) سورة يوسف : آية ١٧ .
(٢٠) ذهب بعض المفسرين الى أنها بئئر بأرض الاردن أو هى بين مصر ومدين أو هى على مبعدة ثلاثة فراسخ من منازل يعقوب فى كنعان ، وهو الارجح ، أو هى بئر المقدس ، غير أن التقاط السيارة له ومجيئهم أباهم عشاء يبكون ذلك اليوم ، يضعف هذا الاتجاه (تفسير أبى السعود ٢٥٨/٤ ، تفسير النسفى ٢١٤/٢) .
(٢١) تكوين ١٨/٣٧ — ٢٨ .

وأسروه بضاعة والله عليم بما يعملون ، وشروه بثمن بخس دراهم معدودة ، وكانوا فيه من الزاهدين»[٢٢] •

وهكذا هبط الصديق مصر ، كرقيق اشتراه رئيس الشرطة المصرى بثمن بخس دراهم معدودة ، رأى بعض المفسرين أنها دون الاربعين ، على أساس أنها معدودة لا موزونة ، وانما يعد القليل ، ويوزن الكثير ، وكانت العرب تزن ما بلغ الاوقية ، وهى أربعون درهما فما فوقها ، وتعد ما دونها ، ولهذا يعبرون عن القليلة بالمعدودة ، وذهب ابن عباس وابن مسعود وغيرهما الى أنهم باعوه بعشرين درهما ، بينما ذهب فريق ثالث الى أنهم باعوه بأربعين درهما[٢٣] ، وأيا ما كان الامر ، فقد كانت هذه نهاية المحنة الاولى فى حياة النبى الكريم •

بقيت الاشارة الى أن هناك فريقا من المفسرين ذهب الى أن أخوة يوسف كانوا أنبياء ، واستدلوا على ذلك بأنهم الاسباط المذكورون فى آية آل عمران(٨٤) «قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحاق ويعقوب والاسباط» ، والصحيح أن الاسباط ليسوا أولاد يعقوب ، وانما هم من ذرية يعقوب ، كما نبه عليه المحققون[٢٤]، هذا وقد جاء فى المصباح المنير : السبط ولد الولد ، والجمع أسباط ، مثل حمل وأحمال ، والسبط : الفريق من اليهود ، يقال للعرب قبائل ، ولليهود أسباط ، ومن هنا ذهب المفسرون المسلمون الى أن الاسباط هم بنو

---

(٢٢) سورة يوسف : آية ١٩ – ٢٠ •

(٢٣) تفسير الطبرى ١٣/١٦ – ١٦ ، تفسير القرطبى ١٥٥/٩ – ١٥٧ ، تفسير المنار ٢٨١/٢ ، تفسير ابن كثير ٣٠٥/٤ ، تفسير روح المعانى ٢٠٤/١٢ – ٢٠٥ ، تفسير أبى السعود ٢٦١/٤ ، تفسير الخازن ٢٧١/٣ ، تفسير النسفى ٢١٥/٢ ، مؤتمر تفسير سورة يوسف ٤٢١/١ – ٤٢٧ ، المقدسى : البدء والتاريخ ٦٨/٣ •

(٢٤) يذهب البعض الى أن الاسباط كانوا من بنى اسماعيل الذين ارسل الله اليهم رسلا ، لم يذكر أسماءهم ولا أممهم ، وبخاصة من بنى قحطان ، كقوم تبع وأصحاب الرس وسبأ (أنظر صابر طعيمة : بنو اسرائيل فى ميزان القرآن – بيروت ١٩٧٥ ص ١٨١ – ١٩٦ •

يعقوب ، كانوا اثنى عشر رجلا ، كل واحد منهم ولد سبطا ، أمة من الناس ، فسموا أسباطا ، هذا وقد بعث الله منهم عدة رسل ، غير أنه لم يصح أن أخوة يوسف بالذات كانوا أنبياء ، اذ لو كانوا كذلك لما أقدموا على ما أقدموا عليه من الافعال الشنيعة ، فالحسد والسعى بالفساد ، والاقدام على القتل ، والكذب ، والقاء يوسف فى الجب ، كل ذلك من الكبائر التى تتنافى مع عصمة الانبياء ، فالقول بأنهم أنبياء ، مع هذه الجرائم لا يقبله عقل حصيف[٢٥] ، ويقول ابن كثير : وظاهر ماذكر من فعالهم ومقالهم فى هذه القصة يدل على أنهم غير أنبياء ، ومن استدل بنبوتهم بآية آل عمران (٨٤) وزعم أن هؤلاء هم الاسباط فليس استدلال بقوى ، لان المراد بالاسباط شعوب بنى اسرائيل وما كان يوجد فيهم من الانبياء ينزل عليهم الوحى من السماء ، ومما يؤيد أن يوسف عليه السلام هو المختص من بين اخوته بالرسالة والنبوة أنه لم ينص على واحد من اخوته سواه ، فدل على ما ذكرناه[٢٦] .

٢ ــ يوسف وامراة العزيز :

اشترى عزيز مصر يوسف من تجار الرقيق ، ثم ذهب به الى بيته وقال لامرأته «أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا»[٢٧]، ذلك لان الرجل توسم فى الصديق خيرا ، والخير يتوسم فى الوجوه الصباح ، وخاصة حين تصاحبها السجايا الملاح ، فاذا هو يوصى به امرأته ، وهكذا بدأ الصديق مرحلة جديدة فى حياته فى قصر

---

(٢٥) محمد على الصابونى : صفوة التفاسير ٤٥/٢ ــ ٤٦ (بيروت ١٩٨١) ، تفسير الطبرى ١٢١/٢ ، ٢١١/٣ ــ ٤٤٤٣ ، ٥٦٩/٦ ، تفسير الكشاف ١٩٥/١ ، تفسير روح المعانى ٦/١٦ ، فى ظلال القرآن ١٩٧٣/٤ ، محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٥٠/١ .

(٢٦) ابن كثير : البداية والنهاية ١٩٨/١ ــ ١٩٩ .

(٢٧) سورة يوسف : آية ٢١ : وروى ابن كثير فى تفسيره عن عبدالله بن مسعود قال : أفرس الناس ثلاثة : عزيز مصر ، حين قال لامرأته «أكرمى مثواه» والمرأة التى قالت لابيها عن موسى «يا أبت استأجره» ، وأبو بكر الصديق حين استخلف عمر بن الخطاب رضى الله عنهما (مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٥/٢) .

عزيز مصر ، والذى اشتراه ، وهـو طبقا للرواية العـربية ، الوزير بمصر ، وكان اسمه فيما يروى عن ابن عباس ، « قطفـير » وكان على خـزائن مصر ، وكان الملك يومئذ «الريان بن الوليد» رجـل من العماليق ، واسم امرأته راعيل أو زليخا[٢٨] .

على أن العجيب من الامر أن تصف التوراة عزيز مصر بأنه «خصى فرعون رئيس الشرطة»[٢٩] ، ولست أدرى كيف دار فى خلد كاتب نص التوراة هذا ، بأن رئيس الشرطة المصرى كان خصيا ، ومن عجب أن هذه الاكاذيب قـد انتقلت الى بعض كتب التفسير ، وان رفضتها جمهـرة المفسرين[٣٠] ، وكأن الرجل لم يكن شافعا له ، فى نظر كتبة التوراة ومن لف لفهم ، فى دحض هذه الفرية ، أنه كان زوج أجمل سيدة فى مجتمع الهكسوس ، ولكن ما الحيلة وصاحب سفر التكوين من التوراة انما يرى أن حاشية القصر كانت كلها من الخصيان ، حتى لنجـده كذلك يصف رئيس سقاة الملك ورئيس خبازيه بأنهما من الخصيان[٣١] .

غير أن الصديق ، عليه السلام ، انما تعرض فى أخريات أيامه فى قصر العزيز الى امتحان رهيب ، بدأت به المحنة الثانية فى حياته ، وهى أشد وأعمق من المحنة الاولى ، تجيئة وقد أوتى صحة الحكم ، وأوتى العلم ، ليواجهها وينجو منها جزاء احسانه الذى سجله الله تعـالى فى قرآنه ، وذلك حين روادته امرأة العزيز عن نفسه ، لانها افتتنت بحسنه فأحبته ، وليس لها ما يردعها من خوف زوجها عن خيانته ، لانه تملك قياده كما يشاء هواها ، شأن ربات القصور المترفـات اللائى أفسدت طباعهن الحرية والفراغ ، وكادت له لما رفض أن يستجيب ، لان لها من نفاذ الكلمة ومن السلطان على زوجها ما مكنها من الانتقام ، رغم ماعرف

---

(٢٨) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٤/٢ .
(٢٩) تكوين ١/٣٩ .
(٣٠) تفسير الطبرى ١٦/١٩ ، تفسير القرطبى ص ٣٣٨٩ ، تفسير ابى السعود ٢٨٦/٤ ، تفسير الخازن ٢٩٣/٣ ، وانظر : تفسير البيضاوى ٤٩١/١ ، تفسير المنار ٢٧٢/١٢ ، تفسير روح المعانى ٢٠٧/١٢ ، مؤتمر تفسير سورة يوسف ٤٣٤/١ ، ٥٠٣ ـ ٥٠٤ ، ٥٢٥/١ ـ ٥٢٦ .
(٣١) تكوين ٢/٢٠ .

زوجها من آيات صدقه[٣٢] • والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه ، وغلقت الابواب وقالت هيت لك ، قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون ، ولقد همت به وهم بها ، لولا أن رأى برهان ربه كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء انه من عبادنا المخلصين»[٣٣] •

ويقول الاستاذ سيد قطب[٣٤] ، طيب الله ثراه ، ان هذه الدعوة السافرة الجائرة من امرأة العزيز ، لا تكون أول دعوة من المرأة ، انما تكون هى الدعو الاخيرة ، وقد لا تكون أبدا ، اذا لم تضطر اليها المرأة اضطرارا ، والفتى يعيش معها وقوته وفتوته تتكامل ، وأنوثتها هى تكمل وتنضج ، فلابد كانت هناك اغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة العنيفة الغليظة ، «قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى ، انه لا يفلح الظالمون» ، والنص هنا صريح وقاطع فى أن رد يوسف المباشر على المراودة السافرة كان هو التأبى ، المصحوب بتذكر نعمة الله عليه ، وتذكر حدوده وجزاء من يتجاوز هذه الحدود ، فلم تكن هناك استجابة فى أول الموقف لما دعته اليه دعوة غليظة جاهرة بعد تغليق الابواب،وبعد الهتاف الصريح الذى يتجمل القرآن فى حكايته وروايته وقالت : هيتلك•

هذا وقد حصر المفسرون القدامى منهم والمحدثون نظرهم فى الواقعة الاخيرة «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» فأما الذين ساروا وراء الاسرائيليات فقد رووا أساطير كثيرة يصورون فيها يوسف هائج الغريزة مندفعا شبقا ، والله يدافعه ببراهين كثيرة فلا يندفع ، صورت له هيئة أبيه يعقوب فىسقف المخدع عاضا على اصبعه بفمه ، وصورت له لوحات كتبت عليها آيات من القرآن (نعم من القرآن ؟)

---

(٣٢) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥١٢ •

(٣٣) سورة يوسف : آية ٢٣ ــ ٢٤ ، وأنظر : تفسير الطبرى ١٦/ ٢٤ ــ ٥٠ ، تفسير ابن كثير ٣٠٦/٤ ــ ٣٠٩ ، تفسير المنار ٢٢٧/١٢ــ٢٣٥ ، تفسير القرطبى ص ٣٣٩١ ــ ٣٣٩٩ •

(٣٤) فى ظلال القرآن ١٩٨٠/٤ ــ ١٩٨١ (بيروت ١٩٨٢) •

تنهى عن مثل هذا المنكر ، وهو لا يرعــوى ، حتى أرسل الله جبريل يقول له : أدرك عبدى ، فجاء فضربه فى صدره ، الى آخر هذه التصورات الأسطورية التى سار وراءهــا بعض الرواة ، وهى واضحــة التلفيق والاختراع[٣٥] .

على أن جمهور المفسرين انما ساروا على أنها همت به هم الفعل ، وهم بها هم النفس ، ثم تجلى له برهان ربه فتركه ، وأنكر صــاحب تفسير المنار على الجمهور هذا الرأى ، ويقول الامام الفخر الرازى : الهم خطور الشىء بالبال أو ميل الطبع ، كالصائم يرى فى الصيف الماء البارد ، فتحمله نفسه على الميل اليه وطاب شربه ، ولكن يمنعــه دينه عنه ، وقال أبو حيان فى البحر : نسب بعضهم ليوسف ما لايجوز نسبته لآحاد الفساق والذى اختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم البتة ، بل هو منفى لوجود رؤية البرهان ، وقال أبو السعود : ان همه اليها بمعنى ميله اليهــا بمقتضى الطبيعــة البشرية ، ميلا جبليا ، لانه قصدها قصدا اختياريا ، ألا يرى الى ما سبق من استعصامه المنبىء عن كمال كراهيته له ونفرته منه ، وحكمه بعدم افلاح الظالمين ، وهل هــو الا تسجيل باستحالة صدور الهم منه تسجيلا محكما ، وما قيل : انه حل الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فانما هى خــرافات وأباطيل تمجها الاذان ، وتردها العقول والاذهان[٣٦] .

هذا وقد ذهب صاحب تفسير المنار[٣٧] الى أنها همت بضربه نتيجة ابائه واهانته لها ، وهى السيدة الآمرة ، وهم هو برد الاعتداء ، ولكنه

(٣٥) فى ظلال القرآن ١٩٨١/٤ ثم انظر : تفسير النسفى ٢١٧/٢ ، تفسير الطبرى ٣٣/١٦ ــ ٤٨ ، تفسير ابن كثير ٣٠٨/٤ ــ ٣٠٩ ، تفسير القرطبى ص ٣٣٩١ ــ ٣٣٩٨ ، تاريخ الطبرى ٣٣٧/١ ــ ٣٣٨ ، الكامل لابن الاثير ٨٠/١ ــ ٨١ ، ومن عجب أن التوراة لم تذكر شيئا مما ذكره المفسرون من هذه الروايات ، كما جاءت فى قصة المراودة فى سفر التكوين ٧/٣٩ ــ ٢٠ .

(٣٦) تفسير الفخر الرازى ١١٩/١٨ ، تفسير البحر المحيط ٢٩٥/٥ ، تفسير أبى السعود ٦٣/٢ ، تفسير المنار ٢٣١/١٢ ــ ٢٣٦ .

(٣٧) تفسير المنار ٢٢٩/١٢ ــ ٢٣١ .

آثر الهرب فلحقت به وقدت قميصه من دبر ، على أن تفسير الهم ، فيما يرى صاحب الظلال[٣٨] ، بأنه هم الضرب ورد الضرب مسألة لا دليل عليها فى العبارة ، فهى مجرد رأى لمحاولة البعد بيوسف عن هم الفعل أو هم الميل اليه فى تلك الواقعة ، وفيه تكلف وابعاد عن مدلول النص ، ثم يرى فى قوله تعالى «ولقد همت به وهم بها لولا أن رأى برهان ربه» نهـاية موقف طويل من الاغراء ، بعـد ما أبى يوسف فى أول الامـر واستعصم ، وهو تصوير واقعى صادق لحالة النفس البشرية الصالحة فى المقاومة والضعف ، ثم الاعتصـام بالله فى النهاية والنجـاة ، ولكن السياق القرآنى لم يفصل فى تلك المشاعر البشرية المتداخلة المتعـارضة المتغالبة ، لان المنهج القرآنى لا يريد أن يجعل من تلك اللحظة معرضا يستغرق أكثر من مساحته المناسبة فى محيط القصة ، وفى محيط الحياة البشرية المتكاملة كذلك ، فـذكر طرفى الموقف بين الاعتصـام فى أوله والاعتصام فى نهايته ، مع الالمام بلحظة الضعف بينهما ، ليكتمل الصدق والواقعية والجو النظيف جميعا ، ثم يرى صاحب الظلال بعد ذلك أن ذلك أقرب الى الطبيعة البشرية والى العصمة النبوية ، وما كان يوسف سوى بشر ، نعم انه بشر ممتاز ، ومن ثم لم يتجاوز همة الميل النفسى فى لحظة من اللحظات ، فلما أن رأى برهان ربه الذى ينبض فى ضميره وقلبه ، بعد لحظة الضعف الطارئة عاد الى الاعتصام والتأبى .

ولعل هذا قريبا مما ذهب اليه الزمخشرى فى الكشاف حيث يقول : فان قلت : كيف جاز على نبى الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد اليها، قلت (أى الزمخشرى) المراد أن نفسه ماله الى المخالطة ، ونازعت اليها عن شهوة الشباب وقرمه ميلا يشبه الهم به والقصد اليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التى تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر فى برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتنـاب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همـا لشدته ، لما كان

---

(٣٨) فى ظلال القرآن ١٩٨١/٤ ـ ١٩٨٢ (بيروت ١٩٨٢) .

صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ، لان استعظام الصبر على الابتلاء على حسب عظيم الابتلاء وشدته .

وأيا ما كان الامر ، فلقد آثر الصديق التخلص بعد أن استفاق ، وهي عدت خلفه لتمسك به ، وهي ماتزال في هياجها الحيواني ((واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا الا أن يسجن أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفسي وشهد شاهد من أهلها ، ان كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر ، قال انه من كيدكن أن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا ، واستغفري لذنبك انك كنت من الخاطئين))[٣٩] .

هذا وقد اختلف المفسرون في هذا الشاهد ، قيل هو ابن عم امرأة العزيز ، وكان جالسا مع زوجها لدى الباب ، وقيل كان حكيما يرجع اليه الملك ويستشيره ، وربما كان بعض أهلها قد بصر بها من حيث لا تشعر فأغضبه الله تعالى لنبيه بالشهادة له والقيام بالحق ، وانما ألقى الله الشهادة الى من هو أهلها ليكون أدل على نزاهته وأنفى للتهمة[٤٠] ، قال أبو حيان في البحر : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة[٤١] . وذهب جماعة من علماء السلف ، على رأسهم ابن عباس والحسن البصري وسعيد بن جبير والضحاك ، أنه كان صبيا في الدار ، واختاره ابن جرير ، وفيه حديث مرفوع رواه ابن جرير عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال : ((تكلم أربعة وهم صغار)) فذكر فيهم شاهد يوسف ، ورواه سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال : ((تكلم أربعة وهم صغار ، ابن ماشطة بنت فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى بن مريم)) ، ورواه الحاكم عن أبي هريرة[٤٢] ،

(٣٩) سورة يوسف : آية ٢٥ — ٢٩ .
(٤٠) تفسير أبي السعود ٢٦٨/٤ .
(٤١) تفسير البحر المحيط ٢٩٧/٥ .
(٤٢) مختصر تفسير ابن كثير ٢٤٧/٢ ، وانظر : تفسير الطبري ١٩٣/١٢ ، تفسير النسفي ٢١٨/٢ ، تفسير أبي السعود ٢٦٨/٤ .

وهكذا ظهرت براءة يوسف عليه السلام للعزيز ، فقال له ((يوسف أعرض عن هذا)) أى لا تذكره لاحد ، لان كتمان مثل هذه الامور ، كما يقول ابن كثير ، هو الاليق والاحسن ، وأمرها هى بالاستغفار لذنبها الذى صدر منها ، والتوبة الى ربها ، فان العبد اذا تاب الى الله تاب الله عليه ، وأهل مصر ، وان كانوا يعبدون الاصنام ، الا أنهم يعلمون أن الذى يغفر الذنوب ويؤاخذ بها،هو الله وحده لا شريك له فى ذلك(٤٣) .

غير أن أنباء الفضيحة سرعان ما تترامى الى الناس ، وطفق النساء خاصة يتحدثن بسقطة امرأة العزيز ، ويتناقلنها بينهن ، وأنها شغفت حبا بفتاها وخادمها ، وكيف خرجت على طبع أنوثتها فى ادلالها وتمنعها، ونزلت عن كبريائها وسلطانها(٤٤) ، ((وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه وقد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين))(٤٥) ، وفى ذلك اشباع فى اللوم ، فان من لا زوج لها من النساء ، أو لها زوج دنىء قد تعذر فى مراودة الاخدان ، لاسيما اذا كان فيهم علو الجانب، وأما التى لها زوج ، وأى زوج ، انه عزيز مصر ، فمراودتها لغيره ، لاسيما لعبدها الذى لا كفاءة بينها وبينه أصلا ، وتماديها فى ذلك ، انما هو غاية الغى ونهاية الضلال(٤٦) ، ((فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكينا وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ما هذا بشرا ، ان هذا الا ملك كريم))(٤٧) .

هذا وتشير الآية الكريمة الى أن امرأة العزيز انما أرادت أن ترد على النساء اللواتى أطلقن السنتهن فيها بمكر يوقعهن فيما وقعت فيه من طريق ثغرة الضعف الغريزى الشهوى الذى تعرفه فيهن من معرفتها

---

(٤٣) ابن كثير : البداية والنهاية ١/٢٠٤ .
(٤٤) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥١٢ .
(٤٥) سورة يوسف : آية ٣٠ .
(٤٦) تفسير أبى السعود ٤/٢٧٠ .
(٤٧) سورة يوسف : آية ٣١ .

لثقفتها ، ومن ثم فقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وبدهى أنهن كن من نساء الطبقة الراقية اللواتى يهمها أمرهن ، وهن اللواتى يدعين الى الموائد فى القصور ، ويؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن كن يأكلن وهن متكئات على الوسائد والحشايا ، فأعدت لهن هذا المتكأ ، وآتت كل واحدة منهن سكينا تستعملها فى الطعام ، ويؤخذ من هذا أن الحضارة فى مصر قد بلغت شاؤا بعيدا ، وأن الترف فى القصور كان عظيما ، فان استعمال السكاكين فى الاكل قبل هذه آلاف من السنين له قيمة فى تصوير الترف والحضارة المصرية بين حكام مصر من الهكسوس، وهم خليط من شعوب شتى ، فما بالك بالمصريين أنفسهم ، وهم أرفع شأنا ، وأكثر تمدنا ، وأرقى حضارة من كل شعوب الشرق القديم • وعلى أية حال ، فبينما النســاء منشغلات بتقطيع اللحــم أو تقشير الفاكهة ، فاجأتهن بيوسف ، فلما رأينه أكبرنه وجرحن أيديهن بالسكاكين للدهشة المفاجئة ، «وقلن حاشا لله ، ما هذا بشر ان هذا الا ملك كريم»، وهذه التعبيرات ، فيما يرى صاحب الظلال[٤٨] ، دليل على تسرب شىء من ديانات التوحيد فى ذلك الزمان ، وهنا أدركت امرأة العزيز أن هؤلاء النسوة يقفن معها على أرض واحدة ، حيث تبدو فيها الانثى متجردة من كل تجمل المرأة وحيائها ، فاذا بها تقول قول المرأة المنتصرة ، والتى تفخر عليهن بأن هذا فى متناول يدها ، وان كان قد استعصى قياده مرة، فهى تملك هذه القيادة مرة أخرى «قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ، ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ، ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين ، قال رب السجــن أحب الى مما يدعوننى اليه ، والا تصرف عنى كيدهن أصب اليهن وأكن من الجاهلين ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن انه هو السميع العليم»[٤٩] •

وهكذا تحولت الامور الى صراع بين المرأة والفتى ، ودخلت كما يقال فى دور من العناد والمغالبة غريب ، هى بتهالكها الذى انكشف عن

---

(٤٨) فى ظلال القرآن ١٩٥٣/٤ ، ١٩٨٤ — ١٩٨٥

(٤٩) سورة يوسف : آية ٣٢ — ٣٤ •

تبجح سافر ، وكبر خائر ، وهو باصراره الذى لا سبيل له الا الى المضى فيما بدا وأعلن للناس ، ولكنه مع ذلك لم ينج منهم ومن كيد نسائهم، وتحالفت عليه قوى البغى ، فكان لهن من السلطان على أزواجهن ما حجب الحق الابلج ، وأساء الى الخلق المتين[٥٠] : «ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين»[٥١] .

وليس هناك من سبيل الى شك فى أن هذه انما تقدم لنا صورة لمجتمع فاسد آثم ، تصور ما كان عليه مجتمع الدخلاء من حكام الهكسوس المغتصبين فى مصر من فساد وانحلال ، ولو لم يكن لدينا عن مصر فى ذلك الزمان سوى تلك القصة ، لاتخذناها وحدها دليلا على مجتمع يسوده الاجانب والغرباء ، ولنفيناها عن المصريين ونسبناها الى المجتمع الاجنبى مطمئنين ، لانها انما تخالف عن طبيعة الاشياء فى مصر، وتخرج عن سليقة المصرى بما ركب فيه من الانفة والحمية والكرامة والكبرياء ، ولو نظرنا الى بعض قصص التوراة ، لوجدنا قصتنا هذه أشبه بقصص التوراة وأدنى الى مجتمعها[٥٢] ، على حين تنبو عن مجتمع المصريين الاصيل ، وتخالف تقاليدهم وأذواقهم ، خلافا يفوق كل خلاف[٥٣] .

٣ ـ يوسف فى السجن :

تمثل هذه الفترة فى حياة الصديق المحنة الثالثة والاخيرة ، فكل ما بعدها رخاء ، وابتلاء لصبره على الرخاء ، بعد ابتلاء صبره على الشدة ، والمحنة فى هذه الحلقة هى محنة السجن بعد ظهور البراءة ، والسجن للبرىء المظلوم أقسى ، وان كان فى طمأنينة القلب بالبراءة تعزية وسلوى[٥٤] ، ذلك أن القوم من الهكسوس سرعان

(٥٠) أحمد عبد الحميد يوسف : مصر فى القرآن والسنة ـ القاهرة ١٩٧٣ ص ٤٥ .
(٥١) سورة يوسف : آية ٣٥ .
(٥٢) أنظر عن مجتمع قصص التوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٦٢/٣ ـ ٢١٧) .
(٥٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٤٥ ـ ٤٦
(٥٤) فى ظلال القرآن ١٩٨٧/٤ .

ما قذفوا بالصديق الى السجن ، رغم ما رأوا من آيات براءته ، كقد القميص وقطع الايدى وشهادة الصبى وغير ذلك ، مدة لم يحددوا زمنها ، لان الهدف من ذلك انما كان أن ينسى الناس قصته مع امرأة العزيز ، هذه القصة التى لاكتها الالسن كثيرا بين أوساط الناس .

ومع ذلك ، فان الصديق عليه السلام ، انما يتقبل السجن صابرا محتسبا ، رغم أنه كان فى سجنه غريبا وحيدا ، بيد أنه كان دائما يسبح لمن أحيا الفؤاد بنوره ، فاذا به يستشعر رحابه فى وجدانه وسعت الكون كله ، وسمت روحه لتتصل بروح الوجود ، واذا به يأنس بربه ، ويحس تعاطفا مع كل من حوله وما حوله ، واذا بقلبه ينفتح للبشرية جمعاء ، حتى الذين ظلموه لم يحقد عليهم ، كانت ارادته أن يتقى الله حق تقاته ، ونيته أن يخلص لله ، وعزمه أن يصل حبله بحبل الله ، وقصده أن يهب نفسه لله ، وأن يسير فى سبيل الله فجزاه الله الجزاء الاوفى ، فعلمه من علمه ، والله بكل شىء عليم[55] .

وكان ملك مصر من الهكسوس الغزاة قد أدخل معه صاحب طعامه وصاحب شرابه ، بعد أن اتهمهما بأنهما تآمرا عليه ودسا له السم فى الطعام ، فراح الصديق يدعوهما الى الله ويذهب عنهما حزنهما ، ويبذل لهما ما وسعه البذل لتطمئن نفوسهما ، ويرى السجناء فى مسلكه الطاهر ما يجذبهم اليه ، فيطلبون اليه تفسير الرؤيا وتأويل الاحلام[56] ،

---

(٥٥) عبد الحميد جودة السحار : بنو اسماعيل ــ القاهرة ١٩٦٦ ص ٥٦ ــ ٥٨ .

(٥٦) هناك بحوث كثيرة لعلماء النفس فى الاحلام ، فمن قائل انها صورة من اللاشعور النهائى ، أو هى صورة من الرغبات المكبوتة تتنفس بها الاحلام فى غياب الوعى ، ومن قائل انها تعويضية ، ومن قائل انها تقوم بوظيفة لاعداد الحياة ، اذ أن الامر كله لا يعدو أن القوم يحلمون ، لانهم يلتمسون فى الحلم حلولا يسيرون عليها فى نشاطهم المقبل (اسحاق رمزى : علم النفس الفردى ــ القاهرة ١٩١٩ ص ١٣٢ ــ ١٣٤ ، التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥١٨ ، فى ظلال القرآن ٤/ ١٩٧٢) ، ويذهب ابن خلدون فى المقدمة (ص ١٨٠) أن النفس اذا خفت عنها شواغل الحس وموانعه بالنوم ، تتعرض الى معرفة ما تتشوق اليه فى عالم الحق ، فتدرك فى بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر المطلوب ، ولذلك جعل الله الرؤيا من المبشرات .

ويكاد القرآن الكريم والعهد القديم يتشابهان فى عرضهما للامر ، وان استغرقت التوراة كثيرا فى رؤيا السجينين[٥٧] .

على أن القرآن الكريم انما ينفرد وحـده بذكر دعوة يوسف عليه السلام ، وهو فى السجن ، الى توحيد الله ، وبث العقيدة الصحيحة ، ويظهر جليا فى هذه الدعوة لطف مدخله الى النفوس ، وسيره خطوة خطوة فى رفق وتؤدة[٥٨] ، قال « لا يأتيكما طعـام ترزقانه الا نبأتكما بتأويله قبـل أن يأتيكمـا ذلكما ممـا علمنى ربى»[٥٩] ، وكأنه أراد اخبارهما بمعجزاته توطئة لدعائهما الى الايمان ، قال الامام البيضاوى : أراد أن يدعوهما الى التوحيد ويرشدهما الى الدين القويم قبـل أن يسعفهما الى ما سألاه عنه ، كما هى طريقة الانبياء فى الهداية والارشاد فقدم ما يكون معجـزة له من الاخبـار بالغيب ليدلهما على صدقه فى الدعوة والتعبير[٦٠] .

= وروى ابو هريرة عن النبى (ص) أنه قال «لم يبق من النبـوة الا المبشرات ، قيل وما المبشرات يا رسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة» (صحيح البخارى ٩/٤٠ ـ القاهرة ١٣٧٨) وفى تفسير النسفى ١٦٩/٢ روى عنه (ص) عن البشرى «هى الرؤيا الصالحة التى يراها المسلم أو ترى له» ، وعنـه (ص) «ذهبت النبـوة وبقيت المبترات ، والرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة» (تفسير النسفى ١٦٩/٢) ، ويرى الامام الغزالى أن أدلة العقل وحدها لا تكفى لنبوة نبى ، ويقول : انما نعرف النبى أو العارف الذى يتلقى علمه من الله بأمر آخر ، فـان الله أعطانا نموذجا من خصائص النبوة نشاهده فى نفوسنا ، ويعنى بذلك ما يراه النائم من أسرار الغيب (الغزالى :المنقذ من الضلال ـ القـاهرة ١٣٠٨ هـ ص ٢٤ ـ ٢٦) ، ويذهب صاحب الظلال (١٩٧٢/٤) الى أننا ملزمون بالاعتقاد بان بعض الرؤى تحمل نبؤات عن المستقبل القريب او البعيد ، ملزمون بهذا أولا من ناحية ما ورد فى هذه السورة من وقـوع مصداق رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحبيه فى السجن ورؤيا ملك مصر ، وثانيا ما نراه فى حياتنا الشخصية من تحقيق رؤيا تنبؤية فى حالات متكـررة بشكل يصعب نفى وجوده لانه موجود بالفعل .

(٥٧) سورة يوسف : آية ٣٦ ـ ٣٧ ، ٤١ ، تكوين ١/٤٠ ـ ٢٢ .

(٥٨) التهامى نقرة : المرجع السابق ص ٥٣٥ .

(٥٩) سورة يوسف : آية ٣٧ .

(٦٠) تفسير البيضاوى ٢٦٤/٢ .

ثم يتوغل فى قلوبهما أكثر ، ويفصح عن دعوته ، ويكشف عن فساد اعتقادهما ، واعتقاد قومهما بعد ذلك التمهيد الطويل[٦١] ، «انى تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دون الله الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله أمر الا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»[٦٢] ، وهى صورة للاسلام واضحة كاملة دقيقة شاملة ، كما جاء بها رسل الله جميعا ، من ناحيه أصول العقيدة تحتوى ، الايمان بالله وبالآخرة ، وتوحيد الله وعدم الاشراك به أصلا ، ومعرفة الله تعالى بصفاته الواحد القهار ، والحكم بعدم وجود حقيقة ولا سلطان لغيره أصلا ، ومن ثم نفى الارباب التى تتحكم فى رقاب العباد ، واعلان السلطان والحكم لله وحده ، مادام أن الله أمر ألا يعبد الناس غيره ، ومزاولة السلطان والحكم والربوبية هى تعبيد للناس مخالف للامر بعبادة الله وحده ، وتحديد معنى «العبادة» بأنها الخضوع للسلطان والحكم والاذعان للربوبية ، وتعريف الدين القيم بأنه افراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة ، أى افراده بالحكم ، فهما مترادفان أو متلازمان «ان الحكم الا لله أمر ألا تعبدوا الا اياه ذلك الدين القيم» ، وهذه هى أوضح صورة للاسلام وأكملها وأدقها وأشملها[٦٣] .

وهكذا يبلغ الصديق عليه السلام ، أقصى الغاية من الدرس الذى ألقاه ، مرتبطا فى مطلعه بالامر الذى يشغل بال صاحبيه فى السجن ، ومن ثم فهو يؤول لهما الرؤيا فى نهاية الدرس ، ليزيدهما ثقة فى قوله كله وتعلقا به « يا صاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا ، وأما

---

(٦١) محمد رجب البيومى : البيان القرآنى - القاهرة ١٩٧١ ص ٢٢٥ .

(٦٢) سورة يوسف : آية ٣٧ - ٤٠ .

(٦٣) فى ظلال القرآن ٤/١٩٦٠ .

الاخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الامر الذى فيه تستفتيان»[٦٤] • والصديق ، مع هذا كله ، بشر ، فيه ضعف البشر ، فهو يتطلب الخلاص من سجنه ، بمحاولة ايصال خبره الى الملك ، لعله يكشف المؤامرة الظالمة التى جاءت به الى السجن ، وان كان الله تعالى شاء أن يعلمه أن يقطع الرجاء الا منه وحده ، «وقال للذى ظن انه ناج منهما أذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين»[٦٥]، والبضع ما بين الثلاث الى التسع ، وفى الحديث «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل أذكرنى عند ربك لما لبث فى السجن سبعا»[٦٦] ، والاستعانة بالعباد ، وان كانت مرخصة ، لكن اللائق بالانبياء الاخذ بالعزائم[٦٧]، وجاء فى تفسير القرطبى أن جبريل جاء الى يوسف وهو فى السجن معاتبا فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدى اخوتك ، قال الله تعالى ، قال فمن أخرجك من الجب ، قال الله تعالى ، قال فمن عصمك من الفاحشة ، قال الله تعالى ، قال فمن صرف عنك كيد النساء ، قال الله تعالى ، قال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق ، قال يا رب كلمة زلت منى ، أسألك يا اله ابراهيم واله الشيخ يعقوب عليهم السلام : أن ترحمنى ، قال جبريل : فان عقوبتك أن تلبث فى السجن بضع سنين[٦٨] •

وجاءت ساعة الذكرى عندما رأى الملك حلما غريبا لا يقدر على تفسيره أحد ، فتذكر السجين السالف براعة يوسف ، ويشير به ، ثم ينهض الى استفتائه فينطق بالتأويل الصريح[٦٩] ، والى هذا يشير القرآن الكريم فى قوله تعالى «وقال الملك انى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وآخر يابسات ، يا أيها الملأ

---

(٦٤) سورة يوسف : آية ٤١ •
(٦٥) سورة يوسف : آية ٤٢ •
(٦٦) تفسير النسفى ٢٢٣/٢ •
(٦٧) تفسير أبى السعود ٢٨٠/٤ ، تفسير الخازن ٢٨٥/٣ — ٢٨٦ •
(٦٨) تفسير القرطبى ١٩٦/٩ •
(٦٩) محمد رجب البيومى : المرجع السابق ص ٢٢٥ •

أفتونى فى رؤياى ان كنتم للرؤيا تعبرون ، قالوا أضغاث أحلام ومانحن بتأويل الاحلام بعالمين ، وقال الذى نجا وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ، يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع الى الناس لعلهم يعلمون ، قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبلة الا قليلا مما تأكلون ، ثم يأتى بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون»[٧٠] ، قال الامام الزمخشرى : تأول عليه السلام البقرات السمان والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف اليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيىء مباركا خصيبا ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحى[٧١] ، لان هذا العام الرخاء لا يقابله رمز فى رؤيا الملك ، فهو اذن من العلم اللدنى الذى علمه الله يوسف ، فبشر به الساقى ليبشر به الملك والناس بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخى رغيد .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة هنا الى أنه قد مرت بنا رؤى ثلاث ، رؤيا يوسف ، ورؤيا صاحب السجن ، ورؤيا الملك ، وطلب تأويلها فى كل مرة ، والاهتمام بها يعطينا صورة من جو العصر كله فى مصر وفى خارج مصر ، وأن الهبة اللدنية التى وهبها يوسف كانت من روح العصر وجوه ، على ما نعهد فى معجزات الانبياء ، فهل كانت هذه هى معجزة يوسف عليه السلام ؟[٧٢] ربما كان الامر كذلك ، والله وحده يعلم الغيب من الامر .

وعلى أى حال ، فلقد طلب الملك أن يأتوا بيوسف من السجن ، غير أن الصديق انما يرفض أن يغادر سجنه حتى تظهر براءته للناس جميعا، مما ألصق به من تهمة هو منها براء ، قال السدى ، قال ابن عباس : لو

---

(٧٠) سورة يوسف : آية ٤٣ ـ ٤٩ .
(٧١) تفسير الكشاف ٢/٤٧٧ .
(٧٢) فى ظلال القرآن ٤/١٩٩٣ ـ ١٩٩٤ .

يخرج يوسف يومئذ قبل أن يعلم الملك بشأنه مازالت في نفس العزيز منه حاجة يقول : هذا الذى راود امرأتى ، فلما رجع الرسول الى الملك من عند يوسف جمع الملك أولئك النسوة[٧٣] فقال لهن « ما خطبكن اذ راودتن يوسف عن نفسه قلنا حاش لله ما علمنا عليه من سوء ، قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وانه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين ، وما أبرىء نفسى ان النفس لامارة بالسوء الا ما رحم ربى ان ربى غفور رحيم»[٧٤] .

وهكذا تثبت الاحداث السابقة جميعا عصمة النبى الكريم سيدنا يوسف عليه السلام وبراءته من تلك التهمة التى نسبها اليه من لايعرف قدر النبوة ولا عظمة الرسالة ولا صفات الانبياء الكرام البررة ، فضلا عن أن يوسف نبى وابن نبى وحفيد نبى وجد أبيه نبى ، فهو يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم عليهم السلام ، هذا وقد قدم لنا الاستاذ الصابونى وجوها عشرة على عصمة يوسف وبراءته ، منها (أولا) امتناعه عن مطاوعة امرأة العزيز ووقوفه فى وجهها بكل صلابة وعزم «قال معاذ الله انه ربى أحسن مثواى انه لا يفلح الظالمون»

ومنها (ثانيا) فراره من امرأة العزيز بعد أن حاصرته وضيقت عليه الخناق وأرادته على نفسها بالغصب والاكراه ، ولو كان يوسف قد هم بالفاحشة لما فر منها ، لان الذى يريد ذلك يقدم ولا يفر « واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر» الآية ، ومنها (ثالثا) شهادة بعض أقرباء المرأة ببراءة يوسف حيث أشار بفحص ثوبه فان كان طالبا وهى الممتنعة فان ثوبه سيشق من أمام ، وان كانت هى الطالبة وهو الممتنع فان ثوبه سيشق من خلف ، وهذا ما ثبت (الآيات ٢٦ — ٢٩) ، ومنها (رابعا) تفضيله السجن على عمل الفاحشة (آية ٣٣) وهذا من أعظم البراهين

---

(٧٣) تاريخ الطبرى ٣٤٦/١ .
(٧٤) سورة يوسف : آية ٥١ — ٥٣ .

على براءته ، ذلك لانه لو طاوعها لما لبث فى السجن بضع سنين بتسبب تلك التهمة الظالمة ، ومنها (خامسا) ثناء الله تعالى عليه فى مواطن عديدة من السورة ، كما فى الآيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٤) فلقد أخبر الله تعالى أنه من المحسنين وأنه من عباده المخلصين ، ولن يكون ثناء الله تعالى الا على من صفت نفسه ، وطهرت سريرته من كل نية سوء ، وكل عمل قبيح ، فكان من الاطهار المقربين ، كما أثنى عليه سيدنا رسول الله ﷺ فقال ﷺ : ان الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم» ، وكفى بذلك شرفا وفضلا .

ومنها (سادسا) اعتراف امرأة العزيز بعصمته وعفته أمام جمع من نسوة المدينة ، كما فى الآيات (٣١ — ٣٢) ومنها (سابعا) ظهور امارات براءة يوسف بكل الادلة ، كقد القميص وقطع النسوة أيديهن وشهادة الصبى ، ومع ذلك فقد أقدم العزيز على سجنه ايهاما للناس ، وسترا على زوجته (الآية ٣٥) ، ومنها (ثامنا) استجابة الله تعالى لدعوة يوسف بأن يصرف عنه كيدهن ، ولو كان راغبا فى مطاوعة امرأة العزيز، لما طلب من الله أن يصرف عنه كيدهن (الآية ٣٤) ، ومنها (تاسعا) عدم قبول يوسف الخروج من السجن حتى تظهر براءته أمام الناس جميعا، (الآية ٥٠) ومنها (عاشرا) الاعتراف الواضح الصريح من النسوة ومن امرأة العزيز ببراءة يوسف وعفته (الآيات ٥١ — ٥٣)(٧٥) .

(٧٥) محمد على الصابونى : النبوة والانبياء ص ٧٤ — ٧٨ ، صفوة التفاسير ٥٣/٢ — ٥٤ ، تفسير النسفى ٢٢١/٢ .

الفصل الثانى

يوسف عزيز مصر

١ ـ يوسف العزيز :

ظهرت براءة يوسف عليه السلام ، كما رأينا ، فى الفصل السابق ، ومن ثم فقد خرج من السجن ، ولقى الملك وتحدث اليه ، فرأى فيه مخايل الامانة ، وحكمة التصرف وعزة النفس ، وامارات السيادة فقربه اليه ، ورفع منزلته لديه ، وهكذا تشاء ارادة الله أن يصبح الصديق على خزائن الارض أمينا ، بعد أن كان فى زوايا الارض سجينا ، اذ ينال الحظوة عند ملك مصر من الهكسوس بعد أن قام بتفسير رؤياه تفسيرا يتفق ومقام النبوة ، ويتنزه عن تفسيرات رجال البلاط وحكمائه من سدنة وكهان ، فضلا عن براءته مما نسب اليه بشأن امرأة العزيز ، ومن ثم فقد قلده الملك ما يشبه وزارة التموين فى عصرنا الحاضر[1] ، وان كانت التوراة تجعله أشبه برئيس الوزراء[2] ، وهكذا قدر للصديق عليه السلام أن يرتفع من رق العبودية الى كرسى الوزارة[3] ، وأن يتزوج ، فيما تروى التوراة ، من سيدة مصرية هى

(١) أنظر : سورة يوسف : آية ٥٤ ـ ٥٦ ، تكوين ٤١/١ ـ ٤٤ .

(٢) تكوين ٤١/٤٠ ـ ٤٤ .

(٣) ربما كان الصديق ، حدسا عن غير يقين ، يشرف على ما كان يسمى فى مصر القديمة ، مصلحة الحقول والخزانة ، فاما مصلحة الحقول : فكان يتبعها الاراضى الزراعية على ضفاق النيل ، فضلا عن تلك التى تقع على حافة الصحراء والمحيطة بالمقابر والاهرامات الملكية ، وأما مصلحة الخزانة ، وكانت تسمى بيت المال الابيض (بر ـ حج) ويتولى ادارتها ، تحت اشراف الوزير ، مدير البيت الابيض المزدوج ، ولها فروع فى الاقاليم ، كما كانت تنقسم الى قسمين : بيت الذهب وبيت الشونة . (أنظر : محمد بيومى مهران : الحضارة المصرية ـ الاسكندرية ١٩٨٤ ص ١٢٩) ، غير أن المؤكد أن يوسف كان يشغل منصب العزيز ، كما وصف فى القرآن (سورة يوسف : آية ٧٨) .

«أسنات بنت فوطى فارع» كاهن أون (عين شمس) ، ومنها أنجبت ولديه منسى وأفرايم[٤] ، وأن زوجته المصادر العربية من امرأة العزيز التى راودته عن نفسه من قبل ، وقد أسموها راعيل أو زليخا ، بعد أن شغل منصب زوجها كذلك ، بسبب موته أو اعفائه من منصبه[٥] .

ولعل سائلا يتساءل : أليس فى قول يوسف عليه السلام : «اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم» أمران محظوران فى الاسلام ، أولهما : طلب التولية وهو محظور بقول الرسول ﷺ «انا والله لا نولى هذا العمل أحدا سأله أو حرص عليه» (متفق عليه) ، وأنه ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة : يا عبد الرحمن لا تسأل الامارة ، فانك ان أوتيتها عن مسألة وكلت اليها ، وان أوتيتها من غير مسألة أعنت عليها» ، وثانيهما : تزكية النفس ، وهى محظورة بقوله تعالى « فلا تزكوا أنفسكم»[٦] .

وقد ذهب بعض المفسرين الى أن يوسف انما طلب الولاية رغبة فى العدل ، واقامة الحق والاحسان ، وليس هو من باب التزكية للنفس ، وانما هو للاشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية[٧] ، وذهب أبو السعود فى تفسيره[٨] الى أنه قال « اجعلنى على خزائن الارض» أى أرض مصر[٩] وولنى أمرها من الايراد والصرف ، انى حفيظ لهما ممن لا يستحقها ، عليم بوجود التصرف فيهما ، وفيه دليل

---

(٤) تكوين ٤١/٤٥ ، ٥٠ ــ ٥٢ .

(٥) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٦ ، تفسير النسفى ٣/٢٢٨ ، تفسير الخازن ٣/٢٩٣ ، تاريخ الطبرى ١/٣٤٧ : تاريخ ابن خلدون ٢/٤٥ ، الكامل فى التاريخ لابن الاثير ١/٨٣ ، البداية والنهاية لابن كثير ١/٢١٠ .

(٦) فى ظلال القرآن ٤(٢٠٠٦) ، تفسير الخازن ٣/٢٩٢ .

(٧) صفوة التفاسير ١/٥٧ .

(٨) تفسير أبى السعود ٤/٢٨٦ .

(٩) قال الامام القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى «قال اجعلنى على خزائن الارض» ، قال سعيد بن منصور : سمعت مالك بن انس يقول ــ مصر خزانة الارض ، أما سمعت الى قوله «اجعلنى على خزائن الارض» أى على حفظها (تفسير القرطبى ص ٣٤٤٢ ط الشعب ــ القاهرة ١٩٧٠) .

على جواز طلب الولاية ، اذا كان الطالب ممن يقدر على اقامة العدل واجراء أحكام الشريعة ، وان كان من يد الجائر أو الكافر ، وقيل ان الملك أسلم ، وقال الخازن فى تفسيره : يكره طلب الامارة اذا لم يتعين عليه طلبها ، فاذا تعين وجب عليه ولا كراهية عليه ، وأما يوسف فكان عليه طلب الامارة لانه مرسل من الله تعالى ، والرسول أعلم بمصالح الامة من غيره ، واذا كان مكلفا برعاية المصالح ولا يمكنه ذلك الا بطلب الامارة وجب عليه طلبها ، وهنا فى طلب الامارة ، بسبب ما سيحدث من قحط ، ايصال الخير للمستحقين فيجب طلبها(١٠) .

وذهب الامام النسفى فى تفسيره الى أن يوسف عليه السلام وصف نفسه فى قوله «اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم» ، بالامانة والكفاية وهما طلبة الملوك ممن يولونهم ، وانما قال ذلك ليتوصل الى امضاء أحكام الله واقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لاجله بعث الانبياء الى العباد ، ولعلمه أن أحدا غيره لا يقوم مقامه فى ذلك فطلبه ابتغاء وجه الله ، لا لحب الملك والدنيا ، وفى الحديث «رحم الله أخى يوسف لو لم يقل اجعلنى على خزائن الارض لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك سنة» ، قالوا وفيه دليل على أنه يجوز أن يتولى الانسان عمالة من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة الظلمة ، واذا علم النبى أو العالم أنه لا سبيل الى الحكم بأمر الله ودفع الظالم ، الا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق فله أن يستظهر به(١١) وأما ابن كثير فيذهب الى أنه يجوز للرجل أن يمدح نفسه ، اذا جهل أمره ، للحاجة ، ولهذا قال يوسف انه حفيظ ، أى خازن أمين ، وعليم ، أى ذو علم وبصيرة بما يتولاه ، ومن ثم فقد طلب يوسف من الملك أن يوليه النظر فيما يتعلق بالاهراء لما يتوقع من حصول الخلل بعد مضى سبع سنى الخصب لينظر فيها بما يرضى الله فى خلقه من الاحتياط لهم والرفق بهم ، وأخبر الملك انه حفيظ أى قوى على حفظ ما لديه ،

---

(١٠) تفسير الخازن ٢٩٢/٣ .
(١١) تفسير النسفى ٢٢٧/٢ .

أمين عليه ، عليم بضبط الاشياء ومصالح الاهراء ، وفى هذا دليل على جواز طلب الولاية لمن علم من نفسه الامانة والكفاية(١٢) .

هذا ويتجه صاحب الظلال الى أننا لانريد أن نجيب بأن هذه القواعد (عدم طلب التولية وعدم تزكية النفس) انما تقررت فى النظام الاسلامى على عهد سيدنا محمد رسول الله ﷺ ، وأنها لم تكن مقررة على أيام يوسف عليه السلام ؛ والمسائل التنظيمية فى هذا الدين (الاسلام) ليست موحدة كأصول العقيدة الثابتة فى كل رسالة وعلى يد كل رسول ، لا نريد أن نجيب بذلك ، وان كان له وجه ، لان الامر يرتكن الى اعتبارات أخرى لابد من ادراكها لادراك منهج الاستدلال من الاصول والنصوص ، ذلك لان يوسف عليه السلام لم يكن يعيش فى مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس ، وعدم طلب الامارة ، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكما مطاعا ، لا خادما فى وضع جاهلى ، وكان الامر كما توقع فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ونشره فى مصر فى أيام حكمه ، وقد توارى العزيز ، وتوارى الملك تماما(١٣) .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن هناك من يزعم أن يوسف عليه السلام ، قد استقل بملك مصر ، اعتمادا على قول يوسف فى دعائه «رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الاحاديث» ولا دليل لهم فى ذلك ، فيما يرى ابن خلدون ، لان كل من ملك شيئا ، ولو فى خاصة نفسه ، فاستيلاؤه يسمى ملكا ، حتى البيت والفرس والخادم ، فكيف من ملك التصرف ، ولو كان فى شعب واحد منها ، فهو ملك ، وقد كان العرب يسمون أهل القرى والمدائن ملوكا(١٤) ، فما ظنك بوزير مصر

---

(١٢) تفسير ابن كثير ٢/٢٥٤ (المختصر) ، البداية والنهاية ١/٢١٠ ، وانظر تاريخ الطبرى ١/٣٤٧ .

(١٣) فى ظلال القرآن ٤/٢٠٠٦ ، ٢٠١٣ .

(١٤) تشير نصوص فرعون مصر تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) على أنه حارب فى موقعة مجدو حوالى عام ١٤٦٨ ق.م ، أعداءه

لذلك العهد ، وفى تلك الدولة ، وأما الذين يستدلون بقوله تعالى «وكذلك مكنا ليوسف فى الارض» ، فهو ليس بدليل أيضا ، لان التمكين يكون بغير الملك ، ونص القرآن انما هو بولايته على أمور الزرع فى جمعه وتفريقه ، كما قال تعالى «اجعلنى على خزائن الارض انى حفيظ عليم» ، ومساق القصة كلها أنه مرؤس فى تلك الدولة بقرائن الحال كلها ، لا مايتوهم من تلك اللفظة الواقعة فى دعائه ، فلا نعدل عن النص المحفوف بالقرائن الى هذا المتوهم الضعيف ، وأيضا فالقصة فى التوراة[١٥] قد وقعت صريحة فى أنه لم يكن ملكا ، ولا صار اليه ملك ، وأيضا فالامر الطبيعى من الشوكة والقطامة له يدفع أن يكون حصل له ملك ، لانه انما كان فى تلك الدولة قبل أن يأتى اليه اخوته منفردا لا يملك الا نفسه ، ولا يتأتى الملك فى هذا الحال[١٦] ، هذا فضلا عن أن جمهرة المؤرخين والمفسرين انما تذهب الى أنه كان أشبه بوزير التموين أو المالية أو ما يشبه ذلك ، مما يفهم منه أنه كان المسئول عن جمع الغلال وحفظها فى الاهراء فى سنوات الرخاء ، وحسن استخدامها فى أعوام المجاعة[١٧] .

ولعل من الاهمية بمكان الاشارة الى أن التاريخ المصرى انما يصدق الاحداث التى أتت بيوسف عليه السلام الى منصبه ، ذلك أن مصر انما كانت عرضة للمجاعات ، وفترات من تدهور الانتاج الزراعى والحيوانى

=

من ملوك سورية بزعامة أمير قادش ، وعددهم ٣٣٠ ملكا وأميرا ، مع كل منهم جيشه الخاص ، وقد انتصر عليهم ، كما تشير نصوص شلمنصر الثالث الاشورى أنه حارب فى موقعة قرقر عام ٨٥٣ ق.م حلفا من الامراء السوريين يضم اثنى عشر ملكا على رأسهم بنحدد ملك دمشق ، كما اعتاد العرب تسمية حكام القرى والمدائن ملوكا مثل هجر ومعان ودومة الجندل ، وكان ولاة الاطراف وعمالها فى الخلافة العباسية يسمون ملوكا .

(١٥) تكوين ٤١/٣٣ ـ ٥٧ .

(١٦) تاريخ ابن خلدون ٢/٤٧ .

(١٧) أنظر : تاريخ الطبرى ١/٣٤٧ ـ ٣٤٨ ، الكامل لابن الاثير ١/٨٣ ـ ٨٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١/٢١٠ ، صفوة التفاسير ٢/٥٧ ، تفسير أبى السعود ٤/٢٨٦ ، تفسير الخازن ٣/٢٩٢ .

على مر العصور ، وقد كان ذلك فى أغلب الاحايين من آثار اضطراب النيل وامتناع فيضه ، واخلاله بالوفاء ، كما تعود وتعود منه الناس كل عام ، فاذا تدهو وأقام على نقائصه لم تكد مياهه تصل الى الارض التى تتحرق شوقا اليه ، وتنتظر العام كله ، أو جله ، للقائه ، فعندئذ فلا رى ولا استنبات ، ثم لا زرع ولا ضرع ، فتكون الكارثة التى تنزل بالبلاد والعباد[18] .

والتاريخ يحدثنا أن الله تعالى ما جعل بلدا فى العالم ، تتوقف حياته ووجوده ، مصيره ومستقبله ، فى السلم أو فى الحرب ، أو يرتبط سكانه وتاريخه بنهر ، مثلما تفعل مصر والنيل ، ومن ثم فاذا بالغ النيـل فى فيضه أحيانا ، فتعظم أمواهه وتضرى أمواجه ، فاذا هو يندفع طوفانا عنيفا مدمرا مغرقا كل شىء ، ثم لا يكاد ينحسر عن الارض الا وقـد انقضى من أوان البذر وقت قد يكون على الانتاج أيام الحصاد سىء المسغبة ، وان لم يبلغ ذلك فى سوئه مبلغ نقص الماء ، ذلك أن النهر ان هبط معدله الطبيعى ، فهى «الشدة» التى قد تصل الى «المجاعة» واذا كان الفيض المغرق يعنى الطاعون ، فان المجاعة كانت تعنى «الموتان» الذى يصل الى حد ينتشر معه الطاعون بدوره بعد ذلك حتى يتناقص السكان بدرجة مخيفة[19] .

على أن انحباس النيل ونضوب موارد الدولة ، انما كان وثيق الصلة بما كان ينزل بها من الضعف السياسى ، وتحلل السلطة المركزية ، وتدهور الامن واضطراب النظام ، فيكون شيوع الفساد وانتشار الجريمة مع القحط والجوع ، شرا مستطيرا ، وشقاء متصلا ، يحل بالناس فيترك

---

(18) انظر : تفسير ابن كثير ٣٢١/٤ ، تفسير القرطبى ص ٣٤٤٦ـ ٣٤٤٧ ، تفسير الطبرى ١٤٨/١٦ ـ ١٥٢ ، تفسير النسفى ٢٢٨/٢ ؛ أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٥٥ ، تفسير الجلالين ص ٣١١ ـ ٣١٢ ، صفوة التفاسير ٥٧/٢ .

(19) جمال حمدان : شخصية مصر ـ القاهرة ١٩٧٠ ص ٢٤١ ـ ٢٤٥ .

فى نفوسهم وعقولهم أثرا لا يمحى أو لا يكاد يمحى[٢٠] .

ويقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة لانخفاض النيل فى مصر قبل وبعد عصر يوسف الصديق عليه السلام ، وما ينتج عن ذلك من كوارث اقتصادية ، ومن أشهر الامثلة ما حدث على أيام الثورة الاجتماعية الاولى (الاسرات ٧ — ١٠) يقول «نفرتى» : لقد جف نيل مصر حتى ليخوضه الناس بالقدم ، وسوف يبحث الناس عن الماء لتجرى عليه السفن فيجدوا أن الطريق قد صار شاطئا ، وأن الشاطىء قد صار ماء»[٢١] ، ومن ثم فقد رأينا من نفس الفترة شريفا من الصعيد هو «عنخ تفى» حاكم «نخن» (البصيلية — مركز ادفو بمحافظة أسوان) يتحدث عن سنى المجاعة فيقول انه أمد خلالها مدنا أخرى ، الى جانب مدينته ، بالذرات والقمح ، وقد امتدت دائرة نشاطه حتى دندرة ، فى مقابل قنا عبر النهر ، وبذا أنقذ الصعيد الجنوبى الذى كاد يموت جوعا ، وكاد كل رجل فيه أن يغتال أطفاله»[٢٢] .

على أن المصريين قد اكتسبوا من ذلك حكمة التجربة وحسن التدبير، اذ كانوا يدخرون غلة الارض من أيام الرى لايام الجفاف ، ومن يسرهم لعسرهم ، ومن رخائهم لشدتهم ، وكانت حكمة الملوك والامراء وحكام الاقاليم وحسن تدبيرهم خليقا أن يخفف عن الرعية بما كانوا يصنعون[٢٣] ، ومن ثم فقد رأينا «خيتى» أمير أسيوط على أيام الاهناسيين يتحدث عن جهوده فى القضاء على الازمة الاقتصادية ، بأن قدم هدية لمدينته بأن حفر ترعة ليروى الفلاحون منها أرضهم ويسقوا زرعهم ، ثم يقول : اننى غنى بقمح الشمال حيث كانت الارض فى جفاف ، وعندما شحت أقوات البلاد أمددت المدينة بالحبوب والخبز ، وسمحت لكل مواطن بأن يأخذ نصيبه ونصيب زوجته ، وقد أعطيت

(٢٠) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٥٦ .
(٢١) A. Erman, LAE, 1927, p. 113.
(٢٢) A. Gardiner, Egypt of The Pharaohs, 1961, p. 111.
(٢٣) أحمد عبد الحميد يوسف : المرجع السابق ص ٥٧ — ٥٨ .

الارملة وولدها ، وتجـاوزت عن الضرائب التى فرضها أبى ، وملأت المراعى بالمواشى(٢٤)،وفى مدينة الكاب مقابل البصيلية عبر النهر ، نرى أميرها «ببى» من الاسرة الثالثة عشرة ، التى سبقت قليلا جدا عصر الصديق ، وربما عاصرت أوائله من أيام الهكسوس ، يقول «لقد كنت أكدس القمح الجيد المطلوب ، وكنت يقظا فى فصل البذر ، فلما وقعت المجاعـة على مدى الكثـير من السنين أعطيت مدينتى القمـح فى كل مجـاعة»(٢٥) .

على أن العلماء على كثرة ما قـرأوا من أخبار المجـاعات فى مصر القديمة(٢٦) ، انما يقفون خاصة موقف الفاحص فى مجاعة نقشت أخبارها على الصخر من جزيرة سهيل جنوبى أسوان ، ولئن كان الخبر منسوبا الى أيام الملك «زوسر» من الاسرة الثالثة ، فالذى لاشك فيه انما نقش بعده بعشرين قرنا من الزمان ، نقشه كهان «خنوم» على عهد البطالمة ، ربما عام ١٨٧ ق٠م على أيام بطليموس الخـامس ، وربما بطليموس العاشر فى أكبر الظن ، أى فى الفترة (١٠٧ ــ ٨٨ ق٠م) ، وغير بعيد

---

(٢٤) محمد بيومى مهران : الثورة الاجتماعية الاولى ــ الاسكندرية ١٩٩٦ ص ١٢٨ ــ ١٢٩ .
وكذا J. Vandier, La Famine dans l'Egypte Ancienne, le Caire, 1936, p. 101 F.
J. H. Breasted, ARE, I, 1906, p. 181.
(٢٥) J. Vandier, op. cit., p. 114.
(٢٦) تعرضت مصر لكثير من المجاعات فى العصور الوسطى بسـبب انخفاض النيل ، كالتى حدثت على أيام الامويين فى عام ٨٧ هـ ، وعـلى أيام الاخشيديين فى أعوام ٣٢٩ هـ ، ٣٣٨ ، ٣٤١ هـ ، ٣٤٣ هـ ، ٣٥١ هـ ، ولعل أشهر وابشع المجاعات ما سجل البغدادى أثناء الشدة المستنصرية التى بدأت عام ٤٥٨ هـ ، واستمرت سبع سنين متصلة فى أخريات أيـام الفاطميين ، وبلغ منقسوتها أن أكل الناس القطط والكلاب ، ثم الجيف ، ثم اكلوا بعضهم بعضا ، حتى انتهت بفناء رهيب للسكان ، لايملك قارىء البغدادى الا ان يتصوره فناء كاملا أو شبه كامل (انظر : جمال حمدان : المرجع السابق ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥ ، محمد حمدى المناوى : مصر فى ظـل الاسلام ١٧١/١ ــ ١٧٥ ، الكندى : كتاب الولاة وكتاب القضاء ص ٥٩ (بيروت ١٩٠٨) ، السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ١٥٤/٢) .

أن يكون النص صوتا من واقع بعيد ، يرجع الى أيام الصديق ، وأن كهان خنوم حين كتبوه على عهد بطليموس الخامس أو العاشر ، انما كانوا تحت تأثير ما كان شائعا يومئذ من أصداء السنين السبع الشداد التى جرت بها ألسنة من كان بمصر يومئذ من يهود ، بخاصة وأن الترجمة السبعينية[٢٧] للتوراة كانت قد تمت بمصر على أيام بطليموس الثانى (٢٨٤ — ٢٤٦ ق.م) ، وأن هناك جالية من يهود انما كانت تقيم فى اليفانتين (جزيرة أسوان)[٢٨] وتطل من حيث الموقع على جزيرة سهيل حيث نقش نص المجاعة[٢٩] .

وعلى أية حال ، وأيا ما كان أمر هذه المجاعات التى كانت بسبب عدم فيضان النيل ، فان المجاعة التى كانت ستحدث على أيام الصديق فى عهد الهكسوس ، انما كانت حقيقة لا ريب فيها ، لولا أن تداركت رحمة الله أرض الكنانة بحكمة يوسف عليه السلام ، ومن ثم فقد كانت أيام الصديق فى مصر خيرا كلها . دينا ودنيا ، بل ان وجود يوسف فى مصر حينا من الدهر ، شرف ما بعده شرف ، وأن دعوته كانت رحمة وهداية للمصريين ، ما فى ذلك من ريب ، وأن الصديق عليه السلام قد أنقذ الله به مصر من مجاعة محققة ، كادت تهلك الحرث والنسل ، وأنه قد نشر فى مصر دعوة التوحيد وبث العقيدة الصحيحة ، ما فى ذلك شبهة من شك ، وهكذا حمل الصديق عليه السلام الى مصر نور الايمان وهداية التوحيد ، وعدالة الله ، وكل ما هو خير وطيب من نعم الله التى

---

(٢٧) انظر عن الترجمة السبعينية للتوراة (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٠٧/٣ — ١١٢) .

(٢٨) انظر الجالية اليهودية فى أسوان (محمد بيومى مهران : اسرائيل ١٠٧٦/٢ — ١١٠٢) .

(٢٩) انظر عن نقش المجاعة على جزيرة سهيل : محمد بيومى مهران : مصر ٣٦٣/١ — ٣٦٦ ، اسرائيل ٢٢٧/١ — ٢٢٩ ، وكذا
P. Barguet, la Stele de la Famine o Sahel, Cairo, 1953.
وكذا J. Vandier, op. cit., p. 132-139.
وكذا J. A. Wilson, ANET, 1966, p. 31-32.

يجزيها ، سبحانه وتعالى ، على أيدى المصطفين الاخيار من أنبيائه الكرام البررة •

٢ ـ عصر يوسف عليه السلام :

لعل من الاهمية بمكان ونحن نقدم دراسة تاريخية فى المقام الاول ، أن نحاول تحديد العصر الذى شرفت فيه أرض الكنانة بوجود يوسف الصديق عليه السلام بين ربوعها نبيا رسولا[٣٠] ، قبل أن يكون على خزائن الارض أمينا •

ولعل من الافضل ــ بادىء ذى بدء ــ أن نشير الى أن التوراة والقرآن العظيم انما قد أشارا ، الى أن يوسف الصديق عليه السلام ، قد استدعى أباه واخوته للاقامة معه فى مصر ، يقول تعالى « اذهبوا بقميصى هذا فألقوه على وجه أبى يأت بصيرا ، وأتونى بأهلكم أجمعين»[٣١] •

هذا وتكشف صياغة التوراة لدعوة يوسف أباه واخوته للاقامة فى مصر عن مطامع بنى اسرائيل فى مصر ، تقول التوراة «خذوا أباكم وبيوتكم (خيامكم) وتعالوا الى فأعطيكم خيرات أرض مصر ، وتأكلون دسم الارض ••• خذوا لكم من أرض مصر عجلات لاولادكم ونسائكم واحملوا أباكم وتعالوا ، ولا تحزن عيونكم على أثاثكم ، لان خيرات جميع أرض مصر لكم»[٣٢] ، كما أن التوراة لم تهمل أيضا أن تؤكد أن رحلة هؤلاء المجهدين الجياع الى مصر المضيافة ــ دائما وأبدا ان شاء

(٣٠) يقول صاحب الظلال (٥/٣٠٨١) فى تفسيره لقوله تعالى «ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ، فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا» (غافر : آية ٣٤) : أن هذه هى المرة الوحيدة فى القرآن التى يشار فيها الى رسالة يوسف عليه السلام ، للقوم فى مصر ، وقد عرفنا من سورة يوسف أنه قد وصل الى أن يكون على خزائن الارض أمينا ، المتصرف فيها ، وانه أصبح عزيز مصر•

(٣١) سورة يوسف : آية ٩٣ •

(٣٢) تكوين ٤٥/١٨ ــ ٢٠ •

الله — انما كانت للقوت ، ولكنها تؤكد كذلك أنها لتحقيق مؤامرة على الارض الطيبة التى استضافتهم[٣٣] .

وعلى أى حال ، فان يعقوب عليه السلام ، سرعان ما يصل الى مصر ، ويصف القرآن الكريم لقاء يوسف بأبيه واخوته فى قوله تعالى «فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ، وقال ادخلوا مصر ان شاء الله آمنين ، ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا ، وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا ، وقد أحسن بى اذ أخرجنى من السجن وجاء بكم من البدو ، بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين اخوتى، ان ربى لطيف لما يشاء انه هو العليم الحكيم ، رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والارض أنت ولى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما والحقنى بالصالحين»[٣٤] .

هذا وتذهب التوراة الى أن يعقوب عليه السلام انما جاء الى مصر ، ومعه كل أفراد أسرته «ست وستون نفسا» ، فضلا عن نساء بنى يعقوب ، وولدى يوسف ، «جميع نفوس بيت يعقوب التى جاءت الى مصر سبعون»[٣٥] .

ويستقر بنو اسرائيل فى شرق الدلتا فى أرض جوشن (جسم أو جاسام ، كما قرئ اسمها فى النصوص المصرية)[٣٦] أو أرض جاسان

---

(٣٣) تكوين ٤٦/١ — ٤ .
(٣٤) سورة يوسف : آية ٩٩ — ١٠١ ، وانظر : تفسير الطبرى ١٦/ ٢٦٤ — ٢٧٧ ، تفسير الطبرسى ١٣/١١٨ — ١٢٦ ، تفسير الكشاف ٢/ ٥٠٤ — ٥٠٧ ، تفسير ابن كثير ٤/٣٣٤ — ٣٣٧ ، تفسير الفخر الرازى ١٧/٢١٠ — ٢١٧ ، تفسير القرطبى ص ٣٤٩٢ — ٣٤٩٤ ، الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للسيوطى ٤/٢٧ — ٤٠ ،تفسير النسفى ٤/٣٤٥ — ٢٤٠ ،تفسير أبى السعود ٤/٢٩٣ — ٢٩٥ ، صفوة التفاسير ٢/٦٨ — ٦٩ ، محمد رشيد رضا : تفسير سورة يوسف ص ١٢٦ — ١٣٠ ، فى ظلال القرآن ٤/٢٠٢٧ — ٢٠٢٨ .
(٣٥) تكوين ٤٦/٢٦ — ٢٧ .
(٣٦) P. Montet, l'Egypte et la Bible, Paris, 1959, p. 57.

كما في التوراة (وتقع في وادي طميلات الذي يمتد من فرع النيل الشرقي أو البيلوزي ، متجها نحو الشرق حتى بحيرة التمساح)(٣٧) ، ولعل في اختيار هذا المكان ، الى جانب جودته ، روعى فيه قربه من حدود مصر الشرقية ، وسيناء المطلة على أرض كنعان ، حيث ورد يعقوب وبنوه . كي يقيموا ما أحبوا الاقامة ، ويرحلوا متى شاءوا الرحيل(٣٨) .

وأما متى كان عصر يوسف عليه السلام في مصر ؟ :

فالواقع أن ذلك كان موضع جدل طويل بين العلماء ، ومن ثم فهم يختلفون في تحديد عصر يوسف عليه السلام ، وبالتالي في وقت دخول بني اسرائيل مصر ، ولعل السبب الاساسي في ذلك ، أن التوراة والقرآن العظيم ، لم يحددا وقتا لدخول الصديق عليه السلام أرض الكنانة ، بل انهما حتى لم يذكرا اسم الملك الذي عاصر يوسف عليه السلام .

هذا فضلا عن أن مصر — وهي البلد الوحيد الذي كان يأمل العلماء أن يجدوا فيه وثائق معاصرة للاحداث التي جاءت في التوراة والقرآن العظيم — مصر هذه لم تشر أبدا الى هبوط بني اسرائيل اليها ، بل ليست هناك أية اشارة في التاريخ المصري القديم الى اسرائيل ، قبل عصر الملك «مرنبتاح» (١٢٢٤ — ١٢١٤ ق.م) ، حيث جاء ذكر اسرائيل على اللوح المعروف باسم «لوح اسرائيل» ، والذي عثر عليه «بتري» عام ١٨٩٦م في معبد مرنبتاح الجنازي في طيبة الغربية(٣٩) .

---

(٣٧) خروج ١٨/٨ — ٣٦/٩ .

وكذا M. Noth, The History of Israel, London, 1965, p. 113.

وكذا M.F. Unger, Unger's Bible Dictionary, Chicago, 1970, p. 420.

(٣٨) كمال عون : اليهود من كتابهم المقدس — القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٥٨ .

(٣٩) انظر عن لوح اسرائيل :

وكذا J. Wilson, in ANET, 1966, p. 376-378.

وكذا J. H. Breasted, in RAE, III, p. 165-166.

وكذا E. Naville, in JEA, 2, 1915, p. 196.

وكذا J. Legrain, in ASAE, 2, 1902, p. 269-279.

وكذا C. Kuents, in BIFAO, 21, 1923, p. 113-17.

ومن هنا كان الخــلاف بين العلماء على تحــديد عصر يوسف عليه السلام ، فهناك من يذهب الى أنه ، عليه السلام ، قد هبط مصر على أيام الهكسوس (حوالى ١٧٢٥ ــ ١٥٧٥ ق•م) ، وهناك من يذهب الى أن ذلك انمــا كان على أيام الفــرعون «أمنحتب الثــانى» (١٤٣٦ ــ ١٣١٣ ق• م) •

والرأى عندى أن عصر يوسف الصديق عليه السلام ، انما كان على أيام الهكسوس ، وقد ناقشنا هذا الرأى بالتفصيل ، وقدمنا له بمــا يدعمه من الأدلة التاريخية والدينية فى دراسات سابقة لنا(٤٠) •

---

(٤٠) أنظر : محمد بيومى مهــران : اسرائيل ــ الكتاب الاول ــ الاسكندرية ١٩٧٨ ص ٢٤٩ ــ ٢٥٩ ، دراسات تاريخية من القرآن الكريم ــ الكتاب الثانى ــ مصر ــ بيروت ١٩٨٨ •

فهـــرس الموضوعات

البَابُ الأول

عصر التـــاسيس

الفصل الاول :

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الباب الثانى

الدولة القديمة

الفصل الاول :

الباب الثالث

عصر الثورة الاجتماعية الاولى

الباب الخامس

عصر الانتقال الثانى

الفصل الثانى :

الفصل الثالث :

الباب السادس

قصة يوسف عليه السلام فى مصر

الفصل الاول :

الفصل الثانى :

مؤلفـــــات

الاستاذ الدكتور محمد بيومى مهران
أستاذ تاريخ مصر والشرق الأدنى القديم
ورئيس قسم التاريخ والاثار المصرية والاسلامية
بكلية الآداب ـ جامعة الاسكندرية

أولا : فى التاريخ المصرى القديم :

١ ـ الثورة الاجتماعية الاولى فى مصر الفراعنة — الاسكندرية ١٩٦٦

٢ ـ مصر والعالم الخارجى فى عصر رعمسيس الثالث — الاسكندرية ١٩٦٩

٣ ـ حركات التحرير فى مصر القديمة ـ دار المعارف — القاهرة ١٩٧٦
(وهو الجزء الثالث من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٤ ـ اخناتون : عصره ودعوته — الاسكندرية ١٩٧٩
(وهو الجزء الرابع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٥ ـ مصر الكتاب الاول ـ التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٢

٦ ـ مصر الكتاب الثانى ـ التاريخ — الاسكندرية ١٩٨٤
وهما الجزءان الاول والثـــانى من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ٠

٧ ـ الحضارة المصرية القديمة — الاسكندرية ١٩٨٤
(وهو الجزء الخامس من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

ثانيا : فى تاريخ اليهود القديم :

٨ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (١) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٢ — الاسكندرية ١٩٧٠

٩ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٤ — الاسكندرية ١٩٧٠

١٠ ـ دراسات فى تاريخ اليهود القديم ـ التوراة (٣) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٥ — الاسكندرية ١٩٧٠

١١ ـ قصة أرض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (١) مجلة الاسطول ـ العدد ٦٦ — الاسكندرية ١٩٧١

١٢ ـ قصة ارض الميعاد بين الحقيقة والاسطورة (٢) ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٧ الاسكندرية ١٩٧١

١٣ ـ النقاوة الجنسية عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٨ الاسكندرية ١٩٧١

١٤ ـ اخلاقيات الحرب عند اليهود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٦٩ الاسكندرية ١٩٧١

١٥ ـ التلمود ـ مجلة الاسطول ـ العدد ٧٠ الاسكندرية ١٩٧٢

١٦ ـ اسرائيل : الكتاب الاول ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
(وهو الجزء السابع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٧ ـ اسرائيل ـ الكتاب الثانى ـ التاريخ الاسكندرية ١٩٧٨
(وهو الجزء الثامن من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٨ ـ اسرائيل ـ الكتاب الثالث ـ الحضارة الاسكندرية ١٩٧٩
(وهو الجزء التاسع من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

١٩ ـ اسرائيل ـ الكتاب الرابع ـ الحضارة
(وهو الكتاب العاشر من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم)

٢٠ ـ النبوة والانبياء عند بنى اسرائيل الاسكندرية ١٩٧١

ثالثا : فى تاريخ العرب القديم :

٢١ ـ الساميون والاراء التى دارت حول موطنهم الاصلى
مجلة كلية اللغة العربية ـ العدد الرابع الرياض ١٩٧٤

٢٢ ـ العرب وعلاقاتهم الدولية فى العصور القديمة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ العدد السادس الرياض ١٩٧٦

٢٣ ـ مركز المرأة فى الحضارة العربية القديمة
مجلة كلية العلوم ـ جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ـ العدد الاول الرياض ١٩٧٧

٢٤ ـ دراسات فى تاريخ العرب القديم
(وهو الجـــزء السادس من سلسلة دراسات فى تاريخ الشرق الادنى القديم ٠ وقد أصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ، تحت رقم (١) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٧٧

٢٥ ــ دراسات تاريخية من القرآن الكريم ، الجزء الاول فى بلاد العرب (اصدرته جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية ــ تحت رقم (٢) من المكتبة التاريخية) الرياض ١٩٨١

٢٦ ــ دراسة حول الديانة العربية القديمة الاسكندرية ١٩٧٨

٢٧ ــ العرب والفرس فى العصور القديمة الاسكندرية ١٩٧٨

٢٨ ــ دراسات فى الحضارة العربية القديمة تحت الطبع

٢٩ ــ الفكر الجاهلى ، المجلس الاعلى للثقافة القاهرة ١٩٨٢
(بحث فى كتاب الحضارة الاسلامية على مدى أربعة عشر قرنا)

رابعا : فى تاريخ العراق القديم :

٣٠ ــ قصة الطوفان بين الاثار والكتب المقدسة
مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية ــ العدد الخامس
الرياض ١٩٧٥

٣١ ــ قانون حمورابى واثره فى تشريعات التوراة الاسكندرية ١٩٧٩

٣٢ ــ المدخل فى تاريخ الشرق الادنى القديم ــ (بالاشتراك مع الاستاذ الدكتور رشيد الناضورى)، (جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية) .

خامسا : دراسات تاريخية من القرآن الكريم :

الجزء الاول : فى بلاد العرب بيروت ١٩٨٨

الجزء الثانى : فى مصر بيروت ١٩٨٨

الجزء الثالث : فى بلاد الشام بيروت ١٩٨٨

الجزء الرابع : فى العراق بيروت ١٩٨٨

سادسا : فى رحاب النبى وآل بيته الطاهرين :

الجزء الاول : السيرة النبوية الشريفة تحت الطبع

الجزء الثانى : السيرة النبوية الشريفة تحت الطبع

الجزء الثالث : السيدة فاطمة الزهراء تحت الطبع

الجزء الرابع : الامام على بن أبى طالب تحت الطبع

الجزء الخامس : الامام الحسن بن على تحت الطبع

الجزء السادس : الامام الحسين بن على تحت الطبع